1958

مكتبة نوبل

بوريس باسترناك

دكتور جيفاكو





الدكتور جيفاكو



مكتبة نوبل

Author:Boris Pasternak	اسم المؤلف : بوريس بسترناك
Title:Doctor Zhivago	عنوان الكتاب : الدكتور جيفاكو
Translator:Elit of arab Literates	المترجم : نخبة من الادباء العرب
Al- Mada P.C.	الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
First Edition :year 1959	الطبعة الأولى : سنة ١٩٥٩
Second Edition :year 2001	الطبعة الثانية : سنة ٢٠٠١

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy ، البريد الالكتروني

١٩٥٨

مكتبة نوبل

بوريس بسترناك

الدكتور جيفاكو

ترجمة

نخبة من الادباء العرب

أهم أشخاص هذه الرواية

يوري اندرييفيتش جيفاكو (وكان يدعى في طفولته "يورا" وللتحبب "يوروشكا") ابن اندريه جيفاكو المتلاف، وماريا نيكولا يفنا جيفاكو.

ايفغراف اندرييفتش جيفاكو، شقيقه من أبيه والأميرة ستولبونوفا - انريكي. نيكولاي نيكولايفيتش فيدينيابين (الخال كوليا)، خاله.

انتونينا الكسندروفنا غروميكو (تونيا) ابنة الكسندر الكسندروفيتش غروميكو استاذ الكيمياء وزوجته آنا ايفانوفنا التي كان أبوها ايفان ارنستوفيتش كروجر حداداً وصاحب املاك.

وكان يوري جيفاكو وميشا غوردون ابن أحد المحامين يعيشان وهما صغيران مع عائلة غروميكو.

لاريسا فيودوروفنا غيشار (لارا) ابنة ارملة فرنسية عاشت في روسيا تدعى اماليا كارلوفنا غيشار. روديون (روديا) أخوها الأصغر.

فيكتور ايبوليتوفيتش كوماروفسكي محامي اندريه جيفاكو وعشيق السيدة غيشار ومستشارها.

لافرنتي ميخايلوفيتش كولوغريفوف صناعي ثري، زوجته سيرافينا فيليبوفنا، ابنتاهما ناديا وليبا.

بافل بافلوفيتش انتيبوف (باشا، باشنكا) ابن عامل في سكة الحديد يدعى بافل فيرابونتوفيتش انتيبوف. يعيش بعد أن نفي أبوه إلى

سيبيريا ، مع عائلة تيفرزين (كوبريان سافيفتش وأمه مارفا غافريلوفنا) وهي عائلة ثورية أخرى بين عمال سكك الحديد.

اوسيب جيمازيت دينوفيتش غاليولين (يوسويكا) ابن جيماذدين، بواب البناية التي تقطنها عائلة تيفرزين - وهو مسلم.

اينونتي دودوروف (نيكا) ابن دفنتسيي دودوروف الارهابي الثوري واحدى اميرات جورجيا.

ماركل بوف، بواب بيت غروميكو، وابنته مارينا (مارينكا).

القسم الأول

الفصل الاول
قطار الساعة الخامسة

١

راحوا في سيرهم يرتلون "الراحة الأبدية"، وحينما كانوا يتوقفون بدت أقدامهم، وجيادهم، وهبات الريح، كأنها تردد انشادهم.

وأخلى المارون الطريق للموكب، وعدّوا الجماعة ثم رسموا شارة الصليب على صدورهم. وتساءل بعضهم، بدافع حب الاستطلاع: "من الذي يُدفن؟" فأجيبوا: "جيفاكو" ـ اوه ـ جيفاكو؟" ـ "ليس هو، بل زوجته" ـ "حسناً، لا فرق، لترقدْ روحها بسلام، انها جنازة جميلة."

وانسابت الدقائق، واحدة تلو الأخرى، دون رجعة. وردد الكاهن وهو يرسم شارة الصليب وينثر التراب فوق جسم ماريا نيكولايفنا: "له الأرض وما فوقها، الأرض وما فيها.". ثم انشدوا "ارواح الاتقياء". وجرت بعد ذلك حركات مهيبة، فأقفل التابوت. ثم دقت المسامير، وانزل إلى الحفرة. وتهاوى التراب فوق الغطاء، فيما كانت أربعة معاول تردم القبر على عجل. وارتفعت تلة صغيرة. وتسلق عليها طفل في العاشرة من عمره. وكانت حالة الذهول وتبلد الشعور التي تحدث عادة في الجنازات الكبرى، هي وحدها التي دلّتَ على أنه أراد أن يقول شيئاً فوق ضريح أمه.

ورفع رأسه وسرّح نظره، من المرتفع الذي وقف عليه، في الطبيعة التي عرّاها الخريف، وفي قباب الدير. وتقلصت اسارير وجهه، وانتفخ انفه، واشرأبت عنقه. ولو كان جرو ذئب قد فعل ذلك لظن الجميع أنه

على وشك أن يجأر. وغطى الطفل وجهه بيديه واجهش بالبكاء. ومسحت الريح النازلة عليه وجهه ويديه بقطرات باردة من المطر. وصعد إلى القبر رجل يرتدي السواد ويشد يديه بإزاره. كان ذلك الرجل نيكولاي نيكولايفيتش فيدينيابين، شقيق المرأة المتوفاة وخال الطفل المنتحب، وهو كاهن سابق سُمح له بأن يخلع الثوب بناء على طلبه.
وسار نحو الصبي وقاده خارج المقبرة.

٢

وامضيا الليل في الدير، حيث كان الخال نيكولاي قد أعطي غرفة تقديراً لخدمته السابقة. وكانت تلك ليلة عيد دخول السيدة العذراء وكان عليهما أن ينتقلا في اليوم التالي جنوباً إلى إحدى المدن الريفية على ضفاف نهر الفولغا حيث كان الخال نيكولاي يعمل في احدى الصحف التقدمية المحلية. وكانا قد اشتريا تذكرتين للسفر، وحقائبهما لاتزال محزومة في الغرفة. وكانت محطة القطار قريبة من هناك، فأمكنهما ذلك أن يسمعا انين المحركات من ذلك البعد.

كان الطقس بارداً جداً تلك الليلة. وكانت نافذتا الغرفة على مستوى الأرض، وقد اطلتا على زاوية مهجورة من جنينة المطبخ، وعلى قسم من الطريق العام حيث تجمدت بعض بقع المياه، وعلى ذلك المكان من باحة الكنيسة حيث دفنت ماريا نيكولايفنا في ذلك النهار. ولم يكن هناك في حديقة المطبخ الا شجيرات الاكاسيا المتشابكة قرب الحيطان وبضعة رؤوس من الملفوف تجعدت وازرقت بتأثير البرد. ومع كل هبة من هبات الريح، كانت أغصان الأكاسيا العارية ترقص، وكأنها مسكونة بالجن، ثم ترتمي على الطريق.

وفي أثناء الليل استيقظ الصبي، يورا، على صوت قرع على

النافذة، ورأى الغرفة المظلمة كأنها مضاءة ببياضٍ براق. فركض، دون أن يكون عليه الا قميصه، نحو النافذة وألصق وجهه بزجاجها البارد.

لم يجد أثراً في الخارج للطريق والمقبرة وجنينة المطبخ، ولم يكن هناك الا العاصفة، والهواء المفعم بالثلج. وبدا كل شيء كأنما عاصفة الثلج قد نظرت الى يورا، ووعت قدرتها على الارهاب، فصخبت وجأرت وبذلت جميع ما بوسعها للتأثير عليه. وأخذت اطوال خلف اطوال من البياض تدور وتدور زاعقة في الفضاء، ثم تلامس الأرض حتى تلفها. لقد كانت العاصفة وحيدة في العالم وليس من ينافسها.

وعندما تدحرج يورا من النافذة أحس بما يدفعه لأن يلبس ثيابه ويركض الى الخارج ويبدأ بعملٍ ما. لقد خاف أن تُدفن رؤوس الملفوف فلا يقوى أحد على إخراجها، وان تغور أمه عميقاً، بعيداً عنه في بطن الأرض.

وللمرة الثانية انتهى به الأمر الى البكاء. وأفاق خاله، وحدّثه عن المسيح وحاول أن يهدىء من روعه، ثم تثاءب ووقف يفكر أمام النافذة، وكان الفجر قد لاح، فعمدا إلى ارتداء ملابسهما.

٣

حين كانت ام يورا في قيد الحياة، لم يكن يعرف أن أباه قد هجرهما منذ وقت طويل، ليعيش حياة بائسة في سيبريا والبلدان الأجنبية مبذراً ثروة العائلة. كانوا يخبرونه دائماً أن والده مسافر لأعماله في بطرسبرج، أو في أحد المعارض الكبرى، وغالباً في اربيت.

وكانت أمه طريحة الفراش دائماً، وعندما وجدت أنها مصابة بالسل أخذت تذهب إلى جنوب فرنسا وشمال ايطاليا للمعالجة. ورافقها يورا في سفرتين. وكان غالباً ما يُترك مع اشخاص غرباء يتبدلون كل مرة

حتى اعتاد مثلَ هذا التبديل؛ واعتبر، بتأثير هذا المحيط المتفكك المشبع بالأسرار، أن غياب والده أمر مفروغ منه.

ولكم استطاع أن يتذكر زمناً في طفولته سُميّت فيه أشياء كثيرة باسم عائلته. فكان هنالك مصنع جيفاكو، وبنك جيفاكو، وبنايات جيفاكو، ودبابيس للياقات باسم جيفاكو، وحتى حلويات جيفاكو التي كانت تصنع بالرِّم. وكنت اذا قلت "جيفاكو" لسائق العربة الزحافة في موسكو، كنت كمن يقول: "خذني إلى تمبوكتو"، فيقودك إلى مملكة شبيهة بممالك الحوريات، حيث تجد نفسك قد انتقلت الى حديقة واسعة هادئة: الغربان تحط على أغصان السرو الضخمة وتضرب بمناقيرها قضبان الجليد المتدلية أمامها، وصدى زعيقها يتجاوب مع الاغصان المتكسرة. وكلاب أصيلة تأتي راكضة عبر الطريق خارجة من بيت حديث البناء. والأنوار تشع مع الغسق.

وفجأة ذهب كل هذا ـ وأصبحوا فقراء.

٤

في يوم من أيام صيف عام ١٩٠٣، كان يورا يسير مع خاله نيكولاي عبر الحقول في عربة مكشوفة يجرها حصانان. كانا في طريقهما لزيارة ايفان ايفانوفيتش فوسكوبوينيكوف، الاستاذ الذي ألف عدداً من الكتب الشعبية والذي كان يعيش في دوبليانكا، وهي مزارع كولوغريفوف صاحب مصانع الحرير وأحد كبار حماة الفنون.

وكان اليوم يوم عيد سيدة قازان، والحصاد في أوجه. ورغم ذلك، لم تلح صورة انسان أمام أعينهما، بسبب عطلة العيد أو فرصة الظهيرة. وبدت الحقول التي حصد بعضها تحت الشمس اللامعة كأنها رؤوس المحكومين. وكانت الطيور تحلق فوق الرؤوس، والقمح ينتصب في

السكون الحار، وفي البعيد ترتفع حزم القمح المحصود فوق الأرض وقد بدت، اذا حدقت فيها طويلاً، كأنها تتحرك، منتقلة في الأفق كمراقبي الأرض الذين يسجلون ملاحظاتهم.

"لمن هذه الحقول؟" طرح نيكولاي نيكولايفتش هذا السؤال على بافل، المستخدم عند الناشر والذي كان يجلس في العربة رافعاً كتفيه واضعاً رجلاً فوق أخرى ليدل أن سوق العربات ليس مهنته الأساسية "أهي للاقطاعيين أم للفلاحين؟"

"هؤلاء هم السادة". وأشار بافل الذي كان يدخن، بعد صمت طويل، بطرف سوطه إلى جهة أخرى: "وهؤلاء هم الفلاحون" وصرخ "هيا" بالحصانين وقد ركز عينيه على مؤخرتهما كما لو كان مهندساً يراقب ميزان الضغط في المحرك. وكان الحصانان مثل كل الخيول في العالم: فالحصان الداخلي اندفع بكل الشرف الطبيعي الذي تحمله نفس بسيطة، في حين أخذ الحصان الخارجي يقوس عنقه كالأوزة ويبدو للجاهل وكأنه عاطل مزمن لا يفكر الا بتحريك قوائمه تحريكاً موقتاً مع رنين الأجراس المتداخل.

وكان نيكولاي نيكولايفيتش يحمل معه مسودة كتاب فوسكوبوينيكوف عن مسألة الأرض، لأن الناشر طلب من المؤلف أن يعيد النظر فيه بسبب الرقابة الصارمة المتزايدة.

وقال لبافل "الشعب يخرج هنا من تحت السيطرة فقد ذُبح تاجر في قرية قريبة، ومزرعة الغراء العائدة للناحية احرقت، ماذا تفعل بكل هذا؟ هل يتكلمون عنها في قريتكم؟"

ومن الطبيعي أن يحمل بافل نظرات أشد اسوداداً من تلك التي فرضت الرقابة من أجلها على فوسكوبوينيكوف أن يهدىء من آرائه الحماسية حول مشكلة الأرض.

"هل أتكلم عنها؟ لقد أفسد الفلاحون، عوملوا معاملة جيدة. ان

هذا لا يصلح لامثالنا. أعط الفلاح حبلاً والله يعلم كيف يشده حول عنق الآخرين ـ هيا ـ هيا."

وكانت هذه الرحلة هي الثانية التي يقوم بها يورا مع خاله الى دوبليانكا. وظن أنه يعرف الطريق، وفي كل مرة كانت الحقول فيها تتسع لتؤلف حداً ضيقاً حول الغابات، كان يبدو له أن يتعرف الى المكان الذي سوف ينعطف فيه الطريق الى اليمين ليكشف في نظرة سريعة مزارع كولوغريفوف التي تمتد ستة أميال، والنهر الذي يتلألأ بعيداً وخط سكة الحديد خلفه. ولكنه في كل مرة كان يخطىء، فالحقول تتبع الحقول لتختفي بدورها في الغابات. وأعطاه هذا الامتداد الفسيح شعوراً قوياً بالحرية والانطلاق. وهذا ما جعله يفكر ويحلم بالمستقبل.

ولم يكن أي كتاب من الكتب التي جعلت نيكولاي نيكولايفيتش فيما بعد شهيراً قد كُتب. ومع أن أفكاره كانت قد ابتدأت تتشكل فانه لم يكن يعرف كيف يجد التعبير عنها. لقد كان مؤهلاً ليأخذ مكانه بين الكتّاب المعاصرين، واساتذة الجامعات، وفلاسفة الثورة كرجل شاركهم في اهتمامهم العقائدي دون أن يكون له أيّ علاقة وثيقة معهم الا في التعابير. كلهم دون استثناء، كانوا ملتصقين بعقيدة أو بأخرى، مكتفين بالكلمات والسطحيات، ولكن الأب نيكولاي كان قد اجتاز نظرية تولستوي والمثالية الثورية ولايزال يسير إلى الأمام. انه يفتش بحرارة عن فكرة، موحية، ملموسة يمكن لها بحركتها أن تدل بوضوح على الطريق في اتجاه التغير، فكرة تقدر مثل سهم البرق أو قصف الرعد أن تتحدث حتى الى الطفل والأمّي. انه ظمآن الى شيء جديد.

وسرّ يورا لوجوده مع خاله فهو يذكره بأمه. ذهنه كذهنها، يتحرك بحرية ويتقبل العجيب. له الحس الارستقراطي نفسه بالمساواة بين جميع المخلوقات الحية والموهبة نفسها في اجتياز كل شيء بلمحة عين، وفي التعبير عن أفكاره فور بروزها وقبل أن تفقد معناها وحيويتها.

وانشرح يورا لأن خاله اصطحبه الى دوبليانكا.. فهي مكان جميل، يذكره أيضاً بأمه التي كانت مغرمة بالطبيعة فهي طالما رافقته سيراً على الأقدام في نزهات ريفية.

وتطلع أيضاً إلى الاجتماع ثانية مع نيكا دودوروف رغم أن نيكا، الذي يكبره بسنتين، قد لا يكون أحبه. وكان نيكا تلميذاً يعيش في بيت فوسكوبوينيكوف. وعندما صافح يورا، شد ذراعه الى الأسفل بكل قوته واحنى رأسه حتى تدلى شعره وحجب نصف وجهه.

٥

"ان العصب الحساس في مشكلة الطبقات الفقيرة"، كان نيكولاي نيكولايفيتش يقرأ في المخطوطة المصححة.

فقال ايفان ايفانوفيتش وهو يصحح على مسودة الطباعة: "جوهر يمكن أن تكون أفضل، على ما أرى".

وكانا يعملان في شبه ظلمة على الشرفة المحاطة بالزجاج. وكانت اباريق الماء وأدوات البستنة مكومة هناك، ومعطف ثقيل معلقاً على ظهر كرسي مكسور، وفي الزاوية القيت جزمة ملطخة بالأوحال وقد انطوى قسمها الأعلى حتى وصل إلى الأرض.

وأملى نيكولاي نيكولايفتش قائلاً: "ومن الجهة الثانية، فإن إحصاءات الولادات والوفيات تدل".

فقال ايفان ايفانوفيتش وهو يضع اشارة: "أضف: في العام الذي نتكلم عنه". وكانت هناك مسودة خفيفة، وقطع من الغرانيت موضوعة فوق الأوراق لتحفظها.

وعندما انهيا عملهما، اراد نيكولاي نيكولايفيتش أن يذهب على الفور قائلاً:

"هناك عاصفة تنذر بالهبوب، علينا أن نخرج".

"ليس هناك شيء من هذا القبيل، انني لن اتركك، سوف نأخذ الشاي معاً."

"ولكن عليّ أن أكون في المدينة قبل الليل".

"لا فائدة من الادلاء بالحجج، فأنا لن اسمعها".

وفي الحديقة كانت كتلة من الفحم الحجري ترسل الدخان من "السموار" فترطب رائحة أوراق التبغ ودوّار الشمس. وأخرجت خادمة على صحن مجموعة من الفطائر المصنوعة من الزبدة والجبن والمربى. وعند ذلك علما أن بافل قد خرج ليستحم في النهر، وأنه أخذ الحصانين معه، فاضطر نيكولاي نيكولايفيتش أن يرضخ ويبقى.

واقترح ايفان ايفانوفيتش قائلاً: "لنذهب إلى النهر حيث نجد الشاي جاهزاً".

ونتيجة لصداقته المتينة مع كولوغريفوف فانه كان يستخدم غرفتين في بيت المدير. وكان البيت في بستانه الصغير يقع في زاوية مهملة من الحديقة الكبيرة قرب المجرى القديم الذي طُمر الآن بطبقة كثيفة من العشب والذي لم يعد يستعمل الا لايصال الأوساخ إلى المجارير. وكان كولوغريفوف، وهو رجل تقدمي الآراء ومن أصحاب الملايين الذين يعطفون على الثورة، مسافراً مع زوجته خارج البلاد ولم يبق في مزارعه الا ابنتاه ناديا وليبا مع مربيتهما وعدد صغير من الخدم.

وكان سياج كثيف من العليق يفصل بيت المدير وبستانه عن الحديقة بما فيها من ممرات وبحيرات اصطناعية تحيط بالبيت الرئيسي. وما أن حاذى ايفان ايفانوفيتش ونيكولاي نيكولايفتش السياج حتى ابتدأت اسراب صغيرة من القنابر تطير في فترات منتظمة، والعلّيق يرافق صوتهما الذي ينساب كالماء المتدفق من الأنابيب.

واجتازا الحمّام، وكوخ البستاني، وبناءً حجرياً قديماً متهدماً، وهما

يتكلمان عن المواهب الجديدة في العلوم والآداب.

وقال نيكولاي نيكولايفيتش: "أجل، هناك رجال موهوبون، ولكن العادة الدارجة اليوم هي لصالح الجماعات والجمعيات من مختلف الأشكال. التجمع هو ملجأ الفاشلين الدائم سواء أكانوا يتبعون سولوفيف أم كانت أم ماركس. الأفراد وحدهم يفتشون عن الحقيقة ويوفرون ذلك على أولئك الذين يهتمون بكل شيء الا بالحقيقة. كم من الأشياء في العالم تستحق الاخلاص منا؟ قليلة هي ولاشك. اني أعتقد أن الواحد يجب أن يخلص للخلود الذي هو كلمة أخرى للحياة، كلمة أقوى. يجب على الواحد منا أن يكون صادقاً مع الخلود، صادقاً مع المسيح. آه - انك تقلب انفك الى الأعلى، يا صديقي المسكين. فأنت، كالعادة، لم تفهم شيئاً".

وأجاب ايفان ايفانوفيتش: "همّ...". وكان ايفان نحيفاً، كث الشعر، لا يستقر في مكان مثل الحنكليس، له لحية صغيرة تجعله يبدو كأميركي من عهد لنكولن: يمسدها بيده الى الأعلى دائماً وينفض اطرافها. وتابع قائلاً: "اني لم أقل شيئاً بالطبع. فأنا أنظر الى هذه الأشياء نظرة مختلفة، كما تعلم. ولكن، لما كنت تبحثها، قل لي، ماذا يعني اجبارهم لك على خلع الثوب؟ أظن أنك كنت قد رُسمت كاهناً. انهم لم يحرموك، أليس كذلك؟".

انك تحاول أن تغير الموضوع. فلم لا ... القاء الحرم علي؟ كلا. انهم لا يفعلون ذلك الآن. لقد كان الأمر مزعجاً، وله بعض النتائج. ومثلاً يحرم الواحد من التوظف مدة طويلة، ومنعت من الذهاب الى موسكو أو بطرسبرج. ولكن هذا ليس الا تفاهات. وكما كنت أقول يجب أن يكون الشخص صادقاً مع المسيح. وسوف أشرح ذلك. ان ما نفهمه هو أن بامكان المرء أن يكون ملحداً، انه من الممكن ألاّ يعرف اذا كان الله موجوداً وكيف وجد، وان يؤمن مع ذلك ان الانسان لا يعيش في

حالة طبيعية، بل في التاريخ، وان التاريخ كما نعرفه الآن يبدأ مع المسيح وان أناجيل المسيح هي أساسه. والآن ما هو التاريخ؟ انه قرون من الاستكشاف المنظم لسر الموت، للتغلب على الموت. هكذا اكتشف الناس اللانهاية الرياضية ـ والأمواج الكهرطيسية وهكذا كتبوا السمفونيات. والآن لا يمكنك أن تتقدم في هذا الاتجاه دون ايمان معين. لا يمكنك أن تحقق اكتشافات كهذه دون زاد روحي. والعناصر الأساسية لمثل هذا الزاد موجودة في الأناجيل. فما هي إذاً هذه العناصر؟ لنبدأ بها؛ محبة الانسان لقريبه هي الشكل الأسمى للقدرة الحية. فاذا امتلأ قلب الانسان بها فانها تتفجر وتعلن ذاتها. وبعد ذلك يأتي المثلان الأساسيان للانسان الحديث ـ والذي لا يمكن تصوره دونهما ـ فكرة الشخصية الحرة وفكرة الحياة كتضحية. عليك أن تذكر أن كل هذا لايزال جديداً تماماً فلم يكن هناك تاريخ بهذا المعنى بين القدماء. لقد كان عندهم دماء ووحشية وقسوة وجماعة من أمثال كاليغولا ذي الوجه المجدور والذين لم تكن لهم أية فكرة عن مدى انحطاط نظام الرق. لقد فاخروا بالخلود الميت الذي قدمته لهم تماثيل البرونز وأعمدة الرخام. ولم يتنفس الزمان والانسان بحرية الا بعد مجيء المسيح، ولم يبدأ البشر بان يحيوا في المستقبل الا بعده. الرجل لا يموت في خندق مثل الكلب، بل في بيته، في التاريخ، بينما العمل لقهر الموت يسير بجد ونشاط، انه يموت وهو يشارك في هذا العمل. اوف! لقد اتعبت نفسي، أليس كذلك؟ ولكن كان علي أن اتكلم حتى ولو الى حائط جامد".

"انها ميتافيزياك، يا صديقي العزيز، وقد منعني اطبائي عنها لأن معدتي لا تهضمها".

"جيد، انك رجل لا أمل فيه. لنترك هذا الموضوع. الله، ما هذا المنظر الجميل انك محظوظ أيها الشيطان رغم أني افترض انك تعيش معه كل يوم دون أن تراه".

لقد كان من الصعب أن يركز الواحد عينيه على النهر اللامع الذي يعكس بريق الشمس مثل صفحة من الحديد المصقول. وفجأة تجعد سطحه بالأمواج، وأقلع مركب كبير محمل بالخيول والعربات والفلاحين ونسائهم الى الضفة المقابلة.

وقال ايفان ايفانوفيتش: "فكر أن الساعة بعد الخامسة بقليل. هناك قطار سريع قادم من سيزران، إنه يمر هنا في الخامسة وخمس دقائق".

وبعيداً في السهل، كان قطار صغير بلون أصفر وأزرق، يقطع المسافات من اليمين الى اليسار. وفجأة لاحظ الرجلان أنه توقف ونفثات بيضاء من البخار تكاثفت فوق المحرك ثم صفر صفرة طويلة.

وقال فوسكو بوينيكوف: "انه لأمر غريب، أمر سيء. ليس عليه أن يتوقف في وسط المستنقع هناك. لقد حدث شيء ما. لنذهب ونأخذ الشاي".

٦

ولم يكن نيكا في البيت أو في البستان، وقدر يورا انه اختبأ لأن مصورهم ازعجه، أو لأن يورا كان صغيراً بالنسبة اليه. وعندما خرج خاله وايفان ايفانوفيتش الى الشرفة ليعملا أخذ يورا يهيم دون هدف في الأراضي.

لكم هو جميل هذا المكان. الشحارير ترسل زقزقاتها الصافية المثلثة النغمات، وتتوقف كل مرة وقتاً يكفي لتمتص البراري الأنغام المترددة حتى آخر اهتزازاتها. عبير كثيف، لا يتحرك حتى كأنه فقد طريقه في الهواء، جمدته الحرارة فوق حقول الأزهار. وذكره ذلك بأنتيب وبورديفيرا. وجال يورا في هذا الطريق وذاك، وخيال صوت أمه ماثل في الحقول. سمعه في موسيقا الطيور، وأزيز النحل. وبين الفينة والأخرى

يخيل إليه أن أمه تدعوه ليلحق بها في مكان ما.

وسار الى الخندق وانحدر من الأشجار التي ترتفع على حافته الى الصفصاف الذي يغطي قعره.

وهناك بين بقايا الأغصان الساقطة كان الجو مظلماً ورطباً؛ الأزهار قليلة، وجذوع الأشجار المنقطة تبدو كحراب المصريين التي تزين توراته.

وأحس يورا أكثر فأكثر أنه وحيد. فارتمى على ركبتيه وأجهش بالبكاء.

وأخذ يصلي: "يا ملاك الله، يا حارسي المقدس، احفظني قوياً في طريق الحقيقة، وأخبر أمي أني بخير فلا تقلق. وإذا كانت هناك حياة بعد الموت، اقبل أمي يا رب في ملكوتك السماوي حيث تتألق وجوه القديسين والاتقياء كالنجوم، أمي كانت محسنة ولا يمكن أن تكون قد أخطأت، ارحمها يا الله لا تتركها تتعذب. أمي!" ـ وفي ألم قلبه دعاها كما لو كانت قديسة أخرى. وفجأة سقط مغشياً عليه، فهو لم يعد يطيق أكثر من ذلك.

ولم يطل به وقت الغيبوبة. وعندما رجع الى نفسه سمع خاله يدعوه من الأعلى فأجابه وابتدأ يصعد. وفجأة تذكر أنه لم يصلّ لوالده الغائب، كما علمته ماريا نيكولايفنا.

ولكن هذه الغيبوبة تركته وفيه حسٌ بالاشراق والراحة لا يريد أن يفقده. وفكر أنه لن يحدث شيء مخيف لو أنه صلى من أجل أبيه في وقت آخر، كما لو قال لنفسه، "دعه ينتظر". ولم يذكره يورا إطلاقاً.

٧

وفي احدى مقصورات الدرجة الثانية جلس "ميشاغوردون" الذي كان يسافر مع والده المحامي في اورنبورغ. وكان ميشا في الحادية عشرة

من عمره، له وجه مفكر وعينان داكنتان واسعتان، وفي السنة الثانية من دراسته الثانوية. وكان أبوه، غريغوري اوسيبوفيتش غوردون منقولاً الى مركز جديد في موسكو. أما أمه وأخواته فقد ذهبن الى موسكو قبل مدة ليهيئن المنزل.

وكان الأب والابن يسافران منذ ثلاثة أيام.

وبدت روسيا بحقولها ومراعيها وقراها ومدنها بيضاء ناصعة تحت أشعة الشمس، تطير خلفهم مغلفة في سحب الغبار الحارة. خطوط طويلة من العربات تخب فوق الطرقات وأحياناً تضطر لأن تنحرف قليلاً عنها لتتجنب الحفر التي أحدثتها العجلات. ولكنها كانت تبدو من القطار المسرع وكأنها واقفة مكانها والخيول توقع بأرجلها اشارات الوقت.

وفي المحطات الكبرى يقفز المسافرون من القطار ويهرعون الى المقاصف، والشمس الغاربة خلف بستان المحطة تنير أقدامهم وتلمع خلف عجلات القطار.

كل حركة في العالم اذا أخذت على حدة تبدو مدروسة وذات هدف، ولكن هذه الحركات، اذا أُخذت معاً، تنتشي من ذاتها بتيار الحياة العام الذي يوحدها جميعاً. الناس يعملون ويتنازعون، كل واحد مدفوعاً بآلية خاصة باهتمامه هو. ولكن هذه الآليات ما كان لها أن تعمل بصحة لو لم تكن منظّمة يُديرها حس أعلى بالحرية النهائية الخالصة من اهتمام الأفراد. وهذه الحرية متأتية عن الشعور بأن جميع النفوس البشرية متكاملة، عن اليقين بأنها تتداخل بعضها ببعض - عن الاحساس المطمئن بأن كل الأحداث لا تقع فقط على الأرض التي يدفن فيها الأموات، بل أيضاً في مكان آخر يدعوه البعض "مملكة الله" ويدعوه آخرون التاريخ وغيرهم اسماً آخر أيضاً.

وكان ميشا شذوذاً تعيساً مؤلماً لهذه القاعدة، فان الحاجة للاهتمام به بقيت المحرك الأول في نفسه دون أن يتمكن الشعور بالأمن من

التسامي بها. انه يعرف هذه الصفة الوراثية في نفسه ويراقب بحذر متيقظ كل عرض من أعراضها يبدو عليه. كانت تؤلمه ووجودها يخجله.

ومنذ أبعد زمن تحوزه ذاكرته، لم يتوقف يوماً واحداً عن التعجب لماذا يختلف الواحد عن الآخرين رغم أن له أطرافاً مثلهم وكلاماً وطرق حياة يشترك فيها الجميع.. لماذا يستلطفه البعض فقط ولا يحبه أي واحد من الناس. لا يمكنه أن يفهم الحالة التي اذا كنت فيها اسوأ من غيرك، لا يمكنك أنت أن تقوم بجهد لتحسين نفسك.

وعندما عرض ميشا على والده هذه المسألة أخبره أن مقدماته خلف، وأن هذا التفكير خطأ، ولكنه لم يأخذ جواباً له من العمق ما يجذبه اليه، أو ما يجعله ينحني بصمت أمام المقدر.

وأصبح شيئاً فشيئاً، يحتقر باستثناء والديه كل الكبار الذين أسهموا في هذا التشويش دون أن يتمكنوا من توضيحه. إنه متأكد من أنه سوف يقوّم كل هذا عندما يصبح كبيراً.

والآن مثلاً، لا يوجد واحد له من الشجاعة ما يكفي لأن يقول إن والده ما كان يجب أن يندفع خلف تلك السيدة عندما خرج الى رصيف القطار، وما كان عليه أن يوقف القطار دافعاً غريغوري اوسيبوفيتش جانباً، وان يفتح الباب بعنف ليرمي برأسه أولاً خارج القطار كأنه غطاس يقفز من لوحة القفز الى بركة السباحة.

ولكن لما كان والده هو الذي دفع مفتاح الخطر، بدا كل شيء وكأن القطار توقف كل هذا الوقت الطويل المجهول بسببهما.

ولم يعرف أحد سبب التأخير. وقال بعضهم إن التوقف الفجائي عطل الضوابط الهوائية، وقال آخرون إنهم فوق منحدر قوي لا يستطيع القطار صعوده. أما الرأي الثالث فهو أن المنتحر شخصية بارزة وأن محاميه الذي يرافقه في القطار أصرّ على استدعاء الرجال الرسميين من كولوغريفوفكا، وهي أقرب محطة لكتابة ضبط بالحادث. لهذا السبب

تسلق مساعد المهندس عامود التلغراف: فمن المفروض أن تكون عربة المفتش في طريقها إليهم.

وكانت تنبعث من المغاسل رائحة كريهة خفيفة لم يبددها تماماً الماء المعطر، تمتزج مع رائحة الدجاج المقلي المتصاعدة من الورق المشمع المتسخ. وكما لو كان شيء لم يحدث، أخذت سيدات بطرسبرج الرماديات، ذوات الأصوات الجوفاء المقرقعة اللواتي انقلبن الى غجريات بتأثير هباء الدخان والمساحيق، يطلين وجوههن بالبودرة ويمسحن أصابعهن بمناديلهن. وعندما اجتزن باب مقصورة غوردون، وفيما كن يصلحن شالاتهن ويهتممن بمظهرهن وهن يحشرن انفسهن في الممر الضيق، بدا لميشا أن شفاههن المكتنزة تصفر قائلة: "ألسنا حساسات! اننا شيء خاص. اننا مثقفات. انه لكثير بالنسبة لنا".

وارتمى جسد المنتحر على العشب قرب حافة الخط الحديدي، وخيط رفيع من الدم امتد على جبهته وبدا بعد أن جفّ وكأنه إشارة حمراء ألغي بموجبها وجهه. ولم يكن يبدو كأنه من دمه الذي جاء من جسمه بل كإضافة غريبة مثل قطعة من اللاصق، أو نثرة من الوحل أو ورقة مبللة من الحور.

وأحاط المتفرجون الفضوليون والمؤاسون بجثة المنتحر في حلقة دائمة التغير، في حين وقف قربه صديقه ورفيق سفره وهو محام ثخين ذو منظر متعجرف حتى لكأنه حيوان في قميص رقيق، دون أن تبدو على وجهه أي علامة من علامات التأثر. وغلب عليه الحر فابتدأ يروّح بقبعته أمام وجهه. وجواباً على كل الأسئلة هز كتفيه وقال بلؤم دون أن يدير رأسه: "كان سكيراً. ألا تفهمون؟ قام بها في نوبة من نوبات الهذيان الارتجاجي التي تصيبه".

ومرة أو مرتين ذهبت امرأة نحيفة متقدمة في السن تربط حول عنقها لفحة وترتدي ثوباً صوفياً نحو الجثة. انها الأرملة تيفرزينا، أم

مهندسين، وكانت تسافر في احدى عربات الدرجة الثالثة ببطاقة مجانية مع زوجتي ولديها. وكانت هاتان الزوجتان الهادئتان تتبعانها بصمت وقد انزلتا شاليهما على جبهتيهما، كما تتبع الراهبات رئيسة الدير، والجمع يفسح لهن الطريق.

وكان زوج تيفرزينا قد احترق حياً في احدى حوادث القطارات. فوقفت بعيدة قليلاً عن الجثة بحيث تتمكن من رؤيتها من خلال الجمع ونظرت كما لو كانت تقارن بين الحادثين. وبدت أنها تقول: "كل واحد يلاقي مصيره، الناس يموتون بإرادة الله، انظروا ماذا أصابه، يموت ثري العيش معلول العقل".

وخرج كل الركاب وألقوا نظرةً على الجثة ثم عادوا الى عرباتهم خوفاً من أن يسرق لهم شيء.

وعندما قفزوا الى الطرقات وجمعوا بعض الأزهار أو ساروا في نزهة قصيرة ليحلحلوا أطرافهم شعروا كما لو أن المكان بأجمعه مدين بوجوده للحادث، وبدونه ما كانت لتوجد التلال المعشوشبة الندية ولا النهر العريض، ولا البيت الجميل ولا حتى الكنيسة القائمة على المرتفع المقابل.

والشمس نفسها بدت كمظهر محلي، فأشعتها الغاربة خجولة، مستحية مثل بقرة من القطيع القريب جاءت لتلقي نظرة على الجمع.

وتأثر ميشا في البدء تأثراً بالغاً من الحادث وبكى من الخوف والألم. فأثناء الرحلة الطويلة جاء المنتحر مرات الى مقصورتهم وتكلم ساعات مع والد ميشا وقال انه وجد راحة في التواضع الاخلاقي والهدوء والتفهم التي اكتشفها فيه، وسأله أسئلة كثيرة حول نقاط دقيقة في الحقوق تتعلق بالسندات المالية، وسندات التملك، والافلاس، والغش واستغرب جوابات غوردون وقال. "أهو كذلك؟ وهل يمكن للقانون أن يكون ليناً إلى هذا الحد؟ محاميّ ينظر نظرة أشد كآبة".

وفي كل مرة كان فيها هذا الرجل العصبي يهدأ كان رفيق سفره يأتي من مقصورتهما في الدرجة الأولى ليجره الى المقصف ليسقيه الشمبانيا. انه المحامي البدين، المبكر، الحليق الذقن، المتأنق الذي يقف الآن فوق رأس جثته دون أن يبدو عليه أي استغراب. ولم يكن من الممكن إبعاد الاحساس بأن اضطراب زبونه الدائم إنما كان لمصلحته بشكل ما.

ووصفه والد ميشا بأنه مليونير معروف يدعى جيفاكو، ذو طبع جيد ولكن غير مسؤول كلياً عن أعماله. وعندما جاء الى مقصورتهم تكلم، دون أن يزعجه وجود ميشا، عن ابنه وهو صبي في مثل سنّ ميشا، وعن امرأته التي ماتت، ثم عن عائلته الثانية التي تركها كما ترك الأولى. وعند هذه النقطة تذكر شيئاً ما فامتقع لونه من الخوف وابتدأ يفقد تتابع القصة.

وأظهر نحو ميشا عطفاً بالغاً ربما كان انعكاساً لاحساسه نحو شخص آخر. فأمطره بالهدايا التي يقفز ليشتريها له في المحطات الكبرى أو حيثما كان باعة الكتب في غرف انتظار الدرجة الأولى يبيعون اللعب والتذكارات المحلية.

وكان يشرب دون انقطاع، ويشكو من أنه لم ينم منذ ثلاثة أشهر، وأنه كلما أراد أن يقتصد لفترة مهما قصرت كان يشعر بآلام لا يمكن لأي كائن بشري أن يتصورها.

وفي النهاية، اندفع الى مقصورتهم وأمسك بغوردون من ذراعه وجرب أن يقول له شيئاً ولكنه وجد أنه عاجز عن ذلك ثم جرى الى الخارج ورمى بنفسه من القطار.

والآن، جلس ميشا يتفحص الصندوق الخشبي الصغير الذي يحوي بعض معادن جبال الاورال والذي كان آخر هداياه له. وفجأة حصل اضطراب عام. فقد جاءت عربة تسير على الخطين المتوازيين. وقفز منها

طبيب وشرطيان وقاض يلبس علامة مستديرة فوق قبعته. وطُرحت بعض الأسئلة بصوت جاف ودوّنت بعض الملاحظات. وأخذ الشرطيان والحرس يحفرون بعجلة في الرمل وجروا الجثة بعيداً عن حافة الطريق وابتدأت احدى الفلاحات بالنواح، ثم طلب من الركاب أن يعودوا الى مقاعدهم ونفخ الحارس في صفارته وتحرك القطار.

٨

"هذا هو الزيت العتيق المقدس"، بهذا فكر نيكا بشراسة وهو ينظر في الغرفة حوله ليجد طريقاً يهرب منه. فأصوات المدعوين كانت خارج الباب وطريق الانسحاب قطع عليه. وكان في الغرفة سريران أحدهما له والثاني لفوسكوبوينيكوف، وبعد فترة قصيرة من التفكير اندس تحت الأول.

سمعهم يدعونه ويفتشون عليه في الغرف الأخرى متعجبين من غيابه. وأخيراً دخلوا غرفة النوم.

وقال نيكولاي نيكولايفيتش: "حسناً، لا جدوى من ذلك، اذهب يا يورا، لعل صديقك يرجع فيما بعد وعندها يمكنك أن تلعب معه". وجلسا يتحدثان عن اضراب الطلاب في بطرسبرج وموسكو. فاضطر نيكا لأن يبقى في مكانه المزعج المهين حوالي عشرين دقيقة. وأخيراً خرجا الى الشرفة. وفتح نيكا النافذة بهدوء وقفز منها وابتعد نحو الحديقة.

انه لم ينم في الليلة السابقة لشدة انزعاجه. انه في الرابعة عشرة من عمره وقد ملَّ البقاء طفلاً. ظل ساهراً طول الليل وخرج عند الفجر. وألقت الشمس المشرقة بظلال الأشجار الطويلة الندية حلقات حلقات على أرض الحديقة. ولم يكن الظل أسود بل رمادي غامق كاللباد المبلل. وبدا عبير الصباح وكأنه آتٍ من هذا الظل العابق المرتمي على الأرض.

وقد امتدت فيه خيوط النور مثل أصابع الفتاة.

وفجأة مر قربه وعلى بضع أقدام منه خط من الزئبق لامع كالندى فوق الأعشاب. راح يسرع ويسرع والأرض لا تمتصه، ثم انعطف الى الجانب بحركة حادة فجائية، واختفى. انه أفعى الحشائش. وارتجف نيكا.

انه لفتى غريب. وعندما يشور كان يتكلم لنفسه مقلداً تفضيل أمه للمواضيع العالية الغامضة.

وفكر: "كم هو عجيب أن يكون الانسان حياً. ولكن لماذا يصدم هذا الأمر؟ الله موجود، ولاشك. ولكنه اذا كان موجوداً فهو إذاً أنا". وتطلع الى حورة تهتز من أعلاها الى أسفلها، وأوراقها المبللة مثل صفائح التنك. "سوف آمرها أن تتوقف". وبجهد له شدة مرضية، أراد بشمول كيانه وصمته، وبكل ذرة من لحمه ودمه: "توقفي"، ودفعة واحدة أطاعت الشجرة وجمدت عن الحركة. وضحك نيكا بفرح وهرع إلى النهر يستحم.

وكان أبوه، الارهابي دفيتي دودوروف، قد حكم بالاعدام شنقاً ولكن القيصر خفض الحكم عليه، وهو الآن يقضي عمره بالأشغال الشاقة. أما أمه فأميرة جيورجية من عائلة اريستوف، وهي امرأة جميلة شاذة لا تزال فتية ومغرمة دائماً بشيء أو بآخر - التوراة، الثوار، النظريات المتطرفة، مشاهير الممثلين، والفاشلين التعساء.

وكانت تعبد نيكا فتقلب له اسمه: اينوكانيتي وسواه من أسماء التحبب السمجة مثل اينوتشيك أو نوتشينكا، كما أخذته الى تفليس ليراه أهلها. وهناك، أذهلته شجرة نامية في فناء البيت. انها عملاق استوائي منفوش، لها أوراق كأذن الفيل تظلل الفناء فتمنع عنه شمس الجنوب المحرقة. ولم يتمكن نيكا من أن يألف فكرة كونها نباتاً لا حيواناً.

فكان من الخطر على الصبي أن يحمل اسم والده الرهيب. واراد ايفان ايفانوفيتش له أن يستبدل به اسم أمه، وعزم بموافقتها على رفع

طلب الى القيصر ليسمح بإجراء التبديل. وعندما كان مضطجعاً تحت السرير، حانقاً على العالم كله، فكر، في جملة ما فكّر، بهذا الأمر أيضاً. من يظن فوسكوبوينيكوف نفسه ليقحمها في حياته بمثل هذا الشكل المهين؟ سوف يعلمه من أين جاء.

وناديا هذه! ايكفي أن تكون في الخامسة عشرة ليكون لها الحق في أن تشمخ بأنفها وتكلمه بتعالٍ كما لو كان طفلاً؟ سوف يريها! "اني أكرهها" قال مردداً في نفسه عدة مرات. "سوف أقتلها. سوف آخذها في القارب وأغرقها".

وأمه امرأة صالحة، رغم كل شيء لقد كذبت عليه وعلى فوسكوبوينيكوف عندما رحلت. انها لم تذهب إلى مكان قريب من القوقاس، بل دارت بكل بساطة الى أقرب مفترق في الطريق ثم عادت ادراجها شمالاً الى بطرسبرج، وهي الآن تمضي وقتاً طيباً مع التلاميذ الذين يطلقون النار على الشرطة، في حين كان عليه هو أن يتفسخ في هذا المكان السخيف. ولكنه سوف يتفوق عليهم كلهم.. سوف يقتل نادیا ويترك المدرسة ويفر الى والده في سيبيريا ويبدأ ثورة.

وعلى طول ضفاف الغدير نبتت زنابق الماء. والقارب يسير فوقه وهو يرسل صريراً جافاً، ومياه الغدير تبدو منه مثل عصير البطيخ عندما تنزع منه قطعة صغيرة لتبيّن جودته.

وكان نيكا ونادیا يجمعان الزنابق. وكانا كلاهما يمسكان بالمجداف نفسه الثقيل فيدفعهما معاً حتى يصطدم رأساهما، والمركب ينجرف الى الشاطىء كما لو كان مسحوباً بخطاف. وهناك كانت سيقان الزنابق أقصر وأكثف، والأزاهير البيضاء بقلوبها اللامعة كمح البيض تغرق وتطفو متحركةً مع الماء.

واستمر نيكا ونادیا يجمعان الزهور ويدفعان القارب أكثر فأكثر وهما منبطحان فيه جنباً إلى جنب تقريباً.

وقال نيكا: "لقد سئمت المدرسة، وحان الوقت لأبدأ حياتي وأخرج الى العالم وأحصّل عيشي."

"وأنا كنت مصممة أن أسألك عن معادلات الجذر المربع. فأنا ضعيفة في الجبر حتى أراني مجبرةً على إعادة الفحص."

وظن نيكا أن هذه الكلمات تخفي تعريضاً به. أجل انها تضعه في مكانه، تذكره انه لايزال طفلاً. معادلات الجذر المربع! لماذا؟ انه لا يكاد يبدأ الجبر بعد.

وتلبس اللامبالاة ليموه عليها احساساته، وسأل وهو يدرك سخف السؤال: "من سوف تتزوجين عندما تكبرين؟"

"انها مسألة بعيدة. من المحتمل الا أتزوج أحداً. اني لم أفكر بها بعد."

"آمل ألاّ تفكري اني مهتم بالأمر".

"لماذا تسأل إذاً؟"

"أنت غبية."

وابتدأا بالشجار، وتذكر نيكا كرهه لها في الصباح. فهددها بالخنق اذا لم تتوقف عن دعوته بألقابه. وقالت ناديا: "جرب". فقبض عليها من خصرها، فتعاركا وفقدا توازنهما وانقلبا في الماء.

وكانا يعرفان السباحة، ولكن الزنابق امسكت بأذرعهما وأرجلهما؛ وكانا بعيدين عن العمق. وأخيراً خرجا من الغدير متعثرين في الوحل اللزج والماء ينزُّ من حذاءيهما وجيوبهما. وكان نيكا أكثر من رفيقته إجهاداً.

وجلسا جنباً الى جنب وقد تبللا حتى اللحم. وحتى الربيع الفائت كانا بعد مثل هذه المغامرة يصرخان ويلعنان ويضحكان. ولكنهما الآن قبعا صامتين يلاحقان انفاسهما وقد اذهلهما الحادث كله. وراحت ناديا تغلي من حنقها ونيكا كله ألم كما لو كان قد ضرب بعصا حتى تكسرت أضلاعه.

وأخيراً قالت ناديا بهدوء وكأنها ناضجة: "لقد كنت مجنوناً حقاً".
وقال نيكا بصوت يعادلها في نضجه: "آسف".

وعادا الى البيت والماء يقطر منهما كعربتي المياه. وقادهما طريقهما الى المرتفع الترابي المملوء بالحيات قرب المكان الذي شاهد فيه نيكا حية الأعشاب في الصباح.

وتذكر الاندفاع السحري الذي ملأه في الليل وقدرته الكلية عند الفجر حين رضخت الطبيعة لارادته. وراح يتساءل ما هو الأمر الذي يجب أن يأمرها به الآن، ما هي أعز أمنياته؟ ودخل عندما لاحظ أن كل ما يرغب فيه هو أن يسقط مرة ثانية في الغدير مع ناديا، وأنه كان مستعداً لأن يعطي الكثير كي يعرف اذا كان ذلك سوف يحدث مرة أخرى.

الفصل الثاني
فتاة من عالم آخر

١

لم تكن الحرب مع اليابان قد انتهت بعد، حين طغت عليها فجأة أحداث أخرى. فأمواج الثورة اجتاحت روسيا من أقصاها إلى أقصاها، وكل موجة أكبر وأضخم مما سبقتها.

وفي هذه الأثناء هبطت موسكو من الأورال أماليا كارلوفنا غيشار. وهي أرملة مهندس بلجيكي، ومن أصل فرنسي. وكان يرافقها ولدها روديون وابنتها لاريسّا. فأدخلت ولدها في المدرسة الحربية، وابنتها أحد معاهد البنات، حيث اتفق أن زاملت ناديا كولوغريفوفا في الصف.

ورثت السيدة غيشار عن زوجها كل أمواله ـ أسهم كانت أسعارها تتصاعد ثم لم تلبث الآن أن أخذت في الهبوط. ولكي توقف نضوب ثروتها وتجد لنفسها عملاً، ابتاعت محلاً للخياطة قرب قوس النصر، كانت تملكه لافيتسكايا قبل انتقاله بعد وفاتها الى ورثائها. وقد ابتاعته بكل ما له من اسم تجاري، وزبائن، وخياطات وصانعات.

وقد فعلت هذا بناءً على نصيحة كوماروفسكي. وهو محامٍ كان صديقاً لزوجها، ثم أصبح الآن الرجل الذي تلجأ إليه للمشورة والعون. وكان كوماروفسكي تاجراً ماهراً، خبر عالم التجارة الروسية وحذق فنونها. وقد ادلى نصيحته للسيدة غيشار بالمراسلة، وحين وصولها مع ولديها الى المحطة، استقبلهم وأقلهم بسيارته الى الطرف الآخر من موسكو، حيث انزلهم في فندق مونتنيغرو في محلة أوروروهيني

باريولوك، ثم اقنع الوالدة بادخال الابن المدرسة الحربية، والابنة معهداً وقع اختياره عليه. وكان كوماروفسكي دائم المزاح مع روديون.. أما لارا فكان يرمقها بنظرات تبعث في وجنتيها حمرة الحياء.

٢

ظلت السيدة غيشار وولداها حوالي شهر في فندق مونتنيغرو قبل أن ينتقلوا الى منزل بثلاث غرف، قريب من محل الخياطة.

وكان ذلك في اسوأ نواحي موسكو سمعةً. فقد كانت تغصّ بأحياء الفقراء، وبالحانات التي يتردد اليها سائقو السيارات، وببيوت الدعارة، وبما الى ذلك من أماكن اللهو والفجور.

ولم يفاجأ الولدان بقذارة المنزل الذي استأجروه، وبالبق الذي كان يعشش فيه؛ كما أنهما لم يفاجأا بتعاسة الأثاث. فمنذ أن توفي والدهما، درجت والدتهما على العيش بخوف دائم من الفقر. وقد تعوّد روديون ولارا على قول والدتهما أنهم على شفير الخراب، وادركا انهما يختلفان عن أولاد الأزقة؛ ولكنهما، كسائر الأولاد الذين ينشؤون في المياتم، قد احتفظا بخوف عميق كامن من الأثرياء.

وكانت والدتهما مثالاً حياً لهذا الخوف. فهي امرأة بدينة شقراء في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، يتناوبها ضيق النفس ونوبات البلاهة. وقد كانت جبانة الى حدّ مرعب، وكثيرة الذعر من الرجال. ولهذا السبب بالذات، أي بدافع الخوف والاضطراب، كانت تنتقل باستمرار من عشيق الى عشيق.

وفي فندق مونتينيغرو، سكنت العائلة الغرفة رقم ٢٣, وكان يسكن الغرفة رقم ٢٤، منذ تأسيس الفندق، ضارب على الكمان يدعى تيشكيفيتش. وهو رجل أصلع، كثير العرق، لطيف المعشر، يشبك يديه بضراعة ويضمهما الى صدره حينما يحاول أن يكون مقنعاً، ويلقي برأسه

الى الوراء ويدير عينيه مترنحاً، حينما يلعب على كمانه في السهرات وفي الحفلات الموسيقية. وكان لا يلزم غرفته الا لماماً، ويقضي معظم نهاراته في تياترو بولشوي أو المعهد الموسيقي. وكجارٍ للعائلة، كان يبادلها بعض الخدمات. وهذا ما جمع وقرّب بينها وبينه.

وكان وجود الولدين يحرج السيدة غيشار عندما كان يزورها كوماروفسكي. ولذلك كان تيشكيفيتش يترك لها مفتاح غرفته لتستقبل صديقها فيها. وسرعان ما بلغت بها الافادة من هذا الكرم حداً جعله، وفي مناسبات عدة، تدق بابه ضارعة اليه أن يحميها من المحسن اليها.

٣

كان محل الخياطة في بناية بقرب زاوية شارع تفيرسكايا. وكانت تقع، على مسافة خطوات منه، محطة قطار برست، بمستودع آلاتها، ومعداتها، ومساكن موظفيها.

وفي أحد هذه المساكن، كانت تقطن أوليا ديومينا. وهي فتاة حاذقة تعمل عند السيدة غيشار، ويعمل عمها موظفاً في المحطة.

وكانت هذه الفتاة من المهارة في عملها بحيث حاذت على رضا صاحبة المحل السابقة والحالية. وكانت معجبة أشد الاعجاب بلارا غيشار.

ولم يتغير شيء في المحل عما كان عليه في عهد لافيتسكايا. فالآلات مازالت تدور وتدور تحت أقدام الخياطات التعبات، أو تحت ضغط أيديهن. وكانت النسوة قابعات، هنا وهناك، وراء طاولاتهن يعملن بهدوء، وذراع كلٍ منهنّ تمتد كلما غرزن الأبرة وسحبن الخيط الطويل. وكانت أرض الغرفة مليئة بالنفايات، وكان عليك كي تسمع

صوتك أن ترفعه فوق ضجيج الآلات وصراخ كيريل مودستوفيتش ـ الكناري القابع في قفصه بالنافذة، وقد حملت صاحبته السابقة معها الى القبر سرّ اسمه الغريب!

وفي غرفة الاستقبال تجمع الزبائن حول طاولة تحمل كومة من مجلات الأزياء. وكان بعضهم جلوساً، والبعض الآخر واقفين في أوضاع مختلفة شاهدوها في الصور، يتناقشون في الازياء والموديلات. ووراء طاولة أخرى في الغرفة، جلست فانيا سيلانتييغنا فيتيسوفا، مساعدة السيدة غيشار وكبرى قصّاصاتها. وهي امرأة نحيلة ظهرت الشامات على خديها المتهدلين. وكانت تقبض بين أسنانها الصفراء على ممسك سيكارة عظمي، وبعينين نصف مطبقتين راحت تنفخ دخانها المتصاعد من فمها وأنفها، بينما انهمكت في تسجيل القياسات والطلبات والعناوين التي أدلى بها اليها الزبائن المتجمهرون حولها.

ولم تكن السيدة غيشار على شيء من الخبرة في ادارة شؤون المحل. فهي لذلك لم تشعر بأنها صاحبة الأمر والنهي فيه. ولكن العاملات كن أمينات في عملهن، وفيتيسوفا امرأة يمكن الاعتماد عليها. ومهما يكن من الأمر، فتلك أيام صعبة، وقد كانت تخشى التفكير في المستقبل. وكثيراً ما أقعدها اليأس والقنوط.

وكان كوماروفسكي يكثر من المجيء لزيارتها. واذ كان يجتاز المحل في طريقه الى غرفتها، فيفاجيء النساء وهن يقسن ثيابهن، تتمتم الخياطات متبرمات: "ها هو سيادته"، أو "هذا هو مصيبة آماليد"، أو "يا له من عنزة جرباء!"، أو "انه فاتن الحسان!".

وكان كلبه جاك موضوع بغض أكثر منه. فقد كان يصطحبه أحياناً مربوطاً برسن، فيشده بعنف قافزاً مسرعاً يتبعه كوماروفسكي وهو يتعثر ويبسط يديه أمامه كالأعمى وراء من يقوده سواء السبيل.

ومرة انشب جاك انيابه في ساق لارا فمزّق جواربها.

"سأقتل هذا العفريت"، همست أوليا بخشونة في أذن لارا.

"نعم. انه في الحقيقة كلب مخيف. ولكن كيف لك أن تقتليه، يا مسكينة!"

"هسْ. لا ترفعي صوتك. سأخبرك كيف. أرأيت بيضات الفصح الحجرية تلك التي على خزانة ثياب أمك..."

"نعم. انها مصنوعة من الزجاج والرخام."

"عال. قربي لأهمس في أذنك. خذيها واغمسيها في السمن ـ فالوحش القذر يلتهمها ويختنق. وبذلك تكون نهايته!"

وضحكت لارا وهي تشعر بالحسد من اوليا. إنها فتاة عاملة تعيش في فقر.. ومثيلاتها يكنّ عادة متحفظات. ولكن يا لها من فتاة بريئة ساذجة! جاك، البيض ـ من أين يا ترى جاءتها هذه الأفكار؟ "ولماذا"، تساءلت لارا في نفسها "قُدر لي أن أرى كلّ شيء وآخذه كله بمثل هذا القدر من الجد؟"

٤

"أمي له ـ كيف يقولون... هو لأمي... ألفاظ رديئة، لن أتفوه بها. ولكن لماذا ينظر إلي هكذا؟ انني ابنتها، ألست كذلك؟"

وكانت لارا لا تزال في السادسة عشرة، ولكن انوثتها قد اكتملت. حتى ظنها الناس في الثامنة عشرة. وكانت حادة الذهن، طيبة المعشر، بارعة الحسن.

لقد أدركت، هي وأخوها روديا، أن الحياة لا تعطي شيئاً دون كفاح. فهما، بخلاف الكسالى والأثرياء، لم ينعما بأوقات فراغ تتيح لهما الاستطلاع والتأمل السابق لأوانه في الأشياء التي لم تصبح بعد موضوع اهتمامهما العملي. الفائض عن الحاجة وحده دنيء. ولارا كانت

أنقى كائن في الدنيا.

وعرف الأخوان قيمة الأشياء وقدرا ما حققاه حتى الآن. وعلى الناس أن يظنوا بك خيراً، اذا كان لك أن تنجح. وكانت لارا مجتهدة في دروسها، لا لأنها تحب العلم محبة تجريدية، بل لأن خير الطالبات هن وحدهن اللواتي فزن بالمعونة المالية. وكانت تحسن غسل الصحون، والعمل في المحل، وقضاء حاجات والدتها، كما احسنت الدرس. وكانت تتهادى بجلال صامت، وتؤلف ملامحها جميعاً ـ صوتها، قامتها، حركاتها، عيناها الرماديتان، شعرها المائل الى الشقرة ـ كلاً منسجماً اتمّ انسجام.

كان اليوم يوم أحد في منتصف تموز. وفي أيام العطلة يمكنك التأخر في النهوض من الفراش. وكانت لارا مستلقية على ظهرها، ويداها متشابكتان خلف رأسها.

وكان الصمت يخيم على المحل، والشباك المطل على الشارع مفتوحاً. وسمعت لارا صوت عربة يقترب من بعيد، ثم يتحول الى زحلقة خفيفة وقد مرّت الدواليب فوق قضبان سكة الترام. وقالت في نفسها: "سأنام قليلاً بعد". وكانت ضوضاء المدينة اشبه بهدهدة تساعد على النوم.

وأحست لارا بحجمها وموقعها في الفراش من نقطتين في جسدها ـ ذروة كتفها اليسرى، وكبرى أصابع قدمها اليمنى. كل شيء آخر، كان، قليلا أو كثيراً، هي. كان نفَسها، أو كيانها الداخلي، محصوراً في اطارها الخارجي ومتطلعاً بفارغ صبر نحو الغد.

"يجب أن أعود الى الرقاد". فكرت لارا في نفسها، وراحت ترسم في مخيلتها الجانب المشمس من حي صانعي العربات كما ينبغي له أن يكون في مثل تلك الساعة ـ العربات الكبيرة تصطف فوق الأرض المكنسة النظيفة في أكواخ صانعي العربات، والمصابيح الزجاجية،

والدببة المحشوة بالتبن، والحياة العامرة بالغنى. وعلى مقربة من هناك في منحدر الشارع، الفرسان يتدربون في ساحة ثكنة زناميتسكي - الرماة يدورون في حلقة، والرجال يمتطون صهوات جيادهم ويعبرون الساحة الهوينى، ثم خبباً، ثم سباقاً؛ وفي الخارج يزدحم الأولاد مع ممرضاتهم وهم يحملقون من خلال قضبان الحديد.

وعلى مسافة أبعد، فكرت لارا، يقع شارع بيتروفكا. "يا الهي، لارا، يا لها من فكرة! بودي أن أريك شقتي. نحن جاران".

كان ذلك اليوم عيد اولغا، الأبنة الصغرى لصديق من أصدقاء كوماروفسكي يعيش في حي صانعي العربات. وكان الكبار يحيون العيد بالرقص وشرب الشمبانيا. ووجّه كوماروفسكي الدعوة الى أم لارا، ولكنها اعتذرت لسبب انحراف صحتها قائلة: "خذ لارا. تنصحني دائماً ان اعتني بلارا. أما الآن فاعتنِ بها أنت". وهذا ما فعله بالضبط - يا للسخرية!

وكانت كثرة الرقص هي البداءة. يا له من عمل جنوني: تدور وتدور في الحلبة ولا تفكر بشيء. وفيما تصدح الموسيقا، يمرّ الزمن كما تنقضي الحياة في رواية. وما أن تنتهي من الدوران حتى تشعر برجفة، كأنما صُبَّ عليك ماء بارد أو فوجئت وأنت عارٍ. وبالطبع، فأنت تسمح لأي كان أن يعاملك بإلفةٍ، لا لسبب الا لكي تري الآخرين كم كبرت في السن.

ولم يكن يخطر ببال لارا أنه يجيد الرقص بمثل تلك البراعة. ما أخفَّ يديه، وما أشد ثقته بنفسه حين يطوق خصرك! ولكنها لن تسمح لأحد بعد الآن أن يقبلها هكذا. ولم تكن تتصور أن في شفتي أحدٍ هذا القدر من الوقاحة حين يطبقهما على شفتيك.

عليها أن تضع حداً لهذا السخف. عليها أن تقلع عن التظاهر بالحياء، فلا تطبق جفنيها ولا تخفض نظراتها - وإلا انتهى بها الأمر الى خراب. هنالك حدّ، اذا تجاوزته وقعت في هاوية. وهذا أصل الشر. عليها

أن ترفض بجرأة ـ فتدعي انها لا تعرف الرقص، أو أنها تشكو من كسر في الساق.

٥

في ذلك الخريف، حدث تذمر بين عمال شبكة الخطوط الحديدية في موسكو. فقد أضرب العمال على خط موسكو ـ كازان، وكان من المتوقع أن ينضم اليهم عمال خط موسكو ـ برست. فالقرار قد اتخذ، ولكن لجنة الاضراب كانت لاتزال تتناقش في تعيين تاريخ البدء به. وكان الجميع على علم بأن الاضراب واقع لا محالة، وأنه رهن بايجاد العذر.

وجاء مطلع تشرين الأول قارس البرد. وهو اليوم الذي كانت تدفع فيه الأجور. ولم يكن منذ زمن قد ورد خبر بهذا الشأن من دائرة الحسابات. ثم كان ان قدم رسول الى المكتب يحمل ورقة الدفع وكومة من السجلات التي روجعت لتخفيض الضرائب. وبدأ أمين الصندوق بدفع الأجور، وقد انتظم العمال في صف طويل يمتد بين البنايات الخشبية التي كانت تشغلها الادارة وبين المحطة.

وعبق الهواء برائحة الشتاء في المدينة ـ رائحة الأوراق الصفراء المتساقطة، والثلج الذائب، ودخان الآلات، والخبز الساخن الخارج من الفرن في الطابق السفلي من المحطة. وكانت القطارات تروح وتجيء. فتارة تفصل بعضها عن بعض، وطوراً تُربط، وفقاً للاشارات التي كان يصدرها مدير السير. وكان الصفير يدوي، والآلات تقف أو تتحرك، والدخان يتصاعد سحائب سحائب في الفضاء.

وكان فوفليجن، مدير القسم، وبافيل فيرابونتوفيش انتيبوف، مراقب السكة في منطقة المحطة، يذرعان حافة الخطوط جيئة وذهاباً. وكان انتيبوف قد ازعج عمال دائرة التصليح بكثرة إلحاحه على جودة

قطع الغيار اللازمة لاصلاح السكة. فالحديد لم يكن في صلابة كافية، والخطوط قد تعجز عن الصمود تحت وطأة الضغط. ورأى انتيبوف ان هذه الخطوط لابد من أن تتحطم في الطقس البارد. على أن الادارة لم تحفل برأيه.ذلك أن أحداً ما كان يكسب من وراء التزام مدّها.

وكان فوفليجن يرتدي معطفاً فاخراً من الفرو، وقد خيط عليه شريط بزة عمال السكة. وكان المعطف مفكوك الأزرار، ينشق عن ثوبه المدني الجديد. وراح فوفليجن يدوس الأرض برفق، ويحدج برضا أناقة هندامه. فهو لذلك لم يكن يصغي تمام الاصغاء لما كان يقوله انتيبوف. ثم لقد كان لفوفليجن أفكار خاصة به. فكان دائم التطلع الى ساعته. فلعله كان يستعجل الذهاب.

"صحيح، صحيح، يا صديقي"، قاطعه بنفاد صبر، "ولكن لا خطر في هذا الا على الخطوط الرئيسية حيث يكثر السير. فانظر الى ما لديك هنا: منعطفات وسدود، صبّار ونباتات شائكة. أما حركة السير - فلا أكثر من قاطرة لفرز العربات الفارغة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ لعلك فقدت صوابك! تتحدث عن الفولاذ - والخشب يصلح، خصوصاً هنا..."

ونظر فوفليجن الى ساعته، فأغلقها، وتطلع الى البعيد، حيث تمتد طريق نحو المحطة. واذا بعربة مقبلة عند منعطف الطريق. هذا الموعد الذي كان يترقبه. لقد جاءت زوجته. وأوقف الحوذي العربة على مقربة من السكة، وهو يخاطب الجوادين بصوت انثوي مرتفع، كحاضنة توبخ صغارها الأشقياء. فقد ذعر الجودان من القطارات. وكانت تجلس في صدر العربة امرأة بارعة الجمال.

وقال فوفليجن لرفيقه:

"لحديثنا صلة. أما الآن..."

قال ذلك بتلويحة من يده، كأنما يعني: "لديّ ما هو أهم من الخطوط الحديدية لأفكر به". وانطلقت العربة بالزوجين.

٦

بعد ثلاث أو أربع ساعات، وقد كاد يقبل الغسق، نهض شبحان عن الأرض. واذ التفتا فوق اكتافهما الى الوراء، ذهبا مسرعين. وكان ذلك على مسافة من السكة، حيث لا أحد قد ظهر حتى ذلك الحين.

"لنسرع!" قال تيفرزين. "لا يقلقني أن يكون الجواسيس يتبعوننا. ولكن ما ان ينتهي هؤلاء الخبثاء في حجرهم من عملهم حتى يخرجوا ويلحقوا بنا. لا أطيق رؤيتهم. ما نفع وجود لجنة اذا كنت تتباطأ في تنفيذ الأعمال. أنت تلعب بالنار، ثم تسرع في طلب الملجأ. يا لك من رجل طيب، أنت - تؤيد تلك الزمرة!""زوجتي داريا. عليّ أن آخذها الى المستشفى. فحتى أفعل ذلك، لا أستطيع أن أفكر بأمر آخر."

"يقال انهم يدفعون الأجور اليوم. سأذهب الى المكتب. فاذا لم يدفعوا لي فسأخنقهم - والله سأفعل. وسأضع حداًلكل هذا بنفسي، ولن اصبر دقيقة."

"وكيف يكون ذلك، اذا سمحت لي أن اسأل؟"

"المسألة سهلة. اذهب الى غرفة المحركات وانفخ الصفارة. هذا كل شيء."

وافترق الرجلان، فذهب كل منهما في جهة.

سار تيفرزين عبر الخطوط الحديدية متجهاً نحو المدينة. والتقى أناساً عائدين من المكتب وقد قبضوا أجورهم. وكانوا كثيرين. فتبين أن جميع عمال المحطة تقريباً قد قبضوا.

وكان الظلام يشتد، والأنوار تشع في المكتب. وكان العمال البطّالون متجمهرين في الساحة خارجاً. وفي البهو وقفت عربة فوفليجن، وفيها جلست زوجته وهي لم تتحرك مكانها. فكأنها ظلت

فيه منذ الصباح. وكانت تنتظر زوجها الذي جاء لقبض أجرته.

وفجأة بدأ الثلج يتساقط. ونزل الحوذي من مقعده ليضع غطاء العربة. وراح فوفليجن، وهو يسند قدمه الى مؤخر العربة، يتأمل بإعجاب حبات الثلج وهي تلمع في ضوء المصابيح المشتعلة في المكتب. أما زوجته فقد كان نظراتها الحالمة تحدق فيما وراء رؤوس العمال، بحيث انها كانت توحي بقدرتها، اذا ما دعت الحاجة، الى اختراقهم كما تخترق الثلج أو الضباب.

ولحظ تيفرزين أماراتها. فادهشته. ومرّ بها دون أن يحييها. وقرر أن يرجىء قبض أجرته الى وقت آخر، كي لا يلتقي زوجها في المكتب. واجتاز الساحة الى الجانب الآخر، في اتجاه المشغل والدائرة السوداء التي تتفرع منها سكك الحديد نحو المستودع.

"تيفرزين! كوبريك!" تصاعدت بعض الأصوات في الظلمة. وكان هنالك جماعة خارج المشغل، وفي الداخل كان أحدهم يصرخ وصبي يصيح. "ادخل لنجدة هذا الصبي، يا كوبريان سيفليفيتش"، قالت له امرأة من بين الجمع.

كان بيوتر خودولييف، كعادته، يجلد صانعه الصغير يوسوبكا.

ولم يكن خودولييف دائماً يعذب صناعه أو يدمن على الخمر. فقد مرّ زمن كان فيه، وهو عامل نشيط، ينتزع اعجاب بنات التجار والقس في ضاحية موسكو الصناعية. غير أن الفتاة التي عشقها، واسمها مارفا، والتي تخرجت تلك السنة في مدرسة الراهبات، صدته وتزوجت من صديقه العامل الميكانيكي سافيلاي نيكيتيش، والد تيفرزين.

وبعد مرور خمس سنوات على نهاية سيفلاي المرعبة (مات محترقاً في حادثة اصطدام عام ١٩٨٨)، استأنف خودولييف تودده لمارفا كافريلوفنا، ولكنها صدته مرة ثانية. وهكذا لجأ الى المسكر والتشرد، محاولاً أن يتساوى مع عالم يلام، كما كان يعتقد، على كل مصائبه وويلاته.

وكان يوسوبكا ابناً لجيماذدين، حارس البنايات التي يسكن فيها تيفرزين. وقد حضن تيفرزين الولد تحت جناحه، وهذا ما زاد في عداوة خودولييف.

وصاح خودولييف، وهو يجر يوسوبكا بشعره ويضربه على رقبته. "أهكذا يمسكون قضيب الحديد، يا آسيوي؟ أهكذا ينزعون الغطاء أيها التتري؟"

"آخ. لن أفعل ذلك مرة ثانية، يا عمي. آخ، لن أفعل ذلك مرة ثانية. آه، هذا يوجعني!"

"اخبرته ألف مرة: ركز القالب أولاً ثم شدّ البرغي. ولكن لا، يجب دائماً أن يفعل ذلك على طريقته الخاصة! كاد يكسر الدولاب، هذا اللعين!"

"لم أمسّ الدولاب؛ بالصدق لم أمسّه!"

وهنا صرخ تيفرزين، وهو يشق طريقه وسط الجمع:

"لماذا تعذب هذا الصبي؟"

"هذا لا يعنيك"، صاح خودولييف.

"اسألك: لماذا تعذب هذا الصبي؟"

"وأنا أقول لك أن تذهب من هنا وإلا وقعت الواقعة، أيها الاشتراكي الحشري. القتل قليل على هذا القذر. فقد كاد يكسر دولابي. ليشكر حسن طالعه على بقائه حتى الآن على قيد الحياة ـ هذا الشيطان الخبيث. كل ما فعلته لتأديبه هو أنني فركت أذنيه وشددت شعره قليلاً!"

"أنت تعتقد، اذن، أن رأسه يجب أن يُقطع جزاء ما فعل. اخجل من نفسك، من كان رئيس عمل مثلك ـ شاب شعرك ولكنك لم تتعلم الرزانة بعد!"

"اذهب، اذهب من هنا، أقول لك، وأنت لاتزال شقفة واحدة سأفزرك فزراً. تعظني، يا ذنب الكلب؟ لقد صُنعتَ على سكة الحديد، بين سمع

ابيك وبصره. اعرف أمك، العاهرة، القطة الهزيلة، الخرقة البالية!"

وما حدث بعد ذلك لم يستغرق دقيقة. فقد قبض كل من الرجلين على ما كان حوله من أدوات وقطع حديدية، وراح يحاول أن يرمي بها الآخر. ولو لم يتدخل الناس للفصل بينهما، لسقط أحدهما قتيلاً. وكان خودوليف وتيفرزين يقفان وجهاً لوجه، مطأطِئي الرأس، واحمرار الحقد والغضب يملأ عيونهما. وقد بلغ من هياجهما انهما لم يقويا على الكلام. وكان المصلحون يمسكون بأيديهما، مانعينهما من الوصول، واحدهما الى الآخر. وكانا يحاولان التملص من قبضة رفقائهما، فينتفضان ويهزان جسديهما، ولكن دون جدوى. وتطايرت من جراء ذلك أزرار سترتيهما وقميصيهما فعرّت اكتافهما. وكان الضجيج يتعالى حولهما.

"الازميل. أبعدْ الأزميل عنه. والا ضرب به رأسه. على مهل، على مهل، يا بيوتر، لئلا نكسر ذراعك. ما لنا نلهو بهما هكذا: لنجرّهما بعيداً، واحدهما عن الآخر، ونقفل عليهما وينتهي الأمر!"

وفجأة تمكن تيفرزين، بقوة خارقة، ان يتملص من مقيديه وينطلق نحو الباب. فتبعوه، ولكنهم حين أدركوا أنه غيّر رأيه تركوه. وخرج تيفرزين من الباب وسار دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. وأطبق عليه ليل الخريف البارد الرطب. "تحاول أن تساعدهم فينقضوا عليك بسكين"، تمتم في نفسه. وكان يسير قدماً ولا يدري الى أين.

هذا العالم الدنيء المزيف، الذي بلغت فيه الوقاحة بأمرأة شبعانة فوق حد الشبع درجة التحديق في جمع من العمال، وود فيه أحد ضحايا المسكر لذة في تعذيب رفيق له ـ هذا العالم قد أصبح أبغض اليه الآن مما كان قبلاً. وأسرع في سيره كأنما في الاسراع تعجيل مجيء الوقت الذي تصبح فيه الدنيا بمثل الانسجام والاتزان الذي كانت عليه الآن في رأسه المحموم. وكان يعلم أن ما عانوه في بضعة الأيام الأخيرة، وما جرى على

الخط الحديدي من اضطراب، وما ألقي من خطب في الاجتماعات، وما تقرر من إضراب ـ لم ينفذ بعد ولكنه لم يلغَ.

ـ كان كله مراحل متقطعة على الطريق الطويلة نحو المستقبل.

على أنه كان في تلك اللحظة من الهياج بحيث أراد أن يركض طول الطريق بدون أن يتوقف للتنفس. ولم يكن يدري أين هو ذاهب بخطواته الواسعة، ولكن قدمه كانت تعلم جيداً الى أين هي سائرة به.

ولم يصل الى تيفرزين خبر القرار الذي اتخذته اللجنة ببدء الاضراب تلك الليلة، الا بعد أن غادر مع انتيبوف الملجأ الكائن تحت الأرض بمدة طويلة. فقد قرر حينذاك أيهما يذهب والى أين، وأي العمال يجب توجيه الدعوة اليهم. وفي تلك اللحظة التي تعالى فيها صفير الآلة في معمل التصليح، كأنها خارجة من عمق أعماق نفس تيفرزين، بخشونة أولاً ثم شيئاً فشيئاً بنعومة، كانت جماعة غفيرة تزحف من المستودع وباحة الشحن. ثم لم يلبث أن انضم اليها آخرون من غرفة الوقيد، وقد تركوا عملهم عندما سمعوا اشارة تيفرزين.

وظل تيفرزين يعتقد، بعد ذلك بسنين، أنه هو وحده الذي أوقف العمل وحركة السير على ذلك الخط الحديدي تلك الليلة. ولم يعرف حقيقة الأمر حينما أحيل الى المحاكمة بتهمة الاشتراك في الاضراب، لا التحريض عليه.

فقد كان الناس يتراكضون متسائلين: "أين أنتم ذاهبون؟ ما الغرض من هذه الاشارة؟" فيأتي الجواب من داخل العتمة: "لستم أصماء".

"انها النار. هذه صفارة الانذار. يريدوننا أن نطفئها!"

"أين النار؟"

"يجب أن تكون النار، والا لما نفخوا صفارة الانذار!"

وكانت الأبواب تفتح، والعمال يهرعون منها الى الخارج. وكانت اصوات أخرى تتردد في الظلمة: "النار؟ يا لكم من حمقى! انه

الاضراب، ألا ترون؟ دعوهم يأتون بمن ينفذ لهم اطماعهم، سوانا. لنعد، أيها الرجال!"

وتزايد عدد المنضمين الى الجمهور. وأصبح عمال السكة الحديدية في اضراب.

٧

وعاد تيفرزين الى بيته بعد ذلك بيومين، وهو ناعس غير حليق، ويكاد يقتله البرد. فقد أطبق الصقيع، على غير عادته في ذلك الوقت من السنة، ولم يكن تيفرزين بثياب الشتاء. وعلى مدخل المسكن، التقاه الحارس جيمازدين قائلاً:

"شكراً لك، يا سيد تيفرزين. لم تدع الأذى يلحق بيوسوبكا. سأصلي من أجلك دائماً".

"أجننت يا جيمازدين حتى تدعوني بـ"سيد"؟ قل ما تريد قوله بسرعة، فالبرد، كما ترى، قارس!"

"لماذا تحسّ بالبرد؟ فسرعان ما ستدفأ، يا كوبريان سيفيليتش. انا وأمك مارفا كافريلوفنا اشترينا البارحة كومة كبيرة من الوقود في المحطة - كله خشب جاف، رائع."

"شكراً لك يا جيمازدين. اذا كان هنالك ما تريد أن تخبرني به، فأسرع. أكاد أموت من البرد!"

"أريد أن أخبرك ألاّ تنام الليلة في البيت، يا سيفيليتش. عليك أن تختبىء. البوليس جاء يسأل مراراً عمن يأتي الى هنا. لا أحد، قلت لهم. زميلي يأتي فقط، وعمال المحطة. لا غرباء ههنا. بحياتكم، لا أحد"!

وكان تيفرزين عازباً، ويسكن مع والدته وأخيه الأصغر المتزوج.

وكان المسكن ملك كنيسة الثالوث الأقدس. وفي جملة ساكنيه بعض الرهبان وأفراد رابطتي اللحامين والبقالين ـ ولكن معظمهم عمال على خط موسكو ـ برست الحديدي.

وكان المسكن من حجر، يحيط بساحته القذرة الموحلة معبر خشبي. ومنه تفرع عدد من السلالم الخارجية الوسخة الزّلق، تعمرها الفئران وأعقاب الملفوف، وفي الطابق السفلي دهاليز ومخازن.

وحمل شقيق تيفرزين السلاح في الحرب كمجند، وجرح في معركة ووفنكو. وكان الآن في المستشفى العسكري بكر اسنوياركا يتماثل الى الشفاء. وقد ذهبت زوجته وبنتاه لزيارته واعادته الى البيت (كان يحق لعائلة تيفرزين، لأنها توارثت العمل في المحطة اباً عن جد، ان تسافر في القطار، في جميع أنحاء روسيا، ببطاقة رسمية). وكان البيت، إذاً، هادئاً. فلم يكن يسكنه الآن سوى أمه.

"كان البيت يقع في الطابق الثاني، وخارجه خزان ماء يُملأ بانتظام. ولحظ تيفرزين، في صعوده، ان الغطاء زاحل عن فم الخزان، وان سطلاً يقف على وجه الماء المتجمد. "بروف، كان هنا"، قال في نفسه. وأضاف: "يا له من "شريّب". حلقه يجب أن يكون من نار". وكان بروف أفياناسيافيتش سوكولوف، قندلفت الكنيسة، أحد أقرباء والدة تيفرزين.

وانتزع تيفرزين السطل عن الجليد وفتح الباب، فاستقبلته من المطبخ موجة من الهواء الساخن ورائحة الطعام الشهية.

"النار مشتعلة جيداً، يا أمي. انه مكان دافىء مريح هنا." وهجمت الأم عليه تحتضنه وتبكي. فربتها على رأسها، وبعد قليل ابعدها عنه.

"من لا يجازف، لا يربح، يا أمي. الخط أضربَ من موسكو الى وارسو."

"أعرف. لذلك أنا أبكي. سيطاردونك يا كوبرينكا. عليك أن تهرب!"

"يا له من صديق طيب لك، هذا بيوتر. كاد يكسر رأسي!"

وكان تيفرزين ينوي بهذا القول أن يضحكها، ولكنها أجابت بجد: "خطيئة أن تضحك منه يا كوبرينكا. يجب أن تشفق عليه. انه مسكين، سكير!"

"القوا القبض على انتيبوف. جاؤوه في الليل، فتحروا مسكنه، قالبين كل شيء رأساً على عقب، وأخذوه هذا الصباح. وزوجته داريا في المستشفى مصابة بداء التيفس. وولدهما الصغير، باشا، الطالب في المدرسة، وحده في البيت مع عمته. وسوف يطردونهما من البيت. أظن أنه علينا أن نُسكن الولد معنا. ماذا كان يريد بروف؟"

"كيف علمت أنه جاء الى هنا؟"

"رأيت خزان الماء مفتوحاً والسطل على سطحه المتجمد. لا بدّ أنه بروف - يجرع الماء، قلت في نفسي."

"ما اذكاك يا كوبرينكا. نعم، كان هنا. جاء في طلب بعض الحطب، فأعطيته. ولكن ما هذا الذي اتحدث به. ويحي من معتوهة. نسيت أن اخبرك ما حمله الي بروف من أخبار. تصوّر يا كوبرينكا! وقّع القيصر بامضائه على بلاغ... وكل شيء سيتغير - كل مواطن سيعامل بعدل، والفلاحون سيمنحون أرضاً، والعامة ستتساوى مع الخاصة! انه، بالفعل، وقعه، يقول بروف، ولم يبق عليه الا أن يذيعه. وقد أرسل السنودس شيئاً ليتلا في القداس... صلاة شكر أو ما الى ذلك. اخبرني نصه ولكنني نسيت!"

٨

وجاء باشا انتيبوف، الذي القي القبض على أبيه بتهمة تنظيم الاضراب، للسكن مع عائلة تيفرزين. وكان والداً نظيفاً، مهذباً، حسن

الوجه، أحمر الشعر. وكان دائماً يمشط شعره المفروق في الوسط، ويسوي هندامه، ويضبط شارة المدرسة على حزامه. وكان خفيف الظل، شديد الملاحظة، يثير الضحك بتقليده البارع لكل ما يراه أو يسمعه.

وما أن أذيع بلاغ ١٧ اكتوبر حتى دعت منظمات ثورية عديدة الى القيام بتظاهرة كبرى، تخترق الشارع الذي يصل بين بوابة تفر وبوابة كالوكا عند الطرف الآخر من المدينة. ولكن هذا المسعى قد انطبق عليه المثل القائل: "كثرة الطباخين تفسد الطعام". فقد تخاصم منظمو التظاهرة فيما بينهم، وانسحبوا واحداً بعد الآخر. ولكنهم ما إن علموا أخيراً أن الناس تجمهروا على كل حال، حتى ارسلوا ممثليهم لقيادة التظاهرة.

واشتركت والدة تيفرزين بالتظاهرة، رغم الجهد الذي بذله ولدها لمنعها من ذلك. وكان يرافقها باشا.

وكان الطقس بارداً في ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني، والفضاء رصاصياً ساكناً، ونديف الثلج يتساقط واحداً بعد الآخر. وكان يدور ويغزل بسرعة قبل الوقوع على الرصيف، كأنه غبار رمادي ناعم.

وفي الشارع، كان الناس يزحفون كالتيار - وجوه، وجوه، وجوه، معاطف شتائية، قبعات من جلود الغنم، رجال ونساء وطلاب، شيوخ وأولاد، عمال المحطة ببزاتهم الرسمية، عمال الترام والتلفون بأحذية تصل حتى الركب، وبمعاطف من جلد، فتيات وفتيان...

وكانوا ينشدون "المرسيلييز"، و"فارشافينكا"، و"ضحايا أنتم تسقطون". ولم يلبث رجل كان يسير في مؤخرة الموكب، منشداً وملوحاً بقبعته، أن التفت حوله ووضع قبعته على رأسه. وراح يصغي إلى ما يتحدث به القادة الآخرون حوله. وانقطع الانشاد واستحال الى فوضى. وأصبحت الآن تسمع وقع الأقدام التي لا تحصى على أرض الشارع المتجمدة.

لقد تلقى القادة من مؤيديهم أن الكوزاك يكمنون للمتظاهرين في مؤخرة الشارع. وورد الخبر في مخاطبة تلفونية الى احدى الصيدليات القريبة.

"لا بأس." أجمع منظمو التظاهرة". علينا أن نحتفظ بهدوئنا، فلا يدب فينا الذعر. هذا هو المهم يجب أن نحتل أول بناية نصل إليها. حذّروا الشعب، ولنتفرق؟"

واحتدم الجدل حول أي بناية تصلح للجوء اليها. فاقترح بعضهم بناية جمعية الموظفين التجاريين، وبعضهم الفنون، والبعض الآخر معهد المراسلة الأجنبية.

وبينما هم في هذا الجدل، وصلوا الى مفترق بناية أحد المعاهد. وكانت تصلح لغرضهم، ككل البنايات التي اقترحوها.

وما أن أصبح المتظاهرون بازاء مدخل البناية، حتى مال القادة اليه وتسلقوا درجات السلم الخارجي واشاروا على الجماهير بأن يتوقفوا. وانفتحت الأبواب فتدفق اليها الناس حتى غصت بهم.

"الى القاعة الكبرى. الى القاعة الكبرى!" صاحت بعض الأصوات في المؤخرة. ولكن الجماهير ظلت في تدفقها الى الامام، تملأ الأروقة وغرف الدرس. وحين نجح القادة، أخيراً، في توجيه التدفق الى القاعة الكبرى، راحوا يحذرون الناس من الكمين المنصوب لهم في نهاية الشارع ولكن دون جدوى. فالتوقف والدخول الى بناية، كان عندهم بمنزلة الدعوة الى اجتماع. وقد بدأ هذا الاجتماع، بالفعل، في الحال.

فبعد كل ذلك السير والانشاد، كان الناس يتوقون الى الجلوس بهدوء، تاركين لسواهم إكمال العمل الذي بدؤوا به. فما أن وجدوا فرصة للراحة، حتى تجاهلوا الفروق القائمة بين الخطباء الذين اتفقوا، مع ذلك، على القضايا الأساسية. وكان، في آخر الأمر، ان أسوأ الخطباء هو الذي فاز بقدر أكبر من التصفيق. فلم يبذل المستمعون أي جهد للاصغاء اليه،

بل اكتفوا بصراخ الاستحسان لدى كل كلمة فاه بها. وكان يتصاعد من حين الى آخر صياح "العار العار". وتلي نص برقية فووفق عليها. وفجأة نزل الضجر بالجماهير فراحوا ينسحبون شيئاً فشيئاً، هابطين السلالم المؤدية الى الخارج. واستأنفوا التظاهرة.

وفيما كان الاجتماع منعقداً، بدأ الثلج يتساقط بكثرة. فبدت الشوارع بيضاء. وازداد سقوط الثلج.

وحين انقضّت عليهم جياد الكوزاك، لم يدرِ بذلك الذين في مؤخرة الموكب. ولكن عريراً وصراخاً كان يترامى اليهم: "هورا!" و"النجدة، النجدة!" و"اقتلوهم". وفي اللحظة نفسها تقريباً، ومع موجة الأصوات تلك، كانت رؤوس الجياد وفرسانها، تمرّ بسرعة وبهدوء.

نصف كتيبة من الفرسان مرّت بالمتظاهرين. واذ دارت، وانتظمت، انقضّت على مؤخرة الموكب. وبدأت المجزرة.

وبعد دقائق معدودات، كان الشارع الكبير خالياً. لقد تفرق الناس في الأزقة المتفرعة منه. وخفّ سقوط الثلج. وجف النهار كلوحة مرسومة بالفحم ثم أشارت الشمس، وهي تغرب وراء المنازل، كما لو كان بإصبعها، الى خوذات الفرسان الحمراء. وكانت في الساحة راية تنسحب على الأرض، وقطرات دم حمراء على الثلج.

وكان رجل مشقوق الرأس يئن ويزحف بمحاذاة الرصيف. وفي نهاية الشارع الذي وقعت فيه المجزرة، مرّ بضعة فرسان عائدين الى الوراء. وتحت أقدام الخيل تقريباً، كانت مارفا تفرزينا، وقد تدلى شالها على مؤخرة رأسها، تصيح بجنون: "باشا! باشا!"

كان باشا برفقتها طوال الوقت، يضحكها بتقليده آخر خطباء الاجتماع. ولكنه اختفى فجأة، عندما هجم الكوزاك.

وهوت على ظهرها ضربة من الجنود. ومع أنها لم تشعر بها الا قليلاً لسماكة معطفها، فقد شتمت وهزت قبضتها في وجوههم وهم

يتراجعون سراعاً. ذلك انها استنكرت تجرؤهم على ضرب امرأة عجوز مثلها، وبخاصة أمام الناس.

وفيما كانت تلتفت بقلق من رصيف الى رصيف، أسعدها الحظ بأن تلمحه من بعيد واقفاً في خلوة بين حانوت للبقالة وبناية حجرية خاصة بالسكن، حيث حاصر فارس من الكوزاك بعض المارة. واذ لذّ له رعبهم، راح يلاعب حصانه ويلهو به كما لو كان في سيرك. وبغتة رأى زملاءه عائدين، فتهيأ وانضم اليهم حين مروا به.

وتفرق الجمع. اما باشا فقد هجم، ولسانه يعقده الذعر، الى لقاء مارفا كافريلوفنا.

وفي العودة الى البيت، لم تنفك المرأة تدمدم غاضبة: "يا لهم من مجرمين ملاعين! الناس فرحون لأن القيصر منحهم الحرية، ولكنَّ هؤلاء القتلة السفاحين لا يطيقون ذلك. انهم يفسدون كل شيء، ويقلبون كل كلمة ظهراً لبطن".

وكانت غضبى من الفرسان، غضبى من العالم بأسره، وفي تلك اللحظة غضبى من ولدها ذاته. فحين تكون في ساعة هياج، يخيل اليها أن ما حلّ أخيراً بها من مصائب، يقع اللوم فيها على رفقاء كويرينكا "الخابطين المخبوطين" كما كانت تسميهم.

"ماذا يريدون؟.. هؤلاء المعتوهون؟ هم أنفسهم لا يعرفون. حسبهم ان يفعلوا الشر، هؤلاء الأفاعي. مثل ذلك المهذار. أرني مرة ثانية، يا باشا، أرني كيف كان يخطب. أوه! سأموت من الضحك. تقلده تقليداً حسناً. بظ، بظ، بظ ـ تريا لا للي!"

وما أن بلغت البيت حتى أنحت باللائمة على ولدها. أهي في عمرٍ يجلدها فيه على ظهرها مخلوق مطعوج الرأس، راكب على حصان؟

"بربك، يا أمي: ماذا تحسبينني؟ أتحسبين أنني قائد كتيبة الكوزاك أم مدير البوليس؟"

٩

ابصـر نيكولاي نيكولايفيـتـش المتظاهرين الهـاربين، من نافـذته. وعـرف من هم، وترقب أن يرى يورا بينهم. ولكن أحداً من أصـدقـائه لم يكن هناك، مع أنه ظن أنه لمح ابن دودوروف ـ لا يستطيع أن يذكر اسمه ـ ذاك المتـهـوس الذي أخرجت مـؤخـراً من كـتـفـه رصـاصـة، والذي كـان يتسكع في أماكن لا شأن له فيها.

وكان نيكولاي نيكولايفيتش قد وصل من بطرسبرج ذلك الخريف. ولم يكن له مسكن في موسكو، ولم يشأ ان ينزل في الفندق، فحلّ ضيفاً على بعض أقربائه الأبعدين، عـائلة سفـينتيـتسكي. فانزلوه في الغـرفـة الواقعة على الزاوية في الطابق الثاني.

ولم يكـن لهـذه العـائلـة أولاد. وهذا المسكن الذي استـأجـره الأبوان المتوفَان مـن امراء آل دولغـوروكي منذ زمن بعـيد، كـان كـبيـراً عليـهم.. وكـان جزءاً من مـجموعـة المنازل المتنافرة، المتـعـددة الطراز، ذات البـاحـات الثـلاث والحديقة التـي تقع في ممتلكات آل دولغـوروكي. وكـان يحيط بـهـا ثلاثة أزقة تعرف باسم "بلدة الطحين" القديم.

ورغم شـبابيكهـا الأربعـة، كـانت الغـرفـة مـعـتـمـة، تعـمرهـا الكتب والأوراق والسـجـاجـيـد والصـور. وكـان لهـا شرفـة في شبـه نصف دائرة، تحـيـط بزاوية المنزل. وكـان البـاب الزجـاجي المؤدي الى الشـرفـة مـغلـقـاً لمناسبة حلول فـصل الشتـاء.

وكـان باب الشـرفـة واثنان من الشـبـابيك يطلون على زقـاق ضـيق مـسـتطيل، تمتد عليه خطوط حديدية رفـيـعـة ويحـيط به صف متـعـرج من المنازل والسياجات.

وكانت الظلال الليلكية تبلغ الغرفة من الحديقة، والأشـجار المثقلة

بالصقيع، ذات الأغصان الشبيهة بخيوط الدخان المتصاعدة من شمعة، تبدو كأنها تودّ أن تلقي بأعبائها على بلاط الغرفة.

ووقف نيكولاي نيكولايفيتش يحدق في البعيد. وتذكر شتاءه الماضي في بطرسبورج... غابون (الذي كان يظن أنه زعيم ثوري، بينما كان في الواقع جاسوساً للحكومة)، وغوركي، والزيارة التي قام بها لرئيس الوزراء ويتي، والأدباء ذوو النزعة الحديثة. لقد هرب من هذا العجيج والضجيج الى سلام العاصمة القديمة وهدوئها لكي يضع الكتاب الذي اعتزم كتابته. غير أنه انتقل من تحت الدلف الى تحت المزراب. فكان عليه أن يحاضر كل يوم - معهد الدروس النسائية في الجامعة، الجمعية الدينية الفلسفية، جمعية الصليب الأحمر، صندوق الاضراب - فليس من دقيقة يخلو بها الى نفسه. ما كان يعوزه هو الهرب الى سويسرا، الى أقليم قصي في الغابات، الى هدوء البحيرات، الى الجبال، الفضاء، الهواء الحامل الصدى، المتجاوب دائماً.

وادار نيكولاي نيكولايفيتش وجهه عن الشباك. وشعر بالرغبة في زيارة أحد أو بالتجول في الشوارع، ولكنه تذكر أن فيفولوخنوف، التولستوي، آتٍ لزيارته بمهمة ما. فراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وهو يفكر بابن أخيه.

فحينما انتقل نيكولاي نيكولايفيتش من معتزله على الفولغا الى بطرسبورغ، ترك يورا في موسكو، حيث له عدد من الأقرباء: عائلات فيدينيابين، اوسترومايسلينسكي، سليافين، ميخائيليس، سفانتيتسكي، وغروميكو. وفي البدء، نزل يورا عند الشيخ المهذار اوسترو مايسلينسكي المعروف بين اقربائه بفيدكا. وكان فيدكا يعيش في الخطيئة مع ممرضته موتيا ،ولذلك كان ينظر الى نفسه كمقلقٍ للنظام الاجتماعي القائم، وكحامل لواء الفكر التقدمي. فهو لم يبرر ثقة اقربائه به، بل انه أخذ المال الذي إئتمن عليه لانفاقه على يورا فأنفقه على

نفسه. وهكذا نُقل يورا الى بيت غروميكو، وقد كان بيت علم وأدب.

وكان نيكولاي نيكولايفيتش يعتقد أن الجو عند آل غروميكو أصلح ليورا بكثير. فهناك ابنتهم تونيا، وهي بعمر يورا. وكان ميشا غوردون، وهو صديق يورا وزميله في المدرسة، يسكن معهم.

"يا له من مثلث!"، قال نيكولاي نيكولايفيتش في نفسه. لقد كان الثلاثة متبحرين في "معنى الحب" وفي "صوناتا كروتزر"، وكان ولع في التبشير بالعفة. ومن حق من كان في سنهم، بالطبع، ان يولع الى حدّ الهدس بالعفة والطهارة. ولكنهم كانوا يغالون في ذلك، ففقدوا جانب الاتزان.

كم كانوا صبيانيين متهوسين اولئك الثلاثة! فلسبب ما دعوا نطاق الحس، الذي كان يقلقهم كثيراً، بـ"البذاءة"، واستعملوا هذا التعبير في محله وفي غير محله. يا له من تعبير خاطىء! فـ"البذاءة" تعبير يطلق على الغريزة، وعلى الفسق، وعلى الاستمتاع بالنساء، وعلى عالم الطبيعة كله تقريباً. وقد كانوا يحمرون خجلاً، او يصفرون، حينما كانوا يتلفظون بهذه الكلمة.

"لو كنت في موسكو"، قال نيكولاي نيكولايفيتش في نفسه، "لما سمحت لهذا الأمر ببلوغ هذا الحدّ. الاعتدال ضروري، ولكن ضمن حدود... آه! نل فيو كتيستوفيتش، أدخل!"

وهرع إلى الباب يفتح لضيفه ويرحّب به.

١٠

ودخل رجل بدين يرتدي قميصاً رمادياً تولستوياً بحزامٍ جلديّ عريض، وحذاءً من الفلّين، وبنطلوناً مقبّباً عند الركبتين. وبدا أشبه ما يكون برجلٍ طيب النفس، شارد الذهن؛ ترتجف على أنفه نظارتان

مربوطتان بشريطٍ أسود عريض. وكان قد بدأ يخلع أشياءه في البهو، ولكنه لم ينزع عنه شاله، فدخل وهي تنسحب وراءه على البلاط، وقبعته المستديرة ما برحت في يده. فحالت هذه العوائق دون مصافحة نيكولاي نيكولايفيتش، ومنعته حتى من السلام عليه.

"أمّ ـ منال م ـ م ـ منال م ـ م " تمتم حائراً وهو يجول ببصره في الغرفة.

"ضعها أينما كان"، قال نيكولاي نيكولايفيتش، معيداً لفيفولوشنوف قدرته على النطق والتعبير.

ها هو أحد اتباع تولستوي، من الذين استقرّت في رؤوسهم أفكار العبقري الذي لم يعرف الطمأنينة في حياته، لتنعم براحةٍ طويلة لا يعكّر صفوها شيء، وهي تضمحلّ، لذلك، شيئاً فشيئاً. وقد جاء ليسأل نيكولاي نيكولايفيتش ان يحاضر في اجتماعٍ يعقد لمساعدة المنفيّين السياسيين، في إحدى المدارس.

"ولكنني تكلمّت في هذه المدرسة من قبل"

"من أجل مساعدة منفيينا ؟"

"نعم".

"يجب أن تتكلّم مرّة ثانية."

وتردد نيكولاي نيكولايفيتش، ثم أذعن.

ولم يحاول نيكولاي نيكولايفيتش، بعد انتهاء هذه المهمة، ان يؤخر ضيفه. وكان في وسع نل فيو كتيستوفيتش أن يمضي فوراً ولكنه شعر، على ما يبدو، بأنّ هذا لا يليق، فأخذ يبحث عما يراه ملائماً ليقوله قبل أن يرحل. وصار الحديث مصطنعاً جافاً.

"صرت، إذاً، رجعيّاً جامداً؟ من المؤمنين بالصوفية؟"

"ماذا تعني؟"

"هذا ضياع للوقت كما تعرف. أتذكر مجلس المقاطعة؟"

"بالطبع. ألم ندعُ له معاً؟"

"وقمنا بعَملٍ حسن إذ ناضلنا من أجل إنشاء مدارس في القرى وكليات للمعلمين. أتذكر؟"

"بالطبع. كانت معركة ناجحة"

"ثم أصبحت مهتمّاً بشؤون الصحة العامّة والخدمات الاجتماعية، أليس كذلك؟" /

"نعم، لفترة ما."

"أم م م. والآن يطغى كلّ هذا الهذر الرفيع ـ عفاريت وجن وأفيبيون ـ و"ولنكن كالشمس". لا أستطيع أن أصدق. والله لا أستطيع ـ رجل، رجل ذكي مثلك، وبمثل فطنتك ومعرفتك بالشعب... كفاك... أم أنني أنتهك قدس الأقداس؟"

"لماذا هذا الكلام كله؟ ولِمَ نتجادل؟ أنت لا تعرف أفكاري."

"روسيا بحاجة الى مدارس ومستشفيات وجن وعفريت."

"لا أحد ينكر ذلك."

"الفلاحون في حالة يُرثى لها من الفقر والجوع..."

وهكذا استمرت المحادثة. وإذ كان يعرف نيكولاي نيكولايفيتش عقمها وعدمَ جدواها، فقد حاول، مع ذلك، أن يوضح سبب تقديره لبعض أدباء المدرسة الرمزية. ثم انتقل إلى الكلام عن تعاليم تولستوي فقال:

"أنا معك، إلى حدّ ما. ولكن تولستوي يقول إن الإنسان يبتعد عن الخير، بقدر ما يكرّس نفسه للجمال..."

"وأنت تعتقد العكس ـ الجمال سينقذ العالم، أليس كذلك؟ دوستويفسكي، روزانوف، مسرحيّات غامضة وما أشبه ذلك؟"

"مهلاً، دعني اخبرك بماذا اعتقد. أعتقد أنه اذا كان في الامكان كبح جماح الحيوان الراقد في الانسان بالتهديد ـ أي نوع من التهديد، سواء بالسّجن أو بالعقاب بعد الموت ـ عندئذٍ يكون ارفع شعار للانسانية

هو ذلك الذي يروض بسوطه الأسدَ في السيرك، لا النبي الذي يضحي بنفسه. أفلا ترى أن هذا هَو جوهر الموضوع ـ ما ارتفع بالانسان، خلال العصور، فوق الحيوان، ليس السوط بل الموسيقا الداخلية: قدرة الحقيقة العزلاء التي لا تُقاوم، جاذبيّة قُدوتها الجبّارة. كان يُعتبرُ دائِماً أن أهم ما في الأناجيل هو الحكم الأخلاقية والوصايا، ولكنني أرى أن أهم شيء هو أن المسيح يتكلم بأمثالٍ مأخوذةٍ من الحياة، وانه يشرح الحقيقة بلغة الواقع الأليف. فالفكرة الكامنة وراء هذا هي أن الشراكة بين الناس خالدة، وأن الحياة بكليتها رمزيّة لأنها مليئة المعنى."

"لم أفهم كلمة. يجب أن تكتب كتاباً عن ذلك."

وبعد انصراف فيفولوشنوف شعر نيكولاي نيكولايفيتش بانقباض في نفسه، وندم على الإفصاح عن بعض آرائه الحميمة لذلك المجنون، دون أن يؤثر عليه بشيء. ثم لم يلبث غضبه أن تحوّل كعادته الى موضوع آخر، فتذكر حادثة أخرى.

لم يكن يكتب مذكراته ولكنه درج، مرة أو مرتين في السنة، على تدوين بعض أفكاره في دفتر، فأخرجه وبدأ يكتب بخطٍ عريض مقروء. وهذا ما كتبه:

"منزعج طوال النهار بسبب تلك المرأة البليدة، لازنجر. جاءت هذا الصباح، وبقيت حتى الظهر، واضجرتني ساعتين بقراءتها مقطوعات سخيفة كتبها الشاعر الرمزي أ. للموسيقار ب ـ بأرواح الكواكب، بأصوات العصافير الأربعة الخ.. الخ، فاستمعت مُكرهاً ثم ضاق ذرعي ورجوتُها أن تتوقّف.

"وفجأةً فهمت كل شيء. فهمتُ لمَ هذا الهراء شيء مميت، باطل حتى في فاوست. كله مصطنع، ولا أحدَ يهتمّ به اهتماماً حقيقياً. الإنسان الحديث لا يحتاج اليه، فحين تغلبه على أمره اسرار الكون يلجأ الى الفيزياء، لا الى اشعار هزيود.

"لا يعـود هذا الى أن الشكل لا يتـصل بالواقع كليّـاً، أو الى أن أرواح الأرض والفضاء تشوّش ما اكتشفه العلم، ولكنه يعود الى أن هذا النوع من الفن يتجاوز الروح، الجوهر، القوة الغائية للفن المعاصر.

"كانت النظريات في نشوء الكون أمراً طبيعيّاً في العالم القديم الذي كان عالماً تعمره قلّة من الناس بحيث أن الطبيعة لم يكن قد طغى عليها الإنسان بعد. كانت الزحافات لم تزل تعمر الأرض. وكانت الغيلان والتنانين لاتزال عالقة في أذهان الناس. وكانت الطبيعة تبدو لك واضحة وتقبض على رقبتك بشراسة حتى لتحسب انها مازالت تغص بالآلهة. كانت هذه أولى صفحات تاريخ البشرية، كانت في بدئها.

"هذا العالم القديم انتهى بانتهاء روما، بسبب تكاثر السكان. كانت روما سوقاً للآلهة المستعارة والشعوب المقهورة، ومحلاًّت للبيع والشرّاء ذات طابقين: الأرض والسماء، ومزبلةً من عقد ثلاث كما هي الحالُ في داء الأمعاء. الداشيون والهيروليون والسيشيون والسارماتيون والهايبربوريون، والدواليب الثقيلة التي لا محور لها، والعيون الغارقة في الشحم، والترهل، والذقون المزدوجة، والأباطرة الأميون، والسمك الذي يقتات من لحم العبيد المثقفين. وكان عدد الناس في العالم أكثر مما كان عليه في أي يوم لاحق. وقد احتشدوا جميعاً في ممرّات الكوليسيّوم، وكلهم بائسون.

"الى هذه الكومة الباطلة من الذهب والرخام جاء، إذّاك، خفيفاً متسربلاً بهالة، انساناً جداً، ريفياً عن قصد، جليلياً. وفي تلك اللحظة زالت الآلهة والأمم من الوجود، والانسانُ صار كائناً ـ الانسانُ النجّار، الإنسان الفلاح، الانسانُ الذي يرعى قطيعه عند المساء، الانسان الذي ليس متكبراً، الانسانُ الذي يُحيون ذكراه بحمد في جميع أناشيد الأمهات لاطفالهن، وفي جميع معارض الفن في العالم."

١١

ظهرت باتروفكا كأنها زاوية من بطرسبوغ في موسكو، بمنازلها المتشابهة على جانبي الشارع، وأبوابها المزخرفة بالنقوش، ومكتباتها، ودور كتبها، ومكاتب الرسم والتصوير فيها، ومخازن التبغ الأنيقة، ومطاعمها الفخمة.. وعلى جانبي مدخل كل منها مصباحان مستديران بقوائم ضخمة.

وفي الشتاء كان الشارع يتجهم كئيباً موحشاً. وكان سكانه اشداء وقورين اثرياء من ذوي المهن الحرة.

استأجر في هذا الشارع فيكتور إيبوليتوفيتش كوماروفسكي مسكنه الفخم في الطابق الثالث، بسلمه العريض ذي الحواجز السنديانية السميكة. وكانت خادمته أو بالأحرى سيدة منعزله الهادىء، إما ارنستوفنا، تعنى بكل شيء دون أن تتدخل بحياته الخاصة. كانت تدير شؤون المسكن دون أن يراها أو يسمع بها أحد، وقد كافأها على ذلك بشهامةٍ منتظرة من رجل في مثل نبالته، فلم يستقبل من الزوار، نساءً ورجالاً، من يقلقون راحتها وعالمها العانسي. وقد خيم على البيت هدوء الدير. فكانت الستائر مسدلة.. وكل شيء نظيف نظافة غرف العمليات الجراحية.

وفي صباح أيام الآحاد كان فيكتور إيبوليتوفيتش يخرج عادة بصحبة كلبه للنزهة في حي باتروفكا وكوزفتسكي موست. ويلتقي به في احدى زوايا الشارع كونستانتين إيلاً ريونوفيتش ساتانيدي، الممثل المقامر، فيتمشيان معاً ويتبادلان رواية القصص البذيئة مقهقهين بلا خجل قهقهات عميقة عالية تملأ الهواء بأصوات ليست أكثر معنى من نباح الكلب.

١٢

كان الطقس في غير فصله، فقد أخذ الماء يتساقط على القساطل والأرصفة، وتتناقل السطوح رسائل كما لو أنه الربيع. وكانت تثلج.

وسارت لارا في طريقها، في شبه غيبوبة؛ ولم تدرك ما حدث لها الا حينما وصلت الى البيت.

كان الجميع نائمين. واذ عادت الى غيبوبتها جلست شاردة الذهن على مقعد زينة أمها بثوبها الناعم، المائل الى البياض، المزركش، وشالها الذي استعارته من محل الخياطة. ونظرت الى نفسها في المرآة، فلم تر شيئاً. ثم طوت ذراعيها فوق طاولة الزينة ودفنت رأسها فيهما.

لو عرفت أمها بما حدث لقتلتها. تقتلها ثم تقتل نفسها.

كيف حدث لها ما حدث؟ كيف أمكن حدوثه؟ فات الوقت وكان عليها ان تحترس قبل وقوعه. أما الآن فهي - ماذا يقال؟ - امرأة ساقطة. امرأة في رواية فرنسية، وغداً تذهب الى المدرسة وتجلس جنباً إلى جنب مع سائر البنات اللواتي هن كالأطفال بالنسبة لها. يا إلهي، يا إلهي، كيف حدث ما حدث؟

ستخبر لارا يوماً ما في المستقبل البعيد، البعيد، حين يمكن ذلك، أوليا دامينا بالأمر، وستحضنها أوليا وتنفجر بالبكاء. كان المطر خارج النافذة يتساقط ويتساقط. والثلج يواصل انهماره. وكان أحدهم في الشارع يطرق باب أحد الجيران. ولم ترفع لارا رأسها، وأخذت كتفاها ترتجفان. كانت تبكي.

١٣

"آه يا إما إرستوفنا، هذا ليس مهماً. انه يتعبني"، وظلّ يفتح

ويغلق ادراجه، فيقلب الأشياء رأساً على عقب ويرمي بها على السجادة والمقعد، وهو لا يعرف ما كان يبحث عنه. كان يحتاج اليها جداً، ولكن لا سبيل الى لقائها ذلك الأحد، فراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بغضب كالحيوان السجين.

لا شيء يضاهي جمالها الروحي. يداها مدهشتان كفكرة رائعة. وظلها على جدار الفندق كهيكل طهارتها. وكانت قميصها تستلقي على نهديها ببساطة كغطاء كتاني على إطار مطرّز. وأخذت أصابعه تنقر على خشب الشباك فيما كان يسمع وقع حوافر الجياد البطيء على بلاط الشارع. وتمتم "لارا" وهو يطبق جفنيه ويتصور أن رأسها ملقىً فوق يديه. وكانت لارا مطبقة العينين تغطّ في نومها فلا تعي أنه كان يراقبها لساعات طويلة من الأرق. وكان شعرها الأسود يتناثر وجمالها يغشي عينيه كالدخان وينفذ الى صميم قلبه. ولم تكن نزهة ذلك الأحد ناجحة، فقد تمشّى بضع خطوات مع كلبه جاك، ثم توقف، وفكر في كوزنتسكي موست،ونكات ساتانيدي، والناس الذين تعرّف عليهم في الشارع ـ لا، ان هذا أكثر مما يستطيع أن يتحمل، فقفل راجعاً. وتطلع إليه الكلب بدهشة واستنكار ولحقه متردداً.

"ماذا يعني كل هذا؟"، قال كوماروفسكي في نفسه. "ماذا دهاني؟" ترى، أتوبيخ ضمير، أم شعور شفقة، أم ندم؟ أو أنه كان قلقاً عليها، لا، كان يعرف أنها آمنة في بيتها. لماذا اذن لا يقوى على نسيانها؟ وسار عائداً الى البيت، وصعد السلم مروراً بالطابق الأول، وألقت الرسوم التي تزين زجاج النوافذ في زاوية المنزل أضواءها الملونة، تحت قدميه. وفي الطابق الثاني توقف عن السير.

يجب الا يستسلم لهذا المزاج المنهك القلق النقّاق، الذي يسيطر عليه. وبعد، فهو ليس تلميذاً. عليه أن يدرك ماذا تكون حاله لو أن هذه الفتاة، بدل أن تكون مجرد دمية ـ مجرد طفلة، ابنة صديقه المتوفي ـ قد

صارت عنده هوساً. عليه أن يعود الى صوابه، وأن يكون صادقاً مع نفسه ومع طبائعه. والا فكل شيء ينهار.

وشدّ كوماروفسكي على حاجز السلّم حتى آلمته يده، وأطبق عينيه لحظةً ثم قفل عائداً باصرار وتصميم. وعند المدخل، وقد ترامت عليه قطع من الضوء، كان الكلب في انتظاره. فرفع رأسه كالقزم الهرم وتطلّع إليه بمنتهى الودّ. كان الكلب يكره الفتاة وقد مزّق جواربها وهرّ في وجهها وكشر عن أنيابه. وكان يغار منها كأنه يخشى ان تُعديَ سيده بشيء إنساني.

"آه، فهمت! لقد نويتَ أن يعود كل شيء الى سابق عهده ـ سامانيدي والألاعيب الدنيئة والنكات البذيئة؟ فليكن إذاً، خُذ... وراح يضرب الكلب بعصاه ويرفسه برجله. فصرخ جاك ونبح وركض صاعداً السلّم وهو يهز قفاه، وانطرح أمام باب المسكن يشكو لإمّا إرنستوفنا.

ومرّت الأيام والأسابيع.

١٤

يا له من مأزق لا مفرّ منه! لو كان انتهاك كوماروفسكي لحرمة حياة لارا قد ملأها بالقرف فقط، لتمرّدت وتحرّرت. لكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة.

لقد أعجب الفتاة أن رجلاً أنيقاً أخذ الشيب يخط شعره، رجلاً من التقدم في السن بحيث يصحّ أن يكون والدها، رجلاً يصفّق له في الاجتماعات ويكتب عنه في الجرائد، يُنفق عليها وقته وماله ويصطحبها الى الحفلات الموسيقية والتمثيلية ويخبرها بأنه يعبدها وينمّي، كما يقولون.

وبعد، فهي ما برحت طالبةً تتمتع باللهو البريء في المدرسة. كانت

مغازلة كوماروفسكي لها في العربة وراء الحوذي، أو في مقصورة الاوبرا على مرأىً من الناس، تستهويها بجرأتها وتثير الشيطان الصغير الراقد فيها.

الا أن هذه اللواعج البناتية المفسدة لم تعمر طويلاً. فقد أخذ يسيطر عليها جو من النقمة والحقد على نفسها، وتزداد رغبتها في أن تنام دوماً - لأنها (حدثت نفسها) لم تكن تأخذ قسطاً كافياً من النوم في الليل، ولأنها كانت تبكي كثيراً وتشكو من الصداع الدائم وتتعب في المدرسة، ولأنها كانت منهوكة القوى.

١٥

لقد كان لعنة حياتها، فكرهته، وكانت تعاودها افكارُها كل يوم.

إنها الآن سجينة مدى الحياة. بماذا استعبدها؟ كيف أجبرها على الخضوع، ولماذا استسلمت له، ولماذا ترضي رغباته، وتبهجه بحيائها السافر المرتعش؟ أيعود ذلك الى اعتماد والدتها المالي عليه وبراعته في تحويفها؟ لا، لا، لا. هذا هراء. انها هي التي تسيطر عليه. الا ترى إذاً كم هو محتاجٌ اليها؟ ليس هنالك ما يخيفها، فضميرها مرتاح. انه هو الذي يجب أن يخجل من نفسه ويخشى أن تهجره. ولكن هذا ما لن تفعله. فلكي تفعله يجب أن تتصف بالقسوة اللازمة - التي هي كل ما لدى كوماروفسكي من مزايا ازاء المحتاجين والضعفاء.

هذا هو الفارق بينهما، وهذا ما يجعل الحياة مخيفة. فهل تسحقك بالرّعد والبرق؟ كلا، بل بالنظرات الشزراء والنميمة. فكل ما فيها خيانة وتدليس. كل خيط فيها واهن كخيط العنكبوت، لكن كلما حاولتَ التملص من حبائلها، ازدادت تشربكاً.

والقوي خاضعٌ للضعيف والجبان.

١٦

ماذا لو كانت متزوجة، سألت نفسها، ماذا يكون الفرق؟ لقد وقعت في السّفسطة. لكنّ حسرةً، لا مخرج لها، كانت غالباً ما تملأ نفسها.

كيف لا يخجل من الارتماء على قدميها ضارعاً: "لا نقوى على الاستمرار، فكري ماذا فعلت لك. انت في منحدر خطر. يجب أن نخبر أمك. سأتزوج منك".

ويروح يبكي ويُلحّ كما لو أنها جادلت أو رفضت. ولكن هذا لم يكن سوى مجرّد كلام، ولارا لم تكن تصغي حتى لتلك التضرعات المحزنة الفارغة.

واستمر يصحبها، محجّبةً، الى العشاء في الغرف الخصوصية في ذلك المطعم الكئيب حيثُ كان الخدم والزبائن يعرونها بنظراتهم وهي تدخل. وكانت دائماً تتساءل في نفسها: "هل يُهين المرء دائماً من يحبهم؟"

وحلمت ذات يوم. كانت تحت الأرض، ولم يبق منها الا جانبها الأيسر حتى الكتف وساقُها اليمنى. وكانت تخرج من نهدها الأيسر باقة من العشب، وعلى الأرض ينشدون: "العيون سوداء والنهود بيض" و"منعوا ماشا من الذهاب الى النهر".

١٧

لم تكن لارا تقية، ولم تكن تؤمن بالطقوس. لكن كان يلزمها أحياناً لكي تتحمل الحياة، مصاحبة بعض الموسيقا الداخلية. ولم يكن باستطاعتها أن تؤلف هذه الموسيقا في كل مناسبة. فكانت تجدها في

كلمة الله المحيية، ولذلك كانت تمضي الى الكنيسة لكي تبكي، على فقدانها.

وذات يوم في مطلع كانون الأول ذهبت الى الصلاة بقلب كئيب، حتى انها شعرت كأنما الأرض في تلك اللحظة تنشق تحت قدميها، وان سقف الكنيسة سيتقوض. وهذا ما كانت تستحقه. فهو يضع حداً لكل شيء. الا أنها لم تندم الا على اصطحابها اوليا ديومينا، تلك الثرثارة، "ها هو بروف افانا سيبفيتش"، همست اوليا.

"هش ـ س. دعيني، من هو هذا؟"

"بروف افانا سيبفيتش سو كولوف، الذي يرتل. انه أحد أقاربي".

"آه، المرتل. أحد أقرباء تيفرزين. هُسْ. اسكتي. ارجوك لا تزعجيني".

كانت قد دخلت في بداية القداس. وكانوا يرتلون مزمور باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني، ليبارك اسمه القدوس".

كانت الكنيسة نصف فارغة، يرجع كل صوت فيها صداه. وكان جمهور المصلين متراصاً في الصفوف الأمامية، فقط. وكانت الكنيسة جديدة، وزجاج النافذة العاري لم يضف أي لون على الشارع الأغبر المغطى بالثلج، والناس يجتازونه مشياً وفي العربات. ووقف قرب النافذة أحد خدام الكنيسة لا يعير القداس أي اهتمام ويوبخ متسوّلة طرشاء معتوهة بصوت عادي مألوفٍ كالشباك والشارع.

ولم تكد لارا، وهي تقبض على الدراهم وتشق طريقها الى الباب وسط المصلين دون أن تزعجهم، تشتري شمعتين لها ولأوليا وتعود، حتى انهى بروف أفانا سيبفيتش تسعاً من الطوبيات بسرعة توحي انها كانت تُعرف جيداً بدونه.

طوبى للمساكين في الروح... طوبى للحزانى... طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ...

ومشت لارا، ثم توقفت. كان الكلام عنها. كان يُردد: هنيئاً للمضطهدين. هُنالك ما يُقال عنهم. الحياة كلّها أمامهم. هذا ما كان يفكّر به المسيح، وهذا هو حكمه.

١٨

جرى ذلك في أثناء ثورة بريسنيا. وكان مسكن آل غيشار في المنطقة الثائرة. وقد أقيم متراسٌ في شارع تفر على بضع خطواتٍ من منزلهم. وقد حمل الناس دلاء الماء من باحة منزلهم لتطيين الحجارة وقطع الحديد.

وكان الثوار يجتمعون في الباحة المجاورة، بين مركز الصليب الأحمر ومكتب الاعاشة. وكانت لارا تعرف اثنين منهم. أحدهما كان يُدعى نيكا دودوروف صديق ناديا زميلتها في المدرسة. وكان هذا الفتى متكبراً، مستقيماً، عنيداً. وكان شبيهاً بلارا، ولا يُثير اهتمامها.

وكان الثاني يُدعى باشا أنتيبوف، الطالب الذي يسكن مع السيدة تيفرزينا، جدة اوليا ديومينا. وكانت لارا تلاحظ أثرها على الفتى حين التقت به في بيت عائلة تيفرزين. وقد بدا لها حينذاك انه من السذاجة بحيث لم يُخف فرحه بلقائها، كما لو أنها كانت منظراً صيفياً من الأشجار والعشب المندّى والغيوم والضباب، وكان في استطاعته ان يفصح عن ولعه الشديد بها، دون أن يتعرض للسخرية.

وما إن أدركت تأثيرها عليه حتى بدأت باستغلاله دون قصد. وهي لم تأخذ بعين الجد طبعه الليّن المرح الا بعد مضي سنوات وفي مرحلة متأخرة، وقد عرف باشا اذاك بأنه وقع في حبها وأنه كان هائماً بها، وان حبها سيلازمه طول الحياة.

وكان الشابان يلهوان بأخطر أنواع الألعاب التي يلهو بها المراهقون: الحرب، فضلاً عن أن عقاب الاشتراك في هذا النوع من الحرب النفي والشنق. غير أن الطريقة التي ربطا بها قبعتيهما على ظهرهما كانت تدل على أنهما ما برحا طفلين، وان والديهما لا يزالان يُعنيان بهما. وكانت لارا تعتبرهما مراهقين. فقد كان في لهوهما الخطِر شيء من البراءة نقلاها الى كل شيء ـ الى المساء الذي كان من شدة الصقيع بحيث بدا أقرب الى السواد منه الى البياض، والى الظلال القائمة في الباحة، والى المنزل عبر الطريق حيث كن الاولاد يختبئون؛ وقبل كل شيء، الى الطلقات النارية المستمرة التي كانت تأتي منه. وفكرت لارا في نفسها: الأولاد يطلقون النار". ولم تكن تفكر بنيكا وباشا فقط، بل بالمدينة الثائرة كلها.

"انهم أولاد طيبون"، قالت في نفسها. "هم طيبون، لذلك يُطلقون النار".

١٩

وعلموا أن المتاريس قد تُقصَف وأن مسكنهم في خطر. وقد فات أوان التفكير بالانتقال الى بعض الاصدقاء في حي آخر من موسكو، فحيّهم مُحاط وعليهم أن يجدوا ملجأ في الجوار، داخل المتاريس. وخطر ببالهم فندق مونتينيغرو.

وتبين انهم ليسوا أول من خطرت ببالهم هذه الفكرة. اذ كان الفندق يغص بالنزلاء، ومنهم من كان يشاطرهم خوفهم. ونظراً للمعرفة التي كانت تربطهم بصاحب الفندق، فقد وعد بأن ينزلهم غرفةً تابعة لادارة شؤون الفندق.

ولكي لا يثيروا الانتباه بحمل الحقائب، فقد جمعوا أشياءهم

الضرورية في ثلاث بقجات، ثم راحوا يرجئون رحيلهم يوماً بعد يوم.

وعلى الرغم من الاضراب، فقد استمرّ موظفو محل الخياطة في عملهم، لأنهم كانوا يُعاملون وكأنهم أفراد أسرة واحدة، الى أن طُرق بابه ذات مساء، فإذا برجلٍ يدخل متذمراً شاكياً. واستُدعيت صاحبة المحل، فراحت فيتيسوفا تهدىء من روعه. ثم استدَعت الخياطات الى القاعة وقدمتهنّ الى الزائر الذي صافح كلاً منهن، بارتباك وانفعال، ثم قفل عائداً وكأنه توصل الى اتفاق مع فيتيسوفا.

وعادت الخياطات الى أماكن عملهنّ، وبدأن بارتداء شالاتهن ومعاطفهن الشتائية العتيقة. وأسرعت السيدة غيشار تصيح: "ماذا حدث؟"

"جاؤوا في طلبنا، يا سيدتي. نحن مضربات."

"ولكن... لم أسيء إليكنّ في حياتي"، واجهشت السيدة غيشار بالبكاء.

"لا تضطربي يا اماليا كارلوفنا. ليس عندنا شيء ضدك، نحن نعترف بفضلك؛ الأمر لا يقتصرُ عليك وعلينا، انه يتناول كل فرد، ويشمل العالم كله. ليس باستطاعتك ان تقاومي الجميع. أليس كذلك؟"

وانصرفن جميعهن حتى اوليا ديومينا وفيتيسوفا اللتان همستا في اذن السيدة غيشار وهما تودعانها بأنهما وافقتا على الاضراب لصالح المحل وصاحبته. ولكن أماليا كارلوفنا لم تتعزّ.

"يا له من نكرانٍ للجميل! حين أفكر بأنني خُدعت بهؤلاء الناس! والجميل الذي أغدقته على تلك الوطواطة! لابأس، فهي لم تزل صغيرة، أما تلك العجوز الساحرة!"

"لا يمكنهم أن يستثنوك يا أماه"، قالت لارا معزية. "لا يحمل لك الخبث أحدبل على العكس. كل ما يُعمل، فإنما يُعمل باسم الانسانية، وللدفاع عن الضعيف، ولصالح النساء والأطفال. نعم، انه لكذلك. لا

تهزي برأسك خيبة ويأساً. سيأتي يومٌ ترين فيه أننا سنكون في حال أفضل بسبب ما يحدث".

ولكن أمها لم تستطع أن تفهم، وراحت تنتحب وتقول: "هكذا دائماً. كلما أُشكل علي أمرٌ جئتني بما يُباغتني ويثير الدهشة في نفسي. الناس يخدعونني وأنتِ تقولين إن هذا كله لصالحي. لا، لا، من المؤكد أنني فقدت صوابي".

وكان روديا في المدرسة فقبعت لارا وأمها في البيت الفارغ حائرتين دون ما هدف. وكان الشارع المظلم يُحملق بفراغ في الغرفة، وتردّ الغرف عليه بالحملقة نفسها.

"لنذهب الى الفندق يا أمي، قبل أن يخيم الظلام"، قالت لارا ملتمسة. "هيا يا أمي، لا تؤخري ذهابنا. دعينا نرحل الآن".

وفي الحال استدعتا حارس المنزل: "فيلات، فيلات، بربك خذنا الى فندق مونتينيغرو".

"سمعاً وطاعة يا سيدتي"

"خذ البقجات الى هناك، وانتبه للبيت يا فيلات، الى أن تهدأ الحالة. وأرجوك ألا تنسى أن تطعم العصفور كيريل موديستوفيتش وأن تغير الماء له. وخلِّ كلَّ شيء مقفلاً. هذا كل شيء. وأرجوك أن تبقى على اتصال بنا".

"سمعاً وطاعة يا سيدتي".

"شكراً يا فيلات. ليكن الله معك. والآن لنجلس قليلاً قبل أن نرحل".

وحين خرجتا الى الشارع بدا الهواء العليل غريباً عليهما، كما يبدو للمرء بعد مرض أسابيع. وكانت الأصوات مستديرة، كما لو كانت تدور على مغزل، تدوّي فيتردد رجع صداها وسط الفضاء الجاف البارد، النقي. وتعالت طلقات النار وارتمت أصواتها في البعيد؛ وكانت كأنما

تمزّق الأشياء كل ممزق. وحاول فيلات أن يقنع لارا وأمها بأن الطلقات تستهدف شيئاً، ولكن دون جدوى.

"لا تكن بليداً يا فيلات. فكر قليلاً، كيف تستهدف هذه الطلقات شيئاً وأنت لا ترى من يطلقها؟ على ماذا تظنهم يصوبون النار، أعلى الروح القدس، أو على من؟ انها طلقات فارغة ولا ريب".

وفي أحد المفترقات تصدت لهم دورية من الكوزاك ففتشتهم بدقة، من أعلى رؤوسهم الى أخمص أقدامهم. فمالت من جراء ذلك قبعاتهم على جوانب رؤوسهم، فبدوا كأنهم بعين واحدة.

"عال" فكرت لارا وهي تتابع سيرها. فهي لن ترى كوماروفسكي ما دام الحي منفصلاً عن سائر المدينة، ولم يكن باستطاعتها ان تقول لأمها: "أرجوك ألاّ تستقبليه". فهي لو فعلت لانفضح الأمر. وماذا لو انفضح، ولماذا يرعبها ذلك؟ آه، يا الهي، اتقبل كل شيء. لو أن الأمر ينتهي. يا الهي! يا الهي! وكادت تسقط من العياء والإغماء. ماذا تذكرت؟ ماذا كان اسم تلك الصورة المرعبة؟ كان فيها روماني بدين، وكانت معلقة في أولى تلك الغرف الخصوصية التي بدأ فيها كل شيء. "المرأة أم الإناء" - أجل هذه كانت اللوحة. بالطبع، كانت لوحة شهيرة. المرأة أو الإناء. حين أبصرتها للمرة الأولى، لم تكن بعد قد صارت امرأة، ولم تكن تشبه بمثل ذلك الأثر الفني الرائع. تمّ هذا بعدئذ. كانت المائدة مليئة بفاخر الطعام، كما في وليمة.

"الى أين تظنين انك راكضة؟ لا أستطيع أن الحق بك"، صاحت أمها. وكانت لارا تسير بسرعة، تدفعها قوة خفية كما لو كانت تتهادى في الهواء، وهي محمولة بتلك القوة الفخورة التي تحثها على الاسراع.

"ما اروع هذا الصوت"، قالت لارا في نفسها وهي تصغي الى طلقات البنادق: "طوبى للمضطهدين طوبى للمخدوعين. انطلقي، انطلقي، يا نيران البنادق، فأنت وأنا من معدنٍ واحد"!

٢٠

كان للأخوين غروميكو منزل على زاوية شارع سيفتسيف فراجيك وزقاق آخر صغير. وكان الأخوان، نيكولاي الكسندروفيتش استاذين للكيمياء، أحدهما في أكاديمية بيتروف والثاني في الجامعة. وكان نيكولاي عازباً، والكسندر متزوجاً من آنا ايفانوفنا من عائلة كروجر، وكان أبوها صناعياً يملك مناجم واسعة في الاورال قرب يورياتين. وكان منزل غروميكو مؤلفاً من طابقين. في الطابق الأعلى غرف النوم وغرف التدريس ومكتبة الكسندروفيتش وخدر آنا ايفانوفنا وشقة طونيا ويورا، وكان الطابق الأسفل للاستقبال، بستائره الملوّنة، والبيانو اللامع، والرياش الخضراء الزيتونية وآنية الزهور. وقد جعلته هذه أشبه بأديم بحر يتموج ببطء. وكانت عائلة غروميكو مثقفةً مضيافةً تتعشق الموسيقا، وكثيراً ما كانت تقيم حفلات للموسيقا تعزف فيها انغام مختلف أنواع الموسيقا، وكانت احدى هذه الحفلات ستقام في كانون الثاني ١٩٠٦، وتعزف فيها للمرة الأولى مقطوعة موسيقية لموسيقار ناشىء تتلمذ على تانييف، ومقطوعة لتشايكوفسكي. وبدأت الاستعدادات للحفلة في اليوم الذي سبقها. فجرى ترتيب الأثاث في القاعة الكبرى. وفي احدى الزوايا أخذ العازف ينقر على البيانو نقرات عديدة على أحد الأوتار، ثم كرَّ النغم كحبّات السبحة. وفي المطبخ كان الدجاج يُذبح، وتغسل الخضار، ويمزج الخردل بزيت الزيتون للمرق والتوابل.

واقبلت شورا شليجنجر صديقة آنا الحميمة وموضع سرها، في الصباح الباكر، لتكون مصدر ازعاج للجميع. وكانت شورا امرأة نحيلة طويلة القامة ذات ملامح عادية ووجه مسترجل يذكرك بوجه القيصر، لاسيما حين تلبس قبعتها الاسترخانية الغبراء وتضعها على زاوية

رأسها، وكانت تلبسها في البيت ولا ترفع الحجاب المشكول بها، الا قليلاً. وفي أيام الحزن والقلق كانت أحاديث الصديقتين باعثاً على التخفيف عنهما. فقد كانت أحاديثهما جارحة، وكانت تزداد كآبة حتى تنفجر بعاصفة عاطفية سرعان ما تنتهي بالبكاء والمصالحة. وكان لهذه المشاجرات الدورية أثر مهدىء على كلتيهما. فكان ذلك بمنزلة استخدام العلق في حال ارتفاع ضغط الدم.

وكانت شورا قد تزوجت بضع مرات، ولكنها كانت تنسى أزواجها حالما كانت تطلقهم. وقد بدا عليها، بالرغم من زواجها المتعدد، شيء من البرودة الشبيهة ببرودة العانس. وكانت ذات نزعة تيوصوفية، غير أنها عرفت باطلاعها الواسع على طقوس الكنيسة الارثوذكسية، حتى انها حينما كانت تقع في نشوة، لم تكن تتمالك من ترديد التعابير الكنسية: "اصغ أيها المولى"، و"الآن والى الأبد"، و"الشروبيم العلي". وقد ألمت شورا بالرياضيات والمذهب الهندي السري وخطب أشهر معلمي الكونسيرفاتوار في موسكو، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وما الى ذلك مما لا يعلمه الا الله. ولهذا السبب كانت تستدعى، كحكم ومدبر، في كل المناسبات الهامة.

وفي الموعد المحدد للحفلة بدأ المدعوون يفدون. فجاء آديلايدا فيلوبوفنا، جنتز، عائلة فوفكوف، بسرمان وزوجته، عائلة فيرجيتسكي، الكولونيل كافازتسيف. وكانت تثلج، وكلما فتح الباب كنت ترى الريح الدائرة تمر سريعاً، كما لو كان الثلج شبكها بآلاف العقد. وكان الناس يخرجون من البرد ويدخلون بأحذيتهم الثلجية الواسعة السمجة، وكلهم يحاولون الظهور بمظهر وجهاء الريف؛ اما نساؤهم فقد ظهرن، على الضد، بمظهر المغامرات الحصينات. فكانت وجوههن تلمع من جراء الصقيع، ومعاطفهن مفكوكة الأزرار، وشالاتهن متدلية الى الوراء، وشعرهن مزين بنديف الثلج.

وكانت مائدة الطعام تزهو، بيضاء مستطيلة، وراء الأبواب الجانبية المفتوحة على القاعة الكبرى، وكأنها طريق شتوية. وكان تراقص الأضواء على زجاجات النبيذ الأحمر المبردة يجذب النظر، والشمعدانات الزجاجية القائمة على قواعد فضية وتصفيف الألعاب و"المزة" تأسر الخيال. وكانت فوَط السفرة المطوية في شكل اهرامات، وسلال الزهر الليلكية العابقة بعطر اللوز تثير الشهية.

ولكي لا يتأخر موعد التلذذ بهذه الأطايب، فقد سارع الحضور الى البدء بتناول غذائهم الروحي. فجلسوا في صفوف، ثم راحوا يتهامسون: "انه ابن أخي كيو"! حين دخل العازف القاعة واستوى على مقعده أمام البيانو. وبدأت الموسيقا.

وكان المعروف عن تلك "السّوناتا" انها جافة، معقدة، مضجرة. وقد أثبت عزفها، إذاك، هذا الاعتقاد. وكانت، فضلاً عن ذلك، طويلة جداً.

وفي أثناء فترات الاستراحة، وقع جدال بين الناقد كريمبيكوف والكسندر غروميكو حولها. فكان كريمبيكوف يهاجمها، وغروميكو يدافع عنها، بينما أحاط الجمع بهما يدخنون ويتحدثون ويزيحون كراسيهم، الى أن لفتت المائدة المشعشعة الزاهية في الغرفة المجاورة انتباههم مرة أخرى. وعندئذ أجمعوا على المطالبة باستئناف الموسيقا.

وألقى العازف نظرة على الحضور، ثم أشار الى سائر زملائه بابتداء العزف. وشدّد الكمانيّ وتايشكيفيتش قوسيهما. فصدحت الموسيقا صداحاً حزيناً.

وكان يورا، وطونيا، وميشا غوردون الذي قضى نصف وقته عند عائلة غروميكو، جالسين في الصف الثالث.

وهمس يورا في أذن الكسندر الكسندروفيتش، وقد كان جالساً أمامه، قائلاً: "ايكوروفنا ترمقك بنظراتها!"

وكانت ايكوروفنا، الخادم العجوز عند عائلة غروميكو، تقف في

مـدخل القـاعـة، وهي تنظر الى يورا وتشـيـر بإلحـاح الى الكسندر الكسندروفيتش محاولةً إفهام يورا انه يجب أن تتكلم مع سيدها.

والتـفت اليـهـا الكسندر الكسندروفيـتش، فنظر اليـهـا شـزراً، وهز بكتفيه علامة اللامبالاة. ولكن الخادمة أصرت على موقفها. وسرعان ما أخذا يتخاطبان عبر القاعة كالخرسان. ولفت ذلك أنظار الحضور، فأخذوا يحدقون بهما؛ ورمقت آنا ايفانوفنا زوجها بنظرات غاضبة. فنهض للأمر، ودار باستحياء حول الغرفة في طريقه الى المدخل.

"ما هذا يا ايكوروفنا؟ اسرعي. ماذا تريدين؟"

وهمست ايكوروفنا في أذنه شيئاً، فقال:

"مونتينغرو؟ ما هو هذا؟"

"فندق"

"ما به"؟

"يسـألونه أن يذهب الى هناك في الحـال. فـفـيـه قـريب له ينازع الروح".

"افـي هذا الوقت يموتون! مـاهذا... لا يمكن الآن، يا ايكوروفنا. سأخبره بالأمر بعد انتهاء الحفلة الموسيقية".

"لقد اوفدوا خادم الفندق في تكسي. وهم ينتظرون. هنالك انسان يحتضر، أقول لك، ألا تفهم؟ انها سيدة!"

"وأنا أقول لك مستحيل، بضع دقائق أخرى لا تقدم ولا تؤخر". وسار على رؤوس أصابعه عائداً الى مكانه، وهو قلق، مضطرب، يفرك قصبة أنفه.

وفي نهاية الدَّور الاول، تقدّم، والتصفيق لم ينته بعد، من العازفين وأخبر تايشكيفيتش بأن حادثاً قد وقع وعليه أن يعود الى البيت، وبأن العزف يجب أن يتوقف. ثم التفت الى الحضور، مشيراً عليهم بالصمت، وخاطبهم قائلاً:

سيداتي وسادتي. لابدّ، مع الأسف، أن تتوقف الموسيقا. فالكماني قد تلقى خبراً محزناً. وكلنا نشاطره الأسى. عليه أن يمضي في الحال، ويجدر بي أن أرافقه في مثل هذا الظرف. فقد يحتاج الى معونة. أرجوك يا يوروشكا، اذهب وقل لسيميون ان يأتي اليّ بالعربة، فهو ينتظرني منذ حين. سيداتي وسادتي، لن أقول لكم وداعاً ـ التمس اليكم أن تبقوا كلكم هنا ـ فغيابي لا يطول".

وطلب اليه الصبية ان يسمح لهم بمرافقته، لأجل النزهة في الليل المليء بالصقيع.

٢١

مع أن الحياة الطبيعية قد رجعت الى سابق عهدها منذ كانون الأول، فما زالت الطلقات النارية تسمع، والمنازل التي التهمتها الحرائق العادية تبدو كالخرائب التي تهدمت في أثناء الفتنة.

ولم يتمتع الصبية بمثل تلك النزهة الطويلة من قبل. فقد كان فندق مونتينيغرو، في الواقع، على مرمى حجر، غير أن الصقيع الشديد والضباب الكثيف مزّق المدى الى مراحل متقطعة، فكأنما المدى، في العالم كله، لم يكن على شيء من التناسق والانسجام. وكان دخان المواقد الكثيف المتعرج، ووقع الأقدام، وصرير عربات الثلج، تتآلف لتبعث في نفوسهم الشعور بأنهم قد سافروا مسافة لا يُدرك طولها وأنهم وصلوا الى مكان منعزل بعيد.

ووقفت على باب الفندق عربة ثلج ضيقة أنيقة المظهر، خُلع على حصانها قطعة من القماش، وعُصبت قوادمه بأقمطة. وقبع الحوذي في مقعد الركاب، محاولاً تدفئة نفسه، ورأسه المغطى يرقد بين قفازيه الضخمين.

وكان بهو الفندق دافئاً، والخادم يغط في نومه وراء حاجز غرفة تعليق الثياب، على هدهدة مراوح تجديد الهواء واشتعال النار في الموقد، وصفير السماور المغلي، ويستيقظ، من حين الى آخر، على صوت شخيره.

وكانت بإزاء المرآة الى اليسار سيدة بدينة، وجهها مثل كعكة من العجين، ترتدي معطفاً خفيفاً لا يتناسب مع الطقس. وكانت تنتظر خروج أحدهم من الفندق، فيما أخذت تدير ظهرها الى المرآة وتتفحصه من فوق كتفيها لتتأكد من أناقته.

ودخل سائق التكسي الفندق. وكان معطفه المنتفخ يظهره بمظهر الرغيف الملتوي على لافتة الخباز، والبخار المتصاعد من فيه يعزز هذا التشبيه. وسأل المرأة الواقفة بازاء المرآة: "الى متى سأنتظر، يا آنستي؟" فأجابت: "ماذا تريد مني؟ لا أدري. لا أريد أن يموت حصاني من البرد".

ولم تكن الحادثة التي وقعت في الغرفة رقم ٢٣ الا واحدة من الحوادث اليومية المزعجة التي يلقاها خدم الفندق. ففي كل دقيقة كانت الأجراس تدق، فتبرز الأرقام داخل الصندوق الزجاجي لتظهر أيّ نزيل في أي غرفة قد جن جنونه فراح يزعج الخدم وهو لا يدري ماذا يريد.

وفي تلك اللحظة، كان الطبيب يناول تلك المرأة المجنونة غيشاروفا علاجاً مقيّئاً ويغسل لها زلعومها. وكانت الخادمة كلاشا منهمكة تمسح أرض الغرفة وتخرج بالأوعية الملأى لتأتي بأخرى فارغة. ولكن العاصفة التي انفجرت في الغرفة كانت قد بدأت قبل الآن، وقبل أن أوفد تيراشكا في عربة التكسي لاستدعاء الطبيب وذلك العازف التعس، وقبل أن يصل كوماروفسكي ويتجمهر الناس في الرواق أمام الباب.

لقد بدأ الحادث بعد الظهر، حين انعطف أحد المارة بسماجة نحو الرواق الواقع بين غرف الخدمة وبين البهو، فاصطدم مصادفةً بالخادم صايصوي، غبّ خروجه من الغرفة منحنياً فوق طبق مليء يتوازن على

يده اليمنى. فسقط الطبق على الأرض واندلقت الحساء وتحطمت الصحون.

وأصرّ صايصوي على أن الغسالة هي المسؤولة عن سقوط الطبق، وانها يجب أن تعاقب على ما وقع من ضرر. وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة، ونصف الخدم متهيء للانصراف القريب. ولكن الشجار ما برح مستمراً.

"انه مصاب بالرجفة، فلا يقوى على توقيف اهتزاز يديه ورجليه؟ كل ما يهمه هو أن يجلس الى زجاجة الخمر، كأنها زوجته؛ حتى إذا ما احمر وجهه كعرف الديك، راح يسأل من هذا الذي دفعني فأوقع طبق الحساء وحطّم الصحون؟... من تظن أنه دفعك ايها اللعين، أيها الأسترخاني الصفيق... أنت يا أيها المخلوق الخالي من الحياة!"

"اخبرتك مراراً، يا متريوناستيبانوفنا، ألاّ تطيلي عليّ لسانك!"

"ومن هو هذا الذي تثار من أجله الآن كل هذه الضجة، قل لي؟ انك لتحسبه مخلوقاً يستحق ان تحطم من أجله الآنية. وما هو الا تلك المرأة الدنيئة، تلك المتسكعة المدّعية انها عنوان الطهارة والبراءة، تلك التي أحسنت صنعاً بتناولها السمّ. حقاً... انها تنزل في مونتينيغرو، ولكنها لا تميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود في وضح النهار."

وراح ميشا ويورا يروحان ويجيئان في الرواق خارج غرفة السيدة غيشار. لقد جاء الأمر على غير ما كان الكسندر الكسندروفيتش يتوقع. ذلك أنه تصوّر حدوث مأساة بريئة، جليلة، في حياة موسيقار. أما تلك ففضيحة مخجلة، فضلاً عن كونها لا تهم الأولاد.

وكان الصبية ينتظرون في الرواق.

"ادخلوا الى غرفة عمتكم، يا شباب". صاح بهم الخادم للمرة الثانية. "ادخلوا الآن ولا تقلقوا. السيدة بخير، ولا داعي للخوف على حياتها. لقد تعافت. لا يجوز لكم ان تقفوا هنا. وقع هنا حادث هذا

المساء فتحطمت آنية فاخرة. ألا ترون أن علينا أن نعبر الرواق مراراً حاملين وجبات الطعام للنزلاء، والمكان ضيق. ادخلوا الى هناك!"

واطاع الصبية.

وفي داخل الغرفة، كان القنديل الذي يستوي عادة فوق الطاولة قد نقل الى وراء الحاجز الخشبي العامر بالبق، حيث وضع سرير منفصل عن سائر الغرفة بستائر يعلوها الغبار. وكانت الستائر مطروحة على الحاجز الخشبي، فلم يفطن أحد، في تلك الفوضى القائمة، أن يسدلها. وكان القنديل موضوعاً على المقعد، فألقى من مكانه المنخفض ضوءاً فظّاً على ارجاء المكان.

لقد حاولت السيدة غيشار أن تقتل نفسها بصبغة اليود. ولذلك فقد فاحت في الغرفة رائحة أشبه برائحة السنديان الأخضر الذي مازالت أوراقه طرية تسودّ عند اللمس.

وكانت الخادمة تمسح الأرض وراء الستار، فيما استلقت على السرير امرأة نصف عارية، وقد تجمّع شعرها من جراء ابتلاله بالماء والدموع والعرق. وكانت تمسك برأسها فوق الوعاء وتبكي بكاءً صارخاً.

وللحال أدار الصبية وجوههم عنها، فقد شعروا بأنه من الحرج وقلة التهذيب أن ينظروا اليها. ولكن يورا قد عرف من أمور الدنيا ما يكفيه لأن لا يؤخذ بالواقع، وهو أن المرأة في بعض المواقف الحرجة العصيبة، وأوقات التعب والضنى، تبطل أن تكون كما تتمثل في روائع النحت، بل تظهر أقرب ما يكون الى مصارع قوي العضلات، عرّى جسده الا من بنطلون قصير واستعدّ للنزال.

وأخيراً فطن أحدهم الى اسدال الستار.

وصاحت المرأة وهي تجهش بالبكاء والنحيب: "أين أنت يا عزيزي فاداي كازيميروفيتش، اعطني يدك. آه، ما أقسى أوجاعي. كنت في شك مرير... فاداي كازيميروفيتش... خُيل اليّ... ولكن يا لحسن

الحظ... تبين أن الأمر لا وجود له الا في مخيلتي... ما أحلى راحة البال! وقد نجم عن هذا كله انني لا أزال هنا... على قيد الحياة!"

"هدئي من روعك، يا آماليا كارلوفنا. ارجوك... ما اتعس ما جرى... ما اتعسه حقاً!"

"سنعود الآن الى البيت"، قال الكسندر الكسندروفيتش للأولاد بحزم. وكانوا واقفين في مدخل الغرفة وهم في حيرة اين يسددون نظراتهم، فراحوا يحملقون في الجانب القاتم من الغرفة حيث كان مكان القنديل. الجدران مغطاة بالصور، وفي احدى الزوايا رفوف تغص بكتب الموسيقا والأوراق. وكان وراء المائدة كرسي نامت عليه فتاة يغطيها حرام مصنوع بالسنانير، وقد أمسكت بظهر الكرسي وألصقت خدها به. وكان يجب أن تكون منهوكة القوى حتى تغرق في النوم رغم الضجة والهياج حولها.

"فلنذهب". قال الكسندر الكسندروفيتش مرة ثانية. فلم يكن من معنى لمجيئهم، وان يطيلوا البقاء فأمر لا يليق. "حالما يخرج فاداي كازيميروف... يجب أن أودعه".

ولم يكن تيشكيفيتش هو الذي خرج من وراء الستار، بل رجل بدين، ثقيل القامة، معتدّ بنفسه. وكان يحمل القنديل فوق رأسه، ويتجه الى الطاولة ليعيده الى مكانه الأصلي. فأيقظ ضوء القنديل الفتاة من النوم، فابتسمت له، وهي تشد جفنيها وتتمطى.

وما أن رأى ميشا الرجل حتى انبغت وراح يحدق به. وجذب يورا اليه محاولاً أن يهمس في أذنه، فأخفق. "لا تهمس أمام الناس. هذا عيب!"

وفي هذه الأثناء، دار مشهد صامت بين الرجل والفتاة. لم ينطقا بكلمة، وعيناهما فقط التقتا. ولكن للتفاهم بينهما صفة السحر الرهيبة، كأنما كان هو اللاعب، وهي الدمية بين يديه، يحركها كيفما شاء.

وعلت ثغرها ابتسامة تعبة طمست عينيها وارخت شفتيها ، ولكن ما أن رمقها شزراً ، حتى قابلته بغمزة خضوع. وقد سرّ كلاهما ان الأمر قد انتهى بسلام - فسرهما ما برح دفينا ، ومحاولة انتحار السيدة غيشار قد اخفقت.

والتهمها يورا بنظراته. فقد كان في العتمة ، فلم يرهب من التحديق بها ، وكان المشهد بين الفتاة الأسيرة وسيدها مشهداً رائع الغموض وفي الوقت نفسه صريحاً يملؤه العار. وتنازع قلبه شعور متناقض بعزمٍ لا عهد له به من قبل.

هنا مثلٌ على ما حسبه هو وطونيا وميشا انه عمل بذيء ، إنه القوة التي افزعتهم كثيراًوجذبتهم اليها كثيراً ، والتي تمكنوا من السيطرة عليها من بعيد بالكلام. وها هي الآن ، هذه القوة ، أمام عيني يورا ، تتجسّد حقيقة ، ولكنها مع ذلك مضطربة ومرعبة ، تهدم بلا رحمة ولا شفقة ، وتشكو وتستغيث - فماذا جرى لفلسفتهم الصبيانية ، وماذا على يورا أن يفعل الآن؟

وسأل ميشا رفيقه عندما خرجا الى الشارع: "اتعلم من هو ذلك الرجل؟" ولكن يورا ، الغارق في التفكير ، لم يجب.

"انه الرجل الذي شجع والدك على المسكر ودفع به الى الموت لقد اخبرتك بالأمر ونحن في القطار - أتذكر؟"

وكان يورا يفكر بالفتاة وبالمستقبل ، لا بوالده ولا بالماضي. وفي أول الأمر ، لم يفهم ماذا كان ميشا يقول. وكان البرد قارساً الى حد أعجزه عن الكلام.

خاطب الكسندر الكسندروفيتش الحوذيَّ قائلاً: "لابدّ أن تكون مصقّعاً يا سيميون!" وسارت العربة نحو البيت.

الفصل الثالث

حفلة عيد الميلاد في بيت سفنتشكي

١

في ذلك الشتاء، أهدى الكسندر الكسندروفيتش الى آنا ايفانوفنا خزانة أثرية وجدها في مكان ما. وكانت مصنوعة من خشب الابنوس وكبيرة لدرجة لا يمكنها ان تدخل في الباب قطعة واحدة. فأدخلت الى البيت قطعاً مجزأة، ونشأت عند ذلك مشكلة المكان الذي سوف توضع فيه. فهي لا تناسب غرفة الاستقبال بسبب وظيفتها، ولا تصلح في غرف النوم بسبب حجمها. وأخيراً أفرغ لها محل في أعلى الدرج خارج غرفة النوم الكبرى.

وجاء ماركل البواب ليجمع قطعها. وجلب معه ابنته مارينكا البالغة من العمر ست سنوات بعد ان اعطاها قضيباً من سكر الشعير، ووقفت تراقب والدها وهي تنخر وتمص قطعة الحلوى وأصابعها المبللة.

وجرى في البدء كل شيء بهدوء. فالخزانة أخذت تكبر أمام عيني آنا ايفانوفنا، ولما لم يبق الا تركيب قسمها العلوي تراءى لها ان تساعد ماركل في عمله، فارتقت القسم السفلي الذي كان قد وضع في مكانه فزلت قدمها ووقعت على جوانب الخزانة التي كانت مثبتة مكانها ببعض القطع الخشبية فقط. وانحل الحبل الذي كان ماركل قد شده حول هذه الجوانب ووقعت آنا ايفانوفنا على قفاها ووقعت معها ألواح الخشب الى الأرض ورضّت رضاً مؤلماً.

واندفع ماركل نحوها قائلاً: "اوه يا سيدتي، ما الذي جعلك تفعلين ذلك، يا عزيزتي؟ ألم تكسري أي عظم من عظامك؟ جسّي عظامك

جيداً. العظام وحدها هي المهمة، أما الأقسام الرخوة فلا أهمية لها اطلاقاً، الأقسام الرخوة تترمّم في وقت قصير، وكما يقول المثل، انها لا تصلح على أي حال الا للمسرات. ـ لا تصرخي أيتها الحمقاء. قال وهو ينهر مارينكا. "امسحي أنفك واذهبي الى أمك ـ اوه يا سيدتي. أما كان لك أن تشقي بي لاضع رفوف الثياب دونك؟ طبيعي انك تنظرين الي كبواب فقط، انك لا تستطيعين ان تفكري غير ذلك، ولكن الحقيقة هي أنني كنت أصنع خزانات، نعم يا سيدتي، صناعة الخزانات كانت تجارتي. لا يمكنك أن تتصوري كم من الخزائن المتعددة الأنواع، من الجوز والماهوغني مرت تحت يدي. ومن أجل ذلك كم من السيدات الجميلات مررن بي ثم تبخرن من تحت انفي، اذا سمحت بهذا التعبير. كل هذا جاء من الشراب، المشروبات القوية."

ودفع ماركل كرسياً بذراعيه غرقت فيه آنا ايفانوفنا بمساعدته وهي تتأوه وتدلك رضوضها. عند ذلك ابتدأ هو باعادة تركيب الخزانة. وعندما وضع القسم العلوي في مكانه قال: "الآن الأبواب، لم تصبح صالحة للعرض في معرض."

ولم تحب آنا ايفانوفنا الخزانة، فان مظهرها وحجمها يذكرانها بالقبور أو المدافن الملكية ويملآنها بالخوف والتطيّر. ولقبتها قبر اسكولد[١] وكانت تعني حصان الأمير اوليغ الذي تسبب بموت صاحبه[٢]. فهي قد قرأت كثيراً ولكن قراءة سطحية، ولذلك كانت تخلط الأفكار المتقاربة.

وبعد هذا الحادث أصيبت آنا ايفانوفنا بضعف صدري.

---

(١) اسكولد هو احد مؤسسي الدولة الروسية وقد دفن في كييف.

(٢) اوليغ احد امراء كييف قتلته افعى جاءت من جمجمة حصانه المفضل.

٢

ولازمت آنا ايفانوفنا الفراش طول شهر تشرين الثاني من عام ١٩١١، مصابة بذات الرئة.

وكان يورا، وميشا غوردون، وطونيا سوف يتخرجون في الربيع التالي، يورا في الطب، وطونيا في الحقوق، وميشا الذي درس في كلية الفلسفة، في فقه اللغة.

كل شيء في ذهن يورا كان مشوشاً، غير ان آراءه وعاداته وميوله خاصة به. فهو شديد الانطباع ولكن جدة آرائه كانت بارزة.

ومع أنه كان شديد الميل للفنون والتاريخ فانه لم يتردد في صدد اختيار مهنة له. لقد فكر ان الفن لم يعد طريقاً في الحياة كما ان المرح او الكآبة الولاديين ليسا مهنة. وكان شديد الاهتمام بالفيزياء والعلوم الطبيعية ويعتقد أن الانسان يجب أن يقوم بعمل نافع اجتماعياً في حياته العملية. وهكذا استقر على الطب.

وفي السنة الأولى من السنوات الأربع التي تستلزمها دراسة الطب، امضى فصلاً في غرفة التشريح الكائنة في أقبية الجامعة، وينزل اليها عن طريق سلم تحصبه الريح. وهناك تجد دوماً جمعاً من الطلاب المشعثين، بعضهم منكب فوق كتب معقدة محاطاً بالعظام أو يشرح بهدوء، كل واحد في زاويته، وبعضهم الآخر يسخر وينثر الفكاهات مطارداً الفئران الراكضة على أرض الغرفة الحجرية. وفي الظلام الخفيف المخيم على الغرفة كانت جثث المنتحرين المجهولين الشباب والنساء الغرقى التي حفظت جيداً ولم يلامسها التفسخ، تتألق عارية كالفسفور. فان حقن محاليل الشب قد أعادت اليها حيويتها وأعطتها امتلاء موهماً. وكانت الجثث مقطعة الأطراف، مهيأة، ومع ذلك فان جسم الانسان يحتفظ بجماله حتى في أصغر أجزائه. وهكذا كان عجب يورا

أمام احدى حوريات الماء التي القيت بقسوة فوق احدى الطاولات المغطاة بالتوتياء، يستمر أيضاً أمام ساعدها أو يدها المبتورين. وتنتشر في القبو رائحة حمض الكاربونيك والفورمول، كما أن جو الأسرار كان ملموساً في كل شيء هناك من المصير الغامض الذي ينتظر هذه الجثث الى أحجية الحياة والموت نفسها ـ وسيطر الموت في ذلك القبو كما لو كان بيته او مقر قيادته.

وكان صوت هذا السر الذي اسكت كل صوت سواه يلاحق يورا ويزعجه في عمله التشريحي. وأصبح معتاداً على هذه الأفكار الحالمة واعتبرها أمراً عادياً.

وكان يورا ذكياً وكاتباً ممتازاً. ومنذ أيام دراسته الأولى حلم بأن يؤلف كتاباً عن الحياة يشتمل كالمتفجرات المدفونة، أبرز الأشياء التي شاهدها أو فكر فيها. ولكنه كان أصغر من أن يكتب مثل هذا الكتاب، وعوضاً عن ذلك كتب اشعاراً. كان كالرسام الذي يرسم صوراً أولية للوحة كبيرة تعتمل في ذهنه.

وتساهل بشأن هذه الآثار غير الناضجة لما فيها من حيوية وجدة. وهاتان الميزتان الحيوية والجدة، تعطيان في نظره الحقيقة للفن الذي كان يراه بدون ذلك فارغاً، دون معنى وغير ضروري.

لاحظ يورا الدور الكبير الذي لعبه خاله في تكوين طبعه.

ويعيش نيكولاي نيكولايفيتش الآن في لوزان، فقد عالج ووسع في كتبه التي طبعت هناك بالروسية ومترجمة، النظرة القديمة التي ترى التاريخ كوناً آخر يصنعه الانسان بمعونة الزمان والذاكرة كرد فعل على تحدي الموت. وقد استوحت هذه المؤلفات تعليلاً جديداً للمسيحية، وأوصلت مباشرة الى تصور جديد للفن.

وتأثر ميشا غوردون بهذه الأفكار أكثر من يورا نفسه حتى انها وجهته لأن يسجل نفسه في كلية الفلسفة. وتابع دروساً عن اللاهوت

وفكر فيما بعد أن ينتقل الى كلية اللاهوت.

وتقدم يورا وأصبح متحرراً بتأثير نظريات خاله، ولكن ميشا تكبل بها. وأدرك يورا أن حماس صديقه يعود جزئياً الى أصله. ولكنه بسبب رهافة ذوقه لم يحاول أن يكلمه عن أفكاره الغريبة بل تمنى في نفسه دوماً أن يكون ميشا واقعياً أقرب الى الأرض.

٣

وفي ليلة من أواخر تشرين الثاني، رجع يورا الى البيت متأخراً من الجامعة، كان منهكاً ولم يأكل شيئاً طول النهار. واخبروه أن حادثاً مزعجاً أقلقهم بعد الظهر فقد أصيبت آنا ايفانوفنا بتشنجات، وان عدداً من الأطباء فحصوها وأنهم نصحوا الكسندر الكسندروفيتش في وقت ما بأن يدعو الكاهن ثم عادوا فغيروا رأيهم بعد ذلك. أما الآن فهي أحسن حالاً وهي واعية تماماً، وانها طلبت أن يأتي يورا اليها فور وصوله الى البيت.

وصعد يورا تواً.

وبدت في الغرفة علامات الاضطراب السابق، وممرضة تتحرك دون صوت وتهيء بعض الأشياء فوق طاولة الليل. المناديل التي استعملت ككمادات لاتزال مرمية هناك معصورة ومكومة. أما الماء في المبصقة فكان وردياً من الدماء المنفوثة تسبح فيه حبابات مكسورة وقطع من القطن المنتفخ.

وكانت آنا ايفانوفنا ممددة يبللها العرق وشفتاها مشويتان، أما وجهها فقد أصبح زائفاً منذ الصباح.

وتساءل يورا: "هل التشخيص خاطىء؟ انها تبدي كل أعراض ذات الرئة الفصية. انها تظهر كما لو كانت في البحران". وبعد أن هنأها وقال

تلك الأشياء المشجعة الفارغة التي تقال في مثل هذه المناسبات، طلب من الممرضة ان تترك الغرفة وأمسك بمعصم آنا ايفانوفنا ليفحص نبضها وفتش في جيب معطفه عن المسمع، وحركت رأسها لتشير الى أن ذلك عديم الفائدة، فأدرك انها تريده لأمر آخر. وتكلمت بجهد.

"ارادوا أن يعطوني البركة الأخيرة... الموت يجثم فوق رأسي... يمكنه أن يأتي في أي وقت... عندما تذهب لتقلع ضرساً تخاف، إنه مؤلم، تهيء نفسك... ولكنه ليس ضرساً. انه كل شيء، كل كيانك، كل حياتك... تلك التي تقلع... وما هي؟ لا يعلم أحد... اني متألمة في قلبي وخائفة".

وصمتت، فالدموع كانت تتدحرج على خديها. ولم يقل يورا شيئاً. وبعد فترة عاودت آنا ايفانوفنا:

"انك حاذق، موهوب... وهذا ما يجعلك مختلفاً عن الآخرين... انك ولاشك تعرف شيئاً... ارحني".

وأجاب يورا: "جيد وماذا علي لأقوله؟" واضطرب في كرسيه، ووقف وذرع الغرفة ثم جلس ثانية. "في المقام الأول، سوف تتحسنين غداً. هناك دلائل واضحة - اني أرهن حياتي مقابل ذلك - على انك اجتزت الأزمة. ومن ثم - الموت، خلود الوعي، الايمان بالبعث... انك تريدين ان تعرف رأيي كرجل علم؟ ذلك ممكن في وقت آخر؟ كلا؟ جيد كما ترغبين. ولكنه صعب الآن، هكذا، فجأة". وعند ذلك اندفع في محاضرة مرتجلة مستغرباً أن يكون بمقدوره ان يفعل ذلك.

"البعث. انه في الشكل الفج الذي يبشرون به لمؤاساة الضعيف، غريب عني. لقد فهمت دوماً كلمات المسيح عن الحياة والموت بمعنى آخر. أين يمكنك أن تجدي امكنة لكل هذه الجماعات من البشر المتراكمة خلال آلاف السنين؟ الكون ليس كبيراً ليسعهم كلهم: الله، والخير، والقصد ذو المعنى، لن يكون لها مكان، سوف تسحقها هذه الجماعات

الظمأى للحياة الحيوانية فقط.

"ولكن في كل الوقت، تبقى الحياة الواحدة، الشاملة، هي هي على اختلاف تراكيبها وتطوراتها، تملأ الكون وتتجدد باستمرار. تقلقين بسبب ما إذا كنت سوف تقومين من الموت ام لا، ولكنك قمت من الموت عندما ولدت، ولم تشعري بذلك.

"هل تتألمين؟ هل تشعر الأنسجة بتفسخها؟ بكلمة أخرى، ماذا يحل بوعيك؟ ولكن ما هو الوعي؟ لنرَ. ان المحاولة الواعية التي قد نقوم بها لننام تحدث الأرق، واذا جرب أحد أن يعي عملية الهضم كان ذلك افضل طريق لتلبك المعدة. الوعي سم اذا طبقناه على أنفسنا. الوعي نور موجه الى الخارج، انه ينير الطريق أمامنا فلا نعثر. انه كالنور الأمامي في القاطرة، وجهيه الى الداخل فيحصل اصطدام.

"وماذا يحدث إذاً لوعيك؟ وعيك انت لا وعي أي شخص آخر. جيد، ما انت؟ هذه هي النقطة. لنجرب أن نحلها. ما هو الذي كنت دائماً تعرفينه بأنه أنت؟ ماذا تعين من داخلك؟ الكليتان؟ الكبد؟ عروقك الدموية؟ كلا. وعلى كل حال مهما ذهبت بعيداً في ذاكرتك فانك تصلين الى هويتك عن طريق بعض الظواهر الخارجية، الحركية التي قمت بها... عملُ يديك، عائلتك، الأشخاص الآخرون. والآن اصغي جيداً. انت في الآخرين، هذه هي روحك. هذا ما تنفّسه وعيك وعاشه وفرح به خلال حياتك ـ روحك، خلودك، انه سوف يكون انت ـ الأنت الذي يدخل المستقبل ويصبح جزءاً منه.

"والآن، نقطة أخيرة. ليس هناك ما يخيف. ليس هناك شيء كالموت. ليس للموت ما يفعله معنا. ولكنك قلت شيئاً: موهوب ـ هذا ما يجعل الواحد مختلفاً عن الآخرين. والآن، هذا ما نهتم به. والموهبة في أعلى وأوسع معناها تعني الموهبة للحياة.

"لن يكون هناك موت، هذا ما قاله القديس يوحنا. تفكيره بسيط.

لن يكون هناك موت لأن الماضي انتهى، انه كما لو قلنا تقريباً لن يكون هناك موت لأنه حدث من قبل، انه قديم وقد اعتدنا عليه. اننا بحاجة الى شيء جديد، وهذا الجديد هو الحياة الأبدية".

وكان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً فيما هو يتكلم. وسار الآن الى سرير آنا ايفانوفنا ووضع يده على جبينها وقال: "نامي". وبعد برهة قصيرة أخذها النوم.

وغادر يورا الغرفة بهدوء وطلب من ايغوروفنا أن ترسل الممرضة، وفكر في نفسه: "ماذا دهاني، لقد أصبحت مشعوذاً نظامياً، يهمس الترانيم ويشفي الناس على يديه".

وفي اليوم التالي تحسنت صحة آنا ايفانوفنا.

٤

واستمرت صحة آنا ايفانوفنا تتحسن. وفي أواسط كانون الأول جربت أن تنهض، ولكنها كانت لاتزال ضعيفة. وأمرها الأطباء أن تبقى في الفراش وترتاح راحة طويلة.

وغالباً ما كانت تستدعي يورا وطونيا لتحدثهما ساعات عن طفولتها التي امضتها في أملاك جدها فاريكينو الكائنة على نهر رينفا في جبال الاورال. ولم يكن أي من يورا وطونيا قد ذهب الى هناك، ولكن كان بامكان يورا أن يتخيل وهو يصغي اليها، هذه الآلاف العشرة من فدادين الاحراج العذراء التي لم يدخلها أحد، المسودة كالليل، والتي تخرقها الجداول العذبة كالسكاكين المعوجة، في مسيلها الصخري، ومنحدراتها العالية من جهة كروغر.

وحصل يورا وطونيا لأول مرة في حياتهما على ثياب للسهرة، فكانت حصة يورا سترة للعشاء، وطونيا ثوباً شاحباً للحفلات مع عقد

متواضع مناسب له.

وكان عليهما أن يلبسا هذه الثياب في سهرة عيد الميلاد التقليدية التي تقام في بيت سفنتتسكي في السابع والعشرين من الشهر. وعندما سلم الخياط والخياطة الثياب جربها يورا وطونيا وسرا بها ولم يكونا قد خلعاها بعد عندما جاءت ايغوروفنا تدعوهما للذهاب الى آنا ايفانوفنا.

وذهبا الى غرفتها يرتديان ثيابهما الجديدة. وعندما شاهدتهما رفعت نفسها على مرفقها ونظرت اليهما وطلبت منهما ان يستديرا.

وقالت: "جميل جداً، أخاذ. لم أكن أظن أنهما جاهزتان. دعيني القي نظرة أخرى عليك يا طونيا. كلا، انه جيد، ظننت أن الخصر مجعد قليلاً. أتدريان لماذا دعوتكما؟ ولكني أريد أولاً أن أقول كلمة لك يا يورا".

"اعرف يا آنا ايفانوفنا، أعرف أنك رأيت الرسالة، لقد أرسلتها لك بنفسي. أعرف أنك توافقين نيكولاي نيكولايفيتش فانتما تفكران أنه لم يكن من الواجب أن أرفض الارث. ولكن انتظري قليلاً. لا يجوز لك أن تتكلمي. دعيني أشرح ـ رغم انك تعرفين معظم الموضوع.

"حسناً، إذاً. انه من صالح المحامين، في الدرجة الأولى ان تكون هناك قضية جيفاكو لأن هناك من المال في املاك الوالد ما يسمح بدفع أجورهم. وعدا ذلك لا يوجد ارث ـ لا شيء الا الديون والفوضى ـ وبعض أشياء وسخة يجب غسلها. واذا كان هناك حقيقة شيء يمكن أن يتحول الى مال، هل تظنين أنني كنت أهديه للمحكمة ولا أتصرف به أنا نفسي؟ ولكن هذه هي النقطة ـ الدعوة كلها مصطنعة. وهكذا وجدت من الأفضل، بدلاً من أن الاحق كل هذه الوساخات، أن اتنازل عن حقوقي في اموال غير موجودة واتركها تذهب الى كل هذه الجماعة من المنافسين الواهمين الذين يركضون خلفها. وأحد هؤلاء الدعاة، كما تعرفين، سيدة تدعى اليس وتلقب نفسها جيفاكو وتعيش مع أولادها في باريس ـ

وكنت أعرف عنها منذ وقت طويل. ولكن ظهرت الآن طلبات أخرى، أنا لا اعرف عنك ولكنهم اخبروني منذ وقت قريب.

"ويظهر أنه عندما كانت أمي لا تزال حية، كان الوالد مغرماً باحدى الاميرات الشاذات المدعوة ستلبونوفا ـ انريكي. وولدت هذه السيدة له ولداً يدعى ايغراف وعمره الآن عشر سنوات.

"وتعيش الأميرة الآن معتزلة ـ والله يعلم من أين ـ في بيتها قرب أومسك، وهي لا تخرج أبداً. رأيت صورة فوتوغرافية للبيت، انه جميل، له خمس نوافذ فرنسية وزخارف من الاسمنت على الجدران. وشعرت مؤخراً أن هذا البيت ينظر الي شزراً من نوافذه الخمس ومن خلال كل هذه الآلاف من الأميال التي تفصل سيبريا عن موسكو وانه عاجلاً أو آجلاً سوف يصيبني بالعين". ماذا لي إذاً بكل هذا الرأسمال الخيالي، والورثة الكاذبين، والحسد، والرياء؟ والمحامين!"

واجابت آنا ايفانوفنا: "ورغم كل هذا ما كان يجب أن ترفض". وسألته متابعة: "اتدري لماذا دعوتك؟ لقد تذكرت اسمه. هل تذكر حارس الغابات الذي كلمتك عنه بالأمس؟ انه يدعى باخوس. غريب أليس كذلك! انه عتال بكل معنى الكلمة، اسود كالشيطان، له ذقن تنمو حتى حاجبيه، ويدعو نفسه باخوس. وجهه مشوه، ضربه دب ولكنه تغلب عليه. كلهم متشابهون هناك. لهم مثل هذه الأسماء الرنانة: باخوس، لوبوس أو فاوستوس. ومن مدة الى أخرى يعلن عن شخص جديد قد يكون أوكتوس او فرولوس ـ شخص له اسم يشبه طلقة نار من مسدس جدك، وعلينا جميعاً عند ذاك أن نتجمع في الطابق الأسفل من غرفة الأطفال حتى المطبخ. وهناك ـ لا يمكنك ان تتصور ماذا ـ يمكنك ان تجد باعة الفحم مع جرو دب، حي، او رجلاً من اقاصي الولاية يحمل انموذجاً من الفلزّات. وجدك كان دوماً يعطيهم ورقة رصيد الى المكتب. بعضهم كانوا يأخذون مالاً وبعضهم قمحاً وآخرون خرطوشاً. وكانت الغابة تصل

الى النوافذ، والثلج، الثلج! أعلى من السقف!" وانتابت آنا ايفانوفنا نوبة من السعال.

وقال يورا وطونيا: "كفاك، انك تضرين نفسك."

"كلام فارغ. انني بصحة جيدة. هذا يذكرني. اخبرتني ايغوروفنا انكما تتساءلان فيما اذا كان يجب عليكما ان تذهبا الى الحفلة بعد غد. لا أريد أن اسمع كلاماً سخيفاً من هذا النوع مرة ثانية، كان يجب أن تخجلا من نفسيكما. وأنت تدعو نفسك دكتوراً يا يورا! انتهى الأمر، سوف تذهبان، هذا هو. ولكن لنعد الى باخوس. كان حداداً في صباه ودخل قتالاً ومزقت امعاؤه فوضع بنفسه مكانها أمعاءً من حديد. والآن يا يورا لا تهزأ، أنا أعرف أنه لا يقدر على ذلك، يجب ألاّ تأخذها بحرفيتها، ولكن هذا ما كان يقوله الناس هناك."

وقاطعتها نوبة أخرى من السعال، أطول من السابقة، وراحت تسعل دون ان تتمكن من التقاط أنفاسها.

وهرع يورا وطونيا اليها معاً ووقفا جنباً الى جنب بقربها، وتلامست ايديهما وامسكت آنا ايفانوفنا وهي لا تزال تسعل بايديهما في يديها وابقتها مضمومة معاً مدة من الزمن. وعندما تمكنت من الكلام قالت: "اذا مت ابقيا معاً. خلق أحدكما للآخر. تزوجا. والآن انتما خطيبان." قالت هذا وأجهشت بالبكاء.

٥

كانت لارا، منذ ربيع عام ١٩٠٦ ـ وقبل بضعة أشهر من الوقت المحدد لبدء عامها الأخير في المدرسة الثانوية ـ قد وصلت بعد ستة أشهر من علاقتها مع كوماروفسكي الى أكثر من حدود طاقتها. فقد تمكن بمهارة ان يحول بؤسها لمصلحته ويلمح مذكراً بعيبها عندما

يكون ذلك من مصلحته. وأوصلتها هذه التذكيرات الى الحالة المضطربة التي يتطلبها كل رجل متهتك من امرأة. ونتيجة لذلك أحست لارا نفسها تغرق أعمق فأعمق في كابوس من الشهوانية يملؤها بالرعب في كل مرة تفيق منه. وكان جنونها الليلي عجيباً كالسحر الأسود. هنا كل شيء يصبح مقلوباً رأساً على عقب، متهرباً من وجه المنطق، الآلام الحادة تعبر عن نفسها بسلسلة من الضحكات الفضية، المقاومة والرفض يعنيان الموافقة وقبلاتٍ شاكرة تغمر يدي من يعذبها.

وبدا كل شيء كما لو كان الأمر بلا نهاية. ولكن في ذلك الربيع، وفيما كانت تستمع الى درس في التاريخ، في نهاية الفصل، وتفكر في الصيف عندما لن تكون هنالك مدرسة أو أعمال بيتية تبعدها عن كوماروفسكي، وصلت الى قرار فجائي قلب مجرى حياتها.

كان صباحاً حاراً والعاصفة تختمر. ومن نوافذ غرفة الدرس المفتوحة يصل ضجيج المدينة البعيد، وهو من وتيرة واحدة كهدير النحل تخرقه صيحات الأطفال الذين يلعبون في الفناء. وعبير الأرض المعشوشبة والأوراق النضرة يجعل المرء وسنان كما في الصباح بعد عيد المرفع.

وتناول الدرس حملة نابليون على مصر. وعندما وصل الاستاذ الى النزول في فريجوس، اسود الجو ثم اخترقه برق ورعد ونزلت سحب من الغبار والرمل على الغرفة ترافقها رائحة المطر. واثنتان من مدللات الاستاذ اندفعتا الى الخارج تدعوان البواب كي يغلق الشبابيك، وعندما فتح الباب اطار الريح كل الأوراق عن الطاولات.

وأغلقت الشبابيك. وابتدأ مطر المدينة الوسخ الممزوج بالغبار، يهطل.. ومزقت لارا ورقة من دفتر المسودات وكتبت كلمة الى جارتها ناديا كولوغريفوفا:

"ناديا، علي أن أعيش بعيداً عن أمي. ساعديني لأجد وظيفة مربية، بمعاش جيد قدر الأمكان. أنت تعرفين عدداً من الأغنياء."

وكتبت ناديا مجيبةً:

"اننا نفتش عن مربية لليبا. لماذا لا تأتين الينا ـ سوف يكون ذلك ساراً جداً. انت تعرفين كم يحبك اهلي".

٦

أمضت لارا ثلاث سنوات في بيت كولوغريفوف كما لو كانت خلف اسوار حجرية. لم يزعجها أحد. حتى أمها وأخوها، اللذان أصبحت غريبة عنهما، بقيا بعيدين عن طريقها.

وكان لافرنتيي ميخايلوفيتش كولوغريفوف من كبار رجال الأعمال وأحد الرجال اللامعين الأذكياء الذين استخدموا أحدث الطرق. وكان يبغض النظام البالي بغضاً مضاعفاً، كرجل غني يمكنه أن يزيد على الخزانة وكعضو في الطبقات الدنيا ارتفع الى مرتبة خيالية. كما كان يحمي في بيته الشوريين الذين كان البوليس يطاردهم ويدفع تكاليف الدفاع في الدعاوى السياسية. وسرت نكتة تقول إنه لشدة تعلقه بتمويل الثورة، دفع من جيبه لينظم اضراباً في معامله. وذهب في شتاء عام ١٩٠٥ الى احراج سيريبرياني وجزيرة لوسين حيث أخذ، بوصفه من أفضل الرماة وصياداً متحمساً، يدرب ميليشيا العمال على استعمال البندقية.

لقد كان رجلاً بارزاً. وكذلك كانت زوجته سيرافيما فيليبوفنا. وأعجبت بهما لارا واحترمتهما كليهما كما احبها البيت كله وعاملها كفرد من العائلة.

وخلال ثلاث سنوات أمضت لارا حياة خالية من الاكدار. وفي يوم

من الأيام جاء أخوها روديا ليراها. وأخبرها وهو يترنح على ساقيه الطويلتين ويتكلم بعظمة مصطنعة، ان مستجدّي دورته قد جمعوا مالاً ليقدموا هدية الوداع الى رئيس الاكاديمية واوكلوا الأمر اليه وطلبوا منه ان يختار ويشتري الهدية، وانه قامر بهذا المال منذ يومين وخسره الى آخر كوبيك. وعندما اخبرها بقصته ارتمى بطوله على كرسي وأجهش بالبكاء.

وجمدت لارا عندما تابع روديا من خلال شهقاته:

"ذهبت في الليلة الماضية لأرى فيكتور ايبوليتوفيتش فرفض ان يستمع الي، ولكنه قال اذا رغبت انت... قال انه رغم انك لم تعودي تحبين أحداً منا، فان سلطانك عليه لايزال كبيراً... لارا عزيزتي... كلمة منك تكفي... انك تدركين ماذا يعني هذا بالنسبة الي، أي طرد هو... ان شرف بزتي في الميزان. اذهبي لرؤيته، انه ليس طلباً كبيراً، كلميه... انك لا تريدين ان ادفع ثمن ذلك حياتي".

ورددت لارا بحنق وهي تذرع الغرفة: "حياتك... شرف بزتك. اني لست بزة. انا. ليس لي شرف. يمكنك ان تفعل بي ما تريد. هل تدرك ماذا تطلب؟ هل تدرك ماذا يقترح عليك؟ لقد تحررت سنة بعد سنة، والآن تأتي لتحطم، دون ان تكترث، كل شيء. اذهب الى جهنم. اذهب وانتحر. ماذا يهمني؟ كم تريد؟"

"ستمئة وتسعين روبلاً". وأضاف بعد تردد: "لنقل سبعمئة روبل".

"روديا! كلا، انك مجنون! هل تعرف ماذا تقول؟ لقد قامرت بسبعمئة روبل! روديا! روديا! هل تدرك كم من الوقت يلزم لشخص عادي مثلي كي يجمع هذا المبلغ من عمل شريف؟"

وتوقفت ثم قالت بعد فترة قصيرة وبكل برود كما لو كانت تتكلم مع شخص غريب: "حسناً، سوف أجرب. تعال غداً. واجلب معك مسدسك الذي كنت ستقتل نفسك به. سوف تعطيني اياه، نهائياً. ومعه

كمية وافية من الطلقات، تذكر جيداً".
وحصلت على المال من كولوغريفوف.

٧

ولم يحل عمل لارا في بيت كولوغريفوف بينها وبين اتمام دراستها في المدرسة الثانية ومتابعة بعض الصفوف في الجامعة. ونجحت في ذلك. وكانت سوف تتخرج في السنة التالية , ١٩١٢

وفي ربيع ١٩١١ تخرجت تلميذتها ليبا من المدرسة الثانوية. وكانت قد خطبت الى مهندس شاب اسمه فريزندانك ينحدر من عائلة جيدة على جانب من الثراء. ووافق أهل ليبا على اختيارها ولكنهم عارضوا زواجها في مثل هذه السن المبكرة وطلبوا منها أن تنتظر. وأدى ذلك الى مشادات. وأخذت ليبا طفلة العائلة المدللة تصرخ في وجه أبويها وتضرب الأرض بقدمها.

ولم يذكّر أحد في هذا البيت الغني لارا بدينها، او يذكره بالفعل. وكان بامكانها أن تسدده منذ وقت طويل لو لم تكن لديها مصاريف سرية.

فقد كانت، بدون علم باشا ترسل مالاً الى والده الذي أبعد الى سيبريا، وتساعد أمه المريضة المشاكسة، وتخفض نفقات معيشته بأن تعطي قسماً مما يتوجب عليه مباشرة الى صاحبة البيت. وهي التي وجدت له غرفته في بناية جديدة في شارع كامرجر قرب المسرح الفني.

ورغم أن باشا كان أصغر من لارا قليلاً فانه أحبها حباً جنونياً واطاع ابسط رغباتها. وبعد أن تخرج في المدرسة الثانوية بدأ، بناء على الحاحها، بمتابعة دروسه في اليونانية واللاتينية. وكانت أمنيتها ان ينجحا في الفحص الرسمي في العام القادم ثم يتزوجا ويذهبا كمدرسين

ثانويين في أحد مراكز المقاطعات في الاورال.

وذهبت لارا في صيف عام ١٩١١ للمرة الأخيرة مع عائلة كولوغريفوف الى دوبليانكا. وكانت تعبد المكان حتى أنها أحبته أكثر من أصحابه. وكانوا يعرفون ذلك، وفي كل صيف عندما يصلون الى هناك يتكرر المشهد نفسه كما لو كان يحصل باتفاق مكتوب. فعندما كان يتركهم القطار الحار المغبر في المحطة، كان يسمح للارا التي عقد لسانها في سكون الريف وعبيره المسكر، ان تسير على قدميها وحيدة صامتة منفعلة، من المحطة الى البيت. واثناء ذلك كانت الأمتعة تفرغ في عربة، والعائلة تصعد في أخرى وتستمع الى حوذي دوبليانكا، وهو في قميص قرمزي ومعطف بلا أكمام، يروي لهم آخر الأخبار المحلية.

وسارت لارا في درب يسلكه الحجاج الى جانب الطريق العام ومن ثم انعطفت الى الحقول. وهنا وقفت وأغلقت عينيها وأخذت نفساً عميقاً من هواء المسافات التي تمتد حولها، وهو يعبق بعبير الزهور. وكان هذا أحب اليها من أقاربها، وأفضل من حبيب، واحكم من كتاب. ومرة ثانية اكتشفت هدف حياتها. انها هنا على الارض لتمسك بمعنى سحرها القوي ولتدعو كل شيء باسمه الصحيح او اذا كان خارج قدرتها، لتلد عن طريق الحب، نسلاً لها يمكنهم ذلك عوضاً عنها.

ووصلت في ذلك الصيف منهكة بما قامت به من واجبات. وكانت سهلة الاثارة، ورغم كونها سمحاء واعية بطبيعتها، فقد ظهر عليها شك مستحدث ونزوع الى ألم المرضات الصغير.

وكان آل كولوغريفوف يحبونها حباً شديداً ويريدونها ان تبقى معهم، ولكن لما كانت ليبا قد كبرت أحست انها أصبحت عديمة الفائدة لهم. ورفضت معاشتها حتى اضطروا لأن يضغطوا عليها بشأنه. وفي الوقت نفسه كانت بحاجة الى المال وسوف يكون مزعجاً ومن غير المعقول أن تسعى للحصول عليه بطرقها وهي لا تزال ضيفة عليهم.

وأحست لارا انها في موضع ليس موضعها ولا يمكن احتماله. وتخيلت انهم كلهم يرونها عبئاً عليهم وانهم يظهرون لها الود فقط. وأحست أنها عبء على نفسها. وفكرت ان تهرب من نفسها ومن آل كولوغريفوف - الى أي مكان - ولكن كان عليها ، تبعاً لمقاييسها أن ترد المال الذي اقترضته، وليس لديها الآن أي وسيلة لذلك. وشعرت انها رهينة، بسبب غلطة روديا السخيفة - ووقعت في يأس قاتل.

وتخيلت أن النظرات تتبعها في كل حركة. فاذا اهتم أصدقاء كولوغريفوف بها تأكدت انهم ينظرون اليها كحارس طيع وصيد سهل. واذا تركوها وشأنها، فانما لاعتبارهم انها غير موجودة بالنسبة لهم.

ولم تمنعها هذه النوبات السوداوية من المشاركة في لهو ضيوف المنزل الكثيرين. فسبحت، وجذفت في القوارب، وذهبت في نزهات ليلية الى النهر، ورقصت، وحضرت الألعاب النارية مع الآخرين. واسهمت في تمثيليات الهواة، وبحماس أكثر في مباريات الرماية. وكانوا يستعملون في هذه المباريات بنادق قصيرة من نوع الموزر، ولكنها كانت تفضل مسدس روديا الخفيف حتى أصبحت ماهرة في استعماله. وقالت ضاحكة: "حرام ان أكون امرأة، كان يمكن أن أصبح مبارزة خبيرة". وكلما ازدادت محاولاتها لالهاء نفسها ازداد ألمها حتى أصبحت لا تعرف ماذا تريد.

وعندما رجعوا الى المدينة غدت في أسوأ حال، اذ أضيف الى مشاكلها شجارها مع باشا (وكانت يقظة في ألاّ تتخاصم معه جدياً لأنها تعتبره ملجأها الأخير.) وكان قد ابتدأ يظهر على باشا وثوق من نفسه. وأصبحت لهجته تعليمية قليلاً وهذا ما كان يسرها ويثيرها في الوقت نفسه.

باشا ، ليبا ، آل كولوغريفوف، المال، كل شيء كان يدور في رأسها. وعافت الحياة، وابتدأت تفقد صوابها. واستولت عليها فكرة قطع

علاقاتها مع كل ما عرفته وجربته من قبل والبدء بشيء جديد. وفي هذه الحالة، وفي زمن عيد الميلاد عام ١٩١١، وصلت الى قرار مهلك. سوف تترك آل كولوغريفوف الآن، فوراً، لتصبح مستقلة، وسوف تحصل على المال من كوماروفسكي. وخيل اليها انه بعد كل ما حصل بينهما وسنوات الاستقلال التي كسبتها لنفسها، يجب عليه أن يساعدها بنبالة، وتجرد، ودون تبرير او شروط مهينة.

وسارت الى شارع بتروفكا وهي تحمل هذه الفكرة في ليلة السابع والعشرين. وكان مسدس روديا محشواً ومهيّأ داخل كمها. فاذا رفض كوماروفسكي او حاول أن يهينها بأي طريقة من الطرق فانها سوف تطلق النار عليه.

ومشت في الشوارع المزدانة وهي في توتر شديد لا ترى شيئاً أمامها. فطلقة المسدس المهيأة قد اخترقت قلبها وهي لا تهتم أبداً لمن سوف توجه. هذه الطلقة هي الشيء الوحيد الذي تعيه. كانت تسمعها طول سيرها الى شارع بتروفكا مصوبة الى كوماروفسكي، اليها نفسها، الى مصيرها، الى الهدف الخشبي المعلق على سنديانة دوبليانكا.

٨

"لا تلمسي كمّي!".

وكانت إمّا ارنستوفنا قد مدت يدها لتساعدها على خلع معطفها، واستقبلتها بأوه وآه وهي تخبرها أن فيكتور ايبوليتوفيتش قد خرج ولكن يمكنها أن تجلس وتنتظره.

"لا أقدر. اني مستعجلة. أين هو؟"

كان في حفلة عيد الميلاد. وقبضت لارا على قصاصة الورق وعليها العنوان ونزلت راكضة الدرج الكئيب الذي تعرفه جيداً والشعارات التي

تزينه وسارت تواً الى بيت سفنتتسكي في "مدينة الطحين".

والآن فقط، بعد أن خرجت للمرة الثانية، القت نظرة حولها. انه الشتاء. انها المدينة. انه ليل.

انه برد قارس. والشوارع مغطاة بطبقة كثيفة سوداء زجاجية من الجليد، تشبه قعر زجاجات البيرة. وآلمها ان تتنفس. فالهواء الذي اثقلته حبيبات الثلج الرمادية المتطايرة يخز وجهها كشعيرات فراء قبعتها المتجمدة. وسارت وقلبها يدق في الشوارع المقفرة مارةً أمام أبواب حانات الشاي والمطاعم الرخيصة. وجوه محمرة كالنقانق، ورؤوس كلاب، وخيول تجمدت شعيرات ذقونها، تخرج من الضباب. وكانت طبقة كثيفة من الثلج والجليد تغطي النوافذ التي تنعكس الواناً متعددة ترسلها شجيرات عيد الميلاد المضاءة، وخيالات المهنئين تتحرك خلف زجاجها الأبيض الكثيف كما لو كانت شاشة فانوس سحري. انها مشاهد تعرض من أجل المارة.

وتوقفت لارا في شارع كامرجر: "لا أستطيع الذهاب، لا أستطيع احتمال ذلك." وكادت الكلمات أن تنساب خارجة. "سأذهب وأخبره كل شيء". وجمعت نفسها وولجت الباب الثقيل.

٩

كان باشا، وقد احمر وجهه من الجهد ولسانه يدفع خده، واقفاً أمام المرآة يصارع قبة وزر وعروة قميصه المنشّى. كان ذاهباً الى حفلة. وارتبك لشدة سذاجته وعدم اختباره عندما دخلت عليه لارا دون أن تقرع الباب ووجدته لم يكمل ارتداء ثيابه. ولاحظ هو فوراً اضطرابها. وكادت ألاّ تستطيع الوقوف على رجليها. وتقدمت وهي تدفع أطراف ردائها جانباً كما لو كانت تقطع نهراً.

وسارع اليها قائلاً بانزعاج: "ماذا حدث؟ ما بك؟"

"اجلس بجانبي. اجلس، لا تهتم بانهاء ارتداء ثيابك. انني مستعجلة، علي أن أذهب بعد دقيقة. لا تلمس كمي. انظر، استدر الى الجانب الآخر دقيقة."

واطاع. وكانت لارا تلبس ثوباً كاملاً فنزعت معطفها وعلقته ونقلت مسدس روديا من كمها الى جيبه ثم رجعت الى الاريكة.

وقالت: "يمكنك الآن أن تنظر، اشعل شمعة واطفىء الكهرباء."

وكانت تحب ان تقعد على ضوء الشموع الخافت فاحتفظ باشا دوماً ببعض منه. وركز شمعة جديدة في الشمعدان ثم وضعه على حافة النافذة واضاءه. واهتز اللهيب وانتفض مطلقاً نجوماً صغيرة ثم استدق حتى أصبح كالقوس. وملأ الغرفة ضياءٌ ناعمٌ. وعلى لوحة الجليد التي تغطي زجاج النافذة ابتدأت تتشكل نافذة صغيرة سوداء، توازي لسان اللهيب.

وقالت لارا: "اسمع يا باشا. انني في مأزق ويجب أن تساعدني. لا تخف ولا تسألني ولكن لا تظن أننا يمكن أن نكون مثل بقية الناس. لا تأخذ الأمر بمثل هذه البساطة. انا في خطر دائم. اذا كنت لا تريدني ان أتحطم، فيجب ألاّ نؤخر زواجنا."

وانفجر باشا قائلاً: "ولكن هذا ما كنت اريده دوماً. حددي اليوم. أنا مستعد عندما تكونين مستعدة. والآن اخبريني بصراحة ماذا يزعجك. لا تعذبينني بالأسرار."

ولكن لارا تهربت من سؤاله وحولت الموضوع بلباقة. وتحدثا وقتاً طويلاً في عدد من المواضيع، لا علاقة لها بما يحزنها.

١٠

وفي ذلك الشتاء كان يورا يحضر دراسة علمية عن العناصر

العصبية في شبكية العين ليقدمها لمسابقة الميدالية الذهبية في الجامعة. ومع أنه اختص في الطب العام فقط فقد كانت له معلومات اختصاصي في العين. وكان اهتمامه بفيزيولوجيا النظر متوافقاً مع سائر جوانب طبعه ـ مواهبه الخلاقة واهتمامه بالتخيل في الفن والتركيب المنطقي للفكرة.

وكان يورا وطونيا يسيران في عربة أجرة زحافة الى حفلة سفنتتسكي. وبعد ست سنوات من الطفولة والمراهقة امضياها في البيت نفسه، كان كل واحد منهما يعلم كل شيء عن الآخر. عاداتهما واحدة. ولهما طريقة خاصة في الضحك من نكاتهما. وهما الآن يسيران صامتين، شفاههما محكمة الاغلاق في وجه البرد، نادراً ما يتبادلان كلمة أو كلمتين، غارقين في أفكارهما.

يورا يفكر في موعد المسابقة وعليه ان يشتغل أكثر على دراسته. ثم قفز ذهنه الى افكار أخرى مدفوعاً بضوضاء الشوارع في أعياد آخر السنة. لقد وعد غوردون بمقال عن بلوك لصحيفة الطلبة التي يصدرها، وكان الشباب في كلتا العاصمتين شديد الحماس لبلوك وخاصة يورا وغوردون. وحتى هذه الأفكار لم تمسك بفكره مدة طويلة. انه وطونيا يسيران، وخدودهما مضغوطة في ياقتيهما، ويفركان آذانهما المجمدة وكل واحد منهما يفكر في شيء آخر. ولكن أفكارهما كانت تلتقي في نقطة واحدة.

فالمشهد الأخير الى جانب آنا ايفانوفنا قد غيرهما. حتى لكأن عيونهما تفتحت وظهر أحدهما للآخر في نور جديد.

طونيا، صديقته القديمة، التي كانت امراً مفروغاً منه لا يتطلب أي تفسير انقلبت الى أعقد وأمنع كائن يمكنه تصوره. لقد أصبحت امرأة. وبلمعة من لمعات الخيال كان يمكنه أن يتصور نفسه امبراطوراً، بطلاً، نبياً، فاتحاً ولكن ليس امرأة.

والآن وقد أخذت طونيا هذه المهمة الصعبة العظيمة على كتفيها الضعيفتين الغضتين (وبدت له ضعيفة هشة رغم أنها كانت ممتلئة الصحة)، فقد امتلأ بالعطف الملتهب والعجب الخجول اللذين هما بدء الحب.

ومر موقف طونيا من يورا بتغير مماثل.

وخطر في بال يورا انه يمكن أن يكون من الأفضل لو أنهما لم يخرجا. انه قلق على آنا ايفانوفنا، فقد كانا على وشك الخروج عندما سمعا انها ليست أحسن حالاً، فذهبا الى غرفتها ولكنها امرتهما بمثل الحدة السابقة ان يذهبا الى الحفلة. وذهبا الى النافذة لينظرا الى الطقس. وعندما خرجا علقت ستارة شفافة بثوب طونيا الجديد وانجرت خلفها كما لو كانت وشاح الزواج. ولاحظ الجميع ذلك وانفجروا ضاحكين.

وتطلع يورا حوله ورأى ما رأته لارا قبل لحظات. العربة الزحافة ترسل في سيرها صوتاً مزعجاً غير اعتيادي، يجاوبه صدى طويل غريب آت من الأشجار التي أحاطها الجليد في الحدائق وعلى الطرقات. وذكرته النوافذ المجمدة التي انبرت من الداخل، بالأحجار الكريمة النادرة وخلفها تتألق حياة موسكو في عيد الميلاد، الشموع المضاءة على الأشجار، والمدعوون في ثياب تنكرية يلعبون العاب الموسم.

وظهر فجأة أمام يورا أن بلوك يعكس روح الميلاد في كل مجالات الحياة الروسية ـ في هذه المدينة الشمالية الجديدة وفي الأدب الروسي الجديد، تحت السماء المتلألئة النجوم، في هذا الشارع الحديث، وحول الشجرة المضاءة، في هذا المرسم في القرن العشرين. وفكر انه لم يعد بحاجة الى أن يكتب مقالاً عن بلوك، بل كان كل ما يجب عليه القيام به هو رسم نسخة روسية عن لوحة المانية لموضوع سجود المجوس، وقد رسم فيها الثلج والذئاب وغابات السرو القاتمة.

وفيما كانا يسيران في شارع كامرجر لاحظ يورا ان شمعة قد اذابت بقعة من الجليد على أحد الشبابيك. وبدا النور كما لو كان ينظر الى

الشارع بوعي يراقب العربات المارة وهو ينتظر شخصاً ما.

وهمس في نفسه: "شمعة تحترق على الطاولة، شمعة تحترق... بدء شيء متداخل لا شكل له، وتمنى لو أنه اتخذ شكلاً لنفسه. ولكن شيئاً آخر لم يأت اليه.

١١

منذ زمن قديم جداً وحفلات عيد الميلاد في بيت سفنتتسكي تتبع الطريقة ذاتها. في الساعة العاشرة، بعد أن يكون الأطفال قد ذهبوا، تضاء الشجرة مرة ثانية للآخرين ثم تستمر السهرة حتى الصباح. الأشخاص الأكثر اتزاناً يلعبون الورق طول الليل في غرفة الجلوس المؤثثة على طراز "بومبيي" وقد فصلتها عن قاعة الرقص ستارة كثيفة على حلقات من البرونز. وقبيل الفجر يتناول الجميع معاً طعام العشاء.

"لماذا تأخرتما؟" سأل جورج ابن أخي سفنتتسكي وهو يركض في المدخل في طريقه الى غرف عمه وزوجة عمه. ونزع يورا وطونيا معطفيهما ونظرا من باب غرفة الرقص قبل أن يذهبا ليباركا لمضيفيهما.

وكان أولئك الذين لا يرقصون بل يسيرون وهم يتحدثون، نافضين ثيابهم، يدوس الواحد منهم على قدم الآخر، يتحركون مثل جدار أسود، قرب شجرة عيد الميلاد التي تنفث الحرارة من صفوف الأنوار المتعددة عليها.

وفي وسط الغرفة كان الراقصون يلفون ويدورون بسرعة خاطفة. يجتمعون ازواجاً أو يشكلون صفاً واحداً تبعاً لايعازات طالب شاب في مدرسة الحقوق يدعى كوكا كورناكوف وهو ابن مساعد النائب العام. وكان يقود الرقص، ويصرخ بأعلى صوته من آخر الغرفة باللغة الفرنسية: "دائرة كبرى" أو "سلسلة صينية" فيطيعون أوامره. وصرخ

بعازف البيانو: "فالس، من فضلك" وهو يقود فتاته في الدورة الأولى، دائراً واياها بسرعة ثم مخففاً شيئاً فشيئاً دائرة دورانه حتى اصبحا يوقعان التوقيت في اصداء الفالس الخافتة. وكان يصفق أحدهم فيُحمل الجليد والمرطبات حول الجماعة الصاخبة المتحركة. ولم يتوقف الشباب والفتيات الذين احتقنت وجوههم عن الصراخ والقهقهات وهم يحتسون شراب الكرز والليمونادة، وعندما يضعون كؤوسهم على الصحائف يصبح الصوت عشر مرات أعلى، كما لو كانوا قد ابتلعوا خليطاً من المشروبات القوية.

وتوجه يورا وطونيا مباشرة دون أن يتوقفا في قاعة الرقص الى غرف المضيفين الواقعة في مؤخرة البيت.

١٢

وازدحمت غرف نوم عائلة سفنتتسكي بالأثاث الذي نقل من قاعة الرقص والمرسم. وهنا كان يقوم مطبخ آل سفنتتسكي العجيب، مصنع عيد الميلاد. وكانت تنتشر من المكان رائحة الدهان والصمغ وتتراكم فيه أعمدة من الغلافات وصناديق من الدعوات والشموع الاحتياطية.

وكان الزوجان سفنتتسكي يكتبان اسماء على بطاقات من أجل الهدايا وتحديد المقاعد حول طاولة العشاء، وارقاماً على بطاقات أخرى من أجل اليانصيب. وكان جورج يساعدهما ولكنه كان يخطىء في حساباته باستمرار وهما ينظران اليه بحنق. وسرا من قدوم يورا وطونيا. فقدعرفاهما طفلين، وبدون تشريفات امراهما بالمشاركة في العمل.

"فليسياتا سيميو نوفنا لا يمكنها أن تفهم ان هذا كان يجب أن يعمل مسبقاً، لا في وسط الحفلة والمدعوون هنا. انظر ماذا فعلت الآن يا جورج ـ علبة الملبس الفارغة على المقعد، وتلك التي يوضع فيها اللوز المحّلى على الطاولة ـ

لقد خلطت كل شيء معاً."

"يسرّني أن تكون انيت قد تحسنت. لقد كنا أنا وبيير قلقين."

"الا أنها أسوأ، وليست أفضل يا عزيزتي - اسوأ، هل تفهمين؟ انك تأخذين الأشياء مقلوبة دوماً."

وامضى يورا وطونيا نصف السهرة مع جورج والزوجين المسنين.

١٣

وطول هذا الوقت كانت لارا في قاعة الرقص. لم تكن تلبس ثياب السهرة ولم تكن تعرف أحداً هناك، ولكنها بقيت إما ترقص الفالس مع كوكا كورناكوف كمن يمشي في نومه، وإما تهيم دون هدف في الغرفة.

ومرة أو مرتين توقفت مترددة خارج غرفة الجلوس وهي تأمل أن يراها كوماروفسكي، وقد كان يجلس بمواجهة الباب. ولكنه لم يرفع عينيه عن أوراق اللعب التي يحملها بيسراه وتخفي وجهه، وهو اما انه لم يرها حقيقة او انه تظاهر بذلك. وصدمت بما اخجلها. فقد دخلت فتاة لا تعرفها من قاعة الرقص فنظر اليها كوماروفسكي نظرة تذكرها لارا تماماً، فاغترت الفتاة واحمر وجهها وابتسمت بسرور. واحتقن وجه لارا خجلاً حتى كادت تقطر عرقاً. وفكرت "ضحية جديدة" ورأت لارا نفسها، كما لو في مرآة، وكل قصة علاقتها مع الرجل. ولم تنثن عن عزمها على التحدث اليه، ولكنها قررت ان تفعل ذلك فيما بعد، في ظرف أكثر ملاءمة، واجبرت نفسها على الهدوء وعادت الى قاعة الرقص.

وكان كوماروفسكي يلعب مع ثلاثة رجال آخرين. فالرجل الذي الى يساره كان كورناكوف والد الشاب الأنيق الذي عادت لارا تراقصه. وقد فهمت ذلك من الكلمات القليلة التي تبادلاها. وكانت ام الشاب هي تلك

المرأة الطويلة القاتمة ذات الرداء الأسود والعينين اللاهبتين والعنق المقيت الذي يشبه عنق الحية. وكانت تذهب وتجيء بين قاعة الرقص وغرفة الجلوس، تراقب ابنها وهو يرقص، وزوجها وهو يلعب الورق. وعلمت لارا أخيراً أن الفتاة التي أثارت فيها تلك الاحساسات المعقدة هي اخت الشاب وان شكوكها خالية من أي أساس.

ولم تكن لارا قد أعارت اسم عائلة كوكاكبير اهتمام عندما قدم الشاب نفسه لها في المرة الأولى، ولكنه اعاد ذكره عندما قادها في حركة الفالس الأخيرة الى كرسي وانحنى أمامها. "كورناكوف، كورناكوف". انه يذكرها بشيء ما. شيء لا يسرّ. ثم تذكرت. كورناكوف هو مساعد النائب العام في محكمة موسكو المركزية الذي قدم مطالعة حماسية في دعوى جماعة عمال سكك الحديد الذين كان تيفرزين بينهم. وبناء على رغبة لارا، ذهب كولوغريفوف ليباحثه في الأمر ولكن دون جدوى. "هذا هو إذاً... جيد، جيد، جيد... شيء هام... كورناكوف، كورناكوف."

١٤

وقاربت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وطنت اذن يورا. وبعد فاصل قصير من الشاي والحلوى بدأ الرقص من جديد. ولم يهتم احد باستبدال الشموع التي احترقت حتى آخرها على الشجرة.

ووقف يورا منزعجاً في وسط القاعة يراقب طونيا وهي تراقص شخصاً غريباً. وانزلقت نحوه، وعطفت ذيل الساتان القصير، كما تحرك السمكة زعانفها، واختفت بين الجموع.

وكانت جد منفعلة. واثناء فترة الراحة رفضت الشاي وأطفأت عطشها ببضع برتقالات قشرتها ثم مسحت اصابعها وزاويتي فمها

بمنديل كالبرعم. وفيما هي تتكلم وتضحك دون توقف، كانت تخرج منديلها وتعيده دون انتباه الى زنارها او كمها.

والآن وقد لامست زائغة يورا المقطب الجبين، وهي تلف مع مراقصها المجهول، امسكت بيده وضغطتها وابتسمت بقوة. وبقي المنديل الذي كانت تحمله في يد يورا فضغطه على شفتيه وأغمض عينيه. وعبق المنديل برائحة البرتقال التي كانت قد علقت بيدي طونيا الساحرتين. وكان ذلك شيئاً جديداً في حياة يورا، شيئاً لم يشعر به من قبل، شيئاً حاداً نفذ فيه من رأسه الى أخمص قدميه. فهذه الرائحة الساذجة الصبيانية كانت صميمية مفهومة مثل كلمة همست في الظلام. وضغط المنديل على عينيه وشفتيه وأخذ يتنفس من خلاله. وفجأة دوى صوت طلق ناري في داخل البيت.

والتفت الجميع متطلعين الى البوابة الفاصلة بين قاعة الرقص وغرفة الجلوس. وساد الصمت فترة من الزمن، ثم ابتدأ الضجيج فاندفع البعض يصرخون وركض آخرون خلف كوكا الى غرفة الجلوس التي انبعث منها صوت الطلقة ولاقاهم آخرون وهم يبكون ويتناقشون ويتكلمون كلهم دفعة واحدة.

وراح كوماروفسكي يقول في يأس: "ماذا فعلت، ماذا فعلت."

وأخذت السيدة كورناكوف تصرخ بصوت هستريائي: "بوريا، بوريا، قل لي إنك حي. اين هو الدكتور دروكوف؟ قالوا انه هنا. اوه، ولكن اين هو، اين هو؟ كيف يمكنكم، كيف يمكنكم ان تقولوا انه ليس الا خدشاً! اوه، ايها الشهيد المسكين، هذا ما حصلت عليه من اكتشاف كل هؤلاء المجرمين! هذه هي، الساقطة، هذه هي، سوف اقلع عينيك أيتها الزانية، انك لن تهربي هذه المرة! ماذا تقول يا كومارفسكي؟ انت؟ اطلقت النار عليك انت؟ كلا، لا يمكنني ان اتحمل ذلك، انها ساعة مؤلمة يا كوماروفسكي، وليس لدي وقت

للاستماع الى الفكاهات. كوكا، كوكوشكا؟ هل يمكنك ان تصدق ذلك؟ لقد حاولت قتل والدك... نعم... ولكن العناية الالهية... كوكا، كوكا!"

وتفرق الجمع من غرف الجلوس الى قاعة الرقص، وعلى رأسهم كورناكوف وهو يطمئن الجميع ضاحكاً، ويربت بفوطة على سحجة في يده اليسرى. وكانت جماعة أخرى، إلى جانبه تقريباً، تقود لارا بذراعيها.

وارتبك يورا. هذه الفتاة ايضاً، وايضاً في مثل هذه الظروف العجيبة، وايضاً هذا الرجل الاشيب. ولكن يورا يعرف الآن من هو - المحامي اللامع كوماروفسكي الذي لعب دوراً في قضية املاك والده. ليس من حاجة لتهنئته. كلاهما يدعي عدم معرفة الآخر. والفتاة... انها الفتاة إذاً التي اطلقت النار؟ على النائب العام؟ يجب ان يكون ذلك لأسباب سياسية. مسألة مؤسفة. لقد مرت في وقت سيء. كم هي جميلة! وهؤلاء المهرجون الذين يمسكون بذراعيها كما لو كانت لصاً عادياً.

ولكنه أدرك فجأة انه على خطأ، فقد تخاذلت ركبتا لارا تحتها، وكانوا يمسكون بها حاملينها تقريباً الى اقرب كرسي حيث انهارت مغشياً عليها.

وكان يورا على وشك ان يهرع اليها ليساعدها، ولكنه فكر ان من الأفضل أن يبدي اولاً بعض الاهتمام بالضحية. وسار نحو كورناكوف.

وقال: انا طبيب، ارني يدك، انك محظوظ. انها لا تستحق حتى الضماد ومع ذلك فان قطرة من صبغة اليود لن تضر. هذه هي فيليتساتا سيميونوفنا، اطلبها منها."

وكانت السيدة سفنتتسكايا وطونيا قادمتين نحوه ممتقعتي الوجه، فأخبرتاه أن عليه ان يترك كل شيء ويأخذ معطفه بسرعة فقد جاءت

رسالة من البيت وعليهما ان يرجعا فوراً.
وتخيل يورا اسوأ احتمال. فنسي كل شيء واسرع الى حوائجه.

١٥

ولم يجدا آنا ايفانوفنا حية. فعندما صعدا الدرج راكضين الى غرفتها كانت قد فارقت الحياة منذ عشر دقائق. اما سبب الموت فنوبة اختناق ناجمة عن وذمة الرئة الحادة، ولم تكن قد شخصت في الوقت المناسب. وفي الساعات الأولى، صاحت طونيا وشرقت بالبكاء ولم تعد تعرف أحداً. وفي اليوم التالي هدأت ولكنها كانت تجيب باشارة من رأسها فقط على ما يوجهه اليها يورا او ابوها من كلام، وفي كل مرة تحاول فيها الكلام يغلبها الحزن وتبدأ بالبكاء كأنما اصابها مسّ من الجنون.

وفي الفترات بين الصلوات ركعت ساعات طويلة الى جانب المرأة الميتة ويداها الجميلتان تمسكان بجانب من التابوت المرتفع على منصة والمغطى بالاكفان. وكانت ساهية عن الذين حولها. ولكن عندما تلتقي عيناها بعيون اصحابها كانت تريد ان تنهض مسرعة، فتخرج من الغرفة وتصعد الدرج خانقة عبراتها حتى ترتمي في السرير وتدفن انفجارات يأسها في المخدة.

ألالم والوقوف لساعات، وعدم النوم والانشاد المنخفض والشموع الزائغة في الليل والنهار، والزكام الذي اصابه، كلها كانت تملأ نفس يورا باضطراب لذيذ، بحمى من الحزن والوجد.

عندما ماتت امه قبل عشر سنوات كان لا يزال طفلاً. انه لا يزال يذكر كيف بكى وقد صعقه الحزن والخوف. وفي تلك الأيام لم يكن مهتماً بنفسه، وكان من الصعب عليه حتى ان يدرك ان كائناً مثل يورا

يوجد بذاته او ان له أي قيمة او أهمية. فان ما كان يهمه يومذاك هو كل شيء خارجه وحوله. ومن كل جانب كان العالم الخارجي يضغط عليه ثقيلا، واقعاً، ملموساً كالغابة. اما السبب الذي جعله يضطرب بمثل هذه الشدة لموت أمه فهو انه كان قد ضاع معها في الغابة ثم استفاق فجأة ليراها قد ذهبت وليجد نفسه وحيداً فيها. وتتألف الغابة من كل شيء في العالم - الغيوم ولافتات المخازن وذرا القباب المذهبة والفرسان الحاسري الرؤوس الذين يرافقون والدة الاله في الصورة التي تمثلها محمولة على سرير. وكانت واجهات المحال فيها، والأقواس، والسماء البعيدة ذات النجوم، والله والقديسون.

ومرة نزلت هذه السماء البعيدة ذات النجوم الى غرفة نومه ووصلت الى عند معطف مربيته التي كانت تحدثه عن الله، كانت قريبة يمكن الامساك بها كرؤوس أشجار البندق في الجداول، عندما تشدّ اغصانها لتلتقط اثمارها. وبدت كما لو أنها القيت في طبق الغسيل المذهب الموضوع في الغرفة فاستحمت بالذهب والنار ثم خرجت كصلاة الصباح في الكنيسة الصغيرة التي يذهب اليها مع مربيته. وهناك تصبح النجوم السماوية أنواراً أمام الايقونات والاله السيد اباً رحوماً وكل شيء يأخذ تقريباً مكانه الحق. ولكن الشيء الأهم كان عالم الكبار الحقيقي والمدينة التي تمتد حوله كالغابة. وفي ذلك الزمان كان يورا، بكل ايمانه نصف الحيواني، يؤمن بالله، حارس هذه الغابة.

أما الآن فقد تغير الحال. ففي هذه السنوات الاثنتي عشرة في المدرسة الثانوية والجامعة درس يورا الكتاب المقدس والكتب الكلاسيكية، الاساطير والشعراء، التاريخ والعلوم الطبيعية، التي أصبحت بالنسبة اليه مؤرخ أسرته، وشجرة عائلته. لم يعد يخيفه الآن شيء، لا الحياة ولا الموت، كل شيء في العالم كل الأشياء فيه كانت كلمات في قاموسه. وشعر انه على قدم المساواة مع الكون. وأثرت فيه

المراسيم الدينية التي اجريت لآنا ايفانوفنا اكثر مما أثرت فيه تلك التي اجريت لأمه. ففي ذلك الوقت صلى باضطراب وخوف وألم، وهو الآن يصغي للصلوات كأنها رسالة موجهة اليه وتعنيه هو مباشرة. واصغى بتصميم الى الكلمات، وترقب أن يكون لها مثل باقي الكلمات، معنى واضح. ولم يكن هناك أي تدين في اجلاله للقوى العظمى في السماء والأرض والتي كان يمجدها مثل نسله.

١٦

"قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الذي لا يموت، ارحمنا."

ماذا هناك؟ اين هو؟ انهم يخرجون التابوت. يجب أن يفيق. فقد استغرق في النوم على احدى الارائك، مرتدياً ثيابه، منذ السادسة صباحاً. وها هم الآن يفتشون عنه في كل البيت دون ان يفكر أي واحد منهم ان ينظر في الزاوية البعيدة من المكتبة خلف رفوف الكتب.

وناداه ماركل: "يورا، يورا." وكانوا يخرجون التابوت. وكان على ماركل ان يحمل الاكفان ولم يجد يورا في أي مكان ليساعده، وزيادة في السوء حبس نفسه في غرفة النوم حيث تكومت الاكفان لأن باب الخزانة انفتح واقفل باب غرفة النوم.

وراح الناس يصرخون من أسفل الدرج: "ماركل! ماركل! يورا!" ورفس ماركل الباب فانفتح واندفع نازلاً السلم حاملاً معه عدداً من الأكفان.

"قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت."، وانسابت الكلمات هادئة في الشارع، وبقيت هناك كما لو ان نفاضة من ريش قد مسحت الهواء، كل شيء كان يتهادى ـ الأكفان، المارّون، ورؤوس الجياد ذات الريش، والمبخرة تهتز في سلاسلها على يد الكاهن، والأرض

البيضاء تحت الأقدام.

"يورا، وأخيراً، يا الهي" وهزت شورا شليزنفر كتفيها. "ماذا دهاك؟ انهم يخرجون التابوت. هل تأتي معنا؟"

"اجل، بكل تأكيد."

١٧

وانتهت صلاة الجنازة في الكنيسة. واصطف الشحاذون، وقد احتقنت ارجلهم من البرد، في صفين. وتحركت الشموع والعربة وعليها الأكفان وعربة آل كروغر، حركة خفيفة. وتقدمت عربات الأجرة الى قرب الكنيسة. وخرجت شورا شليزنفر وهي تبكي، ورفعت وشاحها المبلل بالدموع والقت نظرة فاحصة على الجماعة، وتقفت عند حملة النعش واشارت اليهم ثم رجعت الى الكنيسة. وكان الناس يخرجون اكثر فأكثر.

"حسناً، هذا هو الآن دور آنا ايفانوفنا. انها ترسل أفضل تحياتها. لقد قطعت تذكرة الى مكان قصي. مسكينة هي."

"أجل، لقد انتهى دورها في الرقص، مسيكينة، لقد ذهبت الى الراحة."

"هل حصلت على عربة ام انك سوف تسير ماشياً؟"

"يجب علي ان احرك رجلي بعد كل هذا الوقوف. لنسر قليلاً ثم نستقل بعد ذلك عربة."

"هل لاحظت كم كان فوفكوف مضطرباً؟ فعندما نظر اليها انسابت الدموع على خديه، ولطم انفه وهو ينظر الى وجهها. لقد وقفت الى جانب زوجها."

"لقد كان دوماً يتمناها."

وساروا ببطء الى المقبرة الكائنة في الطرف الآخر من المدينة. وفي

ذلك اليوم انقشع البرد القاسي، وكان يوماً ثقيلاً ساكناً، وذهب البرد وذهبت الحياة معه ـ انه أفضل يوم للجنازات. وبدا الثلج الوسخ كما لو كان يلمع من خلال نسيج أسود شفاف وبدت أشجار السرو خلف سياج باحة الكنيسة مبللة داكنة كالفضة الكالحة، وكأنها في حداد عميق.

وفي باحة الكنيسة هذه ذاتها ترقد ام يورا. ولم يكن قد زار ضريحها في السنوات الأخيرة. ونظر نحوها وهمس: "امي"، كما كان يفعل منذ سنوات.

وتفرقوا في الدروب الضيقة، جماعات كبيرة لم تكن سيماؤها تتناسب مع خطواتها التي وقّعت لتكون حزينة. وقاد الكسندر الكسندروفيتش طونيا بذراعها وتبعهما آل كروغر. وكانت طونيا تبدو جميلة في ثيابها السوداء.

ونبتت قضبان الجليد، على السلاسل والصلبان المعلقة في قباب الدير وجدرانه الزهرية الألوان. وفي زاوية بعيدة من فناء الدير تعلق الغسيل في صفوف تمتد من حائط الى آخر ـ قمصان ذات أكمام ثقيلة، واغطية طاولات وردية، وشراشف ذات صنع رديء. ولاحظ يورا ان هذا الذي لا يتناسب في مظهره مع الأبنية الجديدة انما هو القسم من ارض الدير حيث جنّت العاصفة في تلك الليلة.

وسار وحيداً، في طليعة الآخرين، متوقفاً مرات ليترك لهم مجال اللحاق به. وجواباً على الحزن الذي يحدثه الموت لهؤلاء الذين يسيرون ببطء خلفه، انجر هو، دون ان يستطيع المقاومة كالماء في المنحدر، لأن يحلم ويفكر ويخرج اشكالاً جديدة، ليبدع الجمال. وبشدة اعنف من أي وقت مضى، ادرك ان للفن عنصرين ثابتين، اهتمامين لا ينتهيان: انه يتأمل دوماً في الموت وبالتالي يخلق الحياة باستمرار. كل فن عظيم اصيل يشبه ويكمل رؤيا القديس يوحنا.

وفكر، بسرور مستبق، في اليوم أو اليومين حينما يجلس وحيداً،

بعيداً عن الجامعة والبيت، يكتب قصيدة لذكرى آنا ايفانوفنا. انه سوف يضمنها كل هذه الأشياء المبعثرة التي وضعتها الحياة في طريقه، ووصفاً قصيراً لأهم ميزات آنا ايفانوفنا، وحداد طونيا، وحوادث الطريق اثناء العودة من الدفن، والغسيل المعلق في المكان الذي جنّت فيه العاصفة قبل سنوات، وبكى وهو لايزال صبياً.

الفصل الرابع

ساعة القدر المحتوم

١

كانت لارا نائمة في غرفة فيليتساتا سيميونوفنا. وكانت تهذي. وكان حولها عائلة سفينتيتسكي والدكتور دروكوف والخدم يتحدثون بصوتٍ منخفض. وكان بيت سفينتيتسكي المقفر يغرق في الظلمة. ولم يكن يضيء صفّ الغرف الطويل الا مصباح صغير يبعث ضوءه هنا وهناك في هذا الممشى المستقيم.

وكان فيكتور إيبوليتوفيتش يذرع هذا الممشى، كما لو انه في بيته، بخطوة غاضبة حازمة. فتارة يُلقي نظرة في غرفة النوم لكي يبقى مطلعاً على ما يجري فيها، وتارة يتجه صوب الطرف الآخر من البيت، ويصل، اذ يتجاوز شجرة الميلاد ذات الكرات المفضضة، الى غرفة الطعام، حيث تكاد المائدة تهتز تحت الصحون التي لم تمسّ، وحيث تدندن المزامير الخضر، حين كانت عربة تمرّ في الشارع او تنساب فأرة صغيرة على غطاء الطاولة بين الصحون.

وكان كوماروفسكي يشتعلُ قلقاً. كانت تخنقه المشاعر المتناقضة. يا للفضيحة! يا للعار! كان يُرغي ويُزبد غضباً. لقد حُكم على مقامه. هذا الحادث هدّم سمعته. كان لابد بأي ثمن، بقدر ما لا يفوت الوقت، استدراك القيل والقال. واذا كان الخبر قد انتشر، فلا بُد من منع الضجة والقضاء عليها في المهد. وقد تأكد بالاضافة الى ذلك، مرة أخرى، كم كانت هذه الفتاة المجنونة اليائسة لا تقاوم. فكان يُعرف من أول نظرة

انها ليست كالأخريات. كان فيها دائماً شيء غير عادي. وقد اتضح له مع ذلك أنه أفسد حياتها الى الأبد، وهذا الشكل الذي كانت تحتد به، وتتمرد دائماً، قلقةً لكي تصنع من جديد مصيرها كما تشاء، وأن تبدأ ثانية حياتها من جديد.

وكان لابد له أن يساعدها من جميع الوجوه، وربما ان يستأجر لها غرفةً، لكن دون أن يمسها، في أي حالة، بل يبتعد، على العكس، عنها لكي يجنّبها أي شبهة، والا فهذه فتاةٌ لا يعرف غير الله ماذا تجرّ عليك، كما تبين...

وما أكثر أيضاً هموم المستقبل. ذلك ان حادثةً من هذا النوع تقذف بك بعيداً، فالقانون ساهر. إنه الليل، ومنذ ساعتين وقعت الحادثة، فحضر البوليس مرتين، وذهب كوماروفسكي مرتين الى المطبخ ليوضح الأمر الى الرقيب ويحاول ان يرتب كل شيء.

لكن الأمر سيصبح معقداً أكثر فأكثر. وسيُغالى في التدليل على ان لارا تتعلق به وليس بكورناكوف. ولن تقف القضية عند ذلك الحدّ. فسوف تتخلص لارا من بعض مسؤوليتها، لكنها ستخضع للملاحقات القضائية في بعضها الآخر.

من المؤكد أنه سيقاوم هذا بكل قواه، واذا كانت القضية سيُحقق فيها، فسيقدم نتائج فحصٍ نفسيّ يثبت لا مسؤولية لارا حين وقوع الحادث، ويوقف ملاحقتها.

وارتاح كوماروفسكي لهذه الفكرة، رويداً رويداً. كان الليل قد مرّ، واشعة من النور تجوس الغرف وتلقي نظراتٍ خاطفة تحت الطاولات والمقاعد كاللصوص او كخبراء المصارف. ومضى كوماروفسكي ليتفقد لارا في غرفة النوم، فلم يرها انها تحسنت، ثم غادر عائلة سفينتيتسكي لكي يرى محاميةً من معارفه، روفينا اونيسيموفنا فويت فوتيكوفسكي، وهي زوجة مهاجرٍ سياسي. كانت تملك شقة بثماني

غرف، فلم تعد بحاجة اليها كلها عدا انها لا تتمكن من القيام بمتطلباتها، فأجرت غرفتين. وكانت إحداهما قد خلت منذ فترةٍ وجيزة، فاستأجرها كوماروفسكي للارا. ونُقلت اليها بعد ساعات وهي تعاني حُمّى تنذر بالموت. كانت تهذي.

٢

كانت روفينا اونيسيموفنا امرأة ذات أفكار تقدمية، وعدوةً للآراء المسبقة التي تنسجم، حسب تعبيرها، مع كل ما حولها من "الواقعي" و"القابل الحياة".

وكان فوق مكتبها نسخة من برنامج "إرفورت" اهداها اليها المؤلف. وكانت احدى الصور المعلّقة في غرفتها تمثل زوجها، الى جانب بليخانوف في أحد الأعياد الشعبية في سويسرا. كان كلاهما يضع على رأسه قبّعة ناعمة من ورق الشجر، ويرتدي سترة من جلد حيوانٍ جبلي يُدعى أَلْبكَة.

وقد كرهت روفينا اونيسيموفنا المستأجرة الجديدة منذ الوهلة الأولى. واعتبرتها متمارضة شرسة. وتراءت لها ان نوبات الهذيان التي تحدث للارا هي، بكل وضوح وبساطة، مصطنعة. كانت مستعدة لأن تقسم بأن لارا تلعب دور مارغريت التي سيطر عليها الهذيان في السجن.

وكانتْ روفينا اونيسيموفنا تعبّر عن ازدرائها للارا بغضب متزايد. فكانت تصفق الأبواب، وتغني بملء صوتها وهي تتنقل بصخب في القسم الخاص بها من الشقة، وتهوّي غرفه طوال النهار.

كانت شقتها في الطابق الأخير من بناية كبيرة. وكانت نوافذ هذه الشقة تفيضُ، منذ الانقلاب الشتوي، بسماء زرقاء، صافية، فسيحة،

كنهر يتدفق. وكانت الشقة تمتلىء، في أثناء النصف الآخر من الشتاء، بأمارات تبشر بالربيع الآتي.

وكانت ريحٌ حارة جنوبية تدخل من الكوى، وتصفر القطر في المحطات كالطواويس؛ والمريضة، في سريرها، تستسلم على مهل لذكرياتها البعيدة.

كانت تستعيد أحياناً كثيرة ذلك المساء الأول في موسكو، حين وصلوا من الاورال منذ سبع ـ ثماني سنوات، في ايام طفولتها التي لا تنسى. لقد اجتازوا موسكو كلها، من المحطة الى الفندق، بعربة مكشوفة في أزقة مظلمة. وكان الفوانيس، وهي تقترب وتبتعد، ترمي، دوراً بعد دور، على جدران البيوت ظلَّ الحوذي، المحدودب. وكان الظل يكبر، يكبر ويبلغ ابعاداً مخيفة، يغطي الشارع والسقوف، ثم ينكسر، ويبدأ من جديد كل شيء.

وكانت تسمع في الظلمة، عالياً، اجراس أربعين كنيسة في موسكو، وعلى الأرض، دوي عربات الخيل التي تجري في الاتجاهات كلها. لكن الواجهات الزجاجية والأضواء كانت هي أيضاً تصمّ لارا، فكأن لها كذلك صوتاً كالأجراس أو العجلات.

لقد بقيت مذهولة أمام طول البطيخ الأحمر الضخم فوق طاولة غرفة الفندق. هكذا رحب بهم كوماروفسكي في مسكنهم الجديد. وقد رأت لارا في هذا البطيخ رمز قوة كوماروفسكي وغناه. وحين جعله فيكتور ايبوليتوفيتش يصرف بأسنانه، وهو يشقه بضربة سكين، ارتعدت لارا من الخوف، لكنها لم تجروء على الرفض فأكرهت نفسها على ابتلاع القطع المورّدة الذكية التي حصرها الانفعال في حلقومها.

وكما تخوفت من الطعام الفاخر والمدينة المظلمة، كان لابد ان تتخوف فيما بعد من كوماروفسكي، وهذا هو السر الأول في كل ما حدث لها. لكنه تغير الآن. لم يكن يتطلب شيئاً، او يخطر بذاكرتك او

يظهر لك. كان يظل بعيداً، ولا يفتر عن عرض مساعدته عليك، بأنبل طريقة.

كانت زيارة كولوغريفوف امراً آخراً مختلفاً. وقد سرت لارا من رؤيته كثيراً. فاذا كان قد ملأ قسماً كبيراً من الغرفة بشخصيته، بالرشاقة والموهبة اللذين تفيض بهما، فذلك عائد لحرارة نظرته وذكائه وابتسامته أكثر مما هو عائد لقامته الطويلة وبدانته. لقد ظهرت الغرفة به أصغر من ذي قبل.

كان يجلس مقابل سرير لارا يفرك بيديه. وحين دعي الى مجلس الوزراء في سانت بطرسبورج، تحدث مع شيوخ اجلاء كما لو كانوا تلاميذ في السنوات الأولى. لكن هذه التي تتمدد الآن امامه كانت بالنسبة له منذ هنيهة جزءاً من بيته، كانت تقريباً ابنته، ولم يكن يتبادل معها، الا نظرات وملاحظات سريعة، وهو يمر، كما كان يتبادلها مع سائر افراد عائلته. (وهذا ما يمنح لأحاديثهما المتقطعة، كما يعرفان جيداً، سحراً خاصاً). لم يكن يستطيع ان يعامل لارا كشخص كبير، بتباطؤ ولا مبالاة. ولم يكن يعرف كيف يحدثها لكي لا يجرحها ويقول لها باسماً كما يقول الطفل: "ماذا جرى لك يا صديقتي الصغيرة؟ ولماذا هذه المآسي؟"

وصمتَ، وشرع يحدّق في بقع الرطوبة في السقف والأوراق المرسومة. ثم تابع وهو يهزّ رأسه بشيءٍ من اللوم: "افتُتح في دوسيلدورف معرض دولي للتصوير والنحت وهندسة البساتين. وأظنّ أنني سأزوره. إن غرفتك رطبة. وتنوين ان تبقي طويلاً بين السماء والأرض؟ لا يمكن القول بأن المرء لا يشعر حقاً بالراحة هنا. اعرف، ولكن هذا بيننا، ان هذا المكان غير صالح. أعرف صاحبته. انتقلي. لقد بقيت نائمة مدة طويلة. وتألمت بعض الوقت، هذا يكفي. عليك الآن ان تقومي. غيّري الغرفة، اشتغلي، أنهي دروسك. لي صديق رسّام.

سيذهب ليُمضي سنتين في تركستان. عنده مرسم فيه عدّة غرف، إنه شقة صغيرة. يبدو أنه سيتركها مع أثاثها بين ايدٍ نظيفة. اتريدين ان أرتب ذلك؟ ثم هناك شيء آخر. اسمحي لي، كرجلِ أعمال، هذه المرّة. كنت أريد ذلك منذ فترة طويلة... إنه بالنسبة لي إلزام مقدس... منذ ان ليبّا... هذا هو مبلغ صغير كمكافأة على فحوصها الأخيرة... كلا، اسمحي، اسمحي لي. كلا، أتوسّل إليك، لا تعاندي كلا، أرجوك."

وأجبرها وهو يمضي، رغم مقاومتها، ودموعها، وحتى بعض مظاهر المخاصمة، ان تقبل منه شيكاً بمبلغ عشرة آلاف روبل.

وانتقلت لارا الى المسكن الجديد الذي طالما امتدحه كولوغريفوف. كان قريباً جداً من سوق سمولنسكي... وكانت الشقة في أعلى منزلٍ صغير من طابق قديم البناء، وكان الطابق السفليّ فيه مستودعاً للبضائع، ويقيم فيه، أيضاً سائقو العربات. وكان البلاط الكبير في الباحة مغطىً دائماً بالشوفان والهشيم. وكان الحمام يأتي ويذهب في هذه الساحة وهو يهدل. فكان يطيرُ أحياناً بصخب، لكنه لم يرتفع أبداً الى أعلى من نافذة لارا. وكان قطيعٌ من الجرذ تركض غالباً على امتداد مجرى المطبخ في السّاحة.

لقد لبّكها باشا. فطوال مرض لارا الخطر لم يُسمح له بالاقتراب منها. فماذا أحسّ يا تُرى؟ لقد أرادت لارا أن تقتل رجلاً كان في نظر باشا، لا مبالياً، ثم وُجدت تحت حماية هذا الرجل ضحية اعتدائه الطائش. وهذا كله، بعد حديثهما المأثور في ليلة الميلاد، حول شمعةٍ تحترق. كانت لارا ستوقف وتُدان، لولا هذا الرجل. لقد انقذها من العقوبة التي كانت تتهددها. واستطاعت بفضله ان تتابع بهدوءٍ دروسها. وكان باشا يتعذب ولا يدري بماذا يفكر.

حين تحسّنت لارا، أرسلت وراء باشا، وقالت له:

"انني فتاة رديئة، فأنت لا تعرفني؛ سأخبرك ذات يوم. انني أتألم

من الكلام، كما ترى، فالدموع تخنقني، لكن اهجرني، وانسنّي، لست جديرةً بك."

ومرّت لحظات فاجعة، كل واحدة أكثر إرهاقاً من الأخرى. وحين رأت فوئيتكوفسكايا ـ لأن هذا قد حدث أيضاً حينما كانت لارا تسكن عندها ـ وجهَ باشا الحزين، أسرعت إلى غرفتها، وارتمت على المقعد مقهقهةً وهي تردد: "آه، لا لا، لستُ أطيق ذلك، لستُ أطيقه. هذا، يمكن القول، حقاً... هيْ، هِيْ، هِيْ! شهم حقيقي! هِيْ، هِيْ، هِيْ! إروزلان لازاريفيتش، بطل الرّوايات!"

ولكي تنقذ باشا من حبٍ مُهين وتستأصل الشر وتضع حداً لعذابهما، أعلنت أن ما بينهما قد انتهى لأنها لم تكن تحبه، إلا أنها كانت تنتحب وهي تتفوه بهذا النكران الذي كان تصديقه مستحيلا. وقد اتهمها باشا بكل الخطايا المميتة، ولم يصدق كلمة مما قالته، وكان مستعداً للعنها وكرهها في الوقت الذي هو هائم بها؛ كان يغار من أفكارها الصميمة، من الكأس التي تشرب بها، من المخدة التي ترقد عليها.

كان لابدّ، كي لا يُجنّ، من العمل بسرعةٍ والتحدث معه بقسوة. فقررا ان يتزوّجا بدون إمهال، حتى قبل انتهاء الفحوص، واقترحا الأحد الأول بعد الفصح موعداً للعرس. إلا أنهما أخرا الموعد بناءً على طلب لارا.

وتزوجا في عيد العنصرة نهار الاثنين، حين بات نجاحُهما أكيداً في الامتحان النهائي. وقد قامت ليودميلا كابيتونوفنا تشيبوركو بتهيئة اللوازم، وهي أم توسيا تشيبوركو، إحدى رفيقات لارا في الصف، وقد انهت دراستها معها. وكانت ليودميلا كابيتوفنا امرأة جميلة ذات صدرٍ بارز وصوتٍ منخفض. كانت تغني جيداً وتفيضُ بالخيال. وكانت تضيف الى الحكاياتَ والخرافات الجارية مجموعة أخرى مماثلة من عندها.

كان جو المدينة حاراً حين "مشت لارا تحت تاج الذهب"، كما كانت تغمغم ليودميلا كابيتونوفنا بصوتها الغجريّ، وهي ترتب زينة لارا قبل رحيلها. القباب المذهبة في الكنائس ورمل المماشي الطري بلونٍ أصفر حاد. وكان الورق المغبر للشجيرات الصغيرة المشذّبة لأحد العنصرة، معلقاً بحزنٍ على جدران المحراب الدائري والأوراق تلتفّ على نفسها كما لو أن لهباً مرّ فوقها. كان من الصّعب ان يتنفس المرء، وكان بريقُ الشمس يبهر العيون، حتى ظنّ الحضورُ انهم يحتفلون بآلاف الاعراس حولهم، ذلك ان الفتيات جميعاً كُنّ متزينات ويرتدين الأبيض كالعرائس، وكان الشباب كلهم معطرين لمناسبة العيد، ويرتدون ملابس رمادية ضيقة... كان الناس كلهم في حركة، وكان الحرّ شديداً عليهم.

وحين وضعت لارا قدَمها على سجّادة المذبح، نثرت لاغودينا، أمام احدى صديقاتها، قبضةً من الدراهم على قدميها، دلالةً على الخير، في حين كانت تنصحها، للسبب نفسه، ليودميلا كابيتونوفنا الا تمد يدها عارية لكي ترسم إشارة الصليب حين تصبح تحت الاكليل، بل ان تبقيها نصف مغطاة بالتول والدانتيل. ثم قالت للارا ان تبقي شمعتها عاليةً، فتصير اذاك سيدة المنزل. لكن لارا، لتضحية مستقبلها في سبيل مستقبل باشا، ابقت شمعتها منخفضة بقدر الامكان، لكن بدون فائدة، ذلك انه على الرغم من كل جهودها، ظلت شمعتها اعلى من شمعة باشا.

وعادوا من الكنيسة مباشرة للاحتفال في مرسم المصور، الذي يقيم فيه الزوجان الشابان. المدعوون يصرخون: "هذا مُرّ، لا يُشرب"، فيجيب عليهم بعضهم من طرف الغرفة الآخر، في جوقة: "لابد من وضع السكر فيه"، ويتعانق الزوجان الشابان بابتسامة خجولة. وغنت لهما ليودميلا كابيتونوفنا "الدالية"، واعادت هذه اللازمة: "ليمنحكما الله الحب والوئام". وأغنية "انحلّي، ايتها الجديلة الثقيلة، وانتشر ايها الشعر الأشقر."

وحين انصرف الجميع وبقيا وحدهما، ضايق باشا الصمت الذي ساد فجاءة. كان فانوس يتلألأ فوق عموده، في الساحة مقابل نافذة لارا. واذ كانت لارا تسحب الستائر، كانت حزمة من الضوء المحصور كلوح خشبي مقطوع، تتسرّب باستمرار من الفجوة. ولم يتوقف هذا الشعاع من الضوء عن إقلاق باشا، كما لو ان أحداً يتأثر خطاه. كان يكتشف بذعر انه منهمك بهذا الفانوس أكثر منه بنفسه وبلارا وحبه لها.

وعرف تلميذ البارحة أنتيبوف (ستينا بيدا) كما كان يسميه رفقاؤه، في هذه الليلة التي كانت طويلة كالأبد، الغبطة المليئة واليأس العميق. كانت اعترافات لارا تثير فيه دون انقطاع شكوكاً جديدة. كان يسأل، فيتدهور قلبه لكل جواب من لارا، كما لو كان يطير في هاوية. ولم يتوصل خياله الجريح من اللحاق بايقاع اكتشافاته الجديدة.

تحدثا حتى الصباح. لم يعرف أنتيبوف في حياته تحولاً أكثر تأثيراً وأقوى مفاجأة من التحول الذي جرى له في تلك الليلة. لقد صار في الصباح رجلاً آخر، حتى انه دهش من استمراره في حمل اسمه.

٤

بعد عشرة أيام أقام لهما اصدقاؤهما سهرة وداعية في هذه الغرفة ذاتها. وكان باشا ولارا قد انهيا معاً امتحاناتهما، بنجاح جيد، فعرضت عليهما معاً المدينة نفسها في الاورال. وكان عليهما ان يرحلا صباح الغد.

وغنوا من جديد، وحلموا، وصخبوا، ولكن لم يكن موجوداً، هذه المرة، غير الشباب.

وكان يتكوّم في الزاوية وراء الحاجز الذي يفصل المسكن عن المرسم الكبير حيث كان المدعوون مجتمعين، صندوقا لارا، المصنوعان من

الخيزران، وحقيبة، وصندوق مليء بالصحون وبعض الحقائب الصغيرة الأخرى. كان عندهما أمتعة كثيرة، فكان على أكثرها ان تُرسل صباحاً بسرعة. وكان اغلب الامتعة قد جُهز، وبقي بعض الاعمال، وكان لايزال الصندوقان الخيزرانيان المفتوحان، يتسعان لبعض الحاجات، فكانت لارا كلما تذكرت شيئاً نسيته، تجلبه وتضعه فيهما.

كان باشا مع المدعوين حين عادت لارا، وكانت قد ذهبت بصحبة الحاجب لتأتي بصك ولادتها واوراق اخرى من الكلية، مع بعض خيوط القنّب والحبال القوية لحزم امتعة الصباح. وصرفت لارا الحاجب، ودارت على المدعوين تصافح بعضهم، وتعانق البعض الآخر، ثم ذهبت لتغير ثيابها وراء الحاجز. وحين عادت صفّق الجميع، وعلت صيحاتهم، ثم اخذوا امكنتهم وابتدأ الصخب كما كان يوم الزواج. وصبّ اكثرهم جرأة الفودكا لجيرانهم، وامتد حشدٌ من الايدي المسلحة بالشوك الى وسط المائدة لتلتقط الخبز وتنتقي بعض القطع من الصحون. وخطبوا، ورووّا حناجرهم بهذر الكلام وتباروا. وسكر بعضهم بسرعة.

"إنني مُرهقة جداً" قالت لارا لزوجها الجالس الى جانبها. "وأنت هل حققتَ كل ما كنت تريده؟"

"نعم."

"ومع ذلك فأنا أشعر بالغبطة. إنني سعيدة. وانت؟"

"انا أيضاً. انني مسرور. لكن سنعود للكلام عن ذلك."

وكان كوماروفسكي قد قبل بشكل استثنائي، العشاء مع الشباب. فأراد أن يقول في نهاية السهرة، انه سيصبح يتيماً بعد رحيل صديقيه الشابين، وان موسكو ستصبح صحراء بالنسبة له، لكنه كان متأثراً جداً حتى انه أخذ ينتحب، وتوجب عليه ان يكرر الجملة التي قطعها عليه تأثره. وطلب من لارا وزوجها ان يسمحا له بمراسلتهما وزيارتهما في يورياتين، مكان اقامتهما الجديدة، في حالة عدم تحمله لفراقهما.

"هذا غير مفيد بالمرّة"، اجابت لارا بصوت عال ودون أي مراعاة، "ثم ان في ذلك لمغالاة... المراسلة، الصحراء، وغير ذلك. أما فيما يتعلق بزيارتنا هناك، فلا تحلم بها. لن تموت، بمعونة الله، من غيابنا، فلست بمثل هذه الندرة، أليس كذلك يا باشا؟ وستجد من يملأ فراغ صديقيك الشابين."

واذ توقفت لارا عن التفكير بمحدثها وبما قالته له، تذكرت فجأة شيئاً ما، فنهضت مسرعةً الى المطبخ. وهناك فكّت فارمةَ اللحم ووضعت اجزاءها في صندوق الصحون، بعد ان لفتها بالعشب، وقد سبب لها ذلك ان وخزتها نشرة من الخشب.

وقد نسيت مدعويها طول هذه الفترة. وانقطعت عن سماعهم حين دوّت صرخة كبيرة في الجانب الآخر من الحاجز ذكّرتها بهم فجأة، وفكرت لارا بالحرارة التي يظهرها دائماً الشباب السكارى لاصطناع السكر.

في هذه اللحظة انتهت اليها من النافذة المفتوحةضجة خاصة تختلف كلياً عن غيرها. وجذبت انتباهها. فأزاحت الستار وتطلعت الى الخارج.

كان في الساحة حصانٌ مقيدٌيمشي متعثراً. لم تعرف لارا صاحبه. كان ضالاً بلا شك. كان الصباح قد اقترب، وشروق الشمس لما يزال بعيداً. وقد تراءت المدينة، النائمة، المستسلمة انها تستحمُّ في نداوة الساعة الصباحية. واطبقت لارا جفونها، ولم يعلم غير الله الى أي زاوية ضائعة وسحرٍ ريفيٍّ نقلتها ضجة الحصان، الخاصة، المفردة.

وقرع الجرس في السلم، فأصغت لارا. وقام احدهم عن الطاولة ليفتح. انها ناديا! وهرعت لارا لرؤية القادمة الجديدة. انها آتية مباشرة من المحطة، نشيطة، منتعشة، وخُيل ان عبق الزنابق في دوبليانكا يتضوّع منها. كانت الصديقتان واقفتين لا تقويان على التلفظ بكلمة. ولم تعرفا الا ان تبكيا وتتعانقا حتى انقطاع النفَس.

كانت ناديا تحمل للارا تهاني وتمنيات البيت كله مع حِلْية، هدية من

والديها واخرجت من حقيبتها علبة صغيرة ملفوفة بالورق ففكتها وبعد ان نزعت الغطاء، قدمت للارا عقداً نادر الجمال.

وتعالت تنهدات الاعجاب. وقال أحد المدعوين، الذي صحا قليلاً من سكره: "من الياقوت الوردي، نعم وردي، ماذا تظنون؟ حجر يساوي لؤلؤة." لكن ناديا قالت بأنه ياقوت أصفر.

وأجلست لارا صديقتها الى جانبها وكانت وهي تُعنى بها تغمر بنظرها العقد الذي وضعته بالقرب من علبته. كان يسطع ويشع، ويذكّر بالسبحة الموردة وبعنقود صغير من العنب.

في هذه الفترة كان بعض المدعوين قد صحوا؛ فشربوا كأساً صغيرة مع ناديا التي سرعان ما سكرت.

وبدا البيت اشبه بقصر الحسناء في الغابة النائمة. وامضى اغلب المدعوين ليلتهم في بيت انتيبوف ولارا لكي يتمكنوا من مرافقتهم في الغد الى المحطة. وكثيرون منهم كانوا منذ وقت طويل يتمددون في الزوايا ويغطون في النوم. ولا تتذكر لارا نفسها كيف استطاعت ان تغفو بلباسها على الخوان الذي كانت ترقد فيه إيرا لاغودينا.

لقد أيقظتها محادثة بصوت مرتفع فوق أذنيها. كانت أصواتٌ غريبة، اصوات رجال دخلوا الى الساحة ليبحثوا عن الحصان الضائع. ففتحت عينيها مندهشة: "ان باشا هذا لا يتعب حقاً. ماذا يفعل هناك، وهو قائم كالحدّ، وعما يمكنه ان يفتش أيضاً؟". والتفت في هذه اللحظة الشخص الذي حسبته باشا فتبينت انه لم يكن هو، وعرفت إذاك ان لصاً تسلل الى الشقة، وارادت ان تصرخ لكنها لم تستطع ان ترسل أي صوت. وتذكرت العقد فجأة، فنهضت بهدوء وألقت نظرة على طاولة الطعام.

كان العقد في مكانه، بين فتات الخبز وبقايا من الكراميل، فلم يره اللص الغبي بين بقايا الطعام، ورضي بأن ينبش الثياب المحزومة ويفتش

أمتعة لارا. ولم تحفل لارا بالأمر، وهي ثملة ونصف نائمة، لكنها أسفت لنبش أمتعتها. ثم اضطربت وارادت ان تصرخ من جديد، ومن جديد لم تستطع ان تفتح فمها ولا ان تحرك شفتيها. حينئذٍ ركلت إيرا لاغودينا التي كانت تنام الى جانبها، ركلةً قوية على بطنها، فصرخت من الألم، واخذت لارا تصرخ معها في الوقت ذاته. فترك اللص حزمة الاشياء التي سرقها تسقط منه وهرع راكضاً خارج الغرفة. وحين فهم الامر بعض الحضور من الشباب، قفزوا يطاردونه، لكن اللص كان قد غاب. وكان الانذار والتفسيرات الحارة التي تلته اشارة الاستعداد للقتال. وكأنما بنوع من السحر، زال كل أثر للسكر عند لارا. فأيقظت جميع النائمين، دون ان تصغي لتوسلات الذين يريدون ان يظلوا نائمين، وقدمت لهم قهوة بسرعة، وأرسلتهم الى بيوتهم منتظرة ان تراهم ثانية لآخر مرة في المحطة، عند سفر القطار.

وحين انصرف الجميع، أسرعت لارا في عملها. وكانت تركض بخفتها المعتادة من صندوق الى آخر، فترتبه وتملؤه من جديد طالبة باستمرار من باشا والبواب الا يساعداها لكي لا يؤخراها.

رُتب كل شيء ترتيباً جيداً في الوقت المحدد. ووصل باشا ولارا في الساعة المعينة. وتحرك القطار بهدوء، كما لو انه كان يقلد حركة القبعات التي كان يلوح بها اصدقاؤهما ليقولوا لهما الى اللقاء. وهدأت القبعات، وسُمع الصفير ثلاثاً، ثم جرى القطار.

٥

كان الطقس رديئاً منذ ثلاثة أيام. إنه الخريف الثاني بعد الحرب. وقد بدأت النكبات بعد انتصارات السنة الأولى. كان جيش بروسّيلوف، الثامن المتمركز في الكاربات مستعداً للهبوط من الجبال واحتلال

هنغاريا. لكنه اضطر الى العدول عن ذلك والانسحاب مع التراجع العام. واخلت القطعات السوفياتية غاليسيا التي كانت قد احتلتها منذ الشهور الأولى للعمليات.

كان يوري اندرييفيتش جيفاكو، الذي عُرف سابقاً باسم يورا، والذي يُنادى الآن باسمه وباسم عائلته، واقفاً في ممشى قاعة عمليات التوليد، مقابل باب الغرفة التي وضعت فيها طونيا. لقد ودعها وانتظر القابلة لكي يتفق معها على طريقة الاتصال به وقت الضرورة، واستخبارها عن صحة زوجته.

كان مستعجلاً جداً، تتحتم عليه العودة الى مستشفاه، ومن ثم كان عليه ان يقوم بزيارتين، فكان في سبيل اضاعة وقت ثمين. كان يتأمل من النافذة خيوط المطر المائلة المتشابكة، التي تكسرها وتحرفها هبّات ريح الخريف كما تحني العاصفة وتشبّك سنابل القمح في الحقول.

لم يكن الظلام قد خيّم بعد. فكان الدكتور جيفاكو يتلمح باحة العيادة وشرفات الفنادق الخاصة في حقل العذارى، ومفارق الحافلة الكهربائية التي كانت تقف تقريباً بجانب احد ابواب المستشفى.

وكان المطر ينهمر، يائساً، دون ان يزيد او يضعف، رغم هيجان الريح التي كانت تبدو كأنها تثير تبلّد الأمواج المتضاربة على الأرض. وكانت ضربات الريح تقصف فروع دالية بكر تتسلق حول مرتفع صغير. فكأنما كانت الريح تريد ان تقتلع الغرْسة كلها، فكانت ترتفع بها وتحنيها وتتركها تسقط باشمئزاز كخرقة بالية؛ وقد امتد على الأرض حبلٌ من الحافلات بثلاث عربات، أُنزل منها الجرحى الذين نُقلوا الى داخل المستشفى.

كان الجرحى يُوضعون، في هذه الآونة، في مستشفيات موسكو التي تغصّ بهم، وخاصة بعد معارك لوتسك، على درجات السلالم وفي الاروقة. وقد عمّت هذه الزحمة مستشفيات المدينة حتى تجاوزتها الى

دُور التوليد.

ادار يوري أندرييفيتش ظهره للنافذة وتثاءب من التعب. كان فارغ الرأس. وفجأةً خطرت له ذكرى: لقد ماتت مريضة في قسم الجراحة بمستشفى الصّليب المقدس الذي كان يعمل فيه. وكان يوري اندرييفيتش يؤكد انها مصابة بالدودة المشوكة الرأس في الكبد. وقد رُفض هذا الرأي. وشُرحت الجثة ذلك النهار، وعُرفت الحقيقة. لكنّ مُشرِّح مستشفاهم كان سكيراً مدمناً. والله يعلمُ كيف قام بعمله.

حلّ الظلام سريعاً. لم يعد يُلمح خارجاً أي شيء. واشتعلت الكهرباء في النوافذ كلها، كأنها اشتعلت بإشارةٍ سحريّة.

وخرج الطبيبُ المناوب من وراء الحاجز الذي يفصل الغرفة التي تنام فيها طونيا عن الممشى. كان هذا الطبيب النسائي مُفرط البدانة يجيب عن الاسئلة جميعها، رافعاً عينيه الى السماء هازاً كتفيه. كانت هذه الاشارة تعني: مهما حقق العلم من تقدم، فهناك يا صديقي هوراسيو، مشاكل يبقى أمامها عاجزاً.

تجاوز يوري اندرييفيتش، وهو يُحيّيه بابتسامة، ويحرك يديه المنتفختين الضخمتي الكف بحركات سِباحيّة يقول بها ان عليه ان يصبر ويسلم أمره لله، ثم دخل الى الرّواق لكي يدخن في غرفة الانتظار.

تقدمت، في هذه اللحظة، نحو يوري اندرييفيتش مساعِدةُ الطبيب النسائي، الكثيرة الثرثرة:

"لو كنت مكانك لرجعت الى البيت. سأدعوك غداً للمستشفى. فلن تبدأ الولادة قبل ذلك الحين، وأنا مقتنعة أنها ستتم بشكلٍ طبيعي ولن تتطلب أي تدخل. لكن من جهةٍ أخرى، قد يُثير بعض القلق، ضيق الحوض، ووضع الجنين في الرحم، وعدم الألم، والتقلص. إلا أنه من السابق لاوانه ان نخمِّن. كل شيءٍ يتوقف على حالتها في بدء الوضع. وهذا ما يكشفه لنا المستقبل".

وفي الصباح رنّ جرس الهاتف عند الحارس، فذهب يستفسر، وقد ارهق طول عشر دقائق، وأعطيت له بشكلٍ فجٍ مبتسر، التعليمات الآتية: "قيل لي كي أبلغّك: قل له إنهم يقولون بأنه جلب زوجته للمستشفى مُبكراً، فيجب أن يُعيدها". وغضب يوري اندرييفيتش غضباً شديداً، فأرسل شخصاً آخر للتيقن من الهاتف. "تقول الممرضة يمكن أن تخدع اعراض الولادة، فلا يقلق الدكتور، وعليه ان يصبر يومين أيضاً".

وعرف بعد الغد ان آلام الوضع قد بدأت في الليل، وان ماء الرحم انقطع في الصباح، وان تقلصات شديدة تترى دون انقطاع.

وسمع وهو يحني رأسه في العيادة ويجتاز الرواق، صرخات طونيا عبر باب تُرك سهواً نصف مفتوح. كانت تصرخ من أعماق روحها كما يصرخ الأطفال الذين يُسحبون مشوّهين من تحت عجلات شاحنة.

لم يكن مسموحاً له بالذهاب الى غرفتها. فابتعدَ وهو يعض إصبعه المشنج، صوب النافذة التي كان ينهمر وراءها المطرُ المائل ذاته الذي انهمرَ البارحة وقبل البارحة. وخرجت ممرضة من غرفةٍ سُمعَ منها صُراخ مولودٍ جديد.

"خلُصت! خلصت!" كررّ يوري اندرييفيتش بفرح.

وقالت الممرضة بصوتٍ رتيب: "انه طفل ذكر. لقد سار كل شيءٍ سيراً حسناً. ليس الآن. ستراه، حين يأتي الوقت. يجب أن تقدم لأمه الشابة هدية جميلة. لقد تألمت كثيراً. انه طفلها الأول. والطفل الأول يؤلم جداً."

"خلُصت، خلُصت!"، ردّد يوري اندرييفيتش بابتهاج، دون ان يفهم ما قالته الممرضة أو لماذا جاءت لتعلمه بما تحقق منذ هنيهة. هل كان ذلك لشيء ما؟ أب، طفل - انه لا يرى أي موضوع للكبرياء في هذه العطية المجانية للأبوة. هذا النسل الذي سقط عليه من السماء جعله لا مبالياً. إن هذا كله يبقى خارج شعوره. شيء واحد مُهم: طونيا، طونيا التي

تعرضت لخطر الموت ونجت منه لحسن الحظ.

كان عنده مريض قرب العيادة، فذهب ليراه وعاد في نصف ساعة. وكان البابان، من الممشى الى الحاجز، ومن الحاجز الى القاعة، مفتوحين من جديد. وتسلل يوري اندرييفيتش وراء الحاجز دون ان يحسب حساباً لما يفعل.

وانتصب امامه الطبيب النسائي ـ البدين، بثوب أبيض وذراعين مفتوحتين، كأنه خرج من الأرض. وقال "أين تذهب؟"، بغمغمة مخنوقة كي لا تسمعه المرأة النائمة، وسدّ عليه الطريق. "انك مجنون! الجراح، والدم، والميكروب... هذا عدا الصدمة النفسية. هذا جميل! ثم طبيبٌ فوق هذا كله؟"

"لكن هل.. أريد فقط أن ألقي نظرة خاطفة من الكوّة، من هنا."

"آه! حسناً، هذا امرٌ آخر. ألقي نظرة. لكن دون مشاكل... آه. احذر. اذا لمحتْك، اقتلك."

كانت تقف في القاعة، امرأتان بلباسٍ أبيض وظهرهما الى الباب ـ الرئيسة واحدى الممرّضات. وكان بين يدي الممرضة مخلوق انساني، هشٌ بكّاء، يتقلص ويتمدد كقطعة من الكاوتشوك الاحمر الغامق. وكانت الرئيسة تقطع السرّة لكي تفصل الطفل عن المشيمة. وكانت طونيانائمة في منتصف الغرفة فوق طاولة العمليات، المتحركة. كانت ممددة عالياً. وقد حسب يوري اندرييفيتش الذي جعله الانفعال يُغالي في كل شيء، انها ممددة تقريباً على ارتفاع مكتبه الذي يكتب عليه وهو واقف.

كانت طونيا الموضوعة قريباً من السقف مما لم يعتد عليه البسطاء الفانون، تغوصُ في ضباب الآلام التي عانتها، وتبدو كأنها محاطة بهالة من الضنى. كانت وسط الغرفة، اشبه بمركبٍ في خليج، ألقى مرساته، وفُرِّغ من حمولة الأرواح الجديدة، وأُخذ الى حيث لا يعرف أحد، في قارّة الحياة عبر محيط الموت. لقد هبطت منه لتوّها احدى هذه

الأرواح، وهي الآن ترتاح في المرفأ، بكلّ امتداد احنائها الهادئة. ويرتاح معها عتادُها، ونسيانُها، والذكرى التي امّحت من المكان الذي جاءت منه، وعن سيرها ووصولها الى المرفأ الامين.

وكما ان أحداً لا يعرف جغرافية البلاد التي ربطت سفينتها تحت علمها، فلم يكن احد يعرف بأي لغة يخاطبها.

كان الجميع يتبارون في تهنئتها، خلال خدمتها.

"ما أسرع ما عرفوا!" قال يوري اندرييفيتش مندهشاً. وفي غرفة الأطباء المتدرجين ,التي كانت تسمى حانة ومكاناً للراحة، ذلك انها صارت لقلة الأمكنة في المستشفى، محلاً تُخلع فيه الألبسة، وتوضع جراميق الأحذية ,وتُنسى مختلف الحاجات التافهة، وتُلقى فيه مزق الورق وأعقاب السّكاير.

كان الطبيب المشرّح، وهو رجل صغير متغضن ,يقف عند النافذة. كان يرفع فوق رأسه قنينة ملأى بسائل عكر يفحصه في النور ,علاوةً على نظارتيه. "أهنئك" قال ليوري اندرييفيتش وهو يتأمل القنينة ودون أن يُلقي بنظره نحوه.

"أشكرك. انني ممتنّ جداً".

"لم أقم بشيء تشكرني عليه. لم أفعل أي شيء. ان بيتشوجكين قام بالأمر كله. والجميع ذهلوا. الدودة المشوكة الرأس، هذه علامة المرض. لا كلام الا عنه".

ودخل في هذه اللحظة الطبيب رئيس المستشفى الى الغرفة. حياهما، ثم قال: "يا للوساخة! ليست هذه غرفة اطباء متدرجين، انها مستودع. هذه فضيحة حقيقية. بلى يا جيفاكو، تأمل - دودة مشوكة الرأس! لقد اخطأنا! أهنئك. آه، هناك ما يكدر. الجيش يهتم ثانية بصفك. لن نوفق هذه المرة الى وقايتكم. هناك نقص مخيف في الاطباء العسكريين. ما من عمل، ستمضون لكي تتنشقوا رائحة البودرة."

٦

استقرت لارا وزوجها في يورياتين بسهولة لم تكن مأمولة. وقد حفظا ذكرى طيبة عن آل غيشار، فكانت مساعدة كبرى للارا في تغلبها على الصعوبات التي ترافق دائماً، الانتقال الى بيت جديد.

كانت اشغالها وهمومها تملأ وجودها كله. فكان عليها أن تعنى بالبيت وبابنتهما كاتنكا التي بلغت الثالثة من العمر. وكانت تساعدها كثيراً الخادمة الشقراء فاروتكا، الا أن مساعدتها لم تكن كافية. وكانت لارا تقاسم زوجها اهتماماته كلها. فكانت تدرس في مدرسة البنات، وتعمل بلا توقف؛ كانت سعيدة. هذه هي الحياة التي كانت تحلم بها. لقد اعجبتها يورياتين، فقد ولدت فيها. كانت المدينة واقعة على الرّنيفا، وهو نهر كبير يصلح للملاحة في قسم كبير منه، وتجتازه احدى الطرق الحديدية الى جبال الاورال.

كان يُعرف، في اورياتين، ان الشتاء قريب حين ترفع القوارب الى ضفة النهر ويحملها اصحابها في عربات الى المدينة. كانت تفرغ في الساحات حيث كانت تمضي شتاءها تحت السماء. وكان لهذه القوارب العائدة التي كانت تترك بقعاً بيضاء في الساحات، الدلالة ذاتها لطيران الكراكيّ في الخريف او في اوائل سقوط الثلج.

وكان احد هذه القوارب، الذي كانت تلعب تحته كاتنكا، كما لو انه سقف في حديقة، مقلوباً في ساحة البيت الذي استأجره باشا ولارا.

وكانت لارا تحب الحياة في هذه الزاوية المنعزلة، وتعجب بمثقفي الحي الذين كانت لهجتهم جميعاً كلهجة روسيّي الشمال، وبأحذيتهم المحشوة باللبّد، وستراتهم المبطنة بالصوف الرمادي، وثقتهم الساذجة. كانت لارا مجذوبة بالأرض وبالناس البسطاء.

وعلى العكس فقد كان باشا انتيبوف، مع انه ابن عامل في سكة الحديد، يحنّ الى العواصم. كان أكثر قساوة من زوجته إزاء سكان يورياتين، فقد أثارته وحشيتهم وجهالتهم.

وكان يبدو ان له الآن، لدرجة نادرة، قدرة اكتساب وحفظ المعلومات التي رآها في قراءات سريعة. كان قد قرأ كثيراً، وبعض ما قرأه، كان بفضل لارا. لكن لم يفتر زاده من القراءة، في هذه السنوات من الوحدة الريفية، عن النمو؛ وبدت له لارا نفسها انها دونه في وفرة العلم. كان متفوقاً بفكره على زملائه المدرّسين، وكان يشكو من الاختناق بينهم. ولم تكن، في فترات الحرب هذه، وطنيتهم التافهة، الرسمية والعدائية قليلاً، تتوافق مع المظاهر المعقّدة التي يظهر بها هذا الشعور عند انتيبوف.

وكان بافيل بافلوفيتش انتيبوف قد درس دروساً كلاسيكية. وكان يعلّم في المدرسة، اللغة اللاتينية والتاريخ القديم. واستيقظت فجأةً، العاطفة الخفية نحو الرياضيات والفيزياء والعلوم الرياضية، في نفس هذا الطالب القديم في مدرسة حديثة. وقد حصل في هذا المجال، بوسائطه الخاصة، معلومات بمستوىً جامعي. وتمنى ان يقدم حالاً امتحانات جديدة امام لجنة اقليمية، وان يبدأ من جديد مهنته كمدرس للرياضيات، ويمضي للسُّكنى مع عائلته في سانت بطرسبورج. وقد هدمت صحته ليالٍ من العمل المستميت. واخذ يتعذب من الارق.

كان متفقاً مع زوجته، الا أن البساطة كانت تنقص علاقاتهما. لقد غلبته بطيبتها وعنايتها، فلم يسمح لنفسه بانتقادها. وكان يخشى ان تشعر لارا ان في الملاحظة البريئة توبيخاً مقنّعاً: كانت تستطيع ان تعرف انطباعه نحوها او نحو أي شخص آخر. كان الخوف من انها لاتشك ببعض المشاعر الظالمة الجارحة إزاءها، يولّد بعض الصعوبة في حياتهما. كانا يتنافسان بالشهامة، ومن هنا، كانا يعقّدان كل شيء.

استقبلت لارا وزوجها في ذلك اليوم بعض الضيوف: إنهم رفقاء

بافيل بافلوفيتش، ومديرة لارا، وعضو في محكمة جلس معه مرة بافيل بافلوفيتش. وكانوا في نظر انتيبوف حمقى لؤماء. وقد صدم إذ رأى لارا لطيفة مع الجميع، ولم يكن يؤمن ان أحداً من هؤلاء يمكن ان يعجبها حقاً.

حين ذهب المدعوون، هوّت لارا الغرف طويلاً وكنست وغسلت الصحون في المطبخ مع مارفوتكا. ثم تأكدت ان كاتنكا مغطاة جيداً، وان بافيل ينام، فخلعت ثيابها بسرعة، واطفأت النور، ونامت الى جانب زوجها كما ينام الطفل عادة في سرير أمه.

وتصنّع انتيبوف النوم. كان فريسة أرق يسيطر عليه في هذه الأيام الأخيرة. فقد كان يعرف أنه سيبقى ايضاً ثلاث ساعات او اربعاً دون ان ينام. ولكي يأتيه النوم، ولا يشمّ البخار الأخير من التبغ الذي دخنه الضيوف، نهض بهدوء، ولبس قلنسوته ومعطفه الفرو فوق بيجامته وخرج الى الشارع.

كان الليل خريفياً، مضيئاً وبارداً. وكانت صفائح رقيقة من الصقيع تتفتت تحت قدمي انتيبوف. والسماء المتلألئة بالنجوم تضيء ببريق ازرق، متحرّك كبريق لهب الكحول، الارضَ السوداء وقطعَ الوحل المجلدة.

وكان البيت الذي تسكنه عائلة انتيبوف قائماً في الطرف الآخر من المدينة، مقابل المحطة، في نهاية الشارع. وكانت تبدأ بعده مباشرة الحقول التي يقطعها الخط الحديدي، وكان يقوم، قرب الخط، مرصد ومعبر، على الطريق، بعلوه.

جلس أنتيبوف على القارب المقلوب وتأمل النجوم. لقد هاجمته الافكار التي كانت تسكنه هذه السنوات الأخيرة، بمزيد من القوة لم يعرفه، وملأته بالقلق. واتضح له ان عليه، آجلاً أم عاجلاً، ان يستخلص بعض النتائج، وان من الأفضل أن يبدأ بها منذ اليوم.

وفكر بأن هذا لا يمكن ان يستمر طويلاً. لكنه فات؛ وهو يفكر به

متأخراً. لماذا سمحت له بأن يشملها برعايته، كما فعل حين كان طفلاً، لماذا صنعت منه ما تريد؟ لماذا لم يكن يملك الحسّ السليم لرفضها في الوقت اللازم، حين طلبت ذلك منه بإلحاح، في أثناء الشتاء الذي سبق زواجهما؟ كان يدرك جيداً انه لم يكن الشخص الذي كانت تحبه، بل المهمة النبيلة التي قامت بها من أجله، وتجسيد تضحيتها الخاصة. أي صلة كانت بين هذه الرسالة الشريفة المقدسة، وحياة عائلية حقيقية؟ الأسوأ، هو أنه استمر يحبها بالقوة نفسها. كانت من الجمال بحيث تجعلك تتفانى في سبيلها. وقد لا يكون الشعور الذي عاناه هو نفسه تجاهها، شعور حب، بل تشوش مليء بالثناء، أمام جمالها وعظمة روحها. آه، كيف إذاً تمّ الأمر؟ الشيطان نفسه يذهب فيه، سعيه سدىً.

إذاً، ما العمل في حالة كهذه؟ تحرير لارا وكاتنكا من هذا الكذب؟ إن هذا أكثر أهمية من تحريره نفسه. بلى، لكن كيف؟ الطلاق؟ الغرق؟ وثار: أوه... يا للدناءة! أعرف جيداً انني لن اتوصل الى ذلك. وإذاً لماذا اذكر هذه المواقف الجميلة؟

وحدق في النجوم كما لو كان يطلب المشورة منها. كانت تشع، متجمعة او مبعثرة، كبيرة او صغيرة، زرقاء او قزحية اللون. وفجأة طمس بريقها شيء ما. وأضيء البيت والساحة والقارب الذي يجلس عليه انتيبوف بنور ساطع قوي، كما لو ان رجلاً هرع من الحقل صوب البيت وهو يهز بيديه مشعلاً ملتهباً. كانت قطعات الجيش التي تمضي آنذاك نحو الغرب، والتي لم تنقطع ليلاً ونهاراً منذ سنة، هي التي اطلقت اسهماً نارية وهّاجة.

ابتسم بافيل بافلوفيتش ونهض لكي ينام. لقد وجد المخرج.

٧

ذهلت لارا حين علمت بقرار باشا. لم تصدق أذنيها اول الأمر. ـ

فهذا غير ممكن. وفكرت ان هذا ايضاً هوىً من اهوائه الغريبة، ويجب تجاهله كأن لم يكن، فسوف يمرّ.

لكن تحتم عليها ان ترى الامر بوضوح: انه يرتب المسألة منذ اسبوعين، فلقد أرسل أوراقه الى مكتب التجنيد، وجاء محله الى المدرسة شخص آخر، ووصل اليه نبأ يعلمه بأنه قبل في المدرسة الحربية بأومسك. واقتربت لحظة الرحيل.

صرخت لارا متفجعة، وأمسكت بيدي أنتيبوف، ثم ارتمت عند قدميه على الأرض: "باشا، يا حبيبي الصغير، ماذا سيكون مصيرنا بدونك، كاتنكا وأنا؟ لا تفعل ذلك، لا ترحل. لايزال وقت هناك، واعرف ان ارتب كل شيء هل فحصك الطبيب بعناية؟ مع قلبك، ألا تخجل؟ ألا تخجل من أن تلقي عائلتك في مهوى لا يعرفه غير الله؟ متطوّع! لقد سخرت طوال حياتك من اخي، ذلك المسكين، وفجأةً تغار وتفعل مثله. ها انت تريد ان تسحب السيف وتصير ضابطاً. ماذا حدث لك يا باشا؟ انني لا اعرفك! لقد تغيرت! أي ذبابة لسعتك؟ قل لي، بمحبة، قل لي ببساطة، بحق السماء، وبدون جمل محفوظة عن ظهر قلب، الهذا تحتاج روسيا؟"

وفهمت رأساً ان قرار انتيبوف لم يكن ذا صلة بهذا كله. لقد غابت عنها التفاصيل، ولكنها عرفت الجوهر. لقد حزرت ان حبيبها باشا كان غافلاً عن مبادلتها الحب نفسه الذي تحمله له. لم يعرف ان يقدر شعور الامومة التي مزجته دائماً بحنوّها عليه،ولم يفطن الى ان حباً كهذا الحب كان اكثر من مجرد حب امرأة.

حزنت حزناً لا حدّ له، وغضبت كما لو انها جُلدت، وهيأت رحيل زوجها وهي تشرق بالدمع، ولا تتفوه بأي كلمة. وحين رحل بدا له كل شيء صامتاً في المدينة وان في السماء، في الوقت ذاته، غرباناً اقل مما في المدينة. وعبثاً كانت تنادي مارفوتكا: "سيدتي، سيدتي". وكانت

الطفلة كاتنكا تدندن باستمرار: "ماما، ماما الصغيرة، وهي تجذبها بكمها. كانت هذه اكبر كارثة في حياتها. لقد انهارت اجمل واحسن آمالها.

كانت لارا تعرف سرّ رسائل زوجها من سيبيريا. وسرعان ما صار الأمر أكثر وضوحاً. فلقد كان بحاجة ماسة الى زوجته وابنته. وبعد بضعة شهور صار مرشحاً ولم يكن يتوقع ذلك بمثل هذه السرعة، ثم ألحق بجبهة القتال. لم يكن القطار الذي اقله الى الجبهة يمرّ في يورياتين، ولم يكن عند انتيبوف الوقت ليرى أي شخصٍ حتى في موسكو.

صارت رسائله فيما بعد تصل من الجبهة، أكثر حرارةً وأقلّ كآبة من الرسائل التي كان يبعثها وهو في مدرسة اومستك. كان انتيبوف يريد ان ينبغ. كان سيطلب إذناً ليذهب ويرى عائلته، كمكافأة للقيام بمأثرةٍ ما، او بعد جرح خفيف؛ وسرعان ما سنحت الفرصة له. وبعد المنفذ الأخير، الذي عُرف فيما بعد بمنفذ بروسيلوف، تقدم الجيش للهجوم، فانقطعت رسائل أنتيبوف. ولم تقلق لارا، أول الأمر. فقد فسرت صمت باشا بتطور العمليات الحربية وباستحالة الكتابة في الجبهة.

توقف الهجوم في الخريف، وتمركزت القطعات. ولم يأتِ أي شيءٍ من انتيبوف، فبدأت لارا ترتعب. وطلبت بادىء الأمر ارشاداتٍ من يورياتين. ثم كتبت الى موسكو والى الجبهة، على العنوان الأخير لوحدة باشا. لم يكن أحدٌ يعرف أي شيء. ولم تتلق أي جواب.

وأمضت لارا، ككثير من نساء المقاطعة، منذ بداية الحرب، كل أوقات الفراغ في القسم العسكري من المستشفى الاقليمي في يورياتين.

درست فن التمريض باجتهاد، وأخذت من المستشفى شهادةً في التمريض؛ وطلبت من المدرسة اجازة ستة شهور، فسلمت شقتها في يورياتين الى مارفوتكا، وسافرت الى موسكو مع ابنتها. وهناك وضعت ابنتها عند ليبا التي اعتقل زوجها المهندس فريزندانك في أوفا مع

آخرين من المواطنين الألمان.

واذ اقتنعت لارا من عدم فائدة الاستفسارات المتقطعة التي تقوم بها، قررت ان تتابعها في أماكن العمليات الحربيَة الحديثة. ولهذا تطوعت كممرضة وسافرت في قطار صحي الى ميزولابورك على الحدود الهنغارية. هكذا كان يُسمى المكان الذي كتب لها منه باشا لآخر مرة.

٨

وصل الى الجبهة، الى رئاسة اركان الفرقة، قطارٌ بحماماتٍ، ومجهزٌ بالثياب بفضل الهبات التي جمعتها لجنة مساعدة الجرحى للأميرة تاسيانا. كان في عربة المسافرين من هذا القطار الطويل، المؤلف من عربات صغيرة مخيفة للمواشي، بعض الزوار: شخصيات من موسكو آتون لتقديم الهدايا الى الجنود والضبّاط. وكان في جملتهم غوردون. وقد عرف ان مستشفى الفرقة حيثُ يعمل صديق طفولته جيفاكو، كائنٌ، بحسب المعلومات التي حصل عليها، في القرية المجاورة.

وكان غوردون قد حصل على إذاً بالتجول في منطقة العمليات كلها، فاستقلَّ عربة ذاهبة في اتجاه القرية، لزيارة صديقه.

كان السائق، وهو روسي أبيض أو ليتواني، يتكلم الروسية بشكلٍ رديء. وقد حَصَر هوسُ الجاسوسية الاحاديث في بعض الصيغ الجاهزة. وكان لابدّ من ان يظهر المرء "روحاً طيبةً"، وهذا يقود الى الثرثرة. وقد قطع السائق والمسافرون القسم الاكبر من الطريق، بصمت.

وقد أكد له في القيادة، حيث جرت العادة على نقل جيوشٍ كاملة وحيث تقاس المسافات بآلاف الامتار، ان هذه القرية لابد ان تكون قريبة من هناك، على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً. والحقيقة انها تبعد اكثر من أربعين كيلومتراً.

الأفق يدوي، على امتداد الطريق، الى اليسار، بهدير وقصفٍ مُعاديين. لم يشعر غوردون ابداً بهزة أرضية. لكنه كان محقاً بان يحسب ان هذه الطلقات الكالحة، التي تصمها المسافة، من مدفعية العدو، تشبه ضربات حوافر الخيل والهديرَ الارضي في حادثة بركانية. وحين هبط المساء، احمر الأفق، من تلك الجهة، باللهب المرتجف الذي لم ينطفىء الا في الصباح.

ومر السائق بغوردون في قرىً مهدمة، كان اغلبها مقفراً، وكان السكان في القرى الأخرى يختبئون في ملاجىء عميقة. وكانت أكوامُ الوسخ والأنقاضُ في هذه القرى تنهض مكان البيوت. وكان الانسان، بنظرة واحدة، يعانق هذه القرى الطويلة المهدمة التي هي اشبه بالأرض الموات. وكانت العجائز يطفن في هذه الانقاض، كل منهنّ في ركام بيتها، ويبحثن لينبشن شيئاً ما من الرماد، ويخبئنه. وكنّ يحسبن انهن في ملجأ من النظرات الفضولية، كما لو ان الجدران لا تزال تُحيط بهن. ورفعن بصرهن الى غوردون ولاحقنه بنظراتهن، وخُيل انهنّ يسألنه اذا كان الرجال سيتعقّلون ويعود النظام والهدوء الى الارض.

صادف السائق وغوردون دوريةً في الليل، فأمرتهما ان يرجعا من حيث أتيا، ويتركا طريق المركبات ويسلكان اقرب الطرق. ولم يكن السائق يعرف هذه الطرق القصيرة، فتاها حوالي ساعتين. واعتقد المسافر وحوذيه عند الفجر انهما وصلا الى القرية التي يبحثان عنها. ولكن لم يكن فيها أي مستشفى، فتأكد لهما حالاً ان هناك قريتين في تلك النواحي تحملان اسماً واحداً. وفي الصباح وصلا الى هدفهما. واذ وصل غوردون شمّ رائحة الأقحوان واليودوفورم. وفكّر انه لن يبقى ليمضي ليلته عند جيفاكو. بل يبقى النهار معه ثم يلتحق برفقائه الذين بقوا في المحطة. الا ان المصادفات أبقته أكثر من أسبوع.

٩

تحرّكت الجبهة في تلك الأيام، وحصلت تغيّرات مفاجئة. ففي جنوبي المنطقة التي وصل اليها غوردون، اخترقت احدى قطعاتنا تحصينات العدو وتغلبت عليه في عدة نقاط. وتابعت هجومها مخترقة أكثر فأكثر جبهة العدو الدفاعية وقد عُزِّز الهجوم بقوات أخرى. الا ان الطليعة انفصلت عن القوات المهاجمة، وحُوصرت. وهكذا أُسر المرشح انتيبوف وأجبرت قطعته أيضاً على الاستسلام.

وسرت اشاعات مغلوطة حوله. فقيل انه مات وقبر في حُفرة قنبلة. هذا ما رُوي على ذمة احد اصدقائه، غاليولين، الملازم في القطعة ذاتها، وقد راقب انتيبوف بالمنظار ورآه يسقط في الهجوم، على رأس جنوده.

كان غاليولين يتصور امام عينيه مشهد الهجوم. فقد كان على الوحدة ان تجتاز بسرعةٍ سباقية تقريباً، حقلاً تتمايل فيه اشجار الأرطماسية في ريح الخريف، في حين كانت اشجار شوك الجمال توجّه شوكها الثابت نحو السماء. وكان على العناصر المهاجمة ان تقهر النمساويين المتمركزين في خنادقهم، او ان تجليهم عنها بقصفهم بالقنابل.

وقد تجلّى لهم ان هذا السباق لا نهاية له في الحقل. وكانت الارض تختفي تحت اقدامهم كأنها سهلٌ مستنقعي، متحرك. وكان يسير على رأس تشكيلتهم، بادىء الامر، مرشحهم، ثم وفي وسط صفوفهم المنهوكة. وكان يهز بمسدسٍ فوق رأسه ويصرخ، وفمه مفتوح حتى أذنيه، صرخات لم يسمعها هو ولا جنوده الذين كانوا حوله. وكانوا ينبطحون على الارض، في فصائل منظمة، ثم ينهضون للسير، صارخين صرخات اجمل. وكان في كل مرة، ولكن بشكل مُغاير، يسقط بعض الرجال كأشجار كبيرة مقطوعة في الغابة، ولا ينهضون أبداً.

"الرمي طويل جداً. اخبروا البطارية"، كان غاليولين يخاطب ضابط المدفعية الى جانبه. ولكن الأمر، كما تبين، لم يكن كذلك. فقد كانوا مصيبين في ان يجعلوا الرمي بعيداً.

وكان المهاجمون قد اقتربوا في هذه اللحظة من العدو. وانقطع الرمي. وفي الصمت الذي خيم اخذت قلوب الذين يقومون بمهمة المراقبة، تخفق بشدة وسرعة كبيرتين،كما لو انهم كانوا محل انتيبوف، او انهم قادوا جنودهم الى خنادق النمساويين وعليهم ان يجترحوا العجائب في حضور البديهة وفي البسالة. وانفجرت في هذه الآونة قنبلتان ألمانيتان امامهم. فحجبت عنهم الباقي اعمدة سوداء من التراب والدخان. وغمغم غاليولين شاحباً: "الله، انتهت! انتهت المعركة"، وظن ان المرشح وجنوده قد ماتوا. وسقطت قنبلة ثالثة بالقرب من مركز المراقبة. فهرب الجميع بسرعة، اثنين اثنين.

كان غاليولين ينام في ملجأ واحد مع انتيبوف. وحين اقتنعت فرقته بفكرة موته وانه لن يعود ابداً اوكلت الى غاليولين الذي يعرفه جيداً مهمة العناية بأمتعته وحفظها لكي تعطى فيما بعد الى زوجته، التي وجدت لها صور فوتوغرافية كثيرة بين بقاياه.

كان غاليولين المهندس ابن البواب جيما ذدين، المرشح المتطوع، التلميذ الذي كان رئيس العمال خودولييف يضربه فيما مضى. انه مدين بارتقائه الى عذابه القديم.

وإذ رُقي غاليولين الى رتبة مرشح، نقل رغم ارادته ودون أن يعرف السبب، الى حامية خلفية، في نقطة توفر مختلف أنواع الراحة. كان يقود هناك مفرزة من انصاف العاجزين المتقاعدين الذين كان الجنود القدماء، وهم ليسوا أقل عجزاً منهم، يدربونهم ويعيدون كل صباح التمرين الذي نسوه منذ مدة طويلة. وفضلاً عن ذلك فقد كان غاليولين يراقب انضباط الحرس حول مستودعات التجهيزات. كانت حياةً لا همّ

فيها، ولم يكن يطلب منه شيء آخر. وفجأةً وصل بين فريق من المجندين الاضافيين الذي نقل من موسكو، جندي يعرفه جيداً هو بيوتر خودولييف.

"آه، لقد التقينا"، قال غاليولين بابتسامة مرة.

"نعم، يا سيدي الملازم"، اجاب خودولييف. وتهيأ، وادى التحية.

لكن الامر لم ينته عند هذا الحد. فقد انهال المرشح بالشتائم على خودولييف منذ خطيئته الأولى، واذ تراءى لغاليولين ان الجندي يتجنب نظرته، صفعه على وجهه، وحرمه من الخبز والماء مدة ثماني وأربعين ساعة.

كان غاليولين، الآن، ينتقم للماضي، في كل حركة من حركاته. الا ان انتقامه بهذا الشكل، مستخدماً سلطة رتبته العسكرية التي لا تنفع معها الشكوى، كان خالياً من النبل. ما العمل؟ كان لابد من ان ينتقل احدهما. لكن بأي حجة يستطيع ضابط ان ينقل جندياً من الوحدة التي عين فيها، والى اين يرسله، إذا لم يرسله الى فوج تأديبي؟ وأي سبب يمكنه، من جهة أخرى، ان يختلقه ليطلب نقله هو؟ واذ ادعى غاليولين بأن الحياة في مركز الحراسة مملة ولا طائل تحتها، ووفق على ارساله الى الجبهة. كانت هذه نقطة حسنة لصالحه. وقد اظهر، في مهمته الاولى، ان لديه صفات اخرى وانه ضابط ممتاز. فرقي بسرعة الى رتبة ملازم.

كان غاليولين يعرف أنتيبوف منذ سكناه عند عائلة تيفرزين. فحين أمضى باشا انتيبوف، عام ١٩٠٥، ستة شهور عند آل تيفرزين، كان الصغير يوسوبكا غاليولين يرد له الزيارة غالباً ويلهو معه في ايام الاعياد. وقد صادف لارا هناك مرة او مرتين. ومذاك، لم يعرف شيئاً عنها. وحين وصل بافيل بافلوفيتش من يورياتين الى كتيبتهم، بهت غاليولين من التغير الذي طرأ على صديقه القديم. لقد تحوّل هذا الشيطان الضحوك، المصقول الحذاء دائماً، الخجول كفتاة، الى رجل

حزين، مستخف، عصبي، وراسخ العلم. كان ذكياً، شجاعاً جداً، صموتاً، ساخراً. وحين كان يتأمله غاليولين من وقت الى آخر، كان مستعداً لأن يقسم انه يرى في نظرة انتيبوف الرزينة، كما يرى من نافذة، شخصاً ثانياً، فكرة لا تفارقه ـ الحنين الى ابنته او وجه زوجته. كان انتيبوف يبدو مسحوراً، كما لو انه في حكاية. ولم يبق منه الآن غير الاوراق والصور الفوتوغرافية التي يحفظها غاليولين، الأمين الوحيد على سر تغيره.

كان لابد ان تصل استفسارات لارا الى غاليولين، عاجلاً أم آجلاً. وقد استعد لإجابتها. لكن المعركة كانت في اوجها. ولم تكن لديه الشجاعة ليكتب اليها الجواب الحقيقي، فأراد ان يهيئها للصدمة التي تنتظرها. هكذا كان يؤجل باستمرار الرسالة الكبرى التفصيلية التي عزم على ارسالها اليها، الى يوم عرف فيه انها ممرضة في الجبهة. والآن، لم يكن يعرف الى اين يبعث لها برسالته.

١٠

"حسناً، ماذا؟ هل توجد أحصنة اليوم؟"، سأل غوردون الدكتور جيفاكو، حين رآه عائداً ليتناول طعامه في المزرعة النمساوية حيث كانا يقيمان.

"أحصنة؟ أي احصنة؟ واين تمضي حين تكون محاصراً من جميع الجهات؟ إننا في تشوش تام. ما من أحد يفهم شيئاً. في الجنوب طوقنا او اخترقنا الجبهة الالمانية في عدة نقاط، لكن وحداتنا، لسبب ما، شُتتت وسقطت في احبولة. وعلى العكس في الشمال، اذ وصل الالمان في سفينتنا الى مكان لا يمكن اجتيازه. كانوا اجمالاً، من الخيالة. فخربوا المواصلات، ونسفوا المستودعات، وأظن أنهم حاولوا تطويقنا. انت ترى

ماذا يعني ذلك. وتتكلم عن الاحصنة! لنسرع يا كاربنكو، رتب المائدة، تحرك قليلاً. ما هو طعامنا اليوم؟ كراع! عظيم!"

كانت الوحدة الصحية، والمستشفى بكل لوازمه، مبعثرة في المدينة التي يسهر عليها بشكل عجيب. وكانت البيوت التي تشع من نوافذها، المخفضة الطويلة، كما هي في غربي روسيا، سليمةً كلها.

انه صيف سانت مارتان، الايام الجميلة الاخيرة من خريف ذهبي دافىء. كان الاطباء والضباط، في النهار، يفتحون النوافذ، ويقتلون الذباب الزاحف أفواجاً فوق المقاعد وعلى الدهان الأبيض، ويتصببون عرقاً، ويحرقون حناجرهم بالشاي الساخن او الملفوف الذي يتصاعد البخار منه. وكانوا في المساء، يجلسون القرفصاء امام باب موقدهم المفتوح، وينفخون الفحم الذي يطفئه الحطب الرطب، الذي لايريد ان يشتعل، ودخانه يسيل الدموع من عيونهم، ويوبخون خدامهم الذين لا يعرفون ان يشعلوا الموقد بشكل مرضٍ. كان الليل هادئاً. وكان غوردون وجيفاكو ينامان، الواحد قبالة الآخر، على مقعدين متلاصقين بحاجزين متقابلين. وكان بينهما طاولة يتناولان عليها طعامهما، ونافذة وطيئة طويلة بطول الجدار. كانت الغرفة دافئة سوداء من الدخان. وقد فتحا زجاج النافذة على مداه، ليتنشقا طراوة الليل الخريفي الذي كان يغطي الزجاج بالبخار.

كانا يتناقشان كعادتهما طوال هذه الايام الأخيرة. وكان الافق، كالعادة، يحمرُّ من جهة الجبهة، وحين كانا يسمعان، في الدوي الواحد المستمر الذي تسببه المدفعية، طلقات اكثر خفوتاً،متميزة وبطيئة، كأنها تفلحُ الارض كصندوق حديدي اذ يُجرُّ، ويفقد دهانه، كان جيفاكو يقطع حديثه احتراماً لهذه الضجة، ويتوقف قائلاً: "انه بيرتا؛ مدفع ألماني عيار ١٦ بوصة ويزن حوالي طن"، وحين يستأنفان نقاشهما يكون قد نسي موضوع الحديث.

وسـأل غـوردون: "بماذا تحس، إذاً، طول الوقت، في القـريـة؟ لقـد اذهلني هذا منذ اليوم الأول. انه تافه كريه، كرائحة الفأرة".

"آه! أعـرف مـا تعني. انه القنب. هنـاك حقـول كـثـيـرة من القنب. وللقنب رائحة الجيفة، وهي خانقة لا تُطاق. وفضلاً عن ذلك، فـان القتلى الذين كانوا يتساقطون في قطاع من العمليات الحربية، في حقول القنب، كـانوا يبـقـون طويلاً دون ان يعـرف مكانهم، وتتـفـسخ جثـثـهم. ان رائحة الجـثث منتـشـرة كـثـيراً هُنا، وهذا امرٌ طبـيـعي. انه البـيـرتا من جـديد. اتسمع؟"

لقـد بحـثـا، طول هذه الأيام، في كل الموضـوعـات الممكنة. وكـان غـوردون يعـرف آراء صـديقـه في الحـرب وفكرة الزمن. وكـان يوري اندرييـفـيـتش قـد أخبـره بالصـعوبة التي مر بهـا ليـألف المنطق الدمـوي للابادة المشتـركة، ومنظر الجرحى، ولاسيـما بشـاعـة بعض الجراح الحديثة التي تترك الاحيـاء مشوهين، وقد حولّهم تقدم التكنيك الحربي الى قطعٍ رهيبةٍ من اللحم.

كـان غوردون يطوف كل يـوم ميـدان العمليـات بصـحبـة الدكـتـور، فيطلع، بفضله، على بعض الأمـور. وكان يدرك، بالتأكيد، فـساد النظرة الفـارغة التي ينظر بها الى شجاعـة الغيـر، والجـهـود الفـائقـة الحد التي بذلهـا آخرون للتغلب على الخوف من الموت، والتـضحيـات التي يرضـون بها والاخطار التي يتعرضـون لها. ولم يكن يبدو لـه ان الامر يُصبح أكثر اخلاقـيـة ان هو ارسل التنهدات البـاطلة. كـان يعـتـبـر ان على الانسـان ان يملأ الدور الذي تفرضه الحالة عليه بإخلاص ودون تكلّف.

قد يحدث ان يُغمى على الانسـان حين يرى الجرحى، وقـد خبـر ذلك بنفسه، حين مضى ليـزور مفـرزة متـجـولة من الصليب الاحـمر التي كـانت تعمل في الغرب، في مستشفى متنقل على الخطوط تقريباً.

وصـلا الى تخم غـابـة كبـيرة حصدت نصفـهـا نار المدفعيـة. وكـانت

دعـائم بعـض المدافع المحطمـة مـقلوبة رأسـاً على عـقب وملقـاة في دغلٍ كُسـرت اغـصـانه ودوست. وقـد رُبط جـواد مُسـرَج بشـجرة. وكـان البـيت القـائم في الغـابة، وهو يكاد ألاّ يتبينه النظر قد فـقد نصف سقفه. كـان المستشفى المتنقل متمركزاً في البيت وفي خيمتين كبيرتين منصوبتين في الطرف الآخر من الطريق، وسط الغابة.

قال جيفاكو: "لقد اخطأتُ بجلبك الى هنا. الخنادق قريبة جداً، على بعد حوالي ألفي متر، وبطارياتنا هناك، وراء هذه الغـابة. انت على علم بما يجري هنا؟ لا تمثل دور الابطال، من فضلك. هذا لا يُفيد. لن تصل الى ما تقصد، وهذا طبيعي. قد تتطور الحالة من دقيقةٍ لاخرى. وتصل القنابل الى هنا.

وكـان هنالك جنودٌ مراهقون يغطيهم الغبـار، وقد تبلّلت بالعـرق قمصانهم عند الكتف والصدر، ينامون قرب طريق الغابة، على صدورهم أو على ظهورهم، وسيقانهم متباعدة بأحذيتها الثقيلة. وكان هؤلاء كل ما تبقّى من الفئة التي ذاقت الأمرّين. لقد انقذوا من معركة دامت اكثر من أربعـة أيام وأرسلوا الى المؤخرة ليرتاحوا مدة قصيرة. كـان الجنود نائمين كما لو كانوا حجارة، لا قوة لهم ولا ابتسامة، ولا أي كلمة، ولم يُدرِ أيٌّ منهم رأسه حين سمعوا في الغـابة صرير بعض العرَبات التي كانت تقترب بسرعة.

كان الجرحى يُنقلون على عجل الى المستشفى في نقالات لا نوابض لها، ترشق في الفضاء غزاتهم التاعسين وتكمل عليهم بتكسير عظامهم وقلب احشائهم. ومن ثمّ تُقَدّم لهم الاسعافات الاولية، وتضمد جراحهم بسرعة، وفي حالة الخطر الشديد، تُجرى لهم عملية. كان هؤلاء الجرحى يُجمَعون بعد نصف ساعة، في فترة هدوءٍ مؤقت، من امام الخنادق. وكان قسمٌ كبيرٌ منهم مجهول الهوية.

حين وصل الجرحى الى البيت، خرج ناقلو الجرحى وافرغوا العربات.

وظهرت ممرضة في باب احدى الخيام. وكانت تمسك اطراف الباب بيديها. لم يكن دورها في الحراسة قد حان، كانت في فترة راحة. وكان يسمع وراء الخيمة رجلان يتخاصمان. وكانت الغابة الكبيرة الندية ترجع اصداء صوتهما، ولكن الكلمات لم تميز. وحين وصل الجرحى، خرج الرجلان من الغابة واتجها نحو المستشفى. وكان هنالك ملازم شاب يستشيط غضباً في وجه طبيب المفرزة: كان يريد ان يعرف اين نقل مكان السلاح الذي كان في الغابة. ولم يكن الطبيب يعرف شيئاً عن ذلك، فهو لا يتعلق به. ورجا الضابط ان يتركه وشأنه وألاَّ يصرخ لوجود الجرحى ولانهماكه بهم، لكن الضابط الشاب لم يهدأ فشتم الصليب الأحمر، ومكتب المدفعية، والناس كلهم، واقترب جيفاكو من الطبيب فتصافحا ودخلا الى البيت. واستمر الضابط بلهجته التاتارية، يصرخ بصوته العالي. ثم فك حصانه من الشجرة، فامتطاه واختفى داخل الغابة. وكانت الممرضة تراقب الامر باستمرار. وفجأة صرخت برعب: "ماذا تصنعان؟ انكما مجنونان" في وجه جريحين، كانا يشقان طريقهما، وحيدين ودون مساعدة، بين النقالات باتجاه المستشفى؛ وخرجت من الخيمة مسرعة نحوهما.

كان على احدى النقالات جندي مسكين تشوه بشكل مخيف. فقد شقت وجهه رصاصة، وحولت لسانه واسنانه الى عجين مدمّى، وبقيت بين الفكّين بدل الخد المقتلَع. كان المشوه يخرج تأوهات قصيرة صغيرة غير منتظمة، بصوت متلاحق ليس فيه شيء من الآدمية، حتم على كل شخص ان يعتبره صلاة: ليكملِ الامر، ولتأت النهاية بأسرع ما يمكن لهذا العذاب الذي يطول كالأبد.

وخيل للمرضة ان الجريحين اللذين يمشيان الى جانبيها، استعدا، وقد اثرت فيهما تأوهاته، الى ان يستأصلا باليد تلك القطعة الحديدية الرهيبة.

"ماذا تفعلان؟ هذه مهمة الجراح الذي يستخرجها بآلات خاصة.

بشرط ان يستحق هذا الامر الجهد! (يا إلهي! اذكّرك، لا تجعلني أشك بوجودك!)

وبعد لحظة اطلق المشوه صرخة، وهم يصعدون به الدرج امام البيت، وارتعد جسمه كله، واسلم الروح.

كان المشوه الذي مات رديف جيماذدين، والضابط الذي كان يصرخ في الغابة ابنه، الملازم غاليولين، وكانت لارا هي الممرضة، وكان غوردون وجيفاكو شاهدين. كانوا كلهم هناك، مجتمعين جنباً الى جنب؛ بعضهم لم يتذكر البعض الآخر، والآخرون لا يعرفون بعضهم ابداً؛ فبعض سبل المصير تبقى الى الابد مخبوءة، ولكي يتكشف بعضها الآخر، عليه ان ينتظر مناسبة جديدة ولقاءً جديداً.

١١

كانت القرى، في تلك الانحاء، مصونة بطريقة غريبة. فقد شكلت، دون ما سبب يُعرف، جزيرة صامدة وسط بحر من الخرائب. وذات يوم، كان غوردون وجيفاكو متجهين في عربتهما نحو البيت. فأبصرا في احدى القرى شاباً من القوزاك محاطاً بجمهور من الناس وهم يقهقهون ضاحكين، فيما كان الشاب يرمي درهماً في الفضاء ويجبر شيخاً يهودياً، ذا لحية خطها الشيب، وقفطان طويل، على التقاطها. وكان يخيب في كل محاولة، فيفرّ الدرهم عبر يديه المبسوطتين التعستين ويقع في الوحل. واذ كان الشيخ ينحني كل مرة لالتقاطه، يرفسه القوزاكيّ على قفاه فيثير ذلك عاصفة من الضحك بين الجمهور. وظلت هذه التسلية سليمة من الأذى، ولكن أحداً لم يكن باستطاعته ان يجزم بانها لن تتحول الى ما لا تحمد عقباه. فمن حين الى آخر، كانت زوجة الشيخ تخرج من البيت راكضة عبر الطريق وهي تصرخ باسطة ذراعيها اليه، ثم

تعود الى حيث خرجت وقد ملأها الرعب. وكانت صبيتان صغيرتان ترقبان جدهما من الشباك وهما تصيحان باكيتين.

واذ وجد الحوذي هذا المشهد مضحكاً، أبطأ في السير ليتيح لغوردون وجيفاكو التمتع به. على ان جيفاكو استدعى القوزاكي، فانبه وأمره بأن يكفّ عن مضايقة الشيخ.

"سمعاً وطاعةً يا سيدي"، قال القوزاكي. "لم ننو الأذى، بل التسلية." وواصلت العربة سيرها.

وعندما اقترب الرجلان من قريتهما، قال يوري اندرييفيتش: "يا للفظاعة! لا تستطيع ان تتصور ما يعانيه السكان اليهود من تعاسة في هذه الحرب. فالقتال يجري في منطقتهم. وكأنما الخراب والضرائب الجزائية وكل هذه الآلام لا تكفي، حتى تنزل بهم الاهانة ويوجه اليهم الاتهام بفقدان الروح الوطنية. ولماذا تكون عندهم روح وطنية؟ فهم تحت سلطة العدو يتمتعون بالمساواة في الحقوق؛ اما نحن فلا نكفّ عن اضطهادهم. هذا البغض نحوهم، في اساسه، لا ينطبق على حكم العقل. فهو يعود الى السبب الذي يجب ان يستدرّ الشفقة ـ فقرهم وتعاستهم، ضعفهم وعجزهم عن الدفاع عن انفسهم. لا اقدر ان افهم هذا الأمر. انه كالقدر المحتوم."

ولم يفه غوردون بكلمة واحدة.

١٢

ومرة ثانية، كانا مستلقيين في سريرهما على احد جانبي الشباك الوطيء الطويل. كان الوقت ليلاً. وكانا يتحدثان.

وراح جيفاكو يقصّ على مسامع غوردون كيف شاهد القيصر في الجبهة. وكانت قصته ممتعةً.

كان ذلك في اول ربيع له في الجبهة. وكان مقر قيادة فرقته في كرباتيا، في وادٍ عميق، سدّت تلك الفرقة منافذه الى السهل الهنغاري.

وكان في قعر الوادي محطة لسكة الحديد. وقد وصف جيفاكو لرفيقه المنظر الطبيعي، والجبال التي تكسوها اشجار البلوط والصنوبر، وقد تعلقت برؤوسها أذيال الغمام، والسفوح ذوات الصخور القرميدية الرمادية والرصاصية، وهي تتراءى خلال الغابة كبقعٍ مهترئة في معطفٍ من الفرو. وكان ذلك الصباح من شهر نيسان رطباً، قاتماً، بلون صخور السفح الرمادية، وقد اطبقت عليه الجبال من كل جانب فخيّم عليه الهدوء والسكون. وكان الضباب عالقاً فوق الوادي، وكل شيء فيه يتبخر، كل شيء ينهض متثاقلاً: دخان القطار في المحطة، البخار الرمادي من الحقول، الجبال الرصاصية، الاشجار القاتمة، السحائب السوداء.

وكان القيصر، في ذلك الوقت، يقوم بجولة تفتيشية في غاليشيا. وفي آخر لحظة، عُلم ان القيصر سيزور فرقة جيفاكو، وقد كان فيها برتبة كولونيل شرف. وكان قدومه متوقعاً كل دقيقة. ولذلك فقد اصطفت شرذمة من حرس الشرف على رصيف المحطة. ومضت ساعتان، فاذا بقطارين يمران بالمحطة وقد اقلا حاشية القيصر. وبعد قليل اقبل قطار جلالته.

واستعرض القيصر يرافقه الدوق الكبير نيقولاس، حرس الشرف. وكانت كل كلمة فاه بها تقابل بدوي الهتاف، فيتردد صداه كالماء من دلاءٍ تتأرجح.

وبدا القيصر وهو يبتسم مضطرباً أكثر شيخوخة وعياء مما بدا على اوراق الروبل والاوسمة. فقد كان وجهه باهتاً، وعلى شيء من الترهل. وكان يكثر من النظر باعتذار الى الدوق، وهو غير عارف ما كان يُنتظر منه. وكان الدوق ينحني اليه باجلال، ليعينه في مغالبة الحرج والارتباك،

لا بالكلام بقدر ما بتحريك الحاجب او الكتف.

وفي ذلك الصباح القاتم في الجبال، احس جيفاكو بالشفقة على القيصر، وازعجه التفكير بأن يكون ذلك الحياء وتلك الرزانة صفتين اساسيتين من صفات الطاغية، وبأن يكون في مقدور رجل بمثل ذلك الضعف ان يسجن، ويشنق، ويعفو.

"حبذا لو ألقى خطاباً ـ "انا، وسيفي، وشعبي" ـ مثل القيصر. كلمة عن "الشعب" ـ هذا أمر كان ضرورياً. ولكنه كان طبيعيّاً، على الطريقة الروسية، وفوق هذه السخافات ويا للمأساة! فلم يكن السلوك المسرحي ليتصورّ في روسيا. ومثل هذا العمل هو سلوك مسرحي، اليس كذلك؟ اظن ان هنالك اشياء تحت حكم القياصرة هي بمنزلة "شعوب" ـ غوليون وسيثيون، او اليريون وما ليهم. ولكن هذه "الشعوب" قد اصبحت، منذ زمن، مجرد وهم، فلا وجود لها الا كموضوعات لخطب الملوك والسياسيين: "الشعب، شعبي!"

"ولم تلبث الجبهة ان غصّت بالمراسلين والصحفيين. فراحوا يسجلون "مشاهداتهم" وجواهر حكمهم الذائعة، ويقومون بزيارة الجرحى ويضعون نظريات جديدة عن روح الشعب. انه نسخة جديدة لدال[1]، ضخمة مثلها ـ اساليب لغوية، وصيغ فارغة. هنا نوع، وهنالك نوع آخر: خطاب منقول، "شطحات قلم وريبور تاجات قصيرة"، إلحاد وبخل. لقد قرأت مقطوعة من هذا الطراز، منذ بضعة أيام: "يوم قاتم، كيوم امس. المطر منذ الصباح، ينهمر. اتطلع من الشباك فأرى الطريق. أسرى في صف لا نهاية له. جرحى. بندقية تطلق نيرانها. انها تطلق نيرانها اليوم كالبارحة، وغداً كاليوم ولكل ساعة". أليس هذا الاسلوب بليغاً ممتعاً؟ ولكن ما عذره في التهجم على البندقية؟ لماذا لا ينظر الى نفسه، فيحبّر

---

(١) فلاديمير ايفانوفيتش دال(Dahl)، مؤلف كتاب « قاموس اللهجات الروسية الحية .

العبارات والفواصل والوقائع ذاتها يوماً بعد يوم، ويحتفظ بسيل كلامه الصحفي خفيفاً كقفزة البرغوث؟ لماذا لا يقدر ان يقتنع بأن عليه ان يتوقف عن تكرار نفسه ـ ليس من اجل البندقية ـ وبأن المرء لن يستطيع ان يقول شيئاً ذا معنى برصف الكلام الهراء في دفتر، وبأن الوقائع لا وجود لها ما لم يحمّلها الانسان شيئاً من نفسه، من العبقرية الانسانية الحرّة ـ من الاسطورة."

وهنا صاح غوردون: "أصبت المرمى. والآن دعني اخبرك برأيي في الحادث الذي شهدناه اليوم: القوزاكي يضطهد ذلك الشيخ المسكين ـ وهنالك آلاف الحوادث المماثلة. لا ريب ان هذا الحادث مهين قبيح. ولكن ما الغرض من وراء التفلسف فيه؟ عليك ان تتصدى له ارتجالاً. غير اننا اذا تناولنا المسألة اليهودية بكاملها ـ وهنا يأتي دور الفلسفة ـ تقع على شيء غير متوقع. لن اخبرك شيئاً جديداً ـ فكلانا اقتبس افكاره من عمنا.

"كنت تقول ما هي الامة؟... ومن يخدم الامة اكثر، ذلك الذي يتباهى بالخدمة او الذي، دون تفكير، يرفعها الى مقام القيم الكلية بجمال افعاله وعظمتها، ويمنحها الشهرة والخلود؟ الجواب واضح. وما هي حال الامم الآن، في العهد المسيحي؟ انها ليست امماً بحتاً، بل امم تغيرت وتبدلت. والمهم هو هذا التبدل والتغير، لا الولاء لمبادىء قديمة. وماذا يقول الانجيل بهذا الصدد؟ انه، اولاً، لا يصدر احكاماً قاطعة: "الامر كهذا او كذاك". فهو يقترح، واقتراحاته بسيطة، متواضعة: "اتريد ان تعيش حياة جديدة تماماً؟ أتريد سعادة روحية؟" والناس جميعاً وافقوا ،وتعلقوا بها لآلاف من السنين...

"فحين يقول الانجيل ان ليس في ملكوت الله يهودي وغير يهودي، فهل يعني ذلك ان الجميع متساوون في حضرة الله؟ كلا ـ فلم يكن من حاجة الى الانجيل من اجل ذلك ـ فالفلاسفة الاغريق، ومعلمو الاخلاق

الرومان، والانبياء العبران عرفوا ذلك قبل زمن بعيد. ولكن الانجيل قال: في طريقة الحياة الجديدة هذه، وفي شكل المجتمع الجديد هذا، اللذين يولدان من القلب، واللذين يدعيان ملكوت السماء، ليس هنالك امم وشعوب، بل هنالك فقط افراد.

"قلتَ إن الوقائع لا معنى لها، ما لم تجعلها انت ذات معنى. فالمسيحية، سرّ الفرد، هي بالضبط ما يجب ان يوضع في الوقائع لكي يجعلها مليئة المعنى.

"ثم تكلمت عن ذوي الاقلام الرديئة الذين ليس عندهم ما يقولونه للحياة وللعالم بمجموعه، وعن اولئك الوضعاء الصغار الذين يسعدون عندما تكون امة من الامم ـ لاسيما امة صغيرة تاعسة ـ تحت البحث المستمر. فيتيح لهم ذلك مجالاً لاظهار مقدرتهم وبراعتهم. والآن، ألديك مثل على ضحايا هذه العقلية افضل من اليهود؟ ففكرتهم القومية قد حملتهم، قرناً بعد قرن، على ان يكونوا امة، وامة فحسب ـ مما جعلهم سجناء هذه المهمة القاتلة خلال العصور، بينما قد تحرر منها سائر البشر بقوة جديدة خرجت من وسطهم؟ كيف تفسر ذلك؟ بربك تأمل! هذا العيد المجيد، هذا التحرر من لعنة الضعة، هذا التحليق الجامح فوق بلادة الوجود المبتذل، قد تم اولاً في تلك البلاد، واعلن عنه بلغتهم، وانتمى الى شعبهم! وهم بالفعل قد ابصروا ذلك وسمعوه ثم تركوه وشأنه! كيف امكنهم السماح لروح بمثل تلك القدرة الغلابة وذلك الجمال القاهر ان ترحل عنهم! وكيف امكنهم التفكير بان يظلوا، بعد ان انتصر ذلك ووطد سلطانه، قشرة فارغة لتلك الاعجوبة التي انكروها؟ من ذا يفيد من هذا الاستشهاد الطوعي؟ من ذا الذي يستفيد؟ لأي غرض يُهان ويضطهد هؤلاء الشيوخ والنساء والاطفال، هذا الشعب الرزين، الكريم، الرؤوف، خلال العصور؟ ولماذا يكون ان جميع اصدقاء "الشعب" المتأدبين هؤلاء هم دائماً بلا موهبة؟ لماذا لا يتجاوز قادة الفكر

عند الشعب اليهودي ابداً حدود الكلام المبتذل والحكمة الساخرة؟ لماذا لا يسرّحون - حتى لو تعرضوا لخطر الانفجار كالمراجل تحت ضغط القيام بواجبهم - هذا الجيش الذي لا ينفك يقاتل ويتساقط قتيلاً من اجل غاية لا يفقهها احد؟ لماذا لا يقولون لهم: "عودوا الى رشدكم. يكفي. لا تتمسكوا بهوياتكم. لا تقفوا صفاً واحداً، تفرقوا. كونوا سواسية مع سائر البشر. انتم اوائل المسيحيين وافضلهم في العالم. وانتم هم الشيء بالذات، الذي دفعكم الى الخروج عليه ومحاربته، أضعفُكم واكثركم سوءاً."

١٣

حين عاد جيفاكو في اليوم التالي الى البيت لتناول طعام الغداء، قال: "كنت حريصاً على الاسراع في الرحيل، وها ان رغبتك قد تحققت. لن اقول "رافقك حسن الحظ" فليس من حسن الحظ ان نكون هنا محاصرين ومقهورين مرة ثانية. الطريق الى الشرق مفتوحة؛ والضغط يأتي من جهة الغرب. جميع الوحدات الطبية تلقت الامر بالانسحاب. وسنرحل غداً او بعد غد. الى اين، لا أدري. ولا اظن ان حوائج كاربنكو وميخائيل غريغورييفيتش قد غسلت. هكذا الحال دائماً. كاربنكو يخبرك بانه اعطاها الفتاة لتغسلها، ولكنك اذا سألته من هي واين تكون، لا يدري. يا له من معتوه!"

ولم يعبأ جيفاكو بالاعذار التي قدمها كاربنكو وغوردون لاستعارة قمصانه.

"هكذا حياة الجندية." تابع كلامه قائلاً: "ما ان تعتاد على مكان حتى ينقلوك الى آخر. لم يعجبني شيء هنا حينما قدمناه. فقد كان هذا المكان قذراً، مليئاً بالدخان؛ الموقد في غير محله، والسقف وطيء. اما

الآن، فانك لو قتلتني لعجزت عن ان استعيد الى ذاكرتي كيف كان حاله عندما أتيناه. والآن اشعر بأنني لا ارفض ان ابقى فيه طوال عمري، فأحدق في تلك الزاوية من الموقد حيث تقع اشعة الشمس على القرميد ويرتمي ظل تلك الشجرة.

وحزموا امتعتهم على غير عجل.

وفي الليل استيقظوا على اصوات الهتاف، وطلقات البنادق، ووقع الاقدام. وكان يخيم على القرية لمعان قاتم، ومرّ بريق الاشباح عبر النافذة. ونهض صاحب المنزل وزوجته من فراشهما وراء الحاجز. وارسل يوري اندرييفيتش خادمه ليسأل ما الخبر.

وعاد الخادم قائلاً ان الالمان قد اخترقوا الخطوط. فأسرع جيفاكو الى المستشفى. وهناك تحقق من صدق الخبر. وكانت القرية تحت نيران العدو. ونقل المستشفى الى مكان آخر في الحال، بدون انتظار التعليمات بالانسحاب.

وخاطب جيفاكو غوردون قائلاً: "سنرحل قبل طلوع الفجر. انت ذاهب مع الفريق الأول. العربة جاهزة الآن. ولكنني اخبرتهم بان ينتظروك. هيا، رافقتك السلامة. سأسير معك الى العربة لأتأكد من وجود مكان لك فيها."

وركضا في ازقة القرية، وهما ينحنيان ويعانقان الحيطان تجنباً للقذائف. وكان الرصاص يئز حولهما. وما ان بلغا مفترق الطرق، حتى بدأا يبصران الانفجارات كمظلة من النيران تنتشر فوق السهول.

"ماذا ستفعل انت؟" سأل غوردون رفيقه وهما يركضان.

"سأتبعك مع الفريق الثاني. يجب ان اعود لأحزم امتعتي."

وافترقا عند طرف القرية. وبدأت العربات التي تتألف منها القافلة تصطدم، بعضها ببعض، وهي تتجمع ثم تنتشر شيئاً فشيئاً في الطريق. ولوّح يوري اندرييفيتش لصديقه وقد تمكن ان يلمحه لبضع دقائق أخرى

على ضوء اللهيب المتصاعد من زريبة قريبة.

وقفل يوري اندرييفيتش عائداً، وهو يستعين أيضاً بالمنازل على السلامة من الرصاص والقذائف. وعلى مقربة من منزله، وقع قربه انفجار طرحه ارضاً وقد أصيب بشظية. وسقط على عرض الطريق، مغمى عليه والدماء تنزف منه.

١٤

وانتقل المستشفى الذي كان فيه يوري اندرييفيتش يتماثل الى الشفاء، الى قرية صغيرة مجهولة، تقع على خط حديدي قرب المقر العام. وكان اليوم دافئاً من شهر شباط، والشباك بازاء سريره قد انفتح على مصراعيه بناءً لطلبه.

وكان المرضى يقتلون الوقت، قبل الغداء، بخير ما يستطيعون. وكان قد ترامى اليهم ان ممرضة جديدة قد التحقت بالمستشفى، وانها ستقوم بجولتها الأولى ذلك النهار. وراح غاليولين، قبالة جيفاكو، يتصفح الجريدة ويهز برأسه مستنكراً البياض الذي احدثته فيها المراقبة. وكان يوري اندرييفيتش يقرأ الرسائل الواردة اليه من تونيا، وقد تجمعت في كومة كبيرة. وأخذت هبات النسائم تتلاعب بأوراق الرسائل. وسمع وقع اقدام خفيفة فرفع بصره. لقد دخلت لارا الغرفة.

وعرفها كل من جيفاكو وغاليولين، دون ان يدري احدهما بمعرفة الآخر لها. أما لارا فلم تكن تعرفهما. فقالت: "مرحىً. لماذا الشباك مفتوح؟ ألا تحسان بالبرد؟" واذ تقدمت من غاليولين سألته عن حاله وأخذت ذراعه لتجسّ نبضه. ولكنها سرعان ما افلتتها وجلست قربه على السرير، تتطلع اليه وعلى وجهها أمارات الدهشة.

"هذا لم يكن متوقعاً حقاً، يا لاريا فيدوروفنا، قال. "عرفت زوجك.

كنا معاً في فرقة واحدة. احتفظت بامتعته لك."

"لا يمكن". رددت قائلة. "لا يمكن هذا. هل عرفته! يا لها من مصادفة غريبة. ارجوك ان تخبرني في الحال كيف حدث له ما حدث. قتلته قذيفة، أليس كذلك، وقبره الانفجار؟ انني سمعت الخبر، فبالله لا تخشَ ان تسرده على مسامعي."

وفقد غاليولين شجاعته. وقرر ان يخبرها كذبة تبعث في نفسها العزاء.

فقال:

"أخذ انتيبوف اسيراً. فقد تقدّم الى الامام كثيراً مع فرقته، حتى أحاط بهم الاعداء وطوقوهم. وأُجبر على التسليم."

على انها لم تصدقه. واذ كانت مضطربة من جراء ذلك اللقاء المفاجىء ولم تشأ ان تترك لعواطفها العنان امام الغرباء، فقد هرعت خارجة الى البهو.

وبعد لحظات عادت، وقد بدت عليها رباطة الجأش. وخوفاً من ان تبكي مرة ثانية، اذا تحدثت الى غاليولين، فقد تجنبت النظر اليه وتقدمت من يوري اندرييفيتش قائلةً: "مرحى. مابك؟"

وكان يوري اندرييفيتش قد أبصر اضطرابها ودموعها. فأراد ان يسألها عن السبب ويخبرها بأنه شاهدها مرتين في حياته، مرة وهو تلميذ، ومرة أخرى وهو طالب في الجامعة؛ غير انه خشي ان يعتبر ذلك منه فضولاً او ان تسيء تفسيره. ثم لم يلبث ان تذكر التابوت وفيه رقد جثمان آنا ايفانوفنا، كما تذكر عويل تونيا، فقال عندئذ:

"شكراً لك. انني طبيب، واعتني بنفسي. لا حاجة بي الى شيء."

وعجبت لارا في نفسها متسائلة: "بماذا عساني اسأت اليه؟" ونظرت بدهشة الى هذا الغريب ذي الأنف المطعوج والوجه العادي.

ولأيام عدة، ظل الطقس متقلباً، والريح تهب حارة في الليل، وهي

تفوح برائحة الأرض.

وفي تلك الاثناء، وردت معلومات غريبة من مقر القيادة العام، وسرت شائعات مخيفة من داخل البلاد. فالمواصلات التلغرافية مع بطرسبورج قد انقطعت تكراراً. وفي كل مكان، وعند كل زاوية، كل الناس يتكلمون في السياسة.

وواظبت المرضة انتيبوفا كل صباح ومساء على القيام بجولتها بين المرضى، فتبادل كلا منهم كلمة او اكثر، وفي الجملة غاليولين وجيفاكو. "يا له من مخلوق فضولي"، فكرت في نفسها. "انه شاب وقوي. لا يمكن ان يوصف ببهاء الطلعة، وانفه مطعوج هكذا الى الوراء. ولكنه ذكي بكل معنى الكلمة، ويقظ، وذو عقل راجح. ومهما يكن، فهذا الأمر ليس بذي بال. المهم ان انتهي من وظيفتي، في اسرع ما يمكن، واطلب نقلي الى موسكو لأصبح قريبة من كاتنكا، ثم أسعى لتسريحي من الخدمة، فأعود الى بيتي في يورياتين، والى المدرسة. لقد اتضح الآن ما حدث لباشا المسكين. لا أمل على الاطلاق؛ فكلما اسرعت في التوقف عن تمثيل دور البطلة، تكون الحال افضل. ما كنت لأُوجد هنا لولا غايتي في البحث عن باشا."

وتساءلت في نفسها عن حال كاتنكا. يا له من يتيم مسكين. وهذا ما حملها على البكاء.

لقد لاحظت تغيراً حاداً حولها في المدة الأخيرة. فحتى الآن، كان هنالك واجبات من كل نوع، واجبات مقدسة: نحو وطنك: نحو الجيش، نحو المجتمع. اما الآن، وقد خُسرت الحرب (وهذا ما كان السبب الرئيسي لسوء الطالع في كل شيء) فلم يبق من حرمة او قداسة لشيء على الاطلاق.

كل شيء قد تغير فجأة: اللهجة، الجو الاخلاقي؛ ولم تكن تدري بماذا تفكر، والى من تصغي. فكأنما كنت كل حياتك تقاد بيدك

كالطفل، وبغتةً تُركت وحدك، فكان عليك ان تتعلم كيف تمشي بنفسك. لم يكن احد حولك، لا عائلتك ولا أناس تثق بسداد رأيهم. وفي مثل هذا الظرف، كنت تشعر بحاجة الى الارتماء في احضان شيء مطلق: الحياة او الحقيقة او الجمال، والى الخضوع له عوضاً عن المبادىء التي صنعها الانسان ثم نُبذتْ. كنت بحاجة الى التسليم لغاية اخيرة كهذه تسليماً أكمل واقل حذراً مما كنت تفعل في الأيام العادية الهادئة القديمة، في الحياة الماضية التي بطلت الآن وزالت الى غير رجعة. ولكن فيما يتعلق بلارا، فقد كان لديها كاتنكا ليلبي حاجتها الى مطلق، حاجتها الى غاية في الحياة. اما الآن، ولم يبق لها باشا، فليس في وسعها الا ان تكون أمّاً، تكرس جميع قواها لولدها اليتيم المسكين.

وعلم يوري اندرييفيتش من موسكو ان غوردون ودودوروف قد نشرا كتابه بدون إذن منه، وان الكتاب قد لاقى استحساناً واعتبر عملاً ادبياً يعد بالخير. وعلم أيضاً ان موسكو تجتاز وقتاً عصيباً، وهي على ابواب حدث خطير، وان هنالك نقمة بين الجماهير، وان تطورات سياسية على جانب كبير من الخطورة على وشك الوقوع.

وكان الليل قد انقضى الا اقله. وأحس يوري اندرييفيتش بالنعاس، فأخذ يغالبه. وخُيل اليه ان الهياج الذي سيطر على الجو في الايام الأخيرة قد جلب اليه الأرق. وتثاءبت نسمات الريح ناعسةً دائخة، ثم اخذت تهب خارج الشباك. وبكت الريح واعولت: "تونيا، ساشا، انا مشتاق اليكما. اريد ان اذهب الى البيت. اريد ان اعود الى عملي." وعلى تمتمات الريح نام يوري اندرييفيتش وافاق، ثم نام مرة ثانية يتقاذفه الفرح والألم، وهما ينقضيان ويثيران الاضطراب، كالطقس المتقلب، كالليل القلق.

وخطر للارا أن غاليولين، بعد كل هذا الولاء الذي اظهر لذكرى باشا، والمشقة التي تحملها للحفاظ على حوائجه، لم يفز منها بسؤال

عمن هو ومن اين أتى.

ولكي تتلافى هذا التقصير، فلا تظهر بمظهر ناكر الجميل، فقد سألته عن نفسه عندما قامت بجولتها في الصباح التالي.

"يا الهي!" صاحت. شارع برست رقم ٢٨، عائلة تيفرزين، ثورة عام ١٩٠٥، ذلك الشتاء! يوسوبكا؟ لا، لا تتذكر انها التقته. فليغفر لها. ولكن تلك السنة، تلك السنة، وذلك المسكن! هذا صحيح، كان هنالك بالفعل مثل هذا المسكن ومثل تلك السنة! وكم تتذكر ذلك جيداً! موقد النار و- ماذا دعته حينذاك؟ - "رأي المسيح!" ما كان اقوى، وأحدّ تلك المشاعر التي يخبرها الانسان في طفولته! "اغفر لي، بربك اغفر لي، ايها الضابط. ماذا قلت انه اسمك؟ نعم، نعم، ذكرته لي مرة. شكراً لك. اوسيب جيماذدينوفيتش، لا أستطيع ان اشكرك كفايةً لتذكيري بكل هذا، باعادته مرة ثانية الى ذهني."

وطول ذلك النهار، ظلت تفكر بـ "ذلك المسكن" وتتحدث الى نفسها.

تأمل: شارع برست، رقم ٢٨؟ وها هم يطلقون النار مرة ثانية؛ ولكن كم هو مخيف الآن؛ ليس في مقدورك ان تقول: "الاولاد يطلقون النار" هذه المرة: الاولاد جميعاً قد كبروا، وهم كلهم هنا، في الجيش. انهم جميعاً اولئك الذين عاشوا في ذلك المسكن وفي امثاله، وفي القرى التي كانت أيضاً شبيهة به. ويا للعجب، يا للعجب!

وخرج المرضى الذين لم يكونوا مقيدين الى أسرّتهم من غرفهم، وهم يستندون الى عكاكيزهم او يهرولون، صائحين وقد حدق بعضهم ببعض:

"اخبار هائلة؟ الحرب نشبت في شوارع بطرسبورج! حامية بطرسبورج انضمت الى العصاة! الثورة! الثورة!"

القسم الثاني

الفصل الخامس
وداعاً للماضي

١

كان اسم القرية ميليوزئيف. وكانت تقع في الارض السوداء الخصبة. وكان الغبار الاسود عالقاً على سطوحها كسحابة من الجراد. وقد أثارته الجنود والقوافل التي كانت تجتازها من الجانبين، بعضهم في طريقه الى الجبهة، والبعض الآخر عائدون منها. وكان من المستحيل معرفة ما إذا كانت الحرب لاتزال قائمة او أنها قد انتهت...

وكان كلّ يوم يشهدُ مهمات جديدة تنبتُ كالفطر، وتسند جميعها الى الدكتور جيفاكو والملازم غاليولين، والى الممرضة انتيبوفا وسائر زملائهم من ابناء المدن الكبرى الذين هم على جانب وافر من الخبرة والدراية.

وكانوا في ذلك بمنزلة موظفين مؤقتين في دوائر البلدية والجيش والصحة العامة، وكانوا يعتبرون توليهم هذه المهمات لهواً وتسلية. غير ان شعورهم اخذ يتزايد يوماً بعد يوم بأنه قد حان لهم ان يتوقفوا لكي يرجعوا الى مشاغلهم العادية والى بيوتهم.

اما جيفاكو وانتيبوفا، فكان العمل يقرّب بينهما، في اغلب الاحيان.

٢

كان المطر قد احال الغبار الاسود الى وحلٍ بلون القهوة، وقد انتشر

فوق الشوارع التي كان معظمها غير معبّد.

وكانت البلدة الصغيرة، وفي وسعك ان ترى، عند نهاية كل شارع، القفر القاتم تحت الفضاء الداكن، وهول الحرب، وهول الثورة.

وكتب يوري اندرييفيتش الى زوجته، يقول:

"الانحلال والفوضى في الجيش يستمران. والاجراءات تُتخذ لتقوية المعنويات وروح الطاعة والنظام. وقد قمت بدورة تفتيشية للوحدات المعسكرة في المنطقة.

"وأخبرك، كحاشية، ما كان باستطاعتي ان أذكره لك سابقاً، وهو انني اقوم بأعمال كثيرة بمساعدة فتاة تدعى أنتيبوفا، وهي ممرضة من موسكو، ولدت في جبال الأورال.

"هل تذكرين الطالبة التي اطلقت النار على النائب العام ليلة وفاة امك؟ أظن انها حوكمت فيما بعد. أذكر انني اخبرتك بانني رأيتها انا وميشا مرة، حين كانت طالبة، وذلك في فندق بسيط اخذنا إليه والدك، ولا أستطيع ان اتذكر لماذا ذهبنا. كل ما أذكره أن الليل كان بارداً جداً. اظن ان ذلك كان في اثناء ثورة بريسنيا. تلك الفتاة هي أنتيبوفا.

"حاولت مراراً العودة الى البيت، فلم يكن الامر سهلاً. ليس من جرّاء العمل فحسب - ففي وسعنا ان نسنده الى آخرين - بل لصعوبة السفر أيضاً. فالقطارات اما انها لا تمر، واما انها تمر مزدحمة، فلا أجد مكاناً.

"هذه الحالة بالطبع، لا تدوم. فقد قرّ رأي بعضنا، من الذين استقالوا او صرفوا من الخدمة، وبينهم انتيبوفا وغاليولين وأنا، ان نسافر في الاسبوع المقبل، مهما يكن الامر. وسيسافر كل منا وحده، فيزداد بذلك حظنا بالسفر.

"لا تستغربي، إذاً ان، تُفاجئي بقدومي. على انني سأحاول ان أبرق لك!"

وقبل ان يسافر يوري أندرييفيتش تلقى جواباً من زوجته، تلتمس فيه بعبارات يتخللها النحيب وتنقطها الدموع وبقع الحبر، ألا يعود الى موسكو، بل يذهب رأساً الى الأورال بصحبة الممرضة التي طُبعت حياتها بحسن الطالع والمصادفة اللذين هما من العجب بحيث ان حياتها هي، تونيا، لا تستطيع ان تضاهيها. ثم تقول: "لا تقلق على مستقبل ساشا. فلن يحدث له ما يجعلك تستحي به. إنني اعدك بأن أربّيه وأنشئه على المبادىء التي عهدتها وانت طفل في هذا البيت."

وعلى الفور كتب لها يوري اندرييفيتش رداً قال فيه: "يا لك من حمقاء، يا تونيا. كيف يخطر لك هذا الامر؟ الا تعلمين، ألست متأكدة أنني لولاك، ولولا ذكراك الدائمة الآمنة وذكرى عائلتنا، لما بقيت حياً طول هاتين السنتين من الحرب الرهيبة المدمّرة؟ ولكن، لماذا الكتابة؟ فعما قريب سنلتقي، ونبدأ حياتنا من جديد، وينجلي كل شيء.

"ان ما ارعبني في رسالتك هو شيء آخر: إذا كنتُ حقاً قد أتيت ما دفعك للكتابة على هذا النحو، فان سلوكي، إذاً، كان غامضاً، وأكون مخطئاً بحقك وبحق تلك المرأة التي اضللها، وسأعتذر لها حالما تعود. فهي تجوب الآن القرى المجاورة، حيث تَنشَأُ مجالس محليّة كانت، فيما مضى، تقتصر على عواصم الأقاليم وقصباتها، وتساعدُ في ذلك صديقة لها، تقوم بمهمة الإرشاد فيما يتصل بهذه التغييرات الإنشائية.

"وقد يهمّك ان تعلمي أنني، رغم سُكنانا في بيت واحد، لا اعرف حتى الآن غرفتها، ولم أعر ذلك اهتماماً."

٣

تتفرّع من بلدة ميليوزئيف طريقان، احداهما تتجه الى الشرق، والثانية الى الغرب. كانت إحداهما موحلة تخترق الغابات الى زيبوشينو

وهي مركز صغير للحبوب، يلتحق إدرايّاً بميليبوزئيف، مع أنّه اكثر تقدماً منها، من جميع الوجوه. امّا الطريق الأخرى فكانت صخرية تمرّ في قفار توحل في الشتاء وتجف في الصيف، الى بيريوتشي، أقرب محطة للقطار.

وفي حزيران أصبحت زيبوشينو جمهورية مستقلة أقامها بلايجيكو، الطحان، تؤيده زمرة من فرقة المشاة ٢١٢، هربت بسلاحها من الجبهة إبان الثورة وقدمت زيبوشينو عن طريق بيريوتشي.

وقد رفضت هذه الجمهورية ان تعترف بالحكومة المؤقتة، فانفصلت عن سائر روسيا وأعلن بلايجيكو الذي كان ينتمي الى بدعة دينية وكانت له مراسلات مع تولستوي، العهدَ الذهبي لزيبو شينو يكون فيه العمل والملك جماعيّيْن، وسمي مركز السلطة المحلية كرسياً رسولياً.

كانت زيبو شينو دائماً مصدراً للخرافات والحكايات الخيالية. وقد ورد اسمها في وثائق تعود الى عهود القلاقل، عام ,١٦١٣ وكانت الغابات المحيطة بها تغصّ باللصوص، حتى بعد ذلك العهد. وكان ازدهار تجارتها وخصب تربتها، حديث الجميع. فمعظم المعتقدات الشعبية والعادات واللهجات التي تميز بها ذلك الاقليم الغربي القريب من الجبهة قد نشأ في زيبوشينو. وقد ذاعت أقاويل شتىّ عن مساعد بلايجيكو وساعده الأيمن. فقيل إنه أصمّ أبكم، وإنه وُهب ملكة النطق والسمع في لحظات الوحي، ثم فقدها ثانية. وعمرت الجمهورية أسبوعين؛ ففي تموز احتلت المدينة وحدة من القوات الموالية للحكومة المؤقتة، فتراجع العصاة الى بيريوتشي.

وهنالك حيث الغابات قد استحالت قاعاً صفصفاً على جانبي المحطة، وبين جذوع الشجر التي يغطيها العليق وأكوام الحطب المهترىء المهمل، وبين أكواخ الطين المهدّمة التي كان يبنيها الحطابون في كل فصل، أقام اولئك العصاة مخيماتهم.

٤

كان المستشفى الذين تماثل فيه جيفاكو للشفاء واشتغل فيه طبيباً فيما بعد، ثم تهيّأ الآن لمغادرته، قائماً في دارة الكونتيس جابر ينسكيا، وقد أهدته للصليب الأحمر في بدء الحرب.

كانت الدارة تتألف من طابقين وتحتلّ اجمل ناحية من البلدة، عند مفترق الشارع الرئيسي والساحة العامة، المعروفة باسم "بلاتز"، حيث جعلها الجنود فيما مضى مكاناً للتدريب، وحيث تُعقد الآن الاجتماعات. وكان موقع الدارة مطلاً جميلاً على جواره؛ ففضلاً عن الساحة والشارع، كانت تشرف على الحديقة المجاورة التي كانت تملكها عائلة ريفية فقيرة تعيش عيشة أشبه ما تكون بعيشة الفلاحين. كما كانت تشرف من جهة الوراء على حديقة الكونتيس.

وكان للكونتيس أملاك واسعة في رازدولنوي، وهي لم تكن تشغل دارتها في البلدة إلاّ عندما تزورها. وكانت هذه الدارة أيضاً ملتقىً لضيوفها في زارذولونوي القادمين إليها من كل صوب، خلال فصل الصيف.

أما الآن فقد أصبحت الدارة مستشفى، وصاحبته في السجن في بطرسبورج حيث كانت تسكن فيما مضى.

ولم يبق من حاشيتها غير امرأتين: اوستينيا الطاهية، والآنسة فلوري مربيّة كريمات الكونتيس السابقة. وكلتاهما قد تزوجتا.

كانت الآنسة ذات الشعر الشائب والخدين القرمزيين تمشي متهالكة بشّاية ورداء بيتي فضفاض قديم. وكان يبدو عليها أنها لا تجد فرقاً بين إقامتهافي المستشفى وإقامتها مع عائلة جابرينسكي. وكانت تسرد الحكايات بلغتها الركيكة، فتبتلع اواخر الكلمات كما يحدث في

الفرنسية، وتُكثر من الاشارات والمواقف الدرامائية، وتنفجر بقهقهاتٍ تنتهي بنوباتٍ من السعال.

وكانت تعرف عن أنتيبوفا دخائل حياتها كلها، وتظن ان الممرضة والطبيب لابدّ ان يميل واحدهما للآخر. وكانت تبتهجُ كلما أبصرتهما معاً، فتهز سبّابتها في وجههما وتغمز بطرف عينيها. ولم يكن ذلك إلاّ بتأثير ولعها برؤية التحابّ بين الجنسين، وهو ولعٌ عميق الجذور في القلب اللاّتينيّ. وكان سلوكها هذا يدهش أنتيبوفا ويغضب الطبيب. غير ان الآنسة تمسّكت بأوهامها أسوةً بذوي الشذوذ وأبت ان تُقلع عنها بأيّ ثمن.

اما اوستينيا فكانت أكثر غرابة. فقد اظهرها شكلُها المتهدّل، في مثل الإجّاصة، بمظهر الدجاجة. فقد كانت يابسة العود، رزينة إلى حد الخبث. على ان رزانتها كانت تتمشى مع خيالٍ لا يُقيده أي شيء يتصل بالخرافة. فلقد ولدت في زيبوشينو وادّعت انها بنتُ احد السّحرة فيها. ولطالما وقعت في غيبوبة، فلا تخرج من المنزل دون ان تتمتم فوق الموقد وثقب الباب، لتصون البيت في غيابها من النار والروح الشريرة.

كان في وسعها ان تحتفظ بهدوئها لسنوات، ولكنها حين تُستفزّ، لا يقف شيء في وجهها. وكان الدفاع عن الحقيقة شغفها الاوحد.

بعد سقوط جمهورية زيبوشينو، شنت اللجنة التنفيذية لميلوزئيف حملة دعائية ضد الاتجاهات الفوضوية في البلدة، فكانت تعقد الاجتماعات كل ليلة في ساحة البلدة، يحضرها عددٌ قليل من الأهلين الذين لم يكن لهم ما يعملون خيراً من هذا العمل، والذين اعتادوا فيما مضى من الايام ان يتجمّعوا للثرثرة وسرد الشائعات خارج مركز الاطفائية. وقد كانت اللجنة الثقافية في البلدة تشجعهم وتدعو خطباء محليين وزائرين لادارة المناقشات وتوجيهها. وكان الزّائرون يعتقدون بأن خرافة الاصم الابكم الذي يتكلم، هُراء حرصوا على الافصاح عنه.

على انّ صغار الصناع وزوجات الجنود والخدم السابقين في البلدة لم يعتبروا تلك الحكايات هراءً، فهبوا للدفاع عنها.

وكانت اوستينيا في طليعة المدافعين. لقد منعها وقارُها الانثوي، في البدء، الا أنها ازدادت شجاعة في الرد على الخطباء الذين كانت آراؤهم لا تلاقي قبولاً في ميليوزئيف. وقد انتهى بها الامر الى ان تصير من مهرة الخطباء.

وكانت ضوضاء الاصوات في الساحة تتسرب من النوافذ الى المستشفى، حتى لقد كانت بعض الخطب تسمع في الليالي الهادئة. وحين كانت أوستينيا تأخذ دورها في الكلام، تسرع "الآنسة" غالباً الى الغرف، حيث جلس الناس، فتحثهم على الاصغاء، وهي تقلدها دونما خبث بلهجتها الركيكة: "الفوضى... الفوضى. قيصريّ... قاطع طريق... زيبوشي - ... أصم أبكم... خائن! خائن."

وكانت الآنسة فخورة، في سرها، بالطاهية الفصيحة الوثابة الروح. وكانت المرأتان على اتم وفاق، إحداهما مع الاخرى، مع انهما لم تتوقفا لحظة عن المهاترة.

٥

تهيأ يوري أندرييفيتش فزار بيوت اصدقائه ومكاتب عملهم، وقدم طلباً للحصول على ما يلزمه من اوراق السفر. وفي ذلك الحين توقف المفوض الجديد لذلك القطاع من الجبهة في ميليوزئيف وهو في طريقه الى المعسكر. وكان في رأي الجميع، عديم الخبرة، صبياً. وكانوا آنئذ يهيئون خطة هجومية ويبذلون اقصى جهدهم لرفع مستوى معنويات الجنود. فأقيمت المحاكم العرفية الثورية وأعيدت عقوبة الموت، بعد ان كانت قد ألغيت.

وكان على الطبيب ان يحصل قبل رحيله على اجازة بالسفر من الحاكم المحلي. وكان مكتب الحاكم يغص بالناس من ذوي الحاجة ويفيض بهم حتى ليملأ الشارع خارجه. وكان من المستحيل ان يشق المرء طريقه الى الطاولة او ان يسمع شيئاً وسط الضجيج الذي كانت تحدثه مئات الاصوات. على ان ذلك اليوم لم يكن يوم استقبال، فقد جلس الكتبة بصمت وراء مكاتبهم يتبرمون من العمل المتزايد المعقد، ويتبادلون النظرات الساخرة. وكانت أصوات المرح تتصاعد من غرفة الحاكم وتبدو كأنها تعج بأناس فكوا ازرار ملابسهم واخذوا يتناولون الشراب. وخرج غاليولين من الغرفة الداخلية واذ أبصر جيفاكو، اومأ اليه بحماس: ان تعال. وحيث كان على الطبيب أن يدخل في أي حال، فقد دخل. فوجد الغرفة في فوضى. وكان يتوسطها مفوض جديد، هو بطل الساعة ومثار حماس الاهلين. وعوضاً عن ان يكون في مركزه، فقد كان يخاطب حكام هذه المملكة المزيفة التي لم يكن لها أي صلة بالشؤون الادارية والعملية.

"هوذا أحد نجومنا"، قال الحاكم وهو يقدم الطبيب الى الحضور. فلم تبدر من المفوض الغارق في تأملاته التفاتة اهتمام. وعمد الحاكم الى توقيع الورقة التي وضعها الطبيب امامه، مشيراً بلطف اليه، لكي يستريح على المقعد في وسط الغرفة. وكان الطبيب الشخص الوحيد الذي جلس في الغرفة جلسة طبيعية. فقد اتخذ سائر الذين فيها اوضاعاً شاذة، لا مبالية. وكان الحاكم مستلقياً او يكاد، فوق مكتبه، ورأسه بين يديه، غارقاً في وضع تأملي؛ فيما جثم مساعده على طرف المقعد، وهو رجل ضخم الجثة قوي العضلات. وكانت ساقاه تعلوان المقعد كما لو كان يمتطي صهوة الجواد. اما غاليولين فقد استوى على مقعده، واضعاً رأسه فوق ذراعيه، بينما كان المفوض يتعلق بعمود النافذة ويقفز راكضاً في ارجاء الغرفة بخطوات سريعة، ويدور كالدوامة، فلا يهدأ او يصمت لحظة. وكان يتكلم بغير انقطاع عن الهاربين في بيريوتشي.

كان هذا الرجل بالضبط كما عرف عنه جيفاكو: رجلاً نحيل القامة، انيقاً، يكاد لا يتجاوز العشرين من عمره، ملتهباً حماساً وإيماناً بالمثل العليا. وقد قيل انه يتحدر من عائلة عريقة (نجل احد الشيوخ، كما قيل)، وانه في طليعة الذين قادوا كتيبتهم لاحتلال قاعة البرلمان "الدوما" في ثورة شباط. كان يدعى هنزي او هنز - ولم يتبين الدكتور اسمه بدقة. وكان يتكلم بوضوح، بلهجة بطرسبورجية صحيحة، تشوبها لكنةٌ بلطيقية.

وكان يرتدي بزة ضيقة. ولعله كان يخجل من صغر سنه، فلجأ الى العبوس والعنجهة، وراح يهز كتفيه اللتين تعلوهما قبتان قاسيتان، واضعاً يديه في جيبيه. وقد اظهره هذا بالفعل، بمظهر الفارس الذي يمكن لهيئته ان ترسم في خطين مستقيمين يبدآن بكتفيه ويلتقيان عند قدميه.
وقال الحاكم:

"هنالك فرقة من الكوزاك على مقربة من محطة القطار؛ انها حمراء، موالية. وهي ستدعى الى العمل، فتحيط بالثوار، وتضع حداً للأمر. ويحرص القائد العام على تجريدهم من السلاح دونما إبطاء".
فأجاب المفوض صائحاً:

"كوزاك؟ هذا مستحيل. نحن لسنا في عام ١٩٠٥، ولن نعود الى استخدام اساليب ما قبل الثورة. اننا على خلاف في الرأي، فقوادكم يغالون كثيراً".

"لم يتم شيء بعد. انها مجرد خطة، اقتراح."

"اتفقنا مع القيادة العليا على ألا نتدخل في العمليات. فأنا لن ألغي الأمر باستدعاء الكوزاك. فليأتوا. وسأتخذ، فيما يخصني، الخطوات التي يمليها علي الفهم السليم. ان لهم معسكراً، أليس كذلك؟"

"اظن ذلك. مخيّم، على كل حال. محصن."

"فليكن. اريد ان أرى هذا الخطر، وكر هؤلاء اللصوص. قد يكونون

عصاةً، اناساً طيبين، او حتى فارين من الجندية. ولكن لا تنس انهم على كل حال بشر. والبشر اطفال، يجب ان تعرفهم، ان تعرف نفسيتهم. فلكي تربحهم الى جانبك، عليك ان تحسن التصرف نحوهم، وتضرب على الوتر الحساس فيهم."

"سأذهب، وأصارحهم. وسترى كيف يعودون الى مراكزهم التي تخلوا عنها. ألا تصدقني؟ أتراهن؟"

"أشك في ذلك. ولكن عسى ان تكون على حق."

"سأقول لهم: "تمثلوا بي. انا وحيد أبوي ورجاؤهما، ومع ذلك قدمت نفسي. تنازلت عن كل شيء ـ الاسم، العائلة، المركز. فعلتُ كل ذلك لأحارب من اجل حريتكم، هذه الحرية التي لا يتمتع بها شعب آخر سواكم في العالم. هذا ما فعلت، وهذا ما فعله الكثيرون من الشباب غيري، فضلاً عن اسلافنا الاماجد الذين حملوا لواء الدفاع عن حقوق الشعب والذين تحمّلوا النفي في سيبيريا او آلام السجن في قلعة شلوسلبرغ. هل فعلنا ذلك لأجل انفسنا؟ هل كان علينا ان نقوم به؟ وانتم، يا من لم تعودوا جنوداً عاديين، بل محاربون تحت لواء اول جيش ثوري في العالم، اسألوا أنفسكم باخلاص وامانة: هل تؤدون ما هو متوقع منكم؟ في هذه اللحظة التي تنزف فيها جراح وطننا، ويبذل اقصى جهده للتخلص من قيد العدو، سمحتم لأنفسكم بأن تنجروا وراء عصابة من المغمورين، فأصبحتم غوغاء فاقدي الوعي السياسي، جاهلي معنى الحرية، بخلاء حتى بالقليل. فمثلكم مثل ذلك الخنزير الذي سمح له بالدخول الى غرفة الطعام فسارع الى الجلوس فوق المائدة؛ آه، هكذا سآخذهم واجعلهم يخجلون من انفسهم."

وعارض الحاكم بتردد، وهو يتبادل مع مساعده نظرات خاطفة ذات مغزى. وبذل غاليولين اقصى جهده لاقناع المفوض بالعدول عن فكرته. فقد خبر ما يتصف به جنود الفرقة ٢١٢ من التهور والاندفاع، اولئك

الذين كانوا تحت قيادته في الجبهة. الا ان المفوض لم يُعر اذناً صاغية.

وحاول يوري اندريفيتش باستمرار ان ينهض ويذهب. لقد احرجته سذاجة المفوض. ولم تكن حنكة الحاكم ومساعده المزيفة - وكلاهما انتهازي، مُراءٍ، ساخر - بأفضل منها. فقد تساوى حمق الأول بدَجل الآخرين. وقد اعرب كل هذا عن نفسه بسيلٍ من الكلمات السطحية الكاذبة، الباطلة، التي لا صلة لها بالحياة إطلاقاً.

آه، كم يتوق المرء احياناً الى الهرب من بلادة الفصاحة البشرية وسُخفها، ومن العبارات المنمقة كلها، ويلجأ الى الطبيعة، التي تتراءى صامتة، والى عِيِّ العمل الشاق الطويل، والنوم العميق والموسيقا الحقة، او الى لغة القلوب، الصامتة، والى تفاهمٍ بشري اعجزته العاطفة عن الكلام.

وتذكر الطبيب حديثه المنتظر مع انتيبوفا. فمع انه سيكون، ولا ريب، غير سار، فقد اسعدته ضرورة لقياها، ولو بمثل هذا الثمن. فهي في الغالب لم تعد بعد، على انه نهض حالما يُسّر له؛ وخرج دون ان يراه احد.

٦

لقد عادت. "فالآنسة" التي نقلت إليه النبأ، اضافت انها كانت تعبة، فلذلك تناولت طعامها بسرعة وآوت الى غرفتها راجيةً الا يزعجها احد. وقالت الآنسة للطبيب:

"لو كنت مكانك لقرعت بابها. فأنا واثقة بأنها لم تنم بعد."

فسأل الطبيب: "اين غرفتها؟"

فدُهشت "الآنسة" من سؤاله دهشة بالغة، وأشارت اليه انها عند نهاية الممر في الطابق الأعلى، بازاء الغرف التي تحتفظ فيها الكونتيس

بأثاث المنزل. وهو مكانٌ لم يزره الطبيب قطّ.

وكان قد بدأ يحل الظلام. وبدت المنازل والأسيجة في الخارج اكواماً متلاصقة في العتمة. واشرأبت الاشجار من اعماق الحديقة على ضوء المصابيح المشعة من النوافذ. وكان الليل حاراً ورطباً، حتى ليغرق المرء في العرق عند أقل حركة. وكانت أضواء قناديل الزيت، المتسربة الى فناء الدارة، ينزلق فوق الاشجار في سيلٍ بخاري قذر.

وتوقف الطبيب على رأس السلّم، وقد خطر له ان مجرّد قرع باب انتيبوفا، ولم يمضِ على عودتها منهوكة القوى الا حين قصير، لعمل مُحرجٌ لا لياقة فيه. ألم يكن الافضل ان ينتظر حتى الغد؟ وإذ شعر بالضياع، كما يشعر المرء عندما يغيّر رأيه، مشى الى الطرف الآخر من الممرّ حيث وجد نافذة أطل منها على فناء الدارة.

وخيّم الهدوء على الليل وملأته اصواتٌ غريبة. واصغى في جواره، داخل الممر، الى الماء يسقط من حوضٍ للغسل سقوطاً منتظماً بطيئاً. وفي مكانٍ ما، خارج النافذة، كان بعض الناس يتهامسون. وفي مكانٍ آخر، كان البعض يسقي جوانب الحديقة فيتصاعد رنين الدلو الحديدي وهم يسحبونه من البئر ويفرغونه في وعاءٍ بعد آخر. وعبقت في الأرجاء رائحة الورود في آن معاً، فكأنما الارض، وهي نائمة طول النهار، قد استيقظت على عبيرها. وكانت براعم الأشجار القديمة التي تغص بها حديقة الكونتيس، تتفتح وتبعث أريجها في الانحاء. وكانت الاصوات تتصاعد من الشارع وراء السياج الى اليمين: مقطوعات أغنية، ودمدمة جندي سكران، وقرع أبواب. وأطل القمر القرمزي الكبير من وراء أعشاش الغربان في حديقة الكونتيس، وكان لونه، في البدء، بلون معمل القرميد الجديد في زيبوشينو، ثم لم يلبث ان استحال الى خضرة بلون خزّان الماء في بيريوتشي.

وكانت رائحة الشوفان المحصود حديثاً، المعطر، تعطُر ازهار الشاي،

تمتزج، تحت النافذة، برائحة الورد. وكان هنالك بقرة تخور؛ سيقت من قرية بعيدة فتعبت وحنّت الى قطيعها وأبت ان تتناول طعام صاحبتها.

وكانت صاحبتُها تحاول إسكاتها متوعدة بصوتٍ منخفض، ولكنّ البقرة كانت تهزّ رأسها مستمرة في الخوار. وهناك، وراء زرائب ميليوزئيف، كانت النجوم تتلألأ وتمد بينها وبين البقرة خيوطاً من الحنان والعطف، كأنما كان في تلك العوالم الاخرى زميلات لها شعرن معها في ساعة الضيق.

كان كل شيء يختمر وينمو ويتفتح بخميرة الحياة العجيبة. وكأنما فرح العيش قد اجتاح، كنسمةٍ عليلة، تلك الحقول والقرى، واخترق الجدران والاسيجة، كما اخترق الاجساد والاشجار. وكي لا يغرق يوري اندرييفيتش في تلك اللجة العارمة، ذهب الى الساحة العامة يستمع الى ما يلقى فيها من الخطب.

٧

كان القمر قد علا في السماء، فغطى نورُه كل شيء، بمثل قشرة كثيفة من الدهان الأبيض، وألقت مباني الحكومة الشاهقة التي تحيط بالساحة في شبه دائرة، ظلالها العريضة على الارض كبساطٍ اسود.

وكان المجتمعون يملؤون الساحة. فكان على المرء ان يُجهد اذنيه كي يسمع كل حكمةٍ تُقال. على ان الطبيب قد اندهش من روعة المشهد. فجلس على المقعد خارج مركز الاطفائية. وعوضاً عن ان يُصغي راح يُجيل نظره فيما حوله.

هنالك أزقة ضيقة تفرّعت من الساحة، ملأها الوحل كما يملأ الوحل طرق الريف، ونهضت على جوانبها البيوت. وكان العوسج الذي يسيج هذه البيوت يبرز من الوحل فيبدو كأنه شباك منصوبة في مستنقع. وكان

البصيص يتراءى من خلال النوافذ المفتوحة، وفي الحدائق الصغيرة التي تحيط بها ذرةٌ مدّت رؤوسها حتى كادت تبلغ الغرف، فيما اطلت عرانيسها فوق السياج كنساء خرجن في ثياب الليل تحت وطأة الحر لتنسُّم الهواء المنعش. وكانت تلك الليلة المقمرة رائعةً حقاً، كالحب الرحيم او كهبة الرؤيا. وعلى حين غرة وقع في ذلك السكون الاسطوري المتلألىء صوتٌ منغّم اليف. كان الصوت دافئاً جميلاً طافحاً بالثقة. واذ اصاخ الطبيب السمع عرف صاحبه حالاً. إنه المفوض هنز يخاطب الجماهير في الساحة العامّة.

لقد طلب إليه المسؤولون على ما يبدو ان يدعمهم بنفوذه، فلبى طلبهم مؤنباً بحماس سكان ميلوزئيف على استرسالهم في الفوضى واستسلامهم لتأثير البولشفيك المفسد، المحرضين الحقيقيين في نظره على العصيان واضطراب حبل الامن في زيبوشينو. ثم اشار، بالروح نفسها التي بدرت منه في مكتب الحاكم، الى العدو الشرس الجبار، والساعة الحاسمة التي تمر فيها البلاد. اذاك شرع السامعون بمقاطعته في خطابه.

وتعالت اصوات الاحتجاج حيناً، وخيم الصمت حيناً آخر. ثم ازدادت المقاطعة عنفاً، فلم يتمالك رئيس الاجتماع، وقد جاء برفقة هنز، من ان يصرخ في الحضور مذكراً بأن الكلام من على غير المنبر ممنوع، ودعاهم الى النظام. الا ان بعض الحاضرين اصروا على السماح بالكلام لكل من يريد.

وكانت امرأة تشق طريقها بين الجمهور، وتحمل صندوقاً خشبياً ارادته منبراً لها. بيد انها لم تحاول ان تصعد عليه، بل اكتفت بالوقوف الى جانبه. كانت هذه المرأة، أوستينيا. وبدأت اوستينيا كلامها قائلة:

"تتحدث ايها الرفيق المفوض عن زيبوشينو... وعن النظام. امرتنا ان نكون نظاميين وألا نخدع. ولكنك انت، في الواقع، وقد سمعتك،

تتلاعب بلفظتي البولشفيك والمونشفيك. هذا كل ما تتحدث عنه: البولشفيك والمونشفيك.. ان وقف القتال وكوننا جميعاً اخوة هو ناموس إلهي لا منشفيكي، واعطاء المعامل والمناجم للفقراء ليس بلشفيكياً، بل هو شفقة انسانية. اما الأصم الأبكم فقد شبعنا من سماع الاحاديث عنه. كل يسهم في هذه الاحاديث. وماذا لديك ضده؟ ألأنه كان عياً طيلة ذلك الوقت ثم بدأ فجأة يتكلم دون ان يستأذنك؟ أيكون هذا امراً عجباً؟ هنالك حوادث اكثر غرابة، سمعنا انها وقعت. خذ مثلاً حمارة بلعام حين صاحت: "اصغ الي، بربك، لا تتخذ هذا الطريق، فانك تندم". وبالطبع لم يصغ اليها بلعام بل ذهب في الطريق التي اختارها لنفسه، قائلاً في نفسه كما تقول انت، انها حمارة صماء بكماء، فماذا يفيد الاصغاء اليها؟ وقد أنّبها على سلوكها، وكم ندم بعدئذ. كلكم تعرفون ما جرى له في النهاية.

"ماذا جرى له؟" سأل احد السامعين.

"هذا يكفي"، صاحت يوستينيا. اذا استرسلتم في توجيه الاسئلة، فانكم تشيخون قبل أوانكم.

وأصر السائل قائلا:

"كلا، اخبرينا."

"حسناً، حسناً، سأخبركم، ايها الثقلاء. لقد استحال عموداً من الملح."

وهنا تعالى صراخ الجماهير:

"هذا خطأ. زوجة لوط هي التي استحالت عموداً من الملح. زوجة لوط!"

وتضاحك الناس وعلت قهقهاتهم. فما كان من رئيس الاجتماع الا ان انهاه، ومضى الطبيب لينام.

٨

اجتمع بأنتيبوفا في اليوم التالي، فوجدها تطوي الثياب المغسولة وتكويها.

وكانت غرفة الغسيل والكيّ في الناحية الخلفية من الطابق الاعلى، المشرفة على الحديقة. هنالك كانت تُهيأ أباريق الشاي ويحضّر الطعام، وتجهز الصحون الوسخة اكواماً اكواماً لإرسالها الى المطبخ. وهنالك ايضاً كانت تحفظ قوائم بمحتويات المستشفى من صحون وملاعق وكؤوس ويضبط عددها؛ وقد كان ملتقى في اوقات الفراغ.

وكانت النوافذ مفتوحة، ورائحة الورد تنبعث في الغرفة ممتزجة، مثلها في كل حديقة قديمة، برائحة الحطب العتيق وبخار الفحم المتصاعد من المكواتين اللتين كانت تستعملهما انتيبوفا بالتناوب.

"لماذا لم تقرع بابي مساء البارحة؟ اخبرتني "الآنسة" بكل شيء. لكنك، خيراً فعلت. كنت في فراشي، ولم يكن في وسعي ان أفتح لك. كيف حالك؟ حذار الفحم، لئلا تتلوث بزتك."

"يبدو انك تهيئين الغسيل للمستشفى كله."

"كلا، كثير منه يخصني. الا ترى؟ إنك تثيرني دائماً بقولك انني لن استطيع مغادرة هذا المكان. انني جادة هذه المرة، وسأذهب. وها إنك تراني أجمع حوائجي واجهزها. وسأمضي حالما انتهي. سأكون في الأورال، بينما تكون انت في موسكو. وقد تُسأل فيما بعد: "هل اتفق لك ان عرفت بلداً تُسمى ميليوزئيف"؟ فتجيب: "لا أذكر."، وقد تُسأل: "ومن هي انتيبوفا؟" فتجيب: "لم اسمع بها."

"مستحيل. هل كانت رحلتك موفقة؟ كيف وجدت الريف؟"

"هذه قصة طويلة. ما أسرع ما تبرد هذه المكواة! ناولني المكواة الأخرى، من فضلك. هي هناك. وضع هذه في مكانها، أتريد؟ شكراً.

كل قرية تختلف عن سواها. هذا يتوقف على السكان. ففي بعض القرى تجد الناس مجدين يحبون العمل، وإذاً، فلا بأس. وفي البعض الآخر تجد الناس كلهم سكارى، فتسوء الحال؛ ويا له من مشهد!"

"سكارى؟ كلا ابداً. يا لك من فهيمة! لا رجل هناك، كلهم في الجيش. والمجالس، ماذا تمَّ بشأنها؟"

"انت مخطىء بصدد السكارى، فلا اوافقك. المجالس؟ ستخلق لنا كثيراً من المشاكل. لا يمكن تنفيذ التعليمات، فما من احد يستعان به. كل ما يهم الفلاحين، الآن، هو مسألة الارض. توقفت في رازدولنوي. يا لها من بلدة جميلة، ليتك تراها. التهم الحريق جنباً منها ونُهبت في الربيع. وانك لترى الزرائب وقد قضت النار عليها، والحدائق وقد تخربت، والمنازل وقد لوثها الدخان. اما زيبوشينو فلم استطع ان اراها. ولكن الجميع يؤكدون وجود الاصم الابكم، وهم يصفون منظره، ويقولون انه شاب، ومثقف.

"دافعت عنه يوستينيا مساء البارحة في خطابها في الساحة العامة."

"ما كدت اصل حتى وجدت كومة من الاثاث القديم المنقول من رازدولنوي، فرجوتهم مراراً وتكراراً ان يدعوه وشأنه. لدينا ما يكفي منه. وفي هذا الصباح، جاءني رسول من الحاكم يحمل رسالة يطلب الي فيها ان أعيره فناجين الشاي الفضية والكؤوس الزجاجية، لليلة واحدة. نصفها لن يعود. يأخذون الشيء ويسمونه اعارة. انهم يقيمون حفلة تكريمية لأحد الزائرين."

"اقدر ان احزر من هو. انه المفوض الجديد الذي وصل حديثاً، وقد عيّن في هذا القطاع من الجبهة. انهم ينوون القضاء على الفارين بتطويقهم وتجريدهم من السلاح. لايزال هذا المفوض شاباً، بل طفلاً شاكي السلاح. وتريد السلطات المحلية ان تستعين بالكوزاك، اما هو

فيرفض، عازماً على مخاطبة العصاة بصراحة وودّ. فالناس، كما يقول، كالأطفال وما الى ذلك من الكلام، وهو يعتقد ان الأمر لعبة. وقد حاول غاليولين مناقشته، فنصحه ان يترك الغاب جانباً، فلا يشير فيه الحيوانات المفترسة. قال له: "دعنا نعالج الامر بأنفسنا." ولكن ما الحيلة بفتىً كهذا اذا صمم على أمر؟ ليتك تصغين إليّ. توقفي عن الكي لحظة. سيحدث هنا عما قريب، ما لا تُحمد عقباه. وليس في وسعنا ان نتجنبه. ليتك تغادرين قبل ان يُقضى الأمر."

"لن يحدث شيء. انك تبالغ. انني ذاهبة، على كل حال. ولكنني لا استطيع ان اصدر اوامري واقول وداعاً. عليَّ ان اقدم ضبطاً بمحتويات المستشفى. فلست اريد ان يقال انني سرقت شيئاً وهربت به. ثم، من سيأخذ مكاني؟ هنا المشكلة. ليت في مقدوري ان اخبرك ما لاقيته من المشقة في ضبط هذه المحتويات، لسوء التصرف بها. وضعت حوائج السيدة جابرينسكي في قائمة محتويات المستشفى، وهذا هو مضمون القرار. والآن يقولون انني فعلت ذلك عن عمد ووضعتها في مأمن، لكي تبقى لصاحبتها. يا للدناءة!"

"كفاك قلقاً على الأواني والبُسط ـ فلتأخذها جهنم. أهذا ما يشغل البال في هذا الظرف الحرج؟ آه! ليتني رأيتك البارحة. كنت مرحاً، وكان في استطاعتي ان اخبرك بكل شيء. فأشرح لك كيف تسير الدنيا وأجيبك عن أي سؤال. انني جاد فيما اقول. فقد كنت بالفعل راغباً في الكشف عن كل ما في صدري. وكنت عازماً على ان اخبرك بكل شيء عن زوجتي وولدي ونفسي. فماذا يمنع ان يحدث رجل امرأة دون ان يُشك في نواياه؟ ألا قبح الله النوايا ـ الحسنة وغير الحسنة.

"ارجوك واصلي عملك، أحسني ترتيب الشراشف، ولا تلتفتي الي، سأستمر في الكلام؛ سأتكلم طويلاً.

"تأملي ما يجري حولنا، ونحن نعيش معاً هذه الأيام. هذا امرٌ لا

يحدث الا مرة في الدهر. تأملي، روسيا بأسرها ينهار سقفها، واناوانت وسوانا في العراء. وليس من يتجسس علينا. الحرية! الحرية الحقة، لا مجرد التلفظ بها، الحرية، الهابطة من السماء، الحرية التي فوق ما كنا نتوقع، الحرية الآتية مصادفة، الآتية عن غير قصد.

"ولكم يبدو كل شخص هائلا وفي تيه! ألم تلاحظي؟ كأنما قد سُحق بثقله، باكتشاف عظمته.

"واصلي عملك، اقول لك. لا تتكلمي. لستِ ضجرة. دعيني اغير لك المكواة.

"مساء البارحة كنت اراقب الاجتماع في الساحة. يا للمشهد الغريب! أمنا روسيا تتحرك، ولا تستطيع التوقف. انها قلقة وهي لا تستطيع ان تجد راحة. وهي تتكلم ولا تستطيع ان تصمت. ليس الناس وحدهم يتكلمون. النجوم والاشجار تتلاقى وتتحدث، والورود تتفلسف، في الليل، والمنازل الحجرية تتنادى الى الاجتماع. وهذا يحملك على تذكر الانجيل، أليس كذلك؟ ايام الرسل. أتذكرين بولس الرسول؟ تتكلمون بألسنةٍ كثيرة، وتتنبؤون. صلوا من اجل هبة الفهم."

"أعرف ما تعنيه باجتماع الاشجار والنجوم. أفهمه. خبرت ذلك بنفسي."

"صنعت بعضه الحرب، وصنعت الثورة بعضه الآخر. كانت الحرب توقّفا مصطنعاً في الحياة ـ كأنما الحياة يمكن إرجاؤها الى حين. يا للهراء! لقد انفجرت الثورة رغماً عنّا، كتنهدةٍ حُبست طويلاً. كل انسانٍ تجدد، وُلد من جديد، تغير، تحوّل. يمكن القولُ بأن كلّ انسانٍ قد عانى ثورتين: الثورة الشخصية الخاصة، والثورة العامة. فكأنما الاشتراكية هي البحر، وكلّ هذه الثورات الخاصة لا بدّ ان تصبّ فيه، كالجداول. إنه بحر الحياة، بحر العفوية. قلت الحياة، ولكنني أعني الحياة كما ترينها في صورة عظمى، تحوّلت بالعبقرية وغنيت بالابداع. الآن عزم الناسُ على أن

يخبروها، لا في الكتبِ والصور بل في أنفسهم، لا كتجريد، بل كفعل."

وكان اضطراب صوته المفاجيء يكشفُ عن حدّة انفعاله. وتوقفت أنتيبوفا عن العمل ورمته بنظرة خطيرةٍ تملؤها الدهشة. فبُهت ونسي ما كان يريد قوله. وبعد هنيهة من الصمت المرتبك اندفع يتكلم ويفرغ ما يجول في نفسه.

"أتوقُ، في هذه الأيام، الى العيش الشريف، الى ان أكون مثمراً، وكم اود ان أكون جزءاً من هذه اليقظة الشاملة. وها أنذا وسط هذا الفرح الذائع كله، أُفاجأ بنظرتك الكئيبة الغريبة، تشرد بعيداً، بعيداً، حيث لا يعلم غير الله. وكم أتمنى ان اكون هنالك! كم أتمنى ان ينطق وجهك بسعادة مصيرك، وباستغنائك عن كل إنسان. ليت من يلوذ بك، صديقك او زوجك - الأحرى به ان يكون جندياً - يأخذني بيدي ويسألني ان أقلع عن القلق على مصيرك، وعن مضايقتك بشدة اهتمامي. لكنني سأنزع يدي حرة، وأنطلق. آه، لقد نسيت نفسي. سامحيني."

وللمرة الثانية خان الطبيب صوته، فاستسلم. واذ احس بفرط ارتباكه، نهض الى النافذة، يتكيء عليها ويحدق،ووجهه بين يديه، في الحديقة المظلمة، بعينين تائهتين، زائغتين، محاولاً أن يمتلك رباطة جأشه.

ودارت انتيبوفا حول المكواة، باتجاه النافذة، ووقفت وراءه وسط الغرفة، "هذا ما كنت اخشاه، دائماً"، قالت بهدوء، كأنما تخاطب نفسها. "ما كان يجب أن... اياك يا يوري أندرييفيتش، لا تفعل. آه، انظر الآن ماذا جعلتني ان أفعل!" وصرخت، وسارعت الى المكواة، حيث كان يتصاعد دخان قميص يحترق.

ورفعت المكواة وتابعت قائلة: "كن عاقلاً. اذهب الى "الآنسة" لحظة، واشرب، يا صديقي، كأساً من الماء، وعُد اليّ كما عهدتك دائماً، وكما أريدك ان تكون. اتسمع، يا يوري اندرييفيتش؟ اعرف انك قادرٌ على ذلك. فهيّا، أتوسّل اليك."

وساد الصمت، وانقطع بينهما مثل هذا الحديث. وبعد اسبوعٍ سافرت لاريسًا فيودوروفنا.

٩

سافر جيفاكو، هو الآخر، الى بيته. وليلة سفره هبت عاصفة مريعة. وكان هدير الاعصار يختلط بانهمار المطر. وكان المطر يسقط احياناً على السطوح واحياناً على الشارع، وفقاً لهبوب الريح.

وتتابع هزيم الرعد باعثاً في الارجاء دوياً مستمراً. وفي لمعان البرق المتواصل، توارى الشارع في البعيد وبدت الاشجار المخيفة كأنها تركضُ في اثره. واستفاقت "الآنسة" فلوري في الليل على قرع البوابة. فهبت مذعورةً تصغي، واستمر قرع الباب. وتساءلت في نفسها، اخلا المستشفى من الناس، فلا يفتح الباب احد؟ اعليها دوماً أن تفعل كل شيء؟ لا لسبب الا لان الطبيعة خلقتها موضع ثقة ومنحتها الشعور بالواجب. فاذا كان المنزل يخصّ الاثرياء الارستوقراطيين، فالمستشفى ملك الشعب. فمن يا ترى يُعنى به، واين هم المرضون، والى اين ذهبوا؟ لقد هربوا جميعاً، فلا خدم، ولا ممرضات، ولا اطباء، ولا ادارة. ولا يزال المنزل يؤوي جرحى رجلين مقعدين في قاعة الجراحة، حيث كانت سابقاً، قاعة الاستقبال، وآخرين مصابين بالديزينطاريا، في الطابق الاسفل. ويوستينيا اللعينة، اين هي؟ كانت تعرف تماماً ان العاصفة ستهب، ولكن ذلك لم يحل دون ذهابها. والآن وجدت عذراً بقضاء ليلتها في الخارج.

حمداً لله، توقف قرع الباب. لعلّ القارعين ادركوا ان ليس من يجيب، فانصرفوا. من تُرى يخرج في مثل هذا الطقس... او لعلها اوستينيا؟ كلا، مفتاحها معها. يا إلهي، ما هذا! الباب يقرع من جديد.

تبّاً لهم من خنازير. كيف يُنتظر من جيفاكو ان يسمع الصوت، وهو سيرحل غداً، وقد سبقته افكاره الى موسكو، او الى الطريق. وغاليولين؟ انّى له ان يضطجع او ينام بهدوء وهو يسمع هذه الطرقات؟ ألعله يتوقع منها، وهي المرأة الضعيفة، العاجزة، أن تهبط الحديقة لتفتح لطارق لا يعرفه غير الله، في هذا الليل المخيف، في هذه البلدة المخيفة.

غاليولين؟ تذكرته فجأة. كلا. هذا الهرفُ لا يحدث لها الا وهي نصف نائمة. ليس غاليولين هناك؛ إنه بعيدٌ، الآن. أليست هي نفسها، بمساعدة جيفاكو، التي خبأته، وساعدته لكي يتنكر بلباس مدني، واخبرته بعد ذلك عن الطرق والقرى التي تساعده على الهرب، بعد حادثة الشنق الرهيبة في المحطة، عندما قُتل المفوض هنز، وطُورد غاليولين من بيوريتشي الى ميليوزئيف، واطلق عليه الرصاص، وفتشت المدينة كلها. غاليولين!

لولا تلك السيارات، لما بقي حجرٌ فوق حجر في البلدة. وصدف ان مرّت كتيبة مصفحة فدافعت عن السكان، واوقفت اولئك الاشرار.

كانت العاصفة تتلاشى وتنصرف، والرعد يقلّ تواصله ويخف صوته وهو ينأى ويبتعد. وتوقف المطر إلا بين الفينة والفينة، فكان يُسمع صوت سقوطه على الاوراق ومنها الى المجاري. وأنارت انعكاسات البرق الصامتة الآتية من بعيد غرفة "الآنسة" وكانت تتلكأ كأنما تبحث عن ضائع.

وفجأةً استؤنف القرع على البوابة، وكان قد توقف. فلعلّ الطارق شخص بحاجة الى معونة، وهو يقرع بإصرار، وفي حالة يأس. وهبّت العاصفة من جديد وانهمر المطر.

"آتية"، صاحت "الآنسة" بالطارق، كائناً من كان، فأرعبها صوتها.

وفي حين غرّةٍ خطر لها من لعله يكون. واذ أدلت قدميها من الفراش ووضعتهما في خفيها، ألقت الرداء حول كتفيها وسارعت

لايقاظ جيفاكو. فقد رأت ان نزوله معها يخفف من الذعر المسيطر عليها. ولكنه كان قد سمع القرع على البوابة، فنهض يهبط السلّم حاملاً قنديل الزيت. والفكرة التي خطرت "الآنسة" خطرت له ايضاً.

"جيفاكو، جيفاكو، انهم يقرعون البوابة، واخاف ان انزل لفتحها وحدي"، صاحت "الآنسة" بالفرنسية، ثم اضافت بالروسية: "سترى، انه إما لارا او الملازم كايول."

وحين استيقظ يوري اندرييفيتش على صوت القرع، شعر هو الآخر ان الطارق يجب ان يكون احداً من معارفه - إما غاليولين، وقد تعذر عليه الاستمرار في الهرب فعاد في طلب الملجأ، او الممرضة انتيبوفا، وقد مُنعت من مواصلة سفرها لسببٍ ما.

وفي البهو، اعطى الطبيب "الآنسة" القنديل ورفع المزلاج وادار المفتاح وفتحت هبة من الريح الباب على مصراعيه، فأطفأت القنديل وصبت عليهما وابلا من المطر.

"من الطارق؟ من الطارق؟ هل من أحدٍ هنا؟"

وتناوب الآنسة والطبيب الهتاف في الظلمة، ولا من جواب. وفجأة بدأ القرع من جديد في مكان آخر - أكان القرع على الباب الخلفي، كما ظنّا الآن، ام على النافذة المطلة على الحديقة؟

"انها الريح" قال الطبيب. "فلنتأكدْ: اذهبي انت الى الباب الخلفي، ولأبقَ انا هنا، فلربما كان بالفعل احدا!"

وغابت الآنسة في المنزل، بينما خرج الطبيب ووقف تحت سقف المدخل. وكانت عيناه قد ألفتا الظلمة، فصار في وسعه ان يتبين اولى تباشير الفجر.

وكانت الغمائم، فوق المدينة، تسرع بجنون كأنها مطارَدة. وكانت من الوطوء بحيث كادت تلصق برؤوس الاشجار التي انحنت الى جهة واحدة فبدت كأنها مكانس تكنّس الفضاء. وكان المطر يجلد جدران المنزل

الخشبية، فتحولها من الرمادي الى الاسود.

وعادت الآنسة. "ما وراءك؟" سألها الطبيب.

"الحق معك. لا أحد هناك". وكانت قد دارت حول المنزل وتفحصته جيداً، فوجدت ان أحد جذوع الشجر كان يطرق الشباك فحطم أحد مصراعيه، وان هناك في ارض الغرفة بركة ماء وطين، وان مثيلها يملأ أرض الغرفة التي كانت تقطنها لارا ـ حتى لكأنها بحر، حقيقي، بل اوقيانوس. "وفي هذه الجهة، انظرْ، هنالك مصراع مكسور يقرع اطار الشباك، ألا تراه؟ هذا كل ما في الامر."

وتحدثا فيما بينهما قليلاً، واقفلا البوابة، ثم عاد كل منهما الى غرفته وكلاهما يحسبان ان ما جرى لم يكن سوى وهم وخيال.

لقد كانا في مثل اليقين انهما حين يفتحان البوابة ستدخل انتيبوفا، وهي ترتجف من البرد، فيسألانها عشرات الاسئلة، فيما هي تخلع معطفها، ثم تذهب لتغيير ثيابها ثم تعود لتجفيفها على الموقد في المطبخ، وهو لايزال دافئاً منذ يوم امس، تسرد على مسامعهما مغامراتها، وهي تدفع خصلات شعرها الى الوراء وتسترسل في الضحك.

كانا في مثل اليقين بأن ذلك كذلك، حتى انهما بعد ان اقفلا الباب، اخذا يتصوران بأنها خارج المنزل في شكل عامود ماء. وظلت صورتها جاثمة في مخيلتهما.

١٠

قيل ان عامل التلغراف في بيريوشي، كوليا فرولنكا، هو المسؤول عن الاضطراب في المحطة.

وكان كوليا، وهو ابن ساعاتي معروف في ميليوزئيفو،شخصاً

معروفاً في تلك البلدة منذ طفولته. ففي صغره، اقام مع بعض الخدم في رازدولنوي، وكـان يلعب مع كـريمات الكونتس. وهناك تعلم بعض الفرنسية. وكانت المدموازيل فلوري تعرفه جيداً.

وكان الناس جميعاً يرونه راكباً على دراجته، وهو بلا سترة او قبعة، وينتعل حذاء صيفياً مهما اختلفت الفصول. وكان يضم ذراعيه على صدره ويقود دراجته في الطريق، وهو يتطلع الى العواميد والاسلاك متفحصاً حالها.

وكانت بعض المنازل في ميليوزئيفو، تتصل بالمحطة بخط فرعي. وكان كوليا يتلقى جميع المخابرات في مركز المحطة. ولا تسل عن انهماكه في العمل. فلم يكن التلفون والتلغراف وحدهما في عهدته، بل الاشارات التي كانت تعطى للقطارات ايضاً، وذلك حين يتغيّب بوفارخين، مدير السير في المحطة.

واذ كان عليه ان يتولى تسيير عدد من الآلات الميكانيكية في وقت معاً، فقد ابتدع اسلوباً خاصاً للكلام، يتصف بالغموض والايجاز والصعوبة. وقد مكنه هذا الاسلوب، اذا شاء، ان يتجنب الرد على الاسئلة او الدخول في محادثة. وقد قيل انه اساء استعمال هذا الامتياز الذي اعطي له، يوم وقوع الاضطرابات.

فما لا ريب فيه انه، باخفائه المعلومات، أضرّ بنوايا غاليولين الحسنة، بل لعله غيّر مجرى الحوادث الى اسوأ.

ذلك ان غاليولين تلفنَ من المدينة يستدعي هنز، وقد كان في مكان ما من المحطة او جوارها، ليخبره بأنه كان في طريقه اليه ويطلب منه ان ينتظره وألاّ يأتي بحركة الى ان يصل. ولكن كوليا، وقد ادعى انه كان منهمكاً في اصدار الاشارات لقطار يقترب من المحطة، رفض ان يدعو الكوميسار. وفي الوقت نفسه، بذل جهده لتأخير وصول القطار الذي كان يقلّ فرقة الكوزاك التي استدعيت الى بيريوشي.

وحينما وصلت الفرقة، لم يخفِ، مع ذلك، حنقه.

فالقطار، وقد زحف ببطء تحتَ سقف رصيف المحطة القاتم، توقف أمام شباك غرفة العمليات الكبير. فما كان من كوليا الا ان اسدل الستارة الخضراء المكتوب على طرفها الاحرف الأولى لاسم الشركة باللون الاصفر، وتناول جرة الماء الكبيرة الموضوعة على طبق فوق حافة الشباك، وصبّ منها بعض الماء على الزجاج الكثيف المستقيم الجوانب، وشرب بضع جرعات، ثم تطلع الى الخارج.

وأبصره سائق القطار من قاطرته فحياه بمودّة.

"يا له من لعين، خبيث!" فكر كوليا في نفسه بحقد. ثم اخرج لسانه وهز قبضة يده. ولم يفهم السائق ما عناه كوليا وحسب، بل انه استطاع ان ينقل اليه باشارة من كتفيه وايماءة نحو القطار قوله: "ماذا كنت استطيع ان افعل؟ أريد ان اعرف ماذاً كنت تفعل انت لو كنت في مكاني. هو الآمر هنا!" "يا لك من حيوان قذر، رغم هذا كله"، اجابه كوليا بالاشارة.

وأنزلت الخيل من قاطرات الشحن، وهي تتعثر. وتبع دوي حوافرها على الممر الخشبي، رنين حدواتها على الرصيف الحجري. ثم اقتيدت، متخلفةً، عبر السكة.

وكان في مؤخرة السكة صفان من القاطرات الخشبية، وقد غسل المطر دهانها، كما أكل الدود والرطوبة داخلها، حتى عادت الآن الى قرابتها الاصلية مع أخشاب الغاب الذي بدأ على مقربة من تلك القاطرات، بأشواكه، وحشائشه، والسحب الجاثمة فوقه.

وما أن صدر الامر، حتى امتطى القوزاك صهوات جيادهم وهرعوا الى الفلاة.

وسرعان ما احاطوا بعصاة الفرقة ,٢١٢ وحيث ان الفرسان يبدون في الغابات أطول منهم في السهول وأشد بأساً، فقد دبوا الذعر في

العصاة المشاة، على الرغم مما في حوزتهم من بنادق. وشهر القوزاك سيوفهم متهيئين للنزال.

وكانت بعض الاخشاب مكومة داخل نطاق الحلقة التي ضربها القوزاك. فما كان من هنز الا ان اعتلاها وراح يخاطب العصاة المحاصرين.

ذكرهم، كالعادة، بالواجب العسكري، وبالوطن، وبما الى ذلك من المثل العليا. على ان ذلك لم يترك أثراً في السامعين. فقد كانوا كثراً. وقد لاقوا الاهوال وذاقوا الامرّين في الحرب، واخشوشنت جلودهم واضناهم التعب. وكانوا قد شبعوا حتى التخمة من العبارات التي كان يرددها هنز. فأربعة اشهر من تودّد احزاب اليمين واحزاب اليسار اليهم، قد افسد هؤلاء الرجال السذّج. زدْ على ذلك نفورهم من اسم الخطيب الاجنبي ولهجته البلطيقية.

وشعر هنز ان خطابه كان طويلا فغضب من نفسه، ولكنه اعتقد ان عليه ان يوضح افكاره للسامعين الذين، عوض ان يقابلوه بالشكر وعرفان الجميل، قابلوه باللامبالاة والضجر والعداء. واذ اخذ صبره ينفد، عزم على مخاطبتهم بحزم وعنف، معلناً التهديديات التي احتفظ بها الى حين الحاجة. ثم واصل كلامه، غير حافلٍ بأصوات الاستنكار المتصاعدة، فذكّر العصاة بقيام المحاكم الثورية ودعاهم، تحت عاقبة الموت، الى إلقاء السلاح وتسليم قادتهم. فاذا ما عصوا، برهنوا عن انهم خونة عاديون، وانهم غوغاء حمقى. وكان هؤلاء الرجال قد فقدوا عادة مخاطبتهم بمثل تلك اللهجة.

وتعالت بينهم مئات الاصوات. وكان بعضها منخفضاً، يكاد يخلو من الغرض: "حسناً، حسناً. إنزل. كفاك!" على ان سائر الاصوات الملأى بالغضب والهياج سادت الموقف:

"يا له من وقح! انه يعيدنا الى الايام الماضية. هؤلاء الضباط لا

يزالون يعاملوننا كأننا أقذار. نحن خونة، أهذا ما تقول؟ ومن تكون انت، يا صاحب الفخامة؟ ما لنا وله! لابد انه الماني، جاسوس، ارنا اوراقك، يا صاحب الدم الازرق. ما بالكم متكتفين، يا حملة السلام." ثم التفتوا الى القوزاك قائلين: "جئتم لاعادة الامن والسلام. فتعالوا. قيّدونا. تلهوا."

ولكن القوزاك لم يرق لهم، كذلك، خطاب هنز السيء الطالع. فتمتموا فيما بينهم: "كلهم خنازير في نظره. يحسب نفسه السيد والمولى!" ثم بدؤوا يغمدون سيوفهم شيئاً فشيئاً، ويترجلون. وحين ترجّل معظمهم، تراكضوا بغير انتظام نحو العصاة يصافحونهم.

"عليك ان تختفي بسرعة" اشار ضباط القوزاك على هنز محذرين: "عربتك في المحطة. سنرسل في طلبها لملاقاتك. أسرعْ!"

وانصرف هنز. ولكنه شعر بان انصرافه خفية يحط من كرامته، فسار علناً نحو المحطة. وكان شديد الاضطراب، ولكنه حمل نفسه، بدافع الكبرياء، على السير بخطوات هادئة متباطئة.

وحين اقترب من المحطة، وصار عند طرف الغابة، على مرمى نظر من السكة، التفت وراءه للمرة الاولى فرأى بعض الجنود يقتفون أثره وهم يحملون بنادقهم. "ماذا تراهم يريدون؟" تساءل في نفسه. وأسرع في سيره.

وهكذا فعل مطاردوه ايضاً. فظلت المسافة الفاصلة بينهما على حالها. وأبصر هنز جدار القاطرات المزدوج، فاختبأ وراءها وراح يركض. وكان القطار الذي اقل القوزاك قد أُزيح من مكانه فخلت الخطوط. فعبرها راكضاً وقفز الى الرصيف. وفي تلك الاثناء كان الجنود قد خرجوا راكضين من وراء القاطرات. وراح بوفاريخين وكوليا يناديانه ويومئان اليه بدخول بناية المحطة، حيث يصبح بامكانهم انقاذه.

ولكن الشعور بالشرف الذي تربى عليه منذ اجيال، وهو من النوع

الذي يتربى عليه المرء في المدينة، والذي حمله على التضحية بنفسه وكان في غير محله هنا، قد حال بينه وبين السلامة. واخذ قلبه يخفق بشدة، فبذل اقصى جهده للاحتفاظ برباطة جأشه. وقال لنفسه: "يجب ان اناديهم: عودوا الى صوابكم، ايها الرجال! فأنتم تعرفون جيداً انني لست جاسوساً. فكلمة رقيقة كهذه، لابد من ان تعيد اليهم صوابهم.

وكان في الأشهر الاخيرة ان اصبح شعوره نحو مغامرة جريئةٍ او خطابٍ صادر عن اعماق القلب يقترن، دون وعي منه، بالمسارح، والمنابر، أو حتى بالكراسي التي في الوسع اعتلاؤها لتوجيه نداء حار الى الجماهير.

وصدف ان كان هنالك، على مدخل المحطة، تحت الجرس، سطل ماء للاستعمال في حالة الحريق. وكان السطل محكم الغطاء. فما كان من هنز الا ان قفز على الغطاء وخاطب الجنود المقتربين نحوه بكلام مفكك ولكنه أخّاذ. وقد ادهش الجنود صوته الطبيعي وجرأة اشاراته الجنونية، وهو على بعد خطوتين من الباب الذي كان في امكانه دخوله الى السلامة، فوقفوا في مكانهم واخفضوا بنادقهم.

على ان هنز، وقد كان واقفاً على طرف الغطاء، دفعه بغتة الى الداخل. فسقطت احدى ساقيه في الماء،بينما تعلقت الاخرى فوق طرف الغطاء.

واذا رآه الجنود هكذا، انفجروا ضاحكين. ثم رماه احدهم برصاصة في رقبته. ولم يكد الآخرون يتقدمون لاغماد حراب بنادقهم في جسده، حتى كان قد اسلم الروح.

١١

تلفنت الآنسة لكوليا طالبة اليه ان يهيء للدكتور جيفاكو مقعداً

مريحاً في القطار المسافر الى موسكو، والا فضحته.

وكان كوليا، كالعادة، منهمكاً بمخابرة اخرى، وفي الوقت نفسه، بنقل برقية رمزية على جهاز ثالث. وقد دلل على ذلك حديثه المشحون بالكسور العشرية.

"بسكوف، بسكوف، أتسمعين؟ أي عُصاة؟ أي مساعدة؟ ماذا تقولين يا مدموازيل؟ اتركي السماعة، ارجوك. بسكوف، بسكوف، ست وثلاثون نقطة صفر واحدة خمسة. ويحهم قطعوا المخابرة. هلو... هلو... لا اقدر ان اسمع. اهذا انت ايضاً يا مدموازيل؟ قلت لك لا اقدر. كلفي بوفاريخين. كله كذب، وهم. ست وثلاثون... أوْه، ويحهم... زيحي عن هذا الخط يا آنسة."

وكانت الآنسة تصيح:

"لا ترمِ رماداً في عيني. بسكوف، بسكوف، يا كذاب؛ لا ينطلي هذا عليَّ... ستحجز مكاناً للدكتور غداً، ولا اريد ان اسمع كلمة اخرى من مجرم ذميم مثلك."

١٢

كان يوم رحيل يوري اندرييفيتش حاراً، والافق ينذر بعاصفة كتلك التي هبت منذ يومين. وعلى مقربة من المحطة، في ضواحي المدينة، الممتلئة بقشور بذور الكتان، بدت اكواخ الطين وقطعان الجيش بيضاء مرتعبة تحت سكون تهديد الفضاء القاتم.

وكان العشب فوق الحقل الواسع امام المحطة، وقد امتدّ على الجانبين، يُداس ويُغطى بأقدام الجموع الغفْيرة التي وقفت هناك، لأسابيع، تنتظر قدوم القطار.

وكان الشيوخ، بمعاطفهم الصوفية الرمادية الخشنة، يطوفون في حرّ

الشمس بين الجمع، متسقطين الاخبار والشائعات. وكان الصبية، وهم مستلقون على اكواعهم، كالرعاة، يلوون ويبرمون سيقان النبات العارية، فيما طفق اخوتهم واخواتهم الصغار يروحون ويجيئون بقمصانهم المتطايرة وسراويلهم الزهر. وكانت امهاتهم، وقد تمددت سيقانهن امامهن، يجلسن على الارض حاملات اطفالهن تحت صداري معاطفهن الفلاّحية السمراء.

"تفرقوا جميعاً كقطعان الغنم، حالما بدأ اطلاق النار. لم يرق لهم ذلك." قال مدير المحطة ببرودة للطبيب، فيما هما يسيران وسط صفوف الجثث المستلقية على الارض عند مدخل المحطة، او على البلاط في داخلها. ثم اضاف قائلاً: "وفي طرفة عين، لم يبق فوق العشب احد. فاصبح في وسعك ان ترى الارض مرة ثانية؛ وقد مرت علينا شهور دون ان نراها، بفضل مخيمات الغجر، حتى نسينا لونها. هذا هو المكان حيث كان ملقى. يا للغرابة! لقد شهدت جميع انواع الفظائع في هذه الحرب، حتى لتحسب انني تعودت. ولكنني لم اتمالك من الشعور بالحزن. لعلها بلاهة العمل وعدم جدواه. فماذا فعله ضدهم؟ ولكنهم ليسوا بشراً. يقولون انه كان الابن الحبيب. والآن الى اليمين، اذا سمحت، هناك مكتبي. لا سبيل الى ركوبك القطار، فانهم يسحقونك. سأحجز لك مكاناً في القطار المحلي. نحن نعدّه الآه. فحذار ان تبوح بهذا الامر قبل ان تكون قد تهيأت لركوبه، والا حطموه قبل ان نعدّه. عليك ان تبدّل به قطاراً آخر في سوخينيتشي الليلة."

١٣

حين تراجع القطار "السري" الى المحطة من وراء المستودعات، تدفقت اليه الجماهير. ومرّ الناس على منحدرات التلال كالأكر،

فاحتشدوا على الرصيف، وراحوا يتدافعون ويقفزون على درجات القطار، او يتعلقون بالجوانب ويدخلون النوافذ، او يتسلقون السطح. وفي لحظة، غصّ القطار وهو بعد لم يقف. حتى اذا ما وقف، لم يكن مزدحماً فحسب، بل كان الناس قد تعلقوا به من كل صوب. وبأعجوبة، تمكن الطبيب من صعود احدى درجات القطار، ومنها الى الداخل.

وهناك ظل جالساً على حقائبه، حتى بلغ القطار محطة سوخينيتشي.

وكان الفضاء العاصف قد صفا. وفي الحقول الحارة، المشمسة، تصاعدت اصوات الجنادب فأخفتت دمدمة القطار.

وحجب المسافرون الواقفون ازاء النوافذ، النور عن الآخرين. وارتمت ظلالهم المرقطة عبر المقاعد والأرض، بل لقد تجاوزتها حقاً الى ابعد من غرف القطار، فرافقت ظل القطار السائر نفسه.

وكان الناس يهتفون وينشدون ويتشاجرون ويلعبون الورق. وأنى توقف القطار، كان ضجيج الجماهير المحاصرة خارجاً يزيد في تلك الضوضاء. وكان دوي الاصوات يصمّ الآذان، كعاصفة في البحر، ثم لا يلبث، كما في البحر، ان يخلد الى السكينة. وفي هذه السكينة التي لا يمكن تفسيرها، كان يُسمع وقع الاقدام الراكضة على الرصيف، والصراخ والمشاحنات خارج عربة الشحن، وكلمات متقطعة تخرج من افواه الناس، ونداءات الوداع قادمة من بعيد، وصياح الدجاج الخافت وحفيف الشجر في حديقة المحطة.

إذاك، كبرقية وردت الى القطار، او كتحيات من ميليوزئيف موجهة الى يوري اندرييفيتش، دخلت النوافذ رائحة أليفة. لقد جاءت من مكانٍ ما الى جانب واحد، من مكان اعلى من الحديقة او ازهار الحقول البرية، ففرضت طيبها الذكي على كل شيء آخر.

ولم يكن باستطاعة الطبيب ان يرى الاشجار، وقد حجبها المسافرون

المحتشدون ازاء النوافذ. ولكنه تصورها في مكانٍ ما على مقربة من القطار، تطاول اغصانها الثقيلة بهدوء سطوح العربات، واوراقها، وقد غطاها غبار القطارات العابرة، وهي كثيفة كالليل، تعمر بملايين الازاهير الصغيرة المتلألئة.

هذا ما كان يحدث عند كل توقف طول الرحلة. فقد كانت هنالك جماهير تعج وتضج في كل محطة. وفي كل مكان، كانت الأشجار في عزّ ازدهارها.

وكأنما كانت تلك الرائحة العاطرة تسبق القطار في مسيره شمالاً، كأنها شائعة ما قد بلغت حتى اصغر محطة، فوجدها المسافرون بانتظارهم دائماً عند الوصول، وقد سمعها واثبت حقيقتها كل انسان.

١٤

في سوخينيتشي، تلك الليلة، قاد الطبيبَ احدُ عتالة المحطة، حفاظاً منه على روح الخدمة التي سادت قبل الحرب، عبر الخطوط الحديدية المظلمة الى الوراء حيث كان قد وصل قطار خاص، واجلسه منه في مقعد بعربة من الدرجة الثانية.

ولم يكد العتال يفتح العربة بمفتاح قاطع التذاكر ويضع حقائب الطبيب فيها، حتى جاء قاطع التذاكر وعمد الى طرحها خارجاً. ولكن يوري اندرييفيتش استطاع ان يطيب خاطره، فانسحب وتوارى دون أن يترك أي اثر.

وكان القطار محاطاً بالغموض ومسرعاً في السير. فلم يتوقف في المحطات الا قليلاً وكان يتمتع ببعض الحراسة، وعرباته تقريباً.

وكانت عربة جيفاكو مضاءة بقنديل وضع على طاولة صغيرة، وقد اخذت شعلته تتراقص على النسمات التي كانت تهب من النافذة المغلقة

الا نصفها.

وكان القنديل يخص المسافر الوحيد في العربة، وهو شاب اشقر الشعر، يدل حجم ذراعيه وساقيه على انه طويل القامة جداً. وبدت اعضاء جسمه كأنها متصلة اتصالاً رخواً عند المفاصل. وكان يقبع بغير اكتراث في زاوية مقعده بازاء النافذة. ولكنه نهض حين دخل جيفاكو العربة، وتأدب في جلسته.

وكان شيء ما، كالقماش الذي تغطى به الارض، يقبع تحت مقعده. ولم يلبث جانب منه ان تحرّك فخرج حيوان ذو اذنين مسطحين، راح يشمّ يوري اندرييفيتش ويركض عبر العربة، باسطاً مخالبه بمثل الارتخاء الذي وضع سيده فيه ساقاً على ساق. وسرعان ما هرع الى مكانه، نزولاً عند امر سيده، وعاد الى الظهور كأنه غطاء للأرض.

عندئذ، وعندئذ فقط، لحظ اندري اندرييفيتش البندقية في صندوقها، وحزام الخرطوش الجلدي، وجعبة الصيد المليئة بالطرائد، والمعلقة على حائط العربة.

كان الشاب في رحلة صيد.

وكان مهذاراً؛ اذ سرعان ما دخل، وهو يبتسم بلطف، بحديث مع الطبيب، محدّقاً - عند النظر اليه - في فمه.

وكان له صوت مزعج، وكان كلامه يشكو أيضاً، رغم روسيته الواضحة، من غرابةفي التلفظ بحرف U، اذ كان يلفظها كالـ U بالفرنسية. ولكي يتلفظ بهذا الحرف، كان عليه ان يبذل جهداً جباراً؛ ثم انه كان يخرجها بنبرة أعلى من سواها، ويرفقها كل مرة بشيء من الصفير. وكان احياناً، كأنما بعد جهد، يتوفق الى اصلاح هذا العيب، ثم لا يلبث ان يعاوده.

"ما هذا؟" قال جيفاكو في نفسه: "انا متأكد انني قرأت عنه. وعليّ كطبيب ان اعرف ما هو، ولكنني لا استطيع ان اتذكر. أنه علة في

الدماغ تسبب مثل هذا العيب في النطق". وقد اثارته نبرة الصوت الى حدّ كاد ينفجر عنده من الضحك. "الافضل ان آوي الى فراشي"، خاطب جيفاكو نفسه.

وتسلق الرفّ، وكان يُستعمل للمبيت. واظهر الشاب استعداده لاطفاء القنديل اذا كان الضوء يمنعه عن الرقاد. فوافق الطبيب شاكراً. وغرقت الغرفة في العتمة.

وسأل الطبيب جاره قائلاً: "اتريدني ان اغلق النافذة؟ ألا تخاف من اللصوص؟"

ولم يتلق جواباً. وكرر سؤاله بصوت اعلى، ولكن ما من جواب.

واضاء عود ثقاب ليرى اذا كان الشاب قد غادر الغرفة. فأن يكون قد أغفى في هذه الفترة الوجيزة، لأمر بدا وقوعه اقل احتمالاً.

لكنه كان هناك، جالساً في مكانه وعيناه مفتوحتان. فابتسم للطبيب، وهو ينحني فوقه من مبيته.

وانطفأ عود الثقاب، فاشعل يوري اندرييفيتش عوداً آخر. واذ انيرت الغرفة، كرر سؤاله للمرة الثالثة:

"إفعل كما يحلو لك"، اجابه الشاب في الحال. ليس لدي ما يطمع فيه اللص. ولكن لعله من الافضل ان نترك النافذة مفتوحة. فالغرفة بحاجة الى تهوية."

"يا له من شخص عجيب!" فكر جيفاكو في نفسه. "إنه ذو طبع شاذ، على ما يظهر. لا يتكلم في العتمة. ويلفظ الآن كل شيء بوضوح، دونما وأوأة. هذا امر لا استطيع ان افهمه."

١٥

كان الدكتور جيفاكو تعباً، منهوك القوى من جراء احداث الاسبوع

الاخير، وتهيئة اسباب السفر، والنهوض مبكراً، فتوقع ان يغفو حالما يستلقي على فراشه. غير انه كان مخطئاً. فتعبه قد سبب له الأرق. ولم يسيطر عليه النوم حتى بزوغ الفجر.

وراحت افكاره تعجّ وتضج في العتمة. ولكنها وقعت جميعها في فئتين تميزتا اوضح التمييز، او قل، الى خيطين رئيسيين اخذا في التشابك والانحلال.

الفئة الاولى دارت حول تونيا، والبيت، وحياتهما الماضية الآمنة المطمئنة، حيث كان لكل شيء، حتى ادق التفاصيل، روعة شعرية، كما كان مشبعاً بالمحبة والإلفة. وكان الطبيب حريصاً على هذه الحياة؛ فقد ارادها ان تكون آمنة، سليمة، غير مجزأة. وكان، وهو في هذا القطار الليلي، يتوق بفارغ الصبر للعودة اليها بعد عامين من الفراق.

وفي هذه الفئة، كان هنالك ولاؤه للثورة واعجابه بها. وهي الثورة بمعناها الذي رحبت به الطبقات الوسطى وفهمه الطلاب، اتباع بلوك، عام ١٩٠٥.

ويشمل هذا المعنى التوقعات والوعود بقيام نظام جديد ذر قرنه في الأفق قبل الحرب، بين عامي ١٩١٢ و١٩١٤، وتجلى في الفكر الروسي، والفن الروسي، والحياة الروسية، ومتّ بصلة وثيقة الى روسيا عموماً ومستقبله هو بنوع خاص.

انه من الخير العودة الى ذلك المناخ، عقب انتهاء الحرب، فيشهد تجدده واستمراره، كما كان من الخير ان يكون الآن في طريقه الى البيت.

أما الفئة الثانية لأفكاره، فلم تفتقر الى اشياء جديدة، ولكنها كانت تختلف عما تضمنته الفئة الاولى! تلك الاشياء الجديدة لم تكن مألوفة، لم تنبثق عن الاشياء القديمة، بل انما كانت مفروضة، اقتضاها الواقع المحتم، ونزلت بغتةً كالصاعقة.

من هذه الاشياء الجديدة، كانت الحرب بفظائعها وقتلاها،

بوحشيتها وتشريدها الناس، بآلامها والحكمة العملية التي لقنتها. ومنها أيضاً، كانت تلك القرى المنعزلة التي جرفتك اليها الحرب، واولئك الناس الذين التقيتهم. ومنها كانت الثورة أيضاً ـ لا ثورة المفكرين المثالية عام ١٩٠٥، بل هذا الانقلاب الجديد، ثورة اليوم، المنبثقة عن الحرب، الدامية، الخالية من الرأفة، البدائية، ثورة الجنود التي يقودها اولئك الثوار المحترفون ـ البلشفيك.

وبين الافكار الجديدة أيضاً، كانت الممرضة انتيبوفا، التي قذفتها الحرب الى حيث لا يعلم الا الله، والتي لا يعرف عن ماضيها شيئاً. لم تكن تلوم أحداً، ولكن مجرد سلوكها كان دلالة على الشكوى. لقد كانت متحفظة بغموض، وقوية في هذا التحفظ. وكان بين الافكار الجديدة ايضاً سعيه المخلص الى تجنب الوقوع في حبها، وهو سعي لم يكن يقل جديةً عن سعيه، طول حياته حتى الآن، الى محبة كل انسان، ليس عائلته واصدقاؤه وحسب، بل كل انسان آخر.

واسرع القطار في سيره. وأخذ هواء النافذة المفتوحة يبعثر شعر يوري اندرييفيتش ويملؤه غباراً. وعند كل محطة، في الليل كما في النهار، كانت حشود المسافرين تنقض على القطار، والاشجار تصعّد حفيفها.

وكان يوري اندرييفيتش، في تلك اللحظات، يشعر بانه فهم ما الذي جعل هذه الاشباح الليلية تصعّد حفيفها وتضع رؤوسها جنباً الى جنب، وهي تحرك بكسل اوراقه المثقلة بالنعاس، كالألسنة العيية اللاثغة. انه الشيء ذاته الذي يفكر به، وهو يتقلب في فراشه: نذائر حلقات دائمة الاتساع من الاضطراب والهياج في روسيا، نذائر الثورة، وساعتها العسيرة الحاسمة وعظمتها الاخيرة المحتملة.

١٦

لم يستيقظ الطبيب حتى بعد الحادية عشرة. "ايها الأمير"، كان جاره يناديه برفق على نباح الكلب. وشدّ ما كانت دهشة يوري اندرييفيتش، حين ادرك ان الغرفة مازالت فارغة الا منهما؛ فلم تطأها قدم مسافر آخر.

وكانت اسماء المحطات معروفة عنده منذ الطفولة. لقد اجتاز القطار اقليم كالوكا وكان الآن يقترب من موسكو.

وغسل الطبيب وجهه وحلق ذقنه، في مثل التنعم الذي عُرف قبل الحرب، ثم عاد الى الغرفة وقد حان وقت الفطور. فدعاه رفيقه الى مشاركته في تناوله. اذاك تسنى له ان يبصره بوضوح.

لقد ادهشه اكثر ما يكون، اضطرابه وكثرة كلامه. ولم يكن همّه من كلامه ان يوصل افكاره الى محدثه او ان يبادله الرأي، وانما كان همه منه مجرد الكلام، فينطق بالألفاظ ويخرج الاصوات. وفيما هو يتكلم، كان لا ينفك ينطّ في مجلسه كأنه على "رفّاص"، ويضحك بلا سبب ضحكاً يصم الآذان، وهو يفرك بيديه مغتبطاً راضياً. وكأنما ذلك كله لم يكن كافياً للتعبير عن سروره، فكان يعمد الى صفع ركبتيه بعنف، مقهقهاً الى حدّ الدمعان.

وكان لحديثه الخصائص ذاتها التي اتصف بها في الليلة الفائتة. فقد كان عديم الترابط على نحو غريب، فتارة يسهب في الكشف طواعية عن مكنونات صدره واسرار حياته، وطوراً يتجنب الرد على أبسط الاسئلة واشدها براءة. ثم انه افاض في سرد الوقائع عن نفسه، فكانت في منتهى الغرابة، خالية من اللحمة. ولعله كان يكذب قليلاً؛ على انه لم يقصد، كما بدا، الى التأثير على سامعه بمغالاته هذه او برفضه الاراء السائرة المتفق عليها جميعاً.

وقد ذكّر هذا كله جيفاكو بشيء ألفه منذ امدٍ بعيد. فآراء كهذه دعا اليها الفنائيون في القرن الماضي، وفيما بعد، بعض ابطال روايات دوستويفسكي، وفي الحقبة الأخيرة، الذين تحدروا منهم، من الطبقات المتعلمة في الاقاليم، اولئك الذين غالباً ما تقدموا عواصم البلاد لحرصهم على عادة التعمق الى جذور الاشياء، وهي عادة أصبح سكان العواصم يعتبرونها بالية، عفا عليها الزمن.

لقد اخبره الشاب بأنه كان ابن أخي ثائرمعروف، وبأن والديه كانا رجعيين عنيدين في رجعيتهما؛ وبأنهما كانا يملكان أراضي واسعة في مكانٍ ما قرب الجبهة، حيث نشأ هو وترعرع. وكان أبواه على خصام دائم مع عمه، الا ان العم لم يحمل لهما أي حقد، وهو الآن يستعمل نفوذه ليخفف عنهما كثيراً من المشقة والعناء.

وكانت آراء الشاب كآراء عمه. فهو متطرف في كل شيء، سواء في الحياة والسياسة والفن. وهذا ما ذكّر الطبيب أيضاً ببيوتر فرخوفنسكي (أحد أبطال رواية دوستويفسكي "المأخوذ")، لا من حيث النزعة اليسارية، بقدر ما من حيث الخفة والسطحية. "سيقول لي انه من اتباع النزعة المستقبلية بعد قليل"، فكّر يوري اندرييفيتش في نفسه. وبالفعل فقد دار الحديث حول الفن. "والآن سيجيء دور الرياضة، وسباق الخيل، والتزحلق على الجليد، والمصارعة على الطريقة الفرنسية". واخيراً تناول الكلام موضوع الصيد.

كان الشاب يصطاد في المنطقة التي ولد فيها. وكان، كما ادّعى، صياداً ماهراً. ولولا العاهة التي شكا منها، والتي حالت بينه وبين الجندية، لكان قد برّز بمهارته في الرمي. واذ التقى نظره بنظرة جيفاكو المتسائلة، صاح: "ما هذا؟ ألم تلاحظ شيئاً؟ ظننت انك حزرت ما بي من عيب."

واخرج من جيبه بطاقتين وناولهما يوري اندرييفيتش. كانت الاولى

تحمل اسمه، فاذا هو مزدوج: مكسيم اريستارخوفيتش كلينتسوف - بوكوريفشيخ - او بوكوريفشيخ فقط، كما طلب من جيفاكو ان يدعوه، على شرف عمه الذي كان يحمل اسمه.

اما البطاقة الثانية فكانت تحمل جدولاً بمربعات يحتوي كل منها رسم يدين متشابكتين واصابع مطبقة بطريقة عكسية. فقد كانت احرفاً ابجدية للصم البكم. وفي الحال، صار كل شيء واضحاً. لقد كان بوكوريفشيخ طالباً موهوباً، إما في مدرسة هارتمان او في مدرسة اوستروغرادوف. فاستطاع، وهو الأصم الابكم، ان يتوصل الى سهولة فائقة في النطق وفي فهم الكلام بمراقبة عضلات حلقوم معلمه.

واذ جمع الطبيب شتات المعلومات التي ادلى اليه بها محدثه، عن الاقليم الذي جاء منه وعن رحلته الصيدية، قال:

"سامحني، اذا كان سؤالي فضولياً؛ يمكن ألاّ تجيب: هل لك أي علاقة بإنشاء جمهورية زيبوشينو؟"

"كيف حزرت... هل تعرف بلايجيكو؟ هل كان لي علاقة بها؟ بالطبع. وانفجر بوكوريفشيخ ضاحكاً، وهو يترنح من جانب الى آخر، ويصفع ركبتيه بحماس. ثم انطلق مرة ثانية في حديث طويل غريب.

فقال ان بلايجيكو قد اتاح الفرصة، وزيبوشينو المكان، لتطبيق نظرياته. وقد لاقى يوري اندرييفيتش صعوبة في تتبع عرض هذه النظريات. ذلك انها كانت مزيجاً من المبادىء الفوضوية وحكايات الصيادين.

وبهدوء عجيب كهدوء العرافة، راح يتنبأ بوقوع قلاقل واضطرابات في القريب العاجل. وكان يوري اندرييفيتش موافقاً في سرّه على ان هذا ليس مستحيلاً، الا ان النبرة الهادئة الواثقة التي اعرب بها هذا الفتى المزعج عن تنبؤاته قد أثارت غيظه.

"اسمح لي لحظة"، قال يوري اندرييفيتش متردداً "صحيح، كل هذا

قـد يحـدث. ولكن بالنظر الى كل مـا يجـري الآن ـ الفـوضى، الانحـلال، ضـغط العـدو ـ فليس هذا هو الوقت، على مـا يبـدو لي، للبـدء باجـراء تجارب خطرة. فالبـلاد يجب ان تخرج سليـمة من قلقلة قبل ان تُزَجَّ في اخـرى. علينا ان ننتظر حـتى يعـود على الأقل، بعض السـلام والأمن والنظام الى ربوعها."

فقال بوكوريفشيخ:

"هذه سذاجة. فما تدعوه "قلقلة واضطراباً" ليس هو في الواقع سوى حال طبيـعـيـة كتلك التي انت حريص عليهـا. فرغم كل هذا التخريب ـ وهي مرحلة طبيعية أولية لخطة انشائية واسعة ـ فان المجتمع لم يصل بعد الى حالة الانحلال الكافي. يجب أن ينهار تماماً وتتناثر أجزاؤه، وعندئذٍ تعمد حكومة ثورية حقيقية الى جمع الاجزاء واقامة البناء على اسس جديدة كل الجدة."

وشعر يوري اندرييفيتش بانزعاج. فخرج الى المشى.

وكان القطار يزداد سرعةً ويقترب من موسكو. فراح يخترق الغابات المنقّطة بالمنازل الصيفية. ومرّ في الضواحي بمحطات صغيرة مكشوفة، وهي تغص بجماهير الذاهبين في عطلة، فاجتازها بسرعة خاطفة وتركها وراءه في سحائب الغبار التي اثارها، حتى بدت كأنها تدور كدولاب عربات التسلية في المهرجانات. وكان القطار يزعق تكراراً، وصوته يملأ الغابات المحيطة ويرجع صداه الطويل الفارغ من مكانٍ بعيد.

ودفعةً واحدة، ادرك يوري اندرييفيتش لأول مرة في الايام القليلة الماضية، بوضوح تام، اين كان، وماذا كان يجري له، وماذا ينتظره في ساعة او بعض الساعة.

ثلاث سنوات من التغيرات، والحركات، والشكوك، والقلاقل؛ الحرب، الثورة، مشاهد الخراب، مشاهد الموت، القذف بالمدافع، نسف الجسور، النيران، الانقاض ـ كل هذا استحال فجأة الى حيز هائل، فارغ،

خالٍ من المعنى. فالحدث الأول الحقيقي منذ هذا الانقطاع الطويل هو هذه الرحلة في القطار السريع، وانه يقترب من بيته الذي لايزال سليما، ولايزال قائماً، والذي يعشق كل حجر فيه. هذه هي الحياة الحقيقية، التجربة المليئة بالمعنى، الغاية الفعلية لكل نشدان، وهذا ما يرمي اليه الفن ـ الرجوع، عودة المرء الى عائلته، الى نفسه، الى الوجود الحق.

واجتاز القطار الغابات، وخرج الى العراء. ونهض سهل منحدر من الفجوة الى مرتفع واسع، علته خطوط افقية من مطامير البطاطا السوداء؛ ووراءها، على رؤوس المرتفعات، جثمت هياكل منازل باردة. وأمام الحقل، خلف ذيل القطار الملتوي، كانت غيمة حمراء قاتمة تحجب السماء الا نصفها. وكانت اشعة الشمس تخترقها، فتنتشر كمحاور الدواليب وتنعكس بزجاج المنازل في بريق يخطف البصر.

وفجأةً سقط من الغيمة مطر حار، ثقيل، وأخذ يلمع في نور الشمس. وانهمر الرذاذ بسرعة، فاقترن صوته بضجيج القطار، كأنما خشي المطر ان يتركه القطار خلفه فراح يحاول ان يلحق به.

ولم يكد الطبيب يلاحظ ذلك، حتى تراءت كنيسة المسيح المخلص فوق سفح الرابية، ولم يلبث ان ظهرت قباب منازل المدينة ومداخنها، وسطوحها.

"موسكو"، صاح الطبيب.ثم قفل عائداً الى غرفته. "حان وقت التهيُّؤ لمغادرة القطار."

ونهض بوكوريفشيخ، فتناول جعبة الصيد وأخرج منها بطة. "خذها" قال. "هديةً مني... قلما قضيت يوماً في رفقة طيبة كهذه."

وعبثاً حاول جيفاكو ان يرد الهدية. واخيراً قال: "لا بأس. سآخذها هديةً منك لزوجتي."

"عال، عال، لزوجتك"، طفق بوكوريفشيخ يردد مغتبطاً، كأنما سمع هذه العبارة للمرة الأولى. ثم اخذ يضحك ويهز عطفيه الى حد لم يتمالك

الامير عنده من القفز خارجاً والاخذ بنصيبه من الابتهاج.

وتوقف القطار امام المحطة. وغرقت العربة في العتمة. وناول الاصم الابكم جيفاكو البطة، مصرورة بمزقة من أحد المناشير.

الفصل السادس

التجمع في موسكو

١

خيل الى جيفاكو، وهو في القطار، ان القطار وحده يتحرك والزمان واقف، فالوقت لم يتجاوز الظهر بعد.

ولكن الشمس كانت قد انخفضت عندما شقت عربة الاجرة طريقها اخيراً وسط الجموع المحتشدة في ساحة سمولنسكي.

وفي السنوات التالية عندما اخذ الدكتور يتذكر هذا اليوم خُيّل اليه - دون ان يدري اذا كان هذا هو الانطباع الاصيل او انه تبدل بالاختبارات التالية - ان الجموع لم تنزل الى السوق الا بعامل العادة فقط، وانه ليس لها أي مبرر لتكون هناك. فالحوانيت الفارغة قد اغلقت، حتى دون ان يوضع عليها أي قفل. وليس هناك شيء يباع او يشرى في الساحة المملوءة بالاقذار والتي لم يعد احد يكنسها.

وخيل اليه انه رأى حتى في ذلك اليوم تأنيباً صامتاً للشيوخ من الرجال والنساء النحيفين الذين كانوا يرتدون ثياباً متواضعة وينكمشون الى جانب الحيطان، يعرضون للبيع دون كلام اشياء لا يشتريها احد ولا يحتاج اليها احد - ازهار اصطناعية، اباريق قهوة مستديرة واغطية زجاجية وصفارات، ثياب سهرة سوداء من التول، بزات لوظائف ألغيت.

وكان الذين هم من سوية أخفض يتاجرون بأشياء أكثر فائدةً - قشرة الخبز الاسود المقنن العتيق، حفنات من السكر الرطب الوسخ، ربطات تزن اوقية من التبغ الرخيص قطعت مع الغلاف من منتصفها.

جميع انواع البقايا والفضلات كانت تباع في السوق كله، فيرتفع سعرها كلما انتقلت من يد الى اخرى.

وانعطفت العربة الى احدى الطرقات الضيقة المتفرعة من الساحة. وكانت الشمس الغاربة خلفهم تدفىء ظهورهم. وأمامهم يخبّ حصان هرم جاراً عربة فارغة متقلقلة تثير اعمدة من الغبار تلمع كالبرونز في اشعة الشمس الوطيئة. واخيراً تجاوزوا العربة التي سدت طريقهم وراحوا يسيرون بسرعة اكثر. ودهش الدكتور من كومات الصحف القديمة والبطاقات التي تراكمت قرب الجدران لتزيد في قذارة الارصفة والشوارع. الهواء يدفعها في اتجاه، والاقدام والعجلات في اتجاه آخر.

ومروا في عدة مفترقات، واخيراً ظهر بيت الدكتور على احدى الزوايا فتوقفت العربة.

وأخذ يوري اندرييفيتش نفساً عميقاً ودق قلبه بعنف وهو يخرج من العربة ثم يسير الى الباب الخارجي ويقرع الجرس. ولم يحدث شيء. وقرع مرة ثانية. ولما لم يكن جواب راح يقرع في فترات متقاربة قلقة. وكان لايزال يقرع الجرس عندما شاهد انطوانيت الكنسندروفنا تفتح الباب وتقف وهي لا تزال ممسكة به. واذهلتهما المفاجأة حتى ان أحداً منهما لم يسمع صرخة الآخر. ولكن الباب الذي ما انفكّت تونيا تفتحه واسعاً كان بذاته استقبالاً وحتى عناقاً، وسرعان ما استعادا وعيهما وارتمى الواحد منهما في ذراعي الآخر. وبعد دقيقةكانا يتكلمان معاً فيقاطع أحدهما الآخر.

"قبل كل شيء، هل الجميع بخير؟"

"نعم، نعم، لا تقلق. كل شيء بخير. لقد كتبت لك مجموعة من السخافات عديمة المعنى، اعذرني. ولكننا سوف نتحدث عنها فيما بعد. لماذا لم ترسل برقية؟ ماركل سوف يدخل اغراضك. اظن انك تساءلت لماذا لم تستقبلك ايفوروفنا! انها في الريف."

"انك انحف، ولكن كم تبدين فتية، وجميلة جداً! انتظري دقيقة لادفع للسائق."

"ذهبت ايفوروفنا لتحصل على بعض الطحين. اما الخدم الآخرون فصرفوا. عندنا فتاة واحدة الآن تدعى اليوشا، انت لا تعرفها، وهي تهتم بساشنكا. ليس هناك احد غيرها. علم الجميع انك قادم وهم يتمنون ان يروك. غوردون، دودوروف والجميع."

"كيف حال ساشنكا؟"

"جيدة ولله الحمد. افاق الآن من نومه. ولو لم تكن متسخاً من القطار لذهبنا فوراً اليه."

"هل الوالد في البيت؟"

"ألم يكتب لك احد؟ انه في مجلس المدينة من الصباح حتى الليل، انه الرئيس. اجل، هل تتصور ذلك! هل دفعت للسائق؟ ماركل! ماركل!"

وكانا واقفين في وسط الطريق والحقائب تعرقل السير والذين يمرون بجانبهما ينظرون اليهما من الرأس حتى القدمين ثم يحدقون في العربة التي اندفعت من المنعطف وفي الباب المشرع ليروا ماذا سوف يحدث بعد ذلك.

ولكن ماركل كان قد هرع من البوابة ليستقبل السيد الشاب، ورداؤه فوق قميصه القطني وقبعة البوابين في يده، يصرخ وهو يركض:

"يا قوى السماء، انه يوروشكا! انه صقرنا الصغير بنفسه! يوري اندرييفيتش، يا نور عيوننا، انك لم تنسنا ولم تنسَ صلواتنا، لقد عدت الى بيتك!" وصرخ في الفضوليين: "وماذا تريدون؟ اذهبوا من هنا. ما الذي تحدقون به؟"

"كيف انت يا ماركل؟ دعني اعانقك. ضع قبعتك على رأسك ايها الشاذ. ماذا عندك من جديد؟ كيف حال امرأتك؟ كيف البنات؟"

"كيف يمكن ان يكنَّ؟ انهن يكبرن والحمد لله. اما الأخبار فيمكنك

ان ترى بنفسك. حين كنت انت في الجبهة لم نكن نحن هنا دون عمل. انه لاضطراب فظيع ذلك الذي حدث، اختلاط لم يكن بوسع الشيطان ان يحله. الطرقات لم تنظف، السطوح لم تُصلح، البيوت لم تدهن، والامعاء فارغة كما في ايام الصيام. هذا هو السلام الحقيقي، لا الحاق ولا تعويضات، على ما يقولون."

"سوف اخبره عنك يا ماركل. انه دائماً هكذا، يا يوروشكا. لا يمكنني احتمال هذا الجنون. فهو يتحدث بمثل هذا الكلام لأنه يفكر انك ترغب فيه، ولكنه رجل خبيث. جيد، جيد، لا تناقشني يا ماركل، انا اعرفك. انك شخص عميق يا ماركل. انك حساس. وعلى كل حال انك تعرف أي نوع من البشر نحن."

وساروا الى الداخل، وحمل ماركل امتعة الدكتور الى البيت واغلق الباب الخارجي خلفه وراح يقول هامساً:

"انطونينا الكسندروفنا تخالف. لقد سمعتُ ما قالت. انها دائماً هكذا. فهي تقول: انت اسود في داخل نفسك يا ماركل مثل مدخنة الموقد. وتقول: في هذه الايام كل طفل صغير،بل ربما كل كلب صغير، يعرف معنى كل شيء. وطبعاً هذا صحيح، ولكن على كل حال، صدق يا يوروشكا او لا تصدق ان الذين يعرفون قد رأوا الكتاب، نبوءات ماسون، التي بقيت مئة واربعين سنة مدفونة تحت صخرة، والآن فان رأيي المعتبر، يا يوروشكا، هو انهم باعونا عبر النهر، باعونا بأغنية. ولكن هل يمكنني ان اقول كلمة؟ حذارِ، حذارِ، فأنطونينا الكسندروفنا تشير الي، انها تريدني ان اذهب."

"هل تستغرب؟ كفى يا ماركل، ضع الامتعة. هذا كل شيء، شكراً. واذا اراد يوري اندرييفيتش شيئاً فهو يدعوك."

٢

واخيراً تخلصنا منه! حسناً، حسناً، يمكنك ان تستمع اليه اذا اردت ولكن يمكنني ان اخبرك انها خدعة. اذا تحدثت اليه ظننته مخبول القرية وان السمن لا يذوب في فمه، ولكنه يشحذ سكينه سراً - وحتى الآن لم يقرر على من سوف يستعملها، هذا الرجل الخلاب."

"أليس هذا مبالغاً فيه قليلاً؟ اظن انه سكران، هذا كل شيء."

"ومتى يكون صاحياً، اريد ان اعرف. وعلى كل حال فاني قد ضجرت منه. ان ما يقلقني هو ان ساشا قد ينام قبل ان تراه. ولو لم يكن الامر متعلقاً بالتيفوس في القطارات... هل عليك أي قملة؟"

"لا اظن ذلك. فقد سافرت براحة، تماماً مثل ما قبل الحرب. ومع ذلك افضل ان اغتسل بسرعة، ثم استحم كلياً بعد ذلك. أي طريق تسلكين؟ ألم نعد نذهب من غرفة الاستقبال؟"

"اوه" انك بالطبع لا تعرف. لقد فكرنا ثم قررنا ان نعطي كلية الزراعة قسماً من الطابق الارضي. وعلى كل حال انه اوسع من ان يدفأ في الشتاء. وحتى الطابق العلوي اكبر مما يلزم. وهكذا قدمناه لهم. انهم لم يتسلموه بعد ولكنهم نقلوا اليه مكتباتهم ومجموعات النباتات ونماذج البذور. وآمل ألاّ تأتينا الفئران - انها حبوب على أي حال. ولكنهم حتى الآن لا يزالون يحتفظون بالغرف الجديدة. وقبل ان انسى، اننا لم نعد نقول "غرفاً" بل هي تدعى الآن "امكنة العيش". تعال من هذه الطريق. هل انت بطيء في الاعتياد عليها؟ اننا سوف نذهب من السلم الخفي. فهمت؟ اتبعني لأريك."

"سررت جداً لأنكم تخليتم عن هذه الغرف. والمستشفى الذي كنت فيه كان بيتاً خاصاً ايضاً. سلسلة لا تنتهي من الغرف، وهنا وهناك ارض الغرف لا تزال متروكة. والنخيل المزروع في جرار الفخار يرسل

أذرعه كالاشباح فوق الاسرّة ـ وبعض الجرحى من ساحة المعركة كانوا يفيقون صائحين، انهم لم يكونوا اصحاء بالطبع ـ صدمة القنابل ـ فاضطررنا لازالة الشجيرات. وما أردت أن اقوله هو إنه كان هناك فعلاً شيء فاسد في الطريقة التي عاش الاغنياء بها. كثير من الاشياء غير المفيدة، كثير من الاثاث، كثير من الغرف، كثير من الترف العاطفي، كثير من الكئابات. انا مسرور جداً لاننا نستعمل غرفاً اقل، وعلينا ان نتخلى عن غرف اكثر."

"ما هذه الرزمة التي تحملها؟ هناك شيء بارز يخرج منها كأنه منقار طائر. انها بطة! شيء جميل! بطة برية! من اين اتيت بها؟ اكاد لا اصدق عيني. انها تساوي ثروة في هذه الايام."

"شخص اهداها الي في القطار. سوف اخبرك فيما بعد، انها قصة طويلة. ماذا علي ان افعل؟ هل اتركها في المطبخ؟"

"اجل بالتأكيد، سوف ارسل نيوت فوراً لتنتف ريشها وتنظفها. يقال ان كل انواع الفظائع سوف تحدث هذا الشتاء، المجاعة، البرد."

"نعم هذا ما يقولونه في كل مكان. لقد نظرت خارجاً من نافذة القطار ـ وفكرت ماذا يفوق في العالم كله الحياة العائلية الهانئة والعمل. اما الباقي فليس في ايدينا. كل شيء يبدو كما لو ان أياماً صعبة ستنزل بعدد من الناس. وسيحاول بعضهم ان يرحل. انهم يتكلمون عن الذهاب جنوباً الى القوقاس، او حتى الى ابعد. انا لن افعل هذا. الرجل الناضج يجب ان يعاني مصير وطنه. هذا اكيد بالنسبة لي. اما بالنسبة لك انت فالأمر مختلف. اتمنى لو انك لم تجربيها ابداً. اريد ان ارسلك بعيداً الى مكان امين، الى فنلندا مثلاً. ولكن اذا ظللنا نثرثر نصف ساعة على كل درجة فاننا لن نصعد السلم ابداً."

"انتظر دقيقة. فاتني ان اخبرك. لدي اخبار لك ـ واي اخبار! رجع نيكولاي نيكولايفيتش."

"ماذا، نيكولاي نيكولايفيتش؟"

"الخال كوليا."

"تونيا، غير ممكن، هل هذا صحيح؟"

"صحيح. كان في سويسرا. جاء عن طريق لندن وفنلندا."

"تونيا! انك لا تمزحين؟ هل رأيته انت؟ اين هو؟ هل يمكننا رؤيته الآن، فوراً؟"

"لا تكن قليل الصبر هكذا. انه مع احدهم في الريف. وعد بأن يعود بعد غد. لقد تغير كثيراً. سوف يصدمك ذلك. توقف في بطرسبورج واصبح بلشفياً. ابي تعب وهو يناقشه. ولكن لماذا تتوقف عند كل درجة. لنصعد. وانت ايضاً سمعت ان امامنا وقتاً صعباً... حرمان، اخطار، كل شيء ممكن الوقوع."

"أظن كذلك انا أيضاً، حسناً وماذا به؟ يمكننا ان ندبر الامر، لا يمكن ان تكون هذه نهاية كل شيء. سوف ننتظر ونرى، مثل سائر الناس."

"يقولون انه لن يبقى حطب للوقود ولا ماء ولا نور، وانهم سيلغون العملة. لن تأتي مواد غذائية. ها قد عدنا فتوقفنا! تعال.. اصغ الي، يقولون ان مدافىء حديدية ممتازة تباع في "ارباط". مدافىء صغيرة. يمكنك ان تحرق جرائد فيها وتطهو وجبة طعام. العنوان عندي وعلينا ان نشتري واحدة قبل ان تنفد كلها."

"هذا صحيح. سوف نشتري واحدة. فكرة جيدة. ولكن فكري فيه، الخال كوليا! لا يمكنني نسيان ذلك."

"دعني اخبرك ما سوف افعل. سوف نفرز جناحاً في الطابق العلوي، لنقل غرفتين او ثلاث غرف، بعضها متصل ببعض،ونحتفظ بها لانفسنا وللوالد ولساشنكا ونيوشا، ثم نتخلى عن باقي البيت. سنضع حاجزاً ويكون لنا بابنا الخاص فتصبح بيتاً مستقلاً. سوف نضع احدى هذه

المدافىء الحديدية في الغرفة الوسطى مع مدخنة تخرج من النافذة ثم نغسل ونطبخ ونتسامر في هذه الغرفة الوحيدة، وبذلك نوفر اكبر كمية من الوقود. ومن يدري، لعلنا، بعون الله، يمكننا ان نخرج من هذا الشتاء."

"سوف نخرج منه بالتأكيد. ليس هناك أي شك في ذلك. انها فكرة جميلة. هل تعرفين ماذا ايضاً؟ سوف ندشن البيت ونطبخ البطة وندعو الخال كوليا."

"جميل جداً. وسأطلب من غوردون ان يجلب بعض المشروب.يمكنه ان يحصل عليه من احد المختبرات. والآن انظر، هذه هي الغرفة التي كنت افكر فيها. جيدة؟ ضع حقيبتك واجلب سلتك. ويمكننا ان ندعو دودوروف وسوار شليزنفر الى حفلة التدشين ايضاً. هل يزعجك ذلك؟ انك لم تنسَ مكان المغسلة؟ رش نفسك ببعض المطهرات، بينما اذهب انا الى ساشنكا وارسل نيوشا. وعندما نصبح جاهزين ادعوك."

٣

وكان طفله الصغير اهم شيء عنده في موسكو. فهو قد استدعي للخدمة العسكرية فور ولادة ساشنكا. فلم يتسنَّ له ان يتعرّف اليه الا قليلا.

كان ذلك يوم كانت تونيا لا تزال في المستشفى، وقد ذهب ليراها. وكان قد لبس البزة العسكرية واصبح على وشك ان يغادر موسكو. ووصل في وقت ارضاع الطفل، فلم يسمح له بالدخول.

وجلس في غرفة الانتظار. ومن غرفة الاطفال، في نهاية الممر، خلف قاعة الامهات، وصلت اليه جوقة اصوات حادة ارسلها عشرة او اثنا عشر طفلا. واندفع عدد من الممرضات في الممر مسرعات لكي لا يأخذ

الاطفال برداً، وكن يحملن هؤلاء الاطفال الى امهاتهم وقد لفوا بالاربطة مثل رزم البضائع، كل واحد تحت ذراع.

"وع، وع،" وراح الاطفال يصرخون على وتيرة واحدة دون توقف، دون شعور، كما لو كان هذا هو عمل النهار. صوت واحد فقط تميز بين الآخرين. كان يصرخ ايضاً "وع، وع،" ولم يكن يعبر عن الم اكثر من الآخرين ولكنه كان اعمق، وبدا كأنه كان يصرخ، لا كمن يقوم بعمل، بل بتحدٍّ واعٍ حزين.

وكان يوري اندرييفيتش قد صمم ان يسمي ابنه الكسندر تكريماً لحميه. وتصور لسبب ما ان الصوت الذي تميزه كان صوت ابنه، ولعل ذلك لأن هذا الصراخ الخاص، له طابعه؛ فبدا كما لو كان يستبق الشخصية المقبلة لكائن انساني خاص، لمصيره نبرة فريدة تتضمن اسم الطفل، الكسندر. هكذا تصور يوري اندرييفيتش.

ولم يكن مخطئاً، وظهر فيما بعد ان هذا الصوت هو صوت ساشنكا بالفعل. فكان هذا اول شيء عرفه عن ابنه.

اما الشيء الثاني فالصور الفوتوغرافية التي ارسلتها له تونيا الى الجبهة. وكانت تظهر طفلاً ضاحكاً جميلاً ممتلئاً، له فم مثل قوس كوبيد. وكان يقف على شرشف وقد انعطفت ركبتاه الى الامام وامتدت يده الى الاعلى كما لو كان يرقص رقصة ريفية. وكان عمر ساشنكا سنة واحدة في ذلك الوقت وهو يحاول ان يخطو خطواته الأولى. اما الآن فهو في الثامنة وابتدأ يتكلم.

وحمل يوري اندرييفيتش حقيبة ثيابه ووضعها على الطاولة قرب النافذة وابتدأ يخرج حوائجه. وتساءل عما كانت تستعمل لها هذه الغرفة سابقاً. فهو لم يتعرف عليها. لعل تونيا قد ابدلت الاثاث او ورق الجدران او اعادت تزيينها بشكل جديد.

واخذ عدة الحلاقة. واطل بدر لامع من بين اعمدة برج الكنيسة

مقابل النافذة تماماً. وعندما اضاء الطبقة العليا من الثياب والكتب في الحقيبة، تغير نور الغرفة وادرك اين هو.

انه في مخزن انا ايفانوفنا حيث كانت قد اعتادت ان تضع الكراسي والطاولات المكسورة، والاوراق القديمة. هنا كانت تجمع محفوظات العائلة، وفي الصيف بقايا ثياب الشتاء. وفي اثناء حياتها كانت الزوايا مملوءةً حتى السقف بالاشياء العتيقة، ولم يكن يسمح للاطفال بالدخول الى هذه الغرفة. وفي اعياد الميلاد والفصح فقط، عندما كانت تأتي جموع كبيرة من الاطفال لحضور الحفلات وتباح لهم كل غرف الطابق العلوي، كانت هذه الغرفة تفتح فيلعبون فيها لعبة اللصوص، ويختبئون تحت الطاولات، ويسودون وجوههم بواسطة الفلّين.

ووقف الدكتور يتأمل كل هذا ثم نزل السلم الخلفي ليأخذ سلته الكبيرة من البهو.

وفي المطبخ جلست نيوشا القرفصاء تنتف ريش البطة على قصاصة جريدة. وعندما دخل حاملاً سلته قفزت بحركة رشيقة خجولة، واحمر وجهها ونفضت الريش عن ازارها وبعد ان هنأته باحترام عرضت عليه ان تساعده. وشكرها قائلاً ان بامكانه تدبير الامر ثم صعد. ودعته زوجته من على بعد غرفتين قائلة: "يمكنك ان تأتي الآن يا يورا."

وذهب الى الغرفة التي كانت غرفة درسه ودرس تونيا. ولم يكن الطفل في سريره جميلاً بقدر ما كان في الرسم، ولكنه كان صورة طبق الاصل عن ام يوري اندريفيتش، ماري نيكولايفنا جيفاكو، فهو يشبهها اكثر من أي رسم من رسومها.

وقالت انطونينا الكسندروفنا: "هذا هو ابوك، مد يدك كصبي مهذب." ثم ازاحت ستارة السرير لتتيح للوالد ان يقبل ابنه ويحمله.

وسمح ساشنكا، رغم انه خاف ونفر، للغريب الذي لم يحلق ذقنه ان يضمه ويحنو عليه، ثم انتفض واقفاً وامسك بمقدم ثوب امه بيد، ثم

سحب اليد الثانية وصفعه على وجهه. واذهلته جرأته فرمى نفسه بين ذراعي امه واجهش ببكاء مرّ أليم.

وانبته تونيا قائلة: "لا، لا، ما كان يجب ان تفعل ذلك يا ساشنكا. ماذا سيفكر أبوك؟ سوف يفكر ان ساشا ولد شرير. والآن اره كيف يمكنك ان تقبّل، قبّل اباك. لا تبكِ، حسناً."

وقال الطبيب: "دعيه يا تونيا، لا تزعجيه، ولا تقلقي نفسك. اني اعرف نوع السخافات الذي تفكرين فيه ـ انه ليس عرضا، انه دليل سيء ـ ولكنه هراء. انه امر طبيعي. الطفل لم يرني من قبل. غداً سوف ينظر الي نظرة افضل ونصبح صديقين لا يفترقان."

ومع ذلك فقد خرج من الغرفة كئيباً ينهكه شعور بشرّ مقبل.

٤

وفي الايام القليلة التالية ادرك كم هو وحيد. ولم ينحَ باللوم على احد. فقد حصل تماماً على ما طلب.

الاصدقاء خبت نفوسهم واصبحت دون لون. ولم يحفظ أي واحد منهم نظرته الخاصة او عالمه الخاص. لقد كانوا اشد حيوية في ذاكرته. لعله افرط في تقديره لهم في الماضي. لقد كان من السهل، في ظل النظام القديم الذي كان يتيح لهؤلاء الذين أُمنت حياتهم ان يظهروا بمظهر الشواذ والمخابيل على حساب الآخرين في حين كانت الاكثرية تعاني حياة مرهقة، وان يخطىء الواحد في ادراك الخبل والعطالة في اقلية ذات امتيازات، فيأخذها على انها خلق اصيل. ولكن في الفترة التي هبت فيها الطبقات الدنيا، والغيت امتيازات اولئك الذين كانوا في القمة، بُهت هؤلاء الناس بسرعة فرفضوا دون ندم الافكار الخاصة ـ ويظهر انه لم يكن هناك احد له مثل هذه الافكار.

والناس الوحيدون الذين يحس الآن يوري اندرييفيتش انه قريب منهم هم زوجته وابوها واثنان او ثلاثة من زملائه، والعمال العاديون الذين لا يتبادلون الكلمات الرنانة.

وتمت الحفلة بالبطة والفودكا حسب المخطط الموضوع بعد ايام قليلة من عودته. وحتى ذلك الوقت كان قد رأى كل الذين حضروها فلم يكن العشاء في الواقع مناسبة لاجتماعهم.

وكانت البطة السمينة ترفاً لم يسمع بمثله في ايام المجاعة تلك، ولكن لم يكن هناك خبز معها، وبسبب ذلك كانت فخامتها دون طعم تقريباً - حتى ان هذا اثار الاعصاب.

اما الشراب (وهو عملة مفضلة في السوق السوداء) فقد جلبه غوردون في زجاجة دواء ذات سدادة زجاجية. ولم تترك انطونينا الكسندروفنا الزجاجة بل كانت من وقت الى آخر، تمدد كمية من الشراب بكمية اخرى، قليلة او كثيرة من الماء حسب الهامها. واكتشفوا انه من الاسهل حفظ عدد من الاشربة القوية اكثر من تلك ذات القوة المتغيرة. وهذا كان يزعج ايضاً.

ولكن اسوأ شيء هو ان حفلتهم هذه كانت نوعاً من الخيانة. فانت لا تتصور شخصاً واحداً في بيوت الشارع كله يأكل او يشرب بالشكل نفسه وفي هذا الوقت. فخلف الشبابيك امتدت موسكو الصامتة المظلمة الجائعة. مخازنها فارغة، اما اللحوم والفودكا فقد نسي الناس ان يفكروا بمثل هذه الاشياء.

وهكذا ظهر ان الحياة المشابهة لحياة الذين يحيطون بنا والتي تندمج فيها دون تموج هي وحدها الحياة الاصيلة، وان سعادة لا يشاركنا فيها احد ليست سعادة، وان البطة والفودكا عندما تبدوان انهما فريدتان في المدينة ليستا بطة ولا فودكا. وكان هذا اشد الاشياء ايلاماً.

واوحى المدعوون ايضاً بتأملات غير سارة. فغوردون كان بخير يوم

كان يسترسل في الافكار الكئيبة وعبر عن ذلك بكآبة وفظاظة. لقد كان افضل اصدقاء جيفاكو وكثير من الناس احبوه وهو في المدرسة الثانوية.

ولكنه الآن صمم ان يعطي نفسه شخصية جديدة. فكانت نتائج جهوده بائسة. ان يمثل دور الشاب الطروب، المرح فيرسل النكات وغالباً ما يعجب قائلاً: "مضحك حقاً!" او "امرسار!" تلك الاصطلاحات التي لا يعرفها قاموسه، لأنه لم يكن ينظر الى الحياة ابداً على انها تسلية.

وعندما كانوا ينتظرون دودوروف اخبرهم قصة زواج دودوروف التي ظن أنها مضحكة والتي كان يتناقلها اصدقاؤه. ولم يكن يوري اندرييفيتش قد سمعها بعد.

فقد ظهر ان دودوروف تزوج لمدة عام ثم طلق زوجته. وتتألف النقطة الهامة غير المرتقبة في الموضوع مما يلي:

استدعي دودوروف خطأً الى الجندية. وفيما هو يقوم بخدمته وقضيته تحت الدرس، كان يعاقب باستمرار لاهماله سهواً تحية الضباط في الشارع. وبقي مدة طويلة بعد تسريحه يرفع يده دون انتباه عندما يرى ضابطاً من بعيد، كما انه كان يتخيل شارات حيث لا تكون.

وفي هذه الفترة الاخيرة كان سلوكه شاذاً بطرق اخرى ايضاً. وتقول الشائعة، انه بينما كان ينتظر على احدى النقاط باخرة في احد مرافىء الفولغاتون تعرّف على فتاتين، شقيقتين، كانتا تنتظران ايضاً الباخرة نفسها. ولاضطرابه من وجود عدد كبير من الجنود ومن ذكريات مغامراته السيئة كجندي، وقع في حب الاخت الصغرى وعرض عليها الزواج في الحال. وقال غوردون: "امر مسلٍ، أليس كذلك؟". ولكنه اضطر ان يقطع قصته عندما سمع صوت بطلها على الباب، ودخل دودوروف الى الغرفة.

وأصبح هو ايضاً، مثل غوردون، عكس ما كان. فلقد كان دوماً خفيفاً ذا عقل كالريشة. اما الآن فهو عالم جاد. ويوم كان طالباً طرد

لأنه ساعد السجناء السياسيين على الهرب فجرب بعد ذلك عدداً من المدارس المهنية ثم اصبح اخيراً دارساً للانسانيات. وتخرج اثناء الحرب من الجامعة متأخراً عدة سنوات عن زملائه. اما الآن فهو يحتل كرسيين، كرسي التاريخ الروسي، وكرسي التاريخ العام. وأصبح مؤلفاً لكتابين الاول عن سياسة الارض عند ايفان الهائل، والثاني دراسة عن سان جوست.

وهنا في الحفلة، تكلم بمحبة عن كل واحد وكل شيء وبصوت خافت كما لو كان مصاباً بالزكام، حالماً ومحدقاً في نقطة ثابتة معينة في البعيد، كما لو كان يلقي محاضرة.

وقبيل نهاية السهرة، عندما اندفعت شورا شليزنفر الى الداخل وأضافت ما عندها الى الضجة العامة والتوتر، وجه دودوروف الذي كان صديق طفولة جيفاكو، الى هذا الاخير عدة اسئلة وهو يخاطبه بتعبير "انتم" الرسمي بدل "انت" المعتاد، حول ما إذا كان قد قرأ "الحرب والسلم" وكتاب مايا كوفسكي "شوكة للمزمار".

وفاته جواب يوري اندرييفيتش في كل هذا الضجيج فأعاد عليه السؤال مرة ثانية بعد فترة قصيرة: "هل قرأت شوكة للمزمار ورجل؟"

"لقد اجبتك يا اينوكانتيي. وليست خطيئتي اذا لم تصغ. حسناً، سوف اجيب ثانية. لقد احببت دوماً ماياكوفسكي، انه نوع من استمرار دوستيفسكي. او بالاحرى انه احدى شخصيات دوستيفسكي التي تكتب قصائد غنائية ـ احد ثائريه الشباب "الشباب الخام" أوهيبوليت اوراسكولنيكوف. انه طائفة شعرية تلتهم كل شيء! وطريقته يقول الشيء مرة واحدة ونهائياً، دون مساومة، ومباشرة من الصدر! وفوق كل ذلك بأية جرأة يقذف كل هذا في وجه المجتمع، وخلف ذلك في الفضاء!"

ولكن جاذبية السهرة الاولى كانت ولاشك الخال كوليا. واخطأت انطونينا الكسندروفنا عندما ظنت انه خارج المدينة، فهو قد رجع في يوم

عودة ابن اخته، وكانا قد اجتمعا مرتين وانهيا كل استغراباتهما وتحدثا وضحكا معاً من كل قلبيهما.

التقيا للمرة الأولى في ليلة رمادية جامدة ترسل رذاذاً ناعماً من الغبار الرطب. وذهب يوري اندرييفيتش ليراه في فندق. وكانت الفنادق ترفض قبول نزلاء فيها الا بأمر من سلطات المدينة ولكن نيكولاي نيكولايفيتش كان معروفاً ولا يزال يحتفظ ببعض اتصالاته.

وبدا الفندق مثل مستشفى المجانين الذين هجره المسؤولون عنه - السلالم والممرات فارغة وكل شيء في فوضى.

ومن خلال النافذة الواسعة للغرفة التي لم تكنس بدت الساحة الكبرى التي جرت فيها تلك الايام المجنونة، وكأنها، وقد اقفرت واصبحت مخيفة، ساحة في حلم مخيف لا تلك التي يجب ان يطل عليها فندق.

وكانت المقابلة بالنسبة ليوري اندرييفيتش حادثاً لا ينسى. فهو يرى معبود طفولته، المعلم الذي سيطر على فكره وهو صبي.

الشيب وخط شعره وثوبه الاجنبي الواسع يلائمه تماماً. وبدا صغيراً وجميلاً بالنسبة لسنه.

ولكن عظمة الاحداث غطت عليه، فاذا شوهد بدونها فقد من علوه. ولكنه لم يمر في خاطر يوري اندرييفيتش ابداً ان يقيسه بالذراع.

وادهشه هدوء نيكولايفيتش ولهجته الخفيفة المجردة عندما يتكلم في السياسة. كان واثقاً من نفسه اكثر مما يمكن لمعظم الروسيين ان يكونوا في ذلك الوقت. وهذا ما يطبعه كقادم جديد وان كان ذلك يبدو عتيقاً ومزعجاً نوعاً ما.

وامتلأت ساعات الاجتماع الاول القليلة بأشياء اخرى غير السياسة، مما جعلهما يضحكان ويصرخان ويدفعان ايديهما كل واحد حول عنق الآخر. وقطعا حديثهما الاول المحموم بفترات عديدة من

الصمت.

وكان لقاؤهما لقاء فنانين، ومع انهما كانا قريبين والماضي برز وعاش مرة ثانية بينهما والذكريات تتابعت واخبر الواحد منهما الآخر بكل ما حدث خلال افتراقهما، فانهما عندما ابتدأا يتكلمان عن الاشياء التي تهم حقيقة العقول الخلاقة، تلاشت كل العلاقات الاخرى التي تربطهما فتناسيا قرباهما وفرق السن بينهما ولم يبق الا تصادم قوى اساسية وطاقات ومبادىء.

وخلال السنوات العشر الماضية لم تتح لنيكولاي نيكولايفيتش الفرصة ليتكلم عن مشاكل الكتابة الخلاقة بمثل الحرية والصراحة اللتين يتكلم بهما الآن. كما ان يوري اندرييفيتش لم يسمع اطلاقاً اراءً لها مثل هذه القوة والكفاية والايحاء كما سمع في هذه المناسبة.

وامتلأ حديثهما بالتعجب، وكانا يذرعان الغرفة جيئةً وذهاباً، مستغربين حصافة آرائهما او يقفان صامتين قرب النافذة يقرعان الزجاج وقد اهتزا بعمق للاكتشاف الحماسي لمدى الكمال في فهم الواحد منهما للآخر.

هكذا كان لقاؤهما الأول، ولكن الدكتور رأى خاله فيما بعد مرات قليلة مع آخرين وعند ذلك يصبح نيكولاي نيكولاييفيتش شخصاً آخر لا يمكن معرفته.

وشعر انه زائر في موسكو واستمر يتصرف على انه كذلك. ولم يقرر فيما اذا كان يرى بطرسبورج او أي مكان آخر مستقراً له. وسر من دوره كنجم اجتماعي ومرجع سياسي، ولعله ظن ان موسكو يمكن ان يكون لها صالونات سياسية على طراز صالون مدام رولان في باريس عشية الثورة.

ويزور صديقاته في بيوتهن المضيافة في شوارع موسكو الخلفية الهادئة وينقدهن وازواجهن بسبب تأخرهم وضيق أفقهم. واظهر تآلفه مع

الصحف كما كان يفعل سابقاً مع الكتب التي حرّمتها الكنيسة والنصوص السرية.

وقيل انه ترك في سويسرا محبوبة فتية، وعملاً لم ينته، وكتاباً كتب نصفه، وانه لم يأت الا ليغطس غطسة واحدة فقط في مياه وطنه العاصفة، منتظراً، اذا خرج سليماً معافى، ان يرجع مسرعاً الى جبال الالب.

وكان مؤيداً للبلشفية، وغالباً ما ذكر اثنين من ثوريي الجناح اليساري الاشتراكيين يشاركانه آراءه وهما صحفي يكتب باسم ميروشكا بومور المستعار واحدى كاتبات المناشير سيلفيا كوتيري.

واحتج عليه الكسندر الكسندروفيتش قائلاً: "شيء مخيف ذاك الذي انحدرت اليه يا نيكولاي نيكولاييفيتش، انت وميروشكا هذا! انها لقاذورات! ثم ليديا بوكوري هذه."

وصحح نيكولاي نيكولاييفيتش: "كوتيري، وسيلفيا."

"بوكوري او بوتبوري، ماذا يهم. الاسماء لا تغير شيئاً."

وأصر نيكولاي نيكولاييفيتش بهدوء: "الشيء نفسه، ولكن اتفق انه كوتيري" وتبادلا مناقشات من هذا النوع:

"ماذا تريد ان تقول؟ من المؤكد انه مخجل لك ان تبرهن ذلك. انه شيء اولي. فمنذ قرون وجماهير الشعب تعيش حياة مرهقة. خذ أي كتاب في التاريخ. ومهما تعددت الاسماء - الاقطاع والفلاحون او الرأسمالية والعمال، انه غير طبيعي وغير عادل. هذا معروف منذ وقت طويل والعالم يتهيأ لفورة تجلب النور الى الشعب وتضع كل شيء في مكانه الصحيح.

"وانت تعرف جيداً عدم جدوى ترميم الانظمة القديمة، عليك ان تحفر حتى الاسس. وانا لا اقول ان البناء كله لن ينهار نتيجة لذلك. وماذا في ذلك؟ وكون هذا الامر مخيفاً لا يعني انه لن يحدث. انها مسألة وقت.

كيف يمكنك مناقشة ذلك؟"

وقال الكسندر الكسندروفيتش حانقاً والنقاش يشتد: "ليس هذا هو الموضوع، ليس هذا ما كنت اتكلم عنه. ان اصحابك من امثال بوتيوري وميروشكا هم اناس دون ضمير. انهم يقولون شيئاً ويفعلون غيره. وعلى كل حال اين هو المنطق؟ انه خُلف تام. كلا. انتظر دقيقة. سوف اريك شيئاً." ثم ابتدأ يفتش عن صحيفة نشرت مناظرة ما، فيصفق ادراج مكتبه وشحذ طلاقة لسانه بهذا الضجيج الصاخب.

وأحب الكسندر الكسندروفيتش ان يجد شيئاً في طريقه وهو يتكلم، فيستخدمه حجة لهمهماته وتساؤلاته. وكانت نوبات الثرثرة تنتابه وهو يفتش عن شيء اضاعه ـ مثلاً، وهو يتصيد حذاء الثلج في غرفة الثياب الخابية النور ـ او عندما يقف على باب الحمام وقد حمل المنشفة على ذراعه او عندما يقدم طبق طعام ثقيل الى جاره او يسكب الخمر في كؤوس اصحابه.

وكان يوري اندريفيتش يسر بالاستماع لحميه. فهو يحب لهجة اهالي موسكو القديمة ولثغة عائلة غروميكو.

وتبرز شفة الكسندر الكسندروفيتش العليا وعليها شاربه الصغير المقصوص فوق شفته السفلى تماماً كما تبرز ربطة عنقه التي صنعت بشكل فراشة من هذا العنق. هناك شيء مشترك بين الربطة والشفة، وهذا ما يعطيه مظهراً طفلياً واثقاً الى حد ما.

وجاءت شوراشليزنغر في ليلة الحفلة متأخرة جداً: فقد وصلت تواً من اجتماع وهي تلبس ثياب العمال وقبعتهم. واندفعت الى داخل الغرفة وصافحت كل واحد بدوره ثم انفجرت بالشكوى والاتهام.

"تونيا، كيف حالك؟ مرحبا الكسندر. يجب ان تقر معي انه شيء مقرف. كل موسكو تعرف انه عاد، كل واحد يتكلم عن ذلك وانا آخر من يعلم. حسناً. انا افترض اني لست جيدة تماماً. اين هو، على كل حال؟

دعني اصل اليه، انكم تحيطون به كالجدار. جيد، كيف حالك؟ لقد قرأته ولكني لم افهم كلمة واحدة. ولكن يمكنك القول فوراً انه هائل. كيف حالك يا نيكولاي نيكولايفيتش؟ سوف اعود بعد لحظة يا يوروشكا، يجب ان اتحدث معك. مرحباً ايها الشباب. وانت ايضاً هنا يا غوغوشكا، غوسي - غوسي - غاندر" (وهو احد اقارب آل غروميكو البعيدين واحد المعجبين المتحمسين لكل موهبة ناشئة، يلقب بالأوزة بسبب ضحكته البلهاء والدودة بسبب نحافة جسمه.)

"وهكذا، انتم تأكلون وتشربون؟ سوف الحق بكم قريباً. ولكنكم يا اصدقائي لا تعرفون ماذا يفوتكم. انكم لا تعرفون شيئاً ولم تروا أي شيء. لو كنتم تعرفون فقط ماذا يدور هناك! اذهبوا والقوا نظرة على اجتماع جماهيري، على عمال حقيقيين، وجنود حقيقيين لا اولئك الذين سرحوا. جرب ان تقف وتكلمهم عن متابعة الحرب حتى النصر الاخير! انهم يوصلونك الى نهاية منتصرة! كنت استمع الى بحار - يوروشكا انك تهذي! عاطفة! ضيق في الفكر!"

وقوطعت شورا مرات، فكل واحد كان يصرخ. وجلست قرب يوري اندرييفيتش واخذت يده في يديها ولامست خده بخدها وصرخت كمكبر للصوت يعلو الضجيج:

"يوروشكا دعني اصطحبك مرة معي، سوف اريك الشعب الحقيقي، عليك، يجب عليك، ان تضع قدميك على الارض. لماذا تحدق بي هكذا؟ انا احد جياد الحرب العتيقة، الا تعرف ذلك؟ انا احدى خريجات جامعة بستوجيف[١]. لقد رأيت داخل احد السجون وحاربت على المتاريس - حسناً بالطبع، ماذا تفكر؟ اوه، اننا لا نعرف الشعب ابداً. انني قادمة تواً من هناك. كنت في كثافة الشعب. وانا اجمع مكتبة لهم."

---

(١) جامعة للبنات عرفت تلميذاتها بميولهن اليسارية .

واخذت جرعة، واتضح ان الخمر ابتدأت تلعب برأسها. ولكن رأس يوري اندرييفيتش كان يدور ايضاً. ولم يلاحظ ابداً كيف غدت شورا الآن في احد طرفي الغرفة وهو في الطرف الآخر، كان واقفاً على رأس الطاولة دون ان يتوقع ذلك واخذ على ما يبدو يلقي خطاباً. واستمر بعض الوقت قبل ان يسكت.

"ايها السيدات والسادة... اريد ان... ميشا! غوغوشكا! تونيا، ماذا يجب علي ان اصنع، انهم لا يريدون ان يصغوا! ايها السيدات والسادة. دعوني اقول كلمة او كلمتين. احداث لم تعرف من قبل، احداث غريبة وشيكة الوقوع. وقبل ان تنفجر فوقنا، اليكم ما اتمناه لكم: ليعطنا الله ألاّ نفقد بعضنا بعضاً وألاّ نفقد نفوسنا. غوغوشكا يمكنك ان تصفق فيما بعد، انا لم اكمل. توقفوا عن الكلام هناك في الزوايا واصغوا جيداً.

"اقتنع الناس في هذه السنة الثالثة من الحرب ان الفرق بين اولئك الذين هم في الجبهة والذين في المؤخرة سوف يزول عاجلاً ام آجلاً. وبحر الدماء سوف يرتفع حتى يصل الى كل واحد منا ويغرق كل الذين لم تطلْهم الحرب. الثورة هي هذا الطوفان.

"واثناء الثورة سوف يظهر لكم، كما ظهر لنا في الجبهة، ان الحياة قد توقفت، انه لم يبق شيء شخصي، وانه ليس في العالم شيء غير القتل والموت. واذا عشنا طويلاً لنقرأ مذكرات وتاريخ تلك الفترة فاننا سوف ندرك اننا في هذه السنوات الخمس او العشر قد عانينا اكثر مما عانى الاخرون خلال قرن من الزمن. ولست ادري فيما اذا الشعب سوف ينهض بنفسه ويتقدم عفوياً كالمدّ أم ان كل شيء سوف يُعمل باسم الشعب. ان مثل هذا الحادث الهائل لا يتطلب برهاناً صارخاً على وجوده. انني سوف اقتنع دون برهان. ومن العبث التفتيش عن اسباب للاحداث الجبارة، اذ ليس لها أي سبب. في الخلافات العائلية فقط

يمكنك ان تفتش عن نقطة البدء - فبعد ان يكون اهل البيت قد شد بعضهم بشعر بعض وحطموا الصحون، يحكون رؤوسهم ويجربون ان يتصوروا من ابتدأ ذلك .. وما هو عظيم حقاً ليس له بدء، مثل الكون تماماً. فهو يجبهنا مفاجئاً كما لو كان دائماً هنا او كان سقط من السماء.

"وأنا ارى ان روسيا مهيأة لتصبح الدولة الاشتراكية الأولى منذ بدء العالم. وعندما يأتي ذلك، فان الحادث سوف يذهلنا الى وقت طويل، وبعد أن نفيق منه نكون قد فقدنا نصف ذاكرتنا الى الابد.نكون قد نسينا ما الذي حدث اولاً وماذا تبع ذلك، لن نفتش عن اسباب. والنظام الجديد للأشياء سوف يكون حولنا وقد اعتدنا عيه كالغابات في الافق او الغيوم فوق رؤوسنا. ولن يبقى شيء آخر غير ذلك."

وقال بعض اشياء اخرى. الى هنا، وكان قد انهك تماماً. فهو كالسابق لم يتمكن من ان يسمع بوضوح ما يقوله الآخرون لذلك اجابهم دون روية. رأى انهم احبوه ولكنه لم يقدر على انقاذ نفسه من الألم الذي كان يحز فيها فقال:

"شكراً لكم، شكراً لكم. اني اقدر شعوركم ولكني لا استحق ذلك. انه لمن الخطأ ان تبذلوا المحبة بسرعة لان الواحد سوف يكون فيما بعد مضطراً لان يعطي مثلها اكثر فأكثر."

وضحك الجميع وصفقوا فأخذ ذلك منهم على أنه تفكهة مقصودة، في حين انه كان لا يعرف كيف يفرّ من تنبّئه بالكارثة وشعوره انه بالرغم من صراعه من أجل الخير وقدرته على السعادة، فهو لا قوة له على المستقبل.

وابتدأ المدعوون بالانصراف. وقد غدت وجوههم مستطيلةً منهكةً، فتثاؤباتهم واصطفاق خدودهم جعلتهم يبدون كالخيول.

وقبل ان يذهبوا جذبوا الستائر وفتحوا النوافذ. وفي السماء الرطبة

المملوءة بالغيوم القذرة الخضراء، ظهر شفق مصغّر. وقال احدهم: "يبدو كما لو حدثت عاصفة ونحن نتحدث" وقالت شورا موافقة: "نزل علي المطر وانا في طريقي الى هنا، ولكني تمكنت من الافلات."

وكان الظلام لا يزال مخيماً على الشارع المقفر، وقطرات الماء الهاطلة من الأشجار تتناوب دقاتها مع زقزقات الدوري المبلل.

وانفجر قصف من الرعد كما لو ضربت مطرقة وجه السماء مباشرة، ثم سكون. ثم أربع طرقات عالية متباعدة مثل البطاطا النامية في الخريف وقد اقتلعت بمجرفة من الارض الناعمة.

ونظف الرعد الغرفة المغبرة الملأى بالدخان. وفجأة أصبح من الممكن تمييز عنصر الحياة والشعور به مثل تيارات الكهرباء، الهواء والماء، الرغبة في السعادة، الارض، السماء.

وامتلأ الشارع بأصوات الضيوف المنصرفين. كانوا قد ابتدؤوا نقاشاً في البيت واستمروا يناقشون بالحرارة نفسها في الشارع. وشيئاً فشيئاً أخذت الاصوات تخفت في البعيد حتى غابت.

وقال يوري اندرييفيتش: "انه وقت متأخر. لنذهب الى النوم. الناس الوحيدون الذين احبهم في العالم هم انت وأبوك."

٥

كان آب قد انقضى وأيلول على وشك الانتهاء. والمقدّر يقترب. الشتاء قريب وكذلك شيء في عالم الانسان يشبه ايقاف الحياة كان في الهواء والجميع يتكلمون عنه.

انه الوقت الذي يجب فيه التحضير للبرد، لتخزين الحطب والطعام. ولكن في ذلك الوقت من انتصار المادية، اصبحت المادة فكرة غير مجسدة واحتلت مشاكل التغذية والمحروقات مكان الطعام والحطب.

وأصبح الشعب في المدن ضعيفاً كالاطفال، امام المجهول ـ ذلك المجهول الذي كنس كل العادات الموضوعة ولم يترك الا اليأس مكانها، رغم انه كان هو نفسه نتاج المدينة وابداع سكان المدن.

وفي كل مكان استمر الشعب يخدع نفسه ويتكلم بلا انقطاع. ويوماً بعد يوم اخذت الحياة تشتد بعامل العادة، هادرة مزمجرة. ولكن الدكتور رأى الحياة كما هي. وكان من الواضح له انها كانت تنفذ حكماً. ونظر الى نفسه ووسطه على انه مقدر لهم ذلك. العذاب امامهم وربما الموت. ايامهم معدودة وهي تعدو امام عينيه.

وكان يمكن ان يجن لو لم يكن مشغولاً بتفاصيل الحياة اليومية. زوجته، طفله، اضطراره لتحصيل المال، طقوس مهنته اليومية المتواضعة ـ وفي هذا كله وجد خلاصه.

ادرك انه قزم امام عجلة المستقبل الوحشية، وكان قلقاً على مستقبله، يحبه فخوراً به في سره. وكما لو كان يفعل ذلك للمرة الاخيرة، كما لو كان في وداع، راح ينظر بشغف الى الاشجار والغيوم والناس السائرين في الشوارع والمدينة الروسية الكبيرة التي تصارع الشقاء ـ انه على استعداد لأن يضحي بنفسه من اجل الخير العام وليس بامكانه ان يفعل شيئاً.

وغالباً ما كان يرى الناس والسماء من وسط الشارع وهو يقطع "الارباط" عند زاوية صف ساحة العربة القديمة قرب صيدلية الجمعية الطبية الروسية.

وعاد الى عمله في مستشفاه القديم الذي لايزال يدعى مستشفى الصليب المقدس رغم ان الجمعية التي تحمل هذا الاسم قد حلت. وحتى الآن لم يفكر احد باسم جديد للمستشفى.

وانقسم الموظفون معسكرات. وظهر الطبيب خطراً للمعتدلين الذين اثارت بلادتهم سخطه؛ اما للذين كانت سياستهم اكثر تقدماً فقد بدا انه

ليس احمر كفاية. وهكذا لم ينضم الى أي من الجماعتين بعد ان ابتعد عن الاولى في حين انه لايزال متأخراً عن الثانية.

وبالاضافة الى مهماته العادية، كلفه رئيس الاطباء بالاشراف على الاحصاء العام. ومرت بين يديه اسئلة ونماذج لا تنتهي. معدل الوفيات، معدل الامراض، كفاية الموظفين، درجة وعيهم السياسي واشتراكهم في الانتخابات، النقص الدائم في المحروقات والطعام والادوية، كل شيء يجب ان يراقب ويسجل.

وعمل جيفاكو على طاولته القديمة قرب نافذة غرفة الاطباء، وقد تراكمت عليها الجداول والنماذج من كل قطع وحجم. وكان قد دفعها الى جانب واحد من الطاولة، ليكتب احياناً بالاضافة الى ملاحظات عن عمله الطبي، رؤوس اقلام لأشياء مثل هذه: "اللعب على الشعب، مذكرات كئيبة او يوميات تتألف من نثر وشعر وماذا عندك اوحى بها كون نصف الشعب بَطُل ان يكون هو نفسه واصبح يلعب ادواراً مجهولة."

وامتلأت الغرفة المشمسة المنورة ذات الجدران البيضاء باشعة ايام الخريف الذهبية الصفراء التي تتلو عيد الصعود، عندما يبدأ الصباح ان يصبح بارداً والعصافير تسرع نحو الغابات. وفي مثل هذه الايام تصبح السماء اعلى مما كانت وفي اعمدة الهواء الشفافة القائمة بينها وبين الارض تتحرك اشعاعات جليدية زرقاء داكنة آتية من الشمال. كل شيء في العالم يصبح مرئياً ومسموعاً اكثر من ذي قبل. فالاصوات البعيدة تصلنا بحالة طنين تجمّد، واضحة جلية. الآفاق مفتوحة كما لو كانت تريد ان تعرض الحياة كلها خلال سنوات قادمة. وهذا الضياء المتخلخل لا يمكن احتماله الا لأنه قصير الأمد، يأتي في نهاية يوم الخريف القصير وقبيل الغسق.

هكذا بدا النور الآن في غرفة الاطباء، نور غروب شمس في اوائل الخريف، زجاجياً يانعاً يقطر مثل بعض انواع التفاح الروسي.

وجلس الدكتور الى مكتبه يكتب ويفكر ويغمس ريشته عندما يطير عصفور هادئ دون صوت ماراً امام النافذة الطويلة، فيترك خيالات على يده المتحركة، والطاولة بما فيها من نماذج، وعلى الارض والجدران، ثم بصمت ايضاً يتبخر امام النظر.

ودخل الطبيب المشرّح وهو رجل طويل فقد كثيراً من وزنه حتى تعلق جلده عليه في محافظ. وقال: "لقد ذهبت اوراق الصفصاف كلها تقريباً، وعندما تفكر انها قاومت كل المطر والرياح، ثم جاء صباح بارد واحد فذهب بها!"

وتطلع الدكتور فرأى ان العصافير الغامضة التي كانت تمرق من امام النافذة ليست بالفعل الا اوراق الصفصاف التي غدت حمراء كالخمرة. فهي تتطاير من على الاشجار سابحة في الهواء وتغطي فناء المستشفى فتبدو مثل قطع البرتقال المعصور.

وسأل المشرّح: "هل ملّطتم النوافذ؟"

واجاب يوري اندرييفيتش: "كلا" واستمر يكتب.

"ألم يحن الوقت لذلك؟"

ولم يجب يوري اندرييفيتش وهو منهمك في عمله.

واكمل المشرّح: "لقد ذهب تاراسكا المسكين، كان يساوي ثقله ذهباً. كان يصلح حذاءك وساعتك، انه يعمل كل شيء. بامكانه ان يجلب لك أي شيء في العالم. والآن علينا ان نصلح النوافذ بانفسنا."

"ليس عندنا ملاط"

"يمكنك تركيبه، انا اعطيك الوصفة" وشرح كيف يمكن صنع الملاط من زيت بذر الكتان والكلس. "حسناً والآن سأتركك. اظن ان عليك ان تكمل عملك."

وذهب الى النافذة الاخرى واشغل نفسه بزجاجاته وعيّناته. وقال بعد دقيقة "سوف تخرب عينيك. ابتدأ الظلام يخيم، ولن يعطوك أي

نور، لنذهب الى بيوتنا."

"سوف اعمل عشرين دقيقة اخرى تقريباً."

"زوجته ممرضة هنا."

"زوجة من؟"

"زوجة تاراسكا."

"اعرف ذلك."

"لا يعلم أحد أين هو. انه يجوب البلاد كلها. وفي الصيف الماضي جاء مرتين ليرى زوجته، انه الآن في احدى القرى. انه يبني الحياة الجديدة. انه أحد اولئك الجنود البلشفيك، انك تراهم في كل مكان، يتجولون في الشوارع، ويسافرون في القطارات. هل تعرف ما الذي جعلهم كذلك؟ خذ تاراسكا. يمكنه ان يدير يده على كل شيء. كل ما يفعل يفعله جيداً. هذا ما أصابه في الجيش - تعلم القتال مثل اية تجارة اخرى. اصبح من امهر الرماة. عيناه ويداه - من الدرجة الأولى! وكل اوسمته جاءته لا لشجاعته بل لاصابته الهدف جيداً. كل ما يقوم به يصبح هوى لديه، وهكذا اراد ان يقاتل بطريقة أكبر. انه يعرف ما الذي تفعله البندقية بالرجل - تعطيه قوة، وتعطيه امتيازاً. اراد ان يصبح قوة هو نفسه. رجل مسلح ليس تماماً مثل أي رجل آخر. في الايام السالفة كان مثل هؤلاء يتحولون من جنود الى قطاع طرق. وتجرب الآن ان تجرد تاراسكا من بندقيته، وعندئذ يبرز الشعار: "حولوا حرابكم الى اسيادكم" فيحولها تاراسكا. هذه هي القصة كلها. هذه هي الماركسية لك".

"هذا هو النمط الخام المنبثق مباشرة عن الحياة. ألا تعلم؟"

ورجع المشرّح الى انابيبه.

وسأل بعد لحظة: "كيف دبرت الامر مع اختصاصي المواقد؟"

"اشكرك لأنك ارسلته. رجل جذاب. لقد امضينا ساعات نتكلم عن هيغل وكروتشه."

"بالطبع. فهو يحمل دكتوراه بالفلسفة من جامعة هيدلبرغ. وماذا عن الموقد؟"

"انه ليس جيدا"

"ألا يزال يدخن؟"

"لا يتوقف ابداً"

"لم يتمكن من اصلاح انابيب الدخان كلياً. يجب ان توصل بمدخنة كبرى. هل أخرجها من النافذة؟"

"كلا من المدخنة. ومع ذلك لا تزال تدخن."

"انه إذن لم يتمكن من ايجاد مجرى الهواء الصالح. لو كان تاراسكا هنا! ولكنك سوف تصلحه اخيراً. موسكو لم تبنَ في يوم واحد. إشعال الموقد مثل عزف البيانو، إنه يتطلب مهارة. هل خزنت الحطب؟"

"من أين لي ان احصل عليه؟"

"سوف ارسل لك بستاني الكنيسة. انه خبير بسرقة الحطب. فهو يقطع المتاريس ويحولها الى حطب للوقود. ولكن عليك ان تساومه، كلا. من الافضل ان تأخذ المبيد معك."

ونزلا الى المشلح حيث لبسا معطفيهما وانصرفا.

"لماذا آخذ المبيد؟ لا يوجد عندنا بق."

"الامر لا يتعلق بذلك، اني اتكلم عن الحطب. المبيد هو امرأة هرمة تتاجر بالحطب؛ قامت تجارتها على أسسٍ صحيحة - تشتري بيوتاً بكاملها للوقود. إسرع فقد اظلم الليل. في الماضي كان بامكاني ان أسير بك مغمض العينين في أي مكان من هذه الناحية. اني اعرف كل حجر. لقد ولدت قرب هذا المكان. ولكن منذ ان ابتدؤوا بوضع المتاريس تعذر علي ان اجد طريقي حتى في النهار، كما لو كنت في مدينة غريبة. ومن اخرى برزت امكنة عجيبة. بيوت الامبراطورية الصغيرة التي لم تكن تعرف اين توجد، بطاولات حدائقها المستديرة ومقاعدها المنحوتة.

منذ ايام مررت قرب مكان من هذا النوع. انه يشبه برية صغيرة على تقاطع ثلاثة شوارع وكانت هناك سيدة هرمة تدب فيه على عصا، لعلها بلغت المئة. وقلت لها: مرحباً يا جدتي، هل تفتشين عن ديدان لتصطادي السمك؟ وكنت امزح بالطبع، ولكنها اخذت الامر جدياً وقالت: كلا، لا افتش عن ديدان بل عن فطر. وبالحقيقة كما تعلم اصبحت المدينة كالغابات تفوح منها رائحة الاوراق المتفسخة والفطور."

"اظن انني اعرف المكان الذي تعنيه ـ بين سيربرياني ومولشانوفكا، أليس كذلك؟ اغرب الاشياء حدثت معي دوماً هناك ـ إما أن أصادف شخصاً لم اره منذ عشرين سنة او أعثر على شيء ما. يقولون إنها خطرة ولا عجب، هناك شبكة من الممرات توصل الى مركز اللصوص القديم قرب سمولنسكي. وقبل ان تعرف أين انت يكونون قد جردوك حتى الجلد ثم اختفوا.

"انظر الى فوانيس الشارع، انها لا تضيء ابداً. لا عجب انها تجلب الكدمات للعيون. احذر فلا تصدم نفسك."

٦

اشياء متعددة حصلت للطبيب في ذلك المكان. ففي احدى الليالي المظلمة الباردة، قبيل قتال اكتوبر، مر بقرب رجل يرتمي دون وعي على الرصيف، ويداه ممدودتان ورأسه قرب زاوية الرصيف وقدماه في المجرور. وكان يرسل من وقت لآخر همهمات ضعيفة. وعندما حاول الطبيب ان يرفعه تمتم بكلمات قليلة، شيئاً عن محفظة. فقد هاجمه اللصوص وسلبوه. وكان رأسه مضروباً ومغطى بالدماء. ولكن فحصاً سريعاً اظهر ان الجمجمة سليمة.

وذهب جيفاكو الى صيدلية في أرباط وطلب هاتفياً عربة الاجرة التي يستخدمها المستشفى في حالات الاسعاف وأخذ الجريح الى غرفة

الطوارىء.

وظهر ان الجريح قائد سياسي بارز. وعالجه الطبيب حتى شفي، فبقي عدة سنوات فيما بعد يحميه، وقد أنقذه من المشاكل مرات عديدة في تلك الأيام المثقلة بالشكوك.

٧

وأقر مخطط انطونينا الكسندروفنا وتمركزت العائلة اثناء الشتاء في ثلاث غرف في الطابق العلوي.

وفي يوم احد بارد هبت فيه رياح شديدة وأظلم بغيوم الثلج الثقيلة، كان الطبيب في عطلة.

وأوقدت النار في الصباح وابتدأت المدفأة تدخن. وتصارعت نيوشا مع الحطب الرطب. وراحت انطونينا الكسندروفنا التي لم تكن تعرف شيئاً عن المدافىء تعطي نصائحها الغامضة السيئة.. اما الطبيب، وقد كان يعرف شيئاً ما، فقد حاول ان يتدخل ولكن زوجته اخذته بلطف من كتفيه ودفعته الى خارج الغرفة قائلة: "لا تتدخل في هذا. انك تلقي زيتاً على النار."

"الزيت لن يكون ضاراً يا طونيشا، والمدفأة تلتهب فوراً. الخطأ انه لا يوجد زيت ولا نار."

"انه ليس وقت المزاح. هناك فترات يكون المزاح فيها في غير موضعه."

وافسدت المدفأة خطط الجميع. أملوا ان ينهوا أعمالهم قبل الظلام فيكون لديهم امسية حرة ولكن العشاء الآن سوف يتأخر، ولن يجدوا ماءً حاراً وبعض الخطط الاخرى يجب ان تترك.

وراحت النار تدخن اكثر فأكثر. وارجعت الريح العاصفة الدخان الى

الغرفة فامتلأت بغيمة من الهباء الاسود ، وقد وقف فيها مثل وحش اقاصيص الجنيات في غابة كثيفة.

واخيراً اخرج يوري اندرييفيتش الجميع الى الغرفتين الاخريين وفتح القسم العلوي من النافذة. وسحب نصف الحطب من المدفأة وباعد بين القطع الباقية بقطع اصغر وادق.

ودخل هواء جديد من النافذة. فاهتزت الستارة وطارت. وتناثرت الاوراق عن الطاولة،واصطفق باب في احدى غرف الطابق السفلي، وابتدأ الهواء يلعب لعبة الهر والفأرة مع الدخان.

وقرقعت قطع الحطب، واضطرم الموقد. وترقط جسده الحديدي بلطخ محمرة كاللهيب الأكال. وتخلخل الدخان في الغرفة وسرعان ما اختفى.

وانقشع جو الغرفة. ومن النوافذ التي كان يوري اندرييفيتش قد ملطها حسب وصفة المشرّح فاحت رائحة الملاط الزيتي الساخن. وانتشرت رائحة حادة من حطب الصنوبر المحترق، ورائحة طرية من خشب الحور الذي اخذ يجف قرب الموقد.

واقتحم نيكولاي نيكولايفيتش الغرفة بمثل العنف الذي يأتي الهواء به من النافذة المفتوحة.

"انهم يتقاتلون في الشارع." واكمل وهو يخبرهم: "هناك معركة منظمة بين ضباط الاحتياط الذين يدعمون الحكومة المؤقتة وجنود الحامية الذين يدعمون البلشفيك. مناوشات تحتدم في المدينة كلها. وجدت صعوبات في الوصول الى هنا، مرة عند زاوية بولشايا دمتيروفكا ومرة اخرى عند بوابة نيكيتسكي. والآن لا يمكنك المرور مباشرة، عليك ان تدور حولها. يورا، اسرع! ضع معطفك ولنذهب. عليك ان تشاهد ذلك. انه التاريخ. انه يحدث مرة واحدة في العمر."

ولكنه قعد يتحدث مدة ساعتين. ثم تناولا طعام العشاء، وفي الوقت الذي كان يستعد فيه للذهاب الى بيته جاراً الطبيب معه، اندفع

غـوردون الى الداخل بالطريقـة نفـسـهـا التي دخل بهـا نيكولاي نيكولايفيتش وهو يحمل الاخبار ذاتها.

وكان الوضع قد تطور، فجرت بعض التفاصيل. وتكلم غوردون عن ازدياد اطلاق النار وقتل المارين برصاصات طائشة. وتوقفت كل حركة في الشوارع على حد قوله. وتمكن أن يصل بأعجوبة، أما الآن، فالطريق مقطوع.

ورفض نيكولاي نيكولايفيتش ان يصدقه. وخرج مسرعاًولكنه عاد بعد دقيقة وقال إن الرصاص يئز في الشارع، ويصدم الحيطان ويحطم الزوايا. ولم تلح في الخارج نسمة حياة. وتوقفت كل المواصلات.

واصيب ساشنكا ذلك الاسبوع بزكام.

وصرخ يوري اندرييفيتش: "لقد اخبرتك مئة مرة انه يجب ألاّ يلعب قرب الموقد. ان ازدياد الحرارة اشد ضرراً عليه من البرد."

والتهب بلعوم ساشنكا وارتفعت حرارته. وكان يخاف القيء خوفاً مرعباً، وعندما حاول يوري اندرييفيتش ان يفحص بلعومه دفع يده بعيداًوكز باسنانه وراح يخبط بيديه ورجليه. ولم يجدِ الاقناع او التهديد معه. وفي لحظة، صرخ دون انتباه فأسرع الطبيب واستفاد من ذلك ليدفع ملعقة في فم ابنه ويخفض لسانه فترة كافية من الزمن ليلقي نظرة على بلعومه المحمر كالكرز ولوزتيه المتورمتين وقد غطتهما بقع صغيرة بيضاء مقلقة.

وبعد فترة، تمكن بعملية مماثلة ان يأخذ عيّنة ويفحصها على المجهر الذي يحتفظ به في البيت. ومن حسن الحظ لم تكن دفتريا.

ولكن في الليلة الثالثة اصيب ساشنكا بذبحة عصبية. فانخفضت حرارته ولم يعد بامكانه ان يتنفس. وفشل يوري اندرييفيتش في تسكين ألمه، ولم يعد يحتمل رؤيته كذلك. وظنت انطونينا الكسندروفنا ان الطفل يحتضر. فحملاه مناوبة في الغرفة وهذا ما جعله يشعر بتحسن على ما يظهر.

وكانا بحاجة الى حليب ومياه معدنية او غازية له. ولكن القتال في الشوارع كان على اشده. ولم يتوقف اطلاق نيران البنادق والمدافع لحظة واحدة. وحتى لو تمكن يوري اندرييفيتش من اجتياز منطقة القتال مخاطراً بحياته، فانه لن يجد أحداً في الشوارع خلفها. وتوقفت كل مظاهر الحياة في المدينة بانتظار انجلاء الموقف نهائياً.

ولكن لم يعد هناك شك حول النتيجة، فالشائعات تواردت من كل جانب ان العمال يتغلبون وان جماعات قليلة من ضباط الاحتياط لاتزال تقاوم، ولكنها عزلت بعضها عن بعض، وعن قيادتها.

واحتلت وحدات الجنود حي سيفتزيف وراحت تتقدم نحو قلب المدينة. واقام الجنود الذين حاربوا المانيا وبعض العمال الفتيان خندقاً لهم وسط الشارع. وتعرفوا الى السكان الذين كانوا يعيشون قربهم واخذوا يتضاحكون معهم عندما كانوا يخرجون من منازلهم ليقفوا امام الابواب، ثم اعيدت المواصلات في تلك المنطقة من المدينة.

اما غوردون ونيكولاي نيكولايفيتش اللذان حوصرا في بيت جيفاكو فقد تحررا من اسرهما الذي دام ثلاثة ايام. وسر جيفاكو من وجودهما اثناء مرض ساشنكا وسامحتهما زوجته على ما اضافاه من فوضى على البيت. ولكنهما شعرا ان عليهما ان يردا جميل المضيفين بأحاديث مسلية لا تنتهي. وكان يوري اندرييفيتش قد انهك في نهاية الايام الثلاثة من هذه الثرثرة الفارغة حتى أنه فرح عندما رآهما يذهبان.

٨

وعلما بان الضيفين وصلا الى بيتيهما سالمين. ولكن العمليات العسكرية استمرت، وظلّ عدد من الشوارع مقفلاً ولم يستطع الطبيب الذهاب الى المستشفى. وكان فارغ الصبر، يريد ان يذهب الى عمله والى

المخطوطة التي تركها في درج مكتب غرفة الاطباء.

وكان الناس هنا وهناك، يخرجون في الصباح ليشتروا خبزهم. وعندما رأوا احد المارة يحمل زجاجة حليب أحاطوا به ليسألوه من اين اتى بها.

وكان يعود اطلاق النار احياناً، فيشمل المدينة باسرها وتخلو الشوارع من جديد. وقيل ان الجانبين دخلا في مفاوضات كانت تنعكس، نجاحاً او فشلاً، على تغير الشدة في اطلاق النار.

وحوالي الساعة العاشرة مساء، في احدى امسيات اواخر تشرين الأول (الطراز القديم) ذهب يوري اندرييفيتش، ودون حاجة خاصة، يدعو احد زملائه. وكانت الشوارع التي اجتازها مقفرة. واسرع في سيره. وكان الثلج الأول، الناعم الدقيق ينهمر، وقد اخذت الريح العاصفة تقطعه وتفرقه.

ودار فيما لا يحصى من الشوارع الجانبية حتى كاد يفقد عددها، عندما ازداد الثلج وابتدأت الريح تتحول الى عاصفة من تلك العواصف التي تهب في حقل كبير فتكسوه بغطاء من الثلج، ولكنها في المدينة كانت تضطرب كما لو انها فقدت طريقها.

وكان هناك شيء مشترك بين الاضطراب في العالم الروحي والعالم المادي، على الارض وفي الفضاء. وكانت آخر طلقات جيوب المقاومة لاتزال تدوي، حبابات من النار الخامدة ترتفع وتغيب في الافق وكان الثلج يلف ويدور مدخناً في الشوارع والارصفة الرطبة.

وصادفه عند احد المنعطفات صبي من باعة الصحف وقد حمل تحت ذراعه رزمة كبيرة من الصحف المطبوعة حديثاً وهو يصيح: "آخر الاخبار!"

وقال الطبيب: "احتفظ بالبقية". ونزع الصبي صحيفة مبللة من الرزمة، دفعها الى يده، وبعد لحظة غاب في عاصفة الثلج.

ووقف الطبيب تحت احد فوانيس الشارع يقرأ العناوين. وكانت الصحيفة ملحقاً متأخراً طبع على وجه واحد فقط، وهي تحمل التصريح الرسمي الصادر في بطرسبورج عن تشكيل سوفيات من مفوضي الشعب، وتعلن بأن سلطة السوفيات ودكتاتورية البروليتاريا قد اقيمتا في روسيا. ثم يتلو ذلك القرارات الاولى للحكومة الجديدة، وعدد من الاخبار القصيرة المختلفة والبرقيات المأخوذة هاتفياً وبرقياً.

وصفعت العاصفة الطبيب على عينيه وغطت الصفحة المكتوبة برصاصات الثلج المغبرة. ولكن لم تكن عاصفة الثلج هي التي منعته من القراءة. فان عظمة الحادث التاريخية قد هزته بعمق جعله يحتاج الى بعض الوقت كي يستجمع نفسه.

وفتش حوله عن مكان آخر مغطى واكثر انارة ليقرأ بقية الاخبار. فوجد نفسه مرة ثانية واقفاً في تلك النقطة المسحورة الواقعة على تقاطع سربرياني وملشانوفكا، امام بناية عالية من خمسة طوابق، لها باب زجاجي ومدخل فسيح منوّر.

ودخل ووقف تحت الضوء الكهربائي قرب مدخل الدرج يقرأ الاخبار.

وسمع وقع خطوات فوقه. كان احدهم ينزل الدرج ويتوقف باستمرار كما لو كان متردداً. وفي احدى المرات غير رأيه بالفعل وقفل صاعداً. وانفتح باب في مكان ما، وخرج صوتان وقد شوههما الصدى حتى لم يعد بالامكان التمييز فيما اذا كانا صوت رجلين او امرأتين. وأقفل الباب وعادت الخطوات نفسها تنزل الدرج ولكن بتصميم هذه المرة.

وكان يوري اندرييفيتش مستغرقاً في جريدته حتى انه لم يهتم بان يرفع نظره، ولكن الغريب توقف فجأة على اسفل الدرج مما اضطره لأن يرفع رأسه.

ووقف امامه فتى في حوالي الثامنة عشرة يعتمر قبعة من جلد

الغزال ويلبس معطفاً من جلد الغزال وقد ادار فروه الى الخارج، على طريقة اهل سيبريا. وكان اسمر وله عينان صغيرتان مثل عيون الكيرغيز. وكان وجهه ذا شكل ارستقراطي، يتحلى بذلك اللمعان المتحول واللطافة الصامتة اللذين يعطيان فكرة عن العراقة ويوجدان احياناً في اولئك الذين اختلطت اصولهم.

ومن المؤكد ان الشاب ظنّ يوري اندرييفيتش انه شخص آخر. ونظر اليه حائراً خجولاً كما لو كان يعرفه ولا يتمكن من ان يصمم على التحدث اليه. ولكي يضع حداً لسوء التفاهم، قاسه يوري اندرييفيتش بنظرة باردة مثبطة.

واستدار الشاب مضطرباً وسار نحو المدخل. وهناك نظر خلفه مرة ثانية قبل ان يخرج ويغلق الباب الزجاجي وراءه.

وغادر يوري اندرييفيتش بعده بدقائق قليلة. كان فكره ممتلئاً بالاخبار فنسي الفتى والزميل الذي كان ينوي زيارته واتجه مباشرة نحو البيت. ولكنه صادف في الطريق حادثاً آخر، واحداً من تفاصيل الحياة اليومية التي تأخذ في مثل هذه الايام اهمية غير عادية.

فقد اصطدم في الظلام، على مقربة من بيته بكومة كبيرة من الخشب ملقاة قرب المنعطف. وكان هناك مؤسسة ما في الشارع، اعطتها الحكومة محروقاتها قطعاً من الخشب اخذتها من احد البيوت المهدمة في ضواحي المدينة. ولم يدخل الحطب كله الى الفناء بل بقي بعضه في الشارع واقيم خفير يحمل بندقية حارساً عليه. وكان الخفير يذرع الفناء جيئة وذهاباً، ونادراً ما كان يطل على الشارع.

ودون ان يفكر مرتين، اغتنم يوري اندرييفيتش لحظةً ادار فيها الخفير ظهره والريح تنثر في الهواء غيوماً من الثلج، فانحنى في الجهة المظلمة متجنباً نور الفانوس وحرك قطعة ثقيلة من الخشب، من اسفل الكومة، واخرجها. وحملها بصعوبة على ظهره، وفوراً لم يعد يشعر

بثقلها (حملك ليس عبئاً) وسار في ظلال الحيطان حتى اوصلها سليمة الى البيت.

ووصل في الوقت المناسب، فالحطب كان قد نفد. وقطّعت الخشبة الكبيرة الى قطع اصغر وكومت. واشعل يوري اندرييفيتش الموقد وقرفص امامه صامتاً، في حين حرك الكسندر الكسندروفيتش كرسيه واقترب يصطلي.

وسحب يوري اندرييفيتش الجريدة من جيب معطفه ورفعها امامه.

"وهل رأيت هذا؟ الق نظرة."

وراح يحدث نفسه وهو لايزال مقرفصاً على قدميه يضرم النار.

"انها لجراحة باهرة. تأخذ مشرطاً وبضربة ماهرة واحدة تجتث كل القروح القديمة المتقيحة. بكل بساطة، ودون أي مغالطات، تأخذ وحش الظلم القديم الذي تعود الناس خلال قرون على السجود امامه والتودد اليه، وتقضي عليه بالاعدام.

"هذه الجرأة، هذه الطريقة في رؤية الاشياء حتى نهاياتها، لنا نظرة قومية عنها. ففيها شيء من وضوح بوشكين الذي لا يساوم، ومن ايمان تولستوي بالوقائع."

"هل قلت بوشكين؟ انتظر دقيقة. دعني اكمل. لا يمكنني ان اقرأ واستمع في وقت واحد"، قال الكسندر الكسندروفيتش هذا ظناً منه ان صهره يتوجه بالحديث اليه.

"والضربة البارعة في هذا، في انك لو كلفت احداً بمهمة خلق عالم جديد او بدء عصر جديد، فانه يطلب منك اولاً ان تنظف المكان. انه لابد ان ينتظر انتهاء القرون القديمة قبل ان يبدأ ببناء قرون جديدة، انه يريد ان يبدأ فصلاً جديداً، صفحة جديدة.

"اما هنا، فانهم لا يهتمون بكل ذلك. هذا الشيء الجديد، اعجوبة التاريخ هذه، هذا الكشف، تفجر في وسط الحياة اليومية الكثيفة دون

أي نظر الى مجراها. انه لم يبدأ من البدء بل بدأ من الوسط، دون ترتيب مسبق، في أي يوم من ايام الاسبوع وحركة المرور على اشدها. انها عبقرية حقة. العظمة الحقيقية وحدها لا تهتم بالتوقيت والمناسبات.

٩

وجاء الشتاء، نوع الشتاء ذاته الذي كانوا يتكلمون عنه. ولم يكن اكثر رعباً من الشتاءين اللذين تلياه، بل من النوع نفسه: ظلام، جوع، برد، انصراف كلي الى تحطيم الاسس المعروفة وبناء اسس للوجود جديدة كلياً، والى بذل الجهد العظيم للتعلق بالحياة وهي تنزلق من قبضتك.

ثلاثة من فصول الشتاء، الواحد منها خلف الآخر، ثلاثة فصول مرعبة حتى ان ليس كل ما يبدو الآن انه حدث في عامي ١٩١٧ و١٩١٨ حدث بالفعل يومذاك - بعضه يمكن ان يكون متأخراً. فقد اندمجت هذه الفصول الثلاثة في واحد ومن الصعب الكلام عنها منفردةً.

ولم تكن الحياة القديمة والنظام الجديد قد اصطدما بعد. ولم يكن احدهما قد اصبح معادياً للآخر بشكل مفضوح، مثلما جرى عندما انفجرت الحرب الأهلية بعد عام، ولكن لم يكن هناك أي ارتباط بين الاثنين. وقفا مفترقين، يجابه الواحد منهما الآخر، متنافرين.

وحدثت انتخابات جديدة في كل مجال - ادارة البنايات، المنظمات من كل الانواع، وظائف الحكومة، الوظائف المدنية. وعيّن لكل واحد من هذه المجالات مفوض يتمتع بصلاحيات دكتاتورية، من ذوي الارادة الحديدية، اولئك الذين يرتدون سترات جلدية سوداء ومسلحين بوسائل الارهاب والمسدسات، نادراً ما يحلقون ذقونهم واندر من ذلك ما ينامون.

وكانوا يعرفون سلالة البورجوازيين الخجولين الذين يحملون عادة

مستلزمات الحكم الرخيصة، فيخاطبونهم دون ادنى شفقة بابتسامة شيطانية كما يفعلون مع مساكين اللصوص الذين يقبض عليهم بالجرم المشهود.

هؤلاء هم الاشخاص الذين اعادوا تنظيم كل شيء تبعاً للمخطط الموضوع، فغدت شركة بعد شركة، ومؤسسة بعد مؤسسة بلشفية كلها.

واصبح مستشفى الصليب المقدس يعرف الآن باسم المستشفى الثاني المعدل. اشياء كثيرة تغيرت فيه، وجزء كبير من الموظفين سرح. والآخرون استقالوا لأنهم لم يجدوا مرتباتهم متناسبة مع العمل. هؤلاء كانوا الاطباء من ذوي الممارسة الطويلة والمرتبات العالية، ومن المحدثين ذوي اللسان الطلق، وقد غادروا لفقدان الاهتمام الذاتي، ولكنهم اكدوا انم قاموا ببادرة احتجاج مدني واحتقروا اولئك الذين بقوا حتى كادوا يقاطعونهم. وبقي جيفاكو.

وفي الامسيات كان الزوج والزوجة يتبادلان احاديث من هذا النوع:

"تذكري يوم الاربعاء في اجتماع الاطباء، سوف يحتفظون لنا بكيسين من البطاطا المخزونة في القبو. سوف اخبرك في أي وقت يمكنني ان اخرج. يجب ان نذهب معاً لنأخذ عربة الثلج."

"حسناً يا يوروشكا، لدينا متسع من الوقت، لماذا لا تذهب وتنام الآن، الوقت متأخر. اتمنى لو انك استرحت، لا يمكنك ان تكمل كل شيء."

"هناك وافدة. الاجهاد يخفض المقاومة. انت والوالد تبدوان منهكين. يجب ان نفعل شيئاً. لو كان بامكاني ان اعرف ماذا. اننا لا نهتم كثيراً بانفسنا. اسمعي. لست نائمة؟"

"كلا."

"انا لا اهتم بنفسي، لي تسع ارواح، ولكن اذا حدث ان مرضتُ فانك سوف تتألمين، أليس كذلك؟ يجب ألاّ ابقى في البيت. خذيني فوراً الى المستشفى."

"لا تتكلم هكذا. اشكر الله انك بصحة جيدة. لماذا تقوم بدور نذير الشؤم؟"

"تذكري انه لم يبق اناس شرفاء، ولا اصدقاء. وأقل من ذلك الاكفياء. اذا حدث شيء لا تثقي الا ببيشوجكين. هذا، بالطبع، اذا كان لايزال هناك. لست نائمة؟"

"كلا."

"المرتب ليس كافياً، ولذلك انصرفوا كلهم، اما الآن فيفسرون ذلك على اساس انه يعود الى مبادىء وميول سياسية. تصادفينهم في الطريق فيكادون لا يصافحونك بل يرفعون اليك حواجبهم قائلين: "إذاً، انت تعمل معهم؟ ـ وأجيب: أجل، واذا شئت، فأنا فخور بالحرمان واحترام اولئك الذين يشرفوننا بأن يفرضوا انفسهم علينا."

١٠

لوقت طويل بقي غذاء معظم السكان يتألف يومياً من الذرة البيضاء المسلوقة والشوربا المصنوعة منْ رؤوس سمك الهرنغ، اما الهرنغ نفسه فيستعمل وجبة ثانية، ونوع من الكاشا كان يصنع ايضاً من القمح غير المقشور، والشوفان.

وقامت استاذة من صديقات انطونينا الكسندروفنا بتعليمها كيفية خبز العجين على فرن الماني مرتجل.وكانت الفكرة ان تبيع بعض الخبز لتغطية تكاليف محروقات مدفأة الفخار التي عادت الى استعمالها كما كانت تفعل في الايام القديمة، بدل موقد الحديد إلذي مازال يدخن دون ان يعطي أي دفء.

وكان خبز انطونينا الكسندروفنا جيداً ولكنه لم يعط أي مردود تجاري كما كانت تنتظر، فاضطروا للعودة الى موقد الحديد الخرب. ووقع

آل جيفاكو في ضيق.

وفي صباح ما، بعد ان ذهب يوري اندرييفيتش الى عمله، وضعت انطونينا الكسندروفنا معطف الشتاء القديم - وكانت منهكة لدرجة انها كانت ترتجف فيه حتى في الطقس الحار - وخرجت "تصطاد". وكان لايزال عندهم قطعتان من الخشب فقط.وهامت ما يقرب من نصف ساعة في الممرات المجاورة حيث يمكنك ان تجد فلاحاً من احدى القرى المجاورة لموسكو يبيع بعض الخضار اوالبطاطا. ففي الشوارع الكبرى كان الفلاحون الذين يحملون اغذية عرضةً للتوقيف. وفجأة وجدت ما كانت تفتش عنه. فقد كان هنالك فتى قوي البنية في معطف الفلاحين يسير خلفها وهو يدفع عربة ثلج تبدو خفيفة كاللعبة ويتبعها بحذر حتى فناء الدار.

وكان في داخل العربة، حمولة من خشب الحور مغطاة بأكياس، لا تتجاوز سماكة قضبانها سماكة حاجز شرفة بيت ريفي في احدى صور القرن التاسع عشر. وعرفت انطونينا الكسندروفنا قيمتها الحقيقية - حور بالاسم فقط، والخشب من اسوأ الانواع وطري جداً لا يصلح للوقود. ولما لم يكن لها مجال للاختيار وجدت ان المساومة لا جدوى لها.

وحمل القروي الفتى خمس او ست رزم من الحطب الى غرفة الجلوس وأخذ مقابلها خزانة تونيا الصغيرة ذات المرآة. وحملها الى العربة وحزمها فيها ليأخذها هدية لعروسه. وعندما بحث امر صفقة ثانية من البطاطا طلب مقابلها ثمن البيانو.

وعندما عاد يوري اندرييفيتش الى البيت لم يقل كلمة حول الصفقة التي اتمتها زوجته. كان من الافضل لو انهم كسروا الخزانة، ولكنهم لم يتمكنوا من حمل انفسهم على ذلك.

وقالت: "هناك رسالة لك على الطاولة، هل رأيتها؟"

"تلك المرسلة من المستشفى؟ أجل، لقد تسلمت الرسالة. انها دعوة

لمعالجة مريض. سوف اذهب ولا ريب. ولكني سأستريح قليلاً قبل ذلك. انه بعيد نوعاً ما. وهو يقع قرب قوس النصر، لقد اخذت العنوان."

"هل رأيت الاجرة التي يعرضونها عليك؟ من الافضل ان تقرأ ذلك. زجاجة من الكونياك الالماني او زوج من الكلسات! أي نوع من البشر هم، هل تتصور؟ عاديون. يبدو انهم لا يعرفون كيف نعيش في هذه الايام، اظن انهم حديثو النعمة."

"أجل انها من احد الملتزمين."

وكان الملتزمون وأصحاب الامتيازات والوكلاء المرخص لهم، اسماء تطلق على صغار اصحاب الاعمال الذين كانت الحكومة تعطيهم احياناً، وبعد ان الغت التجارة الخاصة، امتيازات في بعض اوقات الصعوبات الاقتصادية وتكلفهم بتأمين مختلف المواد.

ولم يكونوا اثرياء سابقين او رؤساء المعامل القديمة المسرحين - فأمثال هؤلاء لم ينهضوا من الضربة التي اصابتهم، بل هم فئة جديدة من رجال الاعمال، اناس دون جذور ابرزتهم من الاسفل الحرب والثورة.

واخذ جيفاكو شراباً من الماء الحار المحلى بالسكارين والممزوج بقليل من الحليب ثم خرج لرؤية مريضه.

وامتلأ الشارع من الجدار الى الجدار بثلج عميق وصل في بعض الاماكن الى مستوى نوافذ الطابق السفلي. وتحركت اشباح صامتة نصف مائتة في هذه المساحة تحمل قليلاً من الطعام او تدفعه على زحافات. ولم يكن هناك تقريباً أي مواصلات اخرى.

وبقيت علامات المخازن القديمة معلقة هنا وهناك. وليس لها، اية علاقة مع دكاكين المستهلكين الجديدة الصغيرة والتعاونيات التي كانت كلها فارغة ومقفلة ونوافذها مسمّرة.

اما سبب كونها مقفلة وفارغة فليس فقط لعدم وجود حاجات، بل لأن اعادة تنظيم كل اسباب الحياة، بما فيها التجارة، كان لايزال حتى

ذلك الوقت حبراً على ورق ولم يؤثر في تفاصيل تافهة كالدكاكين المقفلة.

١١

كان البيت الذي ذهب اليه الدكتور واقعاً في نهاية شارع برست، قرب بوابة تفير. وهو بناء حجري قديم يشبه الثكنات، له فناء داخلي وثلاثة سلالم خشبية ترتفع الى جانب جدران الفناء.

وفي ذلك اليوم كان السكان يعقدون اجتماعهم العام الذي اشتركت فيه امرأة موفدة من مجلس الايجارات، واذ داهمتهم بعثة عسكرية مكلفة بالتدقيق في اجازات السلاح ومصادرة الاسلحة غير المرخص بها. واضطر السكان للرجوع الى مساكنهم ولكن رئيس البعثة طلب من المندوبة ألاّ تغادر المكان، بعد ان اكد لها ان التفتيش لن يطول امده والاجتماع يمكن ان يستأنف بعد وقت قصير. وعندما وصل الدكتور كانت البعثة اوشكت على الانتهاء، وما أن وصل الدكتور حتى اوقفه جندي يحمل بندقية ولكن رئيس البعثة الذي سمعهما يتناقشان امر بايقاف التفتيش حتى يفحص الطبيب مريضه.

وفتح رب البيت الباب وهو شاب مهذب ذو وجه مصفر وعينين داكنتين حزينتين. وبدا مضطرباً لعدة اسباب ـ منها مرض زوجته، والتفتيش المرتقب، واحترامه العميق للعلوم الطبية وممثليها.

ولتوفير وقت الطبيب واضطرابه، حاول ان يكون مقتضباً قدر المستطاع، ولكن استعجاله جعل حديثه طويلاً وغير متماسك.

وكان المسكن ممتلئاً بخليط من الاثاث الرخيص والغالي الثمن، أشتري بسرعة احتياطاً ضد التضخم المالي السريع. ودعمت المقاعد بقطع مفردة.

وظن الشاب ان مرض زوجته سببته صدمة عصبية. وشرح، مستطرداً عدة مرات، كيف ابتاعوا مؤخراً ساعة اثرية. وكانت الساعة ترسل نغمة موسيقية، ولكنها كانت مكسورة، وقد اشتروها فقط كمثل بارز على فن صانع الساعات (واخذ الدكتور الى الغرفة المجاورة ليريه اياها). وشكّوا في امكانية اصلاحها. وفجأة، في احد الايام، بدأت الساعة التي لم تعبأ منذ سنوات، تلعب من نفسها انغامها المعقدة، ثم توقفت. وقال الشاب ان زوجته ارتاعت وايقنت ان ساعتها قد دنت ثم اخذت تهذي، ورفضت أي طعام، ولم تعد تعرفه.

وقال يوري اندرييفيتش شاكاً: "إذاً، انت تظن انها صدمة عصبية، هل بامكاني ان اراها الآن؟"

وذهبا الى غرفة اخرى فيها شمعدان من الخزف، وسرير مزدوج عريض وطاولتان صغيرتان من خشب الماهوغوني قرب رأس السرير. وتمددت امرأة صغيرة ذات عينين سوداوين كبيرتين قرب حافة السرير وقد رُفع الشرشف الى ما فوق خدها. وعندما رأتهما سحبت احد ذراعيها من تحت غطاء السرير ودفعته الى الخلف فوقع طرف ثوبها حتى ابطها. ولم تعرف زوجها وراحت، كما لو كانت وحيدة في الغرفة، تغني لحناً حزيناً بصوت منخفض ثم تعاظم حزنها حتى ابتدأت تبكي وتنتحب كالطفل راجية ان "تذهب الى البيت". وعندما اقترب الطبيب من السرير ادارت له ظهرها ولم تسمح له ان يمسها.

وقال: "يجب ان افحصها، ولكن ذلك بالحقيقة لا يهم. فمن الواضح انها مصابة بالتيفوس ـ شكل شديد، مسكينة هي، يجب ان تكون شاعرة انها منهكة. نصيحتي لك ان تضعها في مستشفى. انا اعرف انك تريدها ان تحصل على كل شيء تحتاج اليه في البيت، ولكن الاهم هو ان تكون تحت رقابة طبية دائمة في الاسابيع القليلة الأولى. هل يمكنك الحصول على أي نوع من العربات؟ من الطبيعي انها يجب ان تدثر

جيداً. سأعطيك بطاقة دخول."

"سأجرب، ولكن انتظر لحظة. هل هو حقيقة تيفوس؟ انه لشيء مخيف!"

"اخشى ان يكون الامر كذلك."

"انظر. انا اعرف اني سوف اخسرها اذا ارسلتها - ألا يمكنك العناية بها هنا؟ تعال قدر ما تستطيع - وسوف اكون مسروراً جداً بان ادفع لك كل شيء تريده."

"متأسف - لقد قلت لك ان ما تحتاج اليه هو الرقابة الدائمة. افعل ما اقول لك - اني انصحك من أجل خيرها. والآن استحضر عربة مهما كلف الأمر وانا اكتب البطاقة. كلا، اني افعل ذلك بشكل افضل في قاعة الاجتماع في البناية. يجب ان تحمل البطاقة خاتم البناية عليها، وهناك بعض الشكليات الاخرى."

١٢

رجع السكان واحداً بعد آخر في فرائهم وشالاتهم الى القبو البارد الذي كان يستخدم سابقاً مخزناً لبيع البيض بالجملة واصبح يستعمل الآن غرفة اجتماع للجنة.

وفي احد جانبيه وضع مكتب وعدد من الكراسي. ولما لم يكن هناك ما يكفي من الكراسي، فقد قلبت بعض صناديق البيض الفارغة رأساً على عقب ووضعت صفاً لتؤلف مقعداً. ونضد عامود منها، بعضها فوق بعض حتى السقف في الطرف الآخر للغرفة. وفي زاوية تكومت كومة من نشارة الخشب التصقت على شكل كتل بواسطة بياض البيض الذي نز من البيض المكسور. وراحة الفئران تركض داخل الكومة. فتطل مرات من وسط ارض الغرفة الحجرية ثم تقفل راجعة.

وفي كل مرة حدث فيها ذلك كانت امرأة سمينة تقفز فوق صندوق

وهي تصرخ، وترفع اطراف قميصها ذي الدانتلا وتدق بحذائها الطويل وتصيح بصوت عال اشبه بصوت السكارى:

"اوليا ، اوليا ، عندك فئران في كل المكان. اذهبي ايتها المتوحشة القذرة. أي ـ أي ـ أي! انظر انها تتطلع الي. أي ـ أي ـ أي، انها تحاول ان تقفز الى فوق، سوف تدخل تحت قميصي، انني اخاف! انظروا الى الجانب الآخر ايها السادة. متأسفة لقد نسيت انكم الآن مواطنون رفاق لا سادة."

وكان معطف الاستراخان الذي تلبسه يتدلى فوق فسطانها ، وقد رفعته بيديها الى اعلى صدرها وبطنها ذي الطبقات الثلاث المهتزة الذي لفته بحرير ثمين. فقد كانت في وقت من الاوقات محظية عند حلقة من صغار التجار والباعة، اما الآن فان عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الخنزير بجفونهما المتورمة فتكادان لا تنفتحان. ومرة حاولت احدى المنافسات ان تشوهها بزيت الزاج ولكنها اخطأتها ، ولكن قطرة او قطرتان فقط تركتا آثاراً طفيفة تكاد لا تلاحظ في خدها وعلى زاوية فمها.

وصاحت بها مندوبة مجلس الايجارات التي انتخبت رئيسة وجلست خلف المكتب: "كفاك صياحاً يا خرابوجينا. كيف يمكننا انجاز العمل؟"

وكانت المندوبة تعرف البناية ومعظم السكان طول حياتها. وقبل الاجتماع تحدثت بصورة غير رسمية مع العمة فاطمة، حارسة الباب الهرمة التي كانت تعيش مع زوجها واولادها في زاوية من القبو القذر ولكنها الآن لم يبق معها الا ابنتها فنقلتا الى غرفتين منورتين في الطابق الاول.

وسألتها المندوبة: "حسناً، فاطمة، كيف تسير الاحوال؟"

وتذمرت فاطمة من انها لا تتمكن من انجاز العمل في هذا البيت الفسيح ومع السكان الكثيرين وحدها ، وانه ليس هناك من يساعدها ،

لأنه رغم ان من المفروض على كل عائلة ان تتناوب مع الآخرين في تنظيف الفناء والارصفة، الا ان احداً لم يقم بذلك.

"لا تقلقي يا فاطمة، سوف نريهم. أي نوع من اللجان هي هذه؟ على كل حال لا فائدة منهم. يحمون العناصر المجرمة، ولا يسجلون المشكوك باخلاقهم. سوف نتخلص منهم وننتخب غيرهم. سوف اعمل منك مديرة للبيت، ولكن لا تضجي."

ورجت حارسة الباب ان تترك وشأنها، ولكن المندوبة لم تصغ.

ونظرت في ارجاء الغرفة وقررت ان عدد الحضور كاف فطلبت من الجميع السكوت وافتتحت الاجتماع بكلمة قصيرة، ثم اتهمت اللجنة بالتقصير وعرضت ان يجري الترشيح لانتخاب لجنة جديدة وبعد ذلك اهتمت بأعمال اخرى.

وفي النهاية قالت:

"ايها الرفاق هذا هو الحال. واذا اردنا الصراحة فانها بناية كبيرة، انها لفندق. انظروا الى جميع المندوبين الذين يفدون الى المدينة لحضور المؤتمرات فلا ندري اين نضعهم. لقد تقرر ان نستولي على البناية لتصبح فندقاً سوفياتياً للمنطقة، ينزل فيه الضيوف من الريف، ندعوه فندق تيفرزين تخليداً لذكرى الرفيق تيفرزين الذي كان يعيش هنا قبل نفيه كما يعرف الجميع. هل هناك من يعترض؟ والآن بشأن التوقيت. ليس عندنا ما يدعو للعجلة، امامكم عام كامل. العمال تؤمن لهم بيوت اخرى، والآخرون عليهم ان يوجدوا بيوتاً لأنفسهم، فقد اعطوا انذاراً لمدة سنة."

"كلنا عمال! كل واحد منا! كلنا عمال." وراح الجميع يصيحون وتميز صوت واحد يقول: "انه كُرْه الاغراب الذي كان في روسيا الكبرى! كل الامم متساوية الآن! انا اعرف ما الذي ترمين اليه."

"لا تتكلموا دفعة واحدة، ارجوكم. على من اجيب اولاً؟ ما الذي

تفعله الامم هنا ايها المواطن فالديركين؟ انظر الى خرابوجينا. لا يمكنك ان تفكر ان هناك مسألة قومية في حالتها ونحن نستثنيها ولا ريب."

وصرخت خرابوجينا: "اصحيح ذلك! جربي ان تستثنيني وسنرى ما يحدث! انت ايها المقعد المحطم! ايها الغطاء الممزق!" وراحت تنعت المندوبة بكل اسم لا معنى له يمكن ان تفكر به في حمى العراك.

وثارت حارسة الباب: ما هذه الشيطانة؟ الا تخجلين؟"

وقالت المندوبة: "لا تتدخلي في هذا، يا فاطمة. أنا اهتم بامري."

كفاك يا خرابوجينا فانا اعرف كل شيء عنك. اقول لك اسكتي والا سلمتك فوراً للسلطات قبل ان يمسكوك وانت تصنعين الفودكا وتديرين حانة غير مرخص بها."

وكان الضجة على اشدها عندما دخل الطبيب الى الغرفة. وسأل اول رجل صادفه عند الباب ان يدله على احد اعضاء لجنة البناية. فوضع الرجل يديه حول فمه كالبوق وصرخ فوق الضجيج:

"غا - لي - بول - لي - نا! تعالي انت مطلوبة."

ولم يصدق الدكتور اذنيه. واتجهت نحوه امرأة نحيفة متقدمة في السن، هي حارسة الباب. واذهله شبهها بابنها، ومع ذلك فانه لم يعرّفها بنفسه فوراً بل قال: "احد السكان عندك اصيب بالتيفوس (ولفظ اسم المريضة). هناك عدد من الاحتياطات يجب ان تؤخذ لمنع انتشار المرض. وفوق ذلك، فان المريضة يجب ان تذهب الى المستشفى. سأكتب بطاقة قبول، وعلى لجنة البناية ان تصدقها. اين وكيف يمكننا انجاز ذلك؟"

وفكرت انه يقصد "كيف يمكن نقل المريضة الى المستشفى؟" فأجابت: "هناك عربة آتية من السوفيات للرفيقة دمينا، انها المندوبة. والرفيقة دمينا لطيفة جداً، سأخبرها وهي تسمح بالتأكيد لمريضتك ان تأخذ العربة. لا تقلق ايها الرفيق الدكتور، سوف نعتني بها جيداً."

"ممتاز. بالفعل لم اقصد ان اقول الا اين يمكنني كتابة بطاقة القبول

ولكن اذا كـان هناك عـربـة ايضـاً هل يمكنني ان اسـألك، هل انت والدة الملازم غاليولين؟ كنا في القطعة نفسها في الجبهة."

ونظرت غاليولينا بعنف وامتقع وجهها. وجذبت يد الدكتور وقالت: "تعال معي، سنتكلم في الفناء."

وما أن اصبحا خارج الباب حتى قالت بسرعة: "تكلم بهدوء، بشفاعة الله.،لا تخرب بيتي. لقد اخطأ يوسوبكا. احكم بنفسك ـ ما هو؟ لقد كان اجيراً، عاملاً. وأراد ان يفهم ـ الناس العاديون افضل لهم اذا ابتعدوا الآن، الاعمى يرى ذلك، ولا احد ينكره. لا ادري ماذا تشعر انت نفسك، لعله من المناسب لك، ولكنها خطيئة بالنسبة ليوسوبكا، الله لن يسامحه ابداً. والد يوسوبكا كان جندياً عادياً، قتل، ويقولون: وجهه شوّه، ويداه ورجلاه."

وغاب صوتها، وانتظرت حتى استعادت هدوءها ثم اكملت: "تعال. سأجلب لك العربة. انا اعرف من انت. كان هنا قبل يومين وقد اخبرني. قال انك تعرف لارا غيشار. كانت فتاة طيبة، اذكرها جيداً، فطالما اتت لترانا. ماذا حل بها الآن، لا ادري ـ من ذا الذي يمكنه ان يعرف؟ وعلى كل حال فانه من الطبيعي للاسياد ان يلتحموا معاً. ولكنها خطيئة بالنسبة ليوسوبكا. تعال لنطلب العربة. انا متأكدة ان الرفيقة دمينا سوف تعطيها لك. هل تعرف من هي الرفيقة دمينا؟ انها اوليا دمينا، كانت خياطة تعمل عند ام لارا، هذه هي، وهي من هذه البناية. تعال."

١٣

كان الليل قد هبط وغرق كل ما حولهما في ظلام، وكانت بقعة النور الضيقة التي ارسلها مصباح دمينا الكهربائي تقفز من كومة ثلج الى كومة اخرى على اربع أو خمس اقدام الى الامام، فتشوشهما بدل ان

تنير الطريق. وكان الظلام دامساً حولهما وقد تركا خلفهما البناية التي عرف كثيرون فيها لارا حيث كانت تأتي دائماً وهي فتاة، وحيث تربى، على حدّ قولهم، زوجها انتيبوف.

"هل يمكنك حقاً ان تجد طريقك دون مصباح ايها الرفيق الدكتور؟" وكانت دمينا تتكلم مازحة باستعلاء. "اذا كان الامر لا، فأنا اعيرك مصباحي. هل تعلم اننا تصادمنا معاً عندما كنا طفلتين. كان عندهم محل للخياطة وكنت اتعلم في المصنع. رأيتها هذا العام. توقفت عند مرورها بموسكو. قلت: الى اين انت ذاهبة ايتها البليدة؟ ابقي هنا. تعالي واسكني معنا. سوف نجد لك عملاً. ولكن دون جدوى، فلم تقبل. حسناً، هذا يخصها. تزوجت باشا بعقلها لا بقلبها، ومنذ ذلك الوقت وهي متهورة. ذهبت بعيداً."

"ما رأيك بها؟"

"انتبه ـ يمكن ان تتزحلق. لست ادري كم من المرات قلت لهم ألاّ يلقوا القشور خارج الابواب ـ كما لو كنت تتكلم مع حائط. ما رأيي بها؟ ماذا تعني، رأيي؟ ماذا يجب ان يكون رأيي؟ ليس لدي أي وقت للرأي. اقطن هنا. شيء واحد لم اخبرها به ـ اخوها، الذي كان في الجيش، اظن انهم قتلوه. اما امها، التي كانت معلمتي، سوف انقذها، اعمل لذلك. حسناً، علي ان ادخل ـ وداعاً."

وافترقا. وانطلق نور مصباح دمينا الصغير على المدخل الحجري الضيق، ثم اختفى مضيئاً الجدران المطلية والدرج القذر، في حين بقي الدكتور تحيط به الظلمات. وكان يمتد على يمينه شارع سادوفايا تريومفالنايا، وعلى يساره شارع سادوفايا كارتنايا. ولم يكن الشارعان طويلين، ولكن امتدادهما في الثلج المظلم جعل المسير بين غابات الابنية الحجرية يشبه المسير بين غابات سيبريا او الاورال.

وفي البيت وجد النور والدفء.

وسألت انطونينا الكسندروفنا: "لماذا تأخرت هكذا؟" وتابعت تقول قبل ان يتمكن من الاجابة: "شيء غريب حدث وانت غائب. بالحقيقة شيء لم يكن بالحسبان. بالامس كسر والدي المنبّه ـ نسيت ان اخبرك بذلك ـ وقلق جداً، فهو الساعة الوحيدة عندنا. جرب ان يصلحها فعالجها وعالجها. ولكنه فشل. والساعاتي الموجود عند الزاوية طلب اجرة مضحكة ـ كيلو ونصف من الخبز. ولم اكن ادري ما يجب عمله واصبح الوالد يائساً تماماً. حسناً، ومنذ ساعة تقريباً ـ هل يمكنك ان تتصور ذلك ـ حدث رنين مفاجىء ـ صوت حادّ يصم الآذان ارعبنا جميعاً. كان المنبه نفسه! هل يمكنك تصور مثل هذا الشيء؟ فقد اصطلح ثانية، من نفسه."

"دقت ساعة اصابتي بالتيفوس" قال يوري اندرييفيتش هذا وهو يضحك، ثم اخبرها قصة مريضته والساعة الموسيقية.

١٤

ولكنه لم يصب بالتيفوس الا بعد ذلك بمدة طويلة، وفي تلك الفترة كان آل جيفاكو قد جُربوا حتى نهاية احتمالهم. لم يبق لديهم شيء وقد جاعوا. وذهب الدكتور ليرى عضو الحزب الذي انقذه مرة والذي كان ضحية حادث السلب. فقام هذا الرجل بكل ما يسعه من أجل الدكتور، ولكن الحرب الاهلية كانت قد ابتدأت ونادراً ما كان يوجد في موسكو. وفوق ذلك، فقد كان ينظر الى الحرمان الذي يعانيه الشعب في تلك الايام على انه طبيعي جداً، وجاع هو نفسه، رغم انه كان يخفي ذلك.

وحاول يوري اندرييفيتش ان يتصل بالملتزم الذي يسكن في شارع برست. ولكن الشاب كان قد اختفى في تلك الأشهر ولم يُعرف شيء عن زوجته التي شفيت. وكانت غاليولينا خارج البناية عندما جاء يوري اندرييفيتش، وكان معظم السكان جدداً، ودمينا في الجبهة.

وفي احد الايام حصل على اعاشة من الحطب بالسعر الرسمي. وكان عليه ان ينقلها من محطة فندافا، وسار على قدميه عبر تعرجات شارع ميشانسكايا التي لا تنتهي وهو يراقب العربة المحملة بالكنز الثمين ـ ولاحظ ان الشارع بدا غير ما كان عليه، وشعر انه كان يترنح من جانب الى آخر، وقد رفضت ساقاه ان تحملاه. وادرك انه كان أمام وقت سيء، وانه كان مصاباً بالتيفوس. وحمله السائق عندما سقط على الارض ووضعه فوق كومة الحطب. ولم يعِ الدكتور كيف وصل الى البيت.

١٥

وبقي يهذي مدة اسبوعين. وحلم ان تونيا وضعت شارعين على مكتبه، سادوفايا كارتنايا على يساره وسادوفايا تريو مفالنايا على يمينه واضاءت مصباح الطاولة فأنارت اشعته البرتقالية الشارعين وغدا بامكانه ان يكتب. وهكذا راح يكتب.

وكتب ما كان يجب عليه ان يكتبه منذ زمن بعيد، وما كان قد تمنى ان يكتبه دائماً دون ان يقدر. كان الآن يأتي اليه بسهولة، ويكتب بشغف ويقول تماماً ما اراد ان يقول. وكان، بين الفينة والاخرى، يلمح فتىً في طريقه... فتىً ذا عينين صغيرتين مثل عيون الكيرغيز، عليه معطف من جلد الغزال غير مزرر، وقد لبس جانب الفراء الى الخارج على طريقة اهل سيبريا او الأورال.

وعرف بالتأكيد ان هذا الفتى هو روح موته او بصراحة اكثر، انه موته، ولكن كيف يمكن ان يكون موته اذا كان يساعده على كتابة قصيدة؟ كيف يمكن للموت ان يكون مفيداً، كيف يمكن للموت ان يكون عوناً؟

ولم يكن موضوع قصيدته الدفن او البعث بل الايام التي تأتي

بينهما: وعنوانها: "فوضى".

اراد دوماً ان يصف كيف هاجمت الارض السوداء الهائجة، الملأى بالديدان، ولمدة ثلاثة ايام، تجسيد الحب الذي لايموت، وامطرته بالصخور والمدر - وكما تطير الامواج وتقفز على شاطىء البحر، تغطيه وتغرقه - كيف جنت عاصفة الارض السوداء مدة ثلاثة ايام وتقدمت ثم تراجعت.

واستمر بيتان يترددان في رأسه:

"اننا سعداء بان نكون قربك" و"حان الوقت لتستيقظ".

وقربه وبمحاذاته كان الجحيم، والانحلال، والفساد، والموت، وبجانبه ايضاً كان الربيع ومريم المجدلية والحياة. حان الوقت لليقظة، وقت الافاقة والنهوض، وقت القيامة، وقت البعث.

١٦

وابتدأ يتحسن. في البدء اخذ كل شيء على انه مفروغ منه، مثل نكتة ناقصة. لم يذكر شيئاً، ولم يعد بامكانه ان يرى أي علاقة بين شيء وآخر، ولم يستغرب شيئاً. وغذته زوجته بالخبز الابيض والزبدة والشاي المحلى بالسكر، واعطته قهوة. ونسي ان مثل هذه الاشياء غير موجودة واستمرأ طعمها مثل الشعر أو قصص الجنيات، واعتبرها صالحة للناقهين. ولكن سرعان ما ابتدأ يفكر ويستغرب.

وسأل زوجته: "كيف يمكنك الحصول على كل هذا؟"

"غرانيا جلبها لنا"

"أي غرانيا؟"

"غرانيا جيفاكو"

غرانيا جيفاكو؟"

"نعم، شقيقك ايفغراف، من اومسك. شقيقك من ابيك. كان يأتي

كل يوم وأنت مريض."

"هل يلبس معطفاً من جلد الغزال؟"

"صحيح. لقد رأيته إذاً. كنت فاقد الوعي كل الوقت تقريباً. قال انه مر بك على درج احدى البنايات. وعرفك - اراد ان يكلمك ولكن يظهر انك أخفته حتى الموت! انه يجلّك حتى العبادة ويقرأ كل كلمة تكتبها. والاشياء التي جلبها لنا! ارز، عنب، سكر! لقد رجع الآن. يريدنا ان نذهب الى هناك أيضاً. انه فتى غريب، غامض نوعاً ما. اظن انه يجب ان يكون على علاقة ما بالحكومة هناك. يقول ان علينا ان نبتعد سنة او سنتين، ان نترك المدن الكبرى وقال: ارجعوا الى الارض فترة. وفكرت في مكان كروجر فقال ان الفكرة ممتازة. يمكننا ان نزرع الخضار والغابة حولنا. ليس هناك أي معنى للموت دون صراع كما تموت الخراف."

وفي نيسان من ذلك العام توجه جيفاكو وكل عائلته الى املاك فاريكينو السابقة قرب مدينة يورياتين، بعيداً في الاورال.

الفصل السابع

قطار الى الأورال

١

إنها الأيام الأخيرة من آذار، الأيام الفاترة الأولى من السنة، تباشير الربيع الخاطئة التي تسبق، في كلّ عام، برداً شديداً.

كان آل غروميكو يتهيؤون بسرعة للرحيل. ووجد آل جيفاكو إيضاحاً للمستأجرين الكثر الذين كانوا يملؤون البيت، وهم اكثر من عصافير الشارع: التنظيف العامّ قبل الفصح.

عارض يوري اندريفيتش هذا الرحيل. لكنه لم يعق التهيؤ له بشيء، لأنّ المشروع تراءى له مستحيلاً وأمل ان يفشل في اللحظة الاخيرة. إلا انّ العمل كان يتقدّم، ويقترب من نهايته. وجاء يوم تحتم فيه الكلامُ بجدّ.

ومرّة اخرى أفصح عن رأيه أمام زوجته ووالدها المجتمعين لنصيحة العائلة. فقال بعد أن اظهر مخالفاته: "تظنّان إذاً انني مخطىء وأن علينا ان نذهب؟".

وردّت زوجته قائلة: "تقول إنّ باب الرزق ضيقٌ علينا سنة او سنتين، وأننا، حين تنظّم مشكلة الزراعة، نستطيع ان نحصل على قليلٍ من الارض قرب موسكو، ونزرع فيها الخضار. لكنك لا تقول لنا كيف سنعيش حتى ذلك الوقت. ومع ذلك فهذا هو المهم، هذا ما نحبّ ان نسمعك تقوله لنا".

"إنه لهذيان"، قال الكسندر الكسندروفيتش تأييداً لابنته."

ووافق يوري اندرييفيتش.

"حسناً، أوافق. الشيء الوحيد الذي يوقفني هو المجهول. اننا نمضي بعيون معصوبة، كحاطب ليل، دون أن نعرف شيئاً عن المكان الذي نذهب اليه. هناك اثنان من أهلنا في فاريكينو، أمي وجدتي اللتان أصبحتا على شفير القبر، والثالث هو جدي كروجر، الذي سُجن كرهينة، على افتراض أنه لايزال حيّاً.

"لا أعرف، خلال السنة الاخيرة من الحرب، ماذا فعل بغاباته ومنجمه. كان عليه، شكلياً، أن يبيعها الى عضو في شركة او الى بنك، او يسجلها باسم ثلاثة اشخاص مستخدماً بعض الضمانات. ماذا نعرف عن اوضاعه؟ لمن أملاكه الآن؟ لا أتكلم عن وثائق الملك، فهي لا تهمني. أريد ان اقول: من المسؤول عنها؟ بأيّ طريقة تعود لسابق عهدها؟ هل تُستثمر الغابة؟ هل تنجح المناجم؟ اخيراً، أي جيشٍ حكم في المنطقة، وأي جيش سيحكم فيها حين نكون قد وصلنا إليها؟

"ان مرساة الطمأنينة، بالنسبة لكما، هو ميكوليتسين الذي تحبّان كثيراً ترديد اسمه لكن من يقول لكما إنّ هذا الوكيل القديم لايزال حياً وانه لايزال في فاريكينو؟ وماذا نعرف عنه، غير كراهية جدي التلفظ باسمه (مما يوضح أننا سنندم على ذلك؟)

"أخيراً لماذا النقاش؟ لقد قررتما السّفر. إنني موافق. يجب أن نبحث عن إمكانية الرّحيل في هذه اللحظة، فمن غير المفيد تأخيره."

٢

ذهب يوري أندرييفيتش الى محطة ياروسلافل ليحصل على تعليمات السّفر.

كان سيلُ الناس الذين هم على وشك الرّحيل محصوراً بحواجز

صغيرة مُنظمة في القاعات. وعلى الأرض كان يتمدد رجالٌ بمعاطف رمادية، يتململون ويتلفتون، يسعلون ويبصقون. (كانوا ينسون بأيّ دويّ قوي ترجّع القباب صدى صوتهم.)

كان أغلبهم في طور النقاهة من التيفوئيد، وقد وضعوا في الشارع لامتلاء المستشفيات، صبيحة الأزمة الأخيرة. ووجد يوري أندرييفيتش نفسه، كطبيب أمام مثل هذه الضرورة، غير انه كان يجهل ان هؤلاء التعساء كثيرون جداً وان المحطات هي بمنزلة ملجأ لهم.

وقال له عتال يحمل نطاقاً أبيض "قل انك في مُهمّة. فلا بدّ من المراجعة دائماً. القطارات الآن نادرة، انها حظّ. ومن المؤكد... (وفرك العتال ابهامه باصبعيه الوسطى والسبابة). قليل من الطحين، شيء بسيط ما... فبدون رشوة، يتأخر السفر. وهذا أكيد (ومرّ بطرف سبابته على حنجرته)، هذا هو الكلام الصحيح..."



٣

في هذا الوقت دُعي الكسندروفيتش ليشترك في بعض المشاورات غير العادية في المجلس الاقتصادي الأعلى، واستدعيَ يوري اندرييفيتش لعلاج احد أعضاء الحكومة، المريض مرضاً خطيراً. وقد تلقى كل منهما أفضل اجر ممكن: فقد أعطيا بطاقات تموين من مخزن "احتياطي"، هو المخزن الوحيد إذاك.

كان المخزن قائماً في مستودعات الحرس، قريباً من دير سانت - سيميون. واجتاز الدكتور ووالد زوجته ساحتي الكنيسة والثكنة ودخلا معاً تحت قناطر كهف عميق، تعمق أرضيته تدريجياً، ثم تتسع في الوسط حيث يقف وراء طاولة معترضة وكيل مستودع بارد الهمّة. كان يتغيب أحياناً ليشتري بضاعته، ويعود ليزن ويوزع المؤونة، ويمحو، في

كل مرة، بجرة قلم كبيرة اسم المحصول المسجل على القائمة التي تقدم له.

كان عنده قليلٌ من الزبائن. "الأوعية!" قال امين المستودع للاستاذ وللدكتور، بعد أن ألقى نظرة سريعة على بطاقات الاستاذ والدكتور. وفتح كلاهما عينيه دهشة حين سُكب في أغطية الوسائد والمخدات التي فتحاها، طحين وسميد وسكر ومعجنات، وحُشيت بشحم الخنزير والصابون والكبريت وكيس من الورق فيه قطعة جبن قوقازية.

واسرع كل من الدكتور والاستاذ بوضع اشيائها الصغيرة في حقيبتين كبيرتين يستطيعان ان يحملاهما على الكتف، واراد أن يضعا بأسرع ما يمكن حداً لعدم خبرتهما في هذه الأمور، خوف ان يُضايقا امين المستودع الذي اغدق عليهما بسخاء.

وحين خرجا من الكهف وتنشقا الهواء الطلق، أحسّا بالنشوة. لم تكن هذه فرحة حيوانية. كانا يشعران أنهما "لا يسرقان الخبز الذي يأكلانه"، وانهما لم يضيعا وقتهما، وكانا متأكدين بأنهما سيفوزان برضا وثناء تونيا سيدة البيت.

٤

وحين كان الرجلان يُمضيان وقتهما في المكاتب للحصول على اوراق وشهادات تثبت ان لهما حقوقاً في الشقة التي سيتركانها، كانت انطونينا الكسندروفنا ترتب الاشياء التي جلباها وتحزمها.

وكانت تجتاز بخطا طويلة وبمظهر اهتمام، الغرف الثلاث التي تملكها الآن عائلة جيفاكو، وتروز ابسط الأشياء قبل ان تضعه فوق الكومة الكبيرة من الامتعة التي ستأخذها معها.

لم تكن الامتعة الشخصية للمسافرين تشكل الا قسماً ضئيلاً من

الامتعة التي يأخذونها معهم، فقد كان كل شيء تقريباً بالمقايضة - الوسيلة الوحيدة لمعيشتهم خلال السفر وفي الايام التي تعقب وصولهم.

وهب نسيم ربيعي من الكوة المفتوحة، حاملاً معه رائحة خبز غسوي طري. وكانت الديوك تصيح في الخارج فيمتزج صياحها مع صراخ الاطفال الذين يلعبون.. وكانوا كلما عملوا على تهوية الغرفة، احسوا برائحة النفتالين التي تبعثها ثياب الشتاء المنبوشة من صناديقها.

اما بالنسبة لمعرفة ما يجب اخذه وما يجب تركه، فقد كانت هناك آراء يرددها الموسكوبيون الذين سافروا، وقد انتشرت في حلقات اصدقائهم الذين لم يغادروا العاصمة.

كانت هذه الآراء التي تحكى بصيغ قصيرة جازمة، محفورة بوضوح في رأس تونيا التي كانت تتخيل انها تسمعها آتية من الشارع، في الضجة، ممتزجة بزغردة العصافير، بصخب الاطفال الذين يلعبون، كما لو ان صوتاً خفياً يُمليها عليها.

كان محفوراً: "النسيج النسيج، وخاصة الفضلات منه. لكن ربما جرى تفتيش في الطريق، وهذا أمر خطير. فمن الافضل جلب بعض القطع الملفوفة مع بعضها بعضاً، شكلياً.. اقمشة وانسجة، بشكل عام. الملابس، خاصة اذا لم تكن مستعملة كثيراً، مقبولة. التقليل ما امكن من الالبسة البالية، ومن الاشياء الثقيلة. الجميع، في اغلب الحالات، يكتفون بما تحمله ايديهم، وينسون استخدام السلال والحقائب. ان المتاع القليل الذي يُتحقق من فائدته مئة مرة، يوزع في حقائب صغيرة، يمكن ان يحملها طفل او امرأة. وتدل التجربة ان للملح والتبغ عائدات، لكن تحت طائلة اخطار هائلة. اما بالنسبة للمال، فبطاقات كيرنسكي. اكثر الامور إزعاجا هي الاوراق الشخصية، الخ"

٥

هبت عاصفة ثلجية، ليلة السفر. كانت الريح ترفع صوب الأفق غيوماً رمادية من الخيوط الثلجية المتشابكة الراقصة التي تسقط على الارض في دوامة زرقاء، وتتطاير على مدى الشارع المظلم وتغطيه بطبقة بيضاء.

كل شيء في البيت كان قد حُزم. وأوكلت حراسة الغرف الثلاث وما ترك فيها الى عجوزين اثنين من اقرباء ايغوروفنا في موسكو، اللذين تعرفت عليهما انطونيا الكسندروفنا، في الشتاء الماضي، واللذين بدلت بواسطتهما، ثياباً وخرقاً بالية واثاثاً عديم الفائدة، بخشب وبطاطا.

لم يكن بالامكان الاعتماد على ماركيل. لم يكن يشكو للميليشيا التي اتخذها نادياً سياسياً ان الملاكين القدماء، آل غروميكو، كانوا مصّاصي دماء، ولكنه كان على الأقل، يشتمهم لأنهم أبقوه في ظلمات الجهل واخفوا عنه لسبب ما ان الانسان يتحدّر من القرد.

أطلعت انطونينا ألكسندروفنا أقرباء إيغوروفنا، الزوج المستخدم التجاري القديم، وزوجته؛ على البيت لآخر مرّة، وأرتهما المفاتيح واقفالها، وعلمتهما على استعمال كل شيء. وفتحت معهما ابواب الخزانات والجوارير واغلقتها، وأوضحت لهما كل شيء.

كانت الطاولات والكراسي قد صُفت على امتداد الجدران، ووُضعت حقائب السفر على حدة، ونُزعت ستائر النوافذ كلها. كانت العاصفة الثلجية تشرف على الغرف الفارغة، من النوافذ العارية بأكثر جرأةً منها، عبر الستائر المطرزة في الشتاء. كانت تذكّر كلاً منهم بشيءٍ ما. فقد كانت بالنسبة ليوري اندرييفيتش طفولته وموت أمه. وكانت بالنسبة لتونيا والكسندر الكسندروفيتش موت آنا ايفانوفنا ودفنها. وكان يخيّل للجميع أن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة التي يمضونها في

بيتٍ لن يروه بعد. وكانوا في هذا يخطئون، ولكن كلاً منهم كان يستسلم لكآبة لا يظهرها للآخرين كي لا يتعبهما، ويتذكر الحياة التي عاشها تحت هذا السقف ويكافح لكي يخفي الدموع في عينيه.

على ان هذا لم يمنع تونيا من المحافظة على اللياقة امام الغريبين، فكانت تتحدّث باستمرار مع المرأة التي اوكلت اليها مراقبة البيت، وتغالي في قيمة الخدمة التي قدمتها هذه المرأة. وكانت لا تبدو ناكرة للجميل، تخرج كل لحظة معتذرةً وتجلب معها من غرفة مجاورة منديلاً او قميصاً او قطعة من القماش القطني، أو الشاش، وتقدمها هدية لها. كان القماش كله قاتماً، مقفّصاً أو منقطاً، كالشارع القاتم تحت الثلج، المنقّط بذرات بيضاء، والليل القاتم الذي كان يتأمل سهرة الوداع من خلال النوافذ التي لا ستائر لها.

٦

مضى الناس باكراً، في الفجر، الى المحطة. ولم يكن سكان البيت قد أفاقوا في تلك الساعة. وطافت زيفوروتكينا، وهي مستأجرة تأخذ المبادرة دائماً في المناسبات الاجتماعية، على الغرف تقرع ابوابها صارخة: "اصغوا، من فضلكم؟ أيها الرفقاء! انها ساعة الوداع! هيّا، لنبتهج! الملاكون القدماء، آل غاروميكوف، يرحلون!"

ملأ الجميع السلم بمظاهر الخدمة، لأجل الوداع، (كان السلم الآخر مسدوداً منذ اكثر من سنة) وهجموا على مدخل البيت وسطح السلم الذي استخدموا درجاته كمسرحٍ كما لو انهم اتخذوا وضعاً لصورة جماعية.

وكانت النساء، وهنّ يتثاءبن، يدوّرن أكتافهن لكي لا تسقط المعاطف البالية التي يلبسنها ويتلملمن تحتها، ثم يراقبن، وهن يرتجفن

من البرد ، خطواتِ أقدامهن العارية التي دسّت بسرعة في احذية ضخمة من اللّباد .

وكان ماركيل قد حظي بطريقة سكر فيها بنوع من الشراب القاتل لا يعرفه احد - فلم تكن الكحول موجودة في ذلك الوقت. وأخذ يدب على الدرابزون خشية ان يحطمه. وعرض ان يحمل الامتعة الى المحطة، واغتاظ لرفض عرضه. لقد صعب عليهم التخلص منه.

كان الظلام لا يزال مخيماً، في الخارج. والثلج يتساقط اكثف منه في السهرة، بهدوء، وبدون ريح. وكانت الكتل الزغبيّة تتساقط بكسل وتتوقف قريباً من الارض كأنها تتردد بالرقاد فوقها.

وكان الظلام قد خف قليلاً حين تجاوزوا الزقاق في ارباط. وكان الثلج يغطي الشارع بحجابه الهارب التي تعلق اهدابه بالاقدام وتتمسك بها، حتى ليفقد الانسان الشعور بالحركة ويظن انه يراوح في مكانه.

لم يكن في الشارع أي كائن حي. فالمسافرون الآتون من سفيتسيف فراجيك لا يصادفون احداً. كانت تجمعهم عربة فارغة يبدو حوذيها كأنه مدهون بعجين صاف، وحصانها ابيض من الثلج. وقد تكوموا جميعاً مع امتعتهم، بأجرٍ طفيف لا يصدق في ذلك الوقت، ما عدا يوري اندرييفيتش الذي طلب ان يمضي سيراً على قدميه وبدون امتعة.

٧

كانت انطونينا الكسندروفنا ووالدها قد اخذا في المحطة محلين في مؤخرةٍ كبيرة محصورة بين حواجز خشبية. لم يكن يصعَدُ الى القطار من أرصفة المحطة، بل من مكانٍ يبعد عنها نصف كيلومتر، قريباً من مكانٍ تحديد النزول، لعدم تنظيف اطراف الأرصفة، ولأن نصف طريق القطار كان مغطّى بالجليد والوسخ ولا تستطيع القطارات ان تدخل في المحطة.

لم يكن نيوشا وساشا بين الجمهور مع الام والجد. كانا يتجولان تحت قنطرة المدخل، الضخمة، ويجتازان احياناً الرواق لكي يسألاهما فيما اذا حان وقتُ انضمامهما اليهما. كانا يحسان بقوة رائحة البترول الذي مُسحت به بسخاء كعابُهما ومعاصمهما وعنقاهما لحمايتها من القمل الذي ينقل التيفوس.

ولوحت انطونينا الكسندروفنا بيدها الى زوجها الذي اقبل، وقبل ان يصل اليها، دلّته، من بعيد، صارخةً، على شبّاك التذاكر الذي يجب التسجيل فيه. فذهب اليه. وحين عاد سألته: "ما هي الاختام التي وضعت ـ على الاوراق، ارني." فناولها الدكتور من فوق الحاجز حُزمة اوراق مطويّة.

"هذه اشارة حجز محلات في قطار المندوبين"، قال احد القريبين من انطونينا الكسندروفنا الذي تبين من فوق كتفه الاختام المطبوعة على الشهادة.

امّا الشخصُ الأماميّ المجاور، وهو احد الحقوقيين الهُواة، وكان يعرض في كل المناسبات شرائع الارض كلها، فقد قال موضحاً: "بختم كهذا، لكم الحق ان تطلبوا محلاً في مقطورة "مصّنفة"، يعني، في مقطورة سياحية، اذا كان شيء من هذا موجوداً في القطار."

وخضعت المسألة لفحص الذين في المؤخرة جميعاً. وتعالت صرخات: تبحث دائماً عن المقطورات "المصنفة"... انت تمزح. اشكر ربك، في هذا الوقت، اذا قدرت ان تجلس على صمامة مقطورة للبضائع."

"لا يغرك الامر، انت، يا صاحب البطاقة! اسمع ما اقوله لك. لا يوجد قطارات خاصة؛ في ايامنا، يوجد نوع واحد، يُحشر فيه الجنود والمنفيون والماشية والناس. يُحكى عن مثل القطارات، ولكن من السهل التسلية، فاللسان يمشي وحيداً. ولكن لماذا نخفي الموضوع عن الناس، يجب الايضاح لهم، لكي يفهموا."

"تتحدث عن ايضاح. آه، هناك ناس خبثاء على الارض. وبعدئذ؟ ماذا يعني ان لديهم بطاقات لقطار المندوبين؟ تأملوا اولاً قبل ان تتسلوا بالحديث. هل يستطيعون ان يسافروا مع المندوبين، وهم بمثل هذه الهيئة؟ قطار المندوبين... انه محشوٌّ بـ"الاخوة"، بـ" البولشفيك". البحارة، لهم عين... دائماً المسدّس معلّق في عنقهم. انهم يقتنصون بسرعة: "انهم الطبقة الحاكمة"، ثم، وبشكل خاص دكتور، سيد قديم. البحري، يلقطه، وطقْ! مثل ذبابة!"

لم يكن يُعرف الى اين سيصل الموضوع الذي اثاره الدكتور وعائلته، السميكة في مصادفةٍ غير متوقعة.

كان بين الجمهور جماعة تحدق بعيداً، منذ وقت طويل، عبر واجهات المحطة الزجاج كالمرايا. وكانت السقوف الناتئة الممتدة فوق الرصيف تجعل صورة الثلج المتساقط تتطاول الى ما لا نهاية. كانت الكتل الثلجية تبدو، من مسافة بعيدة، كأنها تقف في الفضاء ثابتة تقريباً، وانها تتهاوى بهدوء، كفتات الخبز، المبلل بالماء، والذي يتغذّى منه السمك.

وكان يُرى في البعيد رجال يمشون جماعاتٍ او فرادى. وبقدر ما كان يقلّ عددهم، كانت اشباحهم غير الواضحة في شبكة الثلج المهتزة تُشبه اشباح عمال السكة الحديدية وهم يقومون بعملهم ويجتازون العوارض. الا انه كان يُرى جمهورٌ يزحف، وقطارٌ بدأ دخانه يتصاعدُ، بعيداً، حيث يركضون.

وصيح في المؤخرة: "افتحوا الابواب، ايها المدخنون!"

وتحرّك الجمهور وهجم نحو الباب، يسحقُ أواخرهم الاوائل.

"تأملوا ماذا يجري! هنا، وُضعت حواجز لإيقاف الناس، وليس من صفٍ هناك، فيركض الناس ويحتالون. سوف تحشى المقطورات الى أعلاها، ونحن، نستطيع دائماً ان ننتظر، كالخراف. افتحوا، ايها

القذرون، وإلا تحطم كل شيء. إيه! يا شباب، اهجموا، هيا!".

"الأغبياء! إنهم حسّاد ولا يعرفون ماذا يعملون. هؤلاء اشخاص معبّؤون للعمل، انهم آتون من بطرسبورج. ولابدّ من إرسالهم الى فولوغدا، في الجبهة الشمالية، حيث يُصدّرون الى الجبهة الشرقية. ليس هذا لتسليتهم. انهم محروسون. سيقومون بحفر الخنادق."

٨

مضى عليهم في الطريق ثلاثة ايام، لكنهم لم يبتعدوا كثيراً عن موسكو. كان الريف شتائيّاً: الأسلاك، الحقول، الغابات، سطوح القرى... كان كل شيء تحت الثلج.

ووجدت عائلة جيفاكو لحسن الحظ مكاناً معزولاً في مقدمة المقطورة، في أعلى الزاوية اليسرى، قرب نافذةٍ طويلة ومُعتمة، تحت السقف تماماً. فاستطاعوا ان يبقوا كعائلة، هناك، دون ان يفترقوا عن بعضهم بعضاً.

كانت انطونينا تسافر لأول مرة في حياتها في عربَةٍ للبضاعة. وقد رفع يوري اندرييفيتش، في الرحيل من موسكو، النساء حتى سوية المقطورة ببابها الثقيل ذي الزلاجة. ثم اعتادت النساء الصعود بمفردهن.

رأت انطونينا الكسندروفنا بادىء الامر ان هذه المقطورات تشبه اصطبلات متحركة. وفكرت بأنه لابد ان يتخلع هذا النوع من الأقفاص، لأول صدمة، لاول رجّة. ولكنها منذ ثلاثة ايام وهي تسمع المحاور تردّ على بعضها بعضاً بالصرير، كعصي طبلٍ صغير آليّ. واستمر السفر بدون حوادث، ولا شيء اكّد مخاوف انطونيا الكسندروفنا.

كان القطار الطويل من ثلاثٍ وعشرين مقطورة (كانت عائلة جيفاكو في المقطورة ١٤) لا يلامس الارصفة القصيرة في المحطات

الثانوية الا بالمقدمة او المؤخرة او الوسط.

وكانت مقطورات المقدمة محجوزة للعسكريين، ومقطورات الوسط للعموم، ومقطورات المؤخرة لمجندي العمل الاجباري.

ولعلّ عدد مسافري هذه الطبقة الاخيرة قد بلغ خمسمئة شخص من مختلف الأعمار، والاوضاع الاجتماعية والمهن المتنوّعة.

وكانت المقطورات الثماني الممتلئة بهؤلاء تمثل مشهداً ملوّناً. كان يُرى الى جانب الأثرياء الحسني الهندام، من بورجوازيي بطرسبورج ومحاميها، سائقو عربات، وطرّاشون، وعمال حمامات عامة، وقشاشون تتريون، ومجانين هربوا من "البيوت الصفراء" التي ألغيت، وتجارٌ صغار ورهبان.

كان الاولون يجلسون حول مواقد حامية، دون سترة، فوق قطعٍ خشبية كبيرة موضوعة افقياً، وكانوا يثرثرون ويتبارون في الضحك، غير عابئين. كانت لهم صلات؛ وقد تركوا في العاصمة اقرباء ذوي مكانة سيهتمون بهم. وهم يستطيعون، عند اللزوم، ان يشتروا حريتهم، بعيداً، في اثناء السفر.

اما الآخرون، بأحذيتهم الجلدية وقفطاناتهم المفكوكة العُرى، او اللابسون قمصاناً طويلة تتدلى فوق سراويلهم، العارو الاقدام، الملتحون او المرْد، فكانوا يقفون امام ابواب المقطورات الدافئة، ممسكين بالركائز والحواجز الخشبية الموصولة بالفرجة، ويتأملون، بهيئة كالحة، القرى التي يمرون فيها وسكانها ولا يكلمون احداً. لم تكن لهم صلات "لا غنى عنها بالفعل". وليس لهم قطعاً ما يأملون به.

لم يكن هؤلاء الاشخاص كلهم موزعين في المقطورات التي حُجزت لهم اول الامر. فقد حُشر منهم قسمٌ في وسط القطار، بين المسافرين الآخرين. ومنهم من كان في المقطورة ١٤.

٩

كانت تونيا، عادة، حين يقترب القطار من احدى المحطات تنهض قليلاً من جلستها المزعجة التي يجبرها عليها السقف المنخفض كثيراً ويمنع أي حركةٍ مريحة، فتمد رأسها وتبحث من خلال نافذة الباب غير المغلق جيداً فيما اذا كان المكان ذا "اهمية" تجاريةٍ ما، واذا كان يساوي تعب النزول والخروج.

وصل القطار الى المكان المطلوب، وأيقظتها من غفوتها حركة توقفه. وكانت الضجة التي تولدها عجلات القطار تحكي طويلاً عن اهمية المحطة وعن مدة التوقف القريب.

نهضت تونيا، وأحنت رأسها، وفركت عينيها ورتبت شعرها وألقت بيدها في أعماق حقيبتها تفتشها في كل الاتجاهات، ثم اخرجت فوطة مطرّزة برسوم ديوك وفلاحين شباب وأقواسٍ وعجلات.

وكان الدكتور قد استيقظ وسبق الجميع في القفز من محله. وساعد زوجته على النزول.

كان الركاب قد تجاوزوا المخافر وصنابير الكاز، وكانوا يرون من خلال باب المقطورة نصف المفتوح، أشجار المحطة وهي تسير مثقلةً بصفائح الثلج الكبيرة التي تمدّها الى المسافرين على اغصانها الموترة، كخبز الضيافة وملحها. كان أول القافزين من القطار، بهيئتهم العجولة، فوق ثلج الرصيف، البكر، هم البحارة الذين تقدموا الآخرين بخطواتٍ سريعة واتجهوا صوب زاوية المحطة حيث تكون عادة، وراء الجدار، بائعات الامتعة "الممنوعة".

كانت ألبسة البحريين السوداء، واشرطة قبعاتهم المتموجة، وسراويلهم التي تشبه ارجل الفيلة تضفي عليهم وقاراً وصرامة يجعلان الناس يحيدون عن طريقهم كما يحيدون من امام المتزلجين المتبارين

المتزحلقين بغاية السرعة.

وكانت فلاحات القرى المجاورة واقفات وراء بعضهن، خلف زاوية المحطة، تختبىء الواحدة بالاخرى قلقات كأنهن ذاهبات ليعرفن طالعهن، بخيارهن ولبنهنّ، ولحمهن المسلوق، وكعكهن المصنوع من الشعير الذي يحتفظ في البرد بنكهته وطراوته بفضل الاغطية القطنية التي ينقلنها فيها. وكانت النساء والفتيات، بمناديلهن المربوطة تحت ياقات معاطفهن القصيرة، يحمررن كزهر الخشخاش لبعض مداعبات البحارة الذين كانوا يخفنهن، من جهة اخرى، كالطاعون: فمنهم، بشكل خاص، من كانوا يجندون فئات المراقبة لمكافحة المضاربة والتجارة الحرة التي اصبحت ممنوعة.

لم يدم تبلبل الفلاحات طويلا. فتوقف القطار، ووصل المسافرون. واختلط الجمهور، وجرى البيع بسرعة.

وانسلت تونيا بين البائعات، ومنشفتها على كتفها، كما لو انها ذاهبة لتغتسل بالثلج، في الساحة الخلفية للمحطة. وقد نوديت في صف النساء عدة مرات: إي... يا بورجوازية، كم تطلبين بخرقتك؟"

لم تتوقف تونيا ولا زوجها، وتابعا سيرهما.

وكانت في طرف الصف امرأة تغطي رأسها بمنديل اسود بتطاريز حمراء. فلاحظت المنشفة المطرزة، وتلألأت عيناها المتطاولتان. والقت نظرة حولها، وحين تأكد لها انها ليست مهددة بأي خطر، اقتربت من تونيا وهمست، وهي تكشف بضاعتها، قائلة لها بحرارة: "انظري هذا! هل رأيت كثيراً مثله؟ الا يثير فيك شيئاً؟ هيا، لا تتواني، سيؤخذ مني. اعطني المنشفة وخذي الفريكاندو."

لم تفهم انطونينا الكلمة الأخيرة، فظنت انها تتحدث عن هدية.

"ماذا تبيعين، يا جميلتي؟"

كان ما سمته الفلاحة "الفريكاندو"، نصف ارنب مقطوعاً بالطول

ومحمَّرا بكامله، وكانت تمسكه بيدها. فكررت: "اعطني المنشفة وخذي الفريكاندو. ألا تريدين؟ انه ليس كلباً. زوجي صياد. انه ارنب، ارنب."

تمت المبادلة. وظن كلا الطرفين انه حقق شيئاً عظيماً على حساب الآخر. وقد خجلت انطونينا الكسندروفنا لانها سرقت فلاحة فقيرة. اما هذه التي فرحت بالمبادلة، فقد اسرعت لمغادرة هذه الاماكن الخطرة؛ ونادت جارة لها لم يكن معها شيء للمقايضة فعادت معها الى قريتها بطريق ثلجي مسلوك يضيع في البعيد.

إلا ان الجمهور كان في بلبلة تامة. وصرخت امرأة عجوز:

"واين تمضي هكذا، ايها السيد الجميل؟ والمال؟ اعطيتني اياه يا سافل؟ آه! الخنزير، يُنادَى ويستمر في سيره، وحتى لم يلتفت. قف، قف، يا رفيق! الى النجدة! الى السرقة! سرقوني. إنه هناك، انظروا، القطوه."

"أي واحد؟"

"الأمرد، هناك، الذي يمشي، الذي يمزح..."

"ذو المرفق الممزق؟"

"نعم، نعم، هو. أوقفوه، الكلب!"

"الذي يمسك قطعة بيده؟"

"نعم، آه، يا الله، لقد سُرقت!"

"ما الأمر؟"

"كان يشتري من العجوز "باتيه" وحليباً، فلكمها على بطنها وهرب. حينئذ بكت واشتكت..."

"لا يجوز تركه يفعل ذلك... يجب ايقافه."

"دعك منه. إنه مزنر بالسيور والخرطوش، فهو الذي يوقفك."

١٠

كان في المقطورة ١٤ بعض المجندين في جيش العمل، بحراسة الآمر فورونيوك، بينهم ثلاثة يتميزون من وجوه مختلفة: الخازن القديم لمشرب الاحتكار القيصري في بيتروغراد، بروخورخاريتونوفيتش بريتوليف - الصندوق" كما كان يلقب في المقطورة، ومستخدم في محل لبيع ادوات الحديد والنحاس، في السادسة عشرة من العمر، فاسيا بريكين و"عامل - تعاوني" أبيض الشعر، كوستويد آمورسكي الذي اختبر السجون القيصرية كلها واحتفل بسلسلة السجون في النظام الجديد.

كان كل من هؤلاء الرجال غريباً عن الآخر وقد جُمعوا من جهات مختلفة وتعارفوا في اثناء السفر. وقد شاع في المقطورة، بعد بعض الأحاديث، ان الخازن بريتوليف والمستخدَم فاسّيا تريكين كانا "مواطنين". فهما في الاصل من مقاطعة فياتكا التي سيمر بها القطار، عاجلاً أو آجلاً.

كان بريتوليف، المولود في ماليج، في وسط من الصنّاع، رجلاً صغير الجسم، ربع القامة، منفوش الشعر، مجدور الجلد، قبيح المنظر. وكانت قميصه الزرقاء التي اسودّت تقريباً عند الابطين تلتصق من الضيق بصدره كما تحزم حاملة النهدين صدر الفلاحة المليء. كان صامتاً كالتمثال، ويُمضي ساعات بحك ثآليل يديه المبقعتين بالنمش حتى يكاد الدم يطفر، وتبدآن بالتعفن.

كان في خريف السنة الماضية يسير في منتزه نيفسكي، فسقط في كمين، في زاوية شارع المسبك. طُلبت منه أوراقه. كان يحمل شهادة تموين من الدرجة الرابعة، درجة غير العمال، لا تمنح الحق بأي شيء. لذلك اوقف وأرسل مخفوراً الى إحدى الثكنات مع عدد من الاشخاص الذين اوقفوا في الشارع للاسباب نفسها. وكان على هؤلاء المواطنين

الذي جمعوا بهذه الطريقة، كما كان على المجموعة الأولى التي تحفر الخنادق في جبهة آرخانجيلسك أن يُعدوا اولاً للسفر الى فولوكدا، لكن تُغير طريقهم ويرسلون من موسكو الى الجبهة الشرقية.

وكانت زوجة بريتوليييف في لوكا حيث اشتغل حتى عام ١٩١٤ قبل ان ينتقل الى بطرسبورج. وحين عرفت بما جرى له ذهبت للبحث عنه في فولوكدا ولإخراجه من جيش العمل. الا ان المفرزة كانت قد سلكت طريقاً آخر، فضاع كل اثر. وذهبت سُدىً جهود المرأة.

فقد كان بريتوليييف في بطرسبورج مع امرأةٍ تُدعى بيلاكيا نيلوفناتيا كونوفا، فأوقف في منتزه نيفسكي حين جاء يودع هذه المرأة التي كانت تسلك طريقاً آخر ورآها بين الأشخاص الذين يسيرون في شارع المسبك تبتعد ثم تتوارى.

كان لتياكونوفا هذه البورجوازية الصغيرة البدينة، هيئة جذّابة، ويدان جميلتان وجديلة كبيرة فوق صدرها تنقلها من كتفٍ الى اخرى، بتنهدات عميقة. وقد صحبت بريتوليييف من تلقاء نفسها.

وتساءل البعض عما يمكن للنساء حقاً ان يرين في هذا المسخ بريتوليييف. فقد كانت هناك، عدا تياكونوفا، في مقطورةٍ اخرى للبضائع قريبةٍ من القاطرة، بنوع غريب من المصادفة، صديقة جميلة أخرى لبريتوليييف، تدعى اوكريزكوفا وهي فتاة نحيلة، ناصعة، "النونو"، "المحقنة" كما كانت تسميها تياكونوفا التي لم تكن تراعيها بالألقاب المهينة.

وكانت الخصيمتان عدوتين، تحذر الواحدة الاخرى. لم تكن اوكريزكوفا تضع قدميها في المقطورة، فتساءل البعض كيف تستطيع حقاً أن تهتدي لموضوع حبها. ربما كانت تقبل ان تتأمل من بعيد وجهه وهو ينقل الحطب او الفحم الذي كان نقله إلزامياً لكل المسافرين.

١١

كان تاريخ فاسيا شيئاً آخر. قتل أبوه في الحرب، وأرسلته أمه من القرية ليتعلم عند زوج عمته في بطرسبرج.

وفي يوم من أيام الشتاء دُعي زوج عمته الذي كان يملك حانوتاً لبيع الادوات النحاسية والحديدية في مدينة آبراكسين الى سوفييت الحي لبعض الاستعلامات. وتاه عن الباب، فبدل ان يدخل الى المكتب الذي عينته الدعوة، دخل في الغرفة المجاورة. وكانت قاعة استقبال لجنة العمل. كان في القاعة اناس كثيرون. وحين ازداد عددهم، جاءهم جنود من الجيش الاحمر فأحاطوا بهم واقتادوهم في الليل الى ثكنات سيميونوف. وفي الصباح رُوفقوا الى المحطة ووضعوا في قطار فولوكدا.

وانتشر خبر هذه الاعتقالات في المدينة. فأخذ الكثيرون يتوافدون في الصباح الى المحطة ليودعوا اقاربهم المسافرين. وكان بينهم فاسيا وعمته اللذان جاءا ليودعا زوجها.

وتوسّل الزوج في المحطة الى الحارس ان يتركه يعبر الحاجز لدقيقة، كي يرى زوجته، كان هذا الحارس هو فورونيوك الجندي الذي يرافق ركاب المقطورة١٤ . ولم يدعه يذهب بدون ان يترك ضماناً مهماً. فعرض الزوج وزوجته على الحارس فاسيا كرهينة. فرضي فورونيوك. وأدخل فاسيا الى المكان الذي أخرج منه الزوج. ولم تعد عمة فاسيا ولا زوجُها.

وحين ظهرت الخديعة اخذ فاسيا الذي لم يشكّ بها، يبكي. وجثا على قدمي فورونيوك وقبّل يديه، وتوسل اليه أن يعيد اليه الحرية، ولكن لا جدوى. كان الحارس مُتصلباً. لم يكن انساناً قاسياً، لكن الوضع خطير، والنظام صارم. فالحارس يغامر بحياته اذا كان هناك نقصٌ في قائمة المطلوبين الذين يرافقهم وهكذا دخل فاسيا في جيش العمل.

ولفت "المُعاون" كوستويد آمورسكي الذي يتمتع بحظوة السجّانين،

اليوم كما في النظام القيصري، عدة مرات نظر رئيس القافلة لفضيحة حادثة فاسيا.

واعترف الرئيس انها كانت سوء تفاهم خطيراً، لكنه قال ان هناك صعوبات شكلية تمنعه من حل هذه المشكلة المعقدة في الطريق؛ وهو يأمل ان يحلها حينما يصل.

كان فاسيا شاباً لطيفاً، ذا قسمات معتدلة، يشبه فرسان القياصرة وملائكة الزخرفة. كان صافياً خالص السريرة بشكل لا مثيل له. وكانت تسليته المفضلة ان يجلس ويداه فوق ركبتيه، ورأسه الى الوراء، ويصغي الى المحادثات والقصص. وكانت أمارات وجهه، سواء حاول ان يمسك دموعه او صارع الضحكَ الذي يغصّ به، تتيح إذّاك تصوّر معنى ما يُحكى. كان موضوع المحادثة ينعكس على وجه هذا الطفل الانفعالي، كأنه كان ينعكس على المرآة.

١٢

كان المعاون كوستويد جالساً تحت السقف، قريباً من عائلة جيفاكو التي دعته. وكان يأكل بملء فمه فخذ الارنب التي قدمتها له. كان يخاف من مجاري الهواء، ويخشى ان يصيبه البرد. "ما هذه الريح، كيف العمل؟" وغيّر مكانه، بحثاً عن مكان دافئ. واخيراً جلس في مكانٍ لا يشعر فيه بالبرد، وقال: "لا بأس الآن". بلع اللقمة الاخيرة من فخذ الارنب، ولحس اصابعه بتروٍ، ومسحها بمنشفته، وقال ملاحظاً:

"الريح تأتي من النافذة، فيجب سدّها. لنعد الى موضوع المحادثة، بانتظار ذلك. انت مخطئ يا دكتور. ان الارنب المحمّر شيء رائع. اما الاستنتاج من ذلك ان الريف يعيش في الرفاه، فاعذرني ان اصفه بانه زعمٌ لا سند له، واستنتاج ليس فيه شيء من الصحة."

"كلا"، أجاب يوري اندرييفيتش، "تأمل هذه المحطات. الاشجار لم تقطع. الاسيجة لم تمس. وهذه الاسواق، إذاً؟ هذه الفلاحات! انها لمما يسرّ النظر. هنالك إذاً امكنة يعاش فيها. هنالك اشخاص سعداء. لا احد يشكو. وهذا يبرر كلّ ما تبقى."

"هذا عظيم، اذا كان الأمر كذلك. الا ان الأمر خلاف ما يبدو. ما الذي جعلك تقول ذلك. امض الى مسافة مئة كيلو متر عن سكة الحديد. هنالك، في كل مكان، فلاحات ثوريات، لا يفترن عن العمل. ضدّ من؟ ضدّ البيض أو ضد الحمر، حسبما تكون البلاد محكومة من اولئك او هؤلاء. ستقول لي: "الموجيك إذاً هو عدوّ النظام، لا يعرف هو نفسه ما يريد". لا تشمخ هكذا بسرعة، من فضلك. انه يعرف ما يريد أفضل مما تعرف، لكنه لا يريد أبداً الشيء نفسه الذي تريده أنت وانا. حين أيقظته الثورة من النوم، اعتقد ان أحلامه القديمة بالحياة الفردية قد تحققت، وبالملكية الصغيرة الفوضوية التي يُشرف عليها هو وحده، دون ان تكون له علاقة بأي شخص، او الزام تجاه أي شخص. لقد انتقل من مخالب الدولة الماضية المنهارة، الى الكُلاَّبة الاكثر ضيقاً كذلك -كُلاَّبة الحكومة الثورية العُليا. لذلك يتحرك الريف، ولذلك لا تمكن تهدئته. وانت تزعم ان الفلاحين سعداء! انك، يا عزيزي! لا تعرف شيئاً ولا تريد ان تعرف."

"ليكن. هذا صحيح، لكنني لا اعتبره. انت طيب. لماذا يتحتم علي ان اعرف كل شيء، او اتعذب لكل شيء؟ لا يُقيم العصرُ وزناً لما أنا عليه، انه يفرض عليَّ ما يطيب له هو ان يفرضه. اسمح لي ان اجهل الوقائع. تقول ان كلامي لا ينطبق على الواقع. لكن، هل هناك واقعٌ في روسيا، في هذه الآونة؟ اعتقدُ انه رُوِّع، وانه يختبئ. اريد ان اعتقد، انا، ان الريف انتصر، وانه سعيد. اذا كان هذا ايضاً خطأ، فماذا يبقى لي لأعمله؟ ما هي مبررات الحياة؟ لأي شيء علي ان اخضع؟ إذاً، عليّ أن اعيش، أنا، فإن لي عائلة."

واشار يوري اندرييفيتش بحركة متعبة من يده، تاركاً لعمه ان ينهي المناقشة مع كوستويد، واقترب من فراشه الصغير فأحنى رأسه وتأمل ما يجري في الاسفل.

كان بريتوليف وفورونيوك وتياكونوفا وفاسيا يتحادثون. كان بريتوليف باقترابه من مسقط رأسه يتذكر مختلف السبل للوصول اليها: الى أي محطة يوصل القطار، أينَ عليه ان ينزل، كيف يتابع طريقه، سيراً على قدميه او على الحصان. وكان فاسيا وقت الكلام عن القرى والدساكر التي يعرفها، يقفز وتتألق عيناه ويكرر بنشوة اسماءها التي كان مجرد تعدادها يساوي عنده جمال قصةٍ من قصص الجن.

وسأل وهو يغص: "تنزلون في سوخوي برود؟ هذا جميل. انها المحطة التي نذهب منها الى البيت، ثم تذهبون بدون ريب الى بوئيسكوئي؟

"بلى، نأخذ بعد ذلك الطريق المختصرة لبوئيسكوئي."

"هذا ما اقوله بالضبط. بوئيسكوئي. ضيعة بوئيسكوئي، اعرف هذا وما اجمل ذلك! هناك المفرق. وبعده نمضي الى بيتنا باتجاه اليمين". لكي تذهب الى بيتك ايها الاب خاريتونوفيتش، اظن ان عليك ان تأخذ اليسار منحرفاً عن النهر. تعرف البلكا؟ اكيد. انه نهرنا. لكي نمضي الى بيتنا نتبع الشاطئ. على هذا النهر تقع فيريتينيكي قريتنا. في اعلى منحدر. المنحدر وعر. حين يكون الانسان في اعلاه يخاف من النظر الى الاسفل، فهو عمودي. يخاف من التدهور أؤكد لكم. وفيه مقالع ايضاً. تصنع منها احجار الرحى.

"أمي هناك في فيريتينيكي، واختاي الصغيرتان. اختي آليونا واختي آريشكا. امي بالاتشا تشبهك يا بيلا كانيلوفا، فتية ناصعة البياض. ايها الاب فورونيوك، ايها الاب فورونيوك اتوسل اليك لوجه الله... ايها الاب فورونيوك."

"وماذا بعدئذٍ؟ انتهيت من تكرار "ايها الاب فورونيوك"، ايها الاب فورونيوك" كالعصفور، حسناً اعرف ذلك، اعرف انني الاب فورونيوك لا الام فورونيوك. وبعدئذٍ؟ ماذا تريد؟ ان أتركك تهرب؟ ماذا؟ اذا تخلصت انت، اقع انا. هيا وكل!"

كانت بيلاكيا تيكاكونوفا تنظر من بعيد بعين ذاهلة وفي صمت. وكانت تداعب رأس فاسيا وتلهو حالمة بشعره الكستنائي. وكانت احياناً بإشارة من رأسها، بنظرة او ابتسامة، تُفهم الطفل انه لا يجوز ان يتصرف بحماقة، ولا ان يتكلم عن قضيته مع فورونيوك، أمام الجميع. وكأنها كانت تقول له: "عليك ان تنتظر. سيرتب الامر على انفراد، كن مطمئناً."

١٣

حين تجاوز القطار روسيا الوسطى واتجه نحو الشرق صارت الحوادث اكثر وقوعاً. كان القطار يجتاز قرى غير آمنة، ومناطق تحكمها العصابات المسلحة واماكن أُخمدت فيها القلاقل حديثاً.

وكانت التوقفات تتكاثر في الارض المنبسطة، وتحريات القطار من قبل مفارز المراقبة، وتفتيش الامتعة والتحقق من صحة الاوراق.

وتوقف القطار ذات ليلة. لم يدخل شخص الى المقطورات ولم يُوقَظ احد، فقفز يوري اندرييفيتش من المقطورة رغبةً منه في معرفة الحادث الذي جرى.

كان الليل مظلماً وكان القطار قريباً من احد الحدود، بدون أي سبب ظاهر للتوقف. وكان الخط يبدو عادياً؛ كان محاطاً بالصنوبر ويمرّ في سهل. وقد صرّح جيران يوري اندرييفيتش الذين نزلوا قبله والذين كانوا يتجولون امام المقطورة انه ليس هناك أي حادث، حسب معرفتهم،

وان السائق أوقف القطار بحجة ان المنطقة مهددة وأنه يرفض ان يمضي بالقافلة بعيداً اذا لم يُتحقَّق من حالة الخط. وأرسل اليه المسافرون مندوبين لاسترضائه ورشوته عند الضرورة. وقيل ان رجال البحرية قد تدخلوا، وهم سيعرفون كيف يسلكون.

كان جيفاكو وهو يصغي لكل ذلك، يرى اللهيب الذي ترسله المدخنة والموقد يُلهب الثلج امام الخط الحديدي، قرب القاطرة، كما يفعل لهب المحرقة اللاهث. وفجأة أضاء لسانٌ من النار بشكلٍ قوي السهل المغطى بالثلج واشباحاً كانت تتزحلق فوق هيكل القاطرة.

كان يُرى السائق في احد الاضواء، وقد ركض الى طرف الجسر، وقفز الحواجز بسرعة، واختفى.. وقد فعل مثله رجال البحرية الذين اقتفوا اثره، فركضوا حتى طرف الحاجز الناري، وقفزوا في الهواء واختفوا في مثل السحر.

واسرع يوري اندرييفيتش صوب القاطرة وبعض الفضوليين ممن جذبهم المشهد. وهذا ما شاهدوه في قطعة السهل العاري الذي يمتد امام القطار: كان السائق على بعض المسافة من الطريق، وقد غرق في الثلج الى منتصف جسمه. وكان البحارة يحيطون به في نصف دائرة، وقد تلبكوا هم ايضاً، إحاطة الصيادين بالحيوان.

وكان السائق يصرخ: "شكراً، رغم ذلك، للفتيان. آه، إنهم طريون "عُقبان الثورة"! سيُعرف كل شيء. يُهدّد بالمسدس أخ، عامل! لأنني قلت ان القطار لن يتقدم. انتم شهود ايها الرفقاء المسافرون، انتم ترون جيداً في أي بلد نحن! هناك فتيان يمرون من هنا ويفكون اللوالب. أنا لا يهمني هذا، فماذا يسبب لي؟ والله ليس هذا لأجلي، بل لأجلكم، كي لا يحدث لكم شيء... وها هي مكافأة عنايتي بكمّ هيا، اطلقوا على رأسي الرصاص، ايها المهووسونّ! أنتم شهود ايها الرفقاء المسافرون. انظروا إليهم، انظروا إليهم، انني لن أختبئ."

وعلت من الاشخاص الذين تجمهروا على الخط الحديدي صرخات مختلفة. فصاح بعضهم مذهولين: "لكن ما الذي يخيفك؟ تمالك نفسك... للاشيء كهذا... لماذا سيقتلونك... هذا مزاح، هذا لإخافتك..."

وصب آخرون الزيت على النار: "هيا يا سائق، لا تفسح المجال، هيا، انطلق..."

وكان البحّار الذي تخلص قبل سواه من الثلج عملاقاً أشقر ضخم الرأس بحيث بدا مسطح الوجه. واتجه بهدوء نحو الجمهور ووجه اليهم بضع كلمات بصوت منخفض وديع، مستعملاً مثل فورونيوك عبارات أوكرانية. وتراءت برودته مضحكة في هذا الجو المظلم غير العادي.

"أعتذر، لكنكم تظنون انفسكم في صالون... انتبهوا ايها المواطنون من الاصابة بالبرد في العراء. هيا، عودوا وتدفؤوا في المقطورات!"

وحين رجع المتجمهرون الى المقطورات، اقترب البحري الاشقر من السائق الذي لم يكن قد استعاد هدوءه بعد؛ وقال له: "كفانا من نرفزتك ايها الرفيق الميكانيكي. اخرج من جحرك. الآن نتخلص."

١٤

توقف القطار في اليوم المقبل وهو يسير سيراً بطيئاً جداً، وبعد توقفات لا تحصى (كان يخشى من التدهور، فقد كانت الخطوط الحديدية مكسوة بالثلج ولم تكن قد تخلصت منه)، في مكان مقفر، لا أثر فيه للحياة، حيث لم يمكن التعرف بسرعة على بقايا محطة محترقة. وقد امكن تمييز هاتين الكلمتين على إحدى الواجهات السوداء: "نيجني كيلميس."

لم تكن المحطة وحدها تحتفظ بآثار الحريقة. كان وراءها قرية مهجورة، مغطاة الثلج، شاركتها المصير نفسه.

وكان اقرب منزل في القرية من المحطة متفحماً، وكانت العوارض في زاوية البيت المجاور مخلعة، وفي الشوارع كلها بقايا زلاقات، واسيجة مهدمة، وقطع من الحديد وأدوات محطمة. وكان الثلج المتسخ من بقايا الفحم ومن الدخان، مليئاً بالثقوب السوداء، وبرك الماء المتجمد حيث انغرزت فيها بعض قطع الحطب المحترق، وبآثار الحريقة والجهود التي بذلت لاطفائها.

لم تكن القرية مقفرة تماماً. فقد بقي هنا وهناك بعض الكائنات الحية. وسأل باهتمام رئيس القطار، الذي قفز الى الرصيف حين رأى رئيس المحطة يظهر من بين الانقاض:

"احترقت القرية كلها؟"

"صباح الخير. هل وصلتم بخير؟ اهنئكم. بالنسبة لحريقة، هذه حريقة. لكن هناك ما هو اسوأ من الحريقة..."

"لاأفهم."

"هذا أفضل."

"ماذا، ستريلنيكوف؟"

"شخصياً."

"لكن ماذا فعلتم؟"

"نحن؟ لاشيء. كان وضعهم سيئاً، هذا كل شيء. إنهم الجيران. لقد دفعنا الثمن الذي دفعوه. أتشاهدون القرية، هنالك؟ انهم المسؤولون، نيجني كيلميس من قضاء أو ست نيمدا. كل شيء حدث بسببهم."

"ماذا فعلوا؟"

"الأربعمئة إصابة أو أكثر. لقد قتلوا لجنة الفلاحين الفقراء، ثم لأنهم لم يخضعوا لقرار تسليم الخيول الى الجيش الأحمر. لاحظ أن هذا

كله من التترين هنالك، فهم يتمسكون بخيولهم. وهم لم يخضعوا لأمر التعبئة وهذا هو السبب الثالث كما ترى."

"بلى، الآن يتضح كل شيء. لهذا قصفوهم بالمدفع."

"تماماً."

"القطار مصفّح؟"

"بالتأكيد."

"هذا محزن. هذا مكرب. لكن هذا لايعنينا..."

"ثم هذه قضية منظمة. لا أخبار سارة أقولها لك بخلاف ذلك. سوف تبقون معنا يوماً أو يومين."

"لاتمزح. أنقل نجدات الى الجبهة، إنني أعني ما أقول. لم أعتد أن أتوقف توقفات غير مجدية."

"لكنني لاأمزح. أنت ترى أن الثلج يغطي كل شيء. استمرت هنا عاصفة ثلجية لعينة طول أسبوع. الخط مكسو بالثلج، وما من أحد يجرف عنه الثلج. نصف القرية هرب، عبأت النصف الآخر فلم يظهر أحد منهم."

"هيا إذاً واشنق نفسك. إنني ضائع، ضائع لكن ماذا أعمل الآن؟"

"نتخلص كيفما كان الحال وتسافرون."

"الثلج كثيف؟"

"كلا. لايمكن أن نعرف... هو طبقات متراكمة. كانت العاصفة الثلجية تهب منحرفةً فجعلت مستوى الطريق مائلاً. أصعب مرحلة هي حوالي منتصف المسافة. يوجد ثلاثة كيلومترات من الانحدار. أمامنا صعوبات كثيرة. المكان كله مغطى بالثلج بكامله. وبعده تسهل الأمور. انها (التأتيكا). الغابة حمت الطريق. قبل الانحدار لاتخيف الطريق، المكان منبسط. جرفته الريح."

"يا للشيطان، نحن في موقف حرج. سأنزل الركاب كلّهم.

فليساعدونا".

"هذا رأيي."

"فقط، لاتقترب من البحارة ومن الحرس الأحمر. هناك قافلة من المجندين لجيش العمل يبلغ عددهم مع المسافرين العاديين حوالي سبعمئة رجل."

"هذا أكثر من اللازم. عندما يحصلون على المجارف يبدؤون العمل. فقط تنقصنا المجارف. أرسلنا لجلبها من القرى المجاورة وسيعودون بما يلزم."

"يا للتفاؤل المشؤوم. أتعتقد أنك ستصل الى نتيجة؟"

"ولماذا لا؛ الاتحاد يولّد القوة كما يقال. الأمر خطير في شبكة خطوط حديدية لعينة كهذه."

١٥

استمر تنظيف الخط ثلاثة أيام. وقد اشتركت عائلة جيفاكو، ومن ضمنها نيوشا، اشتراكاً فعالاً في العمل. وكانت هذه الفترة أجمل فترة في سفرهم.

كان في المنطقة أشياء مكتملة وأشياء لم تكتمل، على السواء. كانت تذكّر بثورة بوكاتشيف كما تحدّث عنها بوشكين، وبالجمال الاسيوي لأوصاف آكساكوف.

وكانت الانقاض وتحفظات الاهلين الذين بقوا هناك، مروّعين، يتجنبون ركاب القطار ولايتكلمون حتى بين بعضهم بعضاً خوفاً من الوشايات، تزيد أيضاً في سرّ البلاد وغموضها.

لم تعمل مجموعات الركاب المختلفة، معاً. فقد كان مكان الأعمال تحت الرقابة العسكرية.

ونظفت الخط كله فرق توزعت في عدة نقاط وقد بقيت جبالٌ من الثلج لم تمس بين الخطوط الحديدية المنظفة عند نهاية القسم المغطى بالثلج، وقد كانت تفصل المجموعات المجاورة عن بعضها. ولم يُباشر بجرف هذه الأكوام الثلجية إلا بعد أن نُظف الخط الأصلي.

كانت الأيام صافية كثيرة البرودة. وقد أمضاها الركابُ في العراء. ولم يكونوا يعودون الى المقطورات إلا في الليل. كانوا منقسمين الى فرق تتناوب العمل، مما خفف التعب: فلم تكن هناك مجارف كافية، بينما كان العمال كثيرين. هذا العمل القليلُ التعب لم ينتج غير اللذة.

وكان المكان الذي تجرف الثلج فيه عائلة جيفاكو، نظيفاً فاتناً. وكان السهل ينحدرُ هناك شرقي الخط الحديدي ثم يرتفع بتموجاتٍ عريضة حتى الأفق.

وكان يرتفع على احدى الروابي بيتٌ مُشرعٌ للرياح كلها. وكانت تحيط به حديقة، ستورق في الصيف، لكن الأغصان النادرة الآن، المجلدة، الأخاذة، لم تكن تقيها أبداً.

لقد مهد الثلج وآلف كل شيء. الا انه كان في الامكان الحكم من خلال تعرجات الأرض التي لم يخفها الثلج تماماً بأنه لابد في الربيع من رؤية جدول ينحدر نحو قناة الجسر، في اسفل الردم، على امتداد وادٍ متعرج، وقد كان يختفي الآن تحت الثلج الكثيف كطفل تحت غطاء كبير مريّش.

هل كان البيت مسكوناً أم خالياً؟ هل صادرته اللجنة الزراعية في القضاء أو المقاطعة وأُسلم للخراب؟ أين كان سكانه القدماء، ماذا جرى لهم؟ هل هربوا الى خارج البلاد، هل اغتالهم الفلاحون؟ أو لعلهم يعيشون الآن في مكتب رئاسة المقاطعة "كاختصاصيين أكفياء" جديرين بكل تقدير؟ واذا كانوا قد ظلوا هناك حتى اللحظة الأخيرة، فهل وفرهم ستريلنيكوف أو كانوا ضحايا انتقامه، مع أغنياء الفلاحين إلتتار؟

كان البيت، من أعلى الرابية يثير الفضول، لكنه كان في صمت محزن. لم تكن الأسئلة تطرح في ذلك الوقت، واذا طُرحت لم يكن هناك من مجيب. وكانت الشمس تبعث فوق الثلج الناعم لهباً أبيض يكاد يُعمي. ولكم حفرت المجرفة حُفراً جلية في قشرة الثلج! ويا للشرار الجاف المتلألئ الذي كان يتدفق على جنبات الحفر! كان هذا كله يذكر جيفاكو بأيام طفولته البعيدة، حيث كان، وهو يضع على رأسه قبعة بلون زاهٍ ذات شريط ويلبس معطفاً صغيراً مبطناً بجلد خروف اسود الصوف مجعده، يبني من الثلج المتوهج في الساحة اهرامات ومكعبات وكعكاً بالقشدة وقصوراً ومدناً تحت الارض. آه، ما كان اجمل الحياة آنذاك! ما من شيء حيثما كان الا كان رائعاً.

هذه الحياة في العراء طوال ثلاثة ايام تركت في المسافرين شعور الشبع. ليس بدون سبب. كان العمال يتلقون في المساء خبزاً ساخناً لا يُعرف من اين جاء طحينه لانه كان يصادر بطرق مجهولة. كان هذا الخبز مدهوناً بالبرنيق، لذيذاً، مقعر الجوانب، وكان وجهه محمراً منقشاً بقطع صغيرة من الفحم.

١٦

بدأ المسافرون يحبون أنقاض المحطة كما يتعلقون بملجأ لا مفر منه، خلال النزهة في الجبل، في الثلج. وقد حفظوا ذكرى المكان، وشكله، وتفاصيل بعض الانقاض.

كانوا يعودون الى المحطة مساءً عند غروب الشمس. وكان جيفاكو ينام دائماً، لبقائه اميناً على الماضي، في مكانه نفسه، وراء شجرة قديمة ترتفع امام نافذة مكتب التلغراف. وكان الجدار في هذا المكان مهدماً من داخل الغرفة التي يغطيها بأنقاضه. لكن احد جوانب البيت وجدار

الواجهة بقيا سليمين. وكان قد حُفظ كل شيء: نقوش الجدار التي هي بلون القهوة، والموقد الخزفي بفوهة التهوية المستديرة المغطاة بقبعةٍ من النحاس، مثبتة بسلسلة صغيرة، وبيان بالممتلكات، معلق بالجدار ومحاطٌ بالاسود.

وكانت الشمس حين تبلغ الافق تداعب، كما كانت تفعل قبل الكارثة، الخزف وتؤجّج النقوش بلهبٍ ذهبي، وتربط بالجدار، كالمنديل، ظلّ اغصان الشجرة.

وكان الباب في الطرف الآخر من البناية مسدوداً بغرفةٍ من المشاورات، وقد عُلقت عليه هذه الكلمات التي لابدّ انها تعود الى الأيام الاولى لثورة شباط او الى ما قبله بقليل: "يُرجى من السادة المرضى الا يقلقوا وقتياً، بسبب الادوية ولوازم العلاج. ونظراً لذلك، أسدّ الباب وأُعلم الجمهور. المساعد الطبي الاول في اوست نيمدا: أونتيل."

وحين جرف المسافرون الثلج المتكوّم بين القضبان المتباعدة، تبيّن على امتداده ان الخط الحديدي كان مستقيماً، ينطلق الى البعيد كالسهم. وكانت تتراءى على الجوانب تلال من الثلج تحيط بها حواجز سوداء في الغابة.

وكان يقف رجال مسلحون بالمجارف، على امتداد الاسلاك، وعلى مدى النظر، من مكان الى مكان. ورأى الجميع بعضهم بعضاً لاول مرة ودهشوا من عددهم.

١٧

عرفوا ان القطار سيتحرك في بضع ساعات، رغم ان الوقت كان متأخراً وان الليل كان يقترب. وقبل الرحيل مضى يوري اندرييفيتش وانطونينا الكسندروفنا يتأملان لآخر مرة روعة العمل الذي اكتمل. لم

يكن احد على الخط. وبقي الطبيب وزوجته جامدين فترة، فحدقا بعيداً، وتبادلا جملتين او ثلاثاً وعادا الى مقطورتهما.

وفي طريق عودتهما سمعا الصرخات المرعبة، المبحوحة، لامرأتين تتبادلان الشتائم. وسرعان ما تعرّفا على صوتي اوكريزكوفا وتياكونوفا. كانتا تسيران في الاتجاه نفسه الذي يسير فيه الدكتور وتونيا، صوب مؤخرة القطار، لكنهما كانتا من جهة المحطة، وكان جيفاكو وزوجته يتمشيان من جهة الغابة. كان يفصل بينهم سور متصل من المقطورات. ولم تكن المرأتان على محاذاة الدكتور وتونيا: كانتا تتقدمانهما كثيراً، او تتخلفان عنهما.

وكانتا تبدوان ثائرتين. وكانت قواهما تخذلهما دائماً. فلابد ان يكون التعب قد شلّ سيقانهما او تكون قد سقطت في الثلج، اذا حكم عليها من خلال صوتهما، القافز الحاد احياناً، الخفي أحياناً كالهمس. وكان على تياكونوفا أن تطارد اوكريزكوفا. وحين تدركها، تلكمها. كانت تكسو خصيمتها بالشتائم التي كان لها، في فمها النسائي البورجوازي، صدىً اسفل بمئة مرة من الشتائم الفاحشة الزقاقية، التي يمكن لرجل ان يتفوه بها.

كانت تياكونوفا تصرخ:

"آه، يا ساقطة، آه، يا حقيرة. اينما ذهبت، تراها هناك، تتراقص، وتغمز بعينيها الكبيرتين. الكلبة، لم تكتف من صديقي، فانقضت على صبي مسكين. كان ينقصها ان تغوي قاصراً."

"آه؟ أنت وصية على فاسيا ايضاً؟"

"وصية! سأريك، أنا، يا خنزيرة، يا سمّ! لن ابقيك حية، لا تزيدي نقمتي!"

"إي! على مهلك! ابتعدي، يا مسعورة! ماذا تريدين؟"

"انفلقي، يا كلبة، يا قطة جرباء، يا عاهرة..."

"أكيد، لا تتعبي نفسك بتعداد ذلك. أنا كلبة، قطة، كل ما تريدين. لكنك تتمتعين بكل الصفات: لقيطة، مُومس، حبلت من فأر، وولدت قنفذاً... النجدة، النجدة، أيها الناس الطيبون! ويلاه سوف تقتلني الساحرة بالكلمات! ويلاه، أنقذوا فتاة مسكينة، احموا يتيمة.."

وقالت تونيا لزوجها: "النسرع، لا أريد أن أسمع؛ هذا يدعو للقرف. ان العاقبة سيئة."

١٨

تغيّر فجأة كلّ شيء ـ البلادُ والزّمَن. وغاب السهل، فقد دخلوا بين قمم وهضاب. وهدأت ريح الشمال التي كانت تعصف. وكانت الريح تأتي من الجنوب دافئة كلهب موقد مفتوح.

كانت الغابة تمتد تدريجاً على الجبال. وحين كان الخط الحديدي يمر في منطقة غابية كان القطار يتسلق منحدراً وعراً يتبعه منحدر سهل. كان يزحف صوب الغابات وهو يصفر، ويتجرجر بتعب كحارس غابة عجوز يقود جمهوراً من المسافرين، وهم يتلفتون بدون انقطاع ويتأملون في كل شيء.

لكن لم يكن هناك ما يُرى. كان يخيم على الغابة نوم الشتاء وسلامه. وكانت بعض الادغال والاشجار فقط تضج من وقت الى وقت وهي تحرر أغصانها الوطيئة من الثلج الذي كان يتراكم رويداً رويداً، كما لو أنها كانت تنزع عقداً او تفك ازرار ياقة ضيقة جداً.

وغرق يوري اندرييفيتش في النوم. وبقي طول هذه الأيام في سريره، وكان يستيقظ ويتأمل ويصغي. ولكن، لم يكن هناك ما يُسمَع.

١٩

حين كـان يوري اندرييفـيتش ينام ملء جفنيه، كـان الربيع يدفىء ويذيب الكتلة الضخمة من الثلج التي سقطت فوق موسكو نهار الرحيل والتي ظلت تسقط في أثناء السفر.. كل هذا الثلج الذي جرفوه في اوستنيمدا والذي كان يمتد طبقة كثيفة على مدى النظر.

كان الثلج بادىء الامر يذوب في الاسفل بصمت وخفاء. وانفجرت المعجزة حين اكتمل نصف العمل البطولي، وأخذ الماء يتدفق تحت طبقة الثلج المشقق ويغني، وترتعش أحشاء الغابات التي لا ينفذ اليها. كان كل شيء يستيقظ.

كان الماء يتدفق مبتهجاً.. يسقط من الاجراف، يمتد بحيرات وينتشر في كل مكان. وسرعان ما امتلأت الغابات بغنائه، ببخاره، برائحته. وكانت السيول تتلوى في الغابة، وتتبعثر وتغور في الثلج الذي كان يلجم سيرها، وتزغردُ فوق تعرجات الارض وتجرف الصخور فتثير سحابةً من الرذاذ. كانت الارض مشبعة بالرطوبة.. وكان الماء يصعد الى فوق، الى الغيوم تقريباً، في الصنوبر الموغل في القدم، ويتجمع عند اقدامها زبداً اسمر وابيض، كزبد الجعة على شفاه الشاربين.

وكان الربيع يعلو الى كبد السماء السكرى المتدثرة بالغيوم. وفوق الغابة كانت تُحلق غيومٌ متلبدة، قليلة الارتفاع، متناثرة الاطراف، ينهمرُ منها مرة بعد مرة، وابلٌ دافىء تفوح منه رائحة العرق والارض، وينظف التراب من درعه الجليدي، المثقوب، الاسود.

واستيقظ يوري اندرييفيتش، وجرّ نفسه الى النافذة المربعة التي رُفع زجاجُها الداخلي، فاتكأ عليها، وأصغى.

٢٠

كان المسافرون كلما اقتربوا من المناجم، ازداد عمران المنطقة، وقصرت المسافات بين المحطات، وازدادت التوقفات. وكانوا يتجددون غالباً، فيهبط ويصعد الكثيرون في المواقف الثانوية. ولم يكن هؤلاء الذين يجتازون مسافات قصيرة، يجلسون حقاً، أو ينامون؛ فكانوا في الليل يجلسون القرفصاء كلهم تقريباً، قرب الباب، وسط المقطورة، ويتناقشون بصوت منخفض في مشاغل قراهم، حول الاشياء التي يفهمونها هم وحدهم، ويهبطون في المحطة او الموقف التالي.

وبحسب اخبار الناس الذين تتابعوا على المقطورة خلال ايام ثلاثة، كان البيض متفوقين في الشمال، وقد استولوا او كادوا على يورياتين. هذا ما فهمه يوري اندرييفيتش. وعدا ذلك (اذا كان قد سمع جيداً واذا لم يكن المقصود اسماً مشابهاً لاسم زميله القديم في مستشفى ميليوزئيف) فقد كانت قوى البيض في المنطقة تسير بقيادة غاليولين.

لم يخبر يوري اندرييفيتش ذويه بكلمة واحدة مما سمع لئلا يقلقهم دون جدوى، وانتظر حتى يتأكد من هذه الشائعات.

٢١

في منتصف الليل، استيقظ يوري اندرييفيتش، ممتلئاً بشعور غامض من السعادة كان من القوة بحيث أيقظه. كان القطار متوقفاً. وكانت المحطة تستحم في ظلمة شفافة لليلة ساهرة. وكانت هذه الظلمة الصافية مليئة بما لا يوصف من الرقة والقوة في آن معاً وكانت توحي بمنظر فسيح منعزل.

وكانت المحطة، كما يتصورها الناظر ليلاً، تقع على مرتفع يطل

على أفق واسع منطلق.

وعلى الرصيف كانت تمر أشباح بخطا صامتة تتحادث بأصوات منخفضة. فأثار هذا عاطفة يوري اندرييفيتش. لقد رأى في انخفاض الاصوات والخطا احتراماً لتلك الساعة المتأخرة واهتماماً برقاد المسافرين الذين انقطعوا منذ الحرب.

ولكن الطبيب كان مخدوعاً. فقد كان الرصيف ككل مكان آخر يضج بالنباح وقرقعة الأحذية. على انه كان، على مقربة من المكان، شلال ماء. فهو الذي ابهج الليلة الساهرة وانعشها بنسمة من الطراوة والانطلاق. وهو الذي ملأ الطبيب النائم بهذا الشعور من الغبطة. كان ضجيج سقوط المياه المستمر المنتظم يطغى على كل الاصوات في المحطة ويمنحها مظهر الصمت الكاذب.

واستسلم الطبيب لنوم عميق تهدهده طراوة الهواء الخفية، دون ان يتنبه لمصدرها. وكان على ارض المقطورة، رجلان يتحادثان. وسأل احدهما الآخر:

"إذاً، أسكتوهم عندكم، حطّموا اضلاعهم؟"

"من التجار؟"

"نعم، اصحاب المطاحن."

"أعادوهم الى الصواب. انهم طيّعون كالصور. قتلوا بضعة اشخاص للعبرة، والآخرون لزموا الهدوء. اخذوا منهم ضريبة."

"القضاء أعطى كثيراً؟"

"اربعين ألفاً."

"اكثر."

"لماذا أكذب؟"

"حسناً يا صديقي، أربعون الفاً."

"أربعون الف عرنوس."

"انها مهارة!"
"اربعون الفاً من احسن انواع الذرة."
"اذا فكرت ملياً بالأمر، لم تجد هذا كثيراً. البلاد تتطلب هذا. حبوب نوع اول. في تجارة الطحين لا يوجد افضل منه. من هنا حتى يورياتين تتصل القرى والحمولات ومطامير القمح. هناك الاخوة شيرستوبيتوف، وبيريكاتشيكوف الأب وابناؤه، وجميعهم من كبار المقاولين الذين...
"اخفض صوتك. ستوقظ الناس."
"طيب."
وكان الذي يتكلم يتثاءب. فاقترح الآخر:
"نأخذ غفوة؟ يقال اننا سنواصل السير قريباً."
في هذه اللحظة انبعث من مؤخرة القطار صوت قوي اخذ يشتد، حتى طغى على عجيج الشلال: لقد تجاوز القطار الساكن قطار آخر من طراز قديم مندفع بأقصى سرعته، وسرعان ما خفت دوي فرقعته، فشعّ مرة اخيرة بكل اضوائه واختفى.
"الآن تحسن الحال، لحظة وانتهى الامر."
"لا يبدو مسرعاً."
"لابد أن يكون ستريلنيكوف، قطار مصفح خاص..."
"نعم، لابد ان يكون هو."
إنه وحش حقيقي، مع المعارضين."
"انه يشن حملة على كاليف."
"على من؟"
"على كاليف زعيم القوزاك. يقال انه يحاصر يورياتين، مع جنرال تشيكي. لقد احتل الزعيم كاليف احواض السفن وهو يدافع عنها."
"لا أعرفه."

أو الامير كاليليف، يمكن، لا اذكر جيداً."
"لا أمراء كما تقول. يجب ان يكون هذا علي قربان. خلطت كل شيء."
"لعلّ قربان هو المقصود..."
"عندئذٍ، هذا يختلف."

٢٢

قبيل الصباح، استيقظ يوري اندريفيتش مرة ثانية. كان لتوه يحلم حلماً لذيذاً، وكان ممتلئاً بشعور الراحة والتحرر. وكان القطار قد توقف في محطة جديدة، او ربما في المحطة نفسها. وكان هناك شلال يعج، لاشك أنه الشلال ذاته او ربما غيره...

وعاد يوري أندرييفيتش الى النوم ثانية. وظنّ وهو نصف نائم انه يسمع وقع خطوات مسرعة، واضطراباً. كان كوستويد ورئيس القطار يتخاصمان ويصرخان. وفي الخارج، كان للهواء وقع اكثر عذوبة.

ولحقت بذلك رائحة جديدة. فماذا كانت تلك الرائحة المنتشرة الخفيفة، الربيعية، الساحرة، السوداء البيضاء، مثل هذه العواصف الثلجية في شهر ايار، التي لا تبيّض كتلها الرطبة الذائبة، الارض، لكنها تظهرها اكثر سواداً. شفافية، أسود، أبيض، عبير... وحزر يوري اندرييفيتش في نومه: "أشجار الكرز..!"

٢٣

قالت له انطونينا الكسندروفنا في الصباح:
"انك لمدهش، يا يورا. أنت مليء بالتناقضات. ذبابة تمر تكفي لأن

توقظك، فلا تطبق العين حتى الصباح. وقد امتلأ هذا الليل بالصخب الجهنمي، والمناقشات، والرعب الحقيقي، ولم تستيقظ. وقد هرب في الليل أمين الصندوق بريتوليف وفاسيا بريكين. نعم. إن الأمر يهمك! مع تياكونوفا وأوكريزكوفا. اسمع، ليس هذا كل شيء. وفورونيوك أيضاً. نعم، نعم، لقد هرب. تخيّل! أصغ. لا احد يعرف كيف هربوا بهذا الشكل. هل ذهبوا معاً ام فرادى، وكيف؟ لا أحد يعرف شيئاً، على الاطلاق. لنفترض ان فورونيوك قرّر ان يهرب خوفاً من مسؤولياته، وهذا طبيعي بعد أن اكتشف هرب الآخرين. لكن هم؟ هل هربوا جميعاً برضاهم؟ هل تخلصوا من الاشخاص الذين ضايقوهم؟ يُشك بالمرأتين. هل سوّت تياكونوفا أمرها مع اوكريزكوفا، او هذه مع تلك؟ ليس من يعرف. كان آمر الحرس يركض حول القطار من طرف الى آخر، صارخاً: "من سمح بالرحيل؟ باسم القانون آمر بوقف القطار حتى نجد الهاربين." لكنّ رئيس القطار لم يذعن. أجابه: "انك لمجنون. انقل اعتدة ومؤناً للجبهة، وهذا امر مستعجل، وله الأولوية. عليّ ان انتظر اشقياءك! يا للافكار!". وقد وبخ الاثنان كوستويد فكيف لرجل مثقف، تعاوني مثله، لم ينصح جندياً مسكيناً، جاهلاً وبلا وعي، بالاقلاع عن هذا العمل المشؤوم؟ "وهو يدّعي انه شعبي!" أن كوستويد لا ينقاد، حقاً: "هذا غريب. هكذا إذاً، كما ترى، يتوجب على السجناء ان يحرسوا سجّانيهم؟ لقد انعكست الآية!" وانا، ألكمك في خواصرك، واهز كتفيك، واصرخ بك: "يورا، يورا، انهض، هناك فرار!" تتكلم! ان مدفعاً ما كان ليوقظك. اعذرني. سيأتينا وقت نعاود فيه الكلام عن هذا كله. اما الآن فقد نسيته: دونك، بابا، يورا، تأمل كم هو جميل هذا!"

كان يمتد، عبر النافذة التي يرقدان عندها ممدودي العنق، سهل فسيح تغمره المياه. كان النهر فائضاً، وكان أحد فروعه قد مرّ لتوّه في المنحدر، حتى ليخيل اليك ان القطار كان ينزلق بهدوءٍ فوق الماء.

وكان السطح الناعم في امكنة كثيرة منقّطاً ببقع زرقاء رصاصية. وكانت شمس الصباح المتأججة تترك في كل مكان انعكاسات زيتية، لامعة، كطباخة تمرّر ريشة مبللة بزبدة ذائبة فوق قطعة من الباتيه.

وكانت تغرق تحت هذا المدى من الماء الذي تراءى كأنما لا يحده شيء، مروج، وحفر، وادغال، وأعمدة من الغيوم البيضاء تغور فيه كالاوتاد.

وكان في وسط هذا الماء لسان من الارض تغطيه الاشجار ويبدو خياله المزدوج معلقاً في الفضاء.

وصاح الكسندر الكسندروفيتش الذي كان يسرح بصره:

"يا للبط! افراخ كلها!"

"اين؟"

"قرب الجزيرة. انت لا تنظر حيث يجب. الى اليمين اكثر. آه! يا الله! طارت. ربما أخيفت."

"آه، نعم! انني ارى. يجب ان احدثك، يا الكسندر الكسندروفيتش، مرة أخرى، حين تسنح الفرصة. حسناً فعل فتياننا في جيش العمل ونساؤهم حين هربوا. اظن انهم فعلوا ذلك بدقة، دون ان يسيئوا لأحد. لقد هربوا كهذا الماء الذي يتدفق."

أخذت الليلة الساهرة تتناهى. وكان يُرى كل شيء، لكن كلّ شيء كان مُلتبَساً، وشبه خيالي. الجبل، غابة صغيرة، جُرْف.

وكان هناك شلال، غير بعيد. لم تمكن رؤيته الا من طرف الغابة الصغيرة، من شاطىء الجرف. كان فاسيا تعباً: كان يتأمله بلا انقطاع.كان يعاني، أمامه، شعور الحسرة والفرح.

ولم يكن هناك ما يماثل الشلال. كان مخيفاً بتفرده ذاته، الذي كان يمنحه نوعاً من الحياة والشعور، ويجعل منه التنين الاسطوري، الافعى - الساحرة التي تجمع الضريبة في المنطقة وتدمر كل شيء.

وكان الشلال يسقط في منتصف علوه فوق نتوءٍ صخري وينقسم شعبتين. وكانت الشعبة الاولى ثابتة تقريباً، اما الانبجاسان التحتانيان فكانا يتموّران بحركة قلمّا تدرك، في حين كان الشلال كله يبدو كأنه يتعثر ثم سرعان ما ينهض، دائم التأرجح، دائم النهوض.

كان فاسيا قد فرش على الارض سترته الجلدية ونام، عند طرف الغابة. وحين أشرق الصباح، هبط من الجبل طائر كبير ثقيل الجناحين، وحوم فوق الغابة، ثم حط في اعلى صنوبرة، قريباً من فاسيا. ورفع الفتى الصغير رأسه، وتأمل عنقه الازرق الغامق وصدره الرمادي الازرق ولفظ، كأنما يلفظ كلمة سحرية، الاسم الذي يُطلق على الشرقرق في الاورال: "رونجا". ثم نهض، ولمّ سترته الجلدية، ووضعها على كتفيه، ومضى الى رفيقته:

"هيا، يا أمي الصغيرة. انك مجلّدة، واسنانك تصطك. لماذا تحدقين هكذا، كأنك خائفة؟ اني اكلمك. يجب ان نمضي. قدّري في أي حالةٍ نحن. يجب ان نمضي الى القرى. هناك لا أحد يؤذينا. انهم اخواننا. سيخبئوننا. والا فسنموت جوعاً في يومين. لا شك ان الاب فورونيوك قد فضح أمرنا، وقد يكون في اثرنا. لابد من الذهاب، لابدّ من الهرب. لاحظّ لي معك، أيتها الأم، فلم تفوهي بكلمة طول النهار. ان الهمّ هو الذي يطبق شفتيك، انه هو بالتأكيد. لم تتعمدي ان تُوقعي كاتيا او كريزكوفا من المقطورة، لقد لامستِها جانبياً، اني أعرف ذلك... لقد نهضت، ولم تُصب بأذى، وشرعتَ تركض. هكذا جرى للأب بروخور، بروخور خاريتونوفيتش. سيلحقون بنا، وسنجتمعُ كلنا. ماذا؟ ما هو رأيك؟ لا لزوم للقلق. اذا لم تضطربي، ينطلقُ لسانك."

ونهضت تياكونوفا، ممسكةً بذراع فاسيا، وقالت بهدوء:

"لنمضِ، يا صغيري!"

٢٥

كانت العربات تصرُّ بكل ثقلها، وهي تصعدُ مرتفعاً في ذروة منحدر عال. وكانت ترتفع في اسفل المنحدر اشجار صغيرة من انواع مختلفة ولا تلامس اعاليها مستوى الردم. وكان بين العشب الذي يغطيه الرمل تقريباً قطعٌ من الخشب تتناثر في كل الجهات، وفي الاسفل مروجٌ انحسر عنها منذ مدة قليلة ماء الفيضان، وجُمعت بعض جذوع الشجر للنقل عبر الماء في احد اطراف الغابة، غير بعيد من هنالك.. كان الفيضان قد جرفها والقاها هناك.

وكانت الاشجار الصغيرة تحت الردم عارية تقريباً، كما في الشتاء. الا ان البراعم التي كانت ملطخة بما يشابه الشمع، كانت ذات مظهر وسخ ومنتفخ. كان هذا الوسخ الذي يُفاجىء، هو الحياة، هو اللهب الكبير الاخضر للايراق الذي كان يُشعل في الغابة الاشجار الجديدة الاولى.

كانت الاشجار هنا وهناك تتوتر توتر الشهداء، تمزقها اسنان اوراقها الطالعة وسهامها. كان يمكن للمرء، من رؤيتها فقط، ان يتخيل رائحتها. كانت تفوح منها رائحة تفتّحها، رائحة نسغ العيدان التي يطبخ بها الصمغ.

وسرعان ما بلغ القطار المكان الذي جرف الفيضان الجذوع المتجمعة فيه. وظهرت من المنعطف فسحة في الغابة ملأى بالنشارة والاخشاب وفي وسطها كومة من الجذوع بطول ثلاثة امتار. وتوقف القطار قرب الاخشاب المقطوعة. وتمايل ثم هدأ، مائلاً ميلاً خفيفاً صوب المنحدر العالي في المنعطف.

وانبعثت من القاطرة اصوات قصيرة من صفارة، وصرخات. وكان المسافرون يستطيعون الاستغناء عن الاشارات، لأنهم كانوا يعرفون ما

حدث حق المعرفة، فقد اوقف السائق القطار لتموينه بالمحروقات.

وانفتحت ابواب المقطورة، ذات الزلاجات. وقفز على الخط جمهور يعادل سكان مدينة صغيرة. كان الجنود في مقطورات المقدمة معفيين من اعمال السخرة، فلم يشتركوا في هذا العمل.

ولم تكف اكداس الخشب المبعثر في الغابة لملء مقطورة الوقود. ولزم ايضاً نشر بعض الجذوع.

وكان لدى الميكانيكيين مناشير بين ادواتهم، فوزعوها على متطوعين للعمل توزعوا أزواجاً. وتلقى الدكتور ووالد زوجته منشاراً.

وبرزت من الابواب المفتوحة في المقطورات العسكرية وجوه سكارى، بشوشة. وقد تراءى ان فتياناً لم يتعمدوا بالنار، من تلامذة المدارس البحرية، موجودون خطأ بين عمال، من عائلات وقورة، ذاهبون هم ايضاً الى النار، لأول مرة، وكانوا يصخبون، ويمزحون مع رجال البحرية الاكبر سناً، ويتحاشون التفكير. كان الجميع يشعرون ان ساعة المحنة تقترب.

وكان جميع هؤلاء الاشخاص المرحين يخاطبون الرجال والنساء الذي مضوا للقيام بنشر الخشب بصيحات وعبارات ساخرة:

"والآن، ايها الجدّ، ليس لك الا ان تقول انك لا تزال ترضع. "قل لهم، لم تفطمني امي، ولا اقدر ان اقوم بجهد عضلي"، بستْ، مافرا، لا تكوني غبية وتنشري فسطانك بالمنشار، فهذا يحدث تياراً من الهواء."

"وانتِ، يا بنت، لا تمضي الى الغابة. هنا ما هو افضل، لنتزوج!"

٢٦

كان في الغابة نقالات بشكل صلبان غرزت اطرافها في الارض. وكانت بينها خشبة غيرمغروزة، فأخذ يوري اندرييفيتش ووالد زوجته ينشرانها.

انها فترة الربيع حيث تتعرى الارض من الثلج، وتعود الى ما كانت عليه منذ ستة اشهر، قبل الثلوج الاولى. الغابة مشبعة بالرطوبة، مكدسة بأوراق الخريف الماضي، كغرفة مشوشة امتلأت بالاوراق الممزقة من ايصالات ورسائل واوراقٍ طال عليها العهد ولم تُتح الفرصة لكنسها.

"لاتسرع، فستتعب"، قال جيفاكو لوالد زوجته وهو يجعل حركة المنشار اكثر تباطؤاً وانتظاماً؛ وعرض عليه استراحة قصيرة.

وكان يدوّي في الغابة صوت سائر المناشير، الأجش التي تتوافق في حركتها احياناً، وتنقطع عن التوافق احياناً اخرى. وفي البعيد، البعيد جداً، كان اول عندليب يحاول ان يغني. وكان يخيل على الاغلب، في فترات طويلة ان شحروراً ينفخ في مزمار من الغبار. حتى الدخان المتصاعد من فوهة القاطرة كان يعلو في المساء مدندناً بأغنيته، فكان اشبه ببخار الحليب الذي يغلي في غرفة للاطفال.

وقال الكسندر الكسندروفيتش:

"كنت تريد ان تقول لي شيئاً ما، فهل نسيت؟ اليك بالموضوع: كنا ازاء سهلٍ فائض، نتأمل افراخ البط وهي تطير، وقلت لي: يجب ان اتحدث اليك."

"آه، نعم. لا اعرف كيف أوجز ببضع كلمات. نحن مستمرون بالتقدم في الاورال. المنطقة كلها في هياج. سنصل عماقريب، ولا نعرف ماذا ينتظرنا هناك. وعلى كل حال، لابدّ لنا من ان نتفق على بعض الاشياء. لا اعني آراءنا. فمن العبث ان نحاول ايضاحها وفرضها في خمس دقائق من المحادثة، هنا، في الغابة، وقت الربيع. كل منا يعرف الآخر جيداً. انت، تونيا، انا وكثيرٌ من افراد جيلنا، نكوّن عالماً واحداً ونتميّز بطريقة فهمنا لهذا العالم. لا اريد ان اتكلم عن ذلك؛ فهو امرٌ اولي. اريد ان اتكلم عن شيءٍ آخر. علينا ان نكون متفقين على الطريقة التي يجب ان نسلك بها، في بعض الظروف، كي لا يُخجلَ البعضُ

البعضَ الآخر، كي لا نتلطخ بالعار."

"هذا يكفي. فهمت. احب اسلوبك في طرح المشكلة. لقد حظيت بالكلمات الملائمة. واليك ما اريد ان اقوله لك. اتذكر، ذلك المساء حينما جلبت لنا جريدة بالمراسيم الاولى، في الشتاء، ليلةً عاصفة؟ أتذكر هذه النبرة الحاسمة؟ ما كان اشد جنونها! كانت تلك الصراحة مغوية لكن تلك الاشياء لا تحتفظ بطهرها البدائي الا في ذهن خالقها، وفي يوم اعلانها، ايضاً. ان جيزويتية السياسة تعكس لك الاشياء كلها، منذ الغد. ماذا تريد ان اقول لك؟ ان فلسفتهم غريبة عليّ. هذه القوة موجهة ضدنا. لم يؤخذ رأيي لتغيير كل شيء. لكنني مُنحت الثقة؛ حتى لو تملّقوني، فان افعالي تُلزمني.

"سألتني تونيا اذا كنا سنصل في الوقت اللازم لزراعة الخضار، اذا لم نترك وقت البذار يفوت. بماذا أجيب؟ لا أعرف قيمة الارض من هنا. ما هي الشروط المناخية؟ الصيف قصير جداً. هل يمكن حتى انضاج أي شيء؟

"لكن هل نحن آتون من بعيد للتلذذ بزراعة الخضار؟ ما من شيء يدعو للتسلية قائلين ما يقول المثل: "هناك من يسيرون للبحث عن الخبز على بعد ثمانية كيلومترات من بيوتهم"، لاننا مع الاسف، سرنا حوالي خمسة آلاف كيلومتر. كلاً، فنحن، لكي نتحدث باخلاص، اذا كنا قد مشينا هذه المسافة كلها، آتون لهدف آخر. سنحاول ان نعيش، كالعيش في وقتنا، ونأخذ نصيبنا من توزيع الآلات والغابات واملاك الجدّ. سنحاول ان نأخذ شيئاً ما، ليس من المحافظة على املاكه، بل من انقاضها، من تبذير آلاف الروبلات التي سينال كل منا كوبيكين منها لكي يعيش، وبأي شكل يعيش؟ بشكل مشوش، لا يطوله الفهم. كالناس جميعاً في وقتنا. ولكن حتى لو دُفع لي اجر، لن اقبل ان اصير مدير منجم على الطريقة القديمة. سيكون هذا عاراً، كما لو تنزّه المرء

عارياً او نسي الابجدية. كلا. لقد انتهى تاريخ الملكية في روسيا. ونحن ايضاً، آل غروميكو، فقدنا منذ جيل هوس جمع المال."

٢٧

كان القطار متوقفاً قرب محطة رئيسية. لم يكن النوم ممكناً، في مثل ذلك الجو الثقيل ورائحة المقطورات المغلقة. وكان رأس جيفاكو مبللاً بالعرق الذي تبللت به مخدته.

وانزلق بهدوء الى اسفل سريره، وبحذر شديد، كي لا يوقظ احداً، وفتح باب المقطورة.

وصدمت وجهه لطمة باردة، دبقة، كما يحصل للمرء في كهف، حين يتعثر ببيت عنكبوت. وقال في نفسه: "الضباب مخيّم. سيكون النهار شديد الحر، محرقاً. لهذا يصعب التنفس، ولهذا تشعر الروح بهذا الثقل الساحق."

ووقف جامداً، قبل أن ينزل الى الخط، في مدخل الباب، وأصغى.

لم تكن المقطورات غارقة في الضباب والصمت، فقط، بل كانت تبدو مهجورة وغير موجودة؛ لقد نسيها المسافرون. كان القطار متجمداً على مدخل المحطة، تعزله عنها اسلاك لا حصر لها.

كان يُمَيِّز بعيداً، نوعان من الضجة.

كانت الضجة الى الوراء اصطفاقاً منتظماً، كخضخضة الثياب وهي تغسل، او كالريح وهي تضرب علماً مبللاً على سارية.

وكانت، في الامام، هديراً اخاف الدكتور لانه ذكره بالحرب، وتنصّت.

"اسلحة بعيدة المدى" استنتج بعد ان درس هذا الهدير الواحد الذي يُرسل بهدوء صوته الثقيل، الركين.

"بلى، انه لكذلك. لقد وصلنا الى الجبهة"، فكر جيفاكو. وهز رأسه وقفز من المقطورة على الارض.

وتقدم بضع خطوات. كان القطار منقطعاً عند آخر مقطورتين. وكان بدون قاطرته. فقد أخذت مع المقطورات الامامية التي فصلت عن القطار.

وفكّر الدكتور: "لهذا سلك الخبثاء ذلك المسلك البارحة. فقد عرفوا ولاشك، انهم سيُرسلون، منذ وصولهم، رأساً الى خط النار."

ودار حول مقدمة القطار لكي يجتاز الاسلاك ويجد طريق المحطة. ووراء احدى المقطورات شاهد حارساً مسلحاً يظهر بمثل السحر. فقال له الجندي بصوت منخفض:

"اين تذهب. جواز سفرك؟"

"ما هي هذه المحطة؟"

"هذا لا يعنيك. من انت؟"

"انني طبيب، آتٍ من موسكو. اسافر في هذا القطار مع عائلتي. هذه اوراقي."

"أوراقك مزورة. لست مجنوناً لاقرأ اوراقك في العتم. لماذا أرهق عينيّ. الا ترى هذا الضباب؟ لا حاجة للاوراق، يعرف من مسافة كيلومتر أي طبيب أنت. الاطباء من نوعك، تطلق فوقهم الآن مدافع عيار ٧٥ كان يجب ان امزّقك إرباً، كما ينبغي، لكن لم يحن الوقت، بعد. هيا، امش الى الوراء، ما دام هناك وقت."

"لمن سيأخذني؟" فكر الدكتور. كانت من العبث المناقشة مع الحارس. وكان من الافضل الابتعاد، قبل ان يفوت الاوان. وعبر جيفاكو الى الجهة الاخرى من القطار.

كان دوي المدفعية قد توقف، وراء ظهره، في الشرق. والشمس قد اشرقت، من هنالك، في غيمة من الضباب، وكانت تُستشف بغموض من

خلال قطع الضباب القاتم، الهاربة، كما تُستشف اشباح عارية في غيوم من البخار الصابوني في حمام عمومي.

كان الدكتور يجانبُ المقطورات. ثم تجاوزها الى أبعد. وكانت قدماه في كل خطوة تغوران اكثر، في الرمل الرخو.

واقترب الايقاعُ المنتظم. وكان هنالك منحدر هادىء. فوقف الدكتور على بعد بضع خطوات قبالة اشباحٍ غير واضحة يفرط الضباب في مطّ اشكالها. وتقدم جيفاكو خطوة اخرى فرأى امامه في الظلمة مقدّمات قوارب جانحة. كان على شاطىء نهرٍ عريض، يجعل امواجه الصغيرة المتعبة تتكسر ببطءٍ وتكاسل على أطراف قوارب الصيد وجسور الشحن القصيرة.

"من اخبرك انه يمكن ان تتنزه هنا؟" سأل حارسٌ آخر برز فجأة من الشاطىء.

"ما اسم هذا النهر؟" أفلتت هذه الكلماتُ من الدكتور الذي قرر بمطلق ارادته، منذ تجربته القريبة، الا يطرح مثل هذه الاسئلة.

وبدل ان يجاوب الحارس، وضع صفارة في فمه، لكنه لم يصفر. اما الحارس الاول الذي اراد ان يناديه الحارس الثاني والذي كان يتبع جيفاكو خطوةً خطوة، فقد اقترب من زميله.

"لا داعي للتفكير. القضية واضحة. "ما اسم هذه المحطة؟ ما هو هذا النهر؟" انه يحاول ذرّ الرماد في العيون. ماذا تقول؟ هل نؤرجحه في النهر هنا من اعلى الشاطىء، او نأخذه الى المقطورة؟"

"نذهب اولاً الى المقطورة. هذا يتوقف على ما سيقوله الرئيس. الهويّة!"، صاح الحارس الثاني والتقط حزمة الاوراق التي قدمها له الدكتور.

"افتح عينك يا صبي"، قال ذلك ولم يُعرف لمن توجه به، واتجه نحو المحطة، وسط الاسلاك بصحبة الحارس الاول.

وفهم يوري اندريفيتش الكلام الاخير حين سمع همهمة وحركة رجل نائم على الرمل، انه صياد، بدون شك.

"اعتبر نفسك سعيداً اذا ارادوا ان يأخذوك الى الرئيس. ربما كان رجلاً طيباً. وحينئذ تنقذ. لكن لا يجوز ان تحقد عليهما. فهذه هي مهمتهما. لقد دقت ساعة الشعب. وقد لا يكون هذا شراً. الافضل وانت تنتظر الا تمزح. الا ترى انهما تاها. انهما يطاردان شاباً، يظنانه انت. يعتقدان انهما وجداه، وجدا عدو الشعب. سيقولان انهما اعتقلاه. انهما مخطئان. اذا ساء الامر، فاطلبْ ان ترى الرئيس. لا تترك امرك لهما. انهما من الاشخاص الذين يشتغلون بنشاط، وفرح، فالافضل الا تعاندهما. ان إنزالك لا يكلفهما كثيراً. اذا قالا لك "الى الامام"، فليس لك الا ان تقول لهما "لا". ليس لك الا ان تقول: "اريد ان ارى الرئيس".

وقال الصياد لجيفاكوان امام الرينفا الرائع، نهراً صالحاً للملاحة، وان المحطة الواقعة على طرف النهر هي رازفيلييه، وهي ضاحية صناعية ومرفأ يورياتين. واخبره ان يورياتين الواقعة على بعد كيلومترين او ثلاثة الى فوق، كانت موضع تنازع طويل بين البيض والحمر؛ وقد احتلها نهائياً هؤلاء الاخيرون. وقال الصياد ان كثيراً من الاضطرابات حدثت في يورياتين، وأنهم قمعوها كلها، كما يبدو، وانه اذا كان يخيم في كل مكان صمتٌ كهذا الصمت، فلأنهم أجْلوا جميع السكان المدنيين حول المحطة، واحاطوا المنطقة بأطرٍ من الرقابة الصارمة جداً. وقال اخيراً ان بين القطارات الخاصة بخدمات الجيش، التي كانت في المحطة، قطاراً خاصاً بالمفوض السياسي للجيش، ستريلنيكوف. ثم اخذ الحارسان اوراق الدكتور الى مقطورته.

وبعد فترةٍ قصيرة، خرج حارس من المقطورة وجاء ليبحث عن الدكتور. كان هذا الجندي يتميز عن الجنديين الاولين بطريقة جر بندقيته على الارض ثم كيفية تمريرها امام ساقيه. فكأنه يسند زميلاً سكرانَ

سينهار بدون مساعدته. واخذ الدكتور الى مقطورة المفوض السياسي للجيش.

٢٨

قال الحارس الذي كان يصطحب جيفاكو كلمة المرور وصعد في احدى المقطورتين الفخمتين في القطار، اللتين يصلهما ببعضهما نطاقٌ من الجلد. وكان يُسمع في المقطورة صخبٌ وضحك انقطعا حين دخل الرجلان.

وقاد الحارس الدكتور في رواقٍ ضيق وسط المقطورة، في قسمٍ فسيح. وكان يسود هناك الصمت والنظام. وكان يعمل في المحل، النظيف المريح، اشخاصٌ نظيفون انيقون. وكان جيفاكو يتخيل بشكلٍ آخر المنطقة العامة "لاختصاصي لا حزبي في الشؤون العسكرية" الذي اصبح في قليل من الوقت، المجد والرعب لمنطقةٍ بكاملها.

الا ان مركز نشاطه كان يمتد الى ابعد، الى قيادة الجبهة، في مسرح العمليات. لم تكن عنده هنا الا الوحدة التي هي تحت امرته المباشرة، وبعض المصنفات الشخصية وسرير سهل النقل.

كان يسود هذه المقطورة هدوء شامل كما في هذه الحمّامات البحرية الساخنة حيث الارض مفروشة بالفلين والسجادات الصغيرة، وحيث يمشي الناس بأخفافهم، وفي صمت.

كان المحل المركزي فيما مضى قاعة للطعام، مفروشة بالسجاد، وقد تحولت الى مكتب للشؤون الحربية. وكانت فيه بعض الطاولات.

"حالاً" قال عسكري شاب يقف عند المدخل. ثم اقتنع الموظفون كلهم وراء طاولاتهم انهم مخولون ان ينسوا الدكتور، والا يعيروه التفاتاً. وأومأ العسكري الشاب بحركةٍ ذاهلة من رأسه، للحارس ان يمضي، فابتعد وبندقيته تلتطم بعوارض الرواق المعدنية.

ولمح الدكتور، وهو يجتاز العتبة، اوراقه في الطرف الآخر من المكتب. وكانت موضوعة على طرف الطاولة الاخيرة امام عسكري اكبر سناً بقليل من البقية، وهو عقيد من النظام القديم. كان اختصاصياً عسكرياً في الاحصاء. كان يهمهم بما لا يُعرف ويستفسرُ دفاتر التعليمات، ويتفحص خرائط من القيادة، ويُقارن، ويُوفق، ويقطع ويلصق اطرافاً من الورق. وجال ببصره نوافذ المقطورة كلها، ثم قال: "سيكون الطقس حاراً هذا اليوم"، كما لو ان هذه النتيجة جاءت من التمعن في النوافذ كلها ولم يكن كافياً النظر الى نافذة واحدة فقط.

وكان بين الطاولات، على الارض، اختصاصي عسكري يدبُّ ويصلح الخطوط الكهربائية. وحين اقترب من العسكري الشاب، نهض، كي لا يضايقه. وفي الجوار كانت سكرتيرة تلبس لباس الجبهة التنكري وتصلح آلتها الطابعة. واقترب منها العسكري الشاب واخذ يبحث معها عن سبب تعطل الآلة. وجاء الاختصاصي العسكري وبدأ يفحصها. نهض العقيد الذي كان يبدو بهيئة زعيم واقترب منهما. وتكوم الجميع حول الآلة الطابعة.

وطمأن ذلك خاطر الدكتور. فقد كان من الخطأ التصوُّر ان احداً يعرف خيراً منه المصير الذي ينتظره، يمكنهم ان يتلهوا بالسّفاسف، امام رجل محكوم.

وفكر في نفسه "ثم، هل يعرفون اصلاً؟ من اين تأتي هذه البرودة؟ المدافع تقصف قريباً جداً من هنا، والناس يموتون، واذا تكلموا عن نهار حار، فعلوا ذلك وهم يفكرون بالطقس المقبل، وليس بالمعارك الضارية. فلقد قاسوا مختلف الاهوال حتى ان حساسيتهم ماتت."

وأخذ، دون ان يغير مكانه، جاهلاً ماذا يفعل، ينظر من خلال النوافذ في الجهة الاخرى من المكتب.

٢٩

كانت تُرى من هناك، أسلاك تمتد امام القطار، ايضاً، وتبدو كذلك، المحطة وضاحية رازفيلييه.

وكان يصل الخط بالمحطة سلم من الخشب بثلاث درجات.

كان الخط، من هذه الجهة، قد تحول الى مقبرة كبيرة للقاطرات. وكانت الآلات العتيقة التي فقدت افرانها متلاصقة بمداخنها التي تشبه الكؤوس او قضبان الريحان وسط اكداس من القطع الحديدية للمقطورات المحطمة.

كانت مقبرة القاطرات، ومقبرة الضاحية، والحديد الملفوف على مدى المسالك، واللافتات وسطوح البيوت الصدئة، تذوب كلها في مشهد واحد من القِدَم والهجرة، تحت السماء البيضاء التي كانت تستحم في حرارة الفجر الشديدة.

كان يوري اندرييفيتش قد نسي في موسكو، مقدار ما في المدينة من اللافتات، وانها تغطي قسماً كبيراً من الواجهات. وحسب هنا، لهذا الامر حسابه من جديد. كان نصفها يحمل حروفاً كبيرة حتى لتمكن قراءتها من القطار. وكانت منخفضة بحيث ان البيوت البسيطة كانت تختفي تحتها كما تختفي رؤوس الفلاحين الصغار تحت حوافي خوذ آبائهم المنخفضة.

وانقشع الضباب كلياً. ولم تبق منه آثار الا في الناحية اليسرى من الفضاء، بعيداً، في الشرق. ولكن كانت الغيوم هناك تتحرك خفيفة، وتسير، وتتفتح كما تتفتح اطراف ستار مسرحي.

وظهرت مدينة كبيرة، في الشرق، على بعد ثلاثة كيلومترات من رازفيلييه، فوق رابية تطل على الضاحية. كان يخيل انها المركز الرئيسي للمنطقة او المقاطعة. وكانت الشمس تمنح الوانها انعكاساً

ضارباً الى الصفرة، وتبسط المسافة خطوطها. وكانت المدينة تتدرج في العلو كجبل آتوس، وتشرف البيوت والشوارع بعضها على البعض الآخر، وعلى ذروة الرابية، ترتفع كاتدرائية ضخمة.

"يورياتين!"، تعرّف الدكتور على المدينة بغبطة. يا لذكريات المسكينة آنا ايفانوفنا! كم مرة حدثته انتيبوفا عنها! "كم مرة سمعتها تتحدّث عن هذه المدينة، ويا للظروف التي رآها فيها، للمرة الاولى!"

في هذه اللحظة تحوّل انتباه العسكريين المنكبّين على الآلة الطابعة الى شيءٍ ما لمحوه من النافذة. فداروا رؤوسهم في اتجاهٍ واحد، وانتبه الدكتور الى ما ينظرون اليه.

كان يُساق، على امتداد سلّم المحطة، سجناء مدنيون وعسكريون وبينهم طالب مجروح الرأس؛ ضُمّد جرحه كيفما كان. فقد كان الدم يسيل من تحت الضماد فيجريه الطالب بيديه فوق وجهه البرونزي الراشح بالعرق.

كان للطالب الذي يحيط به حارسان احمران وجه نشيط، وكان صغره مدعاةً للشفقة. لكن الأنظار صُدمت خاصة بالحركات الغبية التي كان يقوم بها الطالب والحارسان اللذان يصطحبانه. فقد كانت، تماماً، ضدّ ما كان يجب القيام به.

كانت الخوذة تنزلق باستمرار عن رأس الطالب، المعصوب. وبدل ان ينزعها ويبقيها في يده، كان يصلح وضعها، رغم جرحه، ويثبتها بمساعدة الحارسين الاحمرين.

وحوّل الدكتور بصره. كان يقف وسط الغرفة ستريلنيكوف الذي دخل لتوّه بخطوات كبيرة حازمة.

كيف لم يقابلْ الدكتور، بين كثير من الالتقاءات العرضية، هذا الرجل ايضاً؟ لماذا لم تقرّب بينهما الحياة؟ لماذا لم تتقاطع طريقاهما؟

كان يُحس، دون ان يُعرَف لماذا، ان ستريلنيكوف يجسد قوة الارادة

في اعلى درجاتها. لقد كان الرجلَ الذي اراد ان يكونه، حتى لبدا كل شيء فيه نموذجياً: رأسه الجميل ذو الشكل الرائع، سرعة سيره، ساقاه الطويلتان بحذائهما الكبير الذي كان يبدو نظيفاً رغم وسخه، صدرته الرمادية، التي ربما كانت مدعوكة، ولكنها كانت توحي بأنها انيقة، مرتبة.

لقد تأثر الجميع تأثراً كبيراً بحضور نبوغ طبيعي لا تصنّع فيه، ولابد انه كان رائع البساطة في المناسبات كلها.

كان هذا الرجل يملك، ولا ريب موهبة، ليست بالضرورة، أصيلةً. ربما كانت هذه الموهبة التي تكشف عنها ابسط حركاته، هي موهبة التقليد. كان يُقلّد، دائماً، في ذلك الوقت شخص ما: ابطال التاريخ المنتصرون؛ نماذج كانت تُلمح في الجبهة او المدن، ايام الاضطراب، فتدهش الخيال؛ ممثلو الشعب الممتازون، رفقاء نجحوا؛ الآخرون - ببساطة.

لم يُظهر، لياقةً منه، ان وجود غريب قد يفاجئه او يضايقه؛ بل، على العكس، خاطب الجميع وكأن الدكتور جزء منهم: "تهانيّ. لقد رددناهم. كأنها حرب بسيطة، لا خطورة فيها، لان هؤلاء الاشخاص روسيون مثلنا. لكن فيهم بذرة جنون يؤمنون بها كثيراً، وعلينا ان نخرجها من جمجمتهم بالقوة. قائدهم صديق قديم. انه، اصلاً، اكثر بروليتاريةً مني. نشأنا معاً. لقد عمل الكثير في سبيلي، فأنا مدينٌ له. لكنني مسرورٌ لتراجعه وراء النهر، وربما بعيداً عنه. كوريان، هيء الاتصال حالاً. لا يمكن الاقتصار على التلغراف والآذنين. أتحسون بهذه الحرارة؟ مع ذلك نمتُ بهدوء ساعة ونصف الساعة. آه، نعم!"

وتذكر شيئاً ما فالتفت نحو الدكتور. تذكر لماذا أُوقظ من نومه. لقد حجز هنا هذا المجهول لسبب لا اهمية له.

"هل يكون هو؟" فكّر ستريلنيكوف، وتطلع الى الدكتور بنظرةٍ

فاحصة. "ليس هو! يا للاغبياء!" وانفجر ضاحكاً وقال للدكتور:

"اعذرنا ايها الرفيق. ظنوك شخصاً آخر. لقد اخطأ حراسنا. انت حرّ. اين اوراق الرفيق؟ آه، ها هي اوراقك. اغفر لي سلوكي، اذ اسمح لنفسي بالقاء نظرة عليها. جيفاكو، جيفاكو، دكتور جيفاكو. اسم من موسكو، ها...هيّا، لندخل دقيقة الى مكتبي. هنا، مكتب السكرتارية، وانا الى الجوار في المقطورة. ارجوك، لن أؤخرك طويلاً."

٣٠

من كان هذا الرجل؟ كان مدهشاً رؤيةُ رجل لا حزبيّ يصل ويستمرّ في علو مكانته، يجهله الجميع، موسكوي الاصل، طلب وظيفة مدرس في الريف بعد ان انهى دراسته الجامعية، سجن في الحرب، عُدّ غائباً لفترة طويلة، وها هو يظهر منذ وقت قليل.

وقد ساعد ستريلنيكوف، تيفرزين العامل التقدمي في سكة الحديد، الذي امضى طفولته في بيته، بتوصياته، واخذه على عاتقه. ووثق به جميع الذين كانوا يتمتعون بحق الترقية، في ذلك الوقت. وكان اخلاص ستريلنيكوف، الثوري (الذي لم يحده شيء)، عهدَ تلك الرومنطيقية الجامحة والتطرف، يتميز بصفائه وبتعصبه الصحيح الذي أنضجته الحياة والذي لم يكن مديناً للمصادفة بأي شيء.

ودلّل ستريلنيكوف على انه جدير بالثقة التي منحت له. وكانت شهادات خدمته القريبة العهد تشهد بأعمال اوست نيمدا ونجني كيلميس: المقاومة المسلحة التي واجه بها فلاحون من كوباسّوفو قافلة عسكرية؛ الاقتصاص من سرية المشاة الرابعة عشرة التي سلبت قطاراً من المؤن في محطة ميدفيجي بوبوم، ومن الجنود الذين مثلوا دور ستينكارازين في محطة توركاتوي وسلموا السلاح للبيض، واخيراً قمع

الثورة الصغيرة في المرفأ النهري في تشيركين أوس، حيث قُتل قائد ظل وفياً للسوفيات.

كان يُباده الناس في كل مكان، ويحاكم، ويحكم وينفذ قراراته بسرعة، وقسوة، ودون قلق.

وكان أن وضعت غاراته السريعة حداً لحمّى الهرب التي كانت تجيشُ في المنطقة كلها، وغير إصلاحه لهيئات التجنيد، كل شيء.. تغييراً جعل سجلات التجنيد في الجيش الاحمر تسير الآن سيرها الحسن. وشرعت لجان التجنيد تعمل بحماسٍ فائق.

ومنذ فترة وجيزة، حين قام البيضُ بحركة التفاف من الشمال، وبدا الموقف ينذر بالخطر، أسندت الى ستريلنيكوف مهمات اكثر لصوقاً بالستراتيجية. ولم تكن النتائج الباهرة التي حققها في الحسبان.

وكان ستريلنيكوف يعرف انه لُقّب باسم راستريلنيكوف (القاتل). فلم يكترث لذلك. اذ لم يكن يخيفه أي شيء.

ولد في موسكو، من أب عامل دفع الثمن غالياً لاشتراكه في ثورة ١٩٠٥، بقي في معزل عن الثورة طول تلك السنوات. كان صغير السن. وبقي كذلك فيما بعد، حين كان طالباً في الجامعة: فقد كان الطلاب ذوو المنشأ الوضيع ينظرون الى التعليم العالي بأكثر جدية من الطلاب الاغنياء، ويجتهدون اكثر منهم. ولذلك لم تؤثر في نفسه الفورة التي كانت تثير الطلاب الميسورين. فخرج من الجامعة واسع المعرفة. واكمل ثقافته التاريخية والادبية بدراسات في الرياضيات.

وكان القانون يعفيه من الخدمة العسكرية، لكنه تطوع وسجن حين كان برتبة مرشح، وهرب في نهاية ١٩١٧، وقت اعلان الثورة الروسية، لكي يعود الى بلاده.

وكانت تميزه خاصتان، عاطفتان.

كان يفكر بدقة، وبوضوحٍ فائق. وكان يتمتع، لدرجةٍ نادرة، بموهبة

الصفاء الاخلاقي والعدالة؛ وكان ذا مشاعر نبيلة.

إنما كان ينقصه، في نظر عالم يُعنى بفتح طرقٍ جديدة، الحدس -هذه القوة التي تهدم كشوفُها المفاجئة النظام العقيم.

وكان لابد، لكي يحقق الافضل، من ان تقترن صلابته بتسامح القلب؛ وهو تسامح يجهل الحالات العامة ويأبى ان يتعرف الا على حالات خاصة ويبلغ العظمة في فعل الامور البسيطة.

لقد تتطلع ستريلنيكوف منذ طفولته، الى كل ما هو عظيم صافٍ. وكان يرى في الحياة حقلاً مغلقاً لا حدّ له يتصارع فيه الناس لكي يصلوا الى الكمال بخضوعهم لقواعد دقيقة.

وحين ادرك ان الحقيقة خلاف ذلك، لم يُدرك خطأه في تبسيط نظام العالم. فتحمل مهانته، وشرَع يتعلل بالفكرة التي يتخذها حكماً بين الحياة والمبادئ السيئة التي وسختها، والتي سيدافع عنها وينتقم لها.

لقد ملأه اليأس بسوْرة الغضب. وكان على الثورة ان تقدم له سلاحه.

٣١

"جيفاكو، جيفاكو" وظل ستريلنيكوف يردد، وهما يدخلان المقطورة. "اسم تاجر.. او ارستوقراطي. دكتور في موسكو. المكان المقصود: فاريكينو. غريب. يترك موسكو لهذا المكان الضائع..."

"تماماً. اني ابحث عن الهدوء. اريد مكاناً ضائعاً، مجهولاً."

أعد علي هذا الشعر. فاريكينو؟ اعرف البلدة، من هنا. كانت فيها مناجم كروجر. ألست بالمصادفة قريباً له؟ وريثاً؟"

"لماذا هذه اللهجة الساخرة؟ لماذا تتكلم عن الوراثة؟ الحقيقة ان زوجتي هي..."

"ها! هكذا. إذاً انت تحنّ الى البيض؟ سأخيب آمالك، وصلت متأخراً. فقد طهرت المنطقة."

"انك تُمعن في سخريتك..."

"ثم انك طبيب. وعسكري. ونحن في الحرب. هذا يعنيني مباشرة. هارب من الجندية. الخضر[1] يختبئون في الغابات طلباً للهدوء. ما هي الدواعي بالنسبة لك؟"

"جرحت مرتين وسرحت من الجندية."

"يجب ان تبرز شهادة من قوميسارية الشعب للتربية الوطنية او للصحة العامة تشهد انك "رجل سوفياتي حقاً" ومؤيد، وتؤكد "ولاءك". اننا في هذه اللحظة بين اناس مسلحين بالسيوف، بين الوحوش المجنحة بالشر، ولا اريد ان اسمع شيئاً عن الاطباء نصف الموالين ونصف المؤيدين. لقد قلت انك حر ولن ارجع عن قولي. هذا من أجل هذه المرة. اشعر اننا سنلتقي ثانيةً، وعندئذ سيكون حديثنا مختلفاً جداً. فحذار!

ولم يترك يوري اندرييفيتش نفسه تضطرب، لا من التهديد ولا من التحدي.

"اعرف ما تعتقده في. من وجهة نظرك، انت محق تماماً. المناقشة التي تريد ان تجرني اليها، تقوم في ذهني دائماً مع متهم خيالي، ولقد اتيح لي الوقت الكافي للوصول الى بعض النتائج. ولكن لا يمكن تلخيصها في كلمتين.

"دعني اذهب دون ان تطالبني بايضاحات. اهذا اذا كنت حراً بالفعل. وإلا تصرّف بي كما تشاء. فلن ادافع عن نفسي امامك."

وقطع عليهما الحديث رنين جرس الهاتف. فقد اصلحت الخطوط.

"شكراً، كوريان، قال ستريلنيكوف بعد ان نفخ في السماعة عدة

---

(١) هكذا دعي الذين كانوا يختبئون في الغابات هرباً من البيض والحمر

مرات. ارسل لي من يصحب الرفيق جيفاكو الى القطار. لا أريد ان تتكرر الحادثة. صلني بادارة التشيكا لنقليات رازفيلييه."

وبعد ذهاب جيفاكو اتصل ستريلنيكوف بالمحطة.

"جيء اليكم بصبي، يظل طول الوقت يصلح وضع قبعته. رأسه معصوب، ومنظره مؤلم. نعم. فليحصل على العناية الطبية اذا لزم الامر. أكيد. نعم. أنت مسؤول امامي شخصياً. جراية اذا لزم. بالضبط. والآن لنبدأ العمل الجدي. اني اتكلم، لم أنته. يا للبلادة. ماذا يريد هذا؟ كوريان، كوريان، قطعت المكالمة."

وتوقف ستريلنيكوف لحظة عن الاتصال بالمحطة، ثم راح يفكر:

"لعله احد تلامذتي القدماء. لقد كبر وهو الآن يثور علينا." وأخذ بعد السنين التي علم فيها وسني الحرب والاسر ليرى اذا كان مجموعها يساوي مع عمر الصبي. ثم تطلع من نافذة المقطورة يبحث في الافق عن حي يوريانين، حيث قام مسكنه، فوق النهر في طرف المدينة. وهل زوجته وابنته لاتزالان هناك؟ تُراه يذهب لرؤيتهما؟ في الحال. الآن. نعم، ولكن هل هذا معقول؟ تلك كانت حياة اخرى. يجب ان ينتهي، اولاً، من حياته الجديدة قبل ان يستعيد تلك التي انقطعت. سيتم هذا ذات يوم، نعم، ذات يوم. ولكن متى؟ متى؟

الفصل الثامن

الوصول

١

كان القطار الذي حمل عائلة جيفاكو لا يزال واقفاً على الرصيف خلف قطارات اخرى تحجبه عن المحطة، ومع ذلك فقد احسوا ان اتصالهم بموسكو ـ وقد بقي حتى الآن مستمراً، ولكنه توقف ذلك الصباح ـ قد انتهى. وهنا كانت تبدأ بلاد اخرى، مختلفة، عالم ريفي، له مراكز جاذبيته الخاصة به.

وكان السكان هنا اقرب، بعضهم الى بعض، منهم في العواصم. ورغم ان المنطقة قد أخليت من المدنيين واحيطت بوحدات الجيش الاحمر، فقد كان المسافرون في القطارات المحلية يتدبرون امرهم بطرق متعددة للوصول الى العربات، "للتسلل" كما نقول اليوم. حتى انهم كانوا يملؤون العربات متدافعين من الابواب المفتوحة، ثم يسيرون الى مقدمة القطار، او الى مؤخرته ويقفون جماعات صغيرة على الشرفات.

وكانوا كلهم، دون استثناء، يعرفون بعضهم بعضاً، فكان واحدهم يشير الى الآخر او يناديه حين يلمحه؛ وكانوا جميعاً يتبادلون التحيات حينما يمرون بعضهم ببعض. وبدا كلامهم ولباسهم، طعامهم وعاداتهم، كلها مختلفة قليلاً عن سكان العواصم.

وتساءل الدكتور في نفسه: "كيف يحصلون على معاشهم؟ بماذا يهتمون، وما هي مواردهم المادية، وكيف يعالجون مشاكل الوقت الحاضر، وكيف يهربون من القوانين؟"

كل هذه الاسئلة أجيب عليها بسرعة وبأوضح طريق.

٢

وعاد الطبيب الى عربته يرافقه الخفير الذي كان يجر خلفه بندقيته او يستخدمها كعصا يتوكأ عليها. كان يوماً مشمساً، وحرارة الشمس تضرب قضبان سكة الحديد وسطوح العربات، وتألقت لطخ الزيت السوداء على الارض بضياء اصفر كصفائح الذهب. واصطدم عقب بندقية الخفير بخندق صغير في الرمل، فرنّ عليه الحزام.

وقال: "لقد اعتدل الطقس، وحان حصاد مزروعات الربيع ـ الشوفان، الحنطة، الذرة ـ انه افضل وقت. ومع ذلك فالوقت مبكر للقمح الاسود. في بلدي نرى القمح الاسود في عيد اكولينا. انا لست من هذه المناطق بل من مورشانسك، الواقعة تحت سلطة تامبوف. ايه ايها الرفيق الدكتور، لو لم يكن الامر متعلقاً بهذه الحرب الاهلية وطاعون الثورة المضادة، هل تظن انني كنت اضيع وقتي في اماكن غريبة في مثل هذا الفصل؟ حرب الطبقات، تجري بيننا مثل قِطّ الخلافات الاسود؛ انظر فقط الى ما تفعله."

٣

وامتدت الايدي خارج العربة لتساعده على الصعود.

"شكراً، يمكنني ان اتدبر الامر."

ورفع يوري اندرييفيتش نفسه الى العربة، وبعد ان استعاد توازنه عانق امرأته.

فقال: "اخيراً، ولله الحمد، انتهى الأمر بسلام. لقد كنا حقاً نعرف انك بأمان"

"ماذا تعنين، كنتم تعرفون؟"

"كنا نعرف كل شيء."

"كيف؟"

"اخبرنا الخفراء. كيف كان بامكاننا الصبر لولا ذلك؟ وبالفعل فقد كدنا، انا والولد، نفقد عقولنا. هذا هو، انه ينام بسرعة، لا يمكنك ايقاظه، فهو ينام كالخشبة بعد كل ما جرى له من ضيق ومشقة. هناك بعض المسافرين الجدد. سأعرفك اليهم بعد برهة. ولكن اسمع ما يتحدث عنه الجميع - انهم يهنئونك على خلاصك المحظوظ. هذا هو." ثم استدارت فجأة وقدمت زوجها من فوق كتفها لاحد المسافرين الجدد، وقد كان محصوراً بين المسافرين في مؤخرة العربة.

وقدم المسافر نفسه قائلاً: "سامديفياتوف". ورفع قبعته الناعمة فوق رؤوس الآخرين وهو يشق طريقه الى الامام.

وفكر الطبيب في نفسه: "سامديفياتوف. لعله جاء باسم كهذا مباشرة من انشودة روسية قديمة، بلحيته المشعثة وقميصه وزناره المعقود. ولكنه بشعره الاشيب، وشاربيه، وذقنه المدببة يجعلك تفكر بنادي الفنانين المحلي..."

وقال سامديفياتوف: "حسناً، هل اخافك ستريلنيكوف؟ قل الصدق."

"كلا. لماذا؟ تحدثنا حديثاً ممتعاً. بالطبع له شخصية قوية."

"اظن ذلك. لقد كوّنت فكرة عنه. انه ليس من هذه المناطق. فهو واحد منكم انتم سكان موسكو، ككل اشيائنا المستجدّة التي هي كلها مستوردة من العاصمة. لم يكن بامكاننا ان نفكر بها نحن لانفسنا."

وقالت انطونينا الكسندروفنا: "يوروشكا، هذا هو انفيم افيموفيتش، انه يعرف كل شيء. سمع عنك وعن ابيك، وهو يعرف جدي - انه يعرف كل واحد، تماماً كل واحد! - اعتقد انك اجتمعت بمعلمة

المدرسة، انتيبوفا ؟" قالت ذلك دون اهتمام، فاجاب سامديفياتوف باللامبالاة نفسها: "وماذا عن انتيبوفا ؟" وسمع يوري اندرييفيتش هذا الحوار، فلم يقل شيئاً. وتابعت زوجته تقول: "انفيم افيموفيتش بلشفي. يوروشكا، احذر تماماً، عليك ان تراقب لسانك عندما يكون بقربك."

"حقاً؟ ما كنت لأظن ذلك. كان من الممكن ان آخذه على انه فنان."

وقال سامديفياتوف: "كان والدي يدير نزلاً، وعنده سبع عربات ثلاثية على الطريق، ولكني ذهبت الى الجامعة، وصحيح اني اشتراكي ديمقراطي."

"يوروشكا، اسمع ما قاله لي انفيم افيموفيتش؛ وقبل ان انسى، اسمح لي يا انفيم افيموفيتش ان اقول ان اسمك يلوي اللسان! - اذن اسمع يا يوروشكا. اننا محظوظون جداً. لا يمكننا ان نغير القطار في يورياتين - فقسم من المدينة تحت النيران، والجسر قد نسف فلا يمكننا المرور. وقطارنا سوف يحول الى خط آخر؛ فقد صدف ان كان هذا الخط ما توجب علينا اخذه لنصل الى تورفيانايا. أليس هذا مدهشاً! ليس علينا ان نغير القطار وننقل كل اغراضنا من محطة لاخرى. على اننا سنُدفع ساعات عديدة الى الوراء والامام قبل ان نتحرك بالفعل. انفيم افيموفيتش اخبرني بهذا كله!"

٤

كانت انطونيا الكسندروفنا على حق. فالعربات كانت تُقطر وتفكّ والقطار يتحول من خط ممتلىء الى خط آخر تسد فيه العربات عليه طريقه الى الحقول الفسيحة.

كانت المدينة تمتد في البعيد، وقد اخفاها الريف المنبسط بعض الشيء. وكانت بعض سطوحها تتعالى من حين الى آخر، فوق الافق،

كما كانت تتعالى مداخن مصانعها وصلبان كنائسها. وكانت احدى ضواحيها تحترق؛ والدخان يمتد في الفضاء كناصية جواد هائل تتطاير في الرياح.

وجلس الطبيب وسامديفياتوف على ارض العربة وارجلهما تتدلى على جانبها. وظل سامديفياتوف يحدق في البعيد ويشرح ليوري اندرييفيتش ما كانا يبصرانه. ومن فترة الى اخرى كان القطار يضج بصوته المزعج مما حمل سامديفياتوف على الانحناء لتقريب فمه من اذن الدكتور الذي كان يكرر قوله، صارخاً هو بدوره.

"هذه دار للسينما، "الجبار". لقد احرقوها. كان ضباط الاحتياط يحتلونها، مع انهم كانوا قد استسلموا. ما عدا ذلك، لم يتوقف القتال بعد. هل ترى تلك البقع السوداء على قبة الكنيسة؟ انهم رجالنا يطلقون النار على التشيكيين."

"لا ارى شيئاً. كيف يمكنك ان تراهم على مثل هذا البعد؟"

وذاك حي الصناع، حي خوخريكي، انه يحترق. خولودييف، المركز التجاري، يقع خلفه. انني اهتم بهذا لأن نزلنا هناك. ومن حسن الحظ ان الحرائق صغيرة ولم تمتد. وهكذا بقي المركز سليماً."

"ماذا قلت؟ لم اسمعك."

"قلت ان المركز، مركز المدينة ـ الكاتدرائية، المكتبة... الاسم سامديفياتوف هو صيغة روسية مشوشة لاسم سان دوناتو. المفروض اننا من سلالة آل دميدوف."

"لا اسمعك بوضوح."

"قلت ان سامديفياتوف هو صيغة محرفة لسان دوناتو. يقولون اننا فرع من عائلة دميدوف، امراء دميدوف سان دوناتو. إنما قد يكون هذا خرافة عائلية. ذلك المكان يدعى وادي سبسيركا. انه مملوء بالبيوت الصيفية وحدائق التسلية. اسم غريب، أليس كذلك؟"

وامتد امامهما حقل تتقاطعه الدروب الفرعية. وكانت اعمدة التلغراف تسير مبتعدة نحو الافق، كالعمالقة الذين يلبسون احذية طولها سبعة اميال، والطريق العام الواسع ينافس بجماله شبكة الطرقات الفرعية... لقد كان يختفي خلف الافق، ليعود فيظهر في قوس واسعة عند المنعطف، ثم يختفي من جديد.

"هذا طريقنا المشهور؛ وهو يمتد مباشرة عبر سيبريا. كان المحكومون ينشدون الاناشيد عنه. اما الآن فهو قاعدة عمليات الانصار... سوف تحب المنطقة؛ انها ليست سيئة ابداً. ستعتاد عليها. وستعشق الاشياء النادرة في المدينة. مضخات الماء مثلاً. النساء الواقفات حبلاً طويلاً ينتظرن الماء عند المفترق؛ فهو ناديهن المكشوف خلال الشتاء."

"لن نسكن المدينة، بل نحن ذاهبون الى فاريكينو."

"اعرف ذلك. اخبرتني زوجتك. ومع ذلك فستأتون الى المدينة لتصريف شؤونكم. حزرت زوجتك حالما وقع نظري عليها. انها صورة حية عن كروجر ـ العينان، الانف، الجبين ـ تماماً مثل جدها. كل انسان هنا يذكره."

وفي الحقل شاهدوا خزانات زيت مستديرة حمراء، واعلانات كبيرة معلقة على لوحات خشبية. واحد منها جذب انظار الدكتور مرتين. وكان يحمل العبارة التالية: "مورو وفتشنكين. بذارات ميكانيكية. ودراسات."

"كانت مؤسسة ممتازة. آلاتهم الزراعية من افضل طراز."

"لا اسمع. ماذا قلت؟"

"قلت مؤسسة ممتازة. هل تسمع؟ مؤسسة ممتازة. كانوا يصنعون آلات زراعية. كانت شركة مساهمة. وابي كان من الموزعين."

"ظننت انك قلت انه يدير نزلاً.

"اجل. وهذا لا يعني ان ليس باستطاعته ان يعمل موزعاً. فهو

يُسهم في مشاريع عدة. وكان له مال في دار السينما."

"يبدو انك فخور بذلك."

"بان يكون ابي ماهراً؟ بالطبع انا فخور."

"ولكن ماذا حل باشتراكيتك؟"

"يا الهي، ما شأن هذه هنا؟ هل يجب ان يكون الانسان في هذه الدنيا بليداً مخبولاً لانه ماركسي؟ المارسكية علم ايجابي، نظرية الحقيقة، فلسفة التاريخ."

"الماركسية؟ حسناً، انه، على الاقل، لمخاطرة ان تناقش هذا الموضوع مع رجل يكاد لا يعرف. ومهما يكن من امر، فان الماركسية لاتزال غير واثقة من موضوعها لتصبح علماً. العلوم اكثر اتزاناً، اكثر موضوعية. انا لا اعرف حركة اكثر تمركزاً على ذاتها واشدّ بعداً عن الحقائق من الماركسية. كل انسان يهتم فقط بابراز نفسه في المسائل العملية. اما ذوو السلطان، فانهم يهتمون فقط بتثبيت خرافة عصمتهم، على نحوٍ جعلهم يبذلون جهدهم لتجاهل الحقيقة. السياسة لا تغريني. انا لا احب الذين لا يهتمون بالحقيقة."

واخذ سامديفياتوف كلام الدكتور على انه جنون رجل شاذ. واصغى وهو يبتسم، ولم يعارضه.

وكان القطار لا يزال محولاً. وكلما كان يصل الى شارة: "مرور"، كانت امرأة مسنة، وقد ربطت كوباً للحليب في زنارها، وقامت بحراسة المفرق، تمد شارتها وتحرك الرافعة وتعيد القطار من حيث اتى. وعندما كان يأخذ بالابتعاد تجلس وتهز له قبضتها.

واخذ سامديفياتوف ذلك على انه امر شخصي، فاستغرب قائلاً: "لماذا تفعل ذلك؟ انني اعرف وجهها. هل هي تونتسيفا؟ كلا، لا يمكن ان تكون غلاشا. تبدو اكبر سناً. وعلى كل حال، ماذا عندها ضدي؟ لعلها تجتاز وقتاً عصيباً مع روسيا الأم في آلام ثوراتها والخطوط

الحديدية المضطربة، فصبت ذلك على رأسي. اوه، لتذهب الى جهنم! لماذا ازعج نفسي بها؟"

واخيراً حركت المرأة علَمها، وصرخت بالمهندس وسمحت للقطار باجتياز الشارات في طريقه الى الحقول، ولكن فيما كانت العربة الرابعة عشرة تمر امامها مدت لسانها للرجلين القاعدين على الارض، وقد ازعجها منظرهما. ومرة ثانية تعجب سامديفياتوف.

٥

حين غابت ضواحي المدينة المحترقة، وخزانات الزيت المستديرة، وعواميد التلغراف، والاعلانات، في المسافة البعيدة، وخلفت مكانها مناظر الاحراج والتلال المنخفضة مع لمحات من الطريق المتسع، قال سامديفياتوف:

"لنرجع الى مقاعدنا. علي ان اغادر القطار بعد قليل. محطتكم هي التي تلي المحطة التالية. انتبه لئلا تفوتك."

"اظن انك تعرف هذه المنطقة جيداً؟"

"مثل حديقة بيتي، حتى مئة ميل حولك. انا محامٍ كما تعرف. عشرون سنة في المهنة. وانا دائماً أتنقّل من مكان الى آخر بسبب اعمالي."

"حتى الآن؟"

"نعم."

"ولكن أي نوع من الاعمال ظل باقياً هذه الايام؟"

"كل ما يسرك. صفقات قديمة لم تنته، عمليات تجارية، مقاولات. عندي منها حتى اذني."

"ولكن، ألم تُلغَ كل هذه الاعمال؟"

"نعم، الغيت اسمياً، لا فعلياً. فالناس ما زالوا يطلبون مختلف الاشياء، واحياناً بالمقايضة. لقد أممت كل المؤسسات. ولكن السوفيات البلدي يحتاج الى الوقود، والمجلس الاقتصادي الاقليمي يحتاج الى النقليات. وكل شخص يريد ان يعيش. انها فترة انتقالية ولايزال هناك هوة بين النظرية والتطبيق. وفي وقت كهذا تحتاج الى من كان ماهراً مبدعاً، مثلي. مبارك الرجل الذي لا يرى كثيراً. وصفعةٌ على الخد لا تأتي دون سبب، كما يقول والدي. نصف المقاطعة يعتمد عليّ في معاشه. ومع ذلك، ليس الامر حتى الآن بهذا القدر. لا يمكنك ان تصل الى هناك الا على حصان، وحصاني مريض. ولولا ذلك لما كنت رأيتني اترنح على هذه الكومة من الاقذار. انظر الى كيفية انجراره، ويدعو نفسه قطاراً! يمكن ان اكون مفيداً لكم في فاريكينو فأنا اعرف آل ميكوليتسين."

"هل تعرف لماذا نذهب الى هناك، وما نحن فاعلون؟"

"نوعاً ما. عندي فكرة عن الأمر. حنين الانسان الابدي للعودة الى الارض. حلمك بأن تحيا بعرق جبينك."

"وما الخطأ في ذلك؟ يظهر انك لاتوافق."

"انه امر ساذج، وشعري، ولكن لماذا لا؟ اتمنى لكم حظاً سعيداً. غير انني لا اؤمن بذلك. انه خيالي. فنون وصناعة!"

"كيف تظن ان ميكولتسين سوف يستقبلنا؟"

"انه لن يدعكم تدخلون، سوف يطردكم خارجاً بعصا، ومعه كل الحق! انه في مأزق والحالة على ما هي عليه. المصانع مغلقة، العمال عاطلون، لا وسيلة للعيش، لا طعام، ثم تأتون. اذا قتلكم فأنا لا ألومه!"

"هذا انت. انك بلشفي، ومع ذلك لا تنكر انت نفسك ان ما هو جارٍ الآن ليس حياة -انه جنون، كابوس لا معنى له."

" انه بالتأكيد كذلك. ولكنه مقدر تاريخياً، وعلينا ان نعانيه."
"لماذا هو مقدر لا يمكن تجنبه؟"

"هل انت طفل، او انك تدعي ذلك؟ هل نزلت من القمر؟ الجشعون والطفيليون يقبعون خلف العمال الجائعين ويدفعونهم الى الموت، وهل تظن ان الامور يمكن ان تبقى هكذا؟ ودون ان تتطور الى انواع اخرى من الاهانة والاستبداد. ألا تعرف شرعية غضب الشعب ونزوعه للعدالة والحقيقة؟ او انك كنت تفكر ان تغييراً جذرياً كان ممكناً ان يحدث بوساطة الدوما، بالطرق البرلمانية، وان بامكاننا ان نعمل دون دكتاتورية؟"

"اننا نتحدث من شرفة هدفين متضادين، فلو تناقشنا مئة عام لما تقابلنا وجهاً لوجه. كنت ثورياً متحمساً، ولكني افكر الآن انه ليس هناك ما يمكن الحصول عليه بالقوة الغاشمة. الشعب يجب ان يساق الى الخير بالخير. ولكن دعنا نقطع البحث. لنعد الى ميكوليتسين ـ اذا كان هذا ما يخبئه لنا، فلماذا نذهب؟ لنرجع من حيث اتينا."

"محال. اولاً، ليس ميكوليتسين الحجر الوحيد على الشاطئ. ثانياً، نوع ميكوليتسين نوع عنيف، بل قل ـ حتى ـ إنه إجرامي. سوف يضج ويرفض ويقاوم ثم يلين. سوف يعطيكم القميص الذي يستر ظهره ويقاسمكم آخر كسرة خبز عنده." ثم قصَّ سامديفياتوف على يوري اندرييفيتش قصة ميكوليتسين.

٦

"وصل ميكوليتسين الى هنا من بطرسبرج قبل خمسة وعشرين عاماً. كان طالباً في المعهد التكنولوجي. أبعد ووضع تحت رقابة الشرطة. جاء الى هنا وحصل على وظيفة مدير املاك كروجر وتزوج.

وكان هنا في تلك الايام اربع اخوات - بزيادة واحدة على الموجودات في تمثيلية تشيخوف - الاخوات تونتسيفا وهن اغريبينا، افدوتيا، غلافيرا، وسيرافيما. وكان الشباب جميعاً يلاحقونهن. وتزوج ميكوليتسين اكبرهن سناً.

"وقبل مضي زمن طويل رزقا ولداً. واعطاه والده المجنون، الذي يمجد الحرية، اسماً غريباً هو ليبريوس، وترعرع ليبريوس - ليفكا بالاختصار - على شيء من الشراسة، ولكنه كان ماهراً في كل شيء. وعندما وقعت الحرب كان في الخامسة عشرة. فزوّر شهادة ولادته وذهب الى الجبهة متطوعاً. ولم تتمكن امه، وقد كانت امرأة مريضة، من احتمال الصدمة، فلازمت الفراش ولم تنهض. ماتت في العام الاسبق عشية اندلاع الثورة.

"وفي نهاية الحرب رجع ليبريوس الى بيته ملازماً بطلاً يحمل ثلاثة اوسمة، وبالطبع تشرب البلشفية في الجبهة. هل سمعت عن "اخوان الغابة؟"

"كلا، اظن لا."

"في هذه الحالة لا فائدة من اخبارك بالقصة. نصف المعنى يضيع. ولا معنى ايضاً لتحديقك خارج النافذة في الطريق العام. ماذا تجد مستغرباً في الطرق العامة هذه الايام؟ الانصار. ومَنْ هم الانصار؟ انهم العمود الفقري لجيش الثورة في الحرب الأهلية. شيئان يحسب حسابهما بالنسبة لقوة هذا الجيش: التنظيم السياسي الذي استولى على زعامة الثورة، والجندي العادي الذي رفض بعد الحرب الاخيرة اطاعة السلطات القديمة. ومن اتحاد هذين العاملين، ولد جيش الانصار. معظمهم فلاحون متوسطو الحال، ولكنك قد تجد مختلف انواع الناس - .. فهناك الفلاحون الفقراء، الرهبان المجردون من كهنوتهم، اولاد الكولاك يحملون السلاح ضد آبائهم. وهناك أيضاً فوضويون عقائديون، وفقراء دون أي ميل

سياسي، وطلاب مدارس ثانوية طردوا بسبب ملاحقتهم المبكرة للفتيات.
وهناك كذلك اسرى الحرب الالمان والنمساويون الذين اضلتهم الوعود بالحرية والاعادة الى اوطانهم. واحدى وحدات جيش الشعب الكبير هذا تدعى "اخوان الغابة" وهؤلاء يقودهم الرفيق رجل الغابة، والرفيق رجل الغابة هو ليفكا، ليبريوس افير كيفيتش، ابن افيركي ستيبانوفيتش ميكوليتسين."

"انت لا تعني ذلك!"

"بل اعنيه تماماً. ولكن لاتابعْ قصتي. تزوج افيركي ستيبانوفيتش مرةً ثانيةً بعد موت زوجته الاولى. وزوجته الثانية، ايلينا بروكلوفنا، جاءت مباشرة من المدرسة الى المذبح. ساذجة بطبيعتها، ولكنها تظهر السذاجة ايضاً؛ ومع انها لاتزال صغيرة، فانها تدعي بانها اصغر سناً، فتوشوش، وتصفر، وتمثّل دور الذكية، والفتاة الصغيرة اللعوب، وزنبقة الحقل الطاهرة. وحالما تراك تمتحنك قائلةً: "متى ولد سوفوروف؟ عدّد شروط تساوي المثلثات، واذا تمكنت ان توقع بك فانها تفرح كثيراً. وسترى بنفسك بعد ساعات قليلة.

"وللرجل الكهل خصائصه. كان سيصبح بحاراً، فدرس الهندسة البحرية. يحلق ذقنه دائماً، وقلما يخرج غليونه من فمه، يتكلم من بين اسنانه بصوت بطيء لطيف. فكه الاسفل بارز كجميع الذين يدخنون الغليون، وعيناه رماديتان. اوه، اضف الى ذلك تفصيلاً فاتني - انه ثوروي اشتراكي، وقد انتخب نائباً عن المنطقة في الجمعية التأسيسية."

"هذا مهم حقاً! الأب والابن عدوان سياسيان؟"

"نظرياً، هما كذلك بالطبع. ولكن فعلياً، الغابة لا تحارب فاريكينو. وعلى كل حال لنكمل القصة. اما الاخوات تونتسيفا الثلاث الباقيات، اخوات زوجة ميكوليتسين الاولى، فانهن يعشن في يورياتين حتى الآن -كلهن عوانس - ولكن الايام تغيرت، وكذلك البنات.

"الكبرى بينهن، افدوتيا، تعمل حافظة في المكتبة العامة. سمراء، جميلة، خجولة جداً، يحمر وجهها عند اقل اثارة. امضت وقتاً صعباً في المكتبة، فهي مكان هادئ كالقبر والفتاة المسكينة مصابة بزكام مزمن - تصاب بنوبات عطاس وتبدو كأنها ستقع على الارض. كلها اعصاب.

"والثانية، غلافيرا سفيرنيوفنا، بركة العائلة. سائقة مخيفة، عاملة عجيبة، لا تهتم بما تفعل. ليفكا، الرفيق رجل الغابة يماثلها على ما يبدو. فيوماً تراها خياطة او عاملة في مصنع للجوارب، ثم سرعان ما تتحول الى مدينة. هل رأيت المرأة التي هزت قبضتها في وجهنا عند المفترق؟ ادع لي، فقد فكرت ان غلافيرا ذهبت لتعمل في السكك الحديدية. ولكني لا اظن انها غلافيرا، انها تبدو اكبر سناً.

"واخيراً هناك الصغرى، سيموشكا. انها صليبهن وتسبب لهن متاعب لا تنتهي. فهي فتاة مشقفة، تقرأ كثيراً وعالجت الشعر والفلسفة. ولكن منذ الثورة، مع كل الفورة العامة، والخطب والتظاهرات، اصيبت بخلل في مخها، واصبحت متدينة. وكانت الاختان تقفلان عليها الباب عندما تذهبان للعمل ولكنها كانت تفر من النافذة وتنزل الى الشارع، فتجمع الجماهير مبشرةً بالمجيء الثاني ونهاية الكون. حسناً، حان الوقت لأتوقف عن الكلام، فقد اقتربنا. هذه محطتي. محطتكم هي التالية. من الافضل ان تستعدوا."

وبعد ان ذهب سامديفياتوف قالت انطونينا الكسندروفنا: "انا لا اعرف رأيك ولكني اشعر انه مرسل من الله. اظن انه سيلعب دوراً حسناً في حياتنا."

"ممكن يا طونيوشكا. ولكن ما يقلقني هو ان كل واحد هنا يذكرك على انك حفيدة كروجر وان كروجر معروف جداً. حتى ستريلينكوف، عندما قلت فاريكينيو، سأل بسخرية فيما اذا كنا ورثة كروجر.

"واخاف اننا بعد أن غادرنا موسكو لنهرب من المراقبة، سيزداد

الشك فينا هنا. هذا لا يعني ان هناك ما يجب ان نفعله في هذا الصدد. وبالطبع، لا معنى للبكاء على الحليب المراق. ولكن من الافضل ان نبقى في المؤخرة، محتفظين بهدوئنا. انني، على العموم، لست سعيداً جداً من الامر كله... ولكن يجب ان نكون قد اقتربنا. لنوقظ الآخرين ونتهيأ."

٧

وقفت أنطونينا الكسندروفنا على رصيف محطة تورفيانايا تعد عائلتها وحقائبها مراراً، لتتأكد من انها لم تترك شيئاً في القطار. وكان رمل الرصيف ثابتاً تحت قدميها، غير ان قلقها من ان تفوتها المحطة مازال يرافقها، وضجيج العجلات يرن في اذنيها رغم ان القطار كان يقف دون حراك امام عينيها. وهذا ما منعها ان ترى او تفكر بطريقة صحيحة.

وراح المسافرون الذين يكملون رحلتهم يصيحون مودعين ويلوحون لها من العربة ولكنها لم تنتبه لهم. ثم انها لم تلاحظ تحرك القطار، ولم تدرك انه سار الا عندما وجدت نفسها تنظر الى الحقول الخضراء والسماء الزرقاء عبر السكة الخالية.

وكانت المحطة مبنية بالحجر وفيها مقاعد على جانبي المدخل. وكان افراد عائلة جيفاكو هم المسافرون الوحيدون الذين نزلوا في تورفيانايا. لقد وضعوا حقائبهم ارضاً وجلسوا على احد المقاعد.

واذهلهم سكون المحطة وفراغها ونظافتها. وبدا غريباً ألاّ تحيط بهم غوغاء صاخبة لاعنة. فالتاريخ لم يلحق بعد بهذه الحياة الريفية البعيدة. ولم يكن قد انتكس فيها الى الوحشية كما بعد، في العواصم.

وعششت المحطة في غابة. وحين كان يخترقها القطار كانت العربات تغيب في الظلام. وكانت ظلال الاشجار تتحرك الآن، وكانت

لاتضطرب الا نادراً، بهدوء فوق ايديهم ووجوههم، فوق الارض وجدران المحطة والسطوح وفوق الرصيف ورمله الاصفر الرطب النظيف. وكان الجو بارداً في الغابة، ولزقزقة العصافير فيها جرس بارد ايضاً، فتجتاز الغابة وتتردد فيها من طرف الى آخر، ساذجة نقية كالطهارة. وكان في الغابة طريقان ـ السكة الحديدية ودرب ريفي ـ كلاهما مغطى بأغصان تهتز كالاكمام الطويلة.

وفجأة فُتحت عينا انطونينا الكسندروفا واذناها، فغدت تدرك كل شيء دفعةً واحدة... اصوات العصافير الصادحة، وحشد الغابات الصافية، السكون الدافق الذي لا يعكره شيء. وكانت قد هيأت خطاباً في ذهنها: "لم اكن اتصور اننا سنصل بالفعل سالمين. فقد كان في وسع ستريلنيكوف، كما تعلم، ان يتظاهر بالكرم، ثم يرسل برقية يطلب فيها توقيفنا حالما نغادر القطار. انا لا اثق بنبل عواطفهم يا عزيزي، انها خداع كلها." غير ان كلمات اخرى مختلفة تمام الاختلاف تفجرت منها عندما رأت المشهد الساحر الممتد امامها، فصاحت: "ما اجمله". ولم تقدر ان تزيد كلمة واحدة. فقد خنقتها العبرات وأخذت تبكي.

وخرج على صوت بكائها رجل مسن صغير في بزة مدير محطة، وتقدم نحوهم. ولامس ذروة قبعته ذات الرأس الاحمر، ثم سألهم بتأدب:

"هل ترغب السيدة الشابة في مهدئ للاعصاب؟ عندنا شيء منه في خزانة المحطة الطبية."

فأجاب الكسندروفيتش: "شكراً، الامر بسيط. ستتحسن بعد لحظة".

"قلق الرحلة هو السبب. هذا امر معروف جيداً. اضف اليه الحر الافريقي النادر في مثل هذه المناطق، ناهيك عن أحداث يورياتين."

"رأينا النار من القطار عند مرورنا."

"انتم من روسيا الوسطى، أليس كذلك؟"

"من صميمها!"

"من موسكو! عجيب كيف تضطرب اعصاب السيدة. يقولون لم يبق فيها حجر على حجر."

"ليس بهذا القدر من السوء. الناس يبالغون. ولكننا بالفعل رأينا الكثير. انها ابنتي، وهذا زوجها، وهذا طفلهما الصغير. وهذه ممرضته نيوشا."

"كيف حالكم. كيف حالكم. سررت برؤيتكم. كنت بالاحرى انتظركم. تلفن انفيم افيموفيتش سامديفياتوف من ساكما. قال لي ان الدكتور جيفاكو قادم مع عائلته من موسكو واكون ممتناً جداً اذا قدمت لهم كل مساعدة. هؤلاء انتم إذاً، هل انا مصيب؟"

"كلا. الدكتور جيفاكو صهري، وهذا هو. انا استاذ في الزراعة واسمي غروميكو."

"اعذرني، اخطأت. انني مسرور بالتعرف اليكم."

"انت تعرف سامديفياتوف إذاً؟"

"من لا يعرفه، العامل العجيب! لست ادري ماذا كانت تكون حالنا بدونه ـ كنا متنا جميعاً منذ وقت طويل. قال لي: قدم لهم كل مساعدة ممكنة فأجبت: حسناً جداً. وعدت انني سأفعل. فاذا كنتم بحاجة الى حصان او الى أي شيء... ؟ الى أين تقصدون؟"

"نريد ان نصل الى فاريكينو. هل هي بعيدة من هنا؟"

"فاريكينو! لا عجب ان كنت قد تساءلت بمن تذكرني ابنتك! انكم تقصدون فاريكينو إذاً! هذا يفسر كل شيء! كروجر الشيخ وانا بنينا هذه الطريق معاً. سأفتش عن الحصان فوراً، سأدعو احد الرجال وأفتش عن عربة ـ دونات! دونات! خذ هذه الاغراض الى غرفة الانتظار. وماذا بشأن حصان؟ اركض الى المقصف وانظر ما يمكن ان تفعل. باخوس كان مربوطاً هنا هذا الصباح. انظر اذا كان لايزال هنا. قل لهم اربعة

مسافرين الى فاريكينو. وصلوا حديثاً. معهم بعض الامتعة الثقيلة، اخبرهم. افعل ذلك بسرعة. والآن يا سيدتي، هل يمكنني ان اسدي اليك نصيحةً ابوية؟ لم اسألك متعمداً عن قرابتك لايفان ارنستوفيتش. كوني حذرة في كل ما تقولين عن هذه القرابة. لا يمكنك ان تتحدثي طويلاً مع كل انسان في مثل هذه الايام."

وتطلع المسافرون بعضهم الى بعض مندهشين عند ذكر اسم باخوس. وذكروا قصص آنا ايفانوفنا عن الحداد العجيب الذي صنع لنفسه مجموعة لا تفنى من الامعاء الحديدية، وخرافات أخرى قصّتها عليهم.

٨

كان الجواد فرساً بيضاء وضعت منذ امد قصير، اما السائق فشيخ ذو اذنين مترهلتين وشعر ابيض مشعث. ولسبب ما كان كل ما يخصه ابيض: حذاؤه الحديد الذي لم يمض عليه وقت ليسودّ، وقميصه ولباسه اللذان أحال لونهما قدم الزمن.

وسار المهر الاسود كالليل بناصيته القصيرة المجعدة، خلف امه كاللعبة المطلية، ضارباً الى الامام بقوائمه الرخوة العظام.

والتصق المسافرون بجدران العربة وهي تقفز على الدرب الوعر. وكانت قلوبهم في سلام، وحلمهم قد اصبح حقيقة، وها هم تقريباً في نهاية رحلتهم. وكانت ساعات النهار الصافي تبطىء بكرم، كما لو كانت تريد ان تطيل بهاءه.

وكانت طريقهم تخترق الغابات احياناً، واحياناً اخرى تجتاز الحقول المكشوفة. وفي اثناء سيرهم في الغابات كانوا، كلما قفزوا بعنف لدى اصطدام عجلات العربة بجذر بارز، يهمهمون ويهزون اكتافهم ويلتصق بعضهم ببعض. وحين كانوا يخرجون الى الحقول حيث بدا المكان كأنه

يرمي قبعته في الهواء، كانوا يجلسون جلسة قويمة اكثر راحة، ويتنفسون الصعداء.

لقد كانت منطقة تغمرها التلال. وللتلال دوماً تعبيرها الخاص. وكانت ترتفع ضخمة داكنة في البعيد، كالخيالات الفخورة التي تراقب بصمت مرور المسافرين. وكان يتبعهم في الحقول ضياء وردي مطمئن، فيريحهم ويعطيهم املاً.

لقد احبوا كل شيء واعجبوا به، لاسيما ثرثرة سائقهم الشيخ التي لم تكن تنتهي. وكان الشيخ يخلط في كلامه الاشكال الروسية القديمة باللهجات التترية والاصطلاحات المحلية، ناهيك عن الكلمة الغامضة التي كانت من عنده.

وعندما كان المهر يتخلف، كانت الفرس تقف وتنتظر، فيلحق بها بقفزات جميلة متموجة؛ ثم يلازم امه فيرافق العربة بسيقانه الطويلة، محاولاً أن يمد عنقه ويدفع رأسه النحيف تحت العمود ليرضع.

"ولكني لا أفهم"، قالت انطونينا الكسندروفنا بهدوء لزوجها خشية ان تعض باسنانها، التي كانت تهتز باهتزاز العربة، ذروة لسانها في قفزة مفاجئة. "هل يمكن ان يكون هذا هو باخوس نفسه الذي كانت امي تحدثنا عنه؟ انك تذكر كل هذه القصص عن الحداد الذي تمزقت امعاؤه في قتال، فاستبدلها بطقم جديد من الامعاء؟ باخوس هو ذو الامعاء الحديدية. اعرف بالطبع انها مجرد قصة، ولكن هل يمكن ان تروى عنه؟ هل هو باخوس نفسه؟"

"كلا، بالتأكيد لا. اولاً انها، كما تقولين مجرد قصة، خرافة. ثم لقد اخبرتنا امك انه كان لهذه الخرافة مئة سنة من العمر عندما سمعتها. ولكن لا تتكلمي بصوت مرتفع. يجب ألاّ تمسي شعور الشيخ."

"لن يسمع شيئاً فهو اصم. واذا سمع فانه لن يفهم ـ انه ليس سليم العقل!"

وصرخ الشيخ بفرسه: "هيا، يا فيدور نيفيوديتش" مخاطباً اياها،

لسبب ما، على انها مذكر، بينما كانت كما يعرف هو ويعرف المسافرون معه انها انثى. "لعن الله الحر! مثل ما اصاب اولاد ابراهيم في الآتون الفارسي! بحق المسيح، انت ايها الشيطان الذي لا يغفر له! اليك انت اوجه كلامي. ايها اللعين!"

وكان احياناً ينفجر فجأة، وهو ينشد مقاطع من اغانٍ لحنت في مصانع كروجر:

وداعاً ايتها الوظيفة،
وداعاً ايها المصنع والمنجم.
خبز السيد قديم عندي
ومللت شرب الماء.
اوزة تسبح قرب الشواطىء،
وتترك اخاديد في الماء.
الخمر لا تهزني
لأن فانيا ذهب الى الجيش.
ولكني انا، ماشا، لن اخطىء
ولكني انا، ماشا، لست مجنوناً،
سأذهب الى مدينة سليابا
واعمل عند سنتنتيوريخا."

"ايه، ايها الحيوان الكافر، انظر الى العلف. اضربها بالسوط فتدير شفتها! ايه، فيديا نفيديا، هل صممت على السير؟ - هذه الغابة، تدعى تايغا، ليس لها آخر. ولا آخر ايضاً للفلاحين في داخلها، اخوان الغابة يقيمون هنا. - ايه - فيديا نفيديا - هل توقفت ثانية، ايتها الشيطانة؟"

وبدفعة واحدة استدار وحدق مباشرة في عيني انطونينا الكسندروفنا قائلاً: "هل حقاً تظنين ايتها المرأة الشابة، انني لم اعرف من انت؟ انك ساذجة ايتها الام الصغيرة، على ما ارى. لأمتْ اذا لم اكن قد عرفتك!

عرفتك حقاً! لم اصدق عيني ـ انت الصورة الحية لغريغوف" (هذه ترجمة لاسم كروجر) "ألست حفيدته؟ من يمكنه ان يعرف شخصاً من عائلة غريغوف غيري؟ امضيت حياتي اعمل عنده. اقوم بكل عمل له ـ عملت في المناجم وفي الغابات وفي الرافعة فوق الارض وفي الاسطبلات. ـ بحق المسيح، تحركي! توقفت ثانية، كأنما ليس لها قوائم. ايتها الملائكة في الصين! الا تسمعين اني اخاطبك؟

"حسناً. كنت تسألين اذا كنت الحداد باخوس نفسه. كم انت ساذجة ايتها الام الصغيرة! عينان كبيرتان وسيدة، ولكن مخبولة. باخوس الذي تتكلمين عنه ـ كان يدعى بوستانوغوف، بوستانوغوف ذو الامعاء الحديدية ـ ذهب الى قبره منذ اكثر من خمسين سنة. أما انا فاسمي ميخونوشين. لنا الاسم نفسه، ولكن عائلتينا مختلفتان."

وشيئاً فشيئاً اخبرهم الشيخ ما كانوا قد سمعوه من سامديفياتوف عن عائلة ميكوليتسين. وكان يدعوهم ميكوليتش وميكوليشنا ويتكلم عن هذه الاخيرة بانها كانت زوجة المدير الثانية، وعن زوجته الأولى بانها كانت "ملاكاً"، "شاروبيم ابيض". وعندما وصل في حديثه الى قائد الانصار ليبريوس وعلم ان صيته لم يبلغ موسكو بعد، وان اخوان الغابة غير معروفين هناك، لم يصدق ذلك الا بصعوبة.

"انهم لم يسمعوا؟ لم يسمعوا بالرفيق رجل الغابة؟ ايتها الملائكة في الصين، لماذا وُجدت آذان موسكو؟"

وبدأ المساء يقترب، وخيالاتهم تزداد طولاً وهي تركض امامهم. وكانوا يسيرون في ممر مسطح لا شجر فيه. وكانت تنتصب هنا وهناك، في مجموعات وحيدة، جذوع طويلة واعشاب تزينها ازهار متفتحة. وكانت خطوطها، وقد بدت كالاشباح وتوزعت فوق التلال، تظهر مثل حرس يراقب السهل.

وبعيداً امامهم كان السهل يصطدم بسلسلة من التلال تقف عبر

الطريق كالحائط ويقع خلفها منحدر او جدول. وبدت كما لو كان الفضاء فوقها قد سد بحاجز، والطريقُ يقود الى بوابته.

وكان بيت طويل، ذو طابق واحد، ينتصب عند قمة المنحدر.

فقال باخوس: "هل ترون المنظر عند قمة التلة؟ هناك يعيش ميكوليتش وميكوليشنا. وتحتهم وادٍ يدعى شوتما."

وانفجر صوت طلقين ناريين من التلة وتبعه رجع صداه.

"ما هذا؟ هل يطلق الانصار علينا النار، هل ممكن ذلك ايها الجد الصغير؟"

"لك البركة، كلا! الانصار! انه ستيبانيتش يطارد الذئاب في الوادي."

٩

تم لقاؤهم الاول مع آل ميكوليتسين في فناء بيت المدير. كان مشهداً مؤلماً ابتدأ بالصمت ثم اصبح ضاجا صاخباً.

كانت ايلينا بروكلوفنا عائدة الى البيت عبر الفناء من نزهة في الغابة. وكانت اشعة الشمس الغاربة، الذهبية كشعرها، تنجرّ خلفها من شجرة الى شجرة في الغابة. كانت تلبس ثوباً صيفياً خفيفاً. واذ شعرت بالحر، راحت تنشف وجهها بمنديلها، وقد تعلقت قبعة القش على ظهرها وتدلت من خيط مطاط حول عنقها العاري.

وكان زوجها قادماً ليلاقيها من المنحدر، وقد قفز لتوّه فوقه وهو يحمل بندقيته التي كان يريد ان ينظفها لانه قد لاحظ فيها بعض الخلل.

وفجأة اندفع باخوس في هذا المنظر الهادىء وهو يرسل ضجيجاً عالياً من عجلات عربته فوق الحجارة، حاملاً معه مفاجأته.

وخرج المسافرون، وبدأ الكسندر الكسندروفيتش يشرح وهو يهمهم

ويتمتم ويرفع قبعته مرة ويضعها اخرى.

وصعق المضيفون من الاستغراب. واستمر صمتهم دقائق عدة، وكذلك كان اضطراب ضيوفهم المساكين، الذين كانوا يذوبون خجلاً. ولم يكن ممكناً ان يكون الموقف اشد وضوحاً، مهما قيل، ليس للمعنيين مباشرة به فقط، بل لساشنكا ونيوشا وباخوس ايضاً. وكان ارتباكهم المؤلم، على ما بدا، قد انتقل الى الفرس والمهر واشعة الشمس الذهبية الغاربة، والذبابات التي طارت حول ايلينا بروكلوفنا ثم حطت على وجهها وعنقها.

واخيراً قطع ميكوليتسين حبل الصمت قائلاً: "انا لا افهم. انا لا افهم شيئاً ولا اريد ابداً ان افهم. ماذا تظنون في هذا؟ الجنوب، حيث البيض والخبز الكثير؟ لماذا توجهتم الينا؟ ما الذي جاء بكم الى هنا - هنا بين كل الامكنة؟"

"وهل مر بذهنكم، يا ترى، أي مسؤولية هي هذه التي سيتحملها لافركي ستيبانوفيتش؟"

"لينوشكا لا تقاطعي. نعم، انها على حق. هل توقفتم لتفكروا أي عبء تلقونه علينا؟"

"بربكم، مهلاً! لقد اسأتم فهمنا. نحن لا ننوي ان نثقل عليكم، او نعكر صفاء حياتكم. كل ما نطلبه هو شيء بسيط، زاوية في بناء قديم فارغ متداعٍ وقطعة من الارض قد تبور لأن احداً لا يرغب فيها. بذلك يمكننا ان نزرع بعض الخضار، ونجمع حمولة عربة من حطب الغابة دون ان يرانا احد. هل هذا حقاً طلب عظيم؟ هل هو فرض؟"

"صحيح، غير ان العالم فسيح. ما لنا ولهذا؟ لماذا اخترتمونا لهذا الشرف عوضاً عن أي شخص آخر؟"

"لأننا سمعنا عنك، ونأمل ان تكون انت قد سمعت، فلا نكون قد نزلنا على اناس غرباء جداً عنا."

"آه. انه بسبب كروجر! لأنكم من اقربائه! ولكن كيف لكم حتى ان تقنعوا انفسكم بذلك في مثل هذا الوقت؟"

"اعجب، هل تفهم؟ بالضبط لأنكم من اقرباء كروجر، كان يجب ان توفروا علينا شرف معرفتكم."

"لينوشكا لا تتدخلي في الموضوع. امرأتي على حق. بالضبط لأنكم من اقربائه."

لم يكن لدي يوري اندرييفيتش الوقت الكافي ليفاضل بين الصورة التي رسمها سامديفياتوف والأصل، فقد نسي الدكتور وصف سامديفياتوف اثناء المشهد السيء. ولكنه دهش فيما بعد، عندما هدأت الحال، من مهارة الصورة ودقتها. ورغم ذلك فقد بقي تصوير انفيم افيموفيتش للمدير ناقصاً. فأكمله يوري اندرييفيتش فيما بعد.

كان افيركي سيتبانوفيتش يلفظ اللام على الطريقة البولندية مثل الواو. وقد كان بالفعل لا يفترق عن غليونه الذي اصبح جزءاً متمماً لوجهه، بحيث كان يسهم في سلوكه وكلامه. فقد كان يأتي بأفكاره وهو يشعله او يسحب منه نفساً.

وكانت له عادات منتظمة: يرتب شعره الى الخلف ويتبختر بخطا واسعة ويثبت قدميه بقوة على الارض. وكان يلبس في الصيف قميصاً روسياً شُدّ بحبل من حرير.. وكان من اولئك الرجال الذين كان في وسعهم ان يصبحوا في الزمن الغابر قراصنة على نهر الفولغا. اما في الزمن الحديث، فقد كان امثالهم نمطاً للتلميذ الابدي، وللحالم الذي انقلب معلم مدرسة.

وكان ميكوليتسين قد كرس شبابه لحركة التحرر، وللثورة. وكان خوفه الوحيد ألاّ يعيش ليراها او انها عندما تنفجر تأتي معتدلة، لا دموية كما كان يراها. وها هي الآن قد اتت، تفوق اشد احلامه وحشية؛ فهو، قد ولد بطلا من ابطال البروليتاريا المؤمنين وكان بين

اوائل الذين اقاموا لجنة مصنع في سفياتوغور بوغاتير وسلموا المكان للعمال، قد أهمل وأبعد. وبدل ان يكون في صلب الاحداث، كان في قرية منعزلة يهرب منها العمال - ومعظمهم منشفيك -! والآن ماذا كان يعني فوق كل ذلك، هذا العبث الساخر؟ لقد بدت له بقايا عائلة كروجر، هؤلاء الذين لم يدعهم اليه، سخرية من مساخر القدر، لعبة مرتبة، فيها اكثر مما كان في مقدوره ان يحتمل.

"انه فوق كل عقل. هل تدركون الخطر الذي تضعونني فيه؟ افترض انني يجب ان اكون مجنوناً. انا لا افهم شيئاً ولا اريد ابداً."

"اتساءل فيما اذا كنتم تدركون أي بركان نعيش هنا عليه حتى بدونكم؟"

لينوشكا، انتظري دقيقة. امرأتي على حق. الامور سيئة بدونكم. انها حياة كلاب، مستشفى مجانين. انا واقع بين نارين. بين هؤلاء الذي يجعلون حياتي جحيماً لأن ابني احمر، بلشفي، محبوب الشعب، واولئك الذين يريدون ان يعرفوا لماذا انتخبت للجمعية التأسيسية. الجميع غاضبون، ليس لي احد اتجه اليه. والآن انتم! فكرة جميلة ان اواجه مفرزة من البنادق من اجلكم!"

"اوه، تعال! كن حساساً. ماذا دهاك!"

وبعد فترة اخذ يلين.

"حسناً، لا معنى للنقاش في الفناء. يمكننا ان ندخل. لا لأني ارى بالطبع أي حسنة في ذلك، بل "لاننا نرى كما من خلال زجاج مظلم". ومع هذا فلسنا انكشارية ولا وثنيين، ولن نطردكم الى الغابة لتأكلكم الدببة. لينوشكا اظن من الافضل ان نضعهم مؤقتاً في الغرفة الواسعة التي تحاذي المكتب، ثم نرى بعد ذلك اين يمكنهم ان يستقروا. يجب ان نجد لهم مكاناً في الحديقة. تفضلوا بالدخول. باخوس، ادخل اغراضهم، ساعد الضيوف."

وفعل باخوس ما أُمر به وهو يهمهم. "يا والدة الاله! ليس لديهم من الحوائج اكثر مما لدى الحجاج! بعض الحقائب الصغيرة، ولا صندوق واحد."

١٠

كان الليل بارداً. فاغتسلوا وهيأت لهم المرأة الغرفة للمبيت. اما ساشنكا الذي انتظر بفعل العادة الطويلة ان يهنأ على كلماته الطفلية بأن يُحمل ويداعب بلطف، فقد انزعج لأن أمله خاب هذه المرة، فلم ينتبه اليه احد. ثم انه اكتأب لأن المهر الاسود لم يُدخل الى البيت، وعندما أُفهم بحدة ان يهدأ، انفجر بالبكاء، وخشي ان يُرسل مرة ثانية الى مخزن الاطفال الذي جلبه منه والده، حسب ما كان يظن. وكان خوفه حقيقياً وقد اراد ان يشاركه فيه كل من كان حوله؛ غير ان متناقضاته الطريفة فشلت في ان تحدث، هذه المرة، الاثر المعتاد. ونظراً لعدم اطمئنانه في بيت غريب، فقد بدا له الكبار في حالة من الانهماك تفوق انهماكهم المعتاد عندما كانوا ينصرفون صامتين إلى أعمالهم. وأهين ساشنكا وغدا حانقاً. ولم يأكل ويوضع في الفراش لينام الا بصعوبة، وعندما أغفى اخيراً أخذت اوستينيا، خادم بيت ميكولتيسين، نيوشا الى غرفتها لتتناول العشاء وتطلعها على كيفية تدبير شؤون البيت. اما انطونيا الكسندروفنا والرجلان فقد دُعوا لتناول الشاي مع عائلة ميكوليتسين.

وكان اول ما فعله الكسندر الكسندروفيتش ويوري اندرييفيتش انهما خرجا الى الشرفة لتنسم الهواء.

وقال الكسندر الكسندروفيتش: "ما اكثر هذه النجوم!"

وكان الظلام دامساً. وعلى الرغم مما كان بينهما من قرب، فقد

تعذر على احدهما ان يرى الآخر. وانساب نورفانوس خلفهما من النافذة الى المنحدر الذي بدا غائماً بحشائشه واشجاره واشكاله الاخرى المتداخلة في الضباب البارد. ولكن الرجلين كانا خارج النور الذي زاد في كثافة الظلام حولهما.

"اول ما يجب علينا غداً صباحاً ان نقوم به هو ان ندقق في المكان الذي ينوي ان يعطينا اياه، فاذا كان صالحاً عمدنا الى ترميمه فوراً. فما إن ننتهي من ذلك، حتى تكون الارض قد جفت قليلاً، فنبدأ بحفر بعض الاماكن دون تأجيل. الم يقل انه سيعطينا بعض بذور البطاطا؟"

"اجل، ثم انه وعدنا ببذور اخرى. سمعت ذلك باذني. اما المكان الذي يعرضه علينا فقد رأيناه ونحن نقطع الحديقة. هل تعرف اين هو؟ انه البيت الملحق الواقع خلف البيت الاساسي. وهو لا يُرى الا بصعوبة بسبب الاشواك. انه خشبي رغم ان البيت من حجر. لقد نبهتك اليه، هل تذكر؟ ظننت انه مكان جيد لزرع البذور، ويبدو لي ان جنينة من الازهار كانت هناك سابقاً، او هكذا تبيّن من بعيد، وقد اكون مخطئاً. فالارض التي تزرع فيها الازهار تكون مسمدة، واظن انها لاتزال حسنة."

"لست ادري، سنرى غداً. لعلها ملأى بالاعشاب البرية، ثم صارت قاسية كالحجر. ولعل هناك جنينة للمطبخ في مكان ما، وبامكاننا ان نفيد منها. سنرى غداً. قد يكون الجليد باقياً في الصباح، ولابد من ان يقع هذه الليلة. ومهما يكن، فانها لنعمة ان نصل اخيراً الى هنا ـ هذا شيء يستحق منّا الشكر. فهو مكان جميل، وانا أحبه."

"يا لهم من اناس طيّبين، لا سيما هو. اما هي فسريعة التأثر الى حد ما. هناك شيء لا تحبه في نفسها، وهذا هو سبب ثرثرتها ورغبتها في ان تظهر اشد بلادة مما هي عليه. فكأنما تريد ان تجذب انتباهك بسرعة عن ملامحها، قبل ان يتاح لك الوقت الكافي لتأخذ انطباعاً سيئاً. وليس اهمالها ان تنزع قبعتها وابقاؤها حول عنقها من قبيل

النسيان ـ انه حقاً يليق لها."

"الأحرى بنا الآن ان ندخل، لئلا يسيئوا الظن بحسن تهذيبنا."

وفي طريقهما الى غرفة الطعام حيث كان المضيفان وانطونينا الكسندروفنا يتناولون الشاي حول الطاولة المستديرة تحت المصباح المعلق، مرا بمكتب ميكوليتسين المظلم.

كان للمكتب نافذة كبيرة تمتد على طول الحائط وتطل على المنحدر. وقبل ذلك، حين كان الضوء لايزال ساطعاً، لاحظ الدكتور المنظر منها فوق الوادي وخلفه السهل الذي كانوا قد اجتازوه مع باخوس. وكان قرب النافذة طاولة شغلت عرض الحائط، وكان عليها بندقية موضوعة على مدى عرضها، واذ تركت مسافة عند طرفيها، زادت في عرض الطاولة.

وفيما كانا يمران من هناك، تأمل يوري اندرييفيتش والغيرة في نفسه، النافذة ومنظرها الفسيح، وحجم الطاولة وموضعها، واتساع الغرفة واثاثها الجيد، فكان ذلك اول شيء تحدث به الى مضيفه عندما دخل غرفة الطعام.

"ما اجمل مسكنك! يا له من مكتب فخم! انه مكان ممتاز للعمل، موحٍ بالفعل."

"كأس او فنجان؟ وتريده قوياً او خفيفاً؟"

"يوروشكا انظر الى هذا. انه منظار مجسّم، صنعه ابن افيركي ستيبانوفيتش عندما كان صبياً."

"انه لايزال صغيراً لم يكبر ولم يستقر، رغم انه انتزع للسوفيات مقاطعة بعد مقاطعة من كوموتش."

"ماذا تعني كوموتش؟"

"جيش حكومة سيبيريا، الذي يحارب لاعادة الجمعية التأسيسية."

"كنا نسمع ثناءً على ابنك طول النهار، يجب ان تكون فخوراً به."

"وهذه الصور المجسمة للأورال ـ انها من عمله ايضاً وقد اخذها بآلة

تصوير من صنعه."

"كعك فاخر! هل هو مصنوع بالسكارين؟"

"يا إلهي! كلا. من اين نحصل على السكارين في هذه البرية؟ انه سكر طبيعي. ألم ترني اضع سكراً في قدح الشاي؟"

"انه حقاً سكر طبيعي. كنت انظر الى الصور. وهذا شاي اصلي، اليس كذلك؟"

"بالطبع! انه شاي الياسمين."

"كيف تحصلون عليه في هذه الديار؟"

"عندنا ساحر، صديق لنا. انه شخصية شعبية من الطراز الجديد، من الجناح اليساري المتطرف. وهو الممثل الرسمي للمجلس الاقتصادي الاقليمي. انه يأخذ بطاقاتنا الى المدينة، ويجلب لنا طحيناً وزبدة بوساطة اصدقائه. سيفركا، اعطني اناء السكر (هكذا كانت تدعو افيسركي). والآن اسألك اذا كان بامكانك ان تذكر لي عام وفاة غريبويدوف؟"

"اظن انه ولد عام ١٧٩٥، اما متى قتل فلا اذكر."

"شاي ايضاً؟"

"كلا. شكراً."

"هذا لك. اخبرني عن تاريخ توقيع معاهدة نيمويغن والبلاد التي وقعتها."

"لا ترهقيهم يا عزيزتي. انهم لم يشفوا من رحلتهم بعد."

"هذا ما اريد ان اعرفه. كم نوعاً من العدسات هناك، ومتى يكون الخيال حقيقياً، مقلوباً، طبيعياً او منعكساً؟"

"كيف حصلت على كل هذه المعلومات الفيزيائية؟"

"كان عندنا مدرس ممتاز للعلوم في يورياتين يعلم في مدرسة الصبيان وفي مدرستنا. ليس في قدرتي أن أصف مبلغ كفاءته. كان

اعجوبة من الاعاجيب، كل شيء كان يصبح واضحاً حالما يشرحه لك. كان اسمه انتيبوف، وقد تزوج من معلمة ايضاً، وكان محبوباً من جميع البنات، ذهب الى الحرب كمتطوع وقتل. بعضهم يقولون ان نكبتنا هذه، القوميسار ستريلنيكوف، هو انتيبوف وقد قام من بين الاموات. وما هذه، في الواقع، الا شائعة سخيفة. أمر غير معقولٍ. ومع ذلك، من يدري، كل شيء ممكن. قدح آخر؟"

الفصل التاسع

فاريكينو

١

في الشتاء، حين أصبح ليوري اندرييفيتش متسع من الوقت، بدأ بكتابة مفكراته. كتب: "كم شعرت، في الصيف الماضي، بالقول مع تيوتشيف:

"يا له من صيف، يا له من صيف!
هذا سحر حقاً.
وكيف، انا اسألك، جاء
هكذا، من وراء المجهول؟"

"انها لسعادة ان يعمل المرء منذ الفجر حتى المساء من أجل عائلته ونفسه، فيبني سقفاً فوق رؤوس افرادها، ويفلح الأرض لإعالتهم، ويخلق عالمه الخاص به، كروبنسن كروزو، اسوةً بخالق الكون، ويلد، كما فعلت امه، نفسه دائماً وباستمرار.

"افكار كثيرة جديدة تخطر في بالك حين تكون منهمكاً بالعمل الجسدي الشاق، وحين يضع لك عقلك هدفاً يمكن تحقيقه بالجهد الجسدي ويكون جزاؤه الفرح والنجاح، وحين تحفر او تضرب بالمطرقة، مدة ست ساعات، تحت لفحات انفاس الفضاء المحيية. انه لربح لا خسارة، ألاّ توضع هذه الافكار العابرة والهواجس والمقارنات على ورق، بل ان يطويها النسيان. فذلك الذي ينزوي وينطوي على نفسه في المدينة، وهو يجلد أعصابه ومخيلته بالقهوة السوداء القوية والتبغ، لا يعرف اشد

الادوية قوة على الاطلاق: الصحة الجيدة والضرورة الحقيقية.

"لن اذهب ابعد من ذلك. أنا لا أبشر بالزهد التولستوي والعودة الى الأرض ولا احاول ان اصلح من شأن الاشتراكية والحلول التي تقدمها للمشكلة الزراعية. انني فقط ادلي بحقيقة، ولا انوي اقامة نظام على اساس خبرتنا الخاصة التي جاءتنا بطريق المصادفة. فهذه الخبرة موضوع جدل، ولا تصلح للاستنتاج. ان اقتصادنا لفي منتهى التشابك والاختلاط. فما ننتجه نحن ـ البطاطا والخضار ـ انما هو جزء ضئيل مما نحتاج اليه؛ والباقي يردنا من مصادر اخرى.

"ان استغلالنا للأرض غير مشروع. فقد أقمنا انفسنا فوق القانون، ورحنا نخفي اعمالنا وتصرفاتنا عن الدولة. هذه الاشجار التي نقطعها هي اشجار مسروقة، وليس عذراً اننا نسرق الدولة او ان هذه الاملاك كانت فيما مضى تخص عائلة كروجر. ونحن انما نفعل ذلك بفضل تساهل ميكوليتسين (وهو يعيش بمثل الطريقة التي نعيش بها)، ودون ان نخشى عقاباً؛ ذلك لأننا بعيدون عن المدينة حيث لا شيء، لحسن الطالع، يُعرف حتى الآن عن اعمالنا المنافية للقانون.

"لقد أقلعت عن ممارسة مهنة الطب، ولا اخبر احداً بأنني طبيب. ذلك لانني لا اريد أن اقيد حريتي. ومع ذلك يظل هنالك بعض الناس الطيبين الذين بلغهم ان في فاريكينو طبيباً. فهم يتحملون مشقة عشرين ميلاً لاستشارتي، حاملين لي معهم دجاجة او بيضاً او زبدة او شيئاً ما. وليس هنالك من سبيل الى اقناعهم بأنني لا اريد ان اتناول اجراً، ذلك لان الناس لا يؤمنون بجدوى النصيحة الطبية المجانية. وهكذا تدرّ علي مهنتي الطبية بعض الدخل. على ان موردنا الرئيسي، ومورد ميكوليتسين ايضاً، هو سامديفياتوف.

"انه شخصية معقدة بشكل غريب لا استطيع ان افهمه. فهو مناصر مخلص للثورة ويستحق الثقة التي وضعها سوفيات يورياتين فيه.

وبفضل كل هذه السلطة التي وضعوها في يده، يستطيع ان يحتجز اخشاب شجر فاريكينو دون ان يخبرنا نحن او ميكوليتسين بالامر؛ وهو يعلم اننا لن نحتج. ومن جهة ثانية، فانه اذا شاء ان يسرق الدولة، عمد الى ذلك فملأ جيوبه دون ان يتلفظ أحد بكلمة. وهو ليس بحاجة الى ان يرشي، او ان يشارك، احداً. فما الذي يجعله، إذاً، يعتني بنا، فيساعد عائلة ميكوليتسين، وجميع ابناء المنطقة، كمراقب محطة القطار في تورفيانايا مثلاً؟ انه دائماً يبحث عما يحمله الينا. فهو يلمّ بـ"مأخوذ" دوستويفسكي بقدر ما يلم بالمنفستو الشيوعي، ويتحدث عن احدهما بمثل البراعة التي يتحدث بها عن الآخر. وعندي انه لو لم يلجأ الى تعقيد حياته هكذا دونما طائل، لكان قضى من فرط الضجر."

٢

وبعد وقت قليل كتب الطبيب:

"نحن نعيش في غرفتين بملحق خشبي للمنزل القديم. فحينما كانت آنا ايفونوفنا طفلة، كان كروجر يستعمل هذا الملحق للخدم الخصوصيين - الخياطة، مديرة شؤون المنزل، والممرضة المحالة على المعاش.

"كان مهجوراً حين انتقلنا اليه، ولكننا رممناه واصلحناه بسرعة. وقد اعدنا بمعونة الخبراء، بناء الموقد؛ وهو يدفىء الغرفتين. ثم اننا اعدنا ترتيب منافذه، فازداد في إعطاء الدفء.

"ان آثار الحديقة في هذه الناحية من المنزل، قد زالت بفعل طلوع نباتات جديدة. ولكن الآن، في الشتاء، حين تدب الحياة في كل شيء، لا تعود الطبيعة الحية تغطي الاموات؛ فالماضي، بخطوطه الثلجية، يمكن ان يُقرأ بوضوح أتمّ.

"لقد كنا سعداء الحظ. فالخريف كان جافاً ودافئاً؛ وهكذا استطعنا

ان ننبش البطاطا قبل مجيء المطر والصقيع. فسفضلاً عما اعطينا ميكوليتسين، بقي لنا عشرون كيساً، وضعناها في الطابق السفلي وغطيناها بالحرامات العتيقة والتبن. ثم وضعنا هناك ايضاً برميلين من الخيار المكبوس بالملح وبرميلين آخرين من الملفوف، وقد كبستهما تونيا. وكان هنالك ملفوف طازج معلق، زوجين زوجين، في خشبات السقف، وجزر مطمور بالرمل الجاف، وفجل وشمندر ولفت،وكثير من الفاصوليا واللوبياء، مخزون في "السقيفة". وكان في الزريبة خشب للوقود يكفينا حتى الربيع.

"أحب دفء الطابق السفلي ورائحة الشتاء المنبعثة منه، رائحة الارض والجذور والثلج التي تهبّ عليك حالما تفتح الباب وتهبط اليه في الساعات المبكرة قبل بزوغ الفجر الشتائي، وفي يدك قنديل ضعيف ينوس.

"وتخرج؛ العتمة مازالت مخيمةً. الباب يصرّ، أو ربما تعطس او يتكسر الثلج تحت قدميك، والارانب تخرج من خبائها في مزروعات الملفوف وتقفز هاربة، تاركة وراءها على الثلج آثار مواطئها المتعرجة. وفي البعيد تبدأ الكلاب تنبح، ويمضي وقت طويل قبل ان تهدأ. وتكون الديكة قد انتهت من صياحها، ولم يعد لديها ما تقوله. إذاك يبزغ الفجر.

"وقرب آثار مواطىء الارانب، فوق بساط من الثلج اللامتناهي، ترى آثار مواطيء الفهود تمتد عبره بوضوح، كحبات السبحة. فالفهد يمشي كالقطة، فيضع قدماً امام قدم؛ ويقال انه يقطع عدة اميال في الليل الواحد.

"وتوضع الشباك لاصطيادها؛ ولكن عوضاً عن الفهود، تقع الارانب في حبائلها، وهي نصف مدفونة في الثلج؛ وحين يخرجونها تكون قد تجمدت من الصقيع.

"في البدء، خلال الربيع والصيف، عانينا مشقة بالغة، فبذلنا اقصى الجهد وتحملنا منتهى العناء. وبفضل سامديفياتوف، الذي يمدنا بالكاز، نجلس حول القنديل. النسوة يخطن او يشتغلن بالسنارة، وانا والكسندر الكسندروفيتش نقرأ بصوت عالٍ. الموقد دافىء، وانا، بوصفي حارس الموقد، اراقبه حتى لا يذهب الدفء هدراً. واذا ما أعاقت احدى الخشبات النار عن الاشتعال جيداً، انتزعها واركض بها خارجاً وهي تدخن، ثم اقذفها فوق الثلج الى اقصى ما يمكنني من البعد. فتطير في الفضاء كالمشعل، وهي تقذف الشرارات وتضيء الجوانب البيضاء المثلثة للحديقة الراقدة، ثم لا تلبث ان تدفن نفسها، صارفةً، في خضم الثلوج.

"اننا نقرأ، ونعيد قراءة " الحرب والسلم"، و"ايفجيني اونيجن" وسائر قصائد بوشكين، وترجمات "الاحمر والاسود" لستندال، و"قصة مدينتين" لديكنز، وقصص قصيرة لكليست.



واذ اقترب الربيع، كتب الطبيب:

"اعتقد ان تونيا حبلى. اخبرتها بذلك، فلم تصدق. ولكنني متأكد. فالظواهر الاولى لا تخفى عليّ، ولست بحاجة الى انتظار الظواهر التالية، الاكثر تثبتاً.

"وجه المرأة يتغير في وقت كهذا. ليس بأن تصبح أقل حسناً، بل بأن لا يعود مظهرها تحت إمرتها. فهي الآن تخضع للمستقبل الذي تحمله في احشائها؛ انها لم تعد وحدها. ان فقدان سيطرتها على مظهرها يجعلها تبدو جسدياً في ضياع؛ فوجهها يخبو، وبشرتها تخشوشن، وعيناها تلمعان لمعاناً يختلف عما تريده، فكأنما عجزت عن ان تنهض لهذه الامور كلها فأهملت نفسها.

"لم تبعد الأيام بيني وبين تونيا، بل لقد زادت هذه السنة من العمل في التقريب بيننا. وقد لاحظت كم هي مجتهدة، قوية، لا تكلُّ ولا تتعب؛ وكم هي ماهرة بتخطيط عملها لتتجنب تضييع اقل ما يمكن من الوقت بين انهاء مهمة والبدء بأخرى.

"لقد بدا لي دائماً ان كل حبل هو مقدس، وان هذه العقيدة الخاصة بام الله، انما تعرب عن تمام فكرة الامومة.

"فعند الولادة، تحيط بكل امرأة هالة من الانعزال، كما لو كانت قد هُجرت، قد صارت وحيدة. في هذه الهنيهة الحاسمة، يكون دور الرجل غير ذي صلة بالأمر، كانما لم يكن له أي شأن به قط، كانما الأمر كله قد هبط من السماء.

"انها المرأة، لذاتها، هي التي تضع وليدها وتحمله الى زاوية ما قصية من الوجود، الى مكان هادىء امين تجعله له مهداً. وحدها في صمت وتواضع، تطعم طفلها وتُنشئه.

"ام الله تُسأل ان "تصلي بتضرع الى ابنها وإلهها"، فتوضع كلمات المزامير في فمها: تعظّم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي. لأنه نظر الى اتضاع آمته. فهوذا منذ الآن جميع الاجيال تطوبني." فبشفاعة طفلها تقول هذا، وهو يعظمها "لأن القدير صنع بي عظائم." انه عنوان مجدها. كل امرأة تستطيع ان تقول هذا القول. فلكل واحدة منهنَّ، يكون الله في ولدها. وامهات الرجال العظام لابدّ ان يكنّ قد خبرن هذا الشعور، ولكن كل النساء هن امهات رجال عظام - ولا لوم عليهن اذا ما خيبت الحياة املهن فيما بعد."

٤

"اننا نستمر في قراءة "افجيني واونجين" وسائر القصائد. جاء

سامديفياتوف البارحة يحمل معه هدايا: مآكل شهية وكاز للمصابيح. وتحدثنا مطولاً عن الفن.

"كنت دائماً اظن ان الفن ليس مقولاً، ليس عالماً يشمل مفاهيم لا تحصى وظواهر صادرة عن أشياء اخرى، بل هو، على النقيض، شيء منحصر، له حدود. انه لمبدأ موجود في كل اثر فني، وقوة تُطبَّق عليه، وحقيقة تُصنع فيه. انني لم أر الفن كشكل، بل كجزء خفي مخبوء من المضمون. كل هذا واضح عندي كضوء النهار. وانني احسّه في كل عرق من عروقي، ولكن من العسير جداً التعبير عن هذه الفكرة وتعريفها.

"في وسع الأثر الادبي ان يجذبنا اليه بمختلف الوسائل: بفكرته، بموضوعه، بأجوائه، باشخاصه. ولكنه يجذبنا اليه، فوق كل شيء، بوجود الفن فيه. فوجود الفن في "الجريمة والعقاب" هو الذي يثيرنا بعمق لا قصة الجريمة التي ارتكبها راسكولنيكوف.

"ان الفن البدائي، الفن المصري او الاغريقي، او الفن عندنا نحن - هو، على ما اعتقد، واحد خلال آلاف السنين. ففي وسعك ان تدعوه فكرة، رأياً في الحياة، من الشمول بحيث لا يمكن تجزيئه الى كلمات؛ واذا كان هنالك حتى ذرة منه في ايا أثر يتضمن اشياء اخرى ايضاً، فان هذه الذرة تفوق جميع هذه الاشياء الاخرى قيمة وشأناً وتصبح هي جوهر الاثر وقلبه وروحه."

٥

"برودة خفيفة، سعلة، ربما بعض الحرارة. أتنفس طول النهار، وكأنما في حلقومي كتلة. انا في حال تعسة. انه قلبي. وهذه اولى الظواهر على

انني ورثت هذا الداء عن امي - لقد شكت منه طيلة حياتها. أيكون هذا بالفعل صحيحاً؟ وبمثل هذه السرعة؟ اذا كان صحيحاً، فسكناي في هذه الدنيا قصير الأجل.

"في الغرفة رائحة فحم خفيفة. رائحة المكواة. تونيا تكوي الثياب. ومن حين الى آخر تجلب فحماً من الموقد وتضعه في المكواة، فيطبق عليه غطاؤه كصف من الاسنان. انه يذكرني بشيء ما، ولكنني لا استطيع ان اعرف ما هو. لعل هذا ناجم عن حالتي الصحية.

"فلكي نحتفل بهدية الصابون التي منحنا اياها سامديفياتوف، فقد احيينا يومي غسيل، وراح ساشنكا يطير من الفرح. انه، وانا اكتب، جالس على الخشبة تحت الطاولة، يقلد سامديفياتوف الذي يُركبه عربة الثلج كلما اتى لزيارتنا، ويتخيل انه يأخذني في نزهة.

"حالما تتحسن صحتي، يجب ان اذهب الى مكتبة المدينة لمطالعة ما كتب عن تاريخ المنطقة وأصل سكانها. يقال ان المكتبة تلقت بضع هبات قيمة من الكتب، وهي مكتبة ممتازة جداً. هنالك ما يدفعني الى الكتابة. وعليَّ أن اسرع. فالربيع لا يلبث ان يأتي - وعندئذ لن يتاح لي وقت للقراءة او الكتابة.

"صداعي يشتد يوماً بعد يوم. لم انم جيداً. حلمت حلماً مشوشاً من النوع الذي تنساه حالما تفيق. كل ما بقي منه في ذاكرتي هو القسم الذي ايقظني. كان صوت امرأة، سمعته في الحلم، يتردد في الهواء. تذكرته وظللت اسمعه في ذهني، ثم رحت استعرض اسماء انساء اللواتي عرفتهنّ، لعلني افطن الى واحدة منهن لها مثل ذلك الصوت العميق، الناعم، المليء. فلم أفلح. ظننت انه ربما يكون صوت تونيا، وانني اصبحت من شدة الالفة لها بحيث لم اعد اسمع نبرة صوتها. حاولت ان أنسى انها زوجتي، وأن اتجرد من صلتي بها الى حد يعينني على معرفة جلية الامر. ولكن الصوت لم يكن صوتها أيضاً. فقد ظل امره غامضاً.

"فيما يتعلق بالاحلام. لقد درج الناس على الاعتقاد بان المرء يحلم شيئاً أثر فيه تأثيراً شديداً خلال النهار. ولكن الامر يبدو لي على الضد تماماً.

"فغالباً ما تحلم بشيء لم تعره في حينه اقل اهتمام - فكرة غامضة لم تحفل بالتفكير بها ملياً، او عبارات نُطق بها دون حماس فمرّت مروراً عابراً - هذا ما يعود اليك في الليل، مكتسياً لحماً ودماً، فيصبح موضوعاً لاحلامك، كأنما اراد ان يعوض عن الاهمال الذي كان من نصيبه في ساعات اليقظة."

٦

"ليل صاف، مليء بالصقيع. بريق غير عادي، وكمال في كل شيء ظاهر للعيان. الارض، الفضاء، القمر، النجوم، - هذه كلها تبدو ملتصقة معاً بالصقيع. ظلال الشجر تضطجع عبر الممرات، وهي من الوضوح بحيث تبدو كأنها نقش نافر. ويخيل اليك انك ترى اشباحاً سوداء لا تنفك تعبر الطريق من مختلف الامكنة. النجوم الكبيرة تتعلق في الغابات بين الاغصان، كأنما هي مصابيح زرقاء. اما النجوم الاخرى الصغيرة فتنتشر عبر الفضاء كالاقاحي في الحقل، زمن الصيف.

"نحن لا ننفك نتحدث عن بوشكين. في ليلة فائتة تحدثنا عن القصائد الاولى التي كتبها وهو لايزال طالباً. ما اكثر ما كان اختياره للوزن الشعري حاسماً.

"ففي القصائد ذات الاسطر الطويلة، لم يتجاوز طموحه بلدة ارزاماس؛ فقد شاء ان ينافس الشعراء الكبار، ان يُعجب عمه باستخدام الاسطورة والنزوع نحو الابيقورية المنتفخة الجوفاء والاسلوب المترف، فخرج من ذلك كله بحكمة دنيوية عجراء.

"غير انه ما إن أقلع عن تقليد اوسيان وبارني، وتحول عن "ذكريات تسارسكوبي سيلو" الى "بلدة صغيرة"، أو "رسالة الى اختي"، أو "الى محبرتي" (وقد نظمها فيما بعد في كيشينيف)، أو "الى يودين"، حتى اصبح بوشكين الغد في حيز الوجود.

"الهواء، النور، صخب الحياة، وقائع الوجود ـ هذه كلها انفجرت في شعره من الشارع، كأنما من خلال نافذة مفتوحة. العالم الخارجي، اشياء الحياة العادية، الاسماء، احتشدت في ابيات قصائده وقبضت على زمامها، طاردةً سائر نواحي الكلام الغامضة، اشياء ثم اشياء عمرت قوافيه على كل صفحة.

"فكأنما كان هذا العروض البوشكيني الذي اشتهر كثيراً فيما بعد، بحراً يزن الحياة الروسية، مقياساً؛ كأنما كان قد وضع وفق وجود روسيا بكامله، كانما رسمت شكل قدم أو اخذت حجم يد لتتأكد ان القفاز او الحذاء مناسب.

"وفيما بعد، وعلى هذا النحو ذاته، أصبح التعبير عن نغم الروسية المحكية، ونبرة الكلام العادي، متأثراً بأوزان نبراسوف."

٧

"اود ان اكون نافعاً كطبيب او كفلاح، وفي الوقت نفسه أضع شيئاً اساسياً، كأن اكتب دراسة علمية او اثراً ادبياً.

"كل انسان يولد "فاوستاً"، فيتوق الى القبض على كل شيء في الحياة ومعاناته والتعبير عنه. واذا كان فاوست قد اصبح عالماً، فبفضل اخطاء اسلافه ومعاصريه. ان التقدم في العلوم رهن بقوانين الدفع، ذلك ان كل خطوة الى الامام انما تتم برفض الاخطاء السائدة والنظريات المخطئة. لقد كان فاوست فناناً بفضل قدوة معلميه. فالخطوات التقدمية

في الفن رهن بقانون الجذب، وهذا نتيجة تقليد الاسلاف الاحباء والاعجاب بهم.

"ما هذا الذي يمنعني من ان اكون طبيباً وأديباً؟ اظن ان السبب لا يعود الى حرماننا او تيهاننا او عدم الاستقرار في حياتنا، بل يعود الى النزعة الخطابية السائدة التي عمّت كل مكان - عبارات مثل: "فجر الغد"، "بناء عالم جديد"، "حاملو مشعل الانسانية"، فعندما تسمع هذا الهراء للمرة الاولى، لا تتمالك من التفكير "يا له من خيال واسع، يا له من غنى!" بينما هو في الواقع يمثل هذه الفخامة لانه عديم الخيال ومن سقط المتاع.

"المألوف الذي تحوّله يدُ العبقرية هو وحده العظيم حقاً. وخير مثال على ذلك هو بوشكين. فآثاره انشودة واحدة عظيمة للجهد الصادق، للواجب، لحياة كل يوم. لقد اصبحت تعابير "برجوازي" و"برجوازي صغير" في هذه الايام وسيلة للتعريض والاهانة، غير ان بوشكين ردّ على ذلك في "شجرة العائلة"، حيث يقول باعتزاز انه ينتمي الى الطبقة المتوسطة، وفي "أسفار اونيجين" نقرأ:

"الآن مطلبي الاعلى ربة منزل
ومنيتي القصوى حياة هادئة
وصحن كبير من حساء الملفوف."

"ان ما يعجبني اكثر ما يكون في مجموع الادب الروسي هو صفة الطفولة التي يتحلى بها بوشكين وتشيكوف، وصمتهما المتواضع في صدد تلك القضايا الرنانة، كغاية الانسانية القصوى او خلاصها. ليس لأنهما لم يفكرا بهذه الأمور، وفكرا بها تفكيراً نجم عنه الخير، بل لأن التحدث عنها بدا في نظرهما ادعاءً وتنطُّعاً. كوغول، تولستوي، دوستويفسكي، جميعهم بحثوا قلقين عن معنى الحياة، واستعدوا للموت وانتهوا الى خلاصة في الرأي. على ان بوشكين وتشيكوف كانا، حتى

نهاية حياتهما، غارقين في اداء المهمات اليومية، المعينة، التي فرضتها عليهما مهنتهما كأديبين؛ وفي اثناء ادائهما هذه المهمات، عاشا حياتهما بهدوء، معتبرين حياتهما وعملهما معاً امراً خاصاً، فرديا، لا شأن للآخرين به. وقد أصبحت هذه الاشياء الفردية، منذ ذلك الحين، شأن الجميع؛ كما أصبح عملهما، كالتفاح الذي يُقطف وهو لم ينضج بعد، ناضجا لذاته، وهو يحلى تدريجيا ويزداد غنى في المعنى."

٨

"اولى تباشير الربيع. جليد. الهواء يعبق برائحة الكعك والفودكا، كما كانت الحال في شروفيتيدي. شمس ناعسة مزّيتة تومض في الغاب، واشجار صنوبر نائمة تمدّ إبرها كالجفون، بُرَك زيتية تلمع عند الظهيرة. البرية تتثاءب، تتمطى، تتقلب، ثم تعود الى السبات.

"الفصل السابع من كتاب "ايفجيني او نيجن" يصف الربيع، مسكن اونيجن وقد هُجر في غيابه، قبر لانسكي قرب الغدير عند قدم الرابية:

"القبَّرة، محبوبة الربيع،

تغني طول الليل. الوردة البرية تتفتح."

لماذا "محبوبة"؟ الواقع هو ان النعت طبيعي، مناسب: القبَّرة هي محبوبة الربيع. ثم ان الشاعر احتاج اليها للتقفية. وانني اتساءل اذا لم يكن لقب "القبرة" لابن اوديكمانتيي، في الملحمة الروسية الشعبية المعروفة، ليس سوى استعارة تستند الى تشابه في الصوت. ما اروع ما تبرز هذه الأغنية شخصيته!

"على صفير قبّرته،

ونداء غابته الموحشة،

العشب كله في ذعر، .

الورود تذرف اوراقها،
الغابة القاتمة تنحني الى الأرض،
وجميع الصالحين يسقطون موتى."

"أتينا فاريكينو في اوائل الربيع. وسرعان ما تحول لون الاشجار الى الزرقة - اشجار الجوز والكرز - ولاسيما في شوتما، السهل المنبطح تحت منزل ميكوليتسين. ثم لم تلبث القبّرات ان بدأت تغني.

"مرة ثانية، كما لو انني كنت اسمع غناءها للمرة الأولى، تساءلت عن الفارق بين غنائها وغناء سائر الطيور، وعن القفز المفاجيء، بدون انتقال، الذي حبت الطبيعة صوتها المليء الفريد. ما أروع هذا التنوع، والقدرة، والنغم. تورغينيف يصف في مكانٍ ما هذه التلاحين المزمارية الصافرة. هنالك عبارتان بارزتان بنوع خاص. احداهما تكرر بفخامة ونهم: تيوخ، تيوخ، تيوخ. اما الثانية ففي مقطعين، وهي تردد نداء حزيناً متضرعاً، او لعله انذار: "استيقظ، استيقظ!"

٩

"الربيع. اننا نتهيأ لبذر بذور الربيع. لا وقت لمفكرة. كم سرّني ان اكتب فيها. يجب ان اتوقف حتى الشتاء الآتي.

"منذ بضعة أيام - والآن انها كانت حقاً شروفيتيدي - قاد فلاح مريض زحافة الثلج، تحت مطر الربيع المنهمر، الى ساحة الدار وسط الوحل وبقايا الجليد. رفضت ان افحصه. "تركت ممارسة الطب"، قلت له: "لا دواء عندي ولا ادوات." ولكنه ألحّ. "ساعدني. جلدي يؤلمني. تحنن علي. انا مريض." ماذا استطيع ان افعل؟ قلبي ليس من حجر. امرته ان يخلع ثيابه. مصاب بنوع من السلّ. وفيما كنت افحصه، القيت نظرة على زجاجة حامض الكربول فوق الشباك (لا تسألني من اين جاءت -

هذه وبضعة اشياء اخرى لا استطيع ان اعيش بدونها - كل شيء جاء به سامديفياتوف). ثم رأيت زحافة ثلج اخرى في ساحة الدار. ظننت للوهلة الاولى انه مريض آخر. ولكنه كان اخي، ايفكراف، وقد جاءنا من وراء المجهول. وراحت العائلة تعتني به - تونيا، ساشنكا - الكسندر الكسندروفيتش. ثم ذهبت فيما بعد والتحقت بهم. واغرقناه بالاسئلة. من أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولكنه كان، كعادته، يتهرب من الرد، ويبتسم ويهز كتفيه ويتكلم بألغاز.

"ظل بيننا نحو اسبوعين، ثم سافر الى يوكاتين، ثم انقطعت أخباره فجأة، كأنما ابتلعته الارض. وقد لاحظت، عندما كان بيننا، انه يتمتع بنفوذ اقوى من سامديفياتوف، وان عمله واتصالاته اكثر غموضاً. فماذا هو؟ وماذا يعمل؟ لماذا هو ذو نفوذ؟ لقد وعدنا ان يجعل حياتنا أيسر، كي تستطيع تونيا ان تكرس وقتاً اطول للعناية بساشنكا، ولأستطيع انا ان انصرف الى ممارسة الطب والكتابة. ولما سألناه كيف يمكن له ذلك، اكتفى بالابتسام. ولكنه برّ بوعده. فهنالك دلائل على ان حال معيشتنا ستتحسن.

"انه حقاً لأمر غريب. هو أخي من جهة ابي فقط. ونحن نحمل الاسم ذاته. ومع ذلك لا اعرف شيئاً عنه.

"وللمرة الثانية، دخل حياتي بغتة كسعدي الطالع، كمنقذي، ليحل كل مشاكلي. فمن الجائز ان يكون في حياة كل انسان، فضلاً عن سائر الانصار، قوة خفية مجهولة، شخص يكاد يكون رمزياً، يهب للنجدة دون استغاثة، ولربما في ايفكراف، اخي، يلعب دور المحسن المجهول!"

هنا يتوقف يوري اندرييفيتش عن كتابة مفكراته، ولم يستأنف كتابتها ابداً.

١٠

أخذ يوري اندرييفيتش يتصفح الكتب التي طلبها في غرفة القراءة بمكتبة يورياتين العمومية. وكان لهذه الغرفة بضعة شبابيك، وبامكانها ان تتسع لمئة قارىء. وكانت الطاولات قد وُضعت في صفوف تنتهي بالشبابيك. وعند غروب الشمس كانت تقفل المكتبة، ففي الربيع لم تكن تضاء البلدة. واعتاد جيفاكو ان يغادر المكتبة قبل سقوط العتمة، ولم يكن يبقى في البلدة بعد وقت العشاء. فكان يترك الحصان الذي اعاره اياه ميكوليتسين في اصطبل سامديفياتوف، ويطالع طيلة الصباح، ثم يعود الى فاريكينو في المساء.

وقبل ان يبدأ يوري اندرييفتش بزيارة المكتبة، لم يكن قد زار يورياتين إلا لماماً. فليس له فيها ما يعمله بصورة خاصة، وقد كان لا يعرفها الا قليلاً. اما الآن، وقد اخذت المكتبة تغصّ بسكان البلدة، بعضهم على مقربة منه، والبعض الآخر بعيداً، فقد شعر بأنه بدأ يتعرف الى البلدة بالوقوف عند احد مفترقاتها المزدحمة بالناس، وكأنما ليس الناس فقط، بل المنازل والشوارع التي يعيش عليها الناس كانت تدخل الى غرفة القراءة.

ومهما يكن، فقد كان في وسع المرء، من الشبابيك، ان يرى يورياتين على حقيقتها، في الواقع لا في الخيال. فقد كان قبالة الشباك الأكبر في الوسط وعاء مليء بالماء الساخن. وكان في وسع المطالعين الذين رغبوا في الاستراحة ان يهبطوا الى البهو للتدخين او التجمهر للشرب حول وعاء الماء. وكانوا بعد ان ينتهوا من ذلك، يقفون ازاء الشباك للتمتع بمنظر البلدة.

وكان رواد المكتبة صنفين: الاغلبية، وكانوا من شيوخ طبقة المفكرين؛ والآخرون، وكانوا ممن ينتمون الى الطبقات الاخرى الاكثر اتضاعاً.

وكـان الصنف الاول يتـألف، علـى الاكـثـر، من النسـاء، بثـيابـهن العتـيقة، وقـيافتـهن المهملة، ووجوههن المنتـفخة لسـبب ما ـ الجوع، او الريقان، التضخم. وقد كن من رواد المكتبة الدائمين، ويعرفن موظفيها شخصياً، ويشعرن فيها كأنهن في بيوتهن.

اما العامة من الرواد، فكانوا حسني الهندام، وذوي اناقة. وكانوا يدخلون المكتبة بحيـاء، كأنما كانوا يدخلون كنيسةً، ويخرجون اصواتاً أكثر من الآخرين، لا لانهم لم يعرفوا النظام، بل لانهم، رغم حرصهم على ألاّ يثيروا الضوضاء، لم يتمكنوا من ضبط اصواتهم وخطواتهم المليئة بالحيوية.

وكـان رقـيب المكتـبة ومسـاعداه الاثنان يجلسـون على منصة في منفرج بالحائط قبالة الشباك، يفصله عن سائر ارجاء الغرفة حاجز مرتفع. وكان احد المساعدين امرأة عبوسة الوجه تلبس شالاً صوفياً ولا تنفك تضع نظارتيها وتنزعهما، تبعاً لمزاجها، على ما يبدو، لا لحاجتها اليهما. اما المساعدة الآخرى، فكانت ترتدي قميصاً اسود حريرياً، وتبدو كأنما كانت ذات صدر ضعيف. ذلك انها كانت تتنفس بصعوبة وتتكلم من خلال فوطتها التي لم تفارق منخريها وفمها لحظة.

وكان لسائر المستخدمين الوجوه الطويلة، المنتفخة، المتهدلة نفسها التي لمعظم الرواد، كما كان لهم الجلد المرتخي ذاته، وقد ازرورق واتخذ لون التراب كالخيار المكبوس او كالحفرة الرمادية. وكان ثلاثتهم يتناوبون في تفسـير القوانين همسـاً للرواد الجدد، ويوزعون بطاقات الطلب، ويناولون الكتب ويستردونها. وكانوا فيما بين هذا وذاك يشتغلون في كتابة تقرير او ما الى ذلك. وتذكر يوري اندرييفيتش منظر المدينة البعيد، وقد جلس سامديفياتوف قربه على ارض العربة، وملاحظاته وتفسيراته. وكان ذلك بفعل توارد في الخواطر لم يستطع ان يجد له سبباً، وقد بدأ بمشاهدته المدينة الحقيقية من النافذة والمدينة الخيالية داخل

الغرفة، وبمشاهدته ايضاً الوجوه المتورمة حوله، كأنما الجميع مصابون بداء التضخم، مما جعله يتذكر وجه المرأة العبوس التي كانت تتولى المخابرات التلفونية في المحطة، صبيحة وصوله. وحاول يوري اندرييفيتش ان يربط هذه التفسيرات، التي اعطيت له حتى الآن خارج المدينة، بما يحيط به مباشرة الآن وقد اصبح في وسط الصورة. غير انه لم يستطع ان يستعيد الى ذاكرته ما قاله له سامديفياتوف، ولم يفده ذلك شيئاً.

١١

جلس يوري اندرييفيتش بعيداً في مؤخرة الغرفة. وكان أمامه تقارير احصائية عدة عن الاراضي في تلك المنطقة، وبعض المراجع عن أصل سكانها. وكان قد طلب مؤلفين عن تاريخ ثورة بوكاشيف، ولكن الموظفة التي كانت ترتدي قميصاً حريرياً همست في اذنه من خلال فوطتها، ان ما من مطالع كان يؤذن له بطلب مجلدات عديدة مرة واحدة، وانه كان عليه ان يعيد بعض ما لديه من تقارير ومراجع حتى يؤذن له باستعادة سواها، مما احتاج اليه.

وهكذا فقد انكب على الكتب التي أمامه بجد وعجلة زائدتين، كي يبقى لديه فقط ما كان بامسّ الحاجة اليه، ثم يستبدل بالآخرين المجلدات التاريخية التي كان يهمه الاطلاع عليها. وكان يفعل ذلك بانشغال تام، فلم يلتفت يمنة او يسرة، ولم يتأثر بجمهور القراء حوله. فقد تأمل جيرانه جيداً من قبل، وكانت وجوه الجالسين على جانبيه واضحة في ذهنه، حتى انه كان يعرف انهم ما زالوا في اماكنهم، كما كان يشعر انهم لن يغادروا الغرفة قبله، تماماً مثلما ان المنازل والكنائس خارج الشباك لن تتحرك من اماكنها.

على ان الشمس تحركت. فقد انتقلت من زاوية الغرفة الشرقية، واخذت تنفذ الآن من شبابيك الجدار الجنوبي وترمي أشعتها في عيون اقرب القراء.

ونهضت الموظفة المصابة بالزكام من مقعدها على المنصة، واتجهت نحو الشبابيك، وقد تدلت عليها ستائر بيضاء شفافة تكسر حدّة الضوء جيداً. فأسدلت الستائر ما عدا الشباك الأخير الذي ما برح في الظل. واذ اقتربت اليه، سحبت الحبل لتفتح الستار، فوقعت في نوبة من العطاس.

وبعد ان عطست عشر مرات، او اثنتي عشرة مرة، ادرك يوري اندرييفيتش انها كانت اخت زوجة ميكيوليتسين، وقد كانت احدى فتيات تونتسيفا اللواتي ذكرهن ساممديفياتوف. وأسوةً بسائر القراء في الغرفة، رفع رأسه وتطلع صوبها.

لاحظ الآن ان تغييراً قد طرأ على الغرفة. ففي الطرف الآخر جلست قارئة جديدة، سرعان ما عرف فيها انتيبوفا. وقد كانت تجلس، وظهرها اليه، وهي تتحدث الى الموظفة المعطاسة التي انحنت فوقها. وبدا انه كان للحديث اثر حسن عند الموظفة، اذ شُفيت فوراً لا من العطاس فحسب، بل من التوتر العصبي. وبنظرة حنونة، شاكرة، الى انتيبوفا، تناولت الفوطة التي كانت تضعها دائماً على فمها، فوضعتها في جيبها وعادت الى مقعدها وراء الحاجز، فرحة، واثقة من نفسها، وقد علا وجهها الابتسام.

ولم تمر هذه الحادثة دون ان يلاحظها عدد من القراء في مختلف انحاء الغرفة؛ فابتسموا هم أيضاً، ناظرين الى انتيبوفا بعين الرضا. ومن هذه الدلائل البسيطة، تبيّن ليوري اندرييفيتش ان انتيبوفا محبوبة في المدينة.

١٢

كان اول ما خطر له ان يقوم ويكلمها. غير ان حياءه وعدم بساطته، وهما صفتان غريبتان تماماً عن طبعه، قد تسللتا فيما مضى الى علاقته بها، وأرجعتاه الآن عن قصده . فقرر ألاّ يزعجها، وألاّ يتوقف عن عمله. ولكي يتجنب الوقوع في تجربة النظر اليها، ادار كرسيه جانباً حتى كاد ظهره ان يستند الى طاولته، وحاول الانصباب على كتبه، وقد أمسك واحداً في يده ووضع آخر على ركبته.

على ان افكاره تاهت بعيداً عن دراسته. وفجأة ادرك ان الصوت الذين سمعه مرة في الحلم، في احدى ليالي الشتاء في فاريكينو، كان صوت انتيبوفا. فصُعق لهذا الاكتشاف، وعلى دهشة جيرانه استدار في كرسيه ليتمكن من ان يرى انتيبوفا. ثم راح يطيل النظر إليها.

رآها بعض الشيء من الوراء. كانت ترتدي قميصاً شفافاً ذا مربعات، وبحزام. وكانت تقرأ بشغف، كالطفل، ورأسها يميل قليلاً الى كتفها اليمنى. وكانت تتوقف من حين الى آخر لتتأمل وتفكر، فتتطلع في السقف تارةً، وقبالتها تارةً اخرى، ثم تعود فتسند خدها الى يدها وتنقل الى دفترها مقتطفات من الكتاب أمامها، بحركة سريعة جامحة من قلمها.

ولاحظ يوري اندرييفيتش ما لاحظه منذ زمن في ماليوزئيف. "انها لا تريد ان ترضي أحداً او ان تبدو جميلة"، فكر في نفسه. "فهي تمقت كل هذه النواحي من طبيعة المرأة؛ فكأنما كانت تقتصّ من نفسها لأنها حسناء. ولكن هذه العداوة الفخورة لنفسها، تجعلها أكثر فتكاً بعشرة اضعاف."

"كما تفعل كل شيء جيداً! فهي تقرأ لا كما لو ان القراءة ارفع نشاط بشري، بل كما لو انها ابسط شيء في الحياة، يقدر حتى الحيوان

على فعله. فكأنما هي تحمل ماءً من البئر، او تقشر البطاطا."

هذه الخواطر طيّبت خاطره.. وهبطت على نفسه طمأنينة نادرة. وتوقف ذهنه عن الشرود من موضوع الى آخر. ولم يتمالك من الابتسام؛ فوجود انتيبوفا أثر فيه كما أثر في الموظفة المتوترة الاعصاب.

واذ لم يعد قلقاً على موضع كرسيه او متخوفاً مما يلهيه ويشوه عليه صفاء الذهن، عاد الى عمله نحو ساعة من الزمن، وهو اكثر انصبابا عليه منه قبل مجيئها. فقد تصفح جميع الكتب التي أمامه، فوضع ما يحتاج اليه جانباً، بل لقد تسنى له ان يطالع بامعان مقالين فيها. واذ قرر ان ما قام به ذلك النهار من عمل كان كافياً، جمع الكتب واعادها الى مصدرها. وبضمير مرتاح وبدون مقصد اناني، رأى انه، بعد هذا الجهد الذي بذله ذلك الصباح، استحق فرصة يقضيها في زيارة صديق قديم، وانه كان بحق يستطيع ان يأذن لنفسه بمثل هذه المتعة. غير انه ما ان نهض وجال بنظره في انحاء الغرفة، حتى كانت انتيبوفا قد رحلت.

وكانت الكتب التي اعادتها ما برحت على الحاجز، حيث وضع هو كتبه. كانت عن الماركسية. لاريب انها كانت تعيد تثقيف نفسها سياسياً قبل ان تعود الى مزاولة عملها في التدريس.

وكان عنوان انتيبوفا على قوائم الطلب، وقد برزت بين صفحات الكتب. فما كان منه الا ان نقله مدهوشاً لغرابته: "شارع التجار، قبالة منزل التماثيل"، وحين سأل أحد القراء عن معنى ذلك اجابه بأن تعبير "منزل التماثيل" متداول في يورياتين مثلما كانت الحال في موسكو، كتسمية شارع ما باسم الكنيسة القائمة فيه، او باستعمال عبارة "الزوايا الخمس" كما في بطرسبورج.

وكان يشير هذا التعبير الى منزل قاتم، فولاذي اللون، تزينه تماثيل الآلهات الاغريقية القديمة وربات الشعر الحاملات صنوجاً

وقيثارات وأقنعة. وقد شيده تاجر في القرن الماضي مسرحاً للتمثيل خاصاً به. على ان ورثته باعوه من رابطة التجار التي سمي الشارع باسمها، واصبح الحي كله يُعرف باسم المنزل، الذي أصبح الآن مقراً للجنة الحزب في المدينة؛ وكان القسم الاسفل من جدرانه الخارجية، حيث كانت تعرض فيما مضى برامج الحفلات والاعلان عنها، مغطى بالبلاغات والمراسيم الحكومية.

١٣

كان ذلك النهار من أوائل ايار بارداً، عاصفاً. واذ انهى يوري اندرييفيتش اعماله في المدينة وقام بزيارة للمكتبة، غيّر فجأة خطته وعزم على الذهاب لمقابلة انتيبوفا.

وسار يغالب الريح التي كانت تعترض طريقه بما اثارته من الغبار والرمل. فكان يغطي رأسه، ويغمض عينيه، وينتظر حتى يتوقف مثار الغبار، ثم يتابع سيره.

كانت انتيبوفا تسكن على زاوية شارع التجار، قبالة منزل التماثيل الرمادي القاتم اللون، الذي شاهده الآن للمرة الاولى. لقد كان اسمه يطابق حقاً مسماه، وكان هنالك شيء غريب يزعج فيه.

فالطابق الاعلى كله، كان محاطاً بتماثيل نسائية اسطورية في نصف حجم الكائن البشري. وقد بدا له، بين عاصفتين من الغبار، ان جميع هؤلاء النسوة خرجن الى الشرفة ورحن ينظرن اليه على الرصيف.

وكان للدار التي تسكنها انتيبوفا مدخلان، واحد من شارع التجار، والآخر من زقاق ضيق وراء الزاوية. واذ لم يلاحظ يوري اندرييفيتش المدخل الرئيسي، فقد دخل من المدخل الجانبي.

وما كاد يقف امام بوابة المدخل، حتى هبت زوبعة تحمل الاقذار

والنفايات في الفضاء، فحجبت فناء الدار عن اعين الطبيب. ووسط هذه الستارة السوداء، اخذت الدجاجات، وقد طاردتها الديكة، تهرب صائحة من تحت قدميه.

وحينما هدأت الزوبعة واستقر الغبار، أبصر الطبيب انتيبوفا قرب البئر. كانت قد ملأت سطلين وعلقتهما في نير عبر كتفها اليسرى. وكان شعرها مربوطاً بشال معقود من الامام لوقايتها من الغبار، وكانت تُمسك بين ركبتيها بتنورتها التي نفختها الريح. وما ان اتجهت نحو البيت حتى اوقفتها عاصفة اخرى انتزعت شالها عن رأسها وحملته بعيداً الى الطرف الآخر من السياج، حيث ما برحت الدجاجات تصيح.

وركض يوري اندرييفيتش وراء الشال، فالتقطه وحمله اليها قرب البئر واذ احتفظت برزانتها المعهودة، فقد حرصت على ألاّ يبدر منها ما يُستدل منه العجب والدهشة. كل ما قالته كان: "جيفاكو!"

"لاريسا فيودوروفنا!"

"يا إلهي! ماذا تفعل هنا؟"

"ضعي حملك. انا أحمله عنك."

"لم اتعود ان اقف في منتصف الطريق، او ان اترك مهمة دون انهاء. اذا كنت قد جئت لتراني، فلندخل!"

"لأرى من إذاً؟"

"كيف لي ان أعرف؟"

"مهما يكن... دعيني احمل هذين السطلين. لا استطيع ان اقف هكذا وانت تشتغلين."

"تدعو هذا شغلاً؟ دعهما، لئلا تملأ السلم بالماء. الافضل ان تخبرني بما جاء بك الى هنا. صار لك اكثر من سنة في هذه الديار، فلم تجد دقيقة واحدة لزيارتي حتى الآن."

"كيف عرفت؟"

"الاخبار تنتشر. فضلاً عن انني لمحتك في المكتبة."
"لماذا لم تكلميني؟"
"لا تقل لي انك لم ترني!"

وسارت امامه تحت سقف المدخل الوطيء، وهي تترنح قليلاً تحت ثقل السطلين. وهنا جثمت بسرعة، وانزلت السطلين على الارض، ونزعت النير عن كتفها، ثم نهضت وجففت يديها بفوطة صغيرة.

"تعال. سآخذك في طريق الممر الداخلي الى البهو الامامي. انها اكثر إضاءة. عليك ان تنتظرني هناك برهة. سآخذ السطلين الى فوق عن طريق السلم الخلفي، ثم اصلح هندامي قليلاً. لن تطول غيبتي. انظر الى سلمنا البديع -درجات حديدية على الطراز المكشوف. في وسعك ان ترى كل شيء خلالهما من فوق. انه منزل قديم. المدافع ضعضعت بنيانه قليلاً، وباستطاعتك ان ترى أين تقلقلت الحجارة في مكانها. اترى هذا الشق في الاطار القرميدي؟ هنا اضع انا وكاتنكا مفتاح المسكن حين نخرج. لا تنسَ. قد تأتي يوماً فلا تجدني -إذاك تفتح الباب، وتتصرف كأنك في بيتك، وتنتظرني حتى اعود. انظر، هذا هو، ولكن لا حاجة بي الى استعماله الآن. سأدخل من الخلف وافتح الباب من الداخل. اكثر ما يزعجنا هو الفئران. هنالك منها الكثير، ويستحيل عليك التخلص منها. الحق على هذه الجدران العتيقة. الشقوق والحفر في كل مكان. أسدّ من الاوكار قدر طاقتي، ولكن عبثاً. لعلك تأتي يوماً وتساعدني؟ الشقوق بين الجدران وألواح الخشب على الارض يجب ان تُسدّ، أليس كذلك؟ والآن، انتظر هنا في البهو وفكر في شيء ما. لن اطيل الغيبة. سأعود بعد قليل."

وفيما كان ينتظر، تطلع حوله على الجدران التي انسلخ عنها الطلاء وعلى درجات السلم الحديدية. فقال في نفسه: "ظننت في غرفة المطالعة انها كانت غارقة في قراءتها بالحماس نفسه الذي تبذله في أي مهمة

حقيقية صعبة. والآن ارى ان النقيض هو ايضاً صحيح: انها تحمل الماء من البئر بمثل السهولة والخفة اللتين تطالع بهما. هنالك الرقة واللباقة ذاتهما في كل ما تفعل، كأنها قد بدأت بداءة سريعة باكراً في حياتها، منذ طفولتها الاولى، وكل ما تفعله الآن يجري على التوقيت نفسه، بسهولة وبغير تكلف. وهذه المزية تراها في ظهرها حين تنحني وفي ابتسامتها حين تباعد بين شفتيها وتدير ذقنها، كما تراها في كلماتها وافكارها."

"جيفاكو!" نادت انتيبوفا من اعلى السلم.

فصعد.

١٤

"ناولني يدك، واتبع أوامري. علينا ان نجتاز غرفتين مظلمتين مكدستين بالاثاث. قد تصطدم بشيء وتؤذي نفسك."

"صحيح. انه لممر متشعب. ما كان باستطاعتي ان اجد طريقي. لماذا هو هكذا؟ هل يعمل احد على اعادة ترميم المسكن؟"

"كلا. لا شيء من هذا. انه يخصّ احدهم، ولا ادري من هو. لي مسكن خاص بي في مبنى المدرسة. وحين احتلت دائرة السكن المحلية هذا المبنى، أعطيت مع كاتنكا جانباً من هذا المنزل. سكانه رحلوا، تاركين وراءهم كل اثاثهم. كان منه الكثير. ليس بي رغبة في اشياء الناس. لذلك وضعته كله في هاتين الغرفتين وطليت الشبابيك بالكلس الابيض حتى أرد عنه الشمس. لا تترك يدي لئلا تفقد طريقك. وصلنا، لندرْ الى اليمين. خرجنا من المجاهل. ها هو بابي. ستنقشع الظلمة بعد قليل. حذار الدرجة."

وفيما كان يتبعها الى داخل الغرفة، ادهشه المنظر الذي رآه من

الشباك. فقد أطل الفناء، وفوق سطوح المنازل الوطيئة وراءه الى الساحات الخالية قرب النهر. وكان الغنم والماعز يرعى هناك، وجلودها الصوفية الطويلة تكنس الارض كأذيال التنانير. وكانت هناك ايضاً اللافتة المألوفة: "مورو وفتشنكن. مبيع آلات زراعية."

واذ تذكرها الدكتور يوم وصوله من موسكو، شرع يصفها للاريسًا فيودوروفنا. ثم انه، وقد نسي الشائعة القائلة بان ستريلنيكوف كان زوجها، راح يخبرها بلقائه القوميسار في القطار. هذا القسم من قصته، اثر فيها تأثيراً عميقاً.

"هل التقيت بستريلنيكوف؟" سألته بحماس. "لن اخبرك الآن، ولكن هذا بالفعل امر غريب. كأنما قُدر لك ان تلتقي به. سأخبرك بكل شيء عن هذا الموضوع يوماً ما، وستندهش. اذا لم اكن مخطئة، فقد ترك فيك انطباعاً جيداً لا سيئاً."

"نعم، على وجه العموم. كان المفروض ان يثير اشمئزازي. لقد اجتزنا المنطقة التي انزل فيها الموت والخراب. وكنت اتوقع ان ألقى جندياً فظاً قاسياً، او ثوريا عديم الرحمة والشفقة، ولكنه كان لا هذا ولا ذاك. انه لجميل ان يكون المرء خلاف ما تخيلته ان يكون. هذا دليل على انه ليس طرازاً معيناً. فلو كان كذلك، لبطل ان يكون انساناً. ثم اذا لم يكن باستطاعتك ان تصنفيه، فهذا يعني ان قسماً منه على الأقل لا يزال كما يجب ان يكون عليه الكائن البشري. انه سما فوق ذاته؛ ان فيه شيئاً من الخلود."

"يقال انه ليس عضواً في الحزب."

"نعم. اظن هذا صحيحاً. ماذا يا ترى يحببه الى الناس؟ انه رجل هالك. اعتقد بأن نهايته تعسة. سيدفع جزاء ما اقترفه من اثم. فالثوار الذين يتمردون على القانون، لا يثيرون الرعب لأنهم مجرمون، بل لأنهم كالآلات التي لا ضابط لها، كالقطارات التي أفلت قيادها. ان

ستريلنيكوف مجنون كالآخرين، غير ان جنونه لا ينبثق من نظريات، بل من الآلام التي عاناها. انا لا اعرف سرّه، ولكنني واثق بأن لديه سرّاً. ان تحالفه مع البولشفيك امر عرضي. ومادامو بحاجة اليه، فانهم يتحملونه. لقد صدف ان طريقه وطريقهم واحدة. فحالما تبطل حاجتهم اليه، ينبذونه جانباً غير آسفين، ويسحقونه، كما فعلوا قبلاً بسواه من الخبراء العسكريين."

"أتظن كذلك؟"

"بكل تأكيد."

"أليس له من سبيل للخلاص؟ أليس في استطاعته الهرب؟"

"الى اين يهرب، يا لاريسًا فيودوروفنا؟ كان بالامكان الهرب في الأيام الماضية، تحت سلطة القياصرة. ولكن أنى لك ذلك في هذه الأيام!"

"انني آسفة. جعلتني أحزن عليه. لقد تغيرتَ، أتعرف؟ كنتَ فيما مضى تتكلم عن الثورة كلاماً اكثر هدوءاً... كنت أقل قساوة فيما يتصل بها."

"هذا هو تماماً جوهر الموضوع، يا لاريسًا فيودوروفنا. هنالك حدود لكل شيء. كان يجب، طول هذا الوقت، ان يتم شيء معين، محدّد. ولكن الامر انتهى الى ان هؤلاء الذين أوحوا بالثورة ليسوا على دراية بأي شيء ما عدا التغيير وإثارة القلاقل. فهم لا يقنعون بأي شيء لا يكون على نطاق عالمي. ففترات الانتقال، العوالم التي في دور التكوين، هي عندهم غاية في حد ذاتها. انهم ليسوا مدرَّبين على اي امر آخر، ولا يعرفون ما سواه. فهل تعلمين لماذا ان هذه الاستعدادات التي لا تنتهي، امر لا جدوى منه ولا طائل تحته؟ لأن هؤلاء الناس يفتقرون الى المقدرة الحقيقة؛ إنهم يشكون العجز والقصور. الانسان ولد ليحيا، لا ليهيء اسباب الحياة. الحياة ذاتها، ظاهرة الحياة، هبة الحياة، امر من الجدّ بحيث يأخذ بمجامع القلب! إذاً، لماذا نستبدل بها هذه المهازل

الصبيانية، هذه المغامرات الخليقة بطلاب المدارس؟ كفى هذا الآن فقد جاء دوري لأوجه اليك الاسئلة. نحن وصلنا هنا صبيحة يوم الاضطرابات المحلية. فهل اخذت بنصيبٍ منها؟"

"كيف لا؟ أحاطت بنا النيران من كل جانب؛ والعجب ان المنزل لم يحترق. لقد اهتز وكاد يسقط، كما اخبرتك. فحتى اليوم لايزال في الفناء قنبلة لم تنفجر. النهب، القصف بالمدافع، وكل انواع الرعب حلت بنا ـ كما هي الحال كلما استُبدلت حكومة بأخرى. غير اننا كنا قد تعودنا؛ فلم تكن تلك هي المرة الأولى. فالاحوال تحت الروس البيض لم تكن افضل؛ تصفية الخلافات بالقتل، السلب، ابتزاز المال ـ يا لها من وليمة جنونية حقاً! ولكن لم اخبرك بعد بأعجب الاخبار. غاليولين! لقد انتهى به الأمر الى الالتحاق بالتشيكيين ـ كحاكم عام او ما الى ذلك".

"عرفت. سمعت بالخبر. هل التقيت به؟"

"في غالب الاحيان. لا تستطيع ان تتصور كم انقذت نفوساً بفضله، كم خبأت من الناس. لقد كان سلوكه، والحق يقال، رائعاً، نبيلاً؛ ليس كهؤلاء الصعاليك ـ ضباط القوزاك، رجال البوليس، ومن لفّ لفّهم. ومن أسفٍ، ان الصعاليك هم الذين اداروا الدفة، لا كرام الرجال. لقد ساعدني غاليولين كثيراً، باركه الله. نحن صديقان قديمان، كما تعلم. فحين كنت طفلة، غالباً ما ذهبت لزيارة المسكن الذي نشأ فيه. كان معظم قاطنيه عمالاً في سكة الحديد. لقد رأيت فقراً كثيراً في صغري. ولذلك فان موقفي من الثورة يختلف عن موقفك. انها اقرب اليّ. هنالك الكثير منها أفهمه من الداخل. أما ان يصبح غاليولين، ان يصبح ابن حارس مسكن، ضابطاً ابيض ـ وربما جنرالاً، هذا ما يدهشني! ليس في عائلتي جنود، فلا اعرف الا قليلاً عن الرتب العسكرية. حقل اختصاصي التعليم... ومهما يكن، هذا ما جرى. لا اذيع سراً اذا قلت اننا استطعنا ان نعين عدداً كبيراً من الناس. كنت أذهب للقائه. لقد تحدثنا عنك. كان

لي اصدقاء ومعارف في كل حكومة ـ واحزان وخيبة أمل منهم جميعاً ايضاً. لا تجد إلا في الكتب الرخيصة ان الناس ينقسمون الى معسكرين، وليس لاحدهما شأن مع الآخر. في واقع الحياة، كل شيء يختلط بكل شيء آخر. الا تعتقد بانك تكون شخصاً مغموراً، نكرة، حتى تلعب دوراً واحداً فقط طول حياتك، حتى تحتل مقاماً واحداً فقط في المجتمع، حتى تدين دائماً بمبدأ واحد؟ ـ آه، اليس كذلك؟"

وهنا دخلت عليهما فتاة في نحو الثامنة، وقد عقدت شعرها في جدائل جميلة. وكان لعينيها الضيقتين نظرة ماكرة؛ فاذا ما ضحكت اطبقت زاويتاهما الى العلاء. لقد علمت ان عند أمها زائراً، اذ سمعت صوته خارج الباب،ولكنها آثرت ان تصطنع الدهشة لوجوده. فحيت الدكتور ورمته بنظرة جريئة، محملقة، تصدر عن طفلة وحيدة بدأت بالتفكير مبكراً في حياتها.

"ابنتي، كاتنكا. آمل انكما ستصبحان صديقين!"

"أريتني صورتها في ميليوزئيف. كم كبرت وتغيرت منذ ذلك الحين!"

"ظننتُ انك خارج البيت. لم اسمعك تدخلين."

"اخذت المفتاح من شق الجدار، وكان فيه فأرة ضخمة ـ بمثل هذا الكبر! ليتك رأيتها تقفز! كدت اموت من الرعب."

وقلبت وجهها هازلةً، ففتحت عينيها كثيراً ودورت فمها كالسمكة الخارجة من الماء.

"اذهبي الآن. سأدعو "العم" لتناول الطعام معنا، وسأناديك حين تحضر الكاشا."

"شكراً، ليتني استطيع المكوث. نحن نتناول طعامنا في الساعة السادسة منذ بدأت بالمجيء الى المدينة، واحاول ألاّ اتأخر في العودة. الرحلة تستغرق ثلاث ساعات ـ تقريباً أربعاً. لذلك جئت لزيارتك مبكراً.

يؤسفني ان اضطر الى الذهاب بعد قليل."
"ألا تستطيع ان تبقى نصف ساعة اخرى؟"
"يسعدني ذلك."

١٥

"والآن، بما انك كنت صريحاً معي، سأكون صريحة معك. ستريلنيكوف الذي التقيت به هو زوجي، باشا، باقيل بافلوفيتش انتيبوف، الذي ذهبت للبحث عنه في الجبهة، ورفضت بحق ان اصدق خبر موته."

"ما تقولينه ليس مفاجأة لي. كنت متهيئاً لشيء كهذا. سمعت بهذه الشائعة، ولكنني لم اصدقها لحظة. لذلك تحدثت اليك عنه بحرية وصراحة، متجاهلاً الشائعة، وهي هراء كلها. لقد رأيت هذا الرجل. كيف يستطيع احد ان يقرنه بك؟ ماذا يجمع بينكما؟"

«مع ذلك، فالأمر صحيح. ستريلنيكوف هو انتيبوف، زوجي. أصدق الرأي السائد. كاتنكا تعلم بالأمر، وهي فخورة بأبيها. ستريلنيكوف هو اسمه المستعار – لقد انتحل لنفسه اسماً، أسوة بسائر الثوار. ولسبب ما، عليه أن يعيش ويعمل باسم آخر.

«هو الذي احتل يورياتين، وقذفها بالقنابل، عالماً بأننا كنا هنا، ولم يحاول مرة واحدة أن يجد إذا كنا أحياء، حتى لا يكشف عن هويته. بالطبع، لقد كان هذا واجبه. فلو أنه سألني لأشرت عليه بأن يفعل تماماً ما فعل. قد تقول إن وجودي سالمة، وإن إعطاء سوفيات البلدة لي مسكناً لائقاً، دليل على أنه يهتم بنا في الخفاء. ولكن أن يكون هنا بالفعل ويقاوم تجربة المجيء لمشاهدتنا – فهذا أمر يستحيل تصوره! إنه فوق متناول إدراكي، إنه غير طبيعي، إنه كالفضيلة الرومانية القديمة،

أحدى تلك الأفكار المستحدثة الطريفة. ولكنني يجب ألا أدع نفسي أتأثر بطريقة نظرك إلى الأشياء. فنحن، أنا وأنت، لا نفكر بالفعل تفكيراً متشابهاً، وحين يكون الأمر متصلاً باللامحسوس، بالاختبارات الهامشية، يفهم عندئذ واحدنا الآخر. أما في القضايا الكبرى، في نظرة المرء إلى الحياة، فنحن لا نتفق. والآن، لنعد إلى ستريلنيكوف...

«إنه اليوم في سيبيريا، وأنت على حق - سمعت بأنه مهتم بارتكاب ما يجعل الدم يجري بارداً في عروقي. إنه هناك، على قيادة أحد مواقعنا الأمامية، يحارب ويقهر غاليولين المسكين، صديق طفولته ورفيقه في السلاح ضد الألمان. وغاليولين يعرف من هو، ويعرف أنني زوجته، ولكنه كان من حسن اللياقة - التي لا أستطيع أن أفيها حقها من التقدير - إنه لم يشر إلى ذلك، مع أنه، يعلم الله، يطير خوفاً ورعباً عند ذكر اسم ستريلنيكوف.

«نعم. إنه هناك الآن، في سيبيريا. ولكنه كان هنا وقتاً طويلاً، يعيش في تلك المقطورة التي رأيته فيها. كنت دائماً أتمنى لو التقيت به مصادفة. كان يذهب أحياناً إلى مقر القيادة، في البناية التي جعلها «الكوموش» - جيش الجمعية التأسيسية - مقراً له. وصدف أن مدخلها كان من الجناح الذي كنت اجتمع فيه بغاليولين. فقد كنت دائماً أتردد إلى هناك لأطلب منه مساعدة أحدهم أو الحؤول دون وقوع مصيبة، أو حلول نكبة. خذ مثلاً على ذلك، ما كان يجري في الأكاديمية الحربية ويثار حوله تلك الضجة يومئذ. كل مدرب لم يكن يحظى برضا التلاميذ، كان ينصب له كمين ويقتل رمياً بالرصاص، بحجة أنه من مؤيدي البولشفيك. ثم جاء الوقت الذي أخذوا فيه يضطهدون اليهود. ولهذه المناسبة أقول أنك إذا كنت تقوم بعمل فكري من أي نوع وتعيش في المدينة، كما نفعل نحن، لابد من أن يكون نصف أصدقائك من اليهود. ولكننا في أيام التعصب والعداء الجنسي، حين تقترف كل هذه

الفظائع الرهيبة، لا نشعر حقاً بالأسف، والاستنكار، والخجل، وإنما نشعر، ويا للتعاسة، بانقسامنا، كأنما كانت عاطفتنا تصدر، أكثر ما يكون، عن الرأس لا عن القلب، وكان لها طعم الدجل وعدم الإخلاص.

"فمن الغرابة حقاً ان يكون هؤلاء الذين حرروا البشرية يوماً من نير الوثنية، ويكرس الكثيرون منه الآن حياتهم لتحريرها من الظلم، عاجزين عن تحرير أنفسهم من الولاء لهوية مرّ عليها الزمن، وغدت باطلة، وفقدت كل معنى، وألاّ يرتفعوا فوق ذواتهم فيذوبوا بين سائر الذين أنشؤوا لهم ديانتهم وأصبحوا على صلة وثيقة جداً بهم، لو أنهم عرفوهم معرفة أفضل."

"صحيح ان الاضطهاد يحملهم على اتخاذ هذا الموقف العقيم المؤدي الى الخراب، هذا الانكماش الحييّ، الناكر للذات، الذي لايجلب عليها الا البؤس وسوء المصير. ولكنني أعتقد أيضاً بأن بعض السبب يعود الى نوع من الهرم الداخلي، الى قرون طويلة من العياء التاريخي. فأنا لا أحب صفيرهم الساخر في الظلام، ونظرتهم البليدة المحدودة، والقصور البادي في خيالهم. فذلك مزعج كحديث الشيخ عن الشيخوخة أو المريض عن المرض. ألا تظنين ذلك؟"

"لم أفكر بهذا الموضوع كثيراً. لي صديق، ميشا غوردون، يعتقد بما تعتقد به أنت."

"قلت انني كنت أذهب الى هذا المكان آملة أن أحظى بلقاء باشا في دخوله أو خروجه منه. ففي العهد القيصري، كان القائد العام يقيم مكتبه في ذلك الجانب من البناية. أما الآن، فهنالك لافتة على الباب: "شكاوى". هل رأيتها؟ انه أجمل مكان في البلدة. الفناء أمامه مرصوف بحجارة من خشب، وقبالته تقع حديقة البلدة، وهي ملأى بأشجار اللوز، والزعرور، والياسمين. وهنالك دائماً صف من الناس عند الباب. كنت أقف هناك وأنتظر. بالطبع، لم أحاول أن أدفع الباب، ولم أقل إنني

زوجته. وبعد، فاسمانا مختلفان. وإياك أن تظن أن مناشدة عاطفتهم تفيد! فطرقهم تختلف كل الاختلاف. هل تعرف أن اباه بافيل فيرابونتوفيتش انتيبوف، المنفي السياسي السابق، والعامل القديم، على مقربة من هنا، في قرية بجانب الطريق العام،حيث كان منفياً؟

"وصديقه تيفرزين هنا أيضاً. كلاهما عضو في المحكمة الثورية المحلية. والآن، أتصدق أن باشا لم يذهب بعد الى لقاء أبيه، ولم يخبره بعد بهويته. أما أبوه فيعتبر هذا السلوك طبيعياً، فلا يؤذي خاطره. فاذا ما شاء ابنه أن يبقى متخفياً،فليكن. انه لايستطيع ان يراه، وهذا كل ما في الأمر. هؤلاء الناس من حجر. انهم ليسوا بشراً، بكل ما عندهم من نظام ومن مبادئ.

"فلو حتى استطعت أن أثبت أنني زوجته، فلن يفيدني هذا بشيءٍ! ماذا تعني لهم الزوجات في مثل هذا الظرف؟ عمال العالم، اعادة تعمير المسكونة ـ هذا يعني شيئاً! أما زوجة، مخلوق ذو قدمين، فهذا لا شأن له عندهم أكبر من شأن القملة أو البرغوث!

"كان مرافقه العسكري يخرج من الغرفة ليسأل الناس عن حاجتهم، فيأذن للبعض بالدخول. ولكنني لم أخبره قط باسمي، وحين كان يسألني عن حاجتي كنت دائماً أجيب أنها حاجة شخصية. بالطبع، كنت أعلم أنني أنفق وقتي سدى. وكان المرافق يهز بكتفيه ويرمقني بنظرة شك. لم أره مرة واحدة قط.

"أظنك تعتقد بأنه لايستطيع أن يشغل نفسه بنا، فهو لايحبنا، وانه نسينا! انك لعلى خطأ. أعرفه حق المعرفة. أعرف ما يريده تماماً، وما يريده انما يريده محبة بنا. انه لايطيق ان يعود الينا خالي الوفاض. انه يريد ان يعود الينا ظافراً، يتيه كرامة ومجداً، فيضع أكاليل غاره عند أقدامنا. انه يريد ان يخلدنا، ان يبهرنا! كالطفل تماماً."

وهنا دخلت كاتنكا مرة ثانية، فتعلقت بها لاريسا فيودوروفنا،

ولشدّ ما كانت دهشة الصغيرة حين أخذت أمها تداعبها وتطوقها بذراعيها.

١٦

كان يوري اندريفيتش عائداً الى فاريكينو. وكان قد اجتاز تلك الطريق مئات المرات. وقد بلغ من شدة معرفته بها انه لم يعد ينتبه اليها، بل قلما أبصرها.

فهو سرعان ما سيصل الى مفترق طريقين في الغابة، احداهما تؤدي الى فاريكينو، والاخرى الى قرية صيد تدعى فاسيليا فسكواي القائمة على ضفاف نهر ساكما. وهناك ارتفعت أيضاً لافتة تعلن عن آلات زراعية. وكعادته، فقد وصل الى المفترق عند المغيب.

لقد مرّ الآن شهران على اليوم الذي، عوضا عن يعود فيه الى يورياتين، قضى الليلة عند لاريسا فيدوروفنا وأخبر عائلته بأنه اضطر الى البقاء في يورياتين لقضاء بعض الأعمال وانه بات في فندق ساماديفياتوف. وكان قد بدأ منذ حين يدعوها لاريسا ويخاطبها بضمير المفرد، مع انها ظلت تدعوه جيفاكو. وكان يوري اندريفيتش يخون زوجته تونيا، وكانت علاقته مع لاريسا تزداد جدية.وكان هذا الأمر فظيعاً، مستحيلاً.

لقد أحب تونيا حتى العبادة. وكانت راحتها أهم شيء له في الحياة. وكان يدافع عن شرفها وكرامتها أكثر مما كان يفعل أبوها أو حتى نفسها. وكان على استعداد لأن يمزق بيديه كل من حدثته نفسه بجرح كبريائها. ومع ذلك فقد كان الآن هو نفسه المعتدي.

وفي بيته، كان يحس بجرمه. وكان جهل افراد عائلته لحقيقة الأمر، وعاطفتهم التي لم تتبدل نحوه، يثيران في نفسه الألم الشديد. فكثيراً

ما كان يلزم جانب الصمت فجأة في وسط الحديث عند تذكره جريمته، ويتوقف عن سماع أي كلمة كانت تقال حوله.

فاذا ما حدث ذلك عند تناول الطعام، علقت اللقمة في حلقومه، فوضع ملعقته جانباً وأزاح صحنه بعيداً، وهو يغص ويخنق دموعه، "ماذا جرى لك؟"،كانت تونيا تسأله بدهشة. "لعلك تلقيت أخباراً غير سارة حينما كنت في المدينة. هل ألقي القبض على احد؟ أو أُطلق عليه النار؟ اخبرني. لاتخشَ ازعاجي. إن أنت اخبرتني، فرّجت كربتك."

هل كان يخون زوجته لأنه آثر امرأة اخرى؟ كلا. إنه لم يقم بأي مقارنة، بأي اختيار. وفكرة "الاباحية"، والتعابير الشبيهة بـ "مقتضيات الحب الشرعية"، كانت غريبة عنه. وان يفكر او يتكلم بمثل هذه العبارات، قد بدا له محطّاً بكرامته. فهو لم "يزرع شوفاناً بريّاً" في حياته، ولم يعتبر نفسه انساناً متفوقاً له حقوق وامتيازات خاصة. لقد كان الآن مسحوقاً تحت وطأة الشعور بالأثم.

"وماذا بعد؟" كان يتساءل أحياناً. وكم كان يأمل يائساً في حدوث ظرف مستحيل مفاجئ يحل له مشكلته.

أما الآن فلم يعد يتساءل. لقد عزم على ان يقطع العقدة، وكان في طريقه الى البيت حاملاً معه الحل. كان سيعترف بكل شيء لتونيا، ويتضرع اليها ان تغفر له، ثم لن يرى لارا مرة ثانية.

ليس كل شيء كان تماماً كما يجب أن يكون. فقد شعر الآن بانه لم يوضح للارا ايضاحاً كافياً انه سيقطع علاقته بها الى الابد. قال لها ذلك الصباح انه نوى ان يصارح تونيا بواقع الامر وان عليهما ان يقلعا عن لقاء احدهما الآخر، أما الآن فقد أحسّ بانه قد هوّن الامر كثيراً فلم يؤكده تأكيداً كافياً.

وكانت لاريسا فيودوروفنا قد لاحظت تعاسته، فلم تشأ ان تزيده تعاسةً بإثارة الخصومات الاليمة، بل حاولت ان تستمع اليه بمنتهى

الهدوء. كان يتحدثان في احدى الغرف الأمامية الفارغة. وكانت الدموع تنهمر على خديها، ولكنها لم تكن أكثر شعوراً بها من شعور التماثيل الحجرية فوق المنزل المقابل بالمطر المنهمر على وجوهها. وكانت تردد بهدوء: "افعل ما تراه خيراً، لاتقلق علي. سأتغلب على عواطفي." كانت تقول ذلك باخلاص، وبلا تسامح كاذب؛ وإذ كانت تجهل انها تبكي، فانها لم تمسح ولم تجفف دموعها.

ولدى التفكير بان لارا ربما قد أساءت فهمه، وبأنه قد غادرها تاركاً في نفسها انطباعاً خاطئاً وآمالاً كاذبة، فقد كاد يقفل راجعاً ليقول لها ما غفل عن قوله، وفوق كل ذلك ليودعها بأكثر حرارة، وأكثر رقة، وبحالٍ تليق، أكثر ما يكون، بوداع أخير. على انه تمكن من ضبط نفسه بصعوبة، فأكمل طريقه.

وحين غربت الشمس، امتلأ الغاب بالصقيع والعتمة. وفاحت رائحة الأوراق الرطبة.وكانت جماعات البرغش تتعلق بالهواء وتخرج أصواتاً تكرارية حزينة. وحطّ بعضها على رقبته ووجهه المتصببين عرقاً، فراح يصفعها بكفيه فيقترن دوي الصفع بأصوات الركوب ـ كصرير السرج، ووقع الحوافر على الوحل، وصهيل الجواد. وفي البعيد، حيث بدا لمعان الشمس كأنه باقٍ الى الأبد، راحت قبّرة تغني.

"استفق، استفق!" كانت تنادي. وكان نداؤها أشبه بالدعاء في عشية يوم الفصح: "استيقظي، يا نفسي، لماذا أنت راقدة؟".

وفجأة خطر ليوري اندرييفيتش خاطر بسيط. لماذا العجلة؟ لن يحنث بوعده مع نفسه؛ الاعتراف سيُنفذ، ولكن من قال انه سيقوم به في ذلك اليوم بالذات؟ لم يقل لتونيا شيئاً بعد، ولن يكون متأخراً إن هو ارجأ الامر حتى زيارته التالية الى المدينة. عندئذ يتاح له ان ينهي حديثه مع لارا، بحرارة ومحبة تخفف عنهما جميع أحزانهما. ما أروع هذه الفكرة، ما أدهشها! أليس غريباً أنها لم تخطر له من قبل؟

وعلى ذكر لقائه بلارا مرة أخرى، طار قلبه فرحاً. وبانتظار ذلك، عاش وقته مجتمعاً بها.

هاهي المنازل والارصفة الخشبية في ضواحي المدينة.. انه في طريقه اليها. وبعد حين سيجتاز الارصفة الخشبية والساحات الخالية ويصل الى الشوارع المعبدة. فالمنازل الصغيرة في الضواحي تمر سراعاً كصفحات الكتاب، لا كما تقلبها واحدة واحدة بسبابتك، وانما كما لو انك وضعت ابهامك على طرف الكتاب وتركت الاوراق كلها تهرّ مرة واحدة. السرعة تسلب اللب. وهناك منزلها، في نهاية الشارع، تحت الانفراجة بين غيوم المطر، حيث تنقشع السماء عندما يقترب المساء. كم يحب البيوت الصغيرة على الشارع المؤدي اليها؟ في وسعه ان يلتقطها ويعانقها! تلك المقاصير التي بعين واحدة وسطوح مشدودة الى أسفل كالقبعات! والمصابيح والأضواء المنعكسة في برك الماء وهي تلمع كالحبب! ومنزلها تحت انفراجة الفضاء البيضاء! هناك سيتلقى مرة أخرى عطية الجمال الباهرة من يد خالقها. شبح أسود سيفتح الباب، والوعد بقربها، لا يملكها أحد في العالم، مصونة وباردة كنجمة شمالية بيضاء، سيطوله كأولى موجات البحر وانت تركض على رمال الشاطئ في الظلام.

وألقى يوري اندرييفيتش المقود، وانحنى الى الامام على السرج، وطوق عنق الجواد، ثم دفن رأسه في ناصيته. واذ أخذ الجواد هذا الاعراب العاطفي على انه التماس لجبروته، هبّ يسابق الريح.

وحين أخذ الجواد يتمايل؛ وحوافره تكاد ألاّ تلامس الارض، بدا ليوري اندرييفيتش انه، الى جانب صوت خفقان قلبه المبتهج، قد سمع هتافاً. ولكنه ظن ذلك من صنع خياله.

وفجأة انطلق صوت عيار ناري على مقربة منه. فنهض جالساً، وانتزع المقود، وشد اللحام. واذاك ترنح الجواد، وقد كان في عز سرعته، وتراجع منقلباً على قفاه.

وكان امامه مفترق الطريق. وكانت اللافتة: "مورو وفيتشنكن - آلات زراعية"، تلمع تحت شعاع الشمس. وكان ثلاثة فرسان يعترضون سبيله: صبي في قبعة مدرسية وهندام يتوسطه حزامان للخرطوش، وفارس في معطف ضابط وقبعة من الفرو، ورجل بدين يرتدي لباساً غريباً كأنه لباس سهرة، بسرواله المقلّم وقبعته الاكليريكية العريضة الجوانب، وقد شُدت فوق جبهته.

"لا تتحرك، ايها الرفيق الدكتور"، قال الفارس اللابس قبعة من الفرو، وقد كان اكبر الثلاثة سناً، "اذا اطعت الاوامر، فنحن نضمن لك سلامتك من الاذى. أما اذا لم تفعل، اضطررنا لاطلاق النار عليك. الطبيب الذي كان ملتحقاً بفرقتنا قد قُتل ونحن الآن نريدك ان تحل مكانه. ترجل عن حصانك، وسلّم المقود الى هذا الشاب. ودعني اذكرك: اذا حاولت الهرب رميناك فوراً بالرصاص."

"هل انت الرفيق فورستر ليبريوس ابن ميكيولتسن؟"

"كلا. انا ضابط الارتباط الاول عنده."

الفصل العاشر
الطريق العام

١

كـانت هنالك مـدن، وقـرى، ومـزارع للقـوزاك، على طول الطريق العـام. وكـان هذا الطريق طريقاً قـديماً لنقل البـريد واقـدم طريق عـام في سيبريا. وكان يقطع المدن كالسكين، فـيقسمها كرغيف الخبز على مدى شوارعها الرئيسية. اما في القرى، فقد كان يخترقها دون التفاتة واحدة الى الوراء، فيبعثرها يمنة ويسرة، تاركاً صفوف المنازل بعيداً وراءه، او يلف حولها في قوس واسعة او عطفة حادة.

وفي الماضي البعيد، قبل ان يصل الخط الحديدي الى خوداتسكوي، كـان البـريد يرسل على الطريق العـام بالعربات المثلثـة. وكـانت قـوافل الشاي والخبز والحديد تسير في اتجاه، والمحكومون، تحت الحراسة، وعلى الاقـدام يُساقـون في الاتجـاه الآخر. كـانوا يسـيرون على رنين قـيودهم - نفوس ضائعة، مشردون يائسون يملؤون القلب رعباً. وكانت الغابات تمتد حولهم مظلمة، مغلقة.

وكان اولئك الذين يعـيشـون على جـانبي الطريق العـام مثل عـائلة واحدة. فقد كانت الصداقات والزيجات تربط قرية بقرية، ومدينة بمدينة. وكانت خوداتسكوي تقع على مفترق الطريق العام والخط الحديدي. وكان فـيها محلات اخرى لصيـانة الخط الحديدي، وهناك، في اكواخ مزدحمة، عـاش اشد الفقـراء فـقراً وتلاشوا ومـاتوا. وكان المنفـيـون السيـاسيـون المؤهلون للصناعـات الفنية ممن انهـوا مدة الحكم عليهم بالاشغال الشاقة،

يأتون اليها للعمل والسكنى.

وكانت مجالس السوفيات الاولى التي اقيمت على طول الخط الحديدي قد أُطيح بها منذ زمن بعيد، فبقيت المنطقة مدة من الزمن تحت سلطة حكومة سيبريا المؤقتة. اما الآن فقد سقطت بيد الاميرال كولتشاك الذي اطلق على نفسه لقب "الحاكم الاعلى".

٢

كان الطريق، في مرحلة منه، يمتد صُعُداً على مسافة طويلة، فيكشف منظراً أوسع. وكأنما كان لا نهاية للصعود واتساع الافق، فما أن يتوقف المسافرون والجياد المتعبة لأخذ قسط من الراحة، حتى يجدوا انفسهم على ذروة الرابية. ثم يكمل الطريق سيره فوق جسر يتدفق تحته نهر كيشما.

وخلف النهر، على ارتفاع مماثل، كان بامكانهم ان يبصروا جدران الآجرّ لدير فوزدفيشنسكي.وكان الطريق يدور حول التل والدير، ثم يتعرج في ضواحي المدينة.

فما أن تصل الى قلب المدينة حتى كانت تلامس ارض الدير مرة ثانية، لأن بوابة الدير الحديدية المطلية بالاخضر كانت تفتح على الساحة الرئيسية. وكانت الايقونة فوق قوس الباب محاطة بجملة مكتوبة بأحرف من ذهب: "افرح، ايها الصليب المحيي؛ يا نصر التقوى الذي لا يُقهر."

كان ذلك، الاسبوع المقدس، آخر الصوم، والشتاء قد اشرف على نهايته. وكان الثلج على الطرقات يتحول الى السواد، فيفضح بدء الذوبان. على انه كان فوق السطوح لا يزال ابيض، وكان كأنما يغطيها بقبعة عالية.

وبدت البيوت للفتيان الذين تسلقوا القباب ليراقبوا قارعي

الاجراس، كأنها صناديق صغيرة مرصوفة بعضها الى بعض. وكان هنالك اناس سود صغار، اكبر قليلاً من النقاط، يسيرون نحو البيوت. وكان يمكن تمييز بعضهم، على هذا الارتفاع، من طريقة سيرهم. وكانوا يتوقفون ليقرؤوا قرار الحاكم الاعلى، الملصق على الجدران، معلناً تجنيد ثلاث قرعات.

٣

في اثناء الليل، وقعت احداث شتى. فقد اشتد الحر خلافاً للعادة في ذلك الوقت من العام. وانهمر المطر رذاذاً، حتى خُيل انه كان يتحول الى ضباب قبل ان يصل الى الارض. ولكن ذلك لم يكن الا وهماً. فقد كان هناك من ماء المطر ما يكفي لينساب، دافئاً لطيفاً، على التراب ـ وقد انقلب كله اسود لامعاً كأنما كان يتصبب عرقاً ـ فيغسله وينظفه مما بقي عليه من الثلج.

وكانت اشجار التفاح القصيرة، المغطاة بالبراعم، تمتد بصورة عجيبة من خلال اسوار البستان. وكانت قطرات الماء تنهمر منها فيسمع وقعها غير المنتظم على الارض الخشبية في المدينة كلها.

وراح توميك، الكلب المربوط ليلاً في فناء دار المصوّر، يصرخ وينبح؛ واخذ الغراب في بستان غالوزين، ربما لانزعاجه من الصوت، ينعق نعيقاً عالياً يكفي لايقاظ المدينة كلها.

وفي القسم المنخفض من المدينة، سارت ثلاث عربات محملة بالبضائع الى التاجر ليوبزنوف، فرفض ان يتسلمها قائلاً ان في ذلك خطأ، فهو لم يطلب مثل هذه البضائع ابداً. واحتج الحمالون بتأخر الوقت ورجوه ان يقبلها لتلك الليلة، ولكنه شتمهم وتمنع عن ان يفتح الباب. فكان بالامكان ان تسمع هذه الضجة ايضاً من اقصى المدينة الى أقصاها.

وعند الساعة السابعة الكنسية، او الواحدة صباحاً حسب التوقيت المحلي، انسابت من اعماق اجراس الدير التي قُرعت قرعاً خفيفاً همهمة منخفضة حلوة داكنة، وامتزجت برذاذ المطر المتطاير في الهواء. لقد انسابت من الجرس وهي تغوص وتذوب في الهواء، كما تغرق وتذوب كتلة من التراب اقتلعت من شاطئ النهر، في امواج مياه الينبوع.

كان ذلك ليلة خميس الغسل. وكانت قضبان الشموع تتميز بصعوبة في البعيد، وراء شبكة من المطر، وهي تضيء وجهاً هنا وجبهة او انفاً هنالك، وكانت تضطرب وتتحرك عبر فناء الدير. فالمصلون الصائمون كانوا في طريقهم الى القداس.

وبعد ربع ساعة، رنت خطوات على الرصيف الخشبي قادمة من الكنيسة. كانت هذه غالوزينا، زوجة التاجر، ترجع الى البيت رغم ان القداس مازال في اوله. وكانت تسير بخطا قلقة، تارة تركض وطوراً تبطئ وتقف، ومنديلها فوق رأسها ومعطفها المصنوع من الفراء مفكوك الازرار. لقد احست انه سيغمى عليها في الكنيسة المزدحمة فخرجت الى الهواء الطلق، ولكنها كانت الآن متأسفة خجولة لانها لم تبق حتى النهاية ولانها، للسنة الثانية، لم تحفظ ايام الصوم. ولكن هذا لم يكن سبب قلقها الرئيسي. فقد كان اعلان الامر بالتعبئة، وقد عُلق ذلك اليوم، يطول ابنها المسكين البليد تيريوشكا. ولكم حاولت عبثاً ان تتناسى الموضوع، غير ان اللطخ البيضاء الملصوقة هنا وهناك في الظلام كانت تذكرها به.

كان بيتها يقع خلف المنعطف تماماً، ولكنها آثرت البقاء في العراء، فلم تستعجل دخول منزلها الفاسد الهواء.

وكانت الافكار السوداء تزعجها. ولو انها حاولت ان تفكر بهذه الافكار عالياً، واحداً بعد آخر، لعجزت عن ايجاد الكلمات الكافية والوقت الكافي حتى طلوع الفجر. أما هنا، في الشارع، فقد حوّمت هذه

الافكار المقلقة حولها اسراباً، وكان بامكانها ان تعالجها كلها معاً في تلك الفترة القصيرة التي اقتضاها سيرها بضع مرات من بوابة الدير الى زاوية الساحة.

كان الفصح يقترب ولم يكن في البيت احد. لقد ذهبوا كلهم وتركوها وحدها. حسناً، ألم تكن وحيدة؟ بالطبع كانت كذلك. فرفيقتها كسيوشا لم تكن تُحسب. وعلى كل حال، من كانت هي؟ هل بالامكان معرفة قلب الآخرين؟ لعلها كانت صديقة او عدوة أو خصماً متخفياً. قيل انها كانت ابنة امرأة زوجها الاول، من زواج سابق. وكان زوجها، فلاس، يدعي انه تبناها. ولكن لنفترض انها كانت ابنته غير الشرعية؟ لنفترض انها لم تكن ابنته بل شيء آخر؟ هل بامكانك ان تعرف قلب رجل؟ ولكن لنعطِ كسيوشا حقها، لم يبدر منها أي خطأ. كان لها عقل وجمال، وحسن سلوك - عقل اكثر مما للمسكين المخبول تيريوشكا، أو لأبيها بالتبني!

هكذا كان حالها الآن، مهجورة من الجميع في الاسبوع المقدس. لقد تفرقوا جميعاً، كلٌ في طريقه.

كان زوجها يسافر من اول الطريق العام الى آخره، خاطباً في المجندين الجدد، محاولاً إثارة حماسهم لحمل السلاح، بدلاً من الاهتمام بابنه المجنون وإنقاذه من هلاكه المحتم.

وتيريوشكا ايضاً ترك البيت قبيل العيد الكبير. ذهب الى اقربائهم في قرية كوتيني ليسلي نفسه وينسى همومه. فالفتى المسكين قد طرد من المدرسة. لقد ابقوه سنة اضافية في كل صف تقريباً، وعندما وصل الآن الى الصف الثامن توجب عليهم طرده!

اوه. انها لأمور تدعو كلها لليأس! آه، يا الله! لماذا سار كل شيء على ما لا يرام؟ كانت الحالة مؤلمة، حتى انها شعرت بالاستسلام، وبانه لم يعد لها أي رغبة في الحياة. ما الذي سبب كل هذا البؤس؟ الثورة؟

كلا، كلا! الحرب.. قتلت الحرب زهرة شباب روسيا لم يبق الآن الا الفاسدون، إلا الاقذار التي لم تكن تصلح لشيء.

كم كان الامر مختلفاً في أيام ابيها! كان ابوها مقاولاً، مثقفاً، عفيفاً. عاشوا بعيداً عن قلب البلاد. وكن، هي واختاها بوليا واوليا، من خيرة الفتيات اللواتي كنت تتمنى التعرف اليهن. كن يوازين اسماءهن جمالاً. ولكم طلب ايديهن المعلمون النجارون، وقد كان كل واحد منهم رجلاً صالحاً وقريناً ممتازاً. ومرة خطر لهن، هي وشقيقتاها، ان ينسجن لانفسهن شالات من الصوف بستة ألوان. وصدق او لا تصدق، فقد عمل جمال الحياكة على شهرة تلك الشالات في المقاطعة بأسرها! كل شيء في تلك الايام كان جميلاً وغنياً، يسر النظر - قداس الكنيسة، والرقص، والناس، والعادات - كل شيء كان يفرح قلبها، لأن عائلتها لم تكن الا جماعة بسيطة خرجت من بين الفلاحين والعمال.وروسيا نفسها كانت فتاة في سن الزواج يومذاك، يلاحقها رجال حقيقيون، رجال كان بامكانهم ان يقفوا من اجلها، رجال لا يمكن تشبيههم بحثالة اليوم. لقد فقد الآن كل شيء بهاءه، لم يبق الا المدنيون، والمحامون الذين يطقطقون بلسانهم ليلاً ونهاراً. ويح فلاس واصدقائه! يظنون ان بامكانهم ان يرجعوا تلك الايام الذهبية بتبادل الانخاب، والخطب، والتمنيات الطيبة! ولكن هل كان هذا سبيل استرجاع حب مفقود؟ عليك ان تنقل الجبال من مكانها لأجل ذلك.

٤

كانت حتى الآن قد اجتازت الساحة وسارت حتى السوق اكثر من مرة. ومن هناك اصبح بيتها في آخر الشارع على اليسار، ولكن في كل مرة كانت تصل اليه تغير رأيها وتعود ادراجها الى الممرات الملاصقة للدير.

وكان سوق كريستوفوزدفيشنك واسعاً كالحقل، وكان في الايام الماضية يزدحم بعربات الفلاحين، وكان في احد طرفيه شارع ايلينينسكايا، اما الطرف فكان قوساً حادة تصطف فيها الابنية المؤلفة من طابق او طابقين، وقد كانت تستخدم كمخازن، ومكاتب، ودكاكين.

وهناك استعادت ذكرى ايام السلم الغابرة، حين كان بروخيا، الممثل الهزلي، بنظارتيه ومعطفه الفضفاض، والمتاجر بالجلود والشوفان والتين وعجلات العربات والسروج، يقرأ الصحف الرخيصة وهو جالس بعظمة على كرسي امام بابه الحديدي الكبير ذي المصاريع الاربعة.

وهناك، في نافذة صغيرة مظلمة، كانت بضعة ازواج من شموع الاعراس المربوطة باشرطة، وبعض الازهار في صناديق من الكرتون، تجمع الغبار منذ سنوات، بينما في الغرفة الخلفية الصغيرة، الخالية من الاثاث والحوائج الا من عمود من اقراص الشمع الواسعة، كانت تعقد الصفقات بآلاف الروبلات مع عملاء مجهولين لاحد صانعي الشموع الاثرياء الذي كان يعيش في مكان لم يعرفه احد.

وهناك، في وسط صف الحوانيت، كان حانوت غالوزين البقّال ذو النوافذ الثلاث. كانت ارضه الخشبية العارية تُغسل في الصباح والظهر والليل بورق الشاي المستعمل: فقد كان غالوزين ومعاونوه يشربون الشاي طوال النهار. وهنا طالما جلست غالوزينا، وقد كانت عروساً شابة، بمحض ارادتها الى الصندوق. كان اللون البنفسجي الغامق لونها المفضل، وهو لون ألبسة الكهنة في بعض الاعياد، ولون براعم الليلك، ولون افضل ثوب مخملي عندها ومجموعة اقداح النبيذ الزجاجية الفاخرة التي كانت تملكها. لقد كان لون السعادة ولون ذكرياتها، ولون روسيا ايضاً ابان عذريتها قبل الثورة. وكانت تفرح بالجلوس الى الصندوق لان الظل البنفسجي في المخزن العابق بالسكاكر والحلوى القرمزية في اوعية زجاجية، كان يشبه لونها المفضل.

وفي الزاوية، الى جانب الفناء الخشبي، كان هنالك بيت قديم اغبر يطل على الجهات الاربع مثل عربة متداعية. وكان له طابقان ومدخلان، واحد من كل جانب، وكان كل طابق منفصلاً الى شقتين، في الاسفل صيدلية زالكيند الى اليمين ومكتب الكاتب العدل الى اليسار. وفوق الصيدلي كان يعيش الشيخ شموليفيتش، وقد كان خياطاً للسيدات، مع عائلته الكبيرة. اما الشقة المواجهة لشموليفيتش، فوق الكاتب العدل، فقد ازدحمت بمستأجرين كانت تجاراتهم ومهنهم مسجلة على بطاقات وشارات تغطي الباب كله. هنا كانت تصلح الساعات والاحذية، وهنا اقام كامنسكي الحفّار غرفة عمله التي كان المصوران شوك وشتروداخ يعملان فيها معاً.

وكانت ممرات الطابق الاول مزدحمة، فما كان من مساعدي المصورين، بلاشين الذي كان طالباً، ومجيدسون الذي كان يصلح الصور، الا ان اقاما غرفة مظلمة في ظل الاشجار عند احد طرفي الفناء. ومن عين المصباح الغاضبة الحمراء التي كانت ترف خابية في نافذة الغرفة المظلمة، كان يستدل على انهما كانا يعملان الآن هناك. وهناك تحت تلك النافذة، كان توميك، الكلب الصغير، يربض في سلسلته وينبح فيسمعه الجميع في شارع ابلينينسكايا.

وفكرت غالوزينا وهي تمر بجانب البيت الاغبر: "كلهم هنا في رزمة واحدة، جمعية اليهود كلها، انها وكر شحاذين قذرين". وفكرت فوراً ان زوجها قد اغرق كثيراً في كرهه لليهود. وعلى كل حال، فلم يكن هؤلاء الناس من الشأن بحيث يؤثرون في مصير روسيا، ومع ذلك، فانك لو سألت شموليفيتش الشيخ عن رأيه لماذا كانت البلاد في مثل تلك الفوضى والاضطراب، لاجابك وهو ينثني ويدور ويقلص وجهه البشع في تكشيرة: "انه ليبوشكا في خدعاته."

ولكن، ويحها ما هذا العبث الذي كانت تضيع وقتها في التفكير

به! هل كان امرهم مهماً؟ هل كانوا بلاء روسيا؟ كانت المدن بلاءها. لا بمعنى ان البلاد كانت تقف او تنهار بسبب المدن؛ بل بمعنى أنّ المدن كانت مثقفة وسكان الارياف كانوا قد اضاعوا رشدهم؛ فقد حسدوا المدن على ثقافتها وجربوا ان ينسخوا طرقها فلم يتمكنوا من اللحاق بها، وهكذا اصبحوا الآن، لا هذه ولا تلك.

او لعل الامر كان بخلاف ذلك - لعل العلة كانت في الجهل؟ الرجل المثقف يستطيع ان يرى خلال الجدران، انه يعرف كل شيء سلفاً، في حين ان الآخرين منا كالسائرين في غابة مظلمة. فنحن لا نفتقد قبعاتنا الا عندما تقطع رؤوسنا. لا بمعنى ان المثقفين ينعمون الآن. انظر كيف كان الجوع يدفعهم الى النزوح عن المدن؛ كم كان الامر مرتبكاً مشوشاً؟ حتى الشيطان نفسه لم يكن يستطيع ان يعرف عنه شيئاً.

ومع ذلك، فقد كان سكان الارياف هم الذين عرفوا كيف يعيشون. انظر الى اقربائها آل سليتفين، وشيلابورين، وبامفيل باليخ، والاخوين نسطور وبنكرات موديخ. انهم كانوا يعتمدون على سواعدهم وعقولهم، كانوا اسياد انفسهم. كانت المزارع الجديدة على طول الطريق العام امكنة جميلة. اربعون فداناً من الارض الزراعية مع قطيع غنم وخيول وخنازير وبقر، وكان في المخازن من الذرة ما يكفي لثلاث سنوات مقبلة! وآلاتهم الزراعية! كان عندهم حصادات! وكان كولتشاك يسترضيهم محاولاً ان يستميلهم اليه، وهكذا فعل المفوضون ايضاً فحاولوا استمالتهم الى جيش اخوان الغابة. لقد عادوا من الحرب يحملون صليب القديس جاورجيوس. وكان الجميع يلاحقونهم، طالبين استخدامهم كمدربين. الرتب العسكرية لم تكن تقدم او تؤخر، فاذا كنت تتقن عملك، فانت مطلوب دائماً. ويمكنك لذلك ان تقف على قدميك.

اما الان، فقد حان لها ان ترجع الى البيت، اذ لم يكن من التهذيب في شيء ان تهيم امرأة في الشوارع وفي مثل هذه الساعة المتأخرة. ما

كان الامر بمثل هذه الاهمية لو انها دخلت بستان بيتها. ولكنها كانت موحلة جداً؛ كانت كالمستنقع. وعلى كل حال، فهي لم تشعر الآن بانها كانت احسن حالاً.

وهكذا، عادت غالوزينا الى البيت بعد ان ازعجتها تأملاتها وفقدت تتابع افكارها. ولكنها قبل ان تدخل وقفت لحظة مقابل قنطرة الباب تسترجع بعض الاشياء في ذهنها.

فكرت في اولئك الذين كانوا يسيطرون على الامور في خوداتسكوي الآن؛ كانت تعرف أي نوع من الناس هم؛ كانوا المبعدين السياسيين سابقاً عن العواصم، تيفرزين، انتيبوف، الفوضوي فدوفيتشنكو الملقب "بالعلم الاسود"، وصانع الاقفال المحلي غورشني الملقب "بالكلب المسعور". كانوا خداعين ويعرفون ماذا يريدون؛ لقد اثاروا كثيراً من الاضطراب في ايامهم وكانوا الآن يتآمرون، ولا ريب، مرة اخرى. فلم يكن بامكانهم ان يعيشوا الا اذا قاموا بخديعة. لقد قضوا حياتهم مع الآلات فغدوا باردين مثلها، لا رحمة عندهم ولا شفقة. ولقد اخذوا الآن يطوفون بكنزات تحت ستراتهم، ويدخنون بمماسك للسكاير من عظم، ويشربون الماء المغلي خوفاً من ان يصابوا بمرض.كان فلاس المسكين يضيع وقته، اذ كان بمقدور هؤلاء الرجال أن يقلبوا كل شيء رأساً على عقب، وان يبلغوا دائماً غاياتهم.

إذاك فكرت في نفسها. كانت تعرف انها امرأة جميلة، لها رأيها الخاص، ذكية ومصون. وبوجه عام، لم تكن مخلوقاً سيئا. على ان صفاتها هذه كلها لم تجد من يقدرها حق قدرها في هذا المكان الكافر - ولا في أي مكان آخر، على ما كانت تعرف. وخطرت لها الاغنية الماجنة عن تلك المرأة المستهترة سنتيتيوريخا، وقد كانت مشهورة في كل مناطق الاورال؛ ولكن لا يمكن الا ذكر البيتين الاولين منها:

"سنتيتيوريخا باعت عربتها

واشترت بالالايكا..."

ذلك ان الابيات التالية ابيات فاسقة. كانوا ينشدونها في كريستوفوزدفيشنك، وهم يوجهونها ، حسبما تظن اليها هي.

وتآوهن بمرارة ودخلت البيت.

٥

ذهبت تواً الى غرفة نومها دون ان تتوقف في البهو لتنتزع معطفها. كانت الغرفة تطل على الحديقة. والآن، في الليل، كانت الخيالات المتجمعة في هذه الجهة من النافذة وخارجها تكرر نفسها تقريباً. فقد كان شكل الستائر المسترخية المعلقة يشبه شكل الاشجار العارية المظلمة في الحديقة، ذات الخطوط الغامضة. وكان الظلام الناعم في الحديقة، حيث كاد الشتاء ينقضي، قد استحر بالحرارة القرمزية الداكنة التي أرسلها الربيع المقبل وقد اخذ ينبثق من اعماق الارض. وكان هنالك تفاعل متشابه بين عاملين داخل الغرفة ذات الستائر المعفرة بالغبار، حيث كان الظلام الخانق يخفّ بتأثير الالوان البنفسجية الحارة الغامقة، التي كانت تُضاء للعيد الكبير المقبل.

أيقونة العذراء، وقد حررت يديها الداكنتين الضيقتين، من الغطاء الفضي، رفعتهما الى فوق، فبدت كأنها تمسك بكل منهما الحرف الاول والاخير من اسمها اليوناني: والدة الاله، ومصباح الايقونة الاحمر اللون، المسود كالمحبرة في حامله الذهبي، ينثر نوره المشع الذي بعثره الزجاج على سجادة غرفة النوم.

ونزعت غالوزينا معطفها وشالها وقامت بحركة مشوشة فشعرت بألمها السابق، وخزة في جانبها تحت عظم الكتف. وارسلت صرخة مذعورة وتمتمت: "يا حارسة المعذبين القوية، يا والدة الاله، عون المصاب،

وملجأ العالم..." وفي منتصف صلاتها اجهشت بالبكاء. وعندما اختفى الالم، ابتدأت تفك ثوبها ولكن الدبابيس الخلفية انزلقت من بين اصابعها وضاعت بين الاغراض. ولاقت صعوبة في ايجادها.

وافاقت مرافقتها كسيوشا وجاءت الى الغرفة.

"لماذا تبقين في الظلام يا امي؟ هل اجلب مصباحاً؟"

"كلا، النور كاف."

"دعيني احلّ ثوبكِ يا امي. لا تتعبي نفسك."

"خدرت أصابعي، أكاد ان ابكي. هذا الخياط لم يفكر بان يخيط الدبابيس بحيث يمكن إمساكها. خطر لي ان انزعها كلها وارمي بها في وجهه البشع."

"كم كان انشادهم جميلاً في الديرا يمكنك في هذا السكون ان تستمعيَ اليهم من البيت."

"الانشاد جميل، ولكني اشعر بوعكة يا بنيتي. اصبت بهذه الوخزة مرة ثانية - هنا وهنا، في كل مكان... انها موجعة جداً ولا ادري ما يجب ان افعل."

"المداوي ستيدوبسكي، ساعدك في المرة الماضية."

"انه يقول لك دائماً ان تقومي بشيء مستحيل، انه مشعوذ، هذا المداوي. هذا شيء، والشيء الآخر انه سافر، سافر، اقول لك، غادر المدينة. ثم انه ليس الوحيد الذي فعل ذلك. كلهم هربوا قبيل العطلة، كما لو كانوا ينتظرون هزة ارضية او ما الى ذلك."

"حسناً، وماذا بشأن الطبيب الهنغاري، اسير الحرب؟ علاجه أفادك."

"هذا لا فائدة منه ايضاً. قلت لك، لم يبق حي هنا، كيريني لاجوس موجود مع الهنغاريين الآخرين وراء الحدود. ساقوه مع الجيش الاحمر."

"اظنك، يا امي تتصورين الحالة اسوأ مما هي. قلب عصبي. في

حالة كحالتك يمكن للايهام ان يفعل العجائب، هذا ما يفعله الفلاحون ايضاً. هل تذكرين زوجة الجندي التي ازالت ألمك؟ ما كان اسمها؟"

"حقاً! اتحسبين انني جاهلة مجنونة! لن استغرب اذا كنت تنشدين اغنية سنتيتيوريخا خلف ظهري."

"امي، كيف يمكنك ان تقولي هكذا! انها خطيئة. يجب ان تخجلي من نفسك. كان من الافضل لو انك ساعدتني لاتذكر اسم تلك المرأة. انه على رأس لساني. ولن أهدأ حتى اتذكره."

"كانت لها اسماء اكثر عدداً من قميص المرأة. لا ادري بأي واحد منها تفكرين. يدعونها كوباريخا، ومدفديخا، وزليداريخا، ولا ادري كم من الاسماء ايضاً. انها ليست هنا، لقد ذهبت، اختفت. لقد وضعوها في سجن كيشمسك لانها كانت تمارس الاجهاض وتصنع حبوباً ومساحيق من نوع معين. ولكن قبل ان يرهقها السجن فرت وهربت الى مكان ما في الشرق الاقصى. قلت لك، كلهم هربوا ـ فلاس وتيريوشكا وخالتك بوليا ـ الخالة بوليا ذات القلب المحب. وفيما عدانا نحن، انا وانت، على جنوننا، لم تبق امرأة شريفة في المدينة. انا لا امزح. ولا أي معونة طبية من أي نوع كان. اذا حدث شيء، لن تتمكني من احضار طبيب. يقولون ان هنالك واحداً في يورياتين، استاذ مشهور من موسكو، وابن احد تجار سيبيريا الذي انتحر. ولكن حين خطر لي ان استدعيه قطع الحمر الطريق في اثني عشر مكاناً... والان اذهبي الى النوم، وسأحاول ان انام قليلاً انا ايضاً. وقبل ان انسى، هذا الطالب بلاشاين، قلب لك رأسك. ما الفائدة من الافكار؟ أصبحت حمراء مثل الشمندر. انه يعرق طول الليل وهو يظهّر بعض الصور التي اعطيتها له، مسكين. انهم لا ينامون في ذلك البيت، كما انهم لا يدعون احداً ينام، كلبهم توميك ينبح ويمكنك سماعه في كل المدينة، وغرابنا المنحوس ينعق من شجرة التفاح. يبدو انني سأمضي ليلة اخرى دون نوم... والان لماذا انت مضطربة هكذا؟ لا

تكوني حساسة. وهل وجد التلاميذ الا لتقع الفتيات في حبهم!"

٦

"لماذا يهر الكلب هكذا؟ اذهب وانظر في امره، لعله يرسل كل هذا الصوت من أجل لا شيء. ليدوشكا، انتظر دقيقة، اهدأ، امسك! علينا ان نكتشف حقيقة الامر وإلا فاجأنا البوليس. اوستين، إبقَ هنا؟ وانت ايضاً يا سيفوبلي. سيتدبرون الامر بدونكما."

ولم يسمع ليدوشكا، ممثل اللجنة المركزية، قائد الانصار وهو يأمره بالتوقف. فاكمل خطابه الحماسي المتعب:

"ان النظام العسكري البورجوازي في سيبريا يأمل بسياسة النهب والمصادرة والارهاب والتقتيل والتعذيب التي يتبعها، ان يفتح عيون البسطاء. انه ليس معادياً فقط للطبقة العاملة، بل لكل الفلاحين الكادحين ايضاً. ان الفلاحين الكادحين في كل سيبريا والاورال يجب ان يفهموا انه فقط بالتحالف مع بروليتاريا المدن والجنود، انه فقط بالتحالف مع فلاحي الكرغيز والبوريات الفقراء..."

واخيراً انتبه لاشارات التوقف، فتوقف ومسح بمنديله وجهه المندى بالعرق، واغمض عينيه المتورمتين.

وهمس اولئك الذين يقفون قربه: "استرح قليلاً. اشرب جرعة ماء."

واطمأن قائد الانصار القلق.

"لماذا كل هذه الضجة؟ كل شيء منظم. مصباح الاشارة في النافذة، والخفر اذا جاز لي استعمال تعبير شعري، قد سمرت عيونهم على المسافات. وانا لا ارى مانعاً من متابعة مناقشة التقرير. اكمل ايها الرفيق ليدوشكا."

كان الحطب المحفوظ في السقيفة الواسعة الكائنة في فناء بيت

المصور قد رفع جانباً، والاجتماع غير المشروع يعقد في المسافة التي نظفت من الحطب والمحجوبة عن الغرفة المظلمة الصغيرة الكائنة في المدخل، بجدار من الحطب يرتفع حتى السقف. وفي حالات الخطر كان هناك مخرج سري للهرب يصل بممر تحت الارض ينتهي في درب منعزل خلف الدير.

كان الخطيب، وهو ذو مزاج صفراوي ولحية تمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى، يلبس، قبعة قطنية سوداء على رأسه الاصلع. وكان يشكو من تعرُّق عصبي غزير، ولا ينفك يشعل عقب سيكارته في تيار الهواء الحار فوق مدفأة البترول التي كانت تختنق من حين لآخر. وكان ينحني كثيراً فوق اوراقه المبعثرة وهو ينظر اليها نظرة عصبية بعينيه الحسيرتين كما لو كان يستجوبها، واكمل بصوته المنهك الفارغ:

"عن طريق مجالس السوفيات فقط يمكن لهذا التحالف بين فقراء المدن والريف ان يكتمل. وسواء أراد الفلاح في سيبريا او لم يرد، فانه سيتابع الآن الغاية التي ابتدأ عمال سيبريا يناضلون من اجلها منذ زمن طويل. هدفهم المشترك هو ان يطيحوا باوتوقراطية القوزاك والاميرالية البغيضة، واقامة سلطة مجالس سوفيات الفلاحين والجنود عن طريق الثورة المسلحة. وسيكون الثائرون في حربهم مع ضباط وجنود القوزاك المأمورين للبورجوازية والمسلحين حتى اسنانهم، مجهزين تماماً للحرب، دفاعاً عن انفسهم. وسيكون الصراع قاسياً وطويلاً."

وتوقف مرة ثانية ومسح وجهه واغلق عينيه. ووقف احدهم خلافاً للعرف المتبع ورفع يده معبراً عن رغبته في إبداء الرأي.

وجلس قائد الانصار، او بالأصح قائد مجموعة كيشيمسك من وحدات الانصار عبر الاورال، جلسة لا مبالاة وتحدٍ تحت انف الخطيب نفسه، وبقي يقاطعه بقسوة وعدم احترام. وكان من الصعب التصديق انه كان باستطاعة مثل هذا الجندي الشاب ان يكون مسؤولاً عن كل هذه

الجيوش وان رجاله يطيعونه وينظرون اليه باحترام. لقد جلس ولفّ قدميه ويديه باطراف معطف الخيالة الذي يلبسه، والقى قبعته الى الخلف على الكرسي فظهرت سترته الرسمية وعلى كتفيها لطخ سوداء تدل على الامكنة التي نزعت منها الشارات.

وكان، على كل من جانبيه، حارس شاب، صامت، يلبس جلد خروف اغبر قليلاً وعلى اطرافه صوف حمل مجعد. ولئن كانت وجوههم الجميلة الصخرية تدل على شيء، فعلى اخلاص اعمى لقائدهم واستعدادهم لبذل كل شيء من اجله. لم يشتركا في المناقشة ولم يتحركا لاي رأي اثير فيها، بل بقيا صامتين لا يتكلمان ولا يبتسمان.

وكان في الغرفة حوالي اربعة وعشرين شخصاً آخرين، بعضهم كان واقفاً والبعض الآخر جالساً على الارض. وكانوا جميعاً يتكئون على جدران قطع الحطب المستديرة وقد امتدت ارجلهم امامهم او انطوت ركبهم الى الاعلى تحت ذقونهم.

وجلس ثلاثة او اربعة من ضيوف الشرف على كرسي. كانوا من العمال القدماء الذين اشتركوا في ثورة عام ١٩٠٥، بينهم تيفرزين، وقد بدا كئيباً متغيراً منذ ايام موسكو، وصديقه انتيبوف الأب، وقد كان يوافق على كل كلمة قالها. وإذ كانا يحسبان بين الآلهة الذين اغدقت الثورة عند اقدامهم عطاياها واحرقت بخورها، فقد قبعا صامتين كالحين كالاصنام. لقد اصبحا من الغرور بحيث لم يعد بامكانهما ان يشعرا بالاحاسيس الانسانية العادية.

وكانت هناك وجوه بارزة اخرى في السقيفة، كوجه قطب الفوضوية الروسية "العلم الاسود"، فدوفيتشنكو، وقد كان لا يهدأ لحظة واحدة، بل كان يجلس على الأرض، ثم ينهض ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً، او يقف في وسط السقيفة. كان رجلاً عملاقاً بديناً، ذا رأس كبير، وفم واسع، وشعر كلبوة الاسد. وكان ضابطاً في الحرب ضد اليابان ان لم يكن في

الحرب ضد تركيا. وكان شارد الذهن، مأخوذاً دوماً بتخيلاته وأحلامه.

ولسبب طيبة عنصره وضخامة حجمه اللذين كانا يمنعانه من ملاحظة أي شيء اصغر منه، فانه لم يكن شديد الانتباه لما كان يجري حوله فأساء فهم كل شيء، وأخذ آراء معارضيه على انها آراؤه ووافق على كل ما قالوه.

وبجانبه على الارض جلس صديقه الصياد سفيريد. ومع انه لم يكن يفلح الارض، الا ان طبيعته الارضية كانت تبدو من خلال ياقة قميصه الداكنة المفتوحة، وقد كان يجمعها في يده مع الصليب الذي لبسه حول عنقه وراح يشده ويحك صدره به. لقد كان نصف "بوريات"، ذا قلب دافئ، وآمياً. وكان شعره مجعداً قليلا، وشارباه خفيفين، وذقنه تكاد تخلو من الشعر. وكانت ملامحه المنغولية تجعل وجهه يبدو اكبر سناً مما كان عليه، رغم الابتسامة الجذابة التي لم تكن تفارق شفتيه.

وراح الخطيب الذي كان يطوف سيبريا بمهمة عسكرية من قبل اللجنة المركزية، يستعرض في ذهنه النفقات الباهظة التي توجب عليه ان يغطيها. ولم يكن يهتم بمعظم الذين خاطبهم. ولكنه كثوروي قديم وكأحد ابطال الشعب منذ طفولته فقد كان ينظر بإجلالٍ الى القائد الشاب الذي جلس قبالته. فهو لم يغفر له فقط سوء أدبه وسلوكه، وقد كان يعتبر ذلك طبعاً ثورياً اصيلاً، بل انه سُرَّ لفظاظته كما تُسرّ المرأة الشاذة بتصرفات عشيقها القاسية.

وكان ابن ميكوليتسين، ليبريوس، قائداً للانصار. اما الخطيب فكان عضواً سابقاً في الحركة العمالية التعاونية، وكان يدعى كوستويد امورسكي. وكان ثورياً اشتراكياً ايضاً. وقد اعاد النظر في آرائه أخيراً، واعترف باخطائه السابقة فسردها في تقارير عديدة مسهبة، ولم يكتف الحزب الشيوعي بقبوله، بل سرعان ما اسند اليه المهمة الخطيرة الحاضرة.

لقد تم اسناد هذه المهمة اليه ـ رغم انه كان كل شيء الا رجلا

عسكرياً ـ اولاً كتقدير لخدمته الثوروية طول سنوات وللعذاب الذي عاناه في السجون القيصرية، وثانياً للافتراض انه كان، بوصفه عضواً سابقاً في الحركة التعاونية، أعرف الناس بطبائع جماهير الفلاحين في مناطق سيبريا الغربية الثائرة. وهكذا اعتبرت معرفته هذه، من حيث اغراض مهمته، اخطر شأناً من الخبرة العسكرية.

وقد احدث تغير معتقداته السياسية تغييراً في هيئته وسلوكه حتى لم يعد يُعرف. فقلما استطاع احد ان يتذكر صلعته او لحيته في الايام الغابرة. ولعل ذلك لم يكن الا من قبيل التنكر. فقد أمره الحزب امراً صارماً بألاّ يكشف عن هويته السابقة. وكان يُعرف باسميه المستعارين: بيرندي والرفيق ليدوشكا.

وحدثت فترة من الضجيج، حين اعلن فدوفيتشنكو قبل الاوان بأنه يوافق على التعليمات التي قرئتْ. وعندما عاد الهدوء تابع كوستويد قائلاً:

"لكي نتمكن من مرافقة حركة جماهير الفلاحين النامية، فانه من الضروري جداً ان نقيم اتصالاً فورياً مع كل وحدات الانصار العاملة في منطقة لجنة الحزب الاقليمية."

ثم تكلم عن تدبير اماكن سرية للاجتماعات، وكلمات السر، والشيفرة ووسائل الاتصال، واسهب في شرح التفاصيل:

"يجب إعلام الوحدات عن اماكن مستودعات السلاح والاغذية والتجهيزات العائدة للبيض، وعن الاماكن التي يحتفظون فيها بمبالغ ضخمة من المال، وكذلك عن وسائل حمايتها.

"ومن الجوهري ان نبحث بالتفصيل في كل المسائل المتعلقة بتنظيم وحدات الانصار، وقياداتهم، والانضباط البروليتاري، والعمل التآمري، والاحتكاك بالعالم الخارجي، والسلوك تجاه السكان المحليين، والمحاكم العسكرية الثورية، والتخريب في ارض العدو ـ مثلاً هدم الجسور،

وسكك الحديد، والمراكب البخارية، والمحطات، والمصانع بكل تجهيزاتها الفنية، ومراكز التلغراف، والمناجم وطرق التموين."

ولم يعد بامكان ليبيريوس ان يحتمل اكثر من ذلك. فكل ما قيل بدا له خارجاً عن الموضوع ومن كلام الهواة. فقال:

"محاضرة ممتازة، سوف احفظها غيباً. اظن ان علينا ان نقبل بها دون أي كلمة اعتراض، والا فقدنا عون الجيش الاحمر؟"

"بالطبع، يتوجب عليك."

"وماذا تفيدني كل محاضراتك الصبيانية، يا عزيزي ليدوشكا، حين تكون قواتي ـ لعن الشيطان ثلاثة افواج بما في ذلك المدفعية والخيالة ـ تحارب شهوراً وتدحر العدو؟"

وفكر كوستويد في نفسه: "يا للعجب! يا للقوة!"

وقطع تيفرزين النقاش، وقد استهجن لهجة ليبريوس الحادة فقال:

"اعذرني ايها الرفيق الخطيب، هناك شيء لا افهمه. قد اكون سجلت احدى النقاط في التعليمات بشكل غير صحيح. هل اقرؤها، اود ان اكون متأكداً: "من المرغوب فيه ان ينضم الى اللجنة المحاربون القدماء الذين كانوا في الجبهة وانضموا الى منظمات الجنود في وقت الثورة. ومن المرغوب فيه ان تشمل عضوية اللجنة واحداً او اثنين من اعضاء ن.ك.و. (البوليس السياسي) واحد الخبراء العسكريين." هل سجلتها بشكل صحيح ايها الرفيق الخطيب؟"

"بالضبط، كلمةً كلمةً."

"اسمحوا لي إذاً ان اقول هذا. اني اجد النقطة المختصة بالخبراء العسكريين مقلقة. نحن العمال الذين اشتركنا في ثورة ١٩٠٥ لم نتعود ان نثق بالرجال العسكريين. ان بينهم دائماً عناصر مضادة للثورة."

وتعالت الصيحات: "كفى! القرار! لنتخذ قراراً! حان الوقت لنذهب الى بيوتنا، تأخرنا."

وقال فدوفيتشنكو بصوت خافت عميق: "اني اوافق الاكثرية، ولأقلْ، بصيغة شعرية، ان المؤسسات المدنية يجب ان تقوم على الديموقراطية، يجب ان تنمو من الادنى، كالبذور التي زرعت وارسلت جذورها في الارض. لا يمكنكم زرعها بضربت مطرقة من الاعلى كأوتاد السياج. كان هذا بالضبط خطأ دكتاتورية اليعاقبة والسبب الذي مكّن الترميدوريين من سحق الجمعية العامة."

ودعمه سفيريد، صديقه ورفيق تشرده، قائلاً: "الامر واضح مثل نور النهار؛ وفي وسع الطفل ان يراه. كان يجب ان نفكر بهذا قبل اليوم، اما الآن فقد تأخرنا. مهمتنا الآن ان نحارب بكل ما نملك وان نصمد. كيف يمكننا ان نتراجع بعد ان ابتدأنا؟ لقد انضجنا طبخنا وعلينا الآن ان نأكله. لقد قفزنا الى الماء ولا يمكننا ان نتذمر."

"القرار! القرار!" راح الجميع يرددون من كل جانب. وتكلموا فترة اخرى، ولكن ما قالوه كان اقل معنى. واخيراً، عند الفجر، انفضّ الاجتماع. وذهبوا واحداً واحداً الى بيوتهم وقد اتخذوا الاحتياطات المعتادة.

٧

كان على الطريق العام مكان جميل، يقع حيث كان نهر باشنكا الصغير الهادىء يفصل بين قريتي كوتيني بوساد ومالي ارمولاي، فتمتد الواحدة على تلة وعرة، وتنتشر الثانية في الوادي تحتها. وكانوا في كوتيني يحيون حفلة وداع للمجندين الجدد، وفي ارمولاي عاودت لجنة طبية برئاسة الكولونيل ستريسي، بعد عطلة الفصح، فحصها للمطلوبين من ابناء المنطقة. ولهذا كان القوزاك والميليشيا المسلحة يعسكرون في القرية.

كـان ذلـك في اليـوم الثـالث من ايام فـصح جـاء على غـيـر عـادته متـأخراً، ومطلع ربيع جاء ايضاً مـبكراً. كان الطقس حاراً، دون نسـمة هواء، والطاولات قد مدَّت مـلأى بالطعـام والشراب للمجندين فـي احد شوارع كوتيني، على مسافة قصيرة من الطريق العام. وكانت مصفوفة جنباً الى جنب، على خط متـعـرج قليـلاً، وهي مغطاة بأغطيـة بيـضـاء تتدلى على الارض، فبدت في الشارع كأنها انبوب طويل.

وكـان القـرويون قـد أتوا بكل مـا عندهم للحـفلة. وكـانت المآكل الرئيـسية من بقـايا طعـام الفصح: قطعتـان من لحم الخنزير المدخن، عدد من فطائر الكولتيـش، وكعكتـان او ثلاث من الباشكا. وانتشرت فوق الطاولات صحاف مخللات الفطر والخيار والملفوف، وشرائح سميكة من الخبز البيتي، وصحون مملوءة ببيض العيد وقد لون معظمها بلون زهري او ازرق فاتح.

وكـانت قشـور البيض المكسرة، بألوانها الزهرية والزرقـاء الفاتحة وباطنهـا الابيض مبعثـرة حول الطاولات فـوق العـشب الطالع حديثـاً. وكانت قـمصان الشـبان وأثواب الشابات زهرية وزرقـاء فـاتحـة. وكـانت الغيوم الزهرية اللون تسبح في الفضاء الازرق بطيئة جذابة، وبدا الفضاء كأنما كان يسبح معها.

وهبط فلاس باخوموفيـتش غالوزين بقـميصه الحريري الزهري اللون، وهو يصـوب اصـابع قدمـيـه يمنة ويسـرة، درجات بيت بافنوتكين الكائن على المنحـدر فـوق الطريـق العـام وفـوق الطـاولات. ولم يـكد يصـل الى الطاولات، حتى بدأ خطابه قائلاً.

"أما وانه ليس هنالك شـمبانيـا، فـها انا اشرب نخبكم يا اولادي، بالفودكا المصنوعة في بيوتنا. اتمنى لكم حيـاة طويلة واعواماً سعيدة ايها الشباب الذين سيغادروننا اليوم. كنت اود ان اشرب نخبكم مرات. ايها السادة المجندون! اعيروني انتباهكم! الخيـالة التي تنتشر امامكم هي

سبيل الدفاع عن وطننا الام ضد الغزاة الذين خضبوا حقوله بدماء اخوانهم. لقد تمنى الشعب ان يتمتع بانتصارات الثورة بسلام، ولكن حزب البلشفيك، باغراء الاموال الاجنبية، شتت بقوة الحراب الغاشمة، المجلس التأسيسي الذي كان اغلى اماني الشعب، وهو الآن يهرق دم الابرياء انهاراً. ايها الشباب الذين يسيرون اليوم، اليكم أوكل شرف السلاح الروسي المكلوم! لقد لحقنا العار وها نحن مدينون لحلفائنا الاشراف. اذ ليس الحمر وحدهم هم الذين يرفعون رؤوسهم بل الالمان والنمساويون ايضاً. الله معنا، ايها الشباب..." وكان لايزال يتكلم عندما غاب صوته في ضجيج الهتافات. ورفع كأس الفودكا الخفيفة السيئة التقطير الى شفتيه ورشف منها. ولم تلذ له. كان معتاداً على الخمور الممتازة. ولكن التفكير بانه كان يقوم بتضحية من اجل الخير العام ملأته بالرضا.

"انه خطيب ممتاز، شيخك هذا! النائب ميليوكوف لا يوازيه ابداً"، قال غوشكا ريابيخ لصديقه ترنتي غالوزين الجالس بجانبه، بصوت مترنح وسط الاصوات العالية الثملة، "انه شخص ممتاز، ولا ريب؛ ولكنني اظن انه لا يبذل هذا الجهد لقاء لا شيء. لعله يحصل لك بخطبه هذه على رخصة تستثنيك من الخدمة العسكرية."

"اخجل يا غوشكا! كيف تفكر هكذا! يحصل لي حقاً على رخصة! ليته يحاول! وصلني الاخطار يوم وصلت انت؛ وهكذا فسنلتحق معاً بالوحدة العسكرية ذاتها. لقد طردني من المدرسة اولئك البناديق. امي تأكل قلبها. اظن انني لن احصل على رتبة الآن... اما ابي فاظن انه يعرف كيف يلقي خطاباً. انه يصيب في كل مرة. والشيء الغريب انها موهبة فيه. فهو لم يتعلم في مدرسة."

"هل سمعت بخبر سانكا بافنوتكين؟"

"نعم. هل داؤه خطير حقاً؟"

"داء عضال. سيمتد الى النخاع الشوكي. الخطأ خطؤه.. انذرناه بألاّ يذهب. عليك ان تنتبه جيداً للذين تختلط بهم."

"ماذا سيحدث له الآن؟"

"انه امر مفجع. اراد ان ينتحر. لقد استدعي للخدمة، وهو يجتاز الآن الفحص الطبي في ارمولاي. اظن انهم سيجندونه. قال انه قد ينضم الى الانصار "للانتقام من امراض المجتمع" على حد قوله."

"غوشكا، انك تتكلم عن الامراض السارية، ولكنك اذا لم تذهب اليهم، فقد تصاب بمرض آخر."

"فهمت ما تعنيه. اظنك خبرت الامر شخصياً. هذا ليس مرضا بل هو عيب سري."

"غوشكا، سأحطم انفك على قول كهذا. أهكذا تتحدث الى صديقك، ايها الكذاب اللعين!"

"طوّل بالك، انني أمزح. ما اردت ان اقوله لك هو هذا ـ ذهبت الى باشنسك في الفصح، وهناك رأيت محاضراً زائراً، فوضوياً، ممتعاً جداً. تكلم عن تحرير الشخصية، فأعجبت بكلامه. كان كلاماً حسناً. سألتحق بالفوضويين، اكون ملعوناً اذا لم افعل. قال ان فينا قوة داخلية. قال ان الجنس والطبع هما ظاهرتان للكهربائية الحيوانية. كيف ترى هذا؟ انه لعبقري... لقد ضاق صدري. الناس حولنا يمزقون حناجرهم من شدة الصراخ. انه يصمّ الآذان. لا يمكنني ان احتمل اكثر من ذلك، توريوشكا، اخرس، كفى، اقول لك."

"ما كنت تقوله عن تلك القوة الكهربائية ـ سمعت به. خطر لي ان اطلب مجموعة كهربائية من بطرسبورج ـ الدفع عند الاستلام ـ رأيت اعلاناً تحتها، "لزيادة حيويتك" كان يقول. ثم حدثت ثورة ثانية فاصبح لدينا أشياء اخرى للتفكير فيها."

ولم يكمل ترنتي جملته. فقد خنق ضجيج الاصوات الثملة هدير

انفجار عـال غير بعيد. وتوقف الصخب لحظة على الطاولة، ثم انفجر أعلى واكثر هياجاً. وقفز بعضهم عن مقاعدهم، وظل بعض الذين كانوا اقل اضطراباً واقفين. وحاول آخرون ان يبتعدوا، ولكنهم اندسوا تحت الطاولة وسرعان ما بدؤوا يسخرون، وتعالى صراخ النساء. وحصل هرج عام.

ووقف فلاس باخوموفيتش يفتش حوله عن المذنب. وفكر للوهلة الأولى ان الهدير قد جاء من مكان ما من القرية او لعله من مكان قريب من الطاولات. وانتبجت أوردة عنقه، واحتقن وجهه وزأر قائلاً: "من هو يهسوذا في صفوفنا؟ من ارتكب هذه الاهانة؟ من يلقي قنابل يدوية حولنا؟ سأسحقه بيدي انا، هذا الحشرة، حتى ولو كان ابني. ايها المواطنون، اننا لن نسمح لأحد بان يمزح معنا مثل هذا المزاح. يجب ان نطوق القرية. سنجد المحرض ولن ندعه يفلت."

وأصغى الناس اليه في البدء، ثم لم يلبث انتباههم ان تحول الى عمود من الدخان الاسود، وقد ارتفع ببطء في الفضاء من مكاتب مركز القضاء في مالي ارمولاي، فاندفعوا كلهم الى حافة المنحدر ليروا ماذا حدث في الوادي.

كان البناء يحترق. وبعض المجندين ـ احدهم حافي القدمين وعارٍ إلا من سراويله ـ يركضون خارجين من البناء مع الكولونيل ستريسي وضباط التجنيد الآخرين. وراح خيالة القوزاك ورجال الميليشيا، وقد انحنوا فوق سروجهم وهم يهزون حرابهم. وكانت خيولهم تنساب تحتهم كالافاعي، وهم يخببون غادين رائحين في القرية، يفتشون عن شخص ما. وكان بعض الناس يركضون صاعدين الطريق نحو كوتيني، يتبعهم قرع الاجراس المتواصل للانذار.

وتتابعت الحوادث بسرعة مرعبة. فعند الغسق توجه الكولونيل ستريسي يرافقه القوزاك الى كوتيني، وقد اقتنع على ما يظهر بان غريمه

انتقل من ارمولاي، فأحاط القرية بالحرس وراح يفتشها بيتاً بيتاً وزريبة زريبة.

كان معظم المجندين قد انطرحوا حتى الآن من السكر. لقد رافقوا الحفلة وكانوا الآن يشخرون منطرحين على الارض او ملقين برؤوسهم على الطاولات. وما أن انتشر خبر دخول الميليشيا الى القرية حتى كان الظلام قد خيم.

وولى عدد من الفتيان هاربين، فشقوا طريقهم عبر الحدائق الخلفية الى اقرب زريبة وراحوا، وهم يتدافعون ويترافسون، يزحفون اليها من خلال ثغرة ضيقة في اسفل الجدار. ولم يتمكنوا في العتمة والهياج من ان يميزوا في أي زريبة قد تجمعوا، ولكن سرعان ما اتضح لهم، من رائحة السمك والبترول، انها كانت مخزناً لحانوت القرية.

لم يكن هؤلاء الفتيان مذنبين في شيء، وكان من الجنون ان يختبئوا. غير ان معظمهم قد هربوا عفو اللحظة، اذ كانوا سكارى واضاعوا عقولهم. وكان لبعضهم، على ما يظهر، صداقات تخيلوا الآن انها كانت مشبوهة، وانها ربما قادتهم الى الخراب اذا ما انفضح امرها. صحيح ان اصدقاءهم لم يكونوا شيئاً أسوأ من متحمسين، ولكن من يدري؟ لقد عرفوا انه كان لكل شيء ناحية سياسية في تلك الايام. وكان الحماس يعتبر في المنطقة السوفياتية دلالة على رجعية سوداء، أما في المنطقة البيضاء فقد كان يعتبر بلشفة.

واكتشفوا انهم لم يكونوا وحيدين في الزريبة، فقد كان البعض قد سبقهم اليها. فالمسافة بين الارض وسطح الزريبة كانت ملأى بأناس من القريتين. وكان القادمون من كوتيني سكارى حتى الموت، بعضهم يشخرون ويصرفون باسنانهم ويهمهمون وهم نائمون والبعض الآخر مرضى. وكان الظلام دامساً والهواء مفقوداً والرائحة كريهة. ولكي يخفوا مخبأهم، قام الذين جاؤوا متأخرين بسد الثغرة التي دخلوا منها

بالحجارة والتراب. وبعد فترة، توقف الشخير وصريف الاسنان. وخيم سكون تام. وراح السكارى يغطون في نوم هادىء. بيد ان همساً استمر في احدى الزوايا حيث كان ترنتي وغوشكا قد تكوما من الخوف مع كوسكا نيخفالنيخ، وقد كان شاباً مشاكساً كبير اليدين، من ارمولاي.

وكان كوسكا يقول: "لا ترفع صوتك، سوف تسلمنا جميعاً، ايها الشيطان الا تسمع - جماعة ستريسي يتجولون، رائحين غادين. لقد وصلوا الى آخر الشارع وها هم الان يرجعون. ها هم. لا تتنفس والا خنقتك... من حسن حظك انهم ذهبوا... ماذا دهاك حتى أتيت الى هنا؟ ما عندك لتختبئ، ايها المخبول؟ من على هذه الارض يستطيع ان يمد اصبعه اليك؟"

"سمعت غوشكا يصرخ "اختبئ" فاندفعت الى هنا."

"لغوشكا من الاسباب ما يحمله على الاختباء. جميع عائلته في مأزق، جميعهم مشكوك فيهم. لهم اقارب يعملون في محطات سكة الحديد في خوداتسكوي، لهذا... لا تتحرك، اهدأ، ايها المجنون. الناس يملؤون المكان قيئاً، اذا تحركت تلوثنا بالاقذار. الا تشمّ الرائحة الكريهة؟ هل تدري لماذا يركض ستريسي حول القرية؟ انه يفتش عن اناس من خارجها، من باشنسك، هذا ما يفعله."

"كوسكا، كيف حدث كل هذا؟ كيف ابتدأ؟"

"سانكا ابتدأه - سانكا بافنوتكين. كنا جميعاً في مكتب التجنيد، وقد وقفنا بالصف عراة ننتظر الطبيب. وعندما جاء دورسانكا لم يرض بأن يخلع ثيابه. كان مخموراً قليلاً عندما دخل الى المكتب، فطلب منه الكاتب بتهذيب ان يخلع ثيابه، حتى انه خاطبه بصفة الجمع. وشمخ سانكا برأسه قائلاً: "لن اخلع ثيابي ولن اعرض عورتي على احد". كأنما كان مخجولاً. اذاك استدار نحو الكاتب وصفعه على خده. صدقني، ففي طرفة عين كان سانكا قد انحنى فامسك طاولة المكتب بقوائمها

وقلبها رأساً على عقب فاصطدمت بالأرض وتبعثر كل شيء عليها، المحبرة، ولوائح التجنيد، وكل شيء. وعندئذ دخل ستريسي صائحاً: "لن اتساهل مع المتحمسين، لن تكون عندي أي ثورة غير دامية هنا، سأعلمكم كيف تحترمون القانون في مكان رسمي. من هو رئيس الحلقة؟"

"وصاح سانكا: خذوا اغراضكم ايها الرفاق، اننا لها. وذهب الى النافذة ووضع قبضته فيها. وامسكت بثيابي وركضت خلفه وانا البسها اثناء سيري. أما هو فخرج راكضاً في الشارع ثم اختفى كالريح. وسرت خلفه، وتبعنا واحد او اثنان آخران. وركضنا جميعنا بقدر ما سمحت ارجلنا. ثم لحقوا بنا وهم يصرخون. اما اذا سألت لماذا جرى ما جرى ـ فلا احد يستطيع ان يجيبك."

"ولكن ماذا عن القنبلة؟"

"ماذا عنها؟"

"من ألقاها؟ القنبلة، او القنبلة اليدوية او مهما كانت."

"يا الهي أتظن اننا ألقيناها؟"

"من ألقاها إذاً؟"

"أنى لي ان اعرف؟ لعله احدهم. لعله شخص رأى كل هذه الفوضى فقال لنفسه: لماذا لا انسف المكان والاضطراب قائم ـ سيشكون في الآخرين. لعله يكون احد السياسيين، احد اولئك السياسيين من باشنسك، انها مليئة بهم... اهدأ! اصمت! ألا تسمع ـ رجال ستريسي يعودون. هذه نهايتنا. اهدأ، اقول لك."

وسُمعت الاصوات تقترب من آخر الشارع، الجزمات تدق، والمهاميز ترن.

ووصل صوت الكولونيل الآمر وهو يتكلم بلهجة بتروغراد قائلاً: لا تجادل. لا يمكنك ان تضللني، انا متأكد ان اناساً يتكلمون هنا."

واجاب مختار قرية ارمولاي، وقد كان صياد سمك عجوزاً يدعى اوفياشستين:

"لعلك واهم يا صاحب السعادة. ولماذا لا يتكلم الناس في القرية؟ انها ليست كنيسة. لعلهم يتكلمون. ليس البشر من العجماوات، او لعل الشيطان يهزّ احدهم وهو نائم."

"تعال، تعال، كفاك تمثيلاً لدور مخبول القرية! الشيطان حقاً! كلكم كبرتم هنا على احذيتكم، وسيبلغ بكم الدهاء حداً تقنعون به انفسكم باعتناق الشيوعية..."

"ايها الاله الرحيم، كيف تقول هذا يا صاحب السعادة، يا سيدي الكولونيل! الفلاحون في قريتنا جهلة، لا يعرفون ان يقرؤوا كتاب الصلوات، ماذا تراهم ينالون من وراء البلشفية."

"هكذا تتحدثون جميعكم حتى، يقبض عليكم. فتشوا المخزن رأساً على عقب اقلبوا كل شيء، وتأكدوا من انكم فتشتم تحت الطاولات."

"نعم، يا صاحب السعادة."

"اريد بافنوتكين، وليابيخ، ونيخفالينيخ، احياء او امواتاً. لا يهمني اذا انتشلتموهم من اعماق البحر. وطفل غالوزين ايضاً. لا يهمني كم خطاباً وطنياً القى ابوه. يمكنه ان يتكلم عن ذنب الحمار، ولكن لن يخدعنا. من الغرابة أن يندفع تاجر في إلقاء الخطب. انه مدعاة للشك. انه امر غير طبيعي. لدينا معلومات ان آل غالوزين يخفون المجرمين السياسيين ويعقدون اجتماعات غير مشروعة في بيتهم في كريستو فوزدفيشنك. اعطني المعطف. لم اقرر بعد ما سأفعله به، ولكن اذا كان هناك شيء ضده فانني لن اتردد ثانية في شنقه عبرةً للآخرين."

وسار المفتشون بعيداً. وما ان تواروا حتى همس كوسكا في أذن تيريوشكا وقد كاد يموت من الرعب:

"هل سمعت؟"

"نعم"، همس بصوت متغير.

"حسناً، هناك مكان وحيد لي ولك ولسانكا وغوشكا الان: الغابة. انا لا اعني اننا سنبقى هناك الى الابد ـ فقط حتى تهدأ الحال. اذاك سنرى؛ فقد يتاح لنا ان نعود."

الفصل الحادي عشر
اخوان الغابة

١

مرّت سنتان تقريباً منذ أن اسر الانصار يوري اندرييفيتش. لم تكن حدود حريته واضحة تماماً. فمكان أسره لم يكن مسوراً؛ ولم يكن يحرسه او يراقب تحركاته أي حارس. ولم تكن قوات الانصار تنقطع عن التحرك، وفي تحركها لم تكن تنعزل عن السكان الذين تمرّ في ممتلكاتهم وقراهم، بل كانت تختلط معهم، او بالاحرى تذوب فيهم.

كان اسر يوري اندرييفيتش وعدم استقلاله كأنهما وهم من الاوهام. كان يبدو انه حرّ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يُفيد من حريته. والحقيقة أن اسره وعدم إستقلاله هذين، لم يختلفا عن اشكال الاكراه الاخرى في الحياة، فهما لا يقعان تحت النظر او اللمس كبقية هذه الاشكال التي تبدو كأنها غير موجودة أو كأنها خرافة ابدعها الخيال: إنها وهمٌ مخيف، ومع ان يوري اندرييفيتش لم يكن مقيداً او مراقباً، فقد تحتم عليه ان يخضع الى اسره الذي بدا شبيهاً بالخيال.

وانتهت كلٌّ من محاولاته الثلاث للهرب من أسر الانصار، بالقبض عليه. ورغم انه لم يُعاقب، فقد شعر بانه كان يلعب بالنار، فلم يُعد الكرة.

لقد حظي بإعجاب رئيس الانصار ليبيريوس ميكوليتسين الذي سرّ بمرافقته، فأمره ان ينام في خيمته. غير ان هذه الرفقة المفروضة عليه، كانت مملةً.

٢

كان الانصار في اثناء هذه الفترة يتحركون باستمرار نحو الشرق. وكان هذا التحرّك يعتبر في بعض الاحيان تقدماً وجزءاً من حملة عامة تهدف الى طرد الكولتشاك من سيبريا الغربية، وفي بعض الاحيان، عندما كان البيض يهاجمون من الوراء، ويهددون بتطويق الحمر، كان هذا التحرك يتحول الى تقهقر. ولذلك، انقضت فترة طويلة دون ان يفهم يوري اندرييفيتش جدوى هذا التحرك.

كانوا يسيرون بموازاة الطريق العام، وغالباً ما كانوا يتأثرونه، وكان البيض والحمر يتقاسمون القرى على جوانبه؛ فكان من الصعب، لذلك، معرفة القوى التي تخضع لها هذه القرى والمدن، بمجرد النظر اليها.

وعندما كان جيش الفلاحين يمرّ في الاماكن المسكونة، كان كل شيء آخر فيها يصبح عديم الاهمية او القيمة. كانت البيوت على جانبي الطريق تبدو كأنها تنكمش فيظهر الفرسان والخيول والرجال المتزاحمون وهم يشقون طريقهم في الوحل، اكثر علواً من هذه البيوت.

وفي أحد الايام، ذهب يوري، عندما كانوا في مدينة صغيرة تدعى باذينسك، الى احد الصيادلة كي يتسلم بعض الادوية الطبية الانكليزية التي تركتها وحدة من الضباط البيض بقيادة الجنرال كابيل، غنيمةً للانصار.

كان ذلك بعد ظهر نهار كئيب ممطر. لم يكن في ذلك النهار، غير لونين: البياض، حيث تترامى أشعة الشمس، والسواد الذي يغمر، فيما عدا ذلك، كلَّ شيء. كانت هذه الكآبة نفسها تخيم على يوري اندرييفيتش، ولكن لم تكن هنالك اشعة تخفف من سوادها.

لم يكن الطريق الذي خرّبه مرور الجيوش سوى نهر من الوحل؛ نهر لا يمكن خوضه الا في اماكن قليلة، وبصعوبات جمة. في هذه الاثناء

التقى يوري اندريفيتش بيلاكييا تياكونوفا، التي كانت رفيقة سفره في قطار من موسكو، منذ ثلاث سنوات.

تذكرته، هي، اولاً. فقد مرّت فترة قبل ان يتعرف على المرأة التي ظلت تتطلع اليه من الجهة الاخرى للشارع، وكأنها كانت تتطلع من الضفة الاخرى لقناة من الاقنية. كان في ملامحها ما يوحي بأنها مستعدة لان تحييه، اذا تذكرها، أو تصمت اذا لم يتعرف عليها.

وتذكرها اخيراً. والتمعت في ذهنه صورة عائلته، بالاضافة الى صورة مقطورة الشحن المزدحمة، والمسخرين للعمل يحيط بهم الحرس، والمرأة ذات الضفيرة التي تتأرجح على كتفها. وتزاحمت في ذهنه بوضوح تفاصيل الرحلة، وتلألأت في ذاكرته وجوه الذين احبهم ويتلهف لرؤيتهم اليوم، تلهفاً لا أمل فيه.

وأشار لبيلاكيّيا الى انه سيعبر الى الضفة الثانية. ثم اجتاز الطريق بوساطة بعض الحجارة المتراكمة، واقترب منها وسلّم عليها.

اخبرته بأشياء كثيرة حصلت في السنتين الاخيرتين. ذكّرته بفاسيا، ذلك الفتى الجميل الوجه، المعذب الذي سخروه للعمل ظلماً، والذي كان يسافر معهم في مقطورة واحدة. ووصفت له بقاءها مع امه في قريتهم فيريتينيكي. كانت سعيدة بينهم، الا ان اهل القرية اعتبروها غريبة. ثم اتهموها زوراً بأن بينها وبين فاسيا علاقة غرامية. واخيراً اضطرت ان تغادر القرية، تجنباً لنقدهم وتجريحهم الفاضح. وسكنت بعد ذلك مع شقيقتها المتزوجة، اولغا غالوزينا، في بلدة هوليكروس. وبعد مدة اضطرت ان تلتجىء الى باذينسك حين راجت شائعات بأن بيرتولييف قد ظهر في الجوار. واتضح، فيما بعد، ان الاشاعات كاذبة، الا انها بقيت هناك، لأنها وجدت عملاً.

كانت الكارثة، في تلك الاثناء، قد نزلت بأصدقائها. فقد هُوجمت

بلدة فيريتينيكي انتقاماً منها، لانها لم تُسلّم مؤن التغذية. وقيل ان بيت فاسيّا حُرق، وان احد افراد العائلة قد مات. وقيل في بلدة هوليكروس، ان صهر بيلاكيا، فلاس غالوزين، قد سُجن او قُتل، فلم يكن احد يعرف الخبر الأكيد، كما ان ابن اختها قد اختفى.

أما اختها فقد قاست الجوع لمدّة، ولكنها كانت تعمل الآن خادمةً عند عائلةٍ من الفلاحين الذين تمتّ اليهم بصلة النسب.

وصدف ان بيلاكيا كانت تعمل في تنظيف الصحون عند الصيدلي الذي جاء يوري اندرييفيتش ليتسلم الادوية منه. كان جميع الذين عاشوا من الصيدلية، وتياكونوفا في عدادهم، سيلاقون الخراب من جراء القيام بهذا الاجراء. غير انه لم يكن بامكان يوري اندرييفيتش ان يفعل خلاف ذلك. وتمّ استلام الأدوية في حضور تياكونوفا.

وتقدمت عربة يوري اندرييفيتش الى ما وراء المخزن، ثم راحوا يخرجون أكياساً وصناديق وقناني لُفّت بصفصافٍ مجدول.

وكان حصان الصيدليّ، الهزيل، يراقب، كبقية الحاضرين، هذه العملية بحزنٍ، من اصطبله. كانت السماء تأخذ بالصفاء قليلاً، عندما بدأ النهار الممطر يقترب من نهايته، فنفذت اشعة الشمس التي تكتنفها الغيوم وملأت الفسحة بشعاعها البرونزي المائل الى السواد، غامرةً بُرك الزبل السائل، بنورها الكئيب. ولم تكن الريح قادرةً على تحريك هذه البرك، فالزبل السائل ثقيلٌ جداً، الا ان ماء المطر كان يترقرق في الطريق ويلمعُ قرمزيَّ اللون.

كانت الفرق العسكرية تسير على مدى الطريق، مترجلةً او راكبةً، حول البرك العميقة. وكان بين الأدوية جرّة مليئة بالكوكائين، وكان رئيس الأنصار يتعاطاه منذ عهدٍ ليس ببعيد.

٣

ووجد يوري اندرييفيتش نفسه غارقاً في حُمّى العمل، فالتيفوس كان ينتشر في الشتاء، وتنتشر الديزنطاريا في الصيف، كما كان عدد الجرحى قد ازداد، بسبب استئناف العمليات الحربية.

واخذت صفوف الأنصار تتضخم، رغم العوائق والانسحابات المتوالية، بمن التحق بها من المتمردين في الاماكن التي مرّ بها جيش الفلاحين، وبالهاربين من الأعداء. وقد نمت الوحدة خلال الثمانية عشر شهراً التي امضاها يوري اندرييفيتش فيها، فأصبحت عشرة اضعاف ما كانت عليه في اول امرها. لقد صارت، في الحقيقة، تلك القوة التي اعتز بها ليبيريوس في الاجتماع الذي عقد في هوليكروس.

كان يساعد يوري اندرييفيتش بعض الجنود المدربين حديثاً: وكان معه ايضاً مساعدانه، كانا اسيرين سابقين في الحرب: كيريني لاجوس، وهو شيوعي هنغاري كان ضابطاً طبيباً في الجيش النمساوي، وانغيلار، وكانا طبيباً مدرباً بعض التدريب. كان يوري اندرييفيتش يتحدث بالألمانية مع كيريني لاجوس؛ وكان أنغيلار مُلماً بالروسية.

٤

لم تكن تسمح تقاليد الصليب الأحمر الدولي لموظفي القسم الطبي في الجيش ان يشتركوا في العمليات الحربية. ولكن يوري اندرييفيتش اضطرّ ان يخرق هذا التقليد في احدى المناسبات. كان في ساحة المعركة عندما بدأت الاشتباكات، فوجد نفسه يُشارك المحاربين مصيرهم.

كان الخط الامامي، حيث فاجأته نيران العدو، في طرف الغابة. وارتمى على الارض قرب عامل الهاتف التابع لوحدته. كانت الغابة

وراءهم، وكان يمتد أمامهم حقلٌ مكشوف غير محصّن، اخذ البيض يتقدمون فيه.

واقترب البيض كثيراً فتمكن يوري اندرييفيتش ان يميز وجوههم. كانوا فتياناً من الطبقة البورجوازية في العاصمة، ورجالاً محافظين أكبر منهم سناً. وقد تطوعوا حديثاً، وكان معظمهم من الشباب من تلامذة السنة الاولى في الجامعة او الصفوف العليا في المدارس.

لم يعرف يوري أياً منهم، لكن وجوههم بدت مألوفة. وكان بعضهم يذكره بأصدقائه في المدرسة، وفكّر فيما إذا كانوا إخوتهم الصغار. وكان يُخيّل له أنه لمح بعضهم في مسرحٍ ما، او في الشّارع، منذ سنوات. لقد جذبته وجوههم المعبرة، وتراءوا له كأنهم من جماعته الخاصة، وكأنهم من نوعه هو.

كانت استجابتهم للواجب، كما فهموه، تملؤهم بشجاعة مدهشة مثيرة، غير مجدية. كانوا يتقدمون صفوفاً مبعثرة، منتصبي القامة، أكثر زهواً من ضُباط الحرس، ويقتحمون الخطر، ويأبون التوقف في ركضهم او التمدد على الارض، رغم انّ الأرض كانت مليئة بالتعرجات والمرتفعات وكان باستطاعتهم ان يتمترسوا وراءها. لذلك كان رصاص الانصار يحصدهم حصداً.

وكانت ترتفعُ في وسط الحقل الواسع العاري شجرة يابسة، ضربتها الصاعقة، او فحّمتها النار، او تكسرت في اثناء بعض المعارك السابقة. وكان كلّ من المتطوعين الشباب يحدق بها ويكافح رغبته في الالتجاء اليها واتخاذها متراساً يتأكد فيه من هدفه، ثم يتابع سيره بعد ان يتغلب على هذه الرغبة ويطرحها جانباً.

كانت ذخيرة الانصار محدودة، كما أنهم كانوا يخضعون لتعليمات مشددة على الذخيرة، وفي عدم إطلاق النار كيفياً، وإطلاقها فقط من مسافة قريبة.

لم يكن يوري يحمل بندقيته، فتمدّد على العشب يراقب سير المعركة. كانت مشاعره كلها مع هؤلاء الاطفال الابطال الذين يقتحمون الموت. ولقد تمنى لهم النجاح من صميم قلبه. كانوا ينتمون الى عائلات هي، ولا ريب، شبيهة بعائلته، من حيث الروح والثقافة والسلوك الخلقي والقيم.

وخطر له ان يركض نحوهم ويسلم نفسه لهم، فينجو من الاسر بهذه الطريقة؛ الا انه سرعان ما تبين الخطورة في ذلك. فقد يصيبه الجانبان فيما هو يركض رافعاً يديه فوق رأسه. قد يصيبه رصاص البيض في صدره اذ لا يفهمون قصده، وقد يصيبه رصاص الحمر في ظهره عقاباً له على خيانته. لقد خبر هذا النوع من المواقف، فيما مضى. وقلب وجوه النظر في خطة الهرب هذه، ثم وصل الى انها كانت عديمة الجدوى، فتخلى عنها. وهكذا تمدّد على العشب، اعزل، مستسلماً لمشاعره الموزعة بين الجبهتين، مديراً وجهه نحو الفسحة، ليراقب مصير المعركة.

ولم يكن من الممكن ان يستمر في مراقبته المستسلمة، بينما تدور حوله هذه المعركة الدامية؛ فهذا موقف لا يستطيع الانسان ان يتحمله. فلم تعد المسألة، مسألة ولاء للفئة التي اسرته أو دفاع عن حياته؛ لقد صارت مسألة خضوع لمجرى الحوادث، للقوانين التي تتحكم بما يجري امام عينيه. كان البقاء جانباً، في مثل هذه الحالة، ضد طبيعة القوانين. فعليك ان تفعل ما يفعله الجميع. كانت هناك معركة قائمة. وكانت النار تطلق عليه وعلى رفاقه؛ فلم يكن له بدّ من ان يردّ.

وهكذا، فعندما اختلج عامل الهاتف قربه، متشنجاً، ورقد بلا حراك، خف نحوه، واخذ بندقيته وذخيرته، ثم عاد ليفرغها رصاصة تلو اخرى.

غير ان الشفقة منعته من ان يصوب الرصاص الى الشباب الذين أعجب بهم ويشاركهم مشاعرهم؛ ثم انه كان من السخف ايضاً ان يطلق

الرصاص في الهواء. لذلك اخذ يطلق النار على الشجرة اليابسة وسط الفسحة، حين لم يكن أحد يقف بينه وبين الهدف. كان يتبع اسلوبه القديم - يركّز نظره ويحدد هدفه تدريجاً، بينما يضغط على الزناد ببطء، ودون ان يضغط الى النهاية، كأنه لا يريد ان يطلق الرصاصة، بالفعل. وهكذا كانت الرصاصة تنطلق في النهاية، من تلقاء نفسها، على غير انتظار. وكان يصوّب الرصاصة بدقته المعتادة، على اسفل الاغصان اليابسة فتتفتت وتتناثر حول الشجرة.

لكن حدث، ويا للأسف، ما لم يكن في الحسبان. فرغم حرصه على الا يصيب احداً، كان بعض الشباب يتحركون ويمرون من وقت الى آخر بينه وبين الهدف لحظة انطلاق الرصاصة. فجرح اثنين منهم وسقط ثالث قرب الشجرة جثة هامدة.

واقتنعت في النهاية قيادة البيض بعدم جدوى الهجوم، فأمرت بالانسحاب.

كان عدد الانصار قليلاً. فبعض قواهم الرئيسية كانت في حالة تنقل، وكان بعضها الآخر مشتبكاً مع العدو في معركة اكبر، في مكان آخر. ولكي لا يظهروا ضعفهم، امتنعوا عن مطاردة البيض المنسحبين.

وتبع يوري اندريَيفيتش الى الفسحة مساعده انغيلار واثنان من الجنود يحملان نقّالة وطلب منه يوري ان يهتم بالجرحى، بينما انكب هو يفحص عامل الهاتف آملاً ألا يكون قد فارق الحياة. ولكن تبين له، عندما رفع قميصه، وجسّ نبضه، انه ميت.

مدّ يوري يده وسحب التميمة التي كانت تتدلى بخيط حريري من عنق عامل الهاتف. كانت تتضمن قصاصة من الورق ممزقة، طويت وخيطت بقطعة من القماش.

وما ان فتحها يوري حتى كادت تتفتت بين اصابعه. كانت عليها مقاطع من المزمور الحادي والتسعين، لكن مع بعض التحريف الذي يطرأ

عادة على الصلوات الشعبية التي تحفظ بالترديد، فتبتعد كثيراً عن نصها الاصلي. وكانت غليها ايضاً عبارة الكنيسة السلافية.

يقول المزمور: "الساكن في ستر العلي"، وقد تحولت هذه العبارة فصارت في الورقة "الساكنون ملجأ". وتحول العدد الذي يقول: "لا تخشَ من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار" الى هذه العبارة المشجعة: "لا تخش سهم الهاربين". وحيث يقول المزمور: "لانه يعرف اسمي" تقول تلك القصاصة "عرف اسمي متأخراً". كذلك تحولت عبارة "معه انا في الضيق"، الى "حالاً في الليل معه."

كان الجنود يؤمنون بأن مثل هذه العبارات أعجوبة تحميهم من الرصاص، فكانوا يتقلدونها كتميمة في الحرب الاولى عام ١٩١٤, وبعد عشرات السنوات كان المساجين يربطونها بثيابهم، ويتمتمون كلماتها في السجن عندما يدعون في الليل للتحقيق معهم.

ترك يوري عامل الهاتف وانتقل الى الجندي الابيض الذي قتله. كان وجه الشاب الجميل يحمل آثار البراءة والألم المتسامح. وفكر يوري: "لماذا قتلته؟"

وفك ازرار معطفه وفتحه. انها، ولا شك، يدُ امه هي التي طرزت اسمه وكنيته، سيربوزا رانتسيفيتش، بأحرف رقعية في خطٍ مستقيم. وعندما فتح قميصه ظهر صليبٌ يتدلى من سلسلة، ومدالية وعلبة ذهبية صغيرة مسطحة. وسقطت ورقة من العلبة التي كانت نصف مفتوحة. واذ فتحها يوري، لم يستطع ان يصدق عينيه. كان عليها المزمور الحادي والتسعون نفسه، ولكنه كان مكتوباً، هذه المرّة، بالنص السلافيّ الصحيح.

وتحرك سيروزا في تلك اللحظة وتأوّه. كان لايزال حياً. وتبين للدكتور فيما بعد أنه كان قد أغمي عليه بسبب جرحٍ داخلي بسيط. لقد ردت عنه الرصاصة تميمةُ أمه، وأنقذته. ولكن ماذا كان بوسع الدكتور ان

يفعل الآن في سبيل رجلٍ فاقد الوعي.
كانت الوحشية قد بلغت أوجها، في ذلك الوقت. فلم يكن الاسرى يصلون أحياءً الى مراكز اسرهم، وكان جرحى العدو يُقتلون في ساحة المعركة.
كان يمكن للدكتور ان يعتبر رانتسيفيتش حليفاً تطوع حديثاً، اذا أمكن التشديد في كتمان أمره. فقد كانت قوى الانصار في حالة كبيرة من الميوعة، لكثرة الهاربين من العدو واليه.
نزع يوري ثياب عامل الهاتف الميت بمساعدة انغيلار الذي أصبح يثق به، وأبدلها بثياب الشاب.
وسهر هو وانغيلار على سيريوزا حتى شُفي تماماً. عند ذاك أطلق سراحه رغم انه لم يُخف عنهما تصميمه على العودة الى جيش الكولتشاك في حربهم ضد الحمر.

٥

في الخريف، تمركز الانصار في أجمة الثعلب، وهي تلة كثيفة الاشجار، يتخللها نهر صاخبٌ مزبد، ويجري على امتدادها.
كان البيض قد امضوا فترة الشتاء الاخير فيها، وحفروا خنادق بمساعدة سكان القرى المجاورة، غير انهم تركوها في الربيع، وابقوا تحصيناتهم سليمة كما كانت، فاستعملها الانصار.
وكان يوري يشارك ليبيريوس خندقه، فظلّ متيقظاً يصغي لأحاديثه ليلتين متواليتين:
"ترى، ماذا يفعل اهلي الكرام، اقصد ابي المحترم، في هذه البرهة؟"
وتنهد يوري محدثاً نفسه: "يا الهي، لكم هو كريهٌ هذا البهلول. انه

صورة حيّة عن ابيه."

"صرتَ تعرفه جيداً من احاديثنا السابقة. ولا اخالك كوّنت فكرةً سيئة عنه. هل لديك ما تقوله في هذا الشأن، يا سيدي العزيز؟"

"عندنا غداً، ياليبيريوس افيرسيفيتش، اجتماعُ تمهيدي للانتخاب. كما ان محاكمة الجنود الذين قطروا الفودكا اصبحت قريبة، وعليّ انا ولاجوس ان نبحث عن دليل. لم انم منذ ليلتين. الا يمكننا ان نؤجل هذا الحديث؟ اكاد اموتُ من التعب."

"لا بأس، ولكن ما هو رأيك في ابي الشيخ؟"

"ان اباك لا يزال شاباً، فلماذا تتكلم عنه بهذا الشكل. ولكنني سأجيبك. لا اعرف، كما قلت لك سابقاً، الكثير عن الافكار الاشتراكية المتنوعة، ولست اجد كبير فرقٍ بين البولشفيك والاشتراكيين الآخرين. ابوك احد الاشخاص الذين تدين لهم روسيا بفوضاها واضطراباتها الحالية. هو نموذج ثوري. شخصية ثورية. انه مثلك، يمثل مبدأ الغليان في الحياة الروسية."

"هل هذا ثناء او تقريع؟"

"أرجوك، للمرة الثانية، ان تؤجل هذا الحديث الى وقتٍ أنسب. ولا بد ان ألفت انتباهك الى انك تكثر من تعاطي الكوكائين، فتستنفد بذلك موادَّ أوكل اليَّ الحفاظ عليها. انت تعرف جيداً اننا نحتاج اليها لاغراضٍ اخرى، بالاضافة الى ان الكوكائين سمّ، وانا مسؤول عن صحتك."

"تغيبت مرة ثانية عن درس التثقيف السياسي، البارحة. ان حسّك الاجتماعي هزيل كحس فلاحة امية، او كحس بورجوازي اصيل. وانت طبيب، مع ذلك، ومثقف. واعتقد انك تكتب ايضاً. كيف تفسر اجتماع هذا كله؟"

"لا أعرف. يبدو انني متبلد الذهن. ولكن ماذا افعل؟ ان حالتي

تدعو للرثاء."

"هذا تواضع كاذب. لو انك تتحمّل مشقة الاهتمام بما نفعل في صفوفنا، بدل ان تتكلم بهذه اللهجة الساخرة، لما كنت تحتقر عملنا."

"يا الله... يا ليبيريوس افيرسيفيتش. ماذا تقول؟ أين ترى الاحتقار؟ إنني احترم نشاطك التثقيفي احتراماً كلياً. لقد قرأت الحديث الذي وزعته، واعرف آراءك في تهذيب اخلاق الجندي؛ انها آراء ممتازة. ما تقوله عن شعور الجندي نحو رفقائه، نحو الضعيف والقاصر، نحو النساء، وما تذكره عن الشرف والعفة - كل هذا شبيهٌ الى حد بعيد بآراء الدوخوبورز، التي هي نوع من التولستوية، وانا اعرف هذه التولستوية عن ظهر قلب. فشبابي مليء بالتطلع الى حياةٍ افضل. كيف يمكن ان اسخر منها، إذاً؟

"لكن اريد ان اقول لك اولاً، ان فكرة النهوض الاجتماعي، كما تفهم منذ ثورة اكتوبر، لا تثير فيَّ الحماس. وهي ثانياً، قد كلفتنا هذه البحر من الدماء، ولاتزال مجرّد كلام، فالحق ان الغاية لا تبرر الوسيلة. ثالثاً، وهذا هو الأساس، حين اسمع الكلام عن صوغ الحياة من جديد، اشعر انني افقد السيطرة على نفسي ويغمرني اليأس.

"صوغ الحياة من جديد؟ الذين يقولون هذا القول لا يعرفون شيئاً عن الحياة، انهم لم يشعروا بتنهدها، بروحها. انهم يعتبرونها كتلةً من المواد الخام، تحتاج الى ان ينسقوها هم، والى ان تتشرّف بلمسهم. الا ان الحياة ليست مطلقاً مادة تُجبَل. الحياة، اذا اردت ان تعرفها، هي مبدأ التجدد الذاتي، وهي ابداً تجدد نفسها، وتبدعها وتغيرها وتحولها؛ انها فوق النظريات التي يمكن لك او لي، ان نضيعها فيها."

"ولكن، هل تعرف، مع ذلك، انك لو واظبت على اجتماعاتنا، وعلى الاتصال برفقائنا الراقين العظماء، لما كنت تشعر بهذا الهبوط المعنوي، ولما كنت ترزح تحت وطأة هذا الشعور السوداوي. انا اعرف

سبب ذلك. فأنت ترانا في كفاح دائم دون ان يظهر لك في البعيد، أي شعاعٍ من الأمل. لكن لا يجوز للانسان ان يستسلم للرعب ابداً، ايها الفتى العزيز. أستطيع ان اخبرك بأشياء اكثر سوءاً ـ اشياء تتعلق بي شخصياً لا يجوز اعلانها الآن ـ ومع ذلك، فلا افقد السيطرة على افكاري. هذه الاوضاع مؤقتة، وسيخسر الكولتشاك في النهاية. ثق بما اقول. غداً ترى. سنربح في المجال الطويل. فتشجع."

وفكر الدكتور: "كلا، هذا مُضحك! كيف يمكن لاي انسان ان يكون في مثل هذه البلادة وهذه الطفولة. اضعت وقتي وانا اكرر ان افكارنا هي على طرفي نقيض؛ وهو يتمسك بي، بالقوة، ويحتفظ بي رغم ارادتي، ومع هذا يتخيل ان اوضاعه ترعبني، وان آماله يمكن ان تشجعني. كيف يمكن لاي انسانٍ ان يتعامى الى هذا الحد؟ ان مصير الكون، بالنسبة له، يتوقف على انتصار ثورة اكتوبر."

لم يجب يوري بأيّ شيء، واكتفى بهز كتفيه. غير انه كان من الواضح ان سذاجة ليبيريوس اغاظته حتى كاد يعجز عن السيطرة على نفسه. وقد لاحظ ليبيريوس ذلك، فقال: "لقد غضبت، يا جوبيتر. وهذا يعني انك على خطأ."

"متى تفهم، اخيراً، ان هذا كله لا يعني لي أي شيء؟ "جوبيتر"، "لا تستسلم للرعب"، "من يقول آيجب ان يقول ب"، المغربي أكمل عمله، المغربي يمكنه ان ينصرف"، ـ لا أحب هذه التفاهات كلها. سألفظ آ، ولن ألفظ ب، مهما حاولت. اعترف انكم محررو روسيا ونورها الوضاء، وانها ستضيع بدونكم، وتغرق في البؤس والجهل. ولكنني، رغم هذا، لا أهتم بأي واحدٍ منكم، لا احبكم؛ هيا، اشنقوا انفسكم اخيراً!

"ان معلميكم مهووسون بترديد الامثال، ولكنهم تناسوا مثلا مهماً: "يمكنك ان تأخذ الفرس الى الماء، ولكن لا يمكنك ان تجبرها على الشرب"، فتمسكوا بعادة تحرير وإسعاد الجميع، لاسيما اولئك الذين لا

يطلبون أي شيء منهم. اخالك تظنّ انني لا اقدر ان اتصور أي شيء في العالم اجمل من معسكرك ورفقائك، ويبدو انك تريدني ان اباركك لانك احتفظت بي اسيراً، واشكرك لانك حررتني من زوجتي وأبني وبيتي وعملي، من كل عزيزٍ لديّ، من كل ما يجعل الحياة جديرة بأن تعاش."

واكمل يوري: "يُشاع ان هناك قوة مجهولة، قوة غير روسية، هاجمت فاريكينو، ونهبتها. كامنودفورسكي لا ينكر ذلك. وقيل ان اهلي واهلك تمكنوا من الهرب. واشيع ان محاربين ذوي عيونٍ مستطيلة اسطورية يلبسون معاطف مبطنة باللبد، وقبعات من الفرو، عبروا نهر الرينفا وهو مجلد، واخذوا يطلقون النار، بهدوءٍ، على كل انسان حي، ثم اختفوا بغموضٍ، مثلما ظهروا. هل تعرف شيئاً عن هذه الاشاعة؟ هل هي صحيحة؟"

"سخافة. لا اساس لها من الصحة. إشاعات كاذبة."

"انني اطلب منك ان تتركني انصرف، اذا كنت لطيفاً وكريماً كما تدّعي في محاضراتك عن تهذيب اخلاق الجنود. سأذهب وابحث عن عائلتي، لا اعرف اين هي، لا اعرف اذا كانت قد ماتت او لاتزال حية. واسكت، بحق السماء، اذا كنت لا تريد ان تفعل ذلك، واتركني وحيداً - فلا يهمني أي شيء آخر، وسأصمت كلياً، اذا بقيت مستمراً في حديثك. يا لجهنم، الا يحق لي، حتى ان انام؟"

وتمدّد يوري على سريره، يغرق وجهه في المخدة، ويحاول جهده الا يصغي لتبريرات ليبريوس الذي اخذ يعزيه بانتصارهم الحاسم على البيض، في الربيع، وانتهاء الحرب الاهلية، حيث يعمّ السلم والحرية والازدهار، ولا يجرؤ احد على احتجاز يوري لحظة واحدة، ولكن لابدّ من الصبر حتى ذلك الوقت، ثم انهم بذلوا تضحيات كثيرة وانتظروا طويلاً، فلا عجب ان استمروا اشهراً قلائل اخرى، واين يذهب في الوقت الحاضر؟ ان من مصلحته هو ان يمنع من الذهاب وحيداً.

وتفجر يوري بغضب صامت: "انه كالاسطوانة يعيد نفسه ولا يتوقف. الا يخجل من اجترار الافكار ذاتها، طول هذه السنوات؟ كيف يمكنه ان يستمر في الاصغاء لصوته، هذا العفريت المقنع. لا وجود لليل عنده. آه، كم أبغضه! يشهد الله انني سأقتله ذات يوم.

"تونيا، يا عزيزتي، يا صغيرتي المسكينة! اين انت؟ هل لا تزالين على قيد الحياة؟ يا الهي، كانت سترزق طفلاً عما قريب. كيف جرت ولادتها؟ هل رزقت ابناً او ابنة؟ كيف صرتم يا احبائي جميعاً؟ انك يا تونيا، خطيئتي، ندمي الابدي. وانت يا لارا أخاف ان الفظ اسمك. ان روحي لتتمزق حين اتفوه به. يا إلهي، يا إلهي، وهذا الوحش الكريه الذي لا يحس يستمر في كلامه. لن اتحمل ذات يوم، وسأقتله، بلى، سأقتله."

٦

حلت، بعد الصيف المشمس الحار، ايام الخريف الذهبي، المضيئة. كان البرج الخشبي الذي بناه البيض في الطرف الغربي لاجمة الثعلب، لايزال يرتفع فوق الارض، هنالك، في ذلك المكان، تواعد يوري مع مساعده الطبيب الهنغاري، لاجوس، لبحث عدة امور تتعلق بالخدمة. وقد وصل في الوقت المعين واخذ يتجول، فيما هو ينتظر صديقه، على حافة المتاريس المهدمة. ثم تسلق برج المراقبة وتطلع من الشقوق، امام اعشاش المدافع الفارغة الآن، الى البقعة الكثيفة الاشجار، وراء النهر.

كان الخريف قد رسم بوضوح الحد الفاصل بين الشربين والصنوبر وبين الأشجار التي تتساقط اوراقها. وكانت الاجمة المورقة بين اسوار الصنوبر الكثيفة الخشنة القريبة من السواد، تلمع كشعلة بلون الخمر، كمدينة صغيرة في القرون الوسطى، تضم قصوراً ملونة، مذهبة السطوح

بنيت من خشب غابة كثيفة. وكان التراب تحت خطوات يوري في الخندق وفي اخاديد طريق الغابة، قاسياً لكثرة ما تجلد، وتكتل ممتزجاً بأوراق الصفصاف اليابسة الملتفة حول نفسها كالقشور. وكانت رائحة الخريف ترتفع حادة من هذه الاوراق المرّة السمراء، ومن أوراق عديدة اخرى. وكان يوري يتنشق بنهم هذه الرائحة القوية التي هي مزيج من روائح التفاح البارد والاغصان الحادة اليابسة والتراب الرطب الحلو، وضباب ايلول الازرق الذي تصاعد كدخان نار بدأت تخمد برشّ الماء عليها.

لم يلمح لاجوس الذي كان يسير وراءه ويلحق به، قائلاً بالالمانية:

"كيف انت، ايها الزميل؟"

واخذا يتحدثان عما كان يشغلهما.

"هناك نقاط ثلاث علينا ان نتمعن فيها. اولاً، محاكمة الجنود الذين كانوا يقطرون الفودكا، محاكمة عرفية. ثانياً، اعادة تنظيم الاسعاف والمخازن الطبية. ثالثاً، اقتراحي لمعالجة الامراض العقلية. ولست ادري اذا كنت توافقني يا عزيزي لاجوس؛ ولكن يبدو لي من ملاحظاتي، اننا نجن، وان انواع جنوننا الحديثة معدية."

"هذه مسألة مهمة جداً. سأبحثها معك فيما بعد. لكنني، اولاً، أريد ان اذكر شيئاً آخر. المعسكر في هياج. وهناك عطف على مقطري الفودكا. والجميع، فوق هذا كله، قلقون على عائلاتهم التي هربت من البيض. وقريباً، كما تعرف، ستأتي قافلة من الاطفال والنساء والشيوخ، لذلك رفض بعض الانصار مغادرة المعسكر قبل ان تصل القافلة."

"أعرف. يجب ان ننتظرهم."

"وهذا كله، قبل انتخاب القيادة الموحدة، المشتركة بين جميع القطعات، ومن ضمنها الوحدات التي كانت مستقلة عنا حتى هذه اللحظة. أظن ان الشخص الوحيد الذي يمكن ترشيحه هو الرفيق ليبيريوس. غير ان بعض الشباب يرشحون فدوفيتشينكو. وسيدعمه

فريق لا شيوعي، مرتبط بجماعة مقطري الفودكا، وهم من ابناء أصحاب المتاجر والبورجوازيين والهاربين من الكولتشاك. انهم هم الذين يقومون، اكثر من غيرهم، بالضجة."

"ماذا سيحدث في رأيك، لهؤلاء الذين قطّروا الفودكا وباعوها؟"

"اعتقد انهم سيحكمون بالاعدام، غير ان التنفيذ سيؤجل."

"لنعد الى شؤوننا. اولاً، مسألة الاسعاف."

"حسناً؛ ولكن يجب ان أخبرك بانني لم افاجأ باقتراحك حول العلاج النفسي الوقائي. إنني، شخصياً، أؤمن بضرورته. ونحن نواجه ظهور وانتشار نوعٍ من الامراض النفسية التي اصبحت ميزة من مزايا عصرنا، وهي نتيجة مباشرة للظروف التاريخية. عندنا في المعسكر، نموذج منها، هو بامفيل باليخ، الجندي السابق في الجيش القيصري. انه ذو إحساس ثوري عالٍ، وشعور طبقي داخلي. وسبب اضطرابه العقلي هو قلقه على عائلته لوقوعها في ايدي البيض، وإجبارها على الإجابة عنه، اذ اعتبروه مقتولاً. ان عقليته معقدة جداً. واظن ان عائلته هي إحدى العائلات الآتية مع القافلة. لا اعرف الروسية جيداً لكي استجوبه. يمكنك ان تعرف التفاصيل من أنفيلار او من كامينودفورسكي. يجب ان يُفحص."

"اعرف باليخ معرفة جيدة. واذكر انني اصطدمت معه، مرة، في مجلس الجيش. إنه اسود، شرس، منخفض الجبهة. ولا اعرف ماذا تجد فيه من الحسنات. كثير التطرف، يعاقب، ويقتل. ولطالما تملكني شعور النفور منه. ولكن، سأهتم بأمره، رغم هذا كله."

٧

كان يوماً مشمساً صافي الأديم، وكان الطقس لايزال ساكناً جافاً منذ اسبوع كامل. وكان هزيم الاصوات المألوفة يترامى فوق المعسكر

الكبير كهدير الامواج البعيدة. وكان يسمع مرة بعد مرة، وقع خطوات المتنزهين في الغابة، وأصداء الاصوات، وضربات الفؤوس، ورنين السندان، ونباح الكلاب، وحمحمة الخيول، وصياح الديكة. وكان يجوب الغابة جماعات من الرجال لفحتهم اشعة الشمس، يبتسمون كاشفين عن اسنانهم البيضاء. كان بعضهم يعرفون الدكتور فيحيونه، اما الآخرون فكانوا يمرون امامه دون أي تحية.

وكان الانصار قد رفضوا ان يغادروا اجمة الثعلب حتى تلحق بهم عائلاتهم الهاربة. وكان من المنتظر ان تصل هذه العائلات بين لحظة واخرى، لذلك اخذوا يستعدون للتقدم صوب الشرق. كانوا يهيئون، وينظفون، ويثبتون اغطية الصناديق، ويعدون العربات ويفحصونها.

وكانت الاجتماعات تعقد عادةً في فسحة وسط الغابة. وكان قد عقد فيها ذلك النهار، اجتماع عام لتبليغ الجنود اوامر هامة.

لم تكن بعض الاشجار في الغابة قد اصفرت حتى ذلك الوقت، فظلت خضراء غضة. ونفذت اشعة الشمس الضاربة في الغابة فاصبحت الاوراق الشفافة كالزجاج اشبه بشعلة خضراء.

وكان كامينودوفورسكي، ضابط الاتصال الرئيسي، يحرق في فسحة خارج خيمته، بعض الاوراق من سجلات الجنرال كابيل التي وقعت في يديه. وكان يحرق ايضاً بعض ملفاته الحزبية الخاصة. كانت النار، فيما الشمس تغرب وراءها، شفافة كالاوراق. ولم تكن النار ظاهرة، ولكن تموجات اللهب المتألقة كانت تدل على ان شيئاً ما يحترق.

وكانت الغابة تتلألأ، هنا وهناك، بثمار العليق الناضجة، وثمار شجر الحور الرومي الحمراء كالقرميد، وبمجموعات اخرى من ثمار اشجار أخرى بيضاء وقرمزية. وكانت الفراشات تصفق بأجنحتها الشفافة كاللهب والاوراق تتطاير بهدوء في الهواء.

كان يوري منذ طفولته يعجب بمنظر الغابة أوان غروب الشمس.

وكأنه كان يشعر في تلك الفترة ان الشعاع ينفذ الى اعماقه هو ايضاً.
وكأن هبة الروح الحية كانت تتدفق في صدره وتخترق وجوده وتنبت كالجناحين فوق كتفيه.

وكان يُحس ان في اعماقه ذلك المثال الأصيل للحياة، الذي يتكوّن في اعماق كل طفل، ويظل بعد ذلك صورة داخلية لشخصيته - وكان يحسه بكل قوته وبراءته التي تفرض نفسها. كانت الغابة وانوار الغسق، وكل شيء آخر تراه العين، كأنما يصير وجهاً رائعاً بريئاً لفتاةٍ صغيرة. ولم تكد ترتسم هذه الصورة في مخيلته حتى كان يُغمض عينيه ويتمتم مفكراً، مخاطباً الحياة كلها، وأرض الله كلها، وكل تلك الابعاد المضاءة أمامه: "لارا!"

لكن الحقيقة اليومية المباشرة كانت لا تزال حيث هي: ثورة اكتوبر قائمة، وهو أسيرُ الأنصار. ووجد نفسه، دون وعي، يتقدم قريباً من نار كامينودفورسكي.

"تحرق سجلاتك؟ ألم تنته بعد؟"

"هناك وقودٌ كثير، أيضاً."

وحرك يوري بحذائه كومةً من الورق. انها رسائل موظفي مراكز البيض. وخطر له انه قد يجد شيئاً عن رانتسيفيتش. إلا ان جميع ما رآه، كان مملاً، ولا جدوى فيه. وحرّك كومةً ثانية فوجدها تافهةً كالسابقة. كانت مجموعة من محاضر اجتماعات الانصار.

واخذ كامينودفورسكي ورقةً وناولها الى يوري:

"هذه اوامر السير الخاصة بوحدتك الطبية. اصبحت قافلة عائلات الانصار وشيكة الوصول. وسيُسوى خلافنا في المعسكر، هذا المساء. لذلك نأمل ان نتحرك بين يومٍ وآخر."

وتطلع يوري الى الامر وقال متعجباً:

"ولكن العربات التي تخصصها لي، هي أقل منها في المرّات السابقة، رغم ان لدينا مزيداً من الجرحى. وأغلبيتهم الساحقة لا يتمكنون من السير على أقدامهم. فكيف انقلهم؟ ثم هناك الأدوية، والاسرّة، والتجهيزات الصحية."

"عليك ترتيب ذلك بطريقة ما؛ ويجب ان تتلاءم مع الظروف. شيء آخر، يطلبه كل منا. هناك رفيقٌ لنا عركته الأيام، نذر نفسه للقضية، وهو رجل ممتاز، وجندي رائع. لكنه مصابٌ بمرضٍ ما."

"باليخ؟ حدثني عنه لاجوس."

"نعم، اذهب إليه، وافحصه."

"مرض عقلي؟"

"اظن ذلك. يقول ان يحسّ بنوعٍ من الهوس، هو نوع من الهذيان. هل هو الأرق؟ وجع الرأس؟"

"حسناً، سأذهب واراه، مادمت لا أفعل الآن شيئاً. متى يبدأ الاجتماع؟"

"اظن انه ابتدأ. لكن لماذا تذهب اليه؟ لن أذهب، أنا أيضاً. سيتدبرون امرهم بدوننا."

"سأذهب إذاً وارى بامفيل. انني اشعر بنعاس شديد رغم انني استطيع ان افتح عيني. يحب ليبيريوس افيرسيفيتش ان يتفلسف في الليل، وهو يرهقني بخطاباته. اين اجد بامفيل؟"

"تعرف أجمة اشجار البتولا، خلف المستودع المهجور؟"

"نعم، أظن."

"هناك خيم الأمّار. خصصنا احداها لبامفيل، لأنه ينتظر عائلته. فهي آتية مع القافلة. وقد خُصصت له خيمة آمر، تقديراً للخدمات التي قدمها للثورة."

٨

شعر يوري اندرييفيتش، في طريقه الى بامفيل، ان التعب قد تغلب عليه، فهو لم ينم منذ عدة ليال. كان يمكنه ان يعود الى خندقه ويرتاح قليلاً، لكنه تردد ـ فقد يأتي ليبيريوس في أي لحظة ويضايقه.

وسار في ممرّ مغطى بالاوراق الذهبية، التي كانت تبدو كالرقعة الملونة. وكانت اشعة الشمس تتساقط بألوان متعددة، فوق البُسط المذهبة. وكانت هذه الفسيفساء من الالوان المتقاطعة، المتداخلة، تتراقص امام عينيه. فتفتل رأسه وتبعثه على النوم، كما يفعل كتاب صغير الاحرف، او دندنة رتيبة.

وتمدد يوري اندرييفيتش فوق اوراق حريرية الصوت، واضعاً رأسه على ذراعه المستندة على مخدة من العشب عند جذع شجرة، وغفا حالاً، وكانت تغمرهُ الانوار الباهرة والظلال التي نومته، حتى انه لم يعد ممكناً تمييز جسمه المتمدّد، عن ألق الشمس والأوراق. لقد اختفى وكأنه وضع على رأسه قبعة سحرية.

غير ان رغبته الجامحة في النوم ما لبثت هي نفسها، ان أيقظته. فالاسباب لا تؤثر الا بالتناسب مع نتائجها. والإفراط يعكس النتيجة. فقد كان ضميره المتيقظ الذي لم يجد ما يطمئنّ اليه، يدور في الفراغ. وكانت الافكار تزوبع وتدوّم في رأسه وتقرع كالآلة التي اصابها خلل. كان هذا التشوش يُقلقه ويثيره. وفكّر بغضب: "يا لهذا الخنزير ليبيريوس. كأنما ليس في العالم أسبابٌ كافية لدفع الناس الى الجنون، فيبتهج بأسر إنسان سليم يرهقه بصداقته وثرثرته حتى تختل اعصابه. سأقتله يوماً ما."

ومرّت فراشة سمراء ملونة، في الجانب المشمس من الفسحة. كانت تبسط جناحيها وتطويهما كقطعةٍ نسيجية ملوّنة. ولاحقها يوري بنظراته

وهو يغالب النعاس، وحطت الفراشة فوق أكثر الألوان تلاؤماً مع لونها ـ فوق قشرة صنوبر سمراء مبقعة. لقد اختفت. لقد تلاشت كلياً مثل يوري الذي يغمره النور والظل.

وعادت إليه أفكاره التي كانت تشغله، والتي ذكرها بشكلٍ غير مباشر في كثير من الاعمال الطبية: الارادة والغائية باعتبارهما خلاصة تركيب متفوق، الانسجام البيئي، ألوان الجسم الانساني، التقليدية والوقائية، استمرار الكائنات الأحسن تكيفاً، التشابه المحتمل بين طريقة الانتقاء الطبيعي وطريقة تكون الوعي ونشأته؛ طبيعة كل من الذات والموضوع وتوحدهما، وطريقة تحديدهما. وقادته تأملاته من داروين الى شلينغ، ومن الفراشة الى الرسم الحديث والفن الانطباعي. وفكر في الخلق، والخليقة، والابداع، والتقليد.

وعاد الى النوم ثانيةً لكنه سرعان ما ايقظه حديث ناعم خافت. كانت الكلمات القليلة التي سمعها كافية لان تؤكد له ان موضوع الحديث يدور حول سر ما، او خطة خفية. لم يكن المتحدثون يشاهدونه، او يشكون بوجوده. ربما كانت أي حركة تكلفه حياته، فتظاهر بالموت واخذ يصغي.

كانت بعض هذه الاصوات أليفة لديه. فقد كان اصحابها طغمة من الانصار، هم غوشكا، سانكا، كوسكا وتابعهم الدائم تيرينتي غالوزين. كان هؤلاء وراء كل انواع المشاكل السيئة والفضائح. وكان في جملتهم زاخار الذي كان أخطر شرير بينهم. كان قد اشترك في قضية الفودكا، ولكنه لم يحكم، لأنه افشى باسماء زملائه. وقد دهش يوري اندرييفيتش لوجود سيفوبليوي بينهم، وهو احد الانصار التابعين "للفرقة الفضية". وكان من حرس الآمر. وقد لقب "اذن الهيتمان ـ أي جاسوس الآمر"، لنيله ثقة ليبيريوس، وحفظاً على التقليد الذي سنّه كل من رازين وبوكاتشيف. كان هو، إذاً، شريكاً في المؤامرة.

كان المتآمرون يتفاوضون مع بعثة من مراكز العدو العليا. وكان كلام اعضاء البعثة خافتاً جداً لا يمكن سماعه. لذلك، كان يوري اندرييفيتش يعرف أنهم يتكلمون، عندما كانت تتخلل الوشوشة، فترة من الصمت.

كان زاخار، السكير، اكثرهم كلاماً، وكان صوته الخشن المتقطع، ذا نبرة بذيئة مقذعة. كان، ولاشك، بطل المؤامرة.

"والآن، اصغوا. المهم هو ان نحتفظ بالسرّ. اذا تكلم احدكم، فسأبقر أمعاءه ـ هل ترون هذا الخنجر؟ مفهوم؟ تعرفون كما اعرف اننا متضامنون معاً. والموت ينتظرنا. لابد من العفو. وعلينا، لذلك، ان نقوم بحيلة بارعة لم يعرفها انسان من قبل. يريدونه حياً، مقيداً بشكل جيد. والآن يقولون ان رئيسهم غولفوي آت. (هُمس له بالاسم الصحيح "غاليولين" لكنه لم يسمعه جيداً، فقال: الجنرال غاليف). انها فرصتنا الوحيدة. وها هم المندوبون عنهم. سيخبرونكم بكل شيء. يقولون ان علينا ان نقبض عليه حياً. أخبروا الرفقاء انتم بأنفسكم. هيا، تكلموا، انتم."

وجاء دور اعضاء البعثة في الكلام. ولذلك لم يسمع يوري اندرييفيتش أي كلمة، ولكنه استنتج من الصمت الذي ساد، انهم شرحوا الخطة بشكل مفصّل. وعاد زاخار للكلام:

"اسمعوا، ايها الزملاء. تعرفون الآن كم الأمر بسيط. لماذا نقاسي هذا كله، بسببه. هو ليس حتى رجلاً، انه ابله، إنه راهب او ناسك. انت يا تيريني كفاك تكشيراً. ألم اكن اخبركم بأنه ناسك ـ هذه هي حقيقته. اذا ما تركناه وشأنه، سيحولكم الى رهبان ـ سيخصيكم جميعاً. بماذا يعظكم؟ لا تشتموا، لا تسكروا؛ وتوصيات اخرى عن النساء. كيف يمكنكم ان تعيشوا هكذا. سنأخذه، هذا المساء الى مخاضة النهر. سأتأكد من انه سيأتي. حينئذ نرتمي عليه كلنا. لن اكون قاسياً. لا حاجة

لذلك. الصعوبة هي انهم يريدونه حياً. اربطوه، هكذا يقولون. حسناً، سأرى، اذا لم تنجح هذه الخطة، سأبحث عن اخرى بنفسي. سأنهيه بيدي. سيرسلون رجالهم لمساعدتنا."

ومضى يشرح الخطة، ولكنهم كانوا قد بدؤوا يسيرون، فلم يعد يوري يسمعهم. وفكر برعب وغيظ: "انهم يتآمرون على ليبيريوس. يريدون ان يسلموه الى البيض أو يقتلوه ـ الخنزير." لقد نسي كم من المرات تمنى له الموت. كيف يمكن ان يمنع ذلك؟ وقرر ان يعود الى كامينودفورسكي، ويطلعه على المؤامرة، دون ان يذكر اسماء مدبريها، وان يحذّر ليبيريوس.

وحين عاد كان كامينودفورسكي قد انتهى من حرق الاوراق، وكان مساعده يراقب النار الخامدة كي يمنعها من الانتشار.

ولم تحدث الجريمة، فقد اكتشفت المؤامرة وقبض على المتآمرين. كان سيفوبليوي يلعب دور العميل والمحرض. وشعر يوري اندرييفيتش انه اكثر قرفاً من ذي قبل.

٩

كان قد عُرف ان عائلات الانصار أصبحت على بعد مسيرة يوم من المعسكر، فأخذ الانصار يستعدون لاستقبالها وللتحرك بعد ذلك. ومضي يوري اندرييفيتش ليفحص باليخ.

ورآه في مدخل خيمته، يحمل فأساً. وكانت أمامه كومة من شُجيرات البتولا قطعها، ولم يشذبها بعد. كان قد تساقط بعضها، حيث قطعها فحفرت رؤوسها حفراً في الأرض اللينة. وجرّ بعضها الآخر، ثم كومها جميعاً. لم تتمدّد هذه الشجيرات على الارض، كما انها لم تتلاصق، ذلك ان اغصانها كانت كثيرة الاهتزاز والحركة. كانت كأنها

تتجنب، بأيديها الممدودة، بامفيل الذي اقتطعها وسدّ بها الطريق الى خيمته.

وأوضح بامفيل قائلاً: "انها لضيوفي الاعزاء. لزوجتي وأطفالي. الخيمة منخفضة جداً. والمطر يتسرب اليها. وقد قطعتها لكي اصنع سقفاً."

"لا أظن انه سيسمح لك ان تسكنهم في خيمتك، يا بامفيل. فهل حدث قبلاً، ان سُمح للمدنيين ـ للنساء والاطفال ان يسكنوا داخل معسكرٍ ما؟ سيبقون مع عرباتهم في مكانٍ ما خارج المعسكر، وتستطيع ان تراهم في اوقات الفراغ، ولكنني لا اعتقد انهم سيسمحون لك بأن تسكنهم في خيمتك. لست آتيا على كل حال، من اجل ذلك. قيل لي ان جسمك يضعف كثيراً، وإنك لا تستطيع ان تأكل او تنام ـ هل هذا صحيح؟ يبدو لي انك بخير، كما انه يمكنك ان تقصّ شعرك."

كان بامفيل ضخماً ذا شعر اسود مشعّث ولحية سوداء كثة وجبهةٍ كثيرة التجاعيد، تضخمت في العظمة الامامية بشكل خاتم او حلقة فولاذية ملتصقة بصدغيه، مما اظهره في مظهر الجاحظ المحملق.

كان يُخشى في بداية الثورة، ان تفشل قضيتها، كما حدث عام ١٩٠٥، فيقتصر تأثيرها على المثقفين القلائل، دون غيرهم من فئات المجتمع الاخرى. لذلك بُذلت الجهود الممكنة لنشر فكرة الثورة في اوساط الشعب كلها، لتحريكها وإشعال نار الغضب في نفوسهم.

لم يكن امثال بامفيل في تلك الايام بحاجة الى من يشجعهم على كراهية المفكرين والضباط والخاصة، كراهية وحشية. لهذا كان يعتبرهم المفكرون اليساريون المتحمسون منحة نادرة، ويقدرونهم تقديراً عظيماً. ولقد كان شعورهم اللاانساني دليلاً على شعورهم بالتفاوت الطبقي، وكانت بربريتهم مثالاً للثبات البروليتاري وللغريزة الثورية. بهذه المزايا اكتسب بامفيل شهرة واعتبره جداً رؤساؤه الحزبيون وقواده.

وتراءى ليوري اندرييفيتش ان هذا العملاق الكئيب اللااجتماعي، برغباته الهزيلة الفقيرة وانحلاله، رجل منحط، ليس في كامل قواه العقلية.

وقال بامفيل: "لندخل الخيمة."

"لا. لماذا؟ من الافضل ان نبقى في الهواء الطلق. ثم لا يمكنني الدخول."

"حسناً. كما تريد. يمكننا ان نجلس على الخشب."

وجلسا على الشجيرات اللينة، واخذ بامفيل يحدث يوري اندرييفيتش بقصة حياته: "ان تقص شيئاً، كما يقال، هو اسرع من ان تفعله. ولكن قصتي طويلة، لا استطيع ان أنهيها في ثلاث سنوات. ولا أعرف حتى من اين ابدأ.

"ولكن، سأحاول. كنا شابين، أنا وزوجتي، كانت هي تُعنى بشؤون البيت، وكنت انا أعمل في الحقول. لم تكن حياتنا سيئة. رزقنا أطفالاً، واستدعيت الى الجيش. ثم نُقلت الى جبهة الحرب. بلى، الحرب. ماذا اخبرك عن الحرب؟ لقد رأيتها انت ايها الرفيق الدكتور. بعد ذلك نشبت الثورة. رأيت النور. كانت عيون الجنود مفتوحة. وسمعنا ان الأجانب لم يكونوا الأعداء الوحيدين. كان لنا اعداء في الداخل. "يا جنود الثورة العالمية، ألقوا بنادقكم، عودوا الى الوطن، وحاربوا البورجوازيين" وكلماتٌ اخرى مشابهة. انت نفسك تعرفها أيها الرفيق، طبيب الجيش. حسناً، لنستمر. ثم وقعت الحرب الاهلية، والتحقت بالأنصار. الآن، لابد ان أحذف اشياء كثيرة من القصة، وإلا فلن انتهي. ماذا أرى، بعد كل ذلك، الآن، في البرهة الحاضرة؟ ذلك المتطفل سحب من الجبهة الروسية فرقتي ستافروبول، الاولى والثانية، وفرقة اورينبورغ القوزاكية الاولى. هل انا طفل؟ تراني لا افهم؟ ألم اخدم في الجيش؟ انها مهنة سيئة، ايها الدكتور، انها تودي بنا جميعاً. ماذا يريد ان يفعل هذا الخنزير؟ يريد ان

يسحقنا برعاعه، يريد ان يطوقنا.

"لكن لدي زوجة وأطفال. وكيف يمكنهم التخلص منه، اذا قضى على رأسهم. انهم أبرياء، لاشك في ذلك. ومعهم الحق ايضاً، لكنه لن يهتم. سيمسك بزوجتي ويربطها ويعذبها بسببي. سيعذب زوجتي واطفالي، سيكسر كل عظم في اجسامهم، سيمزقهم. ثم تسألني لماذا لا انام؟ يمكن للانسان ان يصير قطعةً من الحديد، اذا فقد عقله، فقط."

"يا لك من صديق غريب، يا بامفيل. لا استطيع ان افهمك. منذ سنوات وأنت بعيد عنهم. حتى انك لم تعرف اين كانوا، ومع ذلك لم تقلق عليهم. والآن، عندما اتيح لك ان تراهم، تبدو أنك تسيرُ في مأتمهم، بدل ان تكون سعيداً."

"كان هذا قبلاً. أما الآن، فالأمر يختلف. لقد تقرر مصيري. ومصيري القبر. لكنني لا استطيع ان آخذ معي صغاري الى العالم الثاني، هل استطيع؟ سيبقون وسيقعون في يديه الوحشيتين. سيعتصر دمهم نقطة، نقطة."

"لهذا تهذي؟ قيل انك ترى توابع وجنّاً؟"

"حسناً، أيها الدكتور. لم اخبرك بكل شيء. لقد أخفيت عنك اهم الأخبار. الآن، سأخبرك الحقيقة كلها اذا اردت. سأقولها لك الآن، حقيقتي انا، ولكن لا تحزن لأنني اقولها أمامك.

"لقد قضيت على الكثيرين امثالك. وعلى يدي دماء كثيرٍ من الضباط، من الضباط وعلية القوم. ولم يقلقني هذا أبداً. لقد ارقتها كالماء. الارقام والاسماء جميعها لا تحضرني الآن. لكن هناك طفلاً لا استطيع ان اطرده من ذاكرتي؛ لقد قتلته ولا اقدر ان انساه. لماذا قتلته؟ لقد اضحكني، لقد قتلته بسبب نكتة، قتلته للاشيء، كالمجنون.

"حدث ذلك في ثورة شباط، في عهد كيرينسكي. كنا نقوم بحركة تمرد، قرب محطة قطار حديدي. وكنا قد تركنا الجبهة. ثم جاءنا شابٌ

مُشاغب يحاول ان يقنعنا بالعودة، وان علينا ان نستمرّ في القتال حتى النصر. كان تلميذاً في المدرسة الحربية، واخذ يعلمنا كيف نكون صالحين. كان كفرخ الدجاج. "حاربوا حتى النصر" كان هذا هو شعاره. وقفز الى برميل ماء، وأخذ يكرره. وكان البرميل على رصيف الخط الحديدي. قفز الى البرميل، لكي يدعو الى المعركة، من مكان عالٍ. ولكن الغطاء انقلب فجأة وسقط في البرميل، في الماء. لاتستطيع ان تتصور كم كان مضحكا. كادت خواصري تنفجر من الضحك. كنت امسك بندقيتي، وكان رأسي يتمزق من الضحك. لم استطع ان أبقى واقفاً. كان كأنه يدغدغني. حينئذٍ رفعت بندقيتي وصوبتها ثم اطلقت عليه النار. لا يمكنني ان اتصور كيف حدث ذلك. كأن شخصاً ما قد دفعني لقتله.

"هذا هو سبب هذياني. اعتقدُ، في الليل، انني ارى تلك المحطة. وقد وجدت هذا في الماضي مضحكاً، أما الآن، فانه يُرهقني."

"هل كان ذلك في محطة بيريوتشي، قرب قرية ميليوزئيف؟"

"لا اذكر".

"هل كنت في ثورة زيبوشينو؟"

"لا اذكر."

"وفي أي جبهة كنت؟ في الجبهة الغربية؟

"في مكانٍ ما يشبهها. هذا محتمل. لا اذكر."

الفصل الثاني عشر
شجرة الزيزفون

١

كانت قافلة عائلات الانصار بكامل اطفالها وحوائجها ، تتبع قوة الانصار الرئيسة منذ زمن طويل. وبعدها خلف العربات، سارت قطعان كبرى من الماشية، ومعظمها بقر -عدة آلاف منها.

ومع وصول النساء، ظهرت شخصية جديدة في المعسكر. كانت تدعى زليداريخا أوكوياريخا، زوجة احد الجنود وبيطرية وساحرة متخفية. كانت تسير وقد اعتمرت قبعة ثبتت على رأسها ولبست معطفاً عسكرياً اسكتلندياً اخضر اللون، جاء مع المعونة الانكليزية للحاكم الاعلى. كانت تؤكد للجميع ان القبعة والمعطف كانا لاحد الاسرى، وتقول ان الحمر حرروها من سجن كيشمسك حيث كان كولتشاك قد وضعها لسبب مجهول.

وكان الانصار قد انتقلوا الآن الى معسكر جديد، وكان المفروض انهم سيبقون هناك الى ان يتم فحص الجوار ويقع الاختيار على مكان مناسب للاشتاء. ولكنهم اضطروا، لتطورات لم تكن بالحسبان، ان يمضوا الشتاء هناك.

ولم يكن المعسكر الجديد شبيهاً بالقديم. فقد كانت الغابة حوله كثيفة يستحيل اختراقها. وكانت من الجهة البعيدة عن المعسكر والطريق العام، دون نهاية. وفي الايام الاولى، عندما كانت الخيام لا تزال تنصب، عمد يوري اندرييفيتش، وقد كان يتمتع بفراغ أكبر، الى

اكتشاف الغابة من مختلف نواحيها، فوجد ان المرء قد يضيع فيها بسهولة. وقد اذهله مكانان في اثناء نزهاته هذه، فبقيا في ذاكرته.

كان احدهما حافة الغابة التي تقع مباشرة خارج المعسكر. كانت الغابة وقد عراها الخريف، تسمح لك بالنظر من خلالها كالباب المفتوح؛ هنا كانت شجرة زيزفون(١) منفردة، باسقة، بلون الصدأ، وقد حافظت وحدها على أوراقها. وكانت تنمو على تلة صغيرة ترتفع فرق الارض الرطبة المنخفضة، وتشمخ نحو الفضاء، وهي تقبض على دروع ثمارها القاسية المستديرة في وجه سماء الخريف الرصاصية. وكانت العصافير الصغيرة بريشها الزاهي كالفجر، تحط على شجرة الزيزفون وتنقر اكبر اثمارها، ثم تمد اعناقها وتلقي برؤوسها الى الوراء لتبتلعها.

وكأنما قامت علاقة صميمية بين الشجرة والعصافير، كما لو انها كانت تراقب هذه الطيور مدة طويلة دون ان تفعل أي شيء، ثم عادت اخيراً فحدبت عليها واحتضنتها وغذتها كما تحل المرضع ازرار صدرتها لتقدم ثديها للطفل. وكأنما كانت تقول، والابتسامة على شفتيها: "حسناً، حسناً، كلن مني واشبعن."

اما المكان الثاني فقد كان اكثر روعةً. كان على مرتفع ينحدر بشدة من احد جانبيه. فكنت، اذا نظرت الى الاسفل، تشعر كأنما قاع المنحدر يختلف عمّا في القمة -جدول، او ثغرة، او حقل بري يزخر بأعشاب لم تقطع. ولكنه لم يكن، في الحقيقة، الا تكراراً للشيء نفسه، انما على عمق مخيف، فكأنما الغابة قد غارت الى مستوى اخفض بكل اشجارها، بحيث غدت رؤوس الاشجار تحت قدميك. ولعل انهداماً ارضياً كان قد حدث هناك في وقت من الاوقات.

وظهرت الغابة الجبارة كأنها كانت تسير على مستوى الغيوم، ثم

---

(١) هو نوع من الزيزفون في روسيا يعقد اثماراً تؤكل .

تعثرت وفقدت موطئ اقدامها فتدحرجت الى الاسفل كتلة واحدة، وكان لابدّ ان تصطدم بالارض لو لم تنقذ نفسها باعجوبة، في اللحظة الاخيرة -فاذا بها الآن صحيحة سليمة، قابعة في الاسفل.

غير ان ما اعطى المرتفع في الغابة جماله فشيء آخر. كان مسوّراً على طول حوافيه بصخور من الغرانيت واقفة على اطرافها. فحين اتى يوري اندرييفيتش الى هذه السطيحة الصخرية للمرة الاولى، كان واثقاً انها لم تكن طبيعية الصنع، وانها لم تلامسها ايدي البشر. فلعلها كانت معبداً وثنياً قديماً سفحت فيه الذبائح واقيمت الصلوات.

وكان هنا ايضاً ان نُفذ حكم الاعدام، في صباح بارد كئيب، بأحد عشر شخصاً من زعماء المؤامرة، وباثنين من الممرضين حكما بالاعدام لتهريب الفودكا.

لقد ساق عشرون رجلاً من اخلص الانصار، بينهم جماعة من حرس القائد الخاص، المحكومين الى تلك البقعة، ثم اطبقوا عليهم في نصف دائرة، وبنادقهم في ايديهم، واندفعوا نحوهم بخطا سريعة ثابتة فتراجعوا الى حافة السطيحة. ولم يعد امامهم أي مفر الا المنحدر.

وكان المحكومون، بتأثير الاستجواب والسجن الطويل والتعذيب، قد فقدوا مظهرهم الانساني. وبدوا كالاشباح، بشعرهم الطويل ووجوههم الكالحة الزائغة.

وكانوا قد جردوا من سلاحهم عند توقيفهم، ولم يخطر لاحد ان يفتشهم مرة ثانية قبل اعدامهم لأن مثل هذا التفتيش بدا عقيماً وقبيحاً، واستهزاء شرساً برجال يواجهون الموت.

اما الآن، فقد اطلق رجانيتسكي، صديق فدوفيتشنكو، وقد كان يسير الى جانبه وكان مثله فوضوياً قديماً، ثلاثة عيارات نارية على الحرس وسدّدها نحو سيفوبلوي. كان رامياً ماهراً، غير ان يده اهتزت من شدة انفعاله فاخطأه. وللمرة الثانية. حالت الدراية والشفقة على الرفاق

القدماء بين الحرس وبين الانقضاض على الجاني او رميه فوراً بالرصاص. وكان لايزال في مسدس رجانيتسكي ثلاث رصاصات لم تستعمل، ولكنه جن من فشله او لعله في ساعة اضطرابه نسي انهم كانوا هناك فرمى بمسدسه على الصخور. فانطلق المسدس للمرة الرابعة واصاب احد المحكومين، ويدعى باشكوليا، في قدمه.

وصرخ باشكوليا وامسك بقدمه وسقط يتلوى من الالم. ورفعه الرجلان الواقفان بجانبه وهما بافنوتكين وغورازديخ وجراه من ذراعيه حتى لا يقتله رفقاؤه الذين لم يدروا ماذا يفعلون. واذ كان باشكوليا عاجزاً عن وضع قدمه المصابة على الأرض، فقد قفز وهو يعرج نحو الحافة الصخرية التي كان يساق اليها الرجال المحكومون وارتمى وهو ينتحب دون توقف. وامتدت تأوهاته العميقة كالعدوى، ففقد الجميع رباطة جأشهم. ثم جرى مشهد لا يوصف. فقد اخذ الرجال يشتمون عالياً، ويلتمسون الرحمة، ويصلّون ويلعنون.

ورمى غالوزين الشاب قبعته المدرسية الصفراء المخططة التي كان لا يزال يعتمرها وركع على ركبتيه واقترب وهو لا يزال راكعاً، كسائر زملائه، من الصخور الرهيبة. وانحنى مرات عديدة الى الارض امام الحرس، وصاح بصوت مرتفع مردداً دون تفكير:

"سامحوني ايها الرفاق، اني متأسف، لن افعل ذلك مرة ثانية، ارجوكم اطلقوا سراحي. لا تقتلوني. انا لم أعش بعد. اريد ان اعيش قليلاً، اريد ان ارى امي مرة اخرى فقط. ارجوكم دعوني ايها الرفاق، ارجوكم سامحوني. سأفعل كل ما تريدون. اقبل الارض تحت اقدامكم. النجدة، لقد انتهيت يا امي!"

وردد شخص آخر مختبئ بين الجماعة:

"ايها الرفاق الطيبون، ايها الرفاق اللطفاء! هل هذا ممكن؟ لقد حاربنا معاً في حربين! وقفنا وحاربنا من اجل القضايا ذاتها! اطلقوا

سراحنا ايها الرفقاء، اشفقوا علينا. سنردّ لكم لطفكم، سنكون ممتنين لكم طول حياتنا، سنبرهن لكم عن ذلك. هل أصبتم بصمم ام ماذا؟ لماذا لا تجيبون؟ ألستم مسيحيين؟"

وصاح آخرون بوجه سيفوبلوي:

"يهوذا! يا قاتل المسيح! إن كنا خونة فأنت ثلاث مرات أكثر خيانةً منا، ايها الكلب، انك تستحق الخنق. لقد قتلت قيصرك المفدى الذي اقسمت له يمين الولاء، اقسمت على الاخلاص لنا وخنتنا. اذهب، قبّل رجل الغابة، ذلك الشيطان، قبل ان تخونه! انك ستخونه ايضاً!"

اما فدوفيتشنكو، فقد ظل، حتى على حافة القبر، صادقاً مع نفسه. كان رأسه عالياً وشعره الاغبر يتطاير في الهواء. وسرعان ما صاح موجهاً كلامه الى رجانيتسكي، كما يوجه فوضوي كلامه الى فوضوي، فقال:

"لاتذل نفسك! احتجاجك لن يصل اليهم. هؤلاء الاوبريشنيكي[1] الجدد، هؤلاء الجلادون في غرف التعذيب الجديدة، لن يفهموك ابداً! ولكن لا تفقد الامل. سوف يكشف التاريخ عن الحقيقة. سوف تفضح الاجيال الطالعة حكم المفوضين البورونيين وافعالهم القذرة. اننا نموت شهداءً في سبيل مثلنا العليا عند فجر الثورة العالمية. لتحيَ ثورة الفكر! لتحيَ الفوضوية العالمية!"

وتصاعدت عشرون طلقة، انصياعاً لأمر لم يسمعه احد الا الرماة، فحصدت نصف المحكومين وقتلت معظمهم فوراً. وقتل الباقون برشقة ثانية، وانتفض الفتى تيريوشكا غالوزين، اكثر من سواه، ولكنه ما لبث أن فارق الحياة.

---

(١) اوبريشنيكي هي قوات الامن التي كانت عند ايفان الرهيب .

٢

لم يُقلَع بسهولة عن فكرة الانتقال الى مكان آخر، يكون ابعد نحو الشرق، لتمضية فصل الشتاء. فأُرسلت الدوريات لتفقد المنطقة خلف الطريق العام على طول مسيل المياه. وكان ليبيريوس يتغيب باستمرار تاركاً الطبيب وحده.

ولكن الوقت أصبح متأخراً للانتقال، اذ لم يعد امام الانصار مكان يذهبون اليه، فقد كان هذا الوقت عندهم اسوأ الاوقات. فالبيض صمموا قبل ان يندحروا نهائياً على ان يتخلصوا من وحدات الغابة غير النظامية دفعة واحدة، فطوقوها وضيقوا عليها من جميع الجهات. وكاد الموقف ان ينقلب الى كارثة تنزل بالانصار، لأن دائرة الطوق كانت تضيق عليهم. ولكنهم سلموا، لأن الشتاء المقترب جعل دخول الغابات صعباً، فعجز العدو بذلك عن تنفيذ خطته.

هكذا أصبح الانتقال مستحيلاً. كان بامكانهم، في الواقع، ان ينفذوا الى مواقع جديدة لو انه كان في يدهم مخطط ذو ميزات عسكرية واضحة. على ان مخططاً من هذا النوع لم يوضع. فقد كان الرجال في منتهى درجات العياء. وفقد صغار الضباط رباطة جأشهم، ثم سيطرتهم على مرؤوسيهم. وكان كبار الضباط يجتمعون ليلياً ويقترحون حلولاً متضاربة. واخيراً أقلع عن فكرة نقل المعسكر واستُعيض عنها بفكرة تحصين المواقع الحالية في قلب الغابات. وكانت افضلية هذه المواقع في ان الثلج الكثيف قد جعلها بعيدة المنال، لاسيما ان البيض لم يكونوا مجهزين بالزحافات. وهكذا اصبحت المهمة الفورية هي الحفر وطمر مؤن وافرة.

وأعلن بيسيورين، ضابط تموين المعسكر، عن وجود نقص كبير في الطحين والبطاطا. غير ان القطعان كانت وافرة، ولذلك رأى ان معظم

غذاء الشتاء سيكون من الحليب واللحوم.

وكان هناك نقص في الثياب الشتوية، ومعظم الانصار نصف عراة. وهكذا عمدوا الى قتل كلاب المعسكر ثم راح اولئك الذين لهم خبرة بصنع الفراء يصنعون من جلودها معاطف تُلبس وشعرها الى الخارج.

ومنع الطبيب من استخدام النقليات، اذ احتُفظ بالعربات الزحافة للمهمات الاكثر خطراً. فقد حُمل الجرحى، في آخر مرة نقل الانصار معسكرهم، مسافة ثلاثين ميلاً على النقالات.

ولم يبق لديهم من الادوية الا الكينا، والملح الانكليزي، واليود. وكان اليود بشكل بلورات تذاب في الكحول فتصبح صالحة للاستعمال في الضماد والعمليات. وندموا الآن على اتلاف الفودكا، فأمروا صانعيها الذين برئوا في المحاكمة لأنهم كانوا اقل اجراماً من الآخرين، باصلاح مخامرهم او بناء اخرى جديدة. واستؤنفت صناعة الكحول للأغراض الطبية. وعندما شاع الخبر في المعسكر تبادل الناس نظرات ذات معنى وهزوا رؤوسهم ولم يلبث السكر أن عمَّ من جديد فأسهم في تحطيم المعنويات العامة.

وكاد الكحول المستخرج ان يكون صافياً مئة بالمئة، فكان بامكانه، وهو على مثل هذه القوة، ان يحل البلورات، كما كان صالحاً لتحضير صبغة الكينا التي كانت تستعمل في معالجة التيفوس عندما ظهر من جديد في بدء الفصل البارد.



في هذا الوقت ذهب الدكتور لزيارة بامفيل وعائلته. لقد امضى زوجته واولاده فصل الصيف الماضي مشردين في الطرقات تحت السماء المكشوفة. وكان الرعب قد سيطر عليهم بسبب الاهوال التي عانوها، وكانوا ينتظرون سواها. كان تشردهم الطويل قد طبعهم بطابع لا يمحى؛

فقد استحال شعر زوجة بامفيل وابنته وابنه الصغير، بتأثير السجن، الى لون التبن؛ وابيضت حواجبهم فوق وجوههم المسمرّة التي انهكها الطقس. ولكن فيما استطاع الاطفال، لصغر سنهم، ان يتحملوا آثار تجاربهم، فقد بدا وجه امهم كوجه الاموات. لقد ضيّق الارهاق والخوف شفتيها حتى اصبحت كالشعرة، وجمدت ملامح وجهها الجافة في مظهر متحجر ينطق بالالم والاستسلام.

وكان بامفيل يكرس نفسه لهم، ويحب اولاده حتى الوله. وقد اذهل الدكتور بمهارته في حفر ألعاب من الارانب والديكة والدببة لهم، مستعملاً لذلك طرف نصلة فأسه المشحوذة.

وارتفعت معنوياته بوصول عائلته وابتدأ يشفى. ولكن الاخبار سرعان ما وصلت بان وجود العائلات امر مخلّ بالنظام، وبانها على وشك ان ترسل، تحت حراسة جيدة، الى مخيمات للشتاء تقع على مسافة ما من المعسكر، فيتخلص بذلك من عبء اللاجئين المدنيين. وكان هناك كلام عن هذا المخطط اكثر من تحضير فعلي لتنفيذه. وكان الدكتور يظن انه لن ينفذ ابداً، ولكن ذهن بامفيل انهار وعاودته هواجسه.

٤

وقبل ان يقع الشتاء اخيراً، مر المعسكر في فترة من الاضطرابات – قلق، شكوك، مواقف غامضة تنذر بالاخطار، حوادث سيئة الطالع.

لقد أكمل البيض تطويقهم وفقاً للمخطط. كانوا تحت قيادة الجنرالية فيتسين وكادري، وباساليغو، وكان قد ذاع صيتهم لقسوتهم وصلابة قراراتهم، حتى اصبح اسمهم وحده كافياً لارهاب اللاجئين داخل المعسكر، فضلاً عن سائر السكان المسالمين في القرى الاصلية خلف القوات البيضاء المطوّقة.

لم يكن، كما اشرنا ، لدى العدو وسائل لتضييق قبضته، ولذلك لم يكن لدى الانصار ما يقلقهم من هذه الجهة، على انه كان من المستحيل عليهم ان يبقوا دون حركة. فقد ادركوا ان اذعانهم لوضعهم هذا يقوي معنويات العدو. ومهما كانوا آمنين داخل الطوق المضروب حولهم، فقد كان عليهم ان يحاولوا الخروج ولو لم يكن ذلك الا كمظاهرة عسكرية.

وافرزت قوة ضخمة لهذه المهمة وحشدت ضد القوس الغربي من الدائرة. وبعد بضعة ايام من القتال المرير، انتصر الانصار على البيض ونفذوا الى مؤخرتهم.

وفتحت هذه الثغرة طريقاً الى المخيم في الغابة، ومن خلالها انتشرت موجة من اللاجئين الجدد. لم يكونوا كلهم تابعين للانصار. ذلك ان الفلاحين في الريف المجاور تركوا بيوتهم، وقد ارهبتهم العقوبات الزجرية القاسية التي فرضها البيض، طالبين الآن الالتحاق بالانصار الذين اصبحوا يعتبرونهم حماتهم الطبيعيين.

ولكن المعسكر الذي كان يبحث عن طريقة للتخلص من أعبائه، لم يكن مستعداً لقبول قادمين جدد وغرباء. وأُرسل رجال لمقابلة اللاجئين وتحويلهم الى قرية على نهر شيليمكا. وكانت القرية تدعى دفوري (المزارع)، للمزارع التي نشأت حول الطاحونة هناك. وكانوا يفكرون في ان يُسكنوا اللاجئين في تلك القرية مدة الشتاء ويرسلوا اليهم المؤن المخصصة لهم.

وفيما كانت هذه الخطوات تتخذ، كانت الاحداث تتابع مجراها الخاص، ولم يكن في وسع قيادة المعسكر دائماً ان توجهها الوجهة التي ارادت.

فقد تمكن العدو ان يغلق الثغرة التي أُحدثت في مواقعه، ولم يعد بإمكان الوحدة التي اخترقت هذه المواقع ان تعود الى المعسكر.

ولم يمكن ايضاً ضبط النساء اللاجئات. فقد كان من السهل على المرء

ان يضيع في تلك الغابة. فالرجال الذين أرسلوا لارجاع اللاجئين كانوا غالباً ما يفقدونهم، فيما كانت النساء يتوافدن على الغابة، فيقطعن الأشجار ويقمن طرقات وجسوراً ويحققن معجزات تشهد بسعة الحيلة.

لقد كان هذا كله بخلاف ما قصدت اليه قيادة الانصار، مما ادى بالمخطط الذي وضعه ليبيريوس الى الفشل.

٥

لذلك كان في مثل حالته تلك من الغضب، وقد وقف يتحدث الى الصياد سفيريد، قرب الطريق العام الذي كان يحاذي الغابة في تلك النقطة. وكان عدد من ضباطه يقفون على الطريق العام، يتناقشون في أمر قطع خطوط التلغراف التي كانت تمر بازاء الطريق. كانت الكلمة الاخيرة لليبيريوس، ولكنه كان منهمكاً في حديثه مع الصياد، وكان لا يكف عن الايماء الى الآخرين بأن ينتظروه.

كان سفيريد قد تأثر عميقاً بقتل فدوفيتشنكو، وقد كانت جريمته الوحيدة ان نفوذه كان ينافس نفوذ ليبيريوس ويجلب الشقاق الى المعسكر. وتمنى سيفيريد لو كان بامكانه ان يترك الانصار ويرجع الى حياته الخاصة المستقلة القديمة. ولكن هذا لم يكن موضوعاً للبحث. لقد اختار طريقه، فاذا ما غادر اخوان الغابة الآن فلسوف ينزل به حكم الاعدام كأي فارٍّ من الجيش.

وكان الطقس أسوأ ما امكن ان يكون. ريح حادة، بطيئة كانت تنزلق وهي تجرف غيوماً، وطيئة، سوداء كالهباء المتطاير، امامها. وكان الثلج يهبط منها فجأة بسرعة جنونية. ولم يلبث بساط الارض الواسع ان تغطى بغطاء أبيض. وسرعان ما اضمحلّ الغطاء الابيض وذاب تماماً، فبرزت الارض سوداء كالفحم تحت الفضاء القاتم وقد غسلتها زخات

منحنية من مطر بعيد. ولم يعد بامكان الارض ان تمتص ماءً اكثر مما فعلت، فكانت الغيوم اذاك تنفتح كالنوافذ كأنما تريد تهوية الفضاء الذي تألق ببريق ابيض لامع بارد. وكان الماء الراكد الذي لم يذهب في الارض بعد، يتجاوب بفتح نوافذ مستنقعاته وبركه ويتألق بالبريق نفسه. وكانت الابخرة تتصاعد كالدخان فوق احراج الصنوبر. وتعلقت قطرات المطر على خطوط التلغراف كحبات السبحة، واحدة خلف الاخرى، دون ان تقع.

وكان سفيريد احد الذين ارسلوا لمواجهة النساء اللاجئات، وكان يريد ان يخبر قائده عما رآه -عن الفوضى التي حصلت من جراء الاوامر المتناقضة فلم ينفذ أي واحد منها، وعن الفظائع التي ارتكبتها العناصر الضعيفة بين القطيع النسائي، وقدكن اول من وقع في اليأس. لقد كانت الامهات الشابات يمشين على اقدامهن محملات بالاكياس والاغراض والاطفال، وقد غاض حليبهن، فخرجن من عقولهن بسبب اهوال النهار، وتركن اطفالهن، وافرغن الذرة من اكياسهن على الارض، وقفلن راجعات. لقد قررن ان الموت السريع افضل من الموت البطيء جوعاً، فآثرن ان يسقطن في قبضة العدو على ان تمزقهن حيوانات الغابة شرَّ ممزق.

اما سائر النساء الاخريات، وقد كن اقوى من هؤلاء، فكن مثال شجاعةٍ وضبط نفسٍ، أنى للرجال مجاراتهن فيه. وكان لدى سفيريد انباء اخرى عديدة أراد ان ينقلها الى قائده. اراد ان يحذره من عصيان جديد متوقع، اشد خطراً مما أخمد من قبل، ولكن ليبيريوس، جرّده وهو يستخدمه، من القدرة على الكلام. واستمر ليبيريوس يقاطع سفيريد، ليس فقط لان أصدقاءه كانوا يدعونه وهم يلوحون له من الطريق العام، بل لانه كان يتلقى خلال الاسبوعين الماضيين تحذيرات مماثلة من وقت لآخر حتى اصبح يعرفها عن ظهر قلب.

"اعطني وقتاً، ايها الرفيق القائد. لست بارعاً في ايجاد الكلمات. انها تلتصق بحنجرتي فتهزني. ما اقوله هو هذا، اذهب الى مخيم اللاجئين وقل للنساء ان يوقفن عبثهن. والا فاني اسألك، ماذا يعني هذا -"الجميع ضد كولتشاك!" أهي حرب اهلية بين النساء؟"

"سفيريد، اسرع. ألا ترى انني مطلوب، لاتتوقف".

"هذه الشيطانة زليداريخا، الله وحده يعرف ما هي. انها تقول: "عيّنوني مروّحة على القطيع..."

"بيطرية، تريد أن تقول".

"اقول مروحة تشفي القطعان من الريح. انها لا تشرف على القطعان، الآن، هذه الكافرة، اصبحت ام الشيطان المكرمة، تقول ان الابقار تتجمع، وتلهي النساء اللاجئات الشابات عن واجبهن وتقول لهن: لا تلمسن الا انفسكن على بؤسكن، هذا ما يحدث لكن عندما ترفعن اثوابكن وتركضن خلف العلم الاحمر. لا تفعلن ذلك مرة ثانية."

"عن أي لاجئات تتكلم -لاجئاتنا من المعسكر او غيرهن؟"

"اللاجئات الاخريات بالطبع، الجديدات، الغريبات."

"ولكن لديهن اوامر بأن يذهبن الى دفوري. كيف وصلن الى هنا؟"

"دفوري! مكان جيد. احترقت دفوري، الطاحون وكل شيء، لم يبق منها الا الرماد. هذا ما رأوه عندما اقتربوا -لم يكن هناك نسمة حياة. نصفهن اصبن بالجنون، فصرخن وأعولن ورجعن مباشرة الى البيض، والنصف الآخر عاد الى هنا."

"ولكن كيف قطعن الغابة والمستنقعات؟"

"لماذا وجدت الفؤوس والمناجل إذاً؟ بعض رجالنا، الذين ارسلوا لحراستهن ساعدوهن قليلاً. يقولون انهن قطّعن عشرين ميلا من الطرقات بما فيها الجسور وكل شيء. تتكلم عن النساء! لقد قمن بأعمال تأخذ منا شهراً من ايام الآحاد."

"جميل، عشرون ميلاً من الطريق! لعلك مسرور بذلك ايها الحمار؟ هذا بالضبط ما يرغب فيه البيض: طريق الى الغابة! والآن كل ما عليهم هو ان يدفعوا عليه مدفعيتهم!"

"ارسل قوة لحراسة الطريق."

"يمكنني ان افكر لنفسي، شكراً."

٦

غدت الايام اقصر، فقد كان الظلام يخيم في الخامسة. وعند الغسق قطع يوري اندرييفيتش الطريق العام حيث كان ليبيريوس يتحدث الى سفيريد منذ بضعة ايام. كان في طريق عودته الى المعسكر. وقرب الفسحة حيث كانت التلة الصغيرة وشجرة الزيزفون تشيران الى حدود المخيم، سمع صوت كوباريخا، وقد كان يدعوها مازحاً منافسته، يرتفع عالياً متحدياً. كانت تغني اغنية مرحة ترك صوتها عليها اثراً خشناً قاسياً. وحكم من صيحات التحبيذ وقهقهاته التي كانت تقطع الاغنية، بان جماعة من الرجال والنساء كانوا يستمعون اليها. ثم خيم السكون. فالناس قد تفرقوا.

وظنت كوباريخا نفسها وحيدة فراحت تغني اغنية اخرى بصوت ناعم كانها كانت تغني لنفسها. وتوقف يوري اندرييفيتش عن اكمال سيره وقد كان يشق طريقه بحذر في الغسق على الدرب الضيق الذي يحاذي شجرة الزيزفون. وكانت كوباريخا تنشد اغنية روسية قديمة، لم يكن يعرفها. فلعلها كانت ترتجلها؟

ان الاغنية الشعبية الروسية القديمة كالماء الذي يوقفه سد. فكانما هو ساكن لايجري، ولكنه في اعماقه يندفع دون توقف من خلال المنافذ السفلى، اما سكون سطحه فليس الا سكوناً خداعاً. وتستخدم الاغنية

كل الاساليب: التكرار والتشابيه لتبطىء في سرد مواضيعها المتدرج. وعندئذ، في احدى المراحل، تعلن فجأة عن نفسها وتدهشنا. هكذا يعبر روح الاغنية الحزين عن نفسه. الاغنية محاولة مجنونة لايقاف الزمن بالكلمات.

كانت كوباريخا تغني تارة وتنشد تارة أخرى:

بينما الارنب يركض في العالم الفسيح،
في العالم الفسيح، فوق الثلج الابيض،
مرّ، الارنب الطويل الاذنين، بشجرة زيزفون
بشجرة زيزفون وشكالها.
قال: أليس لي قلبٌ جبان،
قلبٌ جبان، خائف وضعيف؟
اخاف دروب الوحوش الضارية، قال،
دروب الوحوش الضارية، امعاء الذئب الجائعة.
اشفقي علي، يا شجرة الزيزفون! يا شجرة الزيزفون الجميلة!
لا تعطي جمالك للعدو الشرير،
العدو الشرير، الغراب الشرير.
انثري اثمارك الحمراء مع الريح،
مع الريح، في العالم الفسيح، فوق الثلج الابيض
القِ بها، دحرجيها، حتى مسقط رأسي،
الى آخر الشارع، الى آخر بيت،
آخر بيت في الشارع، الى آخر شباك، الى الغرفة
التي حبست نفسها فيها،
حبيبتي، حبيبتي التي اشتاق اليها،
اهمس لحبيبتي الملتاعة، لزوجتي،
كلمة دافئة ملتهبة.

انني جندي اذوب في الاسر،
احن لوطني، جندي مسكين في ارض غريبة.
سأهرب من الحياة المريرة،
واذهب الى ثمرتي الحمراء، الى زوجتي المحبوبة."

٧

جلبت اغافيا فوتيفنا، زوجة بامفيل، بقرتها المريضة الى كوباريخا. وكانت البقرة قد فصلت عن القطيع وربطت الى شجرة بحبل من قرنيها. وجلست صاحبتها على قطعة خشب عند قائمتيها الاماميتين وكوباريخا على سطل حليب عند قائمتيها الخلفيتين.

وجمع سائر القطيع الكبير في مرعى احيط من جميع جهاته بغابة قاتمة من السرو والمثلث العالي مثل التلال، وقد تملص من اغصانه السفلى التي بدت كأنها تركع على الارض.

وكانت معظم الابقار سوداء مرقطة ببقع بيضاء من نوع سويسري منتشر في سيبيريا. وكانت منهكة، ولكأنما لم تكن أقل انهاكاً بالحرمان والتنقل المستمر والتجمع الكثيف من اصحابها. واذ كانت تحتك بعضها ببعض، ويجن جنونها لضيق المكان، فقد نسيت جنسها وراح بعضها يقفز على بعض وهي تدفع بجهد أثداءها الثقيلة الى الاعلى وتخور كالثيران. وكانت العجول التي انسحقت تحتها تتملص وتهرب راكضة نحو الغابة وقد قامت أذنابها في الهواء وهي تحطم الاغصان والنباتات. وكان الرعاة ـ من الشيوخ والاطفال ـ يركضون صارخين.

وكأنما كانت السحب ايضاً محصورة في نطاق رؤوس الاشجار تحت سماء الشتاء فوق المرعى، فقد تجمعت سوداء بيضاء، وتكومت وتساقطت في فوضى شبيهة بفوضى البقر.

وانزعجت الساحرة من المتفرجين الفضوليين الذين وقفوا حولها، فحدجتهم من فوق الى تحت بنظرة عدائية. ولكن كبرياءها كفنانة، جعلتها تشعر بانه لما يحط بمقامها ان هي أقرت بانهم يزعجونها. فتظاهرت بانها لا تراهم. وراقبها الدكتور من خلف الجماعة بحيث لم يكن بامكانها ان تراه.

وللمرة الاولى تملاها بنظره. كانت تلبس كالعادة قبعتها ومعطفها الاخضر الانكليزيين. ولكن التعبير العاطفي المتكبر الذي كان يعطي عينيها حرارة الشباب وحَوَره رغم تقدمها في السن، دل دلالة اكيدة على انها لم تكن تهتم في النهاية بما تلبس او لا تلبس.

ودهش يوري اندرييفيتش للتغير الذي لاحظه في زوجة بامفيل. كاد ألا يعرفها. لقد هرمت في الايام الاخيرة بشكل مخيف. كانت عيناها الزائغتان على وشك ان تقفزا من محجريهما، وكان عنقها دقيقاً طويلاً مثل عمود عربة. الى هذا الحد بلغ تأثير مخاوفها الدفينة عليها.

وكانت تقول: "انها يا عزيزتي لا تدر حليباً، ظننت انها ترضع، ولكن كان عليها ان تدر الآن، وليس عندها عجل."

"كيف ترضع؟ يمكنك ان تري بثور الجمرة على اثدائها. سأعطيك مرهماً من بعض الاعشاب لتدلكيها به. وبالطبع سأقرأ تعويذة عليها."

"همّي الثاني هو زوجي."

"سأسحره ليعود، يزوغ مرة اخرى. هذا سهل. سيلتصق بك فلن تعودي قادرة على التخلص منه. ما هو همك الثالث؟"

"المشكلة ليس انه منحرف، لو كان كذلك لهان الأمر. المشكلة هي انه يلتصق بي وباولاده بكل قوته، وهذا يحطم قلبه. اعرف ماذا يفكر. يظن انهم سيفرقون المعسكر فيرسلوننا الى جهة ويرسلونه الى اخرى. وبذلك نقع في ايدي رجال باساليفوي، ولن يكون هو معنا، ولن يكون هناك احد ليدافع عنا. وانهم سيعذبوننا، ويجدون في عذابنا تسلية.

اعرف افكاره. اخاف ان يقتل نفسه."

"سأفكر في الامر، وسأجد وسيلة لانهاء احزانك. ما هو همك الثالث؟"

"ليس لي هم ثالث. هذا كل شيء - بقرتي وزوجتي."

"إذاً،مسكينة انت في احزانك، يا عزيزتي. انظري كم كان الله رحيماً بك! وانت لا تعرفين ذلك. همّان فقط في قلبك المسكين، واحدهما زوج محب! فلنبدأ. ماذا تعطيني لقاء البقرة؟"

"ماذا تأخذين؟"

"آخذ رغيفاً من الخبز وزوجك."

وانفجر المتفرجون ضاحكين.

"هل تمزح؟"

"هذا كثير؟ إذاً، أستغني عن الرغيف. دعينا نكتفي بزوجك."

وارتفع الضحك عالياً.

"ما هو الاسم؟ لا اعني اسم زوجك، بل اسم البقرة."

"جمال."

"نصف القطيع يدعى بهذا الاسم. لا بأس. فلنبدأ مع بركة الله."

وقرأت التعويذة على البقرة. كانت في البدء مهتمة حقاً بالبقرة، ولكنها بعد لحظة بدأت تعطي اغافيا مجموعة من التعليمات عن صناعة السحر. واصغى يوري اندريفيتش مأخوذاً تماماً مثلما اصغى الى ثرثرة السائق باخوس، عندما وصل للمرة الاولى من روسيا الاوروبية الى سبيريا.

وكانت المرأة تقول:

"ايتها العمة مارغستا، تعالي وانزلي عندنا. تعالي يوم الاربعاء، خذي الطاعون، خذي السحر، خذي البثرة. ايتها الدودة، اتركي ثدي البقرة. اهدئي يا جمال، افعلي واجبك ولا تقلبي السطل. قفي كالتلة،

لاتتحركي، ودعي الحليب يدرّ ويهطل. الخوف، الخوف، ابرز قوتك، خذي البشرة، ارمي بها في الاشواك، كلام الساحر قوي كالسيد.

"أغافيا، يجب ان تعرفي كل شيء -الأمر والنهي، كلمة الهرب وكلمة الامان. انت الآن مثلا تنظرين الى هناك وتقولين لنفسك: "هناك غابة." ولكن ما هو هناك حقاً هو قوى الشر تحارب جموع الملائكة- انهم في حرب كما يحارب رجالك رجال باساليغو.

"او خذي مثلاً آخر، انظري الى حيث أشير. انك تنظرين في الجهة المعاكسة؛ يا عزيزتي، استعملي عينيك. لا مؤخرة رأسك، انظري حيث تشير اصبعي. حسناً! والآن ماذا تظنينه هذا؟ انك تظنينه غصنين صغيرين الصقهما الهواء معاً؟ او هو عصفور يبني عشه؟ كلا، انه لا هذا ولا ذاك. هذا الشيء من صنع الشيطان حقاً، انه ضفيرة ابتدأ روح المياه يجدلها لابنته. سمع الناس قادمين فذعر وتركها قبل ان يكملها، ولكنه سيكملها حتماً في احدى الليالي، سترين.

"وايضاً، خذي شارتك الحمراء. تظنين انها علم. أليس هذا ما تظنين؟ حسناً، انها ليست علماً. انها منديل الموت الأحمر، يستعمله للتضليل. ولماذا التضليل؟ انه ينسجه ويشير برأسه ويغمز ويضلل الشباب ليأتوا فيقتلوا، ثم يرسل الجوع والطاعون. هذا ما هو. ثم انك تصدقينه. ظننت انه علم. ظننت انه: "تعالوا الي يا فقراء ويا بروليتاريا العالم."

"اغافيا، يجب ان تعرفي كل شيء في هذه الأيام، يا بنيتي، كل شيء. ما هو كل عصفور وكل حجر وكل نبتة عشب. هذا الطير مثلاً شحرور. وذاك الحيوان سمور.

"والآن، شيء آخر: لنفترض انك اعجبت بأحدهم، ما عليك الا ان تخبريني. سأجعله يذوي من حبه لك، اياً كان -رجل الغابة، اذا أردت، قائدك هذا، او كولتشاك او ايفان ابن القيصر، أي شخص. اتظنين انني

ابالغ؟ كلا انني لا ابالغ. والآن انظري، سأخبرك. عندما يأتي الشتاء وتأخذ العواصف والرياح والثلوج يطارد بعضها بعضاً في الحقول، سأغرز سكيناً في أحد اعمدة الثلج حتى مقبضها، وعندما اخرجها من الثلج تكون حمراء من الدماء. هل سمعت عن شيء كهذا؟ حسناً. لقد وصلت! وتظنين انني ابالغ. والآن تسألين كيف يمكن ان يقع هذا فيخرج الدم من كتلة الثلج المصنوعة من الثلج والهواء فقط؟ هذا يا عزيزتي لأن الرياح الهادرة ليست رياحاً وثلجاً فقط، انها انسان تحول الى ذئب، فقد ولده الصغير المسحور فراح يبحث عنه، يقطع الحقول معولاً مفتشاً عنه. هذا ما اضربه بسكيني ولذلك يخرج منه دماء. والآن بهذه السكين يمكنني ان امحو اثر اقدام أي رجل، ويمكنني ان اخيطها بخيط من حرير الى ثوبك والى ذلك الرجل -أياً كان، كولتشاك أو سترينيكوف أو أي قيصر جديد يتوجونه -سوف يتبعك خطوة خطوة اينما ذهبت. ظننت انني اكذب، ظننت انها مثل: "تعالوا الي يا فقراء يا بروليتاريا العالم."

"وهناك اشياء كثيرة اخرى، منها الحجارة التي تمطرها السماء حتى اذا ما خرج احدهم من بيته انهمرت الحجارة فوق رأسه. أو كما قد أبصر بعضهم، خيالة يكرّون في الفضاء وحوافر الجياد ترتطم بأسطحة البيوت. او كما قد تنبأ المنجمون منذ القديم قائلين: "في هذه المرأة ذرة، في تلك عسل، في الثالثة فراء سنجاب"، ويشق الفارس كتف المرأة كأنها خوذة، ويأخذ على رأس سيفه من عظم كتفها مكيالاً من الذرة، او سنجاباً او قرصاً من العسل."

نحس أحياناً بشعور قوي عميق. مثل هذا الشعور ينطوي دوماً على عنصر الشفقة. وكلما ازداد حبنا، بدا لنا محبوبنا ضحية. وعند بعض الرجال تتجاوز الشفقة على امرأة ما كلّ حد فتنقلها إلى عالم لا واقعي، خيالي كله مثل هؤلاء. يغارون حتى من الهواء الذي تتنفسه، من قوانين الطبيعة، من كل شيء حدث في العالم قبل ان تولد.

وكـان يوري اندرييـفيـتش قـد قـرأ ما يكفي لان يلاحظ ان كلمـات كوباريخا الاخيرة انما كـانت تردد مطلع مقطع من تاريخ قديم، إما تاريخ نوفغـورود او ايباتييفـو، ولكن شوه لكثرة ما تناقله المنجمون والسحرة شفهيـاً على مدى قرون، حتى ضـاع معناه الأساسي. لماذا إذاً وقع تماماً تحت سلطان الاسطورة؟ لماذا اثرت فيـه هذه السـخـافـات، هذا الحـديث الفارغ، كانما كانت حقائق واقعة؟

كانت كتف لارا مفتوحة. وكالمفتاح الذي يدور في قفل خزانة سرية، فتح السيف عظم كتفها، والاسرار التي احتفظت بها في اعماق نفسها برزت الى النور. مدن وشوارع وغـرف وارياف مجـهولة تكشفت امـامـه كشريط من الصّور، تعلن عن مضامينها.

كم احبها! كانت جميلة! تماماً كما فكر وحلم وتمنى دائماً! وما الذي جعلها رائعة بهذا المقدار؟ هل كان شيئاً يستطاع تسميته وتحليله؟ كلا، والف كلا! كانت رائعـة بفضل الخط النادر البسيط السريع الذي رسمه الخالق، بضربة واحدة حولها، ثم أودعت بهذا الشكل السماوي، كطفل لف بغطاء بعد اغتساله، في خزانة نفسه.

ومـاذا اصـابه الآن، اين هو؟ في احـدى غـابات سيـبـريا مع الانصـار المطوقين، وقد كان عليه ان يشاطرهم مصيرهم. أي مأزق غير معقول، لا يصـدق، كـان هذا. ولمرة اخـرى، اصبح كل شيء في ذهنه وامـام عـينيـه مـختلطاً غـائماً. وفي تلك اللحظة، بدل ان يقع الثـلج، كمـاكـان منتظراً، هطل مطر خفيف. وكلافتة ضخمة معلقة فوق احد شوارع المدينة، تعلقت امامه في الهواء من طرف المرعى الى الطرف الآخر، صورة غامضة مكبرة جداً لرأس وحيد، مدهش، معبود. كان الشبح المرئي يبكي، والمطر الذي ازداد الآن سقوطه يقبله ويرويه.

وقـالت السـاحـرة لأغـافـيـا: "اذهبي الآن، لقـد سـحـرت بقـرتك، وستتحسن. صلي لوالدة الاله، فهي مصدر النور وكتاب الكلمة الحي."

٨

وجرى قتال على حدود الغابة الغربية. واذ كانت الغابة واسعة جداً، فقد بدأ القتال كمناوشات على حدود مملكة مترامية الاطراف، وكان المعسكر المختبئ في قلبها قد امتلأ بالناس حتى انه، مهما ذهب منهم للقتال، ظل عددهم كثيراً.

وكان ضجيج المعركة البعيد يصل بصعوبة الى المعسكر. وفجأة دوت بضع طلقات نارية في الغابة، وتتابعت متقطعة ثم استحالت دفعة واحدة الى زخة سريعة من طلقات البنادق. ونهض الناس مسرعين الى خيمهم وعرباتهم، وبدأ هياج عام. وتهيأ الجميع للقتال.

وتبين انه كان انذاراً كاذباً. غير ان جماعة متزايدة اتجهت نحو المكان الذي اطلقت منه النيران.

ووقفوا حول جثة رجل تنزف منها الدماء، مطروحة على الارض، وقد قطعت ذراعها اليمنى وساقها اليسرى. وعجب الناس كيف ان القتيل زحف بيده ورجله الباقيتين الى المعسكر. وكانت الذراع والساق المقطوعتان، والدماء تغمرهما، مربوطتين الى ظهره بلوح خشبي صغير علقا به وعليه كتابة طويلة نصت، بالاضافة الى كلمات المبالغة، على ان هذه القسوة كانت رداً على فظائع اخرى ارتكبتها وحدة حمراء معينة — ولم يكن لتلك الوحدة أي علاقة باخوان الغابة. وكانت تنص ايضاً على ان المعاملة نفسها ستطبق على جميع الانصار اذا لم يستسلموا في تاريخ محدد ويقدموا أسلحتهم الى ممثلين عن جيش الجنرال فيتسين.

وحدثهم الرجل المحتضر بصوت متقطع، وهو يغيب عن الوعي باستمرار لكثرة ما نزف من دمائه، عن التعذيب والفظائع التي قام بها فريق التحقيق والعقاب التابع لفيتسين. لقد أُلغيت، كما زعموا، عقوبة

الاعدام التي حكم عليه بها، وعوضاً عن ان يشنقوه قطعوا يده ورجله وارسلوه الى المعسكر لينشر الذعر بين الانصار. ثم انهم نقلوه الى مشارف المعسكر، حيث وضعوه وامروه أن يزحف وهم يحثونه على ذلك باطلاق النار في الهواء.

ولم يكن بامكانه ان يحرك شفتيه الا بصعوبة. وانحنى الناس حوله يلتقطون كلامه المتقطع. كان يقول: "احزروا ايها الرفاق، لقد تغلغل...

"خرجت الدوريات بكامل قواها. معركة كبرى تدور. لنمسك به.

"هناك ثغرة. يريد ان يفاجئكم.اعرف... لا يمكنني ان أكمل، ايها الرجال. اني ابصق دماً. سأموت بعد لحظة."

"استرح قليلاً. اهدأ -ألا ترون ان هذا يضرّ به ايها الوحوش عديمو الشفقة!"

واستطرد الرجل قائلاً: "اخذ يستنطقني، ذلك الشيطان. قال: ان لم تقل لي من انت، جعلتك تسبح بدمك.. وكيف يمكنني ان أقول له اسمي، انا الهارب؟ كنت هارباً منه اليكم."

"انك لا تزال تقول "هو". من الذي اخذ يستنطقك؟"

"دعوني اتنفس... سأخبركم. هتمان، بيكيشين. الكولونيل، ستريسي. رجال فيتسين. انتم لا تعرفون هنا شيئاً عنهم. المدينة كلها تئن. انهم يسلقون الناس احياء. يقطعونهم حبالاً. يمسكونك من جلد رقبتك ويدفعونك الى الداخل، ولا تدري اين انت. حفرة سوداء. تتحسسها فترى انك في قفص داخل عربة قطار. اربعون شخصاً في داخل القفص، كلهم بألبستهم الداخلية. من وقت الى آخر يفتحون البار ويقبضون على اول من يقع تحت ايديهم، ويخرجون به. كما تقبض على فرخ دجاج لتقطع عنقه. اقسم بالله. بعضهم يُشنق، وبعضهم يُعدم بالرصاص، وبعضهم يُستجوب. يضربونك حتى تتمزق فيضعون ملحاً على جراحاتك، ويرشونك بالماء الغالي. وعندما تتقيأ أو تقضي حاجتك

يجعلونك تأكل ذلك. اما الاطفال والنساء -يا الهي!"

وكـان المسكين على آخـر رمق، فـصرخ واسلم الروح قـبل ان يـكمل جملته. وادرك الجميع ذلك فوراً فرفعوا قبعاتهم ورسموا الصليب على صدورهم.

وفي تلك الليلة انتشرت في المخيم اخبار حادث اشد هولاً.

كان بامفيل بين الجماعة التي احاطت بالرجل المحتضر. رآه وسمع اقواله، وقرأ التهديد المكتوب على اللوح.

وارتفع خوفه الدائم على عائلته في حالة موته الى ذروة جديدة. رآهم في خياله يدفعونهم الى التعذيب البطيء، وراقب وجوههم وهي تتقلص من الالم وسمع انينهم وصراخهم وهم يطلبون النجدة. فما كان منه في يأسه الاليم -ليجنبهم عذابهم المقبل ولينهي عذابه هو- الا ان عمد الى قتلهم بنفسه فأردى زوجته واطفاله الثلاثة بنصلة الفأس الحادة نفسها التي كان يصنع بها العاباً للطفلتين الصغيرتين والصبي الذي كان المفضل لديه.

والعجيب انه لم يقتل نفسه فوراً بعد ذلك. بماذا كان يفكر؟ ماذا كان ينتظر؟ ماذا كان يريد، أي مخططات وضع؟ كان في حالة جنون واضحة، ولم يكن في وسع أي شيء ان يشفيه الآن.

وفيما كان ليبيريوس والدكتور واعضاء مجلس سوفيات الجيش يتناقشون فيما عساهم يفعلون به، راح يهيم حراً في المعسكر وقد تدلى رأسه على صدره، وعيناه المتسختان الصفراوان تحدقان دون أن تبصرا. وكانت تكشيرته العريضة الغامضة المعبرة عن ألم لا انساني عميق، تلازم وجهه.

ولم يشفق عليه احد. وتجنبه الجميع. وقال بعضهم، يجب ان يشنق، ولكنهم لم يصمموا على ذلك.

ولم يبق امامه ما يفعله في هذا العالم. وعند الفجر اختفى من

المعسكر، هارباً من نفسه كالكلب المسعور.

٩

جاء الشتاء بجليده القاسي. وانبعثت من الضباب الجليدي اصوات واشكال مشوهة غير مترابطة، وتوقفت ساكنة، وتحركت ثم ذابت. ولم تعد الشمس تلك التي تعودتها الارض؛ كانت متغيرة. فقد تعلقت كرتها القرمزية في الغابة، ومنها اخذت اشعة صفراء باهتة، بطيئة جامدة كما في حلم أو في حكايات الجن، كثيفة كالعسل، تنتشر عالقة بالاشجار، ثم تتجمد عليها متأرجحة في الهواء.

واخذت اقدام خفية في احذية من اللباد، وهي تتحرك في جميع الاتجاهات، تلامس الارض لمساً ناعماً بنعالها الكثيفة فتجعل الثلج مع ذلك يصيح غاضباً عند كل خطوة، بينما راحت الاجسام المعممة التابعة لها، المتسترة بالفرو، تتهادى وحدها في الهواء العالي، كالاجرام السماوية.

وتوقف الاصدقاء وتحدثوا، وقد اقتربت وجوههم بعضها من بعض، محمرة كأنهافي حمام ساخن. وانتصبت لحاهم كقضبان الجليد. وتصاعدت من افواههم غيوم من البخار الكثيف، وقد كانت اكبر من الكلمات القصيرة المتجمدة التي رافقها.

وفيما كان الدكتور يسير على الدرب التي خطتها الاقدام صادف ليبيريوس.

"مرحباً ايها الغريب! تعال الى مغارتي هذا المساء. اقضِ ليلتك. سنتحدث طويلاً. هناك اخبار."

"هل عاد البريد؟ هل عندك اخبار من فاريكينو؟"

"ولا كلمة واحدة من ذويك او ذويّ، وهذا يقودني الى استنتاج مريح

هو انهم ابتعدوا في الوقت المناسب، والا كنا سمعنا عنهم شيئاً. سنتحدث عن ذلك هذا المساء. سأكون بانتظارك."

وحين ذهب الدكتور الى زيارته ذلك المساء ردد السؤال نفسه: "ماذا سمعت عن عائلتينا ؟ اخبرني بالضبط."

"لا تريد ان ترى ابعد من انفك. هم حسبما اعرف في امان، انما المسألة ان الاخبار ممتازة. هل لك في لحم مبرد ؟"

"كلا، شكراً. هيا، لا تغير الموضوع."

"هل انت متأكد لا تريد قطعة لحم؟ حسناً سآخذ قطعة، رغم ان الخبز والخضار هو ما نحتاج اليه بالفعل. فهنالك اصابات كثيرة بداء الحفر. كان علينا ان نزيد مؤننا من الجوز والاثمار في الخريف الماضي عندما كانت النساء هنا ليجمعنها. قلت لك ان اعمالنا تسير سيراً حسناً. كل ما تنبأت به وقع فعلاً. الأسوأ قد انتهى. قوات كولتشاك تنسحب على طول الخط. انها هزيمة تامة. والآن، أرأيت؟ ماذا كنت دائماً أقول لك؟ اتذكر كم كنت تتذمر؟"

"متى تذمرت؟"

"كل الوقت. خاصة عندما ضغط علينا فيتسين."

وتذكر الدكتور الخريف، واعدام العصاة، وقتل بامفيل لزوجته واولاده، وتلك المجازر عديمة المعنى التي بدت دون نهاية. وحشية البيض والحمر تساوت في قساوتها، الاهانة تجر الإهانة. وأحسّ برائحة الدم في أنفه وحلقه، فغصصته وصرعته وصعدت الى رأسه، وجعلت عينيه تزوغان. لم يكن ذلك تذمراً، كان شيئاً آخر يختلف عنه تماماً، فهل كان باستطاعته الآن ان يشرحه لليبيريوس؟

وكانت المغارة مضاءة بمشاعل من القضبان في حاملات معدنية، ترسل رائحة القطران العطرية. وعندما كان يحترق احدها، كان رماده يسقط في وعاء مملوء بالماء، فيشعل ليبيريوس اذاك مشعلا جديداً.

"انظر ما علي ان اشعل؟ لم يبق لدينا زيت. الخشب ناشف يشتعل بسرعة. هل انت متأكد انك لا تريد بعض اللحم؟ بشأن داء الحفر، ماذا تنتظر لتدعو القادة الى اجتماع تلقي فيه محاضرة عنه وعن كيفية الوقاية منه؟"

"بالله، كفّ عن تعذيبي. ماذا تعرف بالضبط عن اهلنا؟"

"قلت لك. ليس هناك شيء اكيد في التقرير. ولكني لم اخبرك بما عرفت من آخر البلاغات. لقد انتهت الحرب الاهلية. سحقت قوات كولتشاك. معظم الجيش الاحمر يلاحقها وهي تنسحب نحو الشرق، على طول الخط الحديدي نحو البحر. قسم آخر منه يسرع في هذا الاتجاه، وسنضم قوانا لنضرب شتات البيض من الخلف. معظم روسيا الجنوبية قد خلا من العدو. حسناً، الست مسروراً؟ الا يكفيك هذا؟"

"انا مسرور. ولكن اين عائلاتنا؟"

"ليست في فاريكينو، وهذا لحسن الحظ. وليس هناك أي دليل على تلك الاحداث الجنونية التي اخبرك بها كامينو دفورسكي -هل تذكر اشاعة الصيف الماضي عن غرباء مجهولين اجتاحوا فاريكينو؟ كنت دائماً اظنها هراء. ولكن القرية مهجورة. وهكذا يبدو ان شيئاً ما قد حدث، وانه لأمر حسن ان يكونوا قد خرجوا في الوقت المناسب، كما لابد ان يكونوا قد فعلوا. هذا ما يظنه السكان القلائل الذين بقوا، حسب المعلومات الواردة الي."

"ويورياتين؟ ماذا حل بها؟ بيد من هي؟"

"هذا هراء آخر. لا يمكن ان يكون حقيقة."

"ما هو؟"

"يقال ان البيض لا يزالون هناك، ولكن هذا مستحيل. سأبرهن لك ذلك وستراه بنفسك."

ووضع مشعلاً آخر في الحامل، واخرج خريطة ممزقة، فطواها بحيث

ظهرت فيها المنطقة التي كان يتكلم عنها، واخذ يشرح الموقف والقلم في يده.

"انظر. هذه هي القطاعات التي دحر فيها البيض -هنا وهنا وهنا، في كل هذه المنطقة. هل تتبعني؟"

"نعم."

"وهكذا، فليس بامكانهم ان يكونوا في أي مكان قرب يورياتين لأنهم اذا كانوا هناك، وقد قطعت مواصلاتهم، فلابد ان يؤسروا. قادتهم يدركون ذلك، مهما كانت كفاءتهم قليلة. لماذا تلبس معطفك؟ الى اين انت ذاهب؟"

"سأرجع بعد لحظة. الدخان كثير هنا، وقد اصابني بصداع. سأخرج لأتنفس قليلاً من الهواء."

وعندما أصبح الدكتور خارجاً، مسح الثلج عن القطعة الخشبية التي كانت تُتخذ مقعداً عند مدخل المغارة وجلس، مرفقاه على ركبتيه ورأسه فوق كفيه.

الغابة والمعسكر، وثمانية عشر شهراً بين الأنصار تبخرت كلها من رأسه. نسي كل شيء عنها. وامتلأ ذهنه بذكريات عن عائلته الحبيبة، طردت كل شيء آخر. وحاول ان يتنبأ عن مصيرهم فانتصبت الصور امامه، كل واحدة منها كانت أشد هولاً من الأخرى.

هذه تونيا وهي تسير في حقل، وسط العاصفة، وساشا على يديها تغطيه بدثار، ورجلاها تغوصان في الثلج. انها تكاد ألا تتمكن من السير، تستخدم كل قوتها ولكن العاصفة تلقي بها ارضاً؛ انها تتعثر وتقع ثم تنهض، فهي اضعف من ان تقف على رجليها. الرياح تصفعها والثلج يغمرها. اوه، ولكنه نسي. معها طفلان وهي ترضع الاصغر. يداها كلتاهما مشغولتان، انها مثل لاجئات شيلميكا اللواتي تحطمن واصبن بالجنون نتيجة الحزن والارهاق.

يداها ممتلئتان وليس الى جانبها معين. ابو ساشا قد غاب ولا يعرف احد اين هو. انه بعيد، كان دوماً بعيداً، بقي كل حياته منفصلا عنهما. أي نوع من الآباء هو؟ هل يمكن لأب حقيقي ان يكون بعيداً دائماً؟ وماذا عن ابيها هي؟ اين هو الكسندر الكسندروفيتش؟ ونيوشا؟ والآخرون؟ من الأفضل ألاّ يسأل، وألاّ يفكر بهذا.

ووقف الدكتور واستدار ليرجع الى المغارة. وفجأة اخذت أفكاره اتجاهاً آخر، فغير رأيه في العودة الى ليبريوس.

كان قد احتفظ منذ زمن طويل بزوجين من الزحافات وصندوق من البسكويت وأشياء اخرى كان يحتاج اليها لو جاء وقت الهرب. لقد دفنها في الثلج خارج المخيم عند اسفل الصنوبرة الباسقة. وليكون واثقاً من انه سيجدها، علّم الشجرة ببقعة. واستدار الآن ومشى في الدرب الذي اختطته الاقدام في الثلج، نحو كنزه المخبوء. كانت الليلة صافية والقمر بدراً؛ وكان يعرف اين يقف الحرس فتجنبهم بسهولة. ولكنه عندما وصل الى الفسحة حيث التلة وشجرة الزيزفون، صرخ به احد الحرس من بعيد، وركض على زحافتيه ثم وقف منتصباً عليهما وحدق فيه قائلاً:

"قف، والا اطلقت النار! من انت؟ كلمة السر؟"

"ماذا دهاك ايها الرجل؟ الا تعرفني؟ انا طبيب المعسكر، جيفاكو."

"متأسف ايها الرفيق جلفاك. لم اعرفك ولم أقصد اهانتك. لا فرق، انت جلفاك ام لم تكن، فلن ادعك تتقدم خطوة اخرى. الأوامر هي الأوامر."

"كما تريد. كلمة السر هي: سيبيريا الحمراء. والجواب هو: ليسقط الدخلاء."

"هذا أفضل، اذهب. عما تفتش في مثل هذا الوقت من الليل؟ هل مرض احدهم؟"

"عطشت، ولم اقوَ على النوم. خطر لي ان اخرج لأستنشق بعض

الهواء وآكل بعض الثلج. ثم رأيت شجرة الزيزفون وعليها اثمارها المثلجة. سأذهب وأجمع بعضها."

"ليست هذه معلومات رجل مثقف! من سمع عن جمع الاثمار في الشتاء! منذ ثلاث سنوات ونحن نحاول ان نخرج الهراء من عقولكم ولكنكم بقيتم كما انتم. حسناً، اذهب واجمع اثمارك ايها المجنون. وماذا يهمني انا؟"

وبمثل السرعة التي جاء بها، ركض مسافة، ثم انتصب على زحافتيه الطويلتين وراح يصفر، فوق الثلج الذي لم تطأه قدم، في المسافة البعيدة خلف شجيرات الشتاء العارية والاعشاب الدقيقة كالشعر.

وأوصلت معالم الطريق الدكتور الى اسفل شجرة الزيزفون التي ذكرها منذ هنيهة. كان نصفها في الثلج، ونصفها الآخر اوراقاً واثماراً تجمدت، فمدت نحوه غصنين ابيضين من اغصانها. وتذكر ذراعي لارا القويتين البيضاوين فأمسك بالغصنين وجذبهما نحوه. وكان جواب الشجرة ان هرت الثلج فوقه. وتمتم وهو لايدرك ماكان يقول، وكأنه فقد عقله تماماً: "سأجدك، ايتها الجميلة، يا حبيبتي، يا زيزفونتي، يا لحمي ودمي!"

كانت الليلة صافية والقمر بدراً. وسار بعيداً في الغابة حتى الشجرة التي علّمها، فاستخرج حوائجه وغادر المعسكر.

الفصل الثالث عشر
قبالة منزل التماثيل

١

انحدر شارع التجار تائهاً متعرجاً فوق التلة، تشرف عليه منازل يورياتين العليا وكنائسها.

وعلى الزاوية قام المنزل الأغبر القاتم ذو التماثيل. كانت حجارة القسم الاسفل من البناء ضخمة مربعة، تغطيها صحائف الحكومة وبلاغاتها الرسمية الملصقة حديثاً، وقد وقفت شراذم الناس على الرصيف، تطالعها بصمت.

فبعد ذوبان الثلج الاخير، كان الطقس صقيعياً جافاً، واصبح في بعض النهار نورٌ، حيث كان فيما مضى غارقاً في العتمة. فالشتاء كان قد ولى، والفراغ الذي تركه قد ملأه النور الذي تباطأ في الزوال حتى ساعات متأخرة من المساء. لقد جعل المرء قلقاً، فكان كنداء مزعج من مكان بعيد، حمل المرء على الحيطة والحذر.

كان البيض قد غادروا المدينة اخيراً، تاركينها للحمر. فتوقف القصف بالمدافع، واراقة الدماء، والقلق المسيطر عادة في اوقات الحروب. وهذا كان ايضاً مزعجاً، حمل المرء على الحيطة والحذر، كذهاب الشتاء واستطالة ايام الربيع.

وفي بلاغ ملصق على الجدار، مازال بالامكان قراءته على نور النهار المتطاول، جاء مايلي:

"يمكن الحصول على بطاقات العمل لمن تستوفى فيهم الشروط،

لقاء خمسين روبلاً للبطاقة الواحدة، من مكتب الاعاشة، بيورياتين السوفياتية، شارع اكتوبر رقم ٥ (شارع الحاكم سابقاً)، غرفة رقم ١٣٧,

"كل من لا يحمل بطاقة عمل، او يملؤها بمعلومات خاطئة، او (اسوأ من ذلك) بمعلومات خادعة، يخضع للقصاص الصارم وفقاً للاحكام المعمول بها في زمن الحرب. ان التعليمات الصحيحة عن كيفية استعمال بطاقات العمل، مثبتة في أ. ن. أ. ك. رقم ٨٦ (١٠١٣)، للسنة الجارية، وهي ملصقة في مكتب الاعاشة بيورياتين، غرفة رقم ,١٣٧"

ونص بلاغ آخر على ان في المدينة مؤونة وافرة من الغذاء. هذه المؤونة، يقول البلاغ، قد اختزنها البرجوازيون لشلّ نظام التوزيع وخلق الفوضى. ثم انتهى البلاغ الى القول:

"كل من وُجد عنده طعام مخزون، عوقب على ذلك باطلاق الرصاص عليه فوراً."

وجاء في بلاغ ثالث:

"اولئك الذين لا ينتمون الى الطبقة المستغلة، يؤذن لهم بالانضمام الى عضوية رابطة المستهلكين. ويمكن الحصول على التفاصيل من مكتب الاعاشة بيورياتين السوفياتية، شارع اكتوبر رقم ٥ (شارع الحاكم سابقاً)، غرفة رقم ,١٣٧"

وقد حذر البلاغ الجنود السابقين بقوله:

"كل من لا يسلم سلاحه، او من يواصل حمله بدون إجازة جديدة، يُعاقب بأشد العقوبات التي ينص عليها القانون. ويمكن الحصول على اجازات جديدة من مكتب اللجنة الثورية ـ العسكرية بيورياتين، شارع اكتوبر رقم ٦، غرفة رقم ,٣٦"

٢

وانضم الى الجماعة الواقفة امام البناية، رجل نحيل، غريب الهندام، مسوّد بالوحل، وقد القى فوق كتفه كيساً واستند الى عكاز. لم يكن في شعره الطويل المشعث أي بياض بعد، ولكن لحيته السوداء الشقراء المدببة كانت تشيب. كان هذا الرجل يوري اندرييفيتش. لابد ان يكون معطفه الفرو قد انتزع منه في الطريق، او لعله قايضه بطعام. وكانت سترته الضيقة، المهلهلة، القصيرة الكمين، التي لم تقه البرد، نتيجة مقايضة ما.

وكان كل ما بقي في كيسه، فتات خبز احسن عليه بها احدهم، في قرية على مقربة من المدينة، وقطعة من الشحم المقدد. كان قد وصل يورياتين قبل ذلك بقليل، ولكنه قضى ساعة كاملة يجر نفسه من ضاحية المدينة، حيث تمر سكة الحديد، الى هذه الزاوية من شارع التجار.

فكم كان ضعفه بالغاً، وكم انهكت بضعة الايام الاخيرة من رحلته قواه. لقد توقف في طريقه غالب الاحيان، وتمكن بجهد جهيد ان يضبط رغبته الملحة في الركوع على ركبتيه وتقبيل حجارة المدينة، التي كان قد قنط من انه سيراها مرة ثانية، والتي ملأه الآن مرآها بالسعادة، كمرأى صديق.

لقد تبع، في نصف رحلته سيراً على الاقدام، خطوط سكة الحديد. كانت كلها غير صالحة للاستعمال، مهملة، مغطاة بالثلج. وكان يجتاز قطاراً بعد قطار قد هجره البيض، فتوقف عن السير، لسبب انهزام كولشاك، وقلة الوقود، وهبوب عواصف الثلج. وكانت هذه القطارات، وهي ساكنة مدفونة في الثلوج، تمتد من دون انقطاع مسافة اميال بعد أميال. وكان بعضها يستخدم حصوناً لعصابات مسلحة من قطاع الطرق، او مخابىء للمجرمين الهاربين والمطاردين السياسيين ـ المشردين

المرغمين في تلك الايام ـ على ان معظمها أصبح مدافن وقبوراً جماعية لضحايا الصقيع والتيفوس، وقد كان يعصف على طول الخط الحديدي فيقضي على قرى بكاملها.

تلك الفترة اقامت الدليل على صحة المثل القديم القائل: "الانسان ذئب الانسان". فقد كان المسافر يهرب من وجه المسافر، والغريب يقتل الغريب خوفاً من ان يُقتل. ولم يخل الامر من حوادث أكل الناس فيها بعضهم بعضاً. فقوانين المدنية الانسانية لم يعد معمولاً بها. وقانون الغابة أصبح في حيز التنفيذ وصار الانسان يحلم بما كان يحلم به أهل الكهف.

وكان يوري اندرييفيتش يلمح بين الفنية والاخرى اشباحاً تزحف من الحفر، او تتلمس الطريق أمامه. فتجنبها بحذر، انى استطاع؛ ولكن بعضها بدا له اليفاً. وخيل اليه انه رآها جميعها في معسكر الانصار. وفي كثير من الحالات كان مخطئاً، غير ان عينيه في حالة واحدة لم تخدعه. فالفتى الذي خرج من كومة ثلج حجبت سلسلة من المقطورات، فقضى حاجته، ثم اسرع عائداً، كان حقاً من جماعة اخوان الغابة. كان يترنتي غاليوزين، الذي قيل انه قتل رمياً بالرصاص. اما الواقع، فانه كان قد جُرح وغاب عن الوعي. فلما أفاق، زحف من مكان الاعدام، واختبأ في الغابة الى أن شفي من جراحه، وها هو الآن في طريقه الى كريستوفو زدفيجنسك، يحمل اسماً مستعاراً، ويتدرى بالقطارات المطمورة، ويهرب حين يبصر إنساناً.

كان لتلك المشاهد والحوادث غرابة التعالي فوق الوجود، كأنما كانت مقتطفات منزوعة من حياة اناس على كواكب اخرى، ساقهم القدر الى الارض. فالطبيعة وحدها فقط ظلت امينة للتاريخ وتجلت في القناع الذي اتخذته لنفسها في الفن الحديث.

ومن حين الى آخر، كان يخيم مساء هادىء، باهت اللون الرمادي،

قاتم الاحمرار، تعمره شجيرات سوداء ناعمة كالسطور فوق الشفق، وجداول سوداء يغشيها الصقيع الرمادي السائل بين ضفاف الثلج البيضاء الحادة وقد اسودت حوافيها حيث تأكلها الماء الجاري. كهذا، بعد ساعة او ساعتين، سيكون المساء في يورياتين: صقيعياً، رمادياً، شفافاً، ناعماً كالزهر.

واراد الدكتور ان يقرأ البلاغات الملصقة على جدار منزل التماثيل، ولكن عينيه ظلتا تتطلعان الى شبابيك الطابق الثالث من المنزل المقابل. تلك كانت شبابيك الغرف التي خُزن فيها اثاث السكان السابقين. اما الآن، فعلى الرغم من الصقيع الذي غشاها عند الاطراف، فقد تبين ان الزجاج كان شفافاً؛ الطلاء الابيض، ولا ريب، قد أزيل. ماذا عنى ذلك؟ هل عاد السكان السابقون؟ ام هل نزحت لارا منه واحتله سواه، فاعادوا ترتيب كل شيء.

هذه الريبة لم تكن تُحتمل. فما كان من الدكتور الا ان عبر الشارع، فدخل وتسلق السلم الامامي الذي كان يعرفه تمام المعرفة، والذي كان عزيزاً عليه جداً. فكم تذكّر، وهو في المعسكر، طراز الدرجات الحديدية المكشوف. لقد كان في وسعك، عند احدى الدرجات، ان تنفذ ببصرك الى مخزن الخشب في الطابق الارضي حيث تكومت الكراسي المحطمة والسطول القديمة وجفان التنك. كانت جميعها لاتزال هناك؛ لم يتبدل شيء. وكاد الدكتور ان يشكر للسلم ولاءه للماضي.

كان هناك جرس فيما مضى، غير انه تحطم وتوقف عن القرع، حتى قبل ان ألقى الانصار القبض على الدكتور. واذ صمم الآن على ان يقرع الجرس، لاحظ ان هنالك قفلاً على الباب يتدلى من حلقتين مثبتتين في اطار الباب السندياني العتيق، ذي النقوش الدقيقة التي زالت في بعض الامكنة. مثل هذا التحريب لم يكن ليحدث في الايام السالفة. كان يوضع هنالك قفل مناسب، واذا ما تعطل جيء بسنكري لاصلاحه. ولم

يكن هذا الشيء البسيط الا تعبيراً بليغاً عن مدى التخريب العام الذي طرأ على الاشياء، والذي ازداد في مدة غيابه.

كان الدكتور متأكداً ان لارا وكاتنكا لم تكونا في البيت. لعلهما لم تكونا حتى في يورياتين، او لعلهما ليستا حتى على قيد الحياة. كان مستعداً لاسوأ الاحتمالات. وحرصاً منه على ان لا يدع ألاّ مكاناً لا يبحث عنها فيه، فقد عزم على ان يتناول المفتاح من الثغرة في الجدار، حيث كانت فأرة قد أفزعت كاتنكا. ورفس الجدار بقدمه ليتأكد من ان يده لن تقع الآن على واحدة. ولم يكن يأمل قط بأنه سيجد شيئاً. فقد كانت الثغرة مسدودة بحجر، فازاحه وادخل يده. يا للاعجوبة! مفتاح ورسالة. كانت الرسالة طويلة تملأ صفحة كبيرة من الورق، فأخذها الى الشباك عند المدخل. وكان هنالك اعجوبة اخرى ايضاً، اكثر غرابة! كانت الرسالة معنونة اليه. فراح يقرؤها على عجل.

"الهي، يا للسعادة! يقال انك لاتزال حياً، وانك عدت. رآك أحدهم قرب المدينة فهرع اليّ ليعلمني. اعتقد بانك ستذهب رأساً الى فاريكينو، ولذلك فانني ذاهبة الى هناك مع كاتنكا. ولكنني، تحسباً، سأضع المفتاح في مكانه المعهود. انتظرني، لا تتحرك. سترى انني اشغل الغرف الامامية الآن. المسكن يكاد يكون خالياً، فقد اضطررت لبيع بعض الاثاث. تركت لك بعض الطعام، معظمه بطاطا مسلوقة. اعد الغطاء الى القدر، وضع شيئاً ثقيلاً فوقه منعاً للفئران. أكاد أجن فرحاً."

قرأ الى اسفل الصفحة، ولم ينتبه الى ان للرسالة تتمة على الجهة الثانية. فشدّها الى شفتيه، وطواها، ووضعها في جيبه مع المفتاح. وامتزج فرحه العظيم بشعور ألم حادّ قتال. ذلك ان ذهاب لارا الى فاريكينو، دون ان تحمل نفسها عناء الشرح والتفسير، لم يكن إلا لان عائلته ليست هناك. ولم يقلق لهذا فقط، بل حزن وتألم من اجل عائلته أيضاً. لماذا لم تقل شيئاً عن حالها وعن مصيرها! ـ كأنها لم تكن في

عالم الوجود ابداً.

واخذ الظلام يقترب، وكان عليه ان يقوم ببعض الاعمال قبل ان يغيب نور النهار. كان اهمها ان يطالع البلاغات الملصقة في الشارع. فلم يكن بالأمر اليسير في تلك الايام ان يجهل المرء الاحكام والقوانين؛ فلربما كلفه ذلك حياته. ودون ان يدخل الى البيت أو يلقي بكيسه، هبط السلم وقفل عائداً الى الشارع، الى الجدار المليء بمختلف البلاغات.

٣

كان على الجدار مقالات صحفية، ونصوص بيانات القيت في الاجتماعات، وقرارات ومراسيم. ونظر يوري اندرييفيتش الى العناوين. "مصادرة، اعادة تقويم، فرض ضرائب على ابناء الطبقة المالكة"، "انشاء دائرة التفتيش العمالية" "لجان المصانع والمعامل". تلك كانت القوانين التي اصدرتها السلطات الجديدة عند دخولها المدينة، عوض القوانين التي كان معمولاً بها. لا ريب، فكر يوري اندرييفيتش في نفسه، انها كانت قوانين قصد بها الى التذكير بطبيعة النظام الجديد الحازمة، اذا كان ذلك قد نسي في عهد البيض. غير ان كثرة التكرار ورتابته جعلت رأسه يدور. الى أي عهد كانت تمتّ؟ ألِلى الانقلاب الاول، أم الى اعادة تنظيم الدولة فيما بعد، عقب ثورة قام بها البيض؟ هل كتبت هذه القوانين في السنة الماضية؟ أو التي قبلها؟ مرة واحدة في حياته فقط، ملأته حماساً هذه اللهجة الحازمة وذلك الاستئثار بالرأي. هل كان عليه ان يدفع جزاء ذلك الحماس طول حياته، فلا يسمع، عاماً بعد عام، الا تلك البلاغات والمطاليب الجنونية، الزاعقة، الثابتة، التي كانت تزداد لا عمليةً، ولا معنىً، ولا تنفيذاً، مع مرور الايام؟ هل كان ممكناً انه، لقاء هنيهة من الترحيب البالغ، قد استُعبد الى الأبد؟

وقع بصره على مقطع من أحد البيانات:

"التقارير الواردة عن المجاعة تبين عجز الادارات المحلية الذي لا يصدّق. هنالك سوء استعمال فاضح، وتلاعب بالاسعار على نطاق واسع، فماذا تفعل اللجان الاقليمية الخاصة بالشؤون البلدية والمعامل؟ لن ينقذنا من المجاعة الا القيام بتفتيش عام للاحياء التجارية في يورياتين ورازفيلاي، والا الارهاب بكل قساوته، بما في ذلك اطلاق الرصاص فوراً على كل متلاعب بالاسعار."

"يا للغباوة التي يُحسد عليها!" فكر الدكتور في نفسه، "ان تستطيع التحدث عن الخبز، وقد اختفى عن وجه الارض منذ أمد بعيد! وعن الطبقات المالكة والمتلاعبين بالاسعار، وقد تم الغاء ذلك كله بقرارات سابقة! وعن الفلاحين والقرى، وقد زالوا وزالت من الوجود! الا يتذكرون مناهجهم واجراءاتهم، وقد قلبت الحياة منذ زمن رأساً على عقب؟ أي نوع من الناس هم، حتى يواصلوا حماسهم هذا المحموم، الذي لا يبرد، عاماً بعد عام، نحو موضوعات قد زالت ولم يبق لها وجود، وحتى يكونوا على جهل بكل شيء، ويبصروا لا شيء حولهم؟"

وأخذ رأس الدكتور يدور ويدور. فاغمي عليه وسقط على الرصيف. وحين أفاق واسعفه الناس على النهوض وعرضوا عليه مرافقته الى حيث شاء ان يذهب، شكرهم ورفض قائلاً: ليس عليه الا ان يعبر الشارع.

٤

ودخل المنزل مرة ثانية، وفي هذه المرة فتح باب مسكن لارا. كان النور لايزال مضيئاً في البهو، كما كان عندما خرج. فسرّ لان الشمس لم تكن تستعجله.

واثار فتح الباب ضجيجاً في الداخل. فاستقبله المسكن المهجور باصوات سقوط الطناجر وصحون التنك. وقفزت الفئران من الرفوف على الأرض، وتراكضت هاربة. لابدّ انها كانت تتناسل هنا بالآلاف. وشعر الدكتور بالقرف والعجز عن مجابهة هذه النازلة، فعزم على تحصين نفسه لتلك الليلة في إحدى الغرف، بباب محكم الاطباق، حيث كان باستطاعته ان يسدّ اوجار الفئران بزجاج محطم.

وتوجه من المسكن الى القسم الذي لم يكن يعرفه، فعبر ممراً مظلماً قاده الى منزل التماثيل، والناس واقفون أمامه يقرؤون البلاغات.

كان النور في الغرفة كالنور في الخارج، جديداً طريئاً كنور العشية في الربيع. وهذا ما جعل الغرفة كأنها جزء من الشارع، مع الفارق الوحيد ان غرفة النوم الخاصة بلارا، حيث كان واقفاً، كانت اكثر برداً من الشارع.

وكان شعور يوري اندرييفيتش المفاجىء بالتعب بعد ظهر ذلك النهار، حين اقترب من المدينة وجال فيها ساعة او ساعتين، قد جعله يعتقد بأنه كان مريضاً، فساورته المخاوف. اما الآن، فقد انعشه تشابه الضوء في الغرفة والشارع. واحس، وهو يستحم بالهواء البارد نفسه الذي يستحم به المارة، انه كان على صلة قربى بهم، وانه كان واحداً مع الجوّ المخيم على المدينة، مع الحياة في العالم كله. وازال هذا الاحساس مخاوفه، فلم يعد يفكر بانه مريض. لقد كانت شفافية تلك العشية الربيعية، ونورها النافذ، فألا حسناً، وعداً بتحقيق آمال بعيدة، مترامية. كل شيء سيصير خيراً، وسينال كل ما اراده من الحياة، وسيجد كل ما اراده ويوحده ويؤالفه، وسيفكر في كل شيء ويجد جميع الكلمات الصحيحة للتعبير عنه. وراح ينتظر عودة لارا، كدليل عاجل على ان جميع ما تبقى سيلي.

وازال هذا الحماس والهياج الجامح تعبه السابق. ولم تكن هذه

الحيوية، في الواقع، الا ظاهرة أصدق من التعب، للمرض الذي كان يدبّ فيه. وعبثاً استطاع ان يلزم الهدوء ويركن الى الراحة. وللمرة الثانية، شعر برغبة ملحة في الخروج.

لقد اراد، قبل ان يستقر، ان يقصّ شعره ويحلق لحيته. وكان قد بحث عن حلاق من قبل، وهو في طريقه وسط المدينة؛ غير ان بعض دكاكين الحلاقة التي عرفها قد خلا، والبعض الآخر قد استخدم لاغراض اخرى، والقليل الذي بقي منها قد اغلق ابوابه. ولم يكن لديه موسى للحلاقة خاص به. والمقص كان يقوم بالمهمة، الا انه اخفق في العثور على واحد في خزانة لارا، رغم انه قلب اشياءها رأساً على عقب.

إذاك خطر له انه كان فيما مضى دكان للخياطة في الشارع سباسي؛ فاذا كان لايزال موجوداً، وتمكن من الوصول اليه قبل موعد الاغلاق، ربما استطاع ان يستعير منه مقصاً. وخرج.

٥

لم تخنه ذاكرته، فدكان الخياطة مازال هناك، بمدخله من جهة الشارع ونافذته الممتدة على طول واجهته. فكانت الخياطات يعملن على مرأى من المارة، وكان في وسع الناظر ان ينفذ ببصره الى مؤخرة الدكان.

كان الدكان مزدحماً بالخياطات. فبالاضافة الى المحترفات منهن، كان هنالك عجائز من الاهلين ألممن بالصناعة، وقد استخدمن ليصبح من حقهن المطالبة ببطاقات العمل، كما نص عليه البلاغ الملصق على جدار منزل التماثيل القاتم.

وكان من السهل التمييز بينهن وبين المحترفات. فقد اقتصر الدكان على صنع الملابس العسكرية، والسراويل والجاكيتات المبطنة، ومعاطف

الفرو، الملونة المصنوعة من مختلف اجناس الكلاب، كتلك التي شاهدها يوري اندرييفيتش عند الانصار. وكانت هذه الصناعة الانسب لخياطات الفرو، صعبة بنوع خاص على النساء الهواة، اللاتي بدت اصابعهن كلها ابهامات وهن يدفعن الثنيات القاسية المطوية تحت آلات الخياطة.

وقرع يوري اندرييفيتش على النافذة وأشار طالباً الدخول. فأجابته النسوة بالاشارة ان الطلبات الخصوصية لم تكن مقبولة. فأصرّ. اذاك اشارت عليه النسوة بان ينصرف ويتركهن وشأنهن، لان لديهن عملاً مستعجلاً يعملنه. حتى ان احداهن قلبت له وجهها دهشة، ورفعت راحتيها، كقارب صغير، علامة الانزعاج، وتساءلت بعينيها عما يريد. فرسم باصبعيه اشارة المقص، ولكنها لم تُفهم. وقررت النسوة ان ما فعله كان وقاحة، وانه كان يقلدهن ويهزأ بهن. ثم انه بدا، في وقفته هناك وهو ممزق الثياب، وفي حركاته الغريبة، كالمجنون. فما كان من النسوة الا ان بدأن يقهقهن ضاحكات، وهن يشرن اليه بالانصراف. واخيراً خطر له ان يدور حول الدار، ويعبر ساحتها، ويقرع الباب الخلفي.

٦

وفتحت الباب عجوز شاحبة، عبوس، ترتدي لباساً أسود، وتبدو كأنها رئيسة الخياطات.

"يا لك من رجل ثقيل. الا تتركنا وشأننا؟ بالله اسرع وقل ماذا تريد؟"

"اريد مقصاً. لا تعجبي. اريد ان استعير مقصاً اقص به شعري ولحيتي. يمكنني ان افعل هذا هنا واعيده اليك فوراً. لن يستغرق الأمر اكثر من دقيقة. سأكون لك من الشاكرين."

ونظرت اليه المرأة نظرة الدهشة والريبة. فقد شكت، تمام الشك،

بسلامة عقله.

"وصلت الآن من رحلة طويلة. اردت ان اقص شعري فلم اجد دكاناً واحداً للحلاقة مفتوحاً. فخطر لي ان اقوم بهذا العمل بنفسي، ولكنني لا املك مقصاً. فهل لك ان تعيريني واحداً؟"

"لا بأس. سأقص لك شعرك. ولكنني احذرك. اذا كنت تخفي شيئاً آخر في رأسك - كأنْ تغير هيئتك تخفياً لاسباب سياسية - فلا تلمنا ان نحن عمدنا الى الوشاية بك. لن نجازف بحياتنا من أجلك!"

"يا الهي! ما هذه الفكرة!"

وسمحت له بالدخول الى غرفة محايدة، اوسع قليلاً من خزانة؛ وسرعان ما وجد نفسه جالساً على كرسي، وفوق صدره منديل مدسوس تحت ذقنه، كما في دكاكين الحلاقة. وخرجت المرأة من الغرفة، ثم لم تلبث ان عادت بمقص، ومشط، وقشاط، وموسى.

"قمت بجميع انواع الاعمال في حياتي"، قالت وقد لاحظت دهشة زبونها. "كنت مرة حلاقة. تعلمت قص الشعر وحلاقة الذقون عندما كنت ممرضة في الحرب الاخرى. دعنا نقص الآن هذه اللحية ثم نحلقها بالموسى."

"قصي لي شعري قصيراً، ارجوك."

"سأبذل جهدي. لماذا تتظاهر بالجهل، وانت رجل مثقف؟ فكأنك لا تعلم اننا الآن نقيس الزمن بالعقود لا بالاسابيع، وان اليوم هو السابع عشر من هذا الشهر والحلاقون يعطلون اعمالهم في كل تاريخ يقع فيه رقم ٧."

"صدقيني، لم اكن أعلم. قلت لك انني وصلت الآن من رحلة طويلة. لماذا أدعي أي شيء؟"

"لا تتحرك وإلا جرحتك. تقول انك وصلت الآن. فكيف جئت؟"

"سيراً على الاقدام."

"على الطريق العام؟"

"احياناً، وأحياناً أخرى بمحاذاة الخط الحديدي. لا ادري كم قطارا رأيت، كلها مدفونة في الثلج. قطارات فاخرة، قطارات خصوصية، كل انواع القطارات التي يمكن ان تخطر ببالك."

"ها، هذه القَصّة فقط، وننتهي. مهمة عائلية؟"

"يا الهي، كلا. كنت أعمل مفتشاً متجولاً لأحد اتحادات بنوك التسليف التعاونية، وقد ارسلوني بمهمة تفتيش الى سيبيريا الشرقية، وهناك عجزت عن العودة. لا قطارات، كما تعلمين: ولم يكن امامي إلا السير على الاقدام. ستة أسابيع، مشيت. ليس في طاقتي ان ابدأ بسرد ما شاهدت في الطريق."

"لو كنت مكانك، لما بدأت. ارى انه علي ان ألقنك بعض الدروس. تطلع في هيئتك أولاً. هذه مرآة. اخرج يديك من تحت المنديل وامسك بها. هل أعجبك شعرك؟"

"لا اظنه قصيراً كفاية. هل باستطاعتك تقصيره قليلاً؟"

"لن ينتظم اذا قصر اكثر من ذلك. كنت اقول لك ألاّ تبدأ بسرد أي شيء. خير لك ان تلزم الصمت. تعاونيات، قطارات فاخرة، رحلات تفتيش ـ انسَ كل هذا. ليس هذا وقته. خير لك ان تتظاهر بأنك طبيب او معلم مدرسة... أما وقد قصصنا اللحية، فعلينا ان نحلقها. وسرعان ما تبدو أصغر سناً بعشر سنوات. سأذهب لأغلي الماء."

"من تكون هذه المرأة يا ترى؟" تساءل يوري اندرييفيتش في نفسه. وخيل اليه ان له علاقة ما بها ـ شيئاً رآه او سمعه، أحداً تذكره به ـ ولكنه لم يستطع ان يستعيده في خاطره.

وعادت بالماء الساخن.

"الآن سأحلق لك. كنت اقول انه خير لك ألاّ تنطق بكلمة. الكلام من فضة، أما السكوت فمن ذهب. كان هذا دائماً صحيحاً. أما

قطاراتك الخصوصية، وتعاونياتك ـ الأفضل ان تفكر بشيء آخر، قل انك طبيب او معلم. واما ما رأيت، فاحتفظ به لنفسك. من عساه يستمع اليك هذه الأيام؟ هل اوجعتك؟"

"قليلاً."

"انها تخدش بعض الشيء، اعرف. ليس باستطاعتي ان اتجنب ذلك. قليلاً من الصبر، يا عزيزي. بشرتك لم تتعود الموسى، ولحيتك قاسية جداً. لحظة وننتهي. نعم. ليس هنالك شيء لم يره الناس. لقد خبروا كل شيء. كان لنا نصيبنا من الاهوال كذلك. ما جرى في عهد البيض لا يتصوره عقل: قتل، فتك بالاعراض، اغتصاب. كان هنالك سيد صغير لم يرق احدهم في عينيه، فارسل الجنود للقبض عليه في غابة خارج المدينة، على مقربة من منزل كرابولسكي. فقبضوا عليه وجردوه من السلاح واخذوه تحت الحراسة الى رازفيلاي. وفي تلك الايام كانت رازفيلاي كالبوليس السري (تشيكا) اليوم ـ مكان للاعدام. لماذا ينتفض رأسك هكذا؟ انها تخدش، اليس كذلك؟ اعرف، يا عزيزي، اعرف. لا حيلة لي في ذلك. شعرك كالدبابيس. هناك مكان واحد قاسٍ. ولأكمل الآن حديثي. لقد جن جنون زوجة المسكين: "كوليا، كوليا! ماذا سيصير بعزيزي كوليا!" وراحت ترفع امرها الى الجنرال غاليولين. ليس اليه شخصياً، بالطبع. اذ كيف كان لها ان تذهب اليه رأساً. كان هنالك شخص في الشارع الثاني عرف كيف يصل اليه، شخص فريد في وداعته، ولطفه ورقته، شخص لا كأي من الناس، شخص وقف دائماً بجانب الشعب. لا تستطيع ان تتخيل ماذا جرى في جميع انحاء هذا المكان: جلد، فظائع، مآسٍ سببها الحسد. تماماً كما في الروايات الاسبانية."

"انها لارا هذه التي تتحدث عنها"، فكر يوري اندرييفيتش في نفسه. ولكنه لزم جانب الصمت ولم يسأل عن التفاصيل. لقد ذكرته

اشارتها السخيفة الى الروايات الاسبانية بشيء ـ لمجرد سخافتها وعدم صلتها بالموضوع ـ ولكنه لم يقو على ان يتذكره.

"أما الآن، فكل شيء، بالطبع، قد تغير. لا ريب في ان هنالك مقداراً كبيراً من التحقيق، والتجسس، والاعدام، وما الى ذلك. على ان المسألة تختلف تمام الاختلاف. اولاً، هنالك حكومة جديدة، تسلمت الحكم حديثاً، فلم يتح لها الوقت الكافي بعد للقبض تماماً على زمام السلطة. ثم انك، مهما تقل فيهم، فانهم يظلون بجانب سواد الشعب، وهذا مصدر قوتهم في عائلتنا، نحن اربع بنات، انا واحدة منهن، وكلهن مستخدمات. ومن الطبيعي ان نجد انفسنا من مؤيديهم. احدى شقيقاتي توفيت. كان زوجها منفياً سياسياً، عمل مديراً في أحد المصانع المحلية. ولدهما ـ ابن اختي ـ يرئس قوات الفلاحين. انه واسع الشهرة.

"ها، هذه هي إذاً"، أدرك يوري اندرييفيتش، "خالة ليبيريوس، اخت زوجة ميكوليتسين، المرأة التي هي اسطورة محلية، الحلاقة ـ الخياطة ـ مشيرة القطر ـ العاملة بكل شيء"! غير انه عزم على ألاّ يقول شيئاً، كي لا يفضح هويته.

"كان ابن اختي دائماً يحب الشعب، منذ طفولته. نشأ بين العمال في المصنع. ربما تكون قد سمعت بمصانع فاريكينو. والآن انظر الى ما فعلت، يا لي من مجنونة. نصف ذقنك ناعم، والنصف الآخر خشن. هذا نتيجة الكلام. لماذا لم توقفني؟ الصابون الآن قد جف والماء قد برد. انا ذاهبة لتسخينها."

وحين عادت، سألها يوري اندرييفيتش: "فاريكينو، هذه بلدة على مسافة اميال من هنا، أليس كذلك؟ لعل هذا قد جعلها سالمة الى حدّ ما في غمرة جميع هذه الاضطرابات."

"لم تسلم تماماً. عانوا من الاهوال اكثر مما عانينا في بعض النواحي. كان عندهم عصابة مسلحة هناك، ولم يعلم احد من هي

بالضبط. لم يتكلموا بلغتنا. كانوا يطوفون المدينة بيتاً بيتاً ويقتلون كل من وقعت عليه انظارهم، ثم يولون هاربين. وكانت الجثث تبقى على الثلج. جرى هذا في الشتاء، بالطبع. توقفْ عن تحريك رأسك، كدت اجرحك."

"قلت ان صهرك يعيش في فاريكينو. هل كان هناك حين حدث كل هذا؟"

"كلا. والحمد لله. رحل هو وامرأته في الوقت المناسب ـ اعني زوجته الثانية. اين هم الآن، لا احد يعلم. ولكن من المؤكد انهما هربا. كان هنالك ايضاً بعض الغرباء، من موسكو. رحلوا ايضاً من قبل. أصغر الرجلين في العائلة، وهو طبيب، قد فُقد. هذه طريقة في التعبير، بالطبع؛ قيل؛ فُقد" ليخففوا عن عائلته وطأة المصيبة. الواقع ـ انه لابدّ من ان يكون قد مات ـ من المؤكد انه قُتل. ولكنهم لم يجدوا له اثراً. وفي هذه الاثناء، استدعي الاخ الاكبر الى بيته. كان استاذاً خبيراً بالزراعة. وقيل ان الحكومة استدعته. كلهم توقفوا في يورياتين بطريق عودتهم الى موسكو. كان ذلك قبل ان يعود البيض بقليل. ما بالك تعود الآن الى تحريك رأسك هكذا. انك تجعلني بالفعل أقطع حلقومك. حصلت من حلاقك لقاء ما دفعت من مال، يا عزيزي."

إذاً، هم في موسكو!

٧

"في موسكو! في موسكو!" تردد صدى الكلمات في قلبه، عند كل درجة من درجات السلم، فيما كان يتسلقه للمرة الثالثة. فاستقبله المسكن ايضاً بضجيج الفئران وهي تتساقط وتقفز من مكان الى آخر. واتضح ليوري اندرييفيتش انه، مهما كان تعباً، لا يستطيع ان ينام ما

لم يصن نفسه من هذه النازلة. فأول ما كان عليه القيام به، قبل ان يستريح ليلته، هو ان يسدّ المسكن، حيث كانت الارض والجدران في حالة اسوأ. إنما كان عليه ان يسرع. فقد اوشك الظلام ان يخيم. صحيح ان قنديلاً كان على طاولة المطبخ ـ فلعله قد نزع من مكانه ووضع هناك، توقعاً لقدومه، ومليء نصفه بالكاز، وكان الى جانبه صندوق من الكبريت. على انه كان من الافضل توفير الكبريت والكاز معاً. وفي غرفة النوم، وجد مصباحاً صغيراً اطبقت عليه الفئران، انما بقي فيه بعض الزيت.

وكان البلاط الخشبي في بعض اماكن الغرفة، قد انسلخ عن الارض. فاستغرق سد اوجار الفئران بالزجاج ما يزيد عن ساعة. وكان الباب محكماً، فما ان يطبق حتى تكون الغرفة قد أمنت من الفئران.

وكان في زاوية الغرفة مدفأة هولاندية ذات حائط لم يرتفع تماماً الى السقف، وفي المطبخ كومة من الحطب. وعزم يوري اندرييفيتش ان يسلب لارا حزمة منها، فركع على ركبتيه وجمع الحطب ثم حمله على ذراعه اليسرى. واذ عاد بحمله الى غرفة النوم، كوّمه قرب المدفأة ومدّ ببصره الى داخلها ليرى كيف كانت تُشعل وكيف كان حالها. وكان قد نوى على اغلاق الباب، ولكن القفل كان محطماً؛ فدق في المزلاج بعض الورق، ثم اشعل النار.

وفيما كان يضيف بعض الحطب الى النار، لاحظ ان احدها مرقوم بالحرفين "ك.د". فتميّزهما بدهشة. ففي ايام كروجر السالفة، حين كان الخشب يُرفض من قبل المعامل، كان يباع للوقيد؛ وكان اللوح يُرقم قبل ان يُقطع الى اجزاء، لكي يظهر عليه المصدر الذي جاء منه. وكان الحرفان "ك.د." يرمزان الى دائرة كولابش في فاريكينو.

وازعجه هذا الاكتشاف. فهذا الخشب في غرفة لارا لم يعن الا انها كانت على اتصال بسامديفياتوف، وانه كان يزودها، كما كان يزوده هو

وعـائلتـه، بكل مـا احتـاجت اليـه. ذلك انه لم يكن دائمـاً يرتاح لقبـول مساعدته. اما الآن، فقد كان ارتباكه لان يجد نفسه مديناً له، قد اختلط بمشاعر اخرى.

لقد كان من العسير التصديق بان سامديفياتوف انما مدّ يد المعونة للارا عن طيبة قلب. وفكر في دهاء سامديفياتوف وجرأته مع النساء، وفي حماقة لارا كامرأة. لابدّ انه كان بينهما شيء.

واشتعلت الاخشاب الكولابيش الجافة جيداً واخذت تلتهب، وفيما هي كذلك، كانت غيرة يوري اندرييفيتش العمياء تتحول من الافتراض الى اليقين.

واذ كـان فريسـة الألم من كل جـانب، فـقد اخذ القلق يطرد بعضه بعضاً. ولم يقو على التخلص من شكوكه، بل ظل عقله يقفز من موضوع الى آخر، والتـفكير بعـائلتـه، وقد ملأه مرة ثانيـة، طغى لمدة من الزمن على هواجس غيرته.

"إذاً انتم في موسكو، يا اعزائي؟" وبدا له ان الخياطة قد اعطته تأكيداً بسلامة وصولهم. "كيف تدبرتم امركم على الطريق؟ لماذا استدعي الكسندر الكسندروفيتش؟ أليعود الى كرسيه في الاكاديمية؟ كيف وجدتم البيت؟ ما اسخفني! لا ادري حتى اذا كان البيت لايزال قائماً. يا الهي، ما آلم هذا واشقّه! ليتني اتوقف عن التفكير. انني لا اقوى على التـفكيـر السليم. مـاذا جـرى لي، يا تونيـا؟ اظن انني عليل. مـاذا سيحدث لنا؟ ماذا سيحدث لك، يا تونيا، يا حبيبتي تونيا، تونيا؟ وساشنكا؟ والكسندر الكسندروفيتش؟ وانا؟ لماذا انكرتني، ايها النور الخالد! لماذا نحن دائماً مفترقون، يا اعزائي؟ لماذا انتم دائماً تنجرفون بعيداً عني؟ ولكننا سنجتمع مرة ثانية، سنتحد معاً، أليس كذلك يا حبيبتي؟ سأجدكم، حتى لو كان علي ان اسير مشياً على الاقدام لاصل اليكم. سنرى بعضنا بعضاً، سنكون معاً، أليس كذلك؟

"لماذا لا تبتلعني الارض، لماذا انا شرس الى حدٍ ينسيني ان تونيا كانت ستضع طفلا آخر، وانها بالفعل وضعته؟ هذه ليست المرة الاولى التي نسيت فيها. كيف كانت ولادتها؟ اذ افكر انهم مروا بيورياتين في طريقهم الى موسكو! صحيح ان لارا لا تعرفهم، ولكن من الغرابة ان تعرف عنهم امرأة غريبة، خياطة، حلاقة، كل شيء، ولا تأتي لارا على ذكرهم في رسالتها. كيف يسعها ان تكون مهملة، لا مبالية هكذا؟ انه لأمر غريب شبيه بعدم ذكر معرفتها لسامديفياتوف.

وتطلع يوري اندرييفيتش الآن في ارجاء الغرفة تطليعة جديدة. كل هذا الاثاث كان يخص اناساً مجهولين مضى عليهم زمن طويل وهم مختفون. لم يكن شيء منه للارا، وهو لذلك لا يعلن عن ذوقها. الصور على الجدران كانت لاشخاص غرباء. ومهما يكن من امر، فقد شعر فجأة بانزعاج تحت انظار هؤلاء الرجال والنساء. والاثاث السمج صعّد انفاس البغضاء. واحس بأنه كان غريباً ومنبوذاً في تلك الغرفة.

ما كان احمقه، اذ ظل يذكر هذا البيت ويحنّ اليه. ما كان احمقه، اذ دخل هذه الغرفة، لا كمن يدخل غرفة عادية، بل كمن كان يدخل اعماق حنينه للارا. وكم كانت طريقة شعوره تبدو سخيفة لأي انسان من الخارج! كم كانت تختلف عن الطريقة التي يعيش، ويتكلم، ويعمل بها الرجال الاقوياء، العمليون، الأكفياء، من امثال سامديفياتوف! ولماذا ينبغي التوقع من لارا ان تؤثر ضعفه ولغة حبه القاتمة، الغامضة، البعيدة عن الواقع؟ هل كانت بحاجة الى هذه البلبلة؟ هل ارادت هي نفسها ان تكون ما كانت له؟

وماذا كانت له، على حدّ تعبيره هو؟ اوه، كان دائماً يستطيع ان يجيب على هذا السؤال.

مساء ربيعي. الهواء تنقّط بأصوات متناثرة. ضجيج الاولاد وهم يلعبون في الشارع يتصاعد من مختلف المسافات كأنما يريد ان يدلل

على ان المدى كله ينبض بالحياة. وهذا المدى الرحيب هو روسيا، امه التي لا مثيل لها؛ التي طبقت شهرتها الآفاق، الشهيرة، العنيدة، المسرفة، المجنونة، اللامسؤولة، المعبودة، روسيا بمغامراتها الدائمة الروعة، المهلكة، التي يستحيل التنبؤ بها، أوه، ما احلى ان يكون المرء حياً! ما أجمل ان يحيا المرء وان يحب الحياة! أوه، الحنين الدائم لتقديم الشكر للحياة، للوجود ذاته، لهما معاً، كما يقدم الشكر كائن لكائن آخر.

هذا بالضبط ما كانته لارا. ليس في وسعك ان تتخاطب مع الحياة والوجود، ولكنها كانت ممثلتهما، تعبيرهما، وفيها اصبح مبدأ الوجود العييّ حساساً وقادراً على النطق.

كان كل ما لامها عليه في لحظة الريبة والشك غير صحيح، الف مرة غير صحيح! كل شيء فيها كان كاملا، خالياً من النقص.

وملأت دموع الاعجاب والتوبة عينيه. وفتح باب المدفأة وزكى النار، فدفع الى الوراء الحطبات التي اتقدت وتحولت الى حرارة كلها وجلب الى مجرى الهواء تلك التي كانت اقل اتقاداً. واذ ترك الباب مفتوحاً، جلس امام اللهب المكشوف، وهو ينعم بتلاعب النور والحرارة على وجهه ويديه. واعاد النور والحرارة اليه رشده. لقد اضناه الحنين للارا، وتاق الى ما يقربه اليها في تلك الهنيهة.

واخرج الرسالة المجعدة من جيبه. كانت مطوية بطريقة جعلت الوجه الذي كان قد قرأه، من الداخل؛ فرأى ان شيئاً قد كُتب عليه. وبعد ان بسط ثنياته راح يقرؤه على ضوء النار المتراقص:

"لابد انك تعرف ماذا جرى لعائلتك. انهم في موسكو. تونيا ولدت انثى." ثم بعد بضعة سطور محذوفة، جاء "حذفت هذه السطور لانه من السخف ان اكتب عن مضمونها. سنتحدث عنه ملياً عند لقائنا. عليّ ان اسرع لاجد فرساً. لا ادري ماذا سأفعل اذا لم اجد دابة. ما اصعب الامر بوجود كاتنكا.." وكانت نهاية الجملة مشوهة، لا تُقرأ.

"حصلت على الحصان من سامديفياتوف،" فكر يوري اندرييفيتش في نفسه بهدوء. "لو كان لديها ما تخبئه، لما أتت على ذكره."

٨

أطبق يوري اندرييفيتش الموقد حينما حمي وطهى لنفسه طعاماً. ثم شعر بالنعاس، فاضطجع على المقعد دون ان ينزع عنه ثيابه، وسرعان ما غرق في نوم عميق. فضجيج الفئران الوقح، العالي، وراء الجدران والباب لم يصله. ورأى حلمين مزعجين، واحداً بعد الآخر.

كان في موسكو، في غرفة ذات باب زجاجي. وكان الباب مقفلاً. وزيادة في الامان، كان ممسكاً بمزلاج الباب وهو يشده الى صوبه. وعلى الجهة الاخرى من الباب، وقف ولده الصغير ساشنكا، وهويرتدي لباس البحارة وقبعتهم، يقرع ويصرخ ويلتمس منه الدخول. وكان وراء الولد، شلال ماء يصيبه ويصيب الباب برذاذه. كان يخرج دوياً هائلاً. فاما ان تكون الماء قد انصبت من انبوب منفجر (وهو حدث عادي في تلك الايام) او ان الباب قد كان في وجه احد القفار، أو قلْ مغارةً جبلية يملؤها صخبُ تيارٍ عارمٍ أو برودة كهوفها وظلامها المتطاولان في القدم.

ودب الماء المتساقط الرعب في الولد، وطغى على صراخه، غير ان يوري اندرييفيتش استطاع ان يراه يحاول، تكراراً، ان يرسم بشفتيه كلمة "أبي".

وتاق يوري اندرييفيتش، وقد تحطم قلبه، لأن يضم الولد بين ذراعيه، ويشده الى صدره، ويركض به هارباً باقصى ما استطاع من السرعة.

ولكنه، والدموع تنهمر على وجهه، ظل ممسكاً بمزلاج الباب المقفل في وجه الطفل، مضحياً به من اجل فكرة شرف خاطئة، باسم واجبه

المزعوم نحو امرأة اخرى، لم تكن هي والدة الطفل، وكان من المتوقع، في أي لحظة، ان تدخل الغرفة من باب آخر.

وافاق غارقاً في العرق والدموع. "بي حمّى، انا مريض"، قال في نفسه "ليس بداء التيفوس. هذا نوع من العياء الذي انقلب الى نوع من المرض المخطر ـ مرض له ازمته، ككل داء وبيل، والسؤال الوحيد هو من سيربح المعركة: الموت ام الحياة. ولكنني من النعاس بحيث لا اقوى على التفكير." وعاد الى النوم مرة اخرى.

فحلم بصباح يوم شتاء قاتم، في احد شوارع موسكو. ومن شدة الزحام في تلك الساعة المبكرة، والقاطرات تقرع اجراسها واضواء المصابيح الصفراء تقع على الشارع المغطى بالثلج الرمادي، استطاع ان يعرف ان ذلك كان قبل الثورة.

رأى في منامه مسكناً كبيراً ذا شبابيك عدة، كلها على جانب واحد من المنزل؛ ولم يكن المسكن على الارجح اعلى من الطابق الثالث. وكانت ستائره المسدلة تصل الى الارض.

وفي داخله، كان الناس مضطجعين نياماً بثيابهم شأن المسافرين؛ وكانت الغرف غير مرتبة، كعربات القطار، وقد انتشرت فيها هنا وهناك بقايا من لحوم الدجاج وسائر فتات الطعام في مُزَق دهنية من احدى الجرائد. وكانت ازواج الاحذية التي كان قد خلعها، لتلك الليلة، اولئك الاصدقاء والاقرباء والضيوف الذين آواهم المسكن، مصفوفة عند الباب. وكانت لارا، المضيفة، بثوبها المنزلي المعقود على عجل حول خصرها، تتنقل بسرعة وصمت من غرفة الى غرفة، وهي تقوم بشؤون المنزل، فيما كان هو يقتفي اثرها خطوة خطوة، متمتماً في كلمات سمجة لا محل لها، وجاعلاً من نفسه مصدر ازعاج لها. اما هي فلم يكن لديها وقت لتعيره اهتمامها او تصغي الى تمتماته، فاكتفت بالالتفات اليه بين الفينة والاخرى والنظر اليه نظرة هادئة حائرة او الانفجار بقهقهتها

الفريدة، الصادقة، الفضية، المعهودة. كان هذا هو شكل الالفة الحميمة الذي ظل قائماً بينهما. وكم كانت صدوداً، باردة، بارعة الحسن، هذه المرأة التي ضحى من اجلها بكل ما لديه، والتي آثرها على كل شيء، والتي بدا له كل شيء بالنسبة اليها باطلاً لا قيمة له.

٩

لم يكن يوري اندرييفيتش بل شيء اكبر منه هو الذي بكى وانتحب في نفسه، واشرق في الظلمة بكلمات منيرة، لامعة. وبنفس باكية، بكى هو ايضاً. واحس بالشفقة على نفسه.

"انا مريض"، ادرك في فترات اليقظة بين النوم والهذيان، والغيبوبة. ولا بد

" انني مصاب بنوع من التيفوس الذي لم تنص عليه كتب الطب المدرسية، والذي لم نتعلمه في المدرسة. ينبغي لي ان آكل، والا مت من الجوع."

غير انه ما ان حاول ان يرفع رأسه على ذراعه، حتى ادرك انه لم يكن قادراً على الحراك، فأغمي عليه او سقط نائماً.

"كم مضى علي وانا مضطجع هنا؟" تساءل في احدى فترات يقظته. "كم ساعة؟ كم يوماً؟ حين اضطجعت كان الوقت اول الربيع. اما الآن، فالشبابيك كثيفة بالصقيع حتى ان الغرفة مظلمة."

وفي المطبخ، كانت الفئران تقرقع الصحون، وتتسلق الحيطان، وتتساقط على الارض، وتصعّد اصواتها المقرفة السمجة.

واستسلم للرقاد مرة اخرى، وحينما أفاق، وجد ان الشبابيك المغطاة بالثلج قد امتلأت بنور احمر فاتح، يلمع كالنبيذ الأحمر في اقداح شفافة. وتساءل اذا كان الوقت فجراً أو غسقاً.

ومرة خُيل اليه انه سمع اصواتاً قريبة منه فذُعر خشيةَ ان يكون قد جُنّ. وراح يصرخ ويعول ويشكو في همس خافت ان السماء قد انكرته. "لماذا انكرتني يا الله، ايها النور الخالد، ورميت بي في ظلمات الجحيم؟"

وفجأة ادرك انه كان يهذي، وان ثيابه لم تعد عليه، وانه قد غُسل وألبس قميصاً نظيفاً، وانه كان مضطجعاً الآن لا على المقعد بل في فراش جديد، وان لارا كانت بقربه، وقد انحنت عليه، وشعرها متشابك بشعره ودموعها تنهمر مع دموعه. فأغمي عليه من فرط الفرح.

١٠

كان قد شكا ان السماء انكرته، اما الآن فرحابة السماء كلها انحنت فوق سريره، وقد فتحت له ذراعين قويتين، بيضاوين، انثويين. فترنح رأسه بالفرح، ووقع في اعماق نعمى لاقرار لها كمن يسقط في غيبوبة.

كان كل حياته نشيطاً، يقوم ببعض شؤون البيت، يهتم بالمرضى، يفكر، يدرس، يكتب. ما كان اجمل ان يتوقف عن العمل، والصراع، والتفكير، ويترك ذلك كله الى حين للطبيعة، ويصير شيئها، همها، صنع يدها الرحيمة، العجيبة، البالغة الحسن والجمال.

وكان شفاؤه عاجلاً. فقد غذّته لارا، ومرّضته، واحاطته بعنايتها؛ وكان حنانها المدهش، واسئلتها واجوبتها، وقد همست بها بصوت دافىء رقيق، دائماً في حيز الحضور.

وكانت احاديثهما الخافتة، مهما كانت عابرة، مليئة بالمعنى كمحاورات افلاطون.

كانا متحدين، باكثر حتى مما كان يجمع بينهما، بما كان يفصلهما

عن سائر العالم. فقد ابعدهما بالتساوي معاً ما كان يطبع، ويا للمأساة، الانسان الحديث، اعجابه بالكتب المدرسية، حماسه الصارخ، وتلك البلادة القاتلة التي بشر بها ومارسها، عن طيب نية، عدد لا يحصى من العاملين في حقل الفن والعلم كيما تظل العبقرية شيئاً نادراً جداً.

كان حبهما عظيماً. فمعظم الناس يخبرون الحب دون ان يعوا طبيعة هذه العاطفة العجيبة. اما لهما ـ وهذا ما جعلهما فريدين ـ فقد كانت الهنيهات التي زار فيها الحب، وجودهما الانساني الزائل كنسمة الأبدية، هنيهات من الرؤيا، من الاكتشافات المتواصلة عن نفسيهما وعن الحياة.

"بالطبع، عليك ان تعود الى عائلتك. لن أؤخرك يوماً واحداً اكثرمما يلزم. ولكن انظر ماذا يجري. فما ان صرنا جزءاً من روسيا السوفياتية حتى امتصّنا خرابها. ولكي يستمروا في البقاء، يسلبوننا كل شيء. لا تستطيع ان تتصور كم تغير وجه يورياتين في اثناء مرضك. مؤننا أرسلت الى موسكو ـ انها لهم نقطة من بحر، كل هذه الشحنات تضمحل في حفرة لا قرار لها ـ وفي هذه الاثناء لا يبقى عندنا شيء. لا بريد، لا مواصلات، وكل القطارات تستخدم لنقل الخبز. في المدينة تذمر عام، كما كان قبل ثورة "هايدا"، وللمرة الاخرى تقمع التشيكا (البوليس السري) كل شكوى بالشدة والوحشية.

"كيف لك ان تسافر، وأنت على مثل هذا الهزال، لا شيء غير الجلد والعظم؟ اتظن حقاً انك تستطيع ان تسافر على قدميك؟ لن يكون بمقدورك ان تصل. حينما تقوى، فالحال تختلف.

"لا ادعي النصح والارشاد، انما لو كنت في مكانك لوجدت عملاً في الوقت الحاضر. زاولْ مهنتك ـ يعجبهم ذلك. قد تحصل على عمل في مصلحة الصحة الاقليمية.

"عليك ان تعمل. كان ابوك مليونيراً سيبيرياً انتحر، وزوجتك ابنة اقطاعي وصناعي محلي، وأنت كنت مع الانصار وهربت. لا تستطيع ان

تنكر ذلك ـ تركت صفوف الجيش الثوري، انت فارّ. مهما كانت الظروف، عليك ألاّ تبقى عاطلاً عن العمل. وانا لست في وضع أفضل. علي ان اجد عملاً انا ايضاً. انني اعيش على فوهة بركان، كما هي الحال الآن."

"ماذا تعنين؟ وستريلنيكوف؟"

"هذا بالضبط لسببه. اخبرتك قبلاً بأن له كثيراً من الاعداء. اما الآن وقد انتصر الجيش الاحمر، فان الجنود اللاحزبيين الذين بلغوا القمة اكثر مما يجب وعرفوا اكثر مما ينبغي لهم ان يعرفوا، قد انتهى امرهم. وسيكون حظهم سعيداً اذا طُردوا ولم يُقتلوا حتى لا يتركوا وراءهم أي أثر. هل تعرف انه ذهب الى الشرق. سمعت انه هرب. انه في المخفى. وهم يبحثون عنه. ولكن، بربك دعنا من الكلام عن ذلك. اكره البكاء، واذا ما قلت كلمة اخرى عنه، فلن اتمالك من العويل."

"كنت تحبينه كثيراً؟ اما زلت حتى الآن؟"

"لقد تزوجته، انه زوجي، يا يوروشكا. له شخصية رائعة، مستقيمة، بارزة. اخطأت كثيراً. لا بمعنى اني أذيته بشيء، فهذا ليس صحيحاً. بل بمعنى انه رجل فذ، عظيم، وانا امرأة لا خير فيها قط، ولا شأن لها بالقياس اليه. هنا يكمن خطئي. ولكن، بربك دعنا من الكلام عن هذا الآن. سأقول لك اكثر يوماً ما، اعدك بانني سأفعل.

"ما أجمل زوجتك تونيا. كأنها صورة بريشة بوتيتشيللي. كنت هناك حين وضعت طفلها. تآلفنا جيداً. ولكن، دعنا من الكلام عن هذا ايضاً، فقط في هذه البرهة!

"قلت لنجد كلانا عملاً. نذهب الى العمل كل صباح، وفي آخر الشهر نقبض أجرتينا ملايينَ من الروبلات. هل تعرف ان اوراق البنك السيبيري المالية، حتى الأيام الأخيرة، كانت صالحة؟ ثم أُعلن عن انها لم تعد صالحة ولوقت طويل، طيلة الوقت الذي كنت فيه مريضاً، وهكذا لم

يعد بين ايدي الناس عملة على الاطلاق! تأمل! غير اننا تدبرنا الامر بطريقة ما. والآن يقال ان قطاراً مليئاً بالاوراق المالية قد وصل، اربعون مقطورة ملأى على الاقل! انها مطبوعة على صحائف ورق كبيرة بلونين، احمر وازرق، ومقسمة الى مربعات صغيرة كطوابع البريد. المربعات الزرقاء تساوي الواحدة منها خمسة ملايين روبل، والمربعات الحمراء عشرة ملايين. انها مطبوعة طبعاً سقيماً، بحيث يحول لونها ويتسخ."

"نعم. رأيت هذا النوع من العملة. وضعوها في التداول بموسكو عشية غادرناها."

١٢

"لماذا بقيت طول هذه المدة في فاريكينو؟ هل لك احد هناك؟ كنت احسب ألاّ أحد كان هناك، والبلدة مهجورة. ماذا ابقاك طول هذه المدة؟"

"كنت انظف بيتك مع كاتنكا. ظننت انك تذهب الى هناك اولا، فلم ارد ان تراه في الحال التي كان فيها."

"لماذا، في أي حال كان؟ أكانت سيئة الى هذا الحد؟"

"كان غير مرتب، قذراً، فأصلحنا حاله."

"يا لك من متصلبة تتجنبين قول الحقيقة! أحس ان هنالك سراً لا تفضين به اليّ. فليكن لك ما تريدين، لن احاول انتزاعه منك. اخبريني عن تونيا. ماذا سمّت الطفل؟"

"ماشا، على اسم امك."

"اخبريني كل شيء عنهم."

"أرجوك، ليس الآن. قلت لك انني لا استطيع الكلام عن ذلك دون أن أبكي."

"سامديفياتوف الذي اعارك الفرس، انه شخصية جذابة، الا ترين ذلك؟"

"جداً."

"اعرفه جيداً، اتعلمين؟ كان يتردد على منزلنا حينما كنا فيه. كان كل شيء جديداً علينا، فساعدنا على الاستقرار."

"اعلم ذلك، فقد اخبرني."

لابد انكما صديقان حميمان. هل يحاول ان يساعدك انت ايضاً؟"

"انه يغرقني بلطفه! لا ادري ما كنت افعل لولاه."

"في استطاعتي ان اتصور! أحسب انكما على علاقة أليفة، حميمة، واحدكما مع الآخر. هل يتودد اليك كثيراً؟"

"كل الوقت، بالطبع!"

"وانت تميلين اليه؟ آسف. كان يجب ألاّ اطرح هذا السؤال. ليس من شأني ان استجوبك. بالغتَ في الأمر. عذراً."

"أوه، لا بأس. اظن ان ماتعنيه بالفعل هو: أي نوع من العلاقة تقوم بيننا؟ هل بيننا ما هو اكثر من صداقة؟ بالطبع، كلا. لقد فعل الكثير من أجلي، وانا مدينة له جداً، ولكن لو اعطاني ثقلي ذهباً، لو بذل حياته من اجلي، فهذا لن يقربني خطوة اليه. كنت دائماً امقت رجالاً من هذا النوع، فليس بيني وبينهم أي جامع. هذه الشخصيات الواسعة الحيلة، الواثقة من نفسها، المتسلطة ـ هي في الشؤون العملية لا تقدر بثمن، انما في الشؤون العاطفية فلا استطيع التفكير بشيء اكثر فظاعة من تلك الرخاوة الذكرية الوقحة! وفضلاً عن هذا، فسمديفياتوف، اخلاقياً، يذكرني بشخص آخر، بشخص يفوقه إثارة للمقت بما لا يقاس. والحق عليه ان انا اصبحت ما انا عليه."

"لا افهم. ما تظنين انك انت؟ ماذا يجول في خاطرك؟ اوضحي لي. انت خير انسان في العالم."

"كيف تقول ذلك، يا يوروشكا! انني جادة فيما اقول، وانت تغدق علي المديح كأننا في صالون. ما تراني اكون؟ بي شيء محطم، في حياتي كلها شيء محطم. عرفت الحياة مبكراً جداً، حُملت على معرفتها، وحُملت على ان أراها من اسوأ جوانبها - جانب رخيص، مشوه، ممسوخ منها - بعيني طفيليّ واثق من نفسه، متقدم في السن، استغل كل شيء وسمح لنفسه بكل ما جال في مخيلته."

"أحسب انني فهمت. ظننت ان هنالك شيئاً. إنما تمهّلي لحظة. بوسعي ان اتخيل ألمك كطفلة، ألماً تعدى سنيّ حياتك، والهزة العنيفة التي اصابتك وانت عديمة الخبرة، وشعورك كفتاة صغيرة جداً بالمهانة. ولكن هذا كله كان في الماضي. وما اقصد اليه هو انه ليس لك ان تجعلي نفسك حزينة من اجل ذلك الآن، انه للآخرين الذين يحبونك، للآخرين أمثالي. انا هو الذي ينبغي له ان يمزق شعره لانه لم يكن معك ليحول بينك وبين ما جرى لك، اذا كان بالفعل يجعلك حزينة. يا له من أمر غريب. اظن انه بامكاني ان اغار بالفعل - غيرة عنيفة قاتلة - ممن هم دوني، ممن ليس بيني وبينهم أي جامع. ان غريماً احترمه يثير في نفسي شعوراً آخر يختلف تماماً عن شعور الغيرة. اظن لو وقع رجل أفهمه وأعجب به بحب امرأة وقعت انا في حبها، لما شعرت بامتعاض او برغبة في مخاصمته، بل لشعرت بنوع من الاخوة المأساتية بيني وبينه. بالطبع، لا يخطر لي مطلقاً ان اقاسمه المرأة التي أحب، بل انما اهجرها وألمي عندئذٍ يكون شيئاً مختلفاً عن ألم الغيرة - اقل منه طيشاً وحمقاً. فيكون ذلك كما لو أنني وجدت فناناً يعمل تماماً ما كنت اعمله انا، إنما يعمله خيراً مني. كنت، على الارجح، اقلع عن بذلك جهودي، وآبى ان استمرّ، اذ ليس من معنى للاستمرار اذا كان عمله افضل.

"على ان ذلك ليس موضوع حديثنا. لا اعتقد انه كان باستطاعتي ان احبك مثل هذا الحب الشديد لو لم يكن لك ما تشكين منه او تندمين

عليه. فانا لا اميل الى من لايسقطون او يعثرون. فضيلتهم تكون إذاك قليلة القيمة، فاقدة الروح. الحياة لم تكن قد تكشفت لهم عن جمالها.

"هذا الجمال هو ما أفكر به. اعتقد انك لكي تراه ينبغي لخيالك ان يكون سليماً، لرؤيتك ان تكون كرؤية الطفل. هذا ما حرمت منه. كان بوسعي ان انمي نظرتي الخاصة الى الحياة لو لم ارها، منذ البداءة، مدموغة في نظرة احدهم البذيئة الممسوخة. وهذا ليس كل شيء. فبالنظر الى التدخل السافل الاناني الذي قام به رجل نكرة في حياتي منذ مستهلها، فانني حين تزوجت فيما بعد رجلاً عظيماً حقاً وفذاً، رجلاً احبني واحببته، فقد تحطم زواجي."

"انتظري هنيهة قبل ان تحدثيني عن زوجك، انا لست غيوراً منه. قلت لك انني اغار فقط ممن هم دوني، لا ممن هم اندادي. حدثيني اولاً عن هذا الرجل الآخر."

"أي رجل؟"

"هذا الذي افسد عليك زواجك. من هو؟"

"محامٍ معروف من موسكو. صديق لأبي. حين توفي ابي، وكنا في عسر، منح ابي معونة مالية. كان غير متزوج، وثريّاً. ربما جعلته يبدو اكثر اهمية لانني رسمته لك بمثل هذا السواد. انه رجل عادي جداً. سأخبرك باسمه اذا شئت."

"لا حاجة الى ذلك. اعرفه. رأيته مرة."

"صحيح؟"

"في غرفة بأحد الفنادق، حين تناولت امك السم. كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل. انت وانا كنا لا نزال في المدرسة."

"أوه، اتذكر، جئت مع رفيق لك. وقفت في الظل، في الممر. لا ادري اذا كنت أتذكر ذلك بنفسي، ولكن اظن انك ذكرتني به مرة، في ميليوزئيف."

"كان كوماروفسكي هناك."

"صحيح؟ ممكن. لم يكن وجودنا معاً في مكان واحد بالأمر الشاذ. كنا دائماً نلتقي."

"لماذا تحمرين خجلاً؟"

"عند ذكر اسم كوماروفسكي يخرج من بين شفتيك. لم اعد معتادة على سماعه، فقد فوجئت به."

"كان لي صديق في المدرسة ذهب معي تلك الليلة، وهذا ما اخبرني به هناك في الفندق. فقد عرف كوماروفسكي رجلاً صدف ان رآه مرة من قبل. لقد شهد هذا الصديق، ميشاغوردون، عندما كان طفلا، في اثناء احدى رحلاته، انتحار والدي - المليونير الصناعي. كانا في القطار ذاته، حين قفز والدي طوعاً من القطار السائر وسقط ميتاً. وكان كوماروفسكي رفيقه في هذه الرحلة، وقد كان محاميه. لقد حمل والدي على الشراب، واوقع تجارته في بلبلة، وقاده الى شفير الافلاس، ثم دفعه الى الانتحار. ان اللوم يقع عليه في ان يقتل والدي نفسه وان اصبح يتيماً."

"هذا مستحيل! هذا غريب! ايمكن ان يكون هذا صحيحاً؟ إذاً، لقد كان هذا الرجل ملاكك الشرير، ايضاً! هذا يقرب ما بيننا اكثر! لابد ان يكون القضاء والقدر!"

"انه الرجل الذي لن أشفى منه، الذي اغار منه الى حد الجنون."

"كيف يمكنك ان تقول مثل هذا القول؟ ليس انني لا احبه فحسب - انني امقته."

"هل في مقدورك، انت نفسك، ان تفهمي بهذا المقدار؟ ان الطبيعة البشرية، لاسيما طبيعة المرأة، لعلى جانب كبير من الغموض والتناقض. فلعل هناك في مقتك له ما يجعلك دائمة الخضوع له اكثر من أي رجل آخر تحبينه طوعاً واختياراً."

"ما أقسى كلامك! الاسلوب الذي تعبر فيه يجعلني، كما عهدت فيك، أحس بان هذا الأمر، الغريب بحد ذاته، يبدو صحيحاً. ولكن، يا للفظاعة اذا كان صحيحاً!"

"لا تضطربي. لا تصغي الي. كل ما عنيته انني اغار من عنصر مظلم لا واعٍ، شيء لا عقلي، شيء لا يُدرك. انني اغار من ادوات زينتك، من قطرات العرق على جسدك، من جراثيم الهواء التي تتنشقينها وفي امكانها ان تسري في دمك وتسممك. ثم انني اغار من كوماروفسكي، كما لو كان مرضاً معدياً. ففي يوم ما سينتزعك، تماماً كما سيفرقنا الموت. انا اعلم ان هذا يبدو غامضاً ومشوشاً، ولكنني لا استطيع ان اعرب عنه بوضوح اكثر. احبك حباً جنونياً، حباً بعيداً عن التعقل، حباً لا حدود له."

١٣

"زديني حديثاً عن زوجك - "الذي سُطِّر معي في كتاب التعاسة المرير"، كما يقول شكسبير."

"اين قال هذا؟"

"في رواية روميو وجولييت."

"اخبرتك كثيراً عنه حين كنت ابحث عنه فيه ميليوزئيف، ثم هنا، عندما علمت كيف قبض عليك رجاله واخذوك الى جماعته. ربما اخبرتك - او لعلي ظننت انني فعلت - كيف ابصرت به من بعيد، وقد كان يهم بركوب سيارته. كان حوله حراس عديدون. وجدته تقريباً كما كان. الوجه الصبوح، الصادق، الحازم ذاته؛ الوجه الاصدق من جميع الوجوه التي رأيتها في حياتي. الشخصية الرجولية، المستقيمة، التي لا يشوبها ظل من الميوعة العاطفية او التصنع. ومع ذلك، فلم ألاحظ أي فارق، وهذا

ما افزعني.

"كان، كأنما شيء مجرّد قد تسلّل الى وجهه فجعله بلا لون. كأنما وجه انساني حي قد اصبح تجسيداً لعقيدة، صورة لفكرة. فهبط قلبي حين لاحظت ذلك. لقد ادركت ان هذا قد حدث له لأنه اسلم نفسه لسلطة اعلى، ولكنها سلطة مميتة لا ترحم ولا تتورع عن اهلاكه في النهاية. وخيل الي انه رجل معدٌّ وان ذلك قد كان ختم هلاكه. ولكن، لعلني في بلبلة من الامر. ولعلني متأثرة بما قلته لي حين وصفت اجتماعك به. ففضلاً عما بيننا من عاطفة، فانني اتأثر بك في نواحٍ عدة!"

"اخبريني عن علاقتك به قبل الثورة".

"حينما كنت لا ازال طفلة، غدت الطهارة مثالي الأعلى. وكان هو تجسيداً لها. لقد نشأنا، كما تعرف، في بيت واحد تقريباً. هو، وغاليولين، وانا. ومنذ صباه وقع في غرامي. كان يقع تقريباً في غيبوبة حين يراني. ربما ينبغي لي ألاّ اتكلم هكذا. ولكن من الاسوأ ان ادعي بانني لم اكن اعلم بالامر. كان ذلك نوعاً من العاطفة الصبيانية التي يخبئها الولد لأن كرامته لا تسمح له باظهارها، ولكن نظرة واحدة الى وجهه تكفي لاعلامك بكل شيء عنها. كنا غالباً ما نجتمع معاً. كنا مختلفين، واحدنا عن الآخر، كما نحن، انا وانت، متشابهان، لقد اخترته على الفور في قلبي. وعزمت على الزواج منه حالما نكبر، فاصبحت مخطوبة له في فكري.

"يا الله، كم هو رجل موهوب! كان ابوه عاملاً بسيطاً في سكة الحديد، وبذكائه المحض وجدّه واجتهاده توصل، كدت اقول الى مستوى، انما الاصح ذروة، المعرفة الاكاديمية في حقلين ـ العلوم الكلاسيكية والرياضيات! أليس هذا امراً عجباً!"

"ولكن ما الذي افسد زواجكما اذا كنتما تحبان، واحدكم الآخر، كل هذا الحب؟"

"آه، هذا سؤال يصعب الرد عليه. سأحاول ان اخبرك. ولكن أليس من الغرابة ان تشرح امرأة عادية مثلي الى رجل بمثل حكمتك ما يحدث الآن للحياة البشرية عموماً وللحياة في روسيا خصوصاً ولماذا تتقوض اركان العائلات، بما في جملتها عائلتك وعائلتي؟ آه، انه امر يتعلق بالافراد، بكونهم متشابهين او مختلفين في المزاج، محبين او غير محبين! جميع العادات والتقاليد، طريق حياتنا كلها، كل ما له صلة بالعائلة والنظام، قد انهار واستحال الى غبار في هذا الانقلاب العام واعادة تنظيم المجتمع. طريقة حياة الانسان كلها قد تحطمت وصارت خراباً. كل ما بقي فهو النفس الانسانية العارية التي نزع عنها آخر خيط، والتي لم يتغير بالنسبة اليها شيء لانها كانت دائماً باردة ترتجف وتستغيث باقرب قريب لها، باردة ووحيدة كنفسها. انت وانا كآدم وحواء، اول مخلوقين بشريين على الارض لم يكن لهما، في بدء العالم ما يستتران به - والآن في نهايته لانزال عراة ولا مأوى لنا. وما انت وانا الا الذكرى الاخيرة لتلك العظمة الفائقة التي صُنعت في العالم خلال الآلاف من السنين التي تفصل بينهما وبيننا، ونحن إنما في ذاكرة تلك الروائع التي تلاشت واضمحلت كلها نعيش ونحب ونبكي ونتعلق، واحدنا بالآخر."

١٤

وصمتت هنيهة، ثم تابعت كلامها وهي اكثر هدوءاً:

"اسمع. لو صار ستريلنيكوف باشنكا مرة ثانية، لو رجع عن هياجه وتمرده، لو عاد الزمن الى الوراء؛ لو استطعت باعجوبة ان ارى، في مكان ما، شبابيك بيتنا مضيئة، ونور المصباح على مكتب باشا وكتبه، حتى ولو كان ذلك في اقاصي الارض - لزحفت إليه على ركبتي. كل شيء فيّ كان يستجيب. فانا لن استطيع ان اصمد في وجه نداء الماضي،

لسبب ولائي. ليس من شيء لا ابذله مهما يكن غالياً. حتى انت. حتى حبنا، هذا الحب الهنيء، العفوي، الطبيعي. أوه، سامحني! لا اعني ما اقوله. ليس صحيحاً!"

وألقت بنفسها بين ذراعيه، وهي تنتحب. ولكن سرعان ما ملكت أعصابها ومسحت دموعها وقالت:

"أليس نداء الواجب، هو ذاته، الذي يدفعك للعودة الى تونيا؟ آه، يا الله، كم نحن تعساء! ماذا سيجري لنا؟ ماذا نفعل؟"

وحين عاد اليها هدوؤها تابعت كلامها قائلة:

"ولكنني لم اجب على سؤالك عما افسد سعادتنا. لقد توصلت الى ادراك جلية الامر فيما بعد. اسمع. ليست الحكاية حكايتنا وحدنا. فقد اصبحت حكاية الكثيرين سوانا."

"اخبريني، يا حبيبتي، انت ايتها المليئة بالحكمة."

"تزوجنا قبل الحرب بعامين. فما ان بدأنا بحياة خاصة بنا، وما ان انشأنا بيتنا، حتى اندلعت نار الحرب. اعتقد الآن بأن اللوم كله يقع على الحرب، لجميع النكبات التي تلت والتي تقض مضجع جيلنا حتى هذا اليوم. اتذكر طفولتي جيداً. ولاازال اذكر جيداًحين قبلنا جميعنا النظرة المسالمة التي اتصف بها القرن الفائت. كان امراً لاجدل فيه ان المرء يخضع لاحكام العقل، وان من الصواب والبداهة ان يفعل ما يمليه عليه ضميره ووجدانه. فأن يموت المرء بيد سواه، لحدث كان آنذاك على جانب كبير من الندرة والشذوذ، لشيء غير اعتيادي. فقد اقتصرت حوادث القتل على الوقوع في المسرحيات، والجرائد، والروايات البوليسية، لا في الحياة العادية.

"ثم جرت القفزة من هذا الاعتدال المسالم الساذج الى مرحلة الدماء والدموع، والجنون الجماعي، ووحشية التقتيل اليومي، الساعتي، الشرعي، المكافأ.

"اظن ان على المرء دائماً ان يدفع جزاء هذه الامور. لابد انك تذكر اكثر مني بداءة الانحلال، كيف بدأ كل شيء يتقوّض دفعة واحدة ـ القطارات، ومصادر القوت في المدن، وأسس العائلة، ومبادىء الاخلاق."

"أكملي. اعرف ما ستقولينه بعد هذا. كم انت ترين هذه الامور بجلاء ووضوح. يا لفرح من يستمع اليك!"

"إذاك خيم الباطل على وطننا روسيا، كانت النكبة الرئيسية، اصل البلاء الذي حلّ، هي فقدان الثقة بقيمة آرائنا الخاصة بنا. فقد خُيل الى الناس انه كان من التخلف عن سير الزمن ان يهتدوا بحسهم الاخلاقي، وان عليهم ان ينشدوا جميعاً في جوقة ويعيشوا بافكار سواهم، وهي افكار كانت تدفع دفعاً في حلقوم كل فرد. وعند ذاك برزت سلطة العبارة البراقة: ابتُلينا بالقيصري، والآن بالثوري.

"هذا البلاء الاجتماعي اصبح سارياً. كان سريع العدوى. فأصاب كل شيء، ولم يسلم من ملامسته شيء. عائلتنا، ايضاً، مرضت بدائه.شرٌّ مانزل بها. وعوض ان نكون بسطاء عفويين كما كنا دائماً، اصبحنا عنجهيين متعجرفين، على نحو ابله سخيف، بعضنا مع البعض الآخر. شيء ما مصطنع، مفتعل، ذو خيلاء فارغة، قد دبّ الى احاديثنا ـ فصار المرء يشعر بأنه ينبغي له ان يتحذلق بطريقة ما في الكلام عن بعض القضايا ذات الاهمية العالمية. فكيف لباشا، وهو على ما كان عليه من الشدة والصرامة مع نفسه، ومن التمييز الصائب بين الحقيقة والمظهر، كيف له ان يعجز عن ادراك الكذب الذي تسلل الى حياتنا؟

"وهنا ارتكب خطيئته المهلكة الفظيعة. فقد ضل في اخذ روح العصر، البلاء الاجتماعي العالمي، على انه بلاء خصوصي وعائلي. لقد اصغى الى مبتذلاتنا، الى نبرتنا الرسمية، غير الطبيعية، وظن اننا انما كنا نتكلم كذلك لانه كان غير مبرّز، نكرة. ولعلك تحسبه امراً لا يُصدق، ان يكون لهذه القضايا التافهة شأن كبير في حياتنا الزوجية. فأنت لا

تستطيع ان تتخيل كم كانت خطيرة، وما هي الافعال الحمقاء التي حمله هذا الهراء الصبياني على اتيانها.

"لم يطلب اليه أحد ان يذهب الى الحرب، ولكنه ذهب لانه تخيل نفسه عبئاً ثقيلا علينا، فأراد ان يريحنا منه. كان هذا بداءة جميع ما ارتكبه من حماقة. وبدافع نوع من الخيلاء الصبيانية، الضالة، احسّ بالاساءة من امور لا يحس بها سائر الناس. وكم تأفف من سير الحوادث، وتخاصم مع التاريخ. وها هو يحاول حتى هذا اليوم ان يسوي حسابه معه. وهذا ما يحمله على مثل هذا التحدي الجنوني. ان هذا الطموح السخيف هو الذي يقوده الى حتفه. آه يا الهي، لو كان في وسعي ان انقذه."

"ما انقى واقوى حبك له! استمري، استمري في حبه. لا اغار منه. لن اقف في طريقك."

١٥

وجاء الصيف وولى، دون ان ينتبه اليه احد او يكاد. وتماثل الطبيب الى الشفاء. وفيما كان يتهيأ للذهاب الى موسكو، شغل ثلاث وظائف مؤقتة وجعل تدهور قيمة العملة السريع من الصعب الحصول على الرزق.

كان ينهض في كل صباح مبكراً، فيغادر البيت ويسير في شارع التجار، مروراً بدار سينما "الجبار" حتى مطبعة جيش القوزاك بالاورال سابقاً، والمسماة الآن بـ"الموضِّب الاحمر". وعلى زاوية شارع المدينة، كان باب مبنى البلدية يحمل اللافتة: "شكاوى". فكان يعبر الساحة العامة، ويتبع شارع بيانوفكا حتى يبلغ المستشفى فيدخله من الباب الخلفي الى دائرة المرضى الزائرين التابعة لمستشفى الجيش، حيث كان يعمل. وكان

هذا هو عمله الرئيسي.

وكان طريقه من مسكن لارا الى المستشفى يقع في ظلال اشجار وارفة، ويخترق المنازل الخشبية الصغيرة الغريبة، ذات السطوح العمودية، والابواب المزينة، والاطارات المنقوشة الملونة حول الشبابيك. وكان البيت الملاصق للمستشفى، والواقع في حديقته، يخص غوريليادوفا، زوجة احد التجار. وكانت واجهته مرصوفة برخام لمّاع، بمثل تقطيع الماس، اسوة بمنازل الارستقراطيين في موسكو.

وكان يوري اندرييفيتش يحضر، ثلاث او اربع مرات، اجتماعات مجلس ادارة مصلحة الصحة العامة في يورياتين، بشارع مياسكي.

وفي الطرف الآخر في المدينة، قامت مؤسسة الامراض النسائية سابقاً، وقد اسسها والد سامديفياتوف تخليداً لذكرى زوجته التي توفيت تحت الولادة، وقد سميت الآن مؤسسة روزا لكسمبورج، حيث كان يوري اندرييفيتش يحاضر في الباثولوجيا العامة، وفي موضوع او موضعين آخرين يختارهما كجزء من الدرس الجديد الموجز الخاص بالطب والجراحة.

واذ كان يعود الى البيت في الليل، وهو جائع وتعب، كان يجد لارا منهمكة في شؤون البيت، تطبخ او تغسل. ففي هذه الناحية اليومية البليدة من وجودها، حين تكون مشوشة الهندام، باكمام مدرجة الى وراء وتنورة مشكولة الى فوق، كانت توشك ان تدبّ الرعب في نفسه بجمالها الملكي الذي كان يأخذ بمجامع قلبه اكثر منه حين تزينت لحفلة راقصة، فازدادت قامتها طولاً بحذائها العالي الكعبين وردائها الطويل المفتوح عند الصدر، ذي الاردان المجرّرة الخشخاشة.

كانت تهيء الطعام وتغسل الثياب وتستعمل ماء الصابون لمسح الارض، او تعمد الى ما كان اكثر هدوءاً، فتكوي الثياب وتصلحها لثلاثتهم جميعاً. او حينما كانت تنتهي من هذا كله، فتعطي كاتنكا دروساً او تنكب على الكتب تعيد تثقيف نفسها سياسياً، فتصبح بذلك

مؤهلة للتدريس في المدرسة الجديدة التي اعيد تنظيمها.

وكان كلما ازداد صلة بهذه المرأة وابنتها، قلّت جرأته على التفكير بهما كعائلة واشتدت الرقابة التي فرضها على افكاره واجبه نحو عائلته وألمه من وعده الضائع. ولم يكن في هذا الحدّ ما يسيء الى لارا وكاتنكا. بل على النقيض من ذلك، كان هذا موقفاً من جانبه بعيداً كل البعد عن أي اثر للسفاهة والتبذل.

غير ان هذا الانقسام فيه كان مصدراً للحزن والعذاب، ولم يتعود عليه الا كمن تعود على جرح لم يبرأ وغالباً ما نكىء.

١٦

مرّ شهران او ثلاثة. وذات يوم من ايام اكتوبر، قال يوري اندرييفيتش للاريسا فيودوروفنا:

"يبدو انني سأحمل على الاستقالة من وظائفي. الأمر ذاته دائماً - يحدث مرة بعد أخرى. في البدء، كل شيء يسير سيراً حسناً. "تعال. نحن نرحب بالعمل الجيد، المخلص، نرحب بالافكار، لاسيما الافكار الجديدة. ماذا يسرنا اكثر من ذلك؟ قم بواجبك، ناضل، واظب."

"ثم لا تلبث ان تجد، في الواقع، ان ما يعنونه بالافكار لا يعدو كونه كلاماً فارغاً - ثرثرة في مديح الثورة والنظام القائم. لقد تعبت ولم اعد اطيق. وليس هذا بنوع العمل الذي اجيده.

"احسب انهم على حق، من وجهة نظرهم. بالطبع، لست مع الجانب الآخر. انني انما اجد صعوبة في حمل نفسي على قبول الفكرة القائلة بانهم ابطال ميامين وبانني برجوازي صغير يؤيد الطغيان والباطنية. هل سمعت في حياتك بنيقولاي فيدانيابين."

"بالطبع؟ قبل ان القاك ثم مما كنت تخبرني عنه. سيما تانتسيفا

غالباً ما تتحدث عنه، فهي من اتباعه. ومن العار انني لم أقرأ كتبه. فانا لا اميل الى الآثار الفلسفية المحض. واعتقد ان قليلاً من الفلسفة يجب ان تضاف على الحياة والفن على سبيل التابلة، انما ان يجعلها المرء اختصاصاً فأمر يبدو لي غريباً كالاكتفاء بأكل الجزر. ولكن عفوك، لقد عكرت عليك بهرائي."

"لا، انه بالفعل قريب جداً مما افكر فيه انا نفسي. ولكن لنعد الى عمي يقال انه افسدني بتأثيره. فاحدى خطاياي اعتقادي بالحدس. ومع ذلك انظري هذا السخف: كلهم ينادون بانني عالم ماهر بتشخيص المرض، والواقع انني ارتكب غالباً اخطاء في تشخيص المرض. ولكن، ما هذا القبض المباشر على حالة ما جملة ان لم يكن الحدس الذي يعتبرونه بهذا المقدار من الكراهية والمقت؟

"ثم انني شغوف جداً بمشكلة المحاكاة، اعني تكيّف المخلوقات العضوية الخارجي بحسب لون بيئتها. فانا اعتقد بان هذه الظاهرة البيولوجية تلقي ضوءاً على مشكلة العلاقة بين العالمين الداخلي والخارجي.

"وقد تجرأت على ذكر هذه المشكلة في محاضراتي. وفي الحال هتف الجميع بصوت واحد كالجوقة: "مثالية، صوفية، فلسفة غوته، فلسفة شلينغ."

"لقد حان لي ان اخرج. سأبقى في المستشفى الى ان يرموا بي خارجاً، ولكنني سأستقيل من مؤسسة الامراض النسائية ومن مصلحة الصحة العامة. لا اريد ان اقلقك، ولكنني اشعر احياناً بانهم سيلقون القبض علي في أي لحظة."

"لا سمح الله، يايوروشكا. لم نصل الى هذا الحد بعد، لحسن الطالع. ولكنك على حق. لا يضيرك ان تكون اشد حذراً. لقد لاحظت انه حينما يتسلم هذا النظام زمام السلطة، يمرّ في بعض المراحل المعينة.

اولها انتصار العقل، روح النقد، الصراع ضد التعصب وما الى ذلك.

"ثم تأتي المرحلة الثانية. فيقع التشديد كله على نشاط الذين يدعون التأييد، الذين يتعلقون باذيال الركب. ويزداد الشك والريبة: التجسس، التآمر، البغضاء. وانت محقّ بقولك، فنحن في بداءة المرحلة الثانية.

"اننا بغنى عن ان نذهب بعيداً لنجد الدليل على ذلك. فالمحكمة العسكرية المحلية قد استقدمت عضوين جديدين من خوداستكوي، هما مجرمان سياسيان من طبقة العمال، اسمهما تيفرزين وانتيبوف.

"كلاهما يعرفانني معرفة جيدة ـ بل الواقع ان احدهما عمي. ومع ذلك فانني لم ابدأ بالفعل اخاف على كاتنكا وعلى حياتي الا منذ وصولهما. فهما لا يتورعان عن شيء. انتيبسوف لا يحبني. وليس بمستغرب منهما ان يحطماني ويحطما باشا يوماً من الايام باسم العدالة الثورية العليا."

ولم يطل الوقت على هذا الحديث، حتى جرى في الليل تفتيش منزل الارملة جوريليادوفا، بشارع بيانوفكا رقم ٤٨، بجوار المستشفى. فعُثر على اسلحة واكتُشفت منظمة معادية للثورة. وأُلقي القبض على عديد من الاشخاص، واستمرت حملة التفتيش والاعتقال. واشيع ان احد المتهمين هرب عبر النهر. "ماذا سيفيدهم هذا؟" راح الناس يقولون. "هنالك انهار لا تحصى. خذ مثلاً نهر آمور في بلاكموفيشينسك ـ ما عليك الا ان تقفز فيه وتسبح عبره، وسرعان ما تجد نفسك في الصين. انه حقاً لنهر. وهذا امر آخر."

"الهواء مليء بالتهديد"، قالت لارا. "وقت الامان قد مضى. لابدّ ان يلقوا القبض علينا، انا وانت. ثم ماذا سيصير بكاتنكا؟ انني امّ، ولا استطيع ان ادع هذه النكبة تحلّ، عليَّ ان اجد طريقة. يجب ان اضع خطة. هذا الامر يجنني."

"دعينا نفكر. ماذا يا ترى نستطيع ان نفعل. هل في وسعنا ان نتجنب هذه الضربة؟ أليس هذا حكم القدر؟"

"لن نستطيع ان نهرب، ما من مكان نلجأ اليه. انما يمكننا ان ننسحب الى الظل، الى المؤخرة. فنذهب الى فاريكينو، مثلاً. مازلت افكر دائماً بالبيت هناك. انه وحيد ومهمل، ولكننا نكون فيه حائدين عن الطريق اكثر من هنا، فلا نجذب الينا الانظار. الشتاء على الابواب. ولا يزعجني مطلقاً ان اقضي الشتاء هناك. وما ان يصلوا الينا، حتى نكون قد ربحنا سنة من العمر؛ وهذا ربح لا بأس به. سامديفياتوف سيكون الصلة بيننا وبين المدينة. ولعله يساعدنا على الاختباء. ماذا تعتقد؟ صحيح، ليس هنالك احد، فالمكان خالٍ وموحش، هكذا كان على الاقل عندما كنت هناك في آذار. ويقال ان المكان يعمر بالذئاب. انه لشيء مرعب. ولكن اناساً، اناساً من امثال تيفرزين وانتيبوف يبعثون الرعب اكثر من الذئاب."

"لا ادري ما اقول. اما كنت تحثينني على السفر الى موسكو كل هذا الوقت، قائلة لي ألاّ ارجىء الامر؟ هذا اسهل الآن. حصلت على معلومات من محطة القطار. ويبدو انهم كفّوا عن قلقهم بصدد المتاجرين في السوق السوداء. ليس كل من كانت اوراقه غير مستوفية الشروط يعتقلونه وينزلونه من القطار. واطلاق النار على الناس قد خفّ. لقد تعبوا.

"يقلقني انني لم اتلق جوابا على رسائلي من موسكو. ينبغي لي ان اذهب الى هناك لارى ما حلّ بهم ـ انت دائماً تقولين لي هذا. ولكن كيف انظر الى ما قلته لي بشأن فاريكينو؟ من المؤكد انك لا تذهبين الى مكان منعزل كهذا وحدك."

"كلا. الذهاب بدونك مستحيل."

"ومع ذلك تنصحينني بالذهاب الى موسكو!"

"نعم، يجب ان تذهب."

"اسمعي. خطرت لي فكرة رائعة ـ لنرحل معاً الى موسكو، انا وانت وكاتنكا."

"الى موسكو؟ انت مجنون! ماذا اعمل في موسكو؟ كلا. يجب ان ابقى. يجب ان اظل قريبة من هنا. فهنا سيتقرر مصير باشا. علي ان انتظر هنا، فلعله احتاج الي."

"حسناً، لنفكر إذاً بكاتنكا."

"كنت اتحدث في الموضوع مع سيما ـ سيما تونتسيفا، فهي تأتي لزيارتي احياناً."

"اعلم ذلك، فقد رأيتها مراراً."

"انك تحيرني. لو كنت مكانك لوقعت في غرامها فوراً. لا ادري اين تضعون انتم الرجال عيونكم! انها رائعة! جميلة، بهية الطلعة، ذكية، مثقفة، حلوة المعشر، صافية الذهن."

"قصّت لي اختها شعري يوم وصولي ـ غلافيرا، الخياطة."

"اعلم. كلاهما تسكنان مع شقيقتهما الكبرى، أفدوتيا، الموظفة في المكتبة. انها عائلة مجتهدة، امينة. خطر لي ان اطلب اليهن ـ اذا وقع الاسوأ والقي القبض علي وعليك ـ ان يعتنين بكاتنكا. لم اصل الى قرار بهذا الصدد بعد."

"لا بأس، اذا لم يكن بالفعل من طريقة افضل. باذن الله، لن نصل الى هذا."

"يقال ان سيما فتاة شاذة ـ يشكو عقلها من بعض النقص. صحيح انها ليست طبيعية، انما ذلك ليس الا لانها عميقة التفكير، خارجة على المألوف. هي ليست في عداد المفكرين، ولكنها واسعة الاطلاع. انكما متشابهان في وجهات النظر. كم ابتهج لكاتنكا اذا قامت على تربيتها."

١٧

وذهب يوري اندرييفيتش للمرة الثانية الى المحطة وعاد منها دون ان يتوصل الى نتيجة. كل شيء كان ينتظر القرار الحاسم. لقد وقفا، هو ولارا، امام المجهول. الطقس كان بارداً وقاتماً، مثله قبل سقوط اوائل الثلج. وكانت السماء، لاسيما حيث ظهرت ارجاء واسعة منها، عند مفترق الطرق مثلاً، تتسم بسمة الشتاء.

وحين دخل البيت، وجد سيما في ضيافة لارا. كانتا تتحدثان، وكأنما كانت سيما تلقي محاضرة على مسامع لارا. ولم يشأ يوري اندرييفيتش ان يقطع حديثهما. وكان هو ايضاً يشعر بميل الى الجلوس وحده قليلا. كانت المرأتان تتحدثان في الغرفة المجاورة، وكان الباب بين الغرفتين مفتوحاً. ومن خلال الستار المسدل الى الارض، استطاع ان يسمع ما كانتا تقولانه.

"سامضي في الخياطة فلا تلتفتي اليها، يا عزيزتي سيما. انني اصغي. حضرت محاضرات عن الفلسفة في زمن التلمذة. طريقة تفكيرك تروق لي كثيراً، فضلا عن انني اجد راحة كبيرة في الاصغاء اليك. لم ننم طويلا في الليالي البضع الاخيرات، لقلقنا على مستقبل كاتنكا. انني ادرك واجبي كأم في السعي الى تأمين سلامتها فيما لوحدث لنا شيء. ينبغي لي ان افكر في الموضوع بهدوء وتعقل، ولكنني لا احسن ذلك جيداً. وهذا ما يحزنني. انني اشعر بالاسى من جراء الارهاق والارق. وكم يطمئنني ان اصغي اليك. ثم ان الثلج سرعان ما يسقط. ما احلى حين تثلج ان يصغي المرء الى حديث طويل بارع. ولو انك القيت من طرف عينيك نظرة الى الشباك وهي تثلج لشعرت دائماً كأنما احد مقبل الى الباب عبر فناء الدار، هل لاحظت ذلك؟ اكملي حديثك، يا

سيما. كلي آذان."

"اين قطعنا الحديث في المرة الماضية؟"

ولم يستطع يوري اندرييفيتش ان يسمعَ جواب لارا، ولكنه اصغى الى ما كانت سيما تقوله:

"من الممكن استعمال كلمات مثل "الثقافة"، "العصور". غير ان الناس يفهمونها فهما مختلفا. ولان معناها غامض، فسأتجنب استعمالها. وسأستبدلها بكلمات اخرى.

"الانسان، في نظري، مخلوق من جزءين: الله والعمل. كل مرحلة تالية من مراحل تطور الروح الانسانية تتسم بالمآثر التي حققها، خلال اجيال عديدة، العمل البطيء، المستفيض. من الامثلة على عمل كهذا، كانت مصر. واليونان مثل آخر. ولاهوت انبياء عهد التوراة القديم مثل ثالث. اما المثل الاخير في الزمن، الذي لم يتجاوزه شيء آخر بعد، والذي لايزال يتحقق على ايدي الملهمين، هو المسيحية.

"ولكي ابين لك ما اتت به من جديد كل الجدة الى العالم بكل طراوته - لا كما تعرفينه او كما ألفته، انما باكثر بساطة، باكثر ايجاز - اود ان اسرد بعض المقتطفات من الطقوس الكنسية - البعض القليل منها، وبتلخيص ايضا.

"معظم النصوص الطقسية تؤلف بين مفاهيم العهدين القديم والجديد في التوراة وتضعها جنبا الى جنب. من الامثال على ذلك ان العليقة المحترقة، والخروج من مصر، والفتيان في آتون النار، ويونان والحوت، قد قُدمت كلها كأحداث موازية لمفهوم الحبل بلا دنس ولقيامة المسيح من بين الأموات.

"ان مقارنات كهذه تُبرر، بوضوح، في نظري، كيف ان العهد القديم قديم والانجيل جديد. ففي نصوص عدة تُقارن امومة مريم بعبور اليهود للبحر الاحمر. ومثلاً على ذلك آية تبدأ هكذا: "البحر الاحمر شبيه

العروس". ثم تخلص الى القول انه "كما كان البحر لا يُعبر بعد ان عبره الاسرائيليون، هكذا كانت العذراء التي بلا دنس غير قابلة للفساد بعد ولادة عمانوئيل." وهذا يعني ان البحر الاحمر، بعد ان عبره اليهود، عاد فأصبح مستحيل العبور، وان العذراء بعد ان ولدت السيد عادت فأصبحت بلا دنس. وهكذا قوبل بين الحدثين. وما هو نوع هذين الحدثين؟ كلاهما فوق الطبيعة، وكلاهما اعجوبة. فما هو الذي اعتُبر اعجوبة في عصره - العصر العتيق البدائي، والعصر التالي، عصر ما بعد الرومان، الذي كان احدث في الزمن بكثير؟

"في الاعجوبة الاولى، هناك قائد شعبي، البطريرك موسى، الذي شق الماء باشارة سحرية، فأتاح لشعب بكامله - اعداد لا تحصى، مئات الآلاف من الناس - ان يعبر البحر، وحين بلغ آخر رجل الشاطىء الآخر، اطبقت مياه البحر مرة ثانية فابتلعت واغرقت المصريين الذين كانوا يطاردونهم. هذه الصورة تنسجم مع روحية العصور القديمة - الطبيعة تطيع الساحر، الجموع الهازجة الشبيهة بالجيوش الرومانية تزحف، شعباً وقائداً. كل شيء ظاهر، مفهوم، ساحق.

"وفي الاعجوبة الثانية، هناك فتاة - شخصية عادية كانت لا تلفت الانظار في العالم القديم - تضع بهدوء وفي الخفاء طفلها، فتلد حياة، اعجوبة الحياة، "الحياة الكلية"، كما دعي هو فيما بعد. ان ولادة طفلها ليست فقط نقضاً للقوانين البشرية كما فسرها الفقهاء، اذ انها كانت ولادة من زواج غير شرعي، بل انها تنقض ايضاً قوانين الطبيعة. لقد وضعت طفلها، لا بفعل الطبيعة، بل بفعل اعجوبة، بوحي هبط اليها من فوق. ومن ذلك الحين فصاعداً، اصبح أصل الحياة ذلك الوحي الذي يسعى الانجيل الى ان يجعل منه اساس الحياة، واضعاً العادي الاليف وجهاً لوجه أمام الفريد، اليوم الاسبوعي امام اليوم المقدس، ورافضاً كل إكراه.

"يا له من تغيّر هائل خطير! كيف كان ان حدثاً فردياً انسانياً، لا شأن له بحسب المفاهيم القديمة، قد اعتُبر مساوياً في الخطورة لهجرة شعب بكامله؟ لماذا ينبغي ان يكون له مثل هذه القيمة في اعين السماء؟ ـ ذلك انه من خلال اعين السماء انما يجب ان يُنظر اليه، وانه لامام وجه السماء وعلى ضوء فرادته المقدسة انما قدر لهذا الحدث ان يقع.

"كان قد جرى تغير ما في العالم. روما كانت اشرفت على نهايتها. سلطان العدد كان ينازع الروح. الواجب، وقد فرض بقوة السلاح، ان تعيش بالاجماع كشعب، كأمة بكاملها، قد أُلغي وزال. القادة والامم قد اصبحت في ضمير الأمس.

"لقد استبدل هؤلاء بمذهب الفردية والحرية. وغدت حياة الفرد الانساني سيرة حياة الله، وملأت مضامينها ارجاء الكون الرحيبة. وكما جاء في طقس عيد السيدة، من ان آدم قد حاول ان يكون كالله فأخفق، ولكن الله الآن قد صار انساناً كيما يُجعل آدم إلهاً.

"سأعود الى هذا الموضوع بعد لحظة"، قالت سيما. "ولكنني الآن اود ان استطرد قليلاً. ففيما يتعلق بالعناية بالعمال، وحماية الام، والصراع ضد سلطان المال، فان عهدنا الثوري عهد رائع، لا ينسى، له مآثره الجديدة الخالدة. اما فيما يتعلق بتفسيره للحياة، وبفلسفة السعادة التي يذيعها، فلا يعقل ان ذلك قد عُني لكي يؤخذ بعين الجدّ. فهو من رواسب الماضي المضحكة. فلو كان في وسع الخُطب عن القادة والشعوب ان تغير مجرى التاريخ، لأرجعتنا القهقرى آلاف السنين الى ايام التوراة العامرة بالرعاة والبطاركة. ولكن هذا لحسن الحظ مستحيل.

"والآن، فلي كلمة عن المسيح ومريم المجدلية ـ هذا ليس من الانجيل، بل من صلوات احد ايام الاسبوع المقدس، أظنه يوم الخميس او الاربعاء. انك تعرفينها، يا لاريسا فيودوروفنا، دون حاجة بي الى سردها. كل ما قصدت اليه هو ان اذكرك ببعض الامور، لا ان القي

عليك الدروس.

"ان كلمة "نزوة" في اللغة السلافية تعني، كما تعلمين، "الألم"، ألم المسيح - "المسيح يدخل آلامه." ويستعملها الطقس ايضاً بمعناها الروسي المتأخر: "الشهوة" و"الفجور". "روحي قد استعبدتها الشهوات، لقد صرت كوحوش البرية"، "واذ طُردنا من الفردوس، فلنجعل انفسنا مستحقين العودة اليه بالسيطرة على شهواتنا"، والى ما هنالك من الاقوال. قد اكون مخطئة، انما لا احب نصوص طقس "الصيام الكبير" بصدد كبح جماح الحواس وإماتة الجسد. انها سمجة، مضجرة، على نحو غريب، وليس فيها الشاعرية التي تتصف بها الكتابات الروحية الاخرى. ولطالما خطر لي انها كتبت باقلام رهبان غلاظ الاجسام. لا بمعنى انني اهتم اذا خرقوا هم انفسهم الاحكام وخدعوا سواهم او اذا عاشوا بحسب وجدانهم - فانا لا أعنى بهم هم، بل بمضمون هذه النصوص الفعلي. كل افعال التوبة هذه تعطي اهمية زائدة لمختلف نقائص الجسد ولما اذا كان سميناً او نحيلاً - هذا امر باعث على القرف. اذ يخيل الي انه يرفع شيئاً قذراً، حقيراً، عقيماً، الى مرتبة لا يرقى اليها. سامحيني على هذا الاستطراد المسهب.

"ولطالما تساءلت لماذا ذُكرت مريم المجدلية عشية الفصح، قبيل موت المسيح وقيامته. لا اعرف السبب لذلك، ولكن هذا التذكير بما هي الحياة يبدو لي في محله في لحظة مغادرة المسيح لها وقبل قيامته بوقت قليل. فاسمعي كيف جاء هذا التذكير - واي ألم حقيقي يكمن فيه وأي ايجاز لا هوادة فيه.

"هنالك شك فيما اذا كان هذا يشير الى المجدلية او الى احدى المريمات الاخريات.ومهما يكن من امر، فهي تتضرع الى المسيح قائلة:

"حلَّ ديوني كما احلّ شعري." وهذا يعني: "كما احلّ شعري، هكذا اطلقني من خطيئتي." فهل في وسع أي تعبير آخر عن التوبة، عن

العطش للغفران، ان يكون اكثر ملموسية، اكثر محسوسية.

"ويلي ذلك في طقس هذا اليوم ذاته، فقرة اكثر تفصيلاً، وفي هذه المرة تشير بوضوح يكاد يكون اكيداً الى مريم المجدلية.

"فهي تعلن أيضاً عن توبتها، بطريقة محسوسة جداً، قائلةً ان جسدها يحترق كل ليلة لسبب عاداتها القديمة المتأصلة. "ذلك ان الليل عندي مثار الشهوة، نزوة الخطيئة المظلمة التي بلا قمر." ثم تتضرع الى المسيح كي يقبل دموع توبتها ويشفق على امانة تأوهاتها، وبذلك تستطيع ان تجفف قدميه الطاهرتين بشعرها ـ لافتة نظره الى ان حواء إنما في امواج شعرها الدافقة قد وجدت ملجأ حين غلبها الخوف والعار على امرها في الفردوس. "دعني ألثم قدميك الطاهرتين واغسلهما بدموعي واجففهما بجدائل شعري، تلك التي غطت حواء وسترتها في امواجها الدافقة حين ساورها الخوف برودة النهار هناك في الفردوس." ثم بعد هذا الذي ذكرته عن شعرها، تهتف قائلة: "من يستطيع ان يسبر غور خطاياي او اعماق رحمتك؟" يا لها من علاقة أليفة، يا لها من مساواة بين الله والحياة، الله والفرد، الله والمرأة!"

١٨

كان يوري اندرييفيتش قد عاد من المحطة منهوك القوى. كان يوم عطلته، وكان عادة ينام في ذلك اليوم ما يكفيه للايام التسعة التالية من اسبوع العمل المؤلف من عشرة ايام. وجلس على المقعد، فتارة يتكيء وطوراً يتمدد. وعلى الرغم من انه اصغى الى حديث سيما من خلال ضباب غيبوبته الراهنة، فقد سرته خواطرها. "بالطبع، انها اقتبست هذا كله من العم نيقولاي"، قال في نفسه. "ولكن ما احدٌ ذكاءها، وما اعظم موهبتها."

ونهض من مكانه واقترب من الشباك الذي كان يطل على فناء الدار، كشباك الغرفة المجاورة التي لم يكن يُسمع الكلام منها الآن الا همساً.

وكان الطقس يزداد رداءة، والظلمة تتكاثف في الفناء. وطار عصفوران في الشارع وحوّما فوق الفناء باحثين عن مكان يبيتان فيه، وقد نفش الريح ريشهما. ولم يلبثا ان جثما على غطاء برميل النفايات، ثم طارا الى اعلى السياج، ثم الى الارض، واخيراً راحا يجوبان الفناء.

"طيور العَقْعَق تنبىء بالثلج." قال الدكتور في نفسه. وفي الوقت نفسه قالت سيما بصوت عالٍ في الغرفة المجاورة:

"طيورالعَقْعَق تعني الاخبار. سيطرق بابك ضيوف او ستصلك رسالة."

وبعد حين قرع الجرس، وكان يوري اندرييفيتش قد اصلحه منذ بضعة ايام. فخرجت لارا من وراء الستار وسارت مسرعة عبر البهو الى الباب. وسمعها يوري اندرييفيتش تتكلم مع غلافيرا، شقيقة سيما.

"جئت وراء اختك؟ نعم، انها هنا."

"لا. لم آت وراءها، مع انه لا يضير اذا ما ذهبنا الى بيتنا معاً. انني احمل رسالة الى صديقك. من حسن حظه انني توظفت مرة في مكتب البريد. لا ادري كم يدا تناقلت هذه الرسالة، فهي من موسكو، وقد مضى عليها خمسة اشهر على الطريق. لم يستطيعوا الاهتداء الى صاحبها. واخيراً خطر لهم ان يسألوني فعرفت، بالطبع ـ جاء مرة اليّ لأقصّ له شعره."

كانت الرسالة من تونيا. وكانت مستفيضة تملأ بضع صفحات، وقد اتسخت ووضعت في غلاف مهترىء فتحه عمال مكتب البريد. ولم يعِ الدكتور كيف وجدها بين يديه، فهو لم ينتبه الى لارا وهي تناوله اياها. وحين بدأ بقراءتها، كان لايزال يعي انه في يورياتين، في بيت لارا،

ولكنه رويداً رويداً، وهو يقـرأ، اضـاع كـل ادراك لهـذا الواقع. وخـرجت سيـما، فـحيـته، ثم ودعـتـه؛ فردّ عـليـهـا عـفـو الخـاطر ولكنه لم ينتبـه ولـم يلاحظ انها تركت البيت. وتزايد شيئاً فشيـئاً نسيـانه التام للمكان الذي كان فيه ولما كان يحيط به.

"يـورا، "كـتـبت انطونـيـنا الـكسـندروفـنـا، "الا تعـلم ان لنا طفلة؟ سميّناها ماشا تيمناً باسم امك، ماريا نيكولايفنا.

"وهذا خبر مـختـلف تمام الاختـلاف. لقد تم ترحيـل عـدد من الرجال البارزين، والاساتذة المنتمين الى حزب كاديت، والاشتراكيين التابعين الى الجناح اليميني: ميليوكوف، كيـزيفيتر، كـوسكوف، وسواهم، بما في ذلك عمك نيقولاي، ووالدي، ونحن جميعاً.

"هذه مـصيبة، وبـخاصة في غيـابك، ولكننا يجب أن نقبلها ونشكر الله على ان نفينا قـد اتخذ هذه الطريقة المعتـدلة، مع ان الأمور في احوال كهذه يمكن ان تكون اسوأ بكثير. فلو انك كنت هنا، لذهبت معنا. ولكن اين انت؟ انـني ارسـل هذه الرسـالة على عـنوان انتـيبـوفـا، وهي تعـطيك اياها اذا وجدتك. وانه لمما يؤلمني انـني لا اعـرف اذا كـانت سـمـة الخروج التي ستعطى لنا كعـائلة، ستـشـملك انت فـيـما بعـد، عندمـا، باذن الله، يُعثـر عليك. لم اقنط مـن انك لاتزال بعد على قـيـد الحـياة. قلبي المحب يقـول لـي هكذا، وانا اثق به. فـربمـا حتـى ذلك الحين، حين ظهـورك، تكون الاحوال قـد تحسنت في روسـيـا فـتـتـمكن عندئذ ان تحصل على تأشـيـرة بالسـفر، ثم نجتـمع كلنا مـرة ثانيـة في مكان واحد. ولكنني، وانا اكـتب الآن، لا اعتقد بامكان حصول مثل هذه السعادة.

"المشكلة كلها هي انني احبك وانك انت لا تحبني. انني احاول دائماً ان اكـتـشـف مـعنى هذا الحـكم علي، ان افـسـره، ان ابرره. انني انظر في اعـماق نفـسي، واستعـرض حيـاتنا جـمـيـعـهـا مـعـاً وكـل شيء اعـرفـه عن حـالي، فـلا استطيع ان أجـد البـداءة، ولا اسـتطيع ان اتذكـر مـاذا الذي

فعلته او كيف جلبت هذا الشقاء على نفسي. أحس بأنك تسيء الحكم علي، وبأن لك رأياً قاسياً في، وبأنك تراني كما لو في مرآة مشوهة.

"اما فيما يتعلق بي، فأنني احبك. آه، لو انك تعلم كم احبك! احب كل ما هو غير عادي فيك، الصالح مع الرديء، جميع المزايا العادية في شخصيتك التي يعجبني فيها عناصرها الفذة التي تؤلفها؛ وجهك، الذي ينطق بنبل افكارك والذي لولا ذلك لما بدا على ما هو عليه من الحسن؛ مواهبك العظيمة وذكاؤك الفائق الذي احتل مكان الارادة التي تنقصك. كل هذا عزيز علي، ولا اعرف احداً افضل منك.

"ولكن، اسمع! فحتى لولم تكن عزيزاً علي بهذا المقدار، حتى لو لم احبك هذا الحب ـ حتى في حالات كهذه، فان الحقيقة المؤلمة، التي هي برودتي العاطفية، لم تكن لتتكشّف لي، ولكنت اعتقد بأنني احبك. ومن اعماق هذا الذعر المحض امام القصاص المهين، القاتل، الذي هو العجز عن ان تحب، كنت اتفادى بدون وعيٍ الادراك انني لا احبك. لا انت ولا انا كان في وسعه ان يعلم بذلك. كان قلبي يحجبها عني، ذلك ان الفشل في ان تحب يكاد يكون كالجريمة، وكنت اكون اعجز من ان انزل هذه الضربة بأحد.

"لاشيء تم نهائياً حتى الآن، ولكننا سنرحل على الارجح الى باريس. سأكون في تلك البلاد القصية حيث ذهبت، وانت طفل، وحيث نشأ وترعرع والدي وعمك.والدي يهدي اليك سلامه. ساشا كبر قليلاً، وليس هو حسن الطلعة بنوع خاص، ولكنه ولد كبير، قوي؛ وكلما ذكرناك، بكى بمرارة وعبثاً يقبل العزاء. لا استطيع ان استمر في الكتابة. لا اقوى على التوقف عن البكاء، فوداعاً. دعني ارسم شارة الصليب عليك وأباركك للسنوات التي ستلي، للفراق الذي لا نهاية له، للمحن والتجارب، للمخاوف والشكوك، لطريقك الطويل، الطويل، المظلم. لا ألومك على شيء، ولا اوبخك، افعل ما تشاء بحياتك، وسأكون سعيدة اذا جرى كل شيء كما تشتهي.

"قبل ان نغادر الاورال - ما اتعس واسوأ ما كان حظنا في ذلك المكان - تعرفت الى لاريسا فيودوروفنا جيداً. وانني لشكورة لها بقاءها الى جانبي باستمرار في وقت عصيب ومعونتها لي طول مدة ولادتي. يجب ان اعترف باخلاص انها شخص صالح، ولكنني لا اريد ان اكون مرائية - انها نقيضي تماماً. لقد وُلدت لاجعل الحياة بسيطة سهلة وابحث عن حلول معقولة؛ اما هي، فقد وُلدت لتعقيد الامور وخلق الفوضى.

"وداعاً، يجب ان اتوقف عن الكتابة. جاؤوا وراء الرسالة، وقد حان الوقت لرزم الامتعة. أوه، يورا، يورا، يا عزيزي، يا حبيبي، يا زوجي، يا اب اولادي، ماذا يجري لنا؟ هل تدرك اننا لن يرى احدنا الآخر؟ اما وقد كتبتها على الورق، اتدرك ماذا يعني هذا؟ اتفهم، اتفهم؟ انهم يستعجلونني، وكانما جاؤوا ليأخذوني الى موتي. يورا! يورا!"

وتطلع يوري اندرييفيتش من الرسالة بعينين ضائعتين خاليتين من الدموع، جافتين بالاسى، محمرتين بالألم. لم يستطع ان يرى ما حوله، لم يكن يعي شيئاً.

وكان الثلج يتساقط خارجاً. وجرفت الرياح الثلج جانباً، وهو يزداد سرعة وكثافة، كانما كانت تحاول ان تلحق بشيء ما؛ وحدق يوري اندرييفيتش امامه من خلال النافذة، كانما لم يكن يتطلع الى الثلج بل كان لايزال يقرأ رسالة تونيا، وكانما الذي تتطاير امامه لم تكن حبات الثلج الجافة بل الفراغ القائم بين الحروف الصغيرة السوداء - الفراغ الابيض، الابيض، اللانهائي، اللانهائي.

ولم يتمالك ان اخرج آهةً وقبض على صدره. واحس بانه سيغمى عليه، فمشى بضع خطوات الى المقعد مترنحاً، وارتمى عليه غائباً عن الوعي.

الفصل الرابع عشر

العودة الى فاريكينو

١

الشتـاء في اوجه، والثلج يتساقط كـتلاً كبيـرة. وها هو يوري اندرييفيتش يدخل المستشفى.

"وصل كـومـاروفسكي"، قـالت له لارا بصـوت مـخنوق أبحّ، وهي تقابله. كانا في المدخل. وكانت تبدو شاردة، كما لو أن أحداً ضربها.

"الى اين وصل؟ لبيت من؟ هو عندنا؟"

"لا، ابداً. جاء هذا الصباح، ويريد أن يعود هذا المساء. سنراه هنا؛ عنده ما يحدثك به."

"لماذا جاء؟"

"لم أفـهم ما قـاله. قـال انه في طريقه من هنا، الى الشرق الاقـصى، وانه تقصّد ان يمر على يورياتين، لكي يرانا. لاسيما فيما يتعلق بوضعك ووضع باشـا. لقـد تـكلم عنكـما كـثيـراً. وهو يؤكـد ان باشـا وانت وانا، جمـيـعنا في خطر الموت وانـه هو وحده يستطيع ان ينقذنا، اذا نفـذنا ما يريده."

"سأذهب، لا أريد ان اراه."

واغرورقت عينا لارا بالدموع، وحاولت ان ترتمي على قدمي جيفاكو وتمسك بساقيه وتشده اليها، ولكنه منعها بالقوة.

"ابقَ، بحق حـبك لـي، اتوسل اليك. ليس هناك سـببٌ لخـوفي من مـواجهتـه. إلا ان ذلك صعب عليّ. لا تدعني أقـابله وحدي. ثم انه رجل

عملي؛ مجرّب، ربما يفيدنا ، فعلاً. ان كراهيتك له طبيعية. لكن ارجوك ان تتناساها . ابقَ."

"ما لك، يا ملاكي؟ هدئي من روعك. ماذا تصنعين؟ لا تركعي. انهضي. لا تحزني ابداً. اطردي هذا الهوس الذي يلاحقك. لقد روعك حتى الموت. انني معك. سأقتله، اذا لزم الامر، اذا أمرتني."

حلّ المساء، بعد نصف ساعة. وسرعان ما ساد الظلام. كانت الشقوب في ارضية البيت قد سدت كلها منذ ستة شهور. وكان يوري اندرييفيتش يترصد ظهور ثقوب جديدة ويرصفها بسوية الارضية. وكانا يربيان في الشقة قطة كبيرة كثيفة الشعر، تمضي وقتها في تأمل غامض، ثابت. ولم تكن الفئران قد تركت البيت، الا انها كانت اكثر حذراً.

وقطعت لاريسا، وهي تنتظر كوماروفسكي، قطعاً من خبز جرايتهما الأسمر ووضعت على المائدة صحناً فيه بعض البطاطا المسلوقة. كانا يقصدان أن يستقبلا ضيفهما في غرفة طعام الملاكين القدماء، التي لاتزال تحتفظ بأثاثها القديم. كانت فيها طاولة كبيرة وخزانة ضخمة جميلة، وكلاهما من خشب السنديان القاتم. وعلى الطاولة كانت تشتعل ذبالة مغموسة في قارورة من زيت الخروع؛ فذلك كان مصباح الدكتور، السهل النقل والاستعمال.

خرج كوماروفسكي من ظلمات ديسمبر، مكسواً بالثلج، فقد كانت تثلج بكثرة. وكان الثلج يسقط من معطفه وقلنسوته وحذائه صفائح، صفائح، ويذوب رويداً رويداً، مشكلاً بركاً من الماء، فوق الارض. وكان الثلج العالق بشاربيه ولحيته يظهره، نوعاً ما، بمظهر الهزلي، المزّاح.

كانت سترته وصدرته في حالة حسنة، وكان بنطلونه المقلم يحتفظ بثنيته. وقبل ان يسلم او يقول أي شيء، تناول مشطاً من جيبه وصفف شعره المبلل طويلا، ونشف شاربيه وحاجبيه بمنديله، ورتب كلا منها. ثم

مدّ، وهو لا يزال يحتفظ بصمته المليء بالمغزى، يديه الاثنتين معاً، اليسرى الى لاريسا فيودوروفنا، واليمنى الى يوري اندرييفيتش.

"لنعتبر ان كلاً منا يعرف الآخر"، قال وهو يلتفت صوب يوري اندرييفيتش. "لطالما خدمت والدك، وانت بلا ريب، تعرف ذلك. لقد اسلم روحه بين يديّ. انظر اليك باحثاً عن الشبه. كلا، انك، بالفعل، لا تشبه أباك. كان من طينة كريمة. كان شعلة، شديد الحمية. أنت، بالأحرى، تشبه امك، في الملامح. كانت امرأة وديعةً حالمة."

"سألتني لاريسا فيودوروفنا ان اصغي اليك. اخبرتني ان لديك ما تقوله لي. قبلت رجاءها. هذا الحديث مفروض علينا بطبيعة الأمور. فما كنت لأسعى الى معرفتك، برضاي، ولست اعتبر اننا قد تعارفنا. لنتحدث إذاً في صلب الموضوع. ماذا ترغب؟"

"انني سعيد برؤيتكما معاً، يا عزيزيّ. افهم، افهم، أفهم جيداً، واشعر بهذا كله. اغفر لي تجروئي، فكلاكما يليق بالآخر، حقاً. انتما تشكلان زوجاً لا يفوقه في انسجامه أي زوج آخر."

"يتحتم عليّ ان اقاطعك. فأرجوك الا تتدخل في الامور التي لا تعنيك. نحن لا نطلب اعجابك. انك تتناسى."

"لماذا تحتدّ هكذا، أيها الفتى؟ كلا، إنك قبل كل شيء تشبه، مع ذلك، اباك. انفعاليّ، عصبيّ مثله. نعم حسناً، اذا سمحت، أهنئكما، يا ولديّ. لسوء الحظ، ليس ما اقوله مجاملة: فأنتما حقاً طفلان لا يعرفان شيئاً، ولا يفكران بأي مشكلة. لم يمض عليّ هنا غير يومين، وقد عرفتُ عنكما اكثر مما تظنان. انكما على شفير الهاوية، دون ان تعرفا. واذا لم تحولا دون وقوع الخطر، فان ايام حريتكما وربما الايام التي بقيت من عمركما، ايام معدودة.

"هناك أسلوب شيوعي ما. ونادرون هم الذين يسلكون بمقتضاه. لكن ما من احدٍ يُناقض بشكلٍ واضح هذه الطريقة في الحياة والفكر اكثر

منك، يا يوري اندرييفيتش. ولستُ أفهم ماذا تُفيد من اللعب بالنار.

"إنك تحدٍّ وازدراء لهذا العالم، إذا كان ذلك لايزال سراً. لكن، هنا اشخاصٌ نافذون في موسكو. وهم ينفذون الى اعماق روحك. ان كهان تيمبيس في المنطقة لا يحملونك في قلوبهم. والرفيقان انتيبوف وتيفيرزين يحقدان كثيراً على لاريسا فيودوروفنا وعليك.

"أنت رجل تفعل ما تشاء. ان تُجَنّ، ان تعيش حياتك الخاصة - ذلك هو حقك الاقدس. لكن لاريسا فيودوروفنا ليست حرة. هي أم. على ذراعيها حياةُ طفل، مصيرُ طفل. انها لاتستطيع ان تغرق في الهوس، ولا يحق لها ان تحلّق في الغيوم.

"لقد أضعتُ الصباح كله وأنا أطلب وأتوسل اليها ان تنظر بجدٍ الى الموقف، فلم ترد ان تصغي الي. استخدم سُلطتك، مارس تأثيرك على لاريسا فيودوروفنا. لا يحق لها ان تستخف بطمأنينة كاتيا، لا يجوز لها ان تُهمل نصائحي."

"لم اضغط في حياتي على ارادة أحد. وخاصةً على القريبين مني. ان لاريسا فيودوروفنا حرة في ان تصغي اليك، او لا تصغي. هذا شأنها. من جهة اخرى، لا اعرف مطلقاً ماذا تقصد. ان نصائحك، كما تقول، غريبة عليّ كل الغرابة."

"آه، انك تذكرني بأبيك، اكثر فأكثر. انت ايضاً قليل التساهل. ليكن إذاً، ولنأتِ الى الاساس. ولكن تسلّح بالصبر، لأن هذه المسألة معقدة جداً. وارجوك ان تصغي اليّ، دون ان تقاطعني.

"اولاً، هناك تغيرات كبيرة في طريق الصيرورة. ليس لك ان تشك فيها، فلقد عرفتها معرفةً كاملة، من اوثق المصادر. انها تتصل بالتزام نهجٍ اكثر ديموقراطية، وبتطبيق الشيوعية، وسيتم هذا في مستقبلٍ قريب جداً.

"لكن من المؤكد ان اجهزة القمع التي ستُلغى سوف تضاعف

الارهاب وستسرع في تسوية مشاكلها الشخصية. وتصفيتك يا يوري اندرييفيتش، هي قيد الدرس. ان اسمك على اللائحة؛ انني لا امزح، فقد قرأته بنفسي، ويمكنك ان تصدقني. فكر بسلامتك، والا فات الاوان.

"غير ان هذا كله ليس الا مدخلاً. واليك جوهر المشكلة.

"في هذه اللحظة، يُباشر، على ساحل المحيط الهادئ، بحشد القوى السياسية التي بقيت امينة للحكومة المؤقتة وللجمعية التأسيسية. ويُجمع بعض نواب الدوما والشخصيات السياسية في الاقاليم والعواصم، ورجال الاعمال والصناعة. ويحشد هناك جنرالات الفرق القديمة المتطوعة، بقايا جنودهم.

"اما السلطات السوفياتية فتغض نظرها عن ظهور هذه الجمهورية في الشرق الاقصى. ان تشكيل هذه الدولة على الحدود هو في مصلحتها بقدر ما يصبح سداً بين سيبيريا الحمراء والعالم الخارجي. ستكون حكومة الجمهورية مختلطة..وقد حصلت موسكو على نصف المقاعد للشيوعيين. وهي تعتمد عليهم لاستلام السلطة في اللحظة المختارة. إن مقاصدهم جلية كالنهار، والمسألة ببساطة، هي مسألة اغتنام ما تبقى من الوقت.

"منذ زمن، قبل الثورة، كنت اهتم بشؤون الاخوة آرخاروف، وميركولوف وبعض المحلات التجارية الاخرى، وبنك فلاديفوستوك. انني معروفٌ هناك. وقد عرض عليّ مبعوث رسمي من الحكومة التي هي قيد التشكيل، ببعض السرية وببعض غض النظر من قبل السلطات السوفياتية، ان ادخل في حكومة الشرق الاقصى وزيراً للعدل. فقبلت، وها انا ذاهبٌ الى هناك. ثم هذا كله، كما قلت، بموافقة السوفيات الضمنية، لا العلنية، تماماً. فلا يجوز إعلان ذلك على الملأ.

"أستطيع ان اذهبَ بكما، انت ولاريسا فيودوروفنا. تقدران من هناك ان تركبا زورقاً بسهولة وتلحقا بعائلتكما. أنتما تعرفان بالتأكيد

انها نُفيت.

هذه حادثة أثارت الضجة، وموسكو كلها تتحدث عنها. لقد وعدتُ لاريسا فيودوروفنا ان أزيل الخطر الذي يتهدد بافل بافلوفيتش. وباعتباري عضواً في حكومة مستقلة ومعترف بها، سأبحث عن ستريلنيكوف في سيبريا الشرقية وسأسهل مجيئه الى منطقتنا المستقلة. وسأعرض، اذا لم ينجح في الهرب، تبادله مع شخصٍ ما، معتقل عند الحلفاء وله قيمة، عند السلطة المركزية في موسكو."

كانت لاريسا فيودوروفنا قد تعبت من تتبع مضمون الحديث الذي كان معناه يفوتها غالباً. إلا انها استيقظت من غفلتها الحالمة عندما سمعت كلمات كوماروفسكي الاخيرة، حول سلامة الدكتور وستريلنيكوف، واصغت، ثم قاطعته، وقد احمرت قليلاً:

"انت تعرف، يا يوراً، الى أي درجة تهمك، انت وباشا، هذه القضايا."

"انت كثيرة الثقة، يا صديقتي. لايمكن اعتبار هذه المشاريع البسيطة صحيحةً، أكيدة. لا أقول ان فيكتور ايبوليتوفيتش يخدعنا عن عمد. لكن هذا كله مكتوب على الرمل. والآن سأقول لك يا فكتور ايبولوفيتش بعض الكلمات، باسمي. اشكرك لاهتمامك بمصيري، لكن اتقدر ان تفكر جاداً انني سأتركك تتحكم به؟ اما عن اهتمامك بستريلنيكوف، فعلى لارا وحدها ان تفكر فيه."

"ما هي المشكلة؟ أمضي معه كما يقترح، او أبقى. انت تعرف حق المعرفة انني لن امضي بدونك."

كان كوماروفسكي يصب غالباً لنفسه من الكحول المركب، الممدّد بالماء الذي جلبه يوري اندرييفيتش من المستشفى ووضعه على الطاولة، وكان يقضم بعض البطاطا ويسكر رويداً رويداً.

٢

كان الوقت قد صار متأخراً. وكانت الذبالة الصغيرة، التي كانت تُقصُّ من وقتٌ لآخر، تلتهب زافرة، وتضيء الغرفة بقوة. وحالاً غرق في الظلمة كل شيء. كان المضيفان قد نعسا، وكانا في حاجة لأن يتحادثا على انفراد. الا ان كوماروفسكي لم يكن قد اظهر عزمه على الذهاب. كان حضوره مُرهقاً، كحضور الهيكل الثقيل لخزانة السنديان، وكظلمة ديسمبر الجليدية، في الخارج.

لم يكن كوماروفسكي ينظر الى لارا وجيفاكو، كان ينظر في جهة ما فوق رأسيهما، كان يحدق بعينيه اللتين ادارهما السكر في نقطة بعيدة، فوق رأسيهما، ويُلقي، بصوت نائم، وبلا توقف، خطباً مملة الى اقصى حد، وعلى الوتيرة نفسها. كانت الفكرة التي تتسلط عليه الآن هي الشرق الاقصى. وكان يستقصي امام لارا وجيفاكو تأملاته عن دور منغوليا السياسي.

لم يعد يوري اندرييفيتش ولاريسا فيودوروفنا يُصغيان اليه منذ أخذ لأول مرة بهذه المسكينة منغوليا. ولم يتراء لهما الموضوعُ الا غريباً، مملاً، كأنهما لم يسمعا العبارات الاولى.

كان كوماروفسكي يقول:

"ان سيبريا، هذه الامريكا الجديدة، كما تسمى بحق، تخبئ اعظم الامكانات. انها، بالنسبة لروسيا، مهد مستقبل عظيم، ضمان تحقيق ديموقراطيتنا، وعظمتنا، وسلاحنا السياسي. ومستقبل منغوليا، منغوليا الخارجية، جارتنا الكبرى في الشرق الاقصى، هو ايضاً اكثر عظمة بأبعاده الجاذبة. ماذا تعرفان عن هذا البلد؟ الا تخجلان من التثاؤب وإغماض العين، دون ان تصغيا اليّ؟ ومع ذلك فان مساحتها اكثر من مليون ونصف المليون من الكيلومترات المربعة، وهي بلاد بكر، سابقة

للتاريخ، لم تستغل ثرواتها بعد، او تمتد اليها الايدي الشرهة من الصين واليابان وأميركا، على حساب المصالح الروسية التي شهد بها، مع ذلك، خصومنا في كل مرة تقاسموا مناطق النفوذ في هذه الزاوية الصغيرة المعزولة من الكرة الارضية.

"وتفيد الصين من الوضع الرجعي، الاقطاعي، الثيوقراطي في منغوليا، اذ تؤثّر على لاماتها وسكانها الريفيين. وتعتمد اليابان على الامراء الاقطاعيين هنالك -الخوتشونيين. ووجدت روسيا الشيوعية الحمراء حليفاً لها في الخامدجيلس، أي الجمعية الثورية للرعاة الثوار في منغوليا. اما من جهتي، فانني اريد ان أرى منغوليامزدهرة حقاً تحت قيادة خورولتائي ينتخب بحرية. ما يجب ان يهمنا شخصياً، هو هذا: خطوة عبر الحدود المنغولية، ويصبح العالم عند اقدامكم، وتصبحان حرّين كالهواء."

كانت هذه المقدمات الكلامية المغلوطة، المزعجة، حول موضوع لا يهمهما في شيء، تغضب لاريسا فيودوروفنا. واذ نفد صبرها من تحمل ملل هذه الزيارة التي طالت كثيراً، مدت يدها بشكل جازم الى كوماروفسكي لكي تودعه، وقالت له دون مواربة، ودون ان تخبئ تهكمها:

"لقد تأخر الوقت، وحان وقت ذهابك. أريد ان انام."

"آمل ألا تكونا غير مضيافين فتطردانني في ساعة متأخرة كهذه. لست واثقاً من معرفة الطريق، ليلاً، في مدينة اجهلها، وسيئة الانارة الى هذا الحد."

"كان عليك ان تفكر بذلك قبل الآن، والا تُطيل زيارتك. لم يستبْقك احد."

"لماذا تكلمينني بهذه اللهجة؟ فأنت لم تسأليني اذا كان لي مكانٌ في البلدة."

لا فائدة من ذلك. فلن تعجز، هيا. لستَ من هذا النوع. انت تتغلب دائماً على الصعوبات. اذا كنت قصدت ان نمضي الليل هنا، فاعلم انني لن اتركك تنام في الغرفة المشتركة حيث ننام مع كاتيا. والفئران، في الغرف الاخرى، تجعل نومك مستحيلاً."

"انها لا تخيفني".

"حسناً. كما تريد."

٣

"ما لك، يا ملاكي؛ منذ ليالٍ لم تعرفي النوم، ولم تأكلي، وانت كالمجنونة طول النهار. وتفكرين، تفكرين دون انقطاع. ماذا يُثقّل عليك؟ لا يجوز الاستسلام للافكار السوداء."

"جاء ايضاً إيزوت، حارس المستشفى. كان يغازل غسّالة البيت، فدخل إليه، في طريقه. ويمكن القول انه شجعني! "سر رهيب"، قال لي، "لن يستطيع رجُلكِ ان يتخلص. عليك ان تتوقعي ذلك، فسيعتقل بين يوم وآخر، وأنت بعده، يا رفيقتي المسكينة". وقلت له: "من أين عرفتَ ذلك، يا إيزوت؟" "ثقي بي، ولا تضطربي. أخبرني بذلك شخص من "البولكان". وبولكان تعني، كما قد تكونين ظننت، "إيسبولكوم"[1].

وشرع جيفاكو ولاريسا فيودوروفنا يضحكان.

"الحق كله معه؛ فالخطر يقرع بابنا. لابدّ من الاختفاء حالاً. لكن، أين نذهب؟ هنا المشكلة. موسكو؟ من العبث التفكير فيها. ذلك يتطلب اعدادات كثيرة التعقيد ستلفت النظر. يجب ان نمضي بهدوء، بشكل لا يتبينه أحدٌ، لا يحس به احد. تعرفين، يا عزيزتي؟ كان علينا، أصلاً، ان

(١) اختصار روسي للفظتي «اللجنة التنفيذية» (اسبولنتيني كوميتيت).

ننفذ رأيك. علينا ان نختفي، لفترةٍ ما. ستكون فاريكينو هي المكان الذي سنختبئ فيه. فلنمضِ، لأسبوعين، لشهر."

"شكراً، يا عزيزي، شكراً. ما أشدّ سروري. اعرف الى أي درجة تتعارض شخصيتك مع هذا القرار. لكن الامر لا يتعلق ببيتك. ستكون الحياة فيه قاسية عليك. منظر الغرف الفارغة، المعاتبات، المقارنات. تظن انني لا ادرك ذلك؟ بناءُ السعادة على آلام الآخرين، دوسُ اعز ما لديهم واقدسه. ما كنت ابداً لأقبل منك تضحية كهذه. لكن الأمر هو غير هذا. ان بيتك هو من التهدم بحيث يستحيل جعل غرفة منه صالحة للسكن. وأنا أفضل البيت الذي هجره آل ميكولوتسين."

"هذا كله صحيح. شكراً للطافتك. لكن رويدك، قليلاً. اردت دائماً ان اسألك، وكنت دائماً أنسى. أين كوماروفسكي؟ هل لا يزال هنا، أو هل مضى؟ منذ تخاصمت معه، وأنزلته عن السلم، لم أسمع شيئاً عنه."

"وأنا كذلك، لا أعرف شيئاً. لا تشغل فكرك به، ولماذا؟"

"بدأت أفكر بأنه كان علينا ان نتصرف بشكل آخر، بالنسبة لاقتراحه. ليس حالك كحالي. فأنت تربين ابنة. حتى لو أردت ان تموتي معي، فلن تكوني محقة في ذلك.

"لكن، لنعد الى فاريكينو. من الواضح جداً ان السُّكنى في هذا الجحر الوحشي في اقسى ايام الشتاء، دون مؤونة، دون قوة، دون امل، هو اعظم انواع الجنون. لكن، لنكن مجنونين، يا حبيبتي، اذا لم يبقَ لنا غير الجنون. ايضاً مرة اخرى. لنتوسل الى انفيم ليعطينا حصاناً. لنسأله او لنسأل المقاولين عنده لكي يعيرونا طحيناً وبطاطا دون كفالة. لنقنعه الا يطالبنا بالدفع عاجلاً للصنيع الجميل الذي اداّه لنا، والا يأتي الا في الاخير، حين يحتاج الى الحصان، من جديد. لنبقَ وحيدين، فترة قليلة. لنمضِ، يا حبيبتي. وسنقطع ونحرق من الحطب في اسبوعٍ ما يكفي، سنةً كاملةً، عائلةً اكثر ارتياحاً، في اوقاتٍ اكثر هدوءاً.

"عفوكِ مرةً ثانيةً لهذا التشوش الذي يتخلل كلماتي. كم كنت ارغب ان اتحدث اليكِ بدون هذه الفخفخة الغبية. لكن، لا خيار لنا، بالفعل. تستطيعين ان تسمّي هذا كما تريدين، لكن الموت يقرع بابنا، حقاً. ان ايامنا معدودة. فلنغتنمها، على هوانا. لنمضها في وداع الحياة، لنجعل منها موعدنا الاخير، قبل الفرقة. لنودع كل ما كان غالياً علينا، افكارنا اليومية، واحلام المستقبل، وما كان وعينا يعلمنا اياه؛ لنودع آمالنا، ليودع كلٌ منا الآخر. سيقول كلٌ منا ايضاً للآخر كلماته الخفية في الليل، كبيرةً وهادئةً كاسم اوقيانوس آسيا. ليس مصادفةً ان تكوني هنا، في ايامي الاخيرة، يا ملاكي الغامض، يا ملاكي المحرّم، تحت سماء من الحروب والقلاقل؛ فمنذ مدة طويلة، في ايامي الاولى، ظهرت بالطريقة ذاتها تحت سماء طفولتي الوديعة. كنت في تلك الليلة، بشيابك المدرسية الكستنائية، في الظل، وراء حاجز غرفة الخدم، مثلك الآن تماماً وكنت تتمتعين بالجمال الأخاذ، نفسه.

"غالباً، فيما بعد، خلال حياتي، جرّبت ان احدد، ان اسمي السحر المضيء الذي رشقته في روحي، هذا الشعاع الذي كان يُعتم رويداً رويداً، هذه الموسيقا التي كانت تهدأ، والتي امتزجت بوجودي ذاته، التي صارت مفتاح جميع ابواب العالم، بفضلكِ انتِ.

"خرجت كالظل، بشيابك المدرسية، من العتمة الخفيفة، وانا، الطفل الصغير الذي لم يكن يعرف شيئاً عنك، فهمت، بكل القوة الحزينة التي كانت تحتضنك في اعماقي، ان هذه الفتاة النحيلة، الغضة، كانت مشحونة كالكهرباء، بكل أنوثة العالم. كان يكفي الاقتراب منها، لمسّها بالاصبع، هذه الفتاة، لكي تنبجس الشرارة التي ستضيء الغرفة، والتي ستملؤك، اذا لم تصرعك في مكانك، برغبة لجوج، أليمة، ستسيطر عليك مدى الحياة. كان كياني كله يبكي ويشعُّ مليئاً بالدمع التائه. كنت احس بالرثاء الكبير للطفل الذي كنته، وخاصة للفتاة، لكِ انتِ. كنت

مـذهولاً، كنت اتسـاءل: اذا كـان الحب وتلقي الكهـرباء يـولدان مـثل هذا الألم العظيـم، فكم يكون، ولابدّ، اكثـر إيلامـاً، ان يكون الانسـان امـرأة، ان يكون الكهرباء، ان يلهم الحب.

"ها انني قلتُ مـا كنت اريد قـوله. ان في ذلك لمدعـاة للجنون؛ وهو يملأ وجودي بكامله."

كـانت لاريسـا فـيـودوروفنا مـستلقـيـة بثـيـابهـا على طرف السـرير، تتـألم. كـانت نهـبـاً للقلق، وكـانت تلتـحف بشـالهـا. وكـان يوري اندرييفيتش يجلس على كرسي قرب السرير، ويتحدث بهدوء، وتوقفات طويلة. وكانت لاريسـا فـيـودوروفنا تنهض احيـاناً على مـرفـقـهـا، فـتـضع راحـتـهـا على ذقـنهـا وتتـأمل، مـفـتـوحـة الفم، يوري اندرييـفـيـتش. وكـانت احيـاناً تلتصق بكتـفه، وتبكي بهدوء، وسعـادة، دون ان يلاحظ دموعـهـا. واخيراً اشرأبت نحوه، وغمغمت بفرح:

"كم انت يا حبيبي ثاقب البصيرة؛ تعرف كل شيء، تحزر كل شيء. انتَ قلعـتي، يا حـبـيـبي، انت سندي ومـلاذي -فـليـغـفـر لي المولى هذا التجديف. آه، كم أنا سعيدة. لنمضِ. هنالك، حيث نكون، سأخبـرك بما في نفسي."

وفكر بأنها تشير الى حبلٍ متوهمٍ دون ريب، وقال:

"اعرف."

٤

غادرا المدينة في صباحٍ شتـائيٍ أغبر. كان ذلك النهـار، نهـار عـمل. وكـان النـاس في الشـوارع، يتـوجـهـون الـى شغلهم. وكـان جيـفـاكـو ولارا يلتـقـيـان ببعض مـعـارفـهـمـا. وكـان الاشـخـاص الذين لا يملكون آباراً في بيوتهم يصطفون، قرب الينابيع القديمة العامة، ومعهم سطولهم، ينتظرون

دورهم في تعبئة الماء. وكان الدكتور قد احتفظ بسافراسكا سامديفياتوف، وهي فرس سيبيرية صغيرة، ذات شعر مجعد اصفر دُخاني، سريعة الجري. وكان يتجنب الجمهور بعناية. وكانت الزلاقة، في اندفاعها، تنزلق منحرفة فوق الطريق المتعرجة، المكسوة بصفائح رقيقة من الجليد، وتتسلق على الأرصفة، لاطمةً بأطرافها انابيب الغاز وعلامات الطريق.

ولحقا سامديفياتوف الذي كان يسير في الشارع، وتجاوزاه كالبرق ولم يتلفتا ليتأكدا فيما اذا كان قد عرفهما، هما والفرس، او قال لهما شيئاً ما وهما يعبران.

وبعيداً في الشارع تجاوزا ايضاً كوماروفسكي الذي لم يسلما عليه، وقالا في نفسيهما انه قرّر البقاء في يورياتين.

وصاحت بهما كلافيرا تونتسيفا من الرصيف، في الجهة الاخرى من الشارع:

"قيل لي انكما ذهبتما البارحة. كيف نصدق الناس بعد هذا. ذاهبان للبحث عن البطاطا؟"

واشارت بحركة من يدها وهي تلوح بأنها لم تسمع جوابهما، الى انها تتمنى لهما سفراً ميموناً.

واجتهد لتخفيف سرعتهما عندما شاهدا سيما. لكن الوقت كان صعباً. كانا في اعلى مرتفع. وتحتم عليهما لجم الفرس بشدة. كانت سيما متدثرة من اخمص قدمها الى اعلى رأسها بشالين او ثلاثة منحت جسمها صلابة كومة الحطب المستديرة. واقتربت من العربة بخطوات سريعة متلبكة، وسط المرتفع، فودعتهما وتمنت لهما رحلة طيبة.

"حين تعودان، يجب ان نتناقش، يا يوري اندرييفيتش."

وخرجا، اخيراً، من المدينة؛ ومع ان يوري اندرييفيتش سار مراراً في هذه الطريق، خلال الشتاء، فقد كان يتذكر شكلها في الصيف، وكانت

تتعذّر عليه معرفته.

كانت حقائب المؤونة والأمتعة مثبتة بقوة مع العلف في مقدمة العربة. وكان يوري اندرييفيتش يقود العربة جالساً في وسطها المفتوح، او على طرف الصندوق، تاركاً ساقيه تتدليان خارجاً بحذائهما اللبدي الذي اخذه من ساماديفياتوف.

وبعد الظهيرة، حين جعله النور الخادع في الشتاء، قبيل غروب الشمس بكثير، يعتقد ان النهار اشرف على نهايته، اخذ ينهال بالسوط على سافراسكا، دون رحمة. وانطلقت الفرس كالسهم. وكانت العربة تعلو وتهبط كالزورق، وتغوص في التخوم. وكانت كاتيا ولارا تلبسان معطفين يمنعانهما من أي حركة. وكانوا جميعاً، في المنعطفات المنحدرة، وفوق الحفر، يصرخون ويستلقون على قفاهم من كثرة الضحك، ويتأرجحون وسط العربة، من طرف الى آخر، كحقائب كبيرة ممتلئة. وكان الدكتور احياناً، لكي يضحكوا، يجر حذاء التزحلق فوق تلال الثلج على الطريق، ويقلب العربة، ويرمي لارا وكاتيا، برفق، فوق الثلج. وكان هو نفسه يمسك بالاعنة، ويتجرجر لحظة على الطريق، ثم يوقف سافراسكا، فيصلح وضع العربة، ويتحمل العتاب الحاد من كاتيا ولارا اللتين تنفضان ثيابهما، ثم يصعدون الى العربة، فيضحكون ويتظاهرون بالغضب.

"سأريكم المكان الذي اعتقلني فيه الانصار"، وعدهما الدكتور، حين ابتعدوا عن المدينة، لكنه لم يستطع الوفاء بوعده، لان عُري الغابات الشتائي، وهدوء الموت، والفراغ، جعلت من الصعب معرفة المكان.

"ها هو"، صرخ حالاً، خالطاً بين مكان في ارض منبسطة، وبين المكان الذي أوقف قربه، في الغابة. وحين مروا أمام هذا المكان الأخير، في الغابة، عند مفرق طريق ساكما، لم يستطع ان يميزه في طبقات الجليد الكثيف، الذي يرفرف على العيون، ويزين الغابة بخيوط فضية وسوداء.

وصلوا الى فاريكينو قبل الليل وتوقفوا أمام البيت القديم لعائلة جيفاكو. كان موجوداً في أول القرية، اما منزل عائلة ميكوليتسين فكان على بعد قليل منه. ودخلوا البيت في غارة كما يفعل اللصوص. كان الليل قد بدأ يخيم، والظلام يسود في داخل البيت. ولم يلاحظ يوري اندرييفيتش في استعجاله، كم كان البيت كله وسخاً ومخرّباً. وكان قسم من الاثاث سالماً، فلم يكن هناك شخص في فاريكينو لكي يكمل تخريبه. ولم يجد يوري اندرييفيتش شيئاً، ما عدا الاثاث. لكنه لم يكن حاضراً عند رحيل عائلته، وكان يجهل ما أخذته معها، وما تركته. وكانت لارا تقول في اثناء ذلك:

"يجب ان نسرع. الليل يخيم بسرعة. لا وقت عندنا للتأمل. اذا كان علينا ان نبقى هنا، فلنضع الفرس في غرفة المؤونة والمؤن في المدخل، ولنبق نحن في هذه الغرفة. لكنني لا أوافق على مثل هذا الحل. وقد تحدثنا فيه طويلاً. سيكون ذلك صعباً عليك، وإذاً، عليّ. ما هي هذه، غرفتك؟ كلا، غرفة الاطفال. سرير ابنك. انه صغير جداً، لا يصلح لكاتيا. النوافذ، من جهة اخرى، كما هي، والسقف والجدران ليست متشققة. ثم هنالك موقد رائع، وقد اغتبطت جداً حين رأيته في زيارتنا، للمرة الاولى. لست متصلبة في رأيي، ولكن إذا كنت تريد، مع ذلك، ان نبقى هنا، فلأخلع معطفي وابدأ العمل. واول عمل هو التدفئة. يجب ان نتدفأ، نتدفأ، نتدفأ، في الايام الاولى، نهاراً وليلاً، بدون انقطاع. لكن، ماذا بك يا عزيزي، لا تجيب بأي شيء."

"حالاً، هذا لا يهم. ارجوك المعذرة. كلا، الافضل حقاً، كما ترين، بيت ميكوليتسين."

وانطلقا بعيداً اليه.

٥

كـان بيت عـائلة ميـكوليتـسين مـغلقـاً برزّة مربـوطة بقـوائم الرتاج. فـأمضى يوري اندرييفـيتش كثـيراً من الوقت لثنيهـا وخلعهـا مع بُرغيّ وقطعـة من الخشب. وقد غـرقـوا ايضـاً بسرعـة فـي هذا البـيت؛ دون ان ينزعوا معاطفهم او قبعاتهم او احذيتهم.

وسرعان ما أحسوا بشعور الترتيب أمام حوائجهم المنظمة في احدى زوايا البيت وخاصة في غرفة افيركي ستيبانوفيتش. كان بعضهم يسكن منذ قريبٍ في هذا البيت، لكن من بالضبط؟ اذا كان اصحابه او احدهم، فأين مضوا، ولماذا لم يكن الباب مغلقاً بقفل، بل كـان مغلقاً برزّة؟ ثم، اذا كانوا قد سكنوا هنا، مدة طويلة، وبصورة دائمة، فان البيت سيكون كله مـرتبـاً. كـان شيء مـا يُوحي لهم بأن سـاكنيـه لم يكونوا من عـائلة ميـكوليتـسين. وفي هذه الحـالة، من هم الذيـن كـانوا يسكنون فيـه؟ ولم يُضايق عدم التيـقن، لا الدكتـور ولا لارا. ولم يهتـمـا بهذا الأمر. ففي ذلك الوقت كـانت هنالك مسـاكن كـثيرة مهـجورة مع اثاثـهـا الذي سرق نصـفـه. وكـان هنالك اشخـاص كثـيـرون مُطاردون يبـحثـون عن مـخبـأ. "ضابط ابيض يطارده البوليس"، فكر الاثنان. "اذا جاء، فسنعيش معاً، وسننتهي الى الاتفاق معه".

وتوقف يوري اندرييفيتش، مثلما توقف في المرّة الاولى على عتبة غـرفـة العـمل، يعـجب باتسـاعـهـا، ويُدهش أمـام طاولـة العـمل الـكبـيـرة المريحة، قرب النافذة. وفكر من جديد ان راحة منظمةً كهذه جديرة حقاً ان تهيء وتشجع عملاً صابراً، مثمراً.

وكان في الملحقات، في ساحة منزل ميكوليتسين، اسطبلٌ الى جوار غرفة المؤونة، لكنه كان مغلقاً. ولم يكن يوري اندرييفيتش يعرف كيف كانت حالتها. ولكي لا يضيع الوقت، قرر ان يضع الفرس لليلة واحدة

في غـرفـة المؤونة التي لم يصـعب عليـه فـتـحـهـا. وانزل السـرج عن سافـراسكا، وحين ارتاحت سقـاها من الماء الذي جلبه من البئـر. ومضى يوري اندرييفيـتش يبحث لها عن العلف في اسفل العربة، الا انه كان قد سُحق تحت ثقلهم في العـربة، فلم تأكله. ولحسن الحظ وجد في الاصطبل العلف الذي تريده، مكدساً حول الجدران وفي الزوايا.

أمضى ثـلاثتهم الليل دون ان ينزعـوا ثيابهم وتغطوا بمعاطفهم. كان نومهم لذيذاً، عميقاً، هادئاً كنوم الاطفال الذي أمضوا النهار في الركض والمرح.

٦

منذ ان استيقظوا في الصباح الباكر، اخذ يوري اندرييفيتش يتطلع بغبطة الى الطاولة الفاتنة، قرب النافذة. كانت رغبته في الكتابة تشتد، وكان يتحرق للجلوس امام الورق. لكنه أرجأ ذلك الى المساء، حين تكون لارا وكاتيـا نائمـتين. وكـان لديه العـمل الكثـيـر، ترتيب غـرفـتين على الاقل، حتى ذلك الوقت. ولم يكن لديه شيء ملح في مشاريع عمله في الليل. كان مأخوذاً بالرغبة الجامحة لكي يتناول محبرة وريشة، ويكتب.

كان يشتـهي ان يُخربش؛ ان يكتب بعض السطـور. وقـد اقتنع، في البداية، ان يتذكر ويسجل بعض النتاج القديم الذي لم يلاحظه بعد، لكي يمرن قليـلا مـوهبـتـه التي خـمـدت من الكسل. وكـان يأمـل انه ولارا سيتمكنان من البقاء هنا مدة طويلةً وحينذاك سيتاح له الوقت لأن يباشر العمل في شيء جديد خطير.

"أنتَ مشغول؟ ماذا تعمل؟"

"اتدفأ باستمرار. لماذا؟"

"احتاج الى قصعة."

"على هذا المعدل، لن يكفينا الحطب الا ثلاثة ايام. ولابد أن نبحث

في سقيفة بيتنا القديم، لنرى اذا كان بعض الحطب لايزال موجوداً هناك. وسوف أذهب مرات عديدة، اذا وجد، وأنقله الى هنا. سأهتم بذلك غداً. طلبت مني قصعة. أظن انني رأيت قصعة في مكانٍ ما. ولكن أين؟ لقد نسيت تماماً، ولست أعرف مكانها أبداً."

"أنا كذلك. رأيتها في مكان ما ونسيت. انها ولاريب، في غير مكانها، ولهذا نسينا. أوه، لابأس، سأغلي ماء وأغسل البيت. ثم أغسل ثيابي وثياب كاتيا. هات، في المناسبة، ثيابك وحوائجك الوسخة. وحين ننهي أعمالنا هذه كلها في المساء، نغتسل جميعاً قبل النوم."

"سأجمع حالاً ثيابي، شكراً. أبعدت عن الجدران الخزانات والأثاث الثقيل كما طلبت مني."

"حسناً. سأغسل الثياب في حوض الصحون، لعدم وجود القصعة. لكنه مطلي بالدُّهن. ويجب تنظيفه."

"حين تشتعل النار جيداً، سأتوقف عن ازكائها، وأعود الى ترتيب الجوارير الأخرى. وسأحظى كل حين، بتحفٍ جديدة في جوارير الطاولة والخزانة - صابون، وعلب كبريت، وأقلام، وورق، وأشياء أخرى غير منتظرة. مثلاً، فانوس على الطاولة، مليء بالكاز. أعرف أن هذه الأشياء كلها لا تخص عائلة ميكوليتسين؛ بل هي تخص غيرهم."

"انه لحظ مدهش! هذا كله للمستأجر المجهول. كما هو الأمر عند جول فيرن. آه، يا لنا من خبثاء! ها نحن من جديد نثرثر دون أن نعمل شيئاً، وهنالك حوض يغلي وتندلق ماؤه."

واسرعا يجوبان الغرف يمنة ويسرة، وايديهما مشقلة، وكانا يتصادمان، واحدهما بالآخر، أو يتعثران بكاتيا التي كانت في طريقهما، أو تمسك بساقي كل منهما. كانت تأتي وتروح فتزعجهما وهما يرتبان، وتغتاظ هي حين يؤنبانها. كانت فرائصها ترتعد من البرد،

وكانت تتأوه وتشكو.

وفكّر الدكتور: "يا للأطفال المساكين في العصر الحاضر، انهم ضحايا حياتنا المشردة ورفقاء اغترابنا القانعون"، لكنه قال للطفلة:

"عفوك، يا صغيرتي، فليس من سبب يجعلك تتكومين هكذا على نفسك. كفاك دلالاً وخبثاً. الموقد عامر، ملتهب."

"ربما كان الموقد مشتعلاً، لكنني أشعر بالبرد."

"قليلاً من الصبر، إذاً، يا كاتيوشا. سأضاعف هذا المساء النار. وفوق ذلك، ستحمّمك أمك، أتسمعين؟ خذي والعبي، الى ذلك الوقت."

وأعطاها لعب ليبيريوس القديمة، المحفوظة في النملية، وكان بعضها سليماً والبعض الآخر مكسراً، وكانت متعددة الأشكال، من مكعبات ومقطورات وقاطرات وقطع مرقمة من الكرتون.

"لماذا، يا يوري اندرييفيتش (كانت كاتيا سريعة الانفعال، كشخص كبير)، لا يخصني هذا كله. ثم هي للصغار، وأنا كبيرة."

وبعد لحظة، كانت تجلس مرتاحة وسط السجادة، وكانت اللعب المختلفة تتحول بين يديها الى مواد للبناء بنت بها لدميتها نينا التي جلبتها معها من المدينة مسكناً أكثر استقراراً وملاءمة من هذه الملاجئ الغريبة المتبدلة التي كانت تؤخذ اليها.

وقالت لاريسا فيودوروفنا التي كانت تراقب من المطبخ لعب طفلتها:

"تلك هي غريزة ربة المنزل، الجاذبية الخالدة للبيت، للنظام. الأطفال صادقون؛ لا يتكلفون ولا يخجلون من الحقيقة، أما نحن فمستعدون، خشية ان نبدو رجعيين، لرفض كل ما هو غالٍ علينا؛ نمدح ما تشمئز نفوسنا منه، ونستصوب ما ليس صواباً."

"وجدت القصعة"، قال الدكتور وهو يحملها. "لم تكن بالفعل في محلها. كانت على الأرض، في المدخل تحت كوة في

السقف، منذ أيام الخريف، ولا شك."

٧

وضعت لاريسا فيودوروفنا، وقت الغداء، طعاماً لم يألفوه يكفي لثلاثة أيام: حساء بالبطاطا، وخروف محمر مع البطاطا. ولم تستطع كاتيا ان تشبع نهمها فكانت تنفجر ضحكاً وتقوم بحركات طفولية. واذ كظها الطعام وأتعبتها الحرارة، تغطت بمعطف أمها ونامت مسرورة على الخوان.

وما ان تركت لاريسا فيودوروفنا مطبخها، حتى كانت قد تعبت، وعرقت، وأخذت تترنح نصف نائمة كطفلتها، مسرورة بنجاح وجبتها، ولم تستعجل لترتيب الصحون، فجلست ترتاح قليلاً. واذ تأكدت ان الطفلة نامت، أخذت تتكلم، وصدرها متكئ على الطاولة، ويدها تسند رأسها.

"لن أوفر جهودي، وسأجد في ذلك سعادتي، اذا عرفت فقط أن هذا كله ليس عبثاً، وانه يقود الى مكان ما. ان عليك دائماً ان تذكرني بأننا هنا لكي نكون معاً. شجعني من جديد، لا تتركني أفكر. اذ ماذا نفعل، في الحقيقة، اذا واجهنا الأشياء، ماذا يحدث لنا؟ لقد سكنا في بيت ليس لنا، وحطمنا ابوابه لكي ندخله، ونحن نتصرف بكل ما فيه ونعجل دائماً، كي لا نرى ان ما نفعله ليس الحياة، بل هو تنميق مسرحي، لا لشيء حقيقي، بل "للضحك" كما يقول الأطفال -ومهزلة وتسلية."

"لكنك، يا ملاكي، أصررت أنت نفسك على أن نرحل. تذكري انني عارضت طويلا."

"هذا صحيح، لا أناقش فيه، لكنني ارتكبت خطيئة. انت، يمكن ان تتردد وتفكر؛ أما بالنسبة لي أنا، فلابد أن يكون كل شيء مبرهناً

ومنطقياً. دخلنا بيتك، ورأيت سرير ابنك فتألمت، وكاد يغمى عليك من الحزن. لك الحق في ذلك، أما أنا فليس ذلك مسموحاً لي؛ ولابدّ أن يتراجع قلقي على كاتيا وتفكيري بالمستقبل، أمام حبي لك."

"لارا، يا ملاكي، خففي عنك. لم يفت أبداً وقت التأمل وتغيير الرأي. كنت أول من نصحك أن تأخذي بعين الجدّ كلمات كوماروفسكي. عندنا فرس، فهل تريدين أن نمضي منذ الغد إلى يورياتين؟ لم يغادرها كوماروفسكي بعد، فقد رأيناه حين تركناها. (ويُخيل لي من جهة أخرى انه لم يشاهدنا.) أكيد اننا سنراه هناك."

"لم أتفوه بكلمة تقريباً، وها ان في صوتك نبرة استياء. لكن، قل لي، أليس الحق معي؟ يمكننا أن نختبئ بهذا الشكل غير المضمون، في يورياتين. إذا كنا نبحث عن الطمأنينة، فعلينا أن نبحث بدراية، وفق مخطط مدروس جيداً، كما كانه قد اقترح علينا أخيراً هذا الرجل الخبير المتعقلُ، الكريه مع ذلك. إننا هنا معرّضون للخطر أكثر منا في أي مكان آخر. إننا وحيدون في بيداء لا حدود لها، مفتوحة لكل الرياح. وقد يحيط بنا الثلج ويغمرنا، ذات ليلة، فلا نتمكن، في الصباح، أن نخرج منه. أو قد يأتي المحسن المجهول الذي يسكن في هذا البيت، وقد يكون لصاً ويقتلنا. هل معك قطعة سلاح؟ كلا. هذا التهاون الذي كاشفتني به أخيراً يرعبني، ويشوش أفكاري."

"ولكن ماذا تريدين، ماذا تأمرينني أن أفعل؟"

"لا أعرف، أنا نفسي، بماذا أجيبك. اجعلني دائماً خاضعة لك. ذكرني باستمرار انني عبدتك التي تحبك بوله ولا تفكر بشيء. آه، يمكنني أن أعترف لك! عائلتانا، عائلتك وعائلتي، خير منا بألف مرة. لكن هل الموضوع هنا؟ ان هبة الحب هي كأي هبة أخرى. وسواء أكانت كبيرة أم صغيرة، فهي لا يمكن أن تتجلى بدون النعمة. كأنما عُلمنا أن نتعانق في السماء، وأُعدنا الى الأرض، طفلين، لكي نعيش معاً في

زمن واحد، ويحب واحدنا الآخر. اننا نعيش في وحدة كاملة، في عرش لا حدود له، ولا درجات عُليا أو سفلى -كل شيء واحد بقيمته، كل شيء يُبدع الفرح، كل شيء فينا يصير روحاً. غير ان في هذا الحنين الوحشي الذي قد يفترسنا في كل لحظة، شيئاً من التمرد، من "المحرّم". انه قوة عنيدة ومهدمة، وضد ادارة المنزل. وواجبي هو أن أخاف منها، هو الا أثق بها."

وطوقت عنق يورا، وأكملت، وهي تصارع دموعها:

"تعرف اننا لسنا في الوضع ذاته. ان لك أجنحة تطير بها الى ما وراء الغيوم. واذا كان لي، انا المرأة، أجنحة، فلكي أجثم على الأرض وأحمي طفلتي."

كانت هذه الكلمات تعجبه جداً، لكنه لم يُبد اعجابه هذا، خوف أن يظهر متكلفاً. وقال بنبرة رصينة:

"ان حياة التشرد هذه، هي مصطنعة حقاً. انك على صواب. غير اننا لم نخترعها. السباق المجنون هو قدر الجميع، وهو روح عصرنا.

"منذ هذا الصباح وأنا أفكر أيضاً في الموضوع نفسه. لقد رغبت أن أبذل جهودي كلها لكي نبقى هنا وقتاً أطول. لا أقدر أن أخبرك كم أضجر بدون عمل. لا أقصد الأعمال الزراعية. فقد خبرناها مرة، كلنا، في البيت، ونجحنا. غير انني لا أملك القوة لاعادة الكرة. لا أفكر في هذا. الحياة تعود. في كل مكان، رويداً رويداً. وربما شُرع يوماً ما، في إعادة نشر الكتب.

"هذا ما فكرت فيه. الا نستطيع أن نتفق مع سامديفياتوف، بشروط تلائمه، لكي يُعيلنا خلال ستة أشهر؟ وسأقدم له بدل ذلك الكتاب الذي أكتبه في هذه الفترة، في الطب مثلا؛ أو ربما كان كتاباً أدبياً، مجموعة شعرية... أو أيضاً أترجم كتاباً مشهوراً، يعرفه العالم كله. أعرف عدة لغات أجنبية؛ وقرأت حديثاً اعلاناً عن دار كبرى للنشر

في بطرسبورج، لا تنشر غير المؤلفات المترجمة. ولاشك في أن هذا سيدرّ كثيراً من المال. انني أتمنى أن أقوم بعمل من هذا النوع."

"شكراً، لانك ذكرتني بذلك؛ فقد خطر لي الشيء ذاته، هذا اليوم غير أنني لا اظن اننا سنبقى هنا طويلا. احس اننا سنمضي الى مكان آخر، بعيد. لكن ارجو ان تفعل ما اقوله لك، ما دُمنا هنا؛ خصص بعض الساعات في الليالي الآتية، ودوّن ما قرأته لي من القصائد في فترات مختلفة. فقد نسيت نصفها، اما الباقي فلم يُكتب، واخاف أن تنسى الكل فيما بعد، ويضيع مثلما حدث، كما قلت لي، مرات عديدة."

٨

اغتسلا، في نهاية النهار، بالماء الساخن، وغسلت لارا ايضاً كاتنكا. وجلس يوري اندرييفيتش، مغتبطاً لشعوره بالنظافة، الى طاولته قبالة النافذة، وقد ادار ظهره الى الغرفة حيث كانت لارا، برداء الحمام الذي ترتديه وشعرها المبلل الملفوف بمنشفة، وقد شعرت بالنشاط هي ايضاً، تنوّم كاتيا وترتب الاسرة. وكان يوري اندرييفيتش، وقد استغرق في تذوق توتر روحي احس بدايته، يشعرُ بكل ما يجري حوله عبر حجابٍ تيقظٍ مرهف يوسّع الى ما لا نهاية احاسيسه كلها.

كانت الساعة الواحدة صباحاً حين نامت لارا نوماً هانئاً، وكانت تتظاهر بالنوم، حتى ذلك الوقت. كانت شراشف سريرها واغطيته، وكذلك شراشف كاتنكا واغطيتها زاهية، ناصعة البياض، منشّاة. فقد كانت لارا، رغم الظروف التي تعيش فيها، لا تزال تحرص على ان تنشّي بياض الاسرة.

وكان يوري اندرييفيتش محاطاً بهدوءٍ مُبارك، مليء بالغبطة؛ مغموراً بنفحة الحياة المليئة بالنعمى. وكان ضوء المصباح يضيء بشعاعٍ

اصفر هادىء صفحات الورق البيضاء ويموّج ضوءاً ساطعاً ذهبياً على سطح المحبرة. وكان الليل الشتائي البارد يزرقّ وراء زجاج النافذة. ومضى يوري اندريبفيتش الى الغرفة المجاورة غير المضاءة وغير المدفأة التي تمكن الرؤية منها الى الخارج بشكل افضل وكان ضوء القمر يُقلص الفسحة المغطاة بالثلج ويمنحها لزاجة بياض البيضة او لوحةٍ من الفراء الابيض. كان هذا الليل الجليدي من الروعة بحيث انه كان لا يوصف. وكانت الطمأنينة تغمر قلب الدكتور. وعاد الى الغرفة المضاءة الدافئة، وشرع يكتب.

واخذ، وهو يحرص على ان يعبر مظهرُ ما يكتبه عن حركة يده الحية، ولا يتشوه في فقدانه روح تعبيرها وقوتها، يدون بكتابته العريضة، في شكلٍ كان يتبدل ويتحسن شيئاً فشيئاً، الاشعار التي كان يتذكرها بغاية الوضوح: "نجمة الميلاد"، "ليلة شتاء"، وبعض القصائد الاخرى من النوع نفسه، التي نسيت فيما بعد، وضاعت الى الابد.

ثم ترك هذه القطع المكتملة الناضجة الى ما كان قد بدأه قبيلا، وأبقاه معلقاً، وحظي بالنبرة وأخذ ينظمه دون اقل امل بأن يوصل عمله من الآن فصاعداً الى نهاية حسنة. ثم تبعثر انتباهه، فاستسلم لهذا الضياع، وخطر له شيء جديد.

وبعد بيتين او ثلاثة كتبها ببساطة، وبعض التشابيه التي ادهشته هو نفسه، غرق بكليته في عمله واحس باقتراب ما يُسمى الوحي. اذاك ظهر ان العلاقة بين القوى التي توجه الخلق، تنعكس. اذ ليس الانسان والوضع الروحي الذي يحاول ان يعبر عنه، هما اللذان يأخذان الاولية، بل اللغة التي يريد ان يُعبر بوساطتها. ان اللغة، وطن الجمال والحس وملتقاها، تشرع هي ذاتها بالتفكير والتكلم لاجل الانسان، وتصير كلها موسيقا، ليس برنينها الخارجي المحسوس، بل بتموج حركتها الداخلية وسطوتها. يُصبح مدُّ اللغة شبيهاً، اذاك، بتدفق نهرٍ يصقل تياره حجارة

القعر ويحرك دواليب الطواحين، فيخلق بنفسه وبقوانينه الخاصة، فيما هو سائر، الوزن والقافية، وآلاف الصيغ والاشكال الاخرى التي هي اكثر اهمية، لكن المجهولة حتى تلك اللحظة، وغير المكتشفة والتي لا اسم لها.

كان يوري اندرييفيتش يحس في تلك اللحظات انه لم يكن هو الذي يشكل القسم الجوهري من عمله، بل شيء اسمى يسيطر عليه ويوجهه. الحالة الشعرية والحالة الفكرية الكونيتان، مستقبلهما، المرحلة التي لابد لتطورهما التاريخي من ان يكملها. وكان يشعر انه لم يكن الا مبرر هذه الحركة ونقطة ارتكازها.

كان يطرح جانباً كل المآخذ التي كان يمكنه ان يأخذها على نفسه، فكان يفارقه لبعض الوقت شعور استيائه من نفسه وشعوره الخاص بأنه عديم الفائدة. وكان يدير رأسه ويتأمل فيما حوله.

وشاهد رأسي لارا وكاتنكا المستلقيين فوق وسادتيهما البيضاوين كالثلج. وكانت نظافة الاسرّة، ونظافة الغرفة، وطهارة اساريرهما، وقد امتزجت كلها بنقاوة الليل والثلج، والنجوم والقمر، في موجة واحدة لا تتجزأ، تنفذ الى شغاف قلبه، تفرحه وتبكيه، وتملؤه بشعور طهارة الوجود المنتصرة.

"يا رب، يا رب" كان يغمغم بصوت يكاد يعلو ويرتفع. "وهذا كله لأجلي! لماذا تفيض عليَّ هكذا؟ كيف تركتني اقترب منك، كيف سمحت لي ان امرّ على هذه الارض التي لا مثيل لها، وتحت نجومك، وقرب هذا الجمال المغامر، المستسلم إلى الله، البائس، الذي لا استطيع التوقف عن تأمله؟"

كانت الساعة الثالثة صباحاً حين رفع يوري اندرييفيتش بصره عن طاولته وأوراقه. وكان توتره الروحي يتراخى، كان يعود الى نفسه، الى الواقع، سعيداً، قوياً، هادئاً. وسمع فجأة صوتاً حزيناً فاجعاً في صمت

الاجواء البعيدة المترامية حول البيت.

وسار الى الغرفة التي لم تكن مضاءة لكي ينظر من النافذة. وكان زجاج النافذة، خلال الفترة التي امضاها في الكتابة، قد تغطى بطبقة كثيفة من الصقيع؛ فلم تكن الرؤية من خلاله ممكنة. ورفع يوري اندرييفيتش السجادة التي كانت قد طويت ووضعت في اسفل باب المدخل لتجنب مجرى الهواء، ووضع معطفه على كتفيه وخرج الى المصطبة.

كان الثلج الذي لم يكن أي شيء يحجبه عن ضوء القمر، يتوهج حتى ليخطف البصر. ولم يستطع اول الامر، ان يثبت نظره، ولم يلمح شيئاً. ولكنه، بعد لحظة، سمع بجلاء عواءً كئيباً، صاعداً من الاعماق أضعفه البعد، ولاحظ وقتذاك في طرف الفسحة، في الجانب الآخر من الوادي، اربعة ظلال متمددة، صغيرة كآثار بسيطة سوداء.

كانت الذئاب تقف، الواحد بجانب الآخر، واشداقها في اتجاه البيت، وكانت تمدّ اعناقها وتعوي في وجه القمر او على النوافذ المضاءة بانعكاس فضي. وبقيت جامدة بضع لحظات، ولكن لم يكن يوري اندرييفيتش يعرف انها كانت ذئاباً، حتى تركت الفسحة، كما لو كانت فكرة الدكتور قد انتهت اليها. ولم يوفق الدكتور في تمييز الجهة التي غابت فيها.

وفكر في نفسه: "انها لمفاجأة كريهة! لم يكن ينقصه غير الذئاب! قد تكون اوجارها قريبة من هنا. قد تكون في الوادي. ما أرهب ذلك! ولسوء الحظ لاتزال سافراسكا، فرس سامديفياتوف في الاسطبل. لاشك انها هي التي تشممتها الذئاب."

وعزم الا يقول شيئاً للارا كي لا يخيفها، ثم دخل واقفل الباب الخارجي، واغلق الابواب التي كانت تعزل القسم الدافىء من البيت، وسدّ الشقوق كلها واقترب من الطاولة.

كان المصباح على تلألئه، منيراً صافياً. غير انه لم تكن لديه رغبة في الكتابة. ولم يهدأ توتره. لم يكن يستطيع ابداً ان يفكر بغير الذئاب وبعض الهموم التي كانت تترصده. ثم تعب، وفي هذه اللحظة استيقظت لارا.

"وتشع وتحترق دائماً بالوهج ذاته، يا لهيبي الصغير الغالي" قالت، في هدوء، بصوت ناعم أثقله النعاس. "تعال واجلس لحظة الى جانبي، قريباً قريباً مني. اريد ان اقصّ عليك، ما حلمت الآن به."

وأطفأ المصباح.

٩

مضى النهار من جديد في جنونٍ جميل. كانوا قد وجدوا زحافة صغيرة للاطفال في البيت. فكانت كاتنكا، وقد ارتدت معطفها، واحمرت كزهرة عود الصليب وتفجرت من الضحك، تستسلم للتزحلق فوق مماشي الحديقة المغطاة بالثلج، من اعلى تلة من الثلج كومها الدكتور بالرفش. وكانت تصعد على التلة وتصعد، دون ان تتعب، جارّة الزحافة بطرف خيط، وعلى شفتيها ابتسامة جامدة.

كان الثلج يتساقط والبرد يزداد شدة. وكانت السماء صافية. وكان بياض الثلج يضرب الى الصفرة تحت اشعة شمس الظهيرة، وكانت في هذه الصفرة العسلية، تتراءى رواسب المساء المبكر، البرتقالية، وتتقطر كسائلٍ فاخر.

وكان الغسيل والاستحمام عشية امس قد خلقا في البيت جواً من الرطوبة. وكان الصقيع الخفيف يغطي النوافذ؛ وكانت الأوراق الملونة تنتفخ وتتموج بين السقف وارضية البيت. وكانت الغرف قد اصبحت قاتمة وغير مريحة. وكان يوري اندرييفيتش ينقل الحطب والماء ويواصل

التنقيب في كل مكان ويكتشف، كل لحظة، اشياء جديدة. وكان يساعد ايضاً لارا التي كانت تنهمك منذ الصباح في شؤون البيت.

وغالباً ما كانت ايديهما، في مكان شغلهما الجميل، تتقارب وتتشابك الواحدة مع الاخرى. كانا كلاهما يضع في منتصف الطريق الحمل الذي ينقله، وقد اعياهما عارض حنان لا يقاوم، كان يغمرهما كالضباب. ومن جديد، كان كل شيءٍ يفر من ايديهما، ويخرج من فكرهما. ومن جديد كانت الدقائق تمضي وتصير ساعاتٍ، ويدركهما الوقت، ويملك كلٌ منهما نفسه، ويتذكران، بخوف، كاتنكا الباقية طيلة هذه المدة بلا عناية، او يتذكران الفرس التي نسياها بلا طعام ولا شراب، فيخفّان، وقد عذبهما وخزُ الضمير، للقبض على الزمن الضائع وتدارك ما سببه نسيانهما.

لم يكن الدكتور قد اخذ، بعد، قسطه اللازم من النوم؛ فكان فريسة الصداع. وكانت تهدهد رأسه نشوة ناعمة. وكان يحس بالالم ويستشعر ضعفاً لذيذاً في جسمه كله. وكان ينتظر المساء بفارغ الصبر، لكي يتمكن من العودة الى العمل الذي انقطع في الليلة الفائتة. هذا الضباب المهوّم الذي كان يغمر افكاره، ويملأ كيانه كله، والذي كان يرى من خلاله كل شيءٍ حوله، كان يكمل مُسبقاً نصف عمله. وكان الغموض الذي يذوب فيه كل شيء يبشر بتجديد التجسد النهائي، ويتقدمه. وكان كل شيءٍ كتشوش المسودات الاولى وفراغ النهار المرهق، إعداداً، لا غنى عنه، لعمل الليل.

لم تكن البطالة التي كان يُسببها التعب تدع أي شيء سليماً، ثابتاً؛ فقد كان كل شيء يتغير ويأخذ مظهراً جديداً.

كان يوري اندرييفيتش يشعر ان حلمه ببقاءٍ أقل قصراً في فاريكينو لن يتحقق، وان ساعة انفصاله عن لارا قريبة، وأنه سيفقدها ويفقد معها علة حياته، وربما حياته. وكانت الحسرة تضغط قلبه. غير ان

ما كان يزيد في ألمه ايضاً، هو انتظاره المساء ورغبته في ان يعبر عن هذه الحسرة، ويعطي آلامه معنىً انسانياً عاماً.

ولم تعد الذئاب التي بقيت حاضرة في ذهنه طول النهار، ذئاباً على الثلج تعوي في وجه القمر؛ بل أصبحت مسألة الذئاب، صورة القوة العدوانية التي تريد موتهم او رحيلهم عن فاريكينو. وفي المساء صارت فكرة هذه العدائية قوية كما لو أنهم اكتشفوا في الشوتما آثار وحش يعود الى ما قبل الطوفان، او تنين هائل اسطوري، متعطشٍ الى دم الدكتور، كما فعل عشية امس، المصباح الموضوع على الطاولة. وكانت لارا وكاتنكا قد نامتا.

كان ما كتبه الليلة الماضية ينقسم الى نوعين. كانت القصائد القديمة التي صححها وهو ينسخها، مكتوبة بشكلها الاخير. أما القصائد الجديدة فكانت مكتوبة باختصار وفوضى.

وعرف الدكتور، وهو يفك اسرار خطه المشوش، امتلاكه الاليف، لنفسه. وقد أدهشته، في الليل، هذه المقطوعات لنجاحها غير المنتظر، حتى ان دموعه انهمرت من عينيه. هذا النجاح الموهوم هو نفسه الذي اوقفها؛ فسرعان ما تبين، اذ أعاد قراءتها، ما كان فيها من الصنعة، فأسف لذلك.

لقد حلم، طول حياته، بأصالة محجبة مستترة، تخفى عن النظر لاول وهلة، وتغيب تحت ستار شكل سائد أليف. وقد انكبّ طول حياته على انضاج هذا الاسلوب المباشر البعيد عن التصنع، الذي يتيح لكل من القارىء والسامع ان يُدرك المضمون حتى دون ان يلاحظ كيف ادركه. وقد كان طول حياته يُعنى بأسلوب لا يجذب انتباه أي شخص، وكان يُشدَه اذ يرى كم كان لايزال بعيداً عن تحقيق هذا الهدف.

ولقد اراد، في محاولات عشية أمس، ان يعبر ببساطة متناهية تقارب صفاء المهدهدة، عن حالته الروحية التي كانت مزيجاً من الحب

والرعب والحسرة والشجاعة تعبيراً، كانما يخرج هو متدفقاً من نفسه، بدون كلمات.

وحين اخذ الآن يدرس هذه المحاولات رأى انه كانت تنقصها الصلة التي تخلق مضمون هذه الابيات المبعثرة ووحدتها. وشرع يوري اندرييفيتش رويداً رويداً، وهو يصحح ما كان قد كتبه، يكتب بالنبرة الغنائية ذاتها اسطورة القديس جورج البطل. وابتدأ باستخدام اسلوب المخمسات الشعرية الذي يوفر للشاعر كثيراً من الحرية، الا ان التطريب، الذي هو من خصائص هذا الاسلوب، والذي لا يتصل بالموضوع في أي شيء، اثاره بنغمته الصُّنعية والاصطلاحية. فترك هذا الوزن التفخيمي والايقاعي، وقسر نفسه على التزام اسلوب الرباعيات، كمن يكافح، في النثر، ضد الحشو. صارت الكتابة اكثر جاذبية وصعوبة على السواء. ودبت الحرارة في العمل، الا ان استطراداً سطحياً كان لايزال ينزلق فيه؛ فاجتهد وسعه ليقصر بيت الشعر، ايضاً. وتراءت الكلمات محصورة في بيت ثلاثي المقاطع، وغابت آثار الفتور الاخيرة، فتيقظ، والتهب نشاطاً، وكان ضيق الفواصل يوحي من نفسه بكيفية ملئها. كانت الموضوعات ترتسم لحظة مباشرتها، في اطار الكلمات التي كانت تحددها. وكان يسمع وقع خطوات الفرس على سطح اشعاره كما تسمع الفرس وهي تكبو في احدى قصائد شوبان الاسطورية. وكان القديس جورج المنتصر يركض في فلوات روسيا، الشاسعة. وكان يوري اندرييفيتش يراه، وهو يبتعد، يختفي رويداً رويداً. وكان يكتب بسرعة محمومة، حتى انه كاد يعجز عن تدوين الكلمات والاشعار التي كانت تزدحم في فكره، وتأتي في حينها، دائماً.

ولم يلاحظ ان لارا قد استيقظت واقتربت من الطاولة. كانت تبدو رقيقة مرهفة، واكثر طولاً، بثوب نومها الطويل الذي كان يغطي قدميها. واهتز يوري اندرييفيتش للمفاجأة حين ظهرت بجانبه، شاحبة،

مذعورة، وقالت له بصوت منخفض، مادة ذراعيها:

"هل تسمع؟ كلبٌ ينبح. اثنان. كم انا خائفة. يا للفأل المشؤوم! سنصبر، ما استطعنا، حتى الصباح، ثم سنرحل؛ سنسافر. لن ابقى لحظة هنا."

وبعد ساعة هدأت لاريسا فيودوروفنا، بعد تطمينات كثيرة، وعادت للنوم. خرج يوري اندرييفيتش الى المصطبة. كانت الذئاب اكثر قرباً منها في الليلة الفائتة؛ واختفت كذلك بسرعة اخف. ولم يتح ليوري اندرييفيتش، كعشية امس، ان يعرف الاتجاه التي مضت فيه. كانت سرباً لم ينجح في عدّه. وخُيل اليه انها كانت اكثر عدداً.

١٠

كان ذلك اليوم هو يومهم الثالث عشر في فاريكينو. ولم يكن ثمةما يميزه عن غيره من الايام التي سبقته. فقد عادت الذئاب تعوي في الليل، بعد ان كانت قد اختفت في منتصف الاسبوع. وكانت لارا لاتزال تحسبها كلاباً فتشاءمت، وصممت على الرحيل من جديد. وداخل شعور القلق هذه المرأة التي ألفت العمل الصعب، والتي لم تتعود ان تمضي نهارها في المناجاة والمكاشفات القلبية، او في التمتع بالحنان الغامر.

كان كل شيء في حياتهم يتكرر المرة بعد المرة، حتى ان لارا بدأت، في ذلك الصباح من الاسبوع الثاني لوصولهم، تحزم امتعتها للرحيل. وكأنما تراءى لها ان الايام التي مضت منذ وصولهم، لم تكن موجودة ابداً.

كانت الغرف لاتزال رطبة مظلمة. وكان الجليد قد خفّ قليلاً. وكان مجرّد النظر الى الغيوم الداكنة المنخفضة ينبىء بأن الثلج قد يسقط بين لحظةٍ واخرى. وكان يوري اندرييفيتش منهكاً بسبب الاجهاد الجسماني

والعقلي، طوال ليالٍ عديدة، لم يعرف فيها النوم. كانت ساقاه مرهقتين، وافكاره مشوشة؛ وكان يرتجف من البرد ويفرك يديه، متمشياً من غرفة الى غرفة، منتظراً قرار لارا ليعرف ما الذي سيفعله نتيجة ذلك.

لم تكن هي نفسها تعرف ما تريد بوضوح. وكانت وقتذاك مستعدة لبذل أي شيء كي تبدل حريتهم الفوضوية بحياة يومية منظمة من العمل وأداء الواجبات، مهما كانت مجهدة، شريطة ان تستقر بشكلٍ نهائي لكي يعيشوا حياة عزيزة، شريفة، لائقة.

بدأت يومها كالمعتاد بترتيب الاسرة والكنس وإزالة الغبار وتحضير طعام الافطار. واخذت، بعد ذلك تحزم الامتعة، وسألت يوري اندرييفيتش ان يقرن الفرس؛ فلقد عزمت نهائياً على الرحيل.

لم يحاول يوري اندرييفيتش ان يناقشها. كان من الجنون ان يعود الى المدينة حيث بلغت موجة الاعتقالات ذروتها، ولكن، كان من الجنون ايضاً ان يبقى وحيداً، اعزل، تحت رحمة المصادفات، في هذه الصحراء الشتوية.

ولم يكن، فوق هذا كله، قد بقي في المخازن او القبو ما يبلغ حزمة واحدة من الشوفان. ومن المؤكد انه لو كان ممكناً ان يقيموا مده طويلة، لكان يوري اندرييفيتش قد تجول في المنطقة بحثاً عن وسائل جديدة للحصول على الطعام والعلف، ولكن الايام القليلة المجهولة الباقية لم تكن تستحق مثل هذا الجهد. وتوقف يوري اندرييفيتش عن التفكير وذهب ليقرن الفرس.

لم يكن يعرف كيف يقرنها معرفة جيدة. وكان سامديفياتوف قد علّمه، الا انه نسي. ومع ذلك فقد دبر الامر كيفما كان. ثبّت الطوق بواسطة نطاق جلدي لفّ طرفه الملبّس بالنحاس حول ذراعي العربة، ثم شدّ، سانداً فخذه على خاصرة الفرس، طرفي الطوق باحكام. وحين انتهى، قاد الفرس الى امام البيت، ثم ربطها ودخل ليدعو لارا.

وكانت كل من كاتنكا ولارا قد ارتدت معطفها؛ وكان كل شيء قد حُزم الا ان لارا كانت في غمٍ شديد. وطلبت منه ان يجلس لحظة، ويداها متشابكتان، وهي على وشك البكاء. وارتمت على كرسي، ثم نهضت ثانية تتكلم بعبارات متقطعة بوصوت نائحٍ حاد، وكانت تتلعثم وتقاطع نفسها، لتسأله فيما اذا كان يوافقها:

"ليست هذه غلطتي. ولا اعرف انا نفسي كيف امكن لذلك ان يحدث. ولكن، هل نستطيع حقاً ان نرحل الآن؟ ستُظلم عما قليل، ويفاجئنا الليل في الطريق، في الغابة المخيفة. أليس كذلك؟ سأفعل ما تريد. غير انني لن احمل مسؤولية الرحيل. ان شيئاً ما يُمسكني. ولست متحمسة كثيراً للذهاب. لكن اعمل انت ما تريد، أليس كذلك؟ ماذا ستفعل إذاً، لماذا لا تقول شيئاً؟ لقد ضيعنا نصف النهار في اللهو وفي عملٍ لا طائل تحته. سننتبه كي لا يحصل ذلك غداً. أليس كذلك؟ لو نبقى هنا اربعاً وعشرين ساعة أخرى، فستنهض من النوم ابكر بكثير ونمشي منذ طلوع الصبح، نحو الساعة السادسة او السابعة. ما رأيك؟ ستشعل الموقد، وستمضي ليلة اخرى في الكتابة، وننام مرّة ثانية. سيكون هذا جميلاً، فريداً! لماذا لا تجيب بأي كلمة؟ آه، ما اتعسني!"

"انت تبالغين. لايزال الغروب بعيداً؛ لايزال الوقت باكراً. لكن لنفعل ما تريدين. حسناً، لنبق. تمالكي نفسك فقط، انظري كم انت منفعلة. هيا، لنفك الامتعة، ولنخلع المعاطف. ها هي كاتنكا تقول انها جاعت. لنأكل قليلاً. الحق معك. كان رحيلنا اليوم مرتجلاً، سريعاً. لكن لا تتألمي ولا تبكي بحق الله عليك. سأشعل الموقد حالاً. غير انني قبل ذلك، وما دامت الفرس مقرونة والعربة جاهزة، فسأمضي لأبحث عن الحطب في سقيفتنا القديمة، فليس عندنا هنا حطبة واحدة. ولا تبكي. سأعود حالاً."

١١

كانت آثار عربة الدكتور مطبوعة، منذ الايام السابقة، على الثلج امام السقيفة. وكان الثلج عند العتبة مدوساً ومتسخاً بسبب النقل اول البارحة.

وكانت الغيوم التي تغطي السماء منذ الصباح، قد تبعثرت، فاصبح الجو صافياً، وبدا الصقيع. وكأنما كانت حديقة فاريكينو التي تمتد في هذه النواحي، تقترب من السقيفة لتلقي نظرة على وجه الدكتور وتذكره بشيءٍ ما. فقد كان الثلج اكثر كثافة ذلك العام، وكان اعلى من عتبة السقيفة. وكانت العتبة تبدو هابطة، والسقيفة شبه مقوسة. وكانت طبقة الثلج التي تغطي السطح كقبعة فطر كبير، تكاد تلامس رأس الدكتور. وكان هلال صغير يشع ببريق رمادي، فوق زاوية السطح، وكأنما قد غرز طرفه في الثلج.

ورغم ان الجو كان لايزال صافياً، فقد كان الدكتور يحس انه في وقت متأخر، في غابة حياته الكثيفة المظلمة. كان شعوره بالكآبة قوياً بقدر ما كانت نفسه قاتمة. وكان الهلال، نبوءة الفراق وصورة الوحدة، يتلألأ أمامه على ارتفاع وجهه تقريباً.

كان التعب يشل ساقيه. وكان قد جمع من الحطب الذي رشقه في العربة من باب السقيفة، اقل مما كان ينقله عادة في مرة واحدة. كان يشعر بوطأة البرد، وقد آلم يديه كثيراً الحطب المجلد المغطى بالثلج. ولم يحصل على الدفء حين اسرع في حركاته. لقد توقف فيه شيء ما وتمزق. كان يلعن حظه السي ويرجو الله ان يحرس لارا ويحمي هذا الجمال الرائع، الحزين، المستسلم، الطيب. وكان القمر على عهده، فوق السقيفة، يلتهب دون ان يدفيء، ويشعّ دون ان ينير.

واتجهت الفرس فجاءة الى الجهة التي جاءت منها، ورفعت رأسها

واطلقت حمحمة بدأت خجولةً اول الامر، ثم اصبحت عاليةً جريئةً.

"ماذا يشغلها؟" فكر الدكتور. "هل هو الفرح؟ هذا لا يمكن ان يكون الخوف. لا تحمحم الخيول من الخوف. يا للغباوة، لابد انها مجنونة اذ تدل الذئاب على وجودها؛ هذا اذا كانت قد احست بالذئاب. ربما حمحمت فرحاً؛ تذكرت الاسطبل، وهي تريد العودة. قليلاً من الصبر، سنعود حالاً."

وجمع يوري اندرييفيتش من السقيفة، لكي يشعل النار، بعض النشارة وصفائح القشر الكبيرة التي كانت تلتف حول نفسها كالباقة. وغطى كومة الحطب بحصير وربطها بحبل ونقلها، ماشياً بجانب العربة، الى سقيفة آل ميكوليتسين.

وحمحمت الفرس من جديد؛ لكن الدكتور سمع هذه المرة الحمحمة البعيدة التي كانت تجيب عليها. "من يكون هذا؟" فكر مرتجفاً. "كنا نظن ان فاريكينو مقفرة. لابدّ اننا اخطأنا." لم يكن يستطيع ان يتصور ان احداً يزورهم وان مصدر هذه الحمحمة هو حديقة ميكوليتسين. كان يقود سافراسكا وراء البنايات، صوب الملحقات، ولم يكن يرى واجهة البيت التي حجبته المرتفعات.

وانزل الحطب دون استعجال (لم يكن يستعجله أي شيء) في السقيفة، وفك الفرس، وترك العربة في السقيفة، واخذ الفرس الى الاسطبل البارد المقفر القائم في طرف البيت. فوضعها في الزاوية اليمنى، بمنجى من الريح، وسكب في معلفها بعض حزم الشوفان الباقي.

ومضى الى البيت، واجف القلب. كان يقف أمام البيت جوادٌ اسود ممتلىء، قرن الى عربة قروية، مريحة؛ وكان شاب نظيف وممتلئ مثله، يرتدي سترة من الصوف الناعم، يدور حوله، جاساً خواصره ومتفحصاً ثنياته.

وكانت هناك أصوات تتعالى في البيت. فخفف يوري اندرييفيتش

خطوته رغماً عنه، خوف ان يفاجأ بمحادثةٍ لم يكن قادراً على سماعها مهما كانت. وتوقف مسمراً في مكانه. لقد تعرف، دون ان يميز الكلمات، على صوت كوماروفسكي وصوتي لارا وكاتنكا. كانوا على الارجح في الغرفة الاولى قرب الباب. وكان كوماروفسكي يتناقش مع لارا، وكان يبدو من اجوبتها، أنها مضطربة، وانها كانت تبكي، وتجيب احياناً بقوة، واحياناً توافق محدثها. شيءٌ ما لا يحدد جعل يوري اندرييفيتش يتخيل ان كوماروفسكي كان يتكلم عنه في تلك اللحظة تماماً: لا يمكن الثقة به (وظن يوري اندرييفيتش انه سمع: "خدمة سيدين على السواء")؛ ولم يكن معروفاً فيما اذا كان المقصود عائلته او لارا. لم يكن بامكان لارا ان تعتمد عليه، اذ انها باعتمادها على الدكتور كانت "تطارد أرنبين في وقت واحد، وتجد نفسها بين كرسيين". ودخل يوري اندرييفيتش الى البيت.

كان كوماروفسكي بالفعل في الغرفة الاولى، وقد ارتدى معطفه الطويل الذي لم يكن يريد ان يتخلى عنه. وكانت لارا تمسك بمعطف كاتنكا، محاولة عبثاً ان تبكل ياقته. كانت حانقة على الطفلة تصرخ بها ان تتوقف عن التلوي والشد، في حين اخذت كاتنكا تشكو بهدوء: "ماما، انك تخنقينني." وكانوا جميعاً لابسين، متهيئين للرحيل. وحين دخل يوري اندرييفيتش اسرع اليه كل من كوماروفسكي ولارا.

اين كنت؟ ما اشد حاجتنا اليك!"

"مرحبا، يا يوري اندرييفيتش! ها انا من جديد في بيتك، دون دعوة، ورغم الكلمات الجافة التي تبادلناها في المرة الماضية."

"مرحبا، يا فيكتور ايبوليتوفيتش."

"أين كنت طول هذا الوقت؟ أصغ جيداً الى ما سيقوله، وقرر بسرعة: الوقت يستعجلنا، انت وانا. ولابد من السرعة."

"لماذا الوقوف؟ اجلس، يا فيكتور ايبوليتوفيتش. ما هذا، يا لارا،

تسأليني اين كنت، وانت تعرفين جيداً انني ذهبت لابحث عن الحطب وانني شغلت بعد ذلك بالفرس. ارجوك يا فيكتور ايبوليتوفيتش، اجلس."

"لم تفاجأ إذاً؟ لماذا لم تبدو منك أي بادرة تعجب؟ لقد ندمنا لاننا تركنا هذا الرجل يرحل فلم نغتنم الفرصة وها هو هنا امامك، ولا يدهشك الامر. ان الاخبار الجديدة التي يحملها هي ايضاً اكثر مدعاةً للدهشة. اخبره، يا فيكتور ايبوليتوفيتش".

"لا اعرف ماذا تريد ان تقوله لاريسا فيودوروفنا، لكن هذا ما سأقوله لك من جهتي. لقد أشعتُ عمداً خبر رحيلي، الا انني بقيت عدة ايام لكي اتيح لكما الوقت للتفكير من جديد في المسائل التي بحثناها سابقاً، واتخاذ قرار أقل استعجالاً، بعد تأمل عميق."

"غير اننا لا نستطيع ان ننتظر. هذه افضل لحظة للسفر. غداً صباحاً - لكن من الافضل ان يقصّ عليك فيكتور إيبوليتوفيتش هذا الامر بنفسه."

"لحظة، يا لارا العزيزة. عفواً، يا فيكتور ايبوليتوفيتش. لماذا نحن واقفون؟ لنخلع معاطفنا، ولنجلس. هناك امور خطيرة، أليس كذلك؟ وهذا يتقرر في لحظة. اعذرني، يا فيكتور ايبوليتوفيتش. ان اختلافنا يلامس بعض النقاط الدقيقة، من المضحك وغير اللائق ان نثيرها. لم افكر قطعاً ان اذهب معك. والامر يختلف بالنسبة للاريسا فيودوروفنا. حين واجهنا، في ظروف نادرة، هموماً مختلفة، وعرفنا اننا لم نكن شخصاً واحداً بل كنا اثنين، لكل منهما مصيره الخاص، كنت اعتبر ان على لارا، وخاصة فيما يتعلق بكاتنكا، ان تعير الاهتمام الاول لآرائك. والحق انها لم تفعل غير ذلك، فقد كانت تصل دائماً الى هذا الحل."

"لكن، فقط، بشرط ان تذهب انت ايضاً."

"انه لمن الصعب علينا، نحن الاثنين، ان نتصور افتراقنا، لكن ربما

كان علينا ان نقسر نفسينا على القيام بهذه التضحية. ذلك أن سفري، لا يمكن ان يكون موضع بحث."

"لكنك مازلت تجهل كل شيء. اصغ اولاً. غداً صباحاً... يا فيكتور ايبوليتوفيتش!"

"يبدو ان لارا تقصد ان تتحدث عن التعليمات التي جلبتها معي والتي اخبرتها بها. هناك قطار خاص لحكومة الشرق الاقصى متوقف في يورياتين. وصل البارحة من موسكو وسيستأنف سيره غداً. انه قطار وزارة النقل. ونصف عرباته مقطورات ـ أسرّة.

"عليّ ان اسافر بهذا القطار. تحت تصرفي محلات لمعاونيّ الذين اختارهم. وسوف تتوفر لنا الرفاهية المطلوبة. ان فرصة كهذه لن تتاح مرة ثانية. أعرف ان ما تقوله ليس هباءً، وانك لن تعود عن قرارك برفض السفر معنا. انت صارم وعنيد في قراراتك، اعرف ذلك. لكن، مع ذلك، فكر، قم بذلك لاجل لاريسا فيودوروفنا. لقد سمعتها تقول انها لن تسافر بدونك. تعال معنا، إذاً، وان لم تمض الى فلاديفوستوك، فامض، على الاقل، الى يورياتين. وهناك، سنرى. لكن لابدّ من السرعة، في هذه الحال، فلا يجوز ان نضيع لحظة واحدة. معي شخص، ولا اعرف ان اقود جيداً. ولا تسع عربتي خمسة اشخاص. عندك، إذا لم اكن مخطئاً، فرس سامديفياتوف. وقلت انك أخذتها الآن للبحث عن الحطب. هل فككتها؟"

"نعم."

"اقرنها إذاً من جديد، بأقصى سرعة. سيساعدك حوذي عربتي. أوه، الى الشيطان تلك العربة الثانية. سنجلس كيفما كان في عربتي. لكن، بربكم، لنسرع. لا تأخذوا معكم إلا الضروري الذي لا غنى عنه. وليس للبيت الا ان يبقى كما هو، مفتوحاً. المسألة هي مسألة انقاذ حياة طفل وليست مسألة قفل الابواب."

"لا أفهمك، يا فكتور إيبوليتوفيتش. تتكلم كأنني رضيت بالسفر. ارحل إذاً، إذا كانت لارا قد وافقتك على هذا القرار. ولا تهتم بالبيت. سأبقى، وبعد رحيلكم، سأرتب كل شيء وسأغلقه."

"ماذا تقول، يا يورا؟ ما هذه الترهات التي لا تؤمن بها انت نفسك؟ "اذا قررت لاريسا فيودوروفنا ذلك". كأنك لا تعرف حق المعرفة انني لن اسافر بدونك، انني لن اتخذ أي قرار بمعزل عنك. فلماذا إذاً هذا الكلام: "سأرتب البيت وسأعنى بكل شيء؟"

"انت إذاً مصمم على رأيك. غير انني سأسألك شيئاً. اريد، اذا سمحت لاريسا فيودوروفنا، ان اقول لك كلمتين على انفراد، اذا كان ذلك ممكناً."

"حسناً، اذا كان ذلك لازماً. لنمض الى المطبخ. هل انت راضية يا عزيزتي لارا؟"

١٢

"اعتُقل ستريلنيكوف، وحكم بالموت وأُعدم."

"يا للهول! هل هذا ممكن؟"

"هذا ما سمعته. وانا واثق منه."

لا تخبر لارا بذلك، لأنها تُجنّ."

"اعرف ذلك! ولهذا اردت ان اخبرك على حدة. انها تواجه مع ابنتها، بعد هذا الإعدام، خطراً قريباً. ساعدني لانقاذهما. هل ترفض قطعاً ان ترافقنا؟"

"قلت لك ذلك. لم يعد الامر موضوع بحث."

"لكنها لن تذهب بدونك. ولا اعرف كيف اسلك بالفعل. لابد ان تساعدني، في هذه الحالة، بطريقة اخرى. تظاهر بأنك رضيت، وبأنك

اقتنعت بالسفر. لا استطيع ان أتصور وداعها لك هنا، او في محطة يورياتين، اذا كنت سترافقنا حقاً. يجب ان تقتنع بأنك ذاهبٌ ايضاً؛ ان لم يكن عاجلاً معنا، فآجلاً بعد قليل من الوقت، حين استطيع ان اتيح لك فرصة جديدة تعدني بأن تغتنمها. عليك ان تريها انك تقدر ان تعطيها عهداً كاذباً. انني جادٌ، من جهتي. سأعمل جهدي، أي لحظة، لكي اوصلك الى عندنا وارسلك حالاً الى أي مكان تريد. يجب ان تقتنع لاريسا فيودوروفنا انك آتٍ معنا. افعل كل ما تستطيعه لكي تؤكد لها ذلك. مثلاً، تظاهر بأنك ذاهب لتقرن الفرس وعجّلنا لكي نمشي، دون ان تكون قد فرغت، وعدنا ان تلحقنا في الطريق."

"حزنت جداً لاعدام بافيل بافلوفيتش، حتى انني لم اتابعك فيما قلته، كما يجب. لكنني اوافقك. فلا بدّ، بعد إعدام ستريلنيكوف، ان تكون حياة كلٍ من لاريسا فيودوروفنا وكاتيا مهددة بالخطر، كما يقتضي المنطق الحديث. ولسوف يُعتقل بالتأكيد أحدنا؛ وسنفترق إذاً على كل حال. إذاً يُصبح من الافضل حقاً ان تفرقنا انت. خذهما الى اقصى مكان، الى طرف العالم. الامر اصبح، من جهة اخرى، بين يديك. ومن المحتمل يوماً ما ان يتوجب عليّ خنق كبريائي وانانيتي واجثو على قدميك، لكي اتناول من بين يديك لارا، الحياة، وسيلة إيجاد عائلتي، الطمأنينة. لكن أعطني الوقت اللازم لذلك. لقد اذهلني الخبر الذي قلته لي. إنني مثقلٌ بعذاب يجردني من كل طاقة على التفكير والبت بالرأي. ربما ارتكب، اذ اوافقك، خطأً مشؤوماً، لا يمكن تلافيه، يرعبني طول حياتي، لكن الشيء الوحيد الذي أستطيع ان افعله الآن في ضباب الألم الذي يُرهقني، هو ان استصوب رأيك آلياً واخضع له خضوعاً أعمى. ولذلك سأمثل الدور، لأجلها، وسأخبرها حالاً انني ذاهب لأقرن الفرس وألحقكم، وسأبقى هنا وحيداً. اريد فقط ان اسأل سؤالاً بسيطاً. كيف ستذهبون، الآن، وقد هبط الليل؟ لابد ان تمروا في الغابة. وهي

مليئة بالذئاب، فعليكم ان تحذروا."

"اعرف. معي بندقية ومسدس. لا تقلق. ثم للمناسبة، لدي بعض الفودكا وقد جلبتها احتياطاً في حالة الصقيع. ولا بأس بالكمية. سأتقاسمها معك؛ هل تريد؟"

١٣

"ماذا فعلت؟ لكن، ماذا فعلت؟ لقد وهبتها، لقد تخليت عنها، لقد اسلمتها. أركض واطاردهم، الحق بهم، اعيدهم. لارا! لارا!

"انهم لا يسمعون. الريح تهب في الاتجاه الآخر. ومن المؤكد انهم يتكلمون بصوت عال. معها الحق كله، لان تكون فرحة، مطمئنة. لقد تركت نفسها تسقط في الفخ ولم تتصور كم هي مخطئة.

"هذا ما كانت، على الارجح، تفكر فيه: "لقد سارت الامور بشكل حسن، كما كانت تتمنى ولا يمكن ان نفعل خيراً من ذلك. لقد استسلم صغيرها يورا، هذا العنيد الذي يركب هواه، وهو شكراً لله، يذهب معها لكي يلتجئ في مكان امين، عند اناس اكثر نباهة منهم، تحت حماية النظام والقوانين. وهو حتى لو تأخر ولم يسافر معهم غداً في القطار نفسه، لكي يبقى على رأيه ويبرهن ان له شخصيته الخاصة، فسوف يرسل فيكتور ايبوليتوفيتش قطاراً آخر، ولن يتأخر عن اللحاق بهم.

"انه الآن، ولاشك، في الاسطبل، يقرن سافراسكا بيديه اللتين ترتجفان من السرعة والانفعال، وترتبكان ولا تريدان ان تطيعاه، وسيلحق بهم في السهل قبل ان يصلوا الى الغابة.

"اكيد، هذا هو ما تفكر فيه. فهم حتى لم يودعوا بعضهم. صحيح ان يوري اندرييفيتش لوّح بيده، ثم التفت جاهداً في كبت الالم الذي كان يخنقه كقطعة من التفاح علقت في حلقومه."

كان يوري اندرييفيتش واقفاً على المصطبة؛ وجهه الى الباب المغلق، وظهره الى العالم. "لقد غربت شمسي المضيئة" هكذا كان يردد دائماً شيء ما في نفسه. ولم تكن لديه القدرة للفظ هذه الكلمات جملة بصوت عال، فقد كانت تعوقه غصات متشنجة في حنجرته.

ودخل الى البيت. وبدأ حوار ثنائي يجري في نفسه. كان الاول، الجاف العملي يخاطبه هو، وكان الثاني يتدفق كنهر لا شواطىء له ويتجه الى لارا. وها هو المجرى الذي سار فيه تفكيره: "الآن في موسكو. والحياة قبل كل شيء. عدم الاستسلام للارق. عدم النوم. العمل طول الليل حتى الخبل. حتى السقوط جثةً هامدةً من التعب. ثم هذا. اشعال النار حالاً في غرفة النوم كي يتجنب البرد القارس هذه الليلة."

لكن هو ذا ايضاً ما كان يقوله في نفسه: "يا جميلتي، يا حبي الباقي ابداً! مادام ذراعاي يذكرانك، فانت على عاتقي ايضاً، وعلى شفتيّ، وسأكون معك. سأريق دموعي كلها في شيء ما جدير بك، ودائم. سأنقش ذكراك في صور حانية، حانية، حزينة حتى لتذيب قلبك. سأبقى هنا الى أن يتم ذلك. ثم سأرحل انا ايضاً. هكذا سأتصورك. سأخط تقاطيعك على الورق كما تنخط، بعد عاصفة رهيبة خضّت البحر حتى اغواره، تقاطيع اقوى موجة بين الامواج واكثرها ابتعاداً عن الشاطىء. ويقذف البحر في خط مزبد حجرة ملونة، سدادةً، أشنةً وكل ما يستطيع ان يحمله من الخفيف، والذي لا وزن له. ذلك هو حد اقوى الامواج المرتدة التي تتطاول على الشاطىء. هكذا قذفتك اليّ عواصف الحياة، يا كبريائي. وهكذا سأرسم صورتك."

واغلق الباب، ثم خلع معطفه. وحين دخل الغرفة التي رتبتها لارا بعناية فائقة في الصباح، والتي انقلب فيها كل شيء بعيد رحيلها السريع - فرأى السرير مشوشاً، ولوازم البيت مبعثرة في ارضيته وعلى

الكراسي، جثا واحتضن خشب السرير واخذ وهو يدفن رأسه تحت طرف متدل من اللحاف، يبكي بمرارة كطفل صغير. لكنه سرعان ما توقف عن البكاء، فنهض ومسح دموعه بسرعة، والقى حوله نظرة مشدوهة ذاهلة، متعبة، ضائعة، وتناول القنينة التي تركها كوماروفسكي ففتحها، وسكب منها نصف كأس، ثم اضاف قليلاً من ماء الثلج الذائب، وابتدأ يشرب هذا المزيج، بجرعات منهومة بطيئة، ولذة تساوي تقريباً اللذة التي سببتها له الدموع التي لا عزاء لها والتي أراقها منذ هنيهة.

١٤

كانت اشياء غريبة تدور في فكر يوري اندرييفيتش. كان يفقد وعيه شيئاً فشيئاً. لم تكن حياته، في أي يوم، بمثل هذه الغرابة. لقد اهمل البيت وكفّ عن الاهتمام بنفسه، واصبح ليله نهاراً ولم يعد يعرف مقدار الوقت الذي مرّ عليه منذ ان رحلت لارا.

كان يشرب ويكتب اشعاراً عن لارا. وكلما كان يشطب ما يكتبه عنها ويعيد كتابته كانت لارا شعره تزداد بعداً عن لارا النموذجية، لارا الحقيقة، امّ كاتنكا، الراحلة بعيداً مع طفلتها الصغيرة.

كان يوري اندرييفيتش يصحح هذه الاشعار ويشطب الكثير منها، بحثاً عن التعبير الدقيق القوي، واستجابة لما يكنه من ضرورة التحفظ الذي كان يمنعه من الجهر الصريح بعواطف شخصية وحوادث حقيقية، كي لا يجرح الذين تتعلق بهم، بشكل مباشر. وهكذا كانت اشعاره تفقد كل ما كانت تتضمنه من الحميم الخاص: ما كان لايزال ملتهباً ولم يبرد، بعد؛ ما كان يقطر دما ويحز في القلب، غاب ليحل محله إطناب هادىء كان يُصيِّر الخاص عامّاً ويجعله متلائما مع شعور الجميع. ولم يكن يبغي ذلك، لكن هذا الاطناب جاء من تلقائه، كتعزية جاءته من لارا البعيدة،

كتحية ارسلتها اليه، كحلم رآه عنها، او كلمسة من يدها على جبينه، وكان يحب في اشعاره هذه المسحة التي سمت بها.

وكان الى جانب نحيبه على لارا، يُكمل مسودات قصائد كتبها في فترات متعددة عن مختلف الموضوعات -عن الطبيعة والحياة اليومية. وكانت تتردد في ذهنه خلال كتابته، كما كان يحدث له دائماً عندما يكتب، مختلف الأفكار عن حياة الفرد والمجتمع، وتهجم على فكره في حشد كبير عابر.

وفكر من جديد بأنه كوّن عن التاريخ، عما يُسمّى مجرى التاريخ، فكرة تختلف كليا عن الأفكار المقبولة، عامة، وانه كان يمثله بالحياة في المملكة النباتية. تكون أغصان الغابة، العارية في الشتاء تحت الثلج، هزيلة تدعو للرثاء كشعر الثؤلول في الشيخ. وفي الربيع تتحول الغابة في بضعة أيام، تصعد الى الغيوم، ويصير من الممكن الاختباء والضياع في ادغالها المغطاة بالأوراق. هذا التحول هو نتيجة حركة تتجاوز تجاوزاً فائقا حركة العالم الحيواني (لا يكبر الحيوان بسرعة كما يكبر النبات)، ويستحيل تقصّي أثرها. لا تتحرك الغابة، لا نستطيع أن نفاجئها وهي تنمو. لا ندركها أبداً الا ثابتة. ومثلها ندرك التاريخ ثابتا -ندرك حياة المجتمع التي تنمو أبداً، تتحول أبداً، ولا يمكن تقصّي تحولاتها.

لم يصل تولستوي الى غاية تفكيره حين أنكر على نابليون وعلى رجال الدولة والحرب دور المحرّك الأول. كان يؤمن بذلك، لكنه لم يعبر عن فكره تعبيراً كاملاً. ما من أحد يصنع التاريخ؛ اننا لا نراه أكثر مما نرى العشب ينمو. الحروب، الثورات، القياصرة، الروبسبيريون هم عناصره العضوية، خميرته. والثورات تخلق رجال عمل، ومتعصبين يضعون كمامة على عيونهم، وعباقرة محدودي الذكاء. إنهم يقلبون نظام الأشياء في بضع ساعات، في بضعة أيام. وتدوم الثورات أسابيع، سنوات، ثم يُعبد، خلال عشرات ومئات من السنين، كما يُعبد شيء

مقدس، هذا الفكر التافه الذي بعثها.

كان، وهو يبكي لارا، يبكي أيضاً ذلك الصيف البعيد في ميلوزئيف حيث كانت الثورة إلهاً هابطاً من السماء على الأرض، إله ذلك الصيف، وحيث كان كل شخص مجنوناً بطريقته الخاصة، وكانت حياة كل شخص موجودة بذاتها، لا كعظمة تدعمها السياسة العليا.

وقد لاحظ في انهماكه بملاحظة هذا كله، وتأكد له من جديد ان الفن هو خادم الجمال أبداً، وان الجمال هو غبطة امتلاك شكلٍ ما، وان الشكل بدوره هو المفتاح العضوي للوجود، وان على كل كائن حي لكي يكون موجوداً ان يمتلك شكلاً، وان كل فن، بالتالي، وفن المأساة أيضاً، هو حكاية عن غبطة الوجود. كانت هذه الملاحظات وهذه التأملات تجلب له سعادة أيضاً، سعادة فاجعة تغص بالدمع حتى ان رأسه كان بسببها ثقيلاً وموجعاً.

وجاء انفيم إيفيموفيتش ليستخبر عنه. وقد جلب هو أيضاً بعض الفودكا وقص عليه رحيل انتيبوفا وطفلتها مع كوماروفسكي. كان انفيم إيفيموفيتش آتياً في عربة صغيرة لمراقبة السكة الحديدية. وقد أنب الدكتور بشدة لأنه أهمل الفرس التي استرجعها رغم رجاء الدكتور الذي كان يريد ان يحتفظ بها ثلاثة أو أربعة أيام أخرى. لكنه وعده بأن يأتي بنفسه خلال هذه المهلة لكي ينقله نهائياً من فاريكينو.

كان يوري اندرييفيتش غالباً، وقت انهماكه في عمله، يتذكر فجأة المرأة الراحلة في كامل نقائها: اذاك يذهله الحنان وشعور حاد بالخيبة. وكما خيل له في طفولته انه يسمع صوت أمه الميتة في روعة الطبيعة الصيفية، وزغردة العصافير، كان يخيل له الآن، ان صوت لارا يقرع اذنه، حتى ليخدعه أحياناً. كان يسمع أحياناً، في الغرفة المجاورة نداءً: "يوروتشكا."

وحدث له أن وقع فريسة أوهام أخرى خلال ذلك الأسبوع. واستيقظ

بغتة، ذات ليلة، نحو نهاية الأسبوع، بعد حلم مستحيل مرهق: تنين يختبئ تحت البيت. وفتح عينيه. وفجأة اضيء قعر الوادي وانبعثت منه طلقة نارية. والعجيب انه عاد للنوم بعد لحظة من هذه الحادثة غير العادية. وقد قرّر في الغد انها كانت حلماً.

١٥

هوذا ما حدث بعد ذلك بقليل: لقد أصغى الدكتور أخيراً لصوت العقل. وفكر في نفسه انه اذا كان الهدف الاستسلام للموت بأي ثمن، فان هنالك وسائل أسرع وأقل ارهاقاً. وقرر أن يترك هذا المكان حين يأتي انفيم ايفيموفيتش ليأخذه.

وقبل غروب الشمس، حين كان الجو لايزال مشرقاً، سمع الثلج يتكسر تحت خطواتٍ مقبلة. كان رجلٌ يتوجه بهدوء نحو البيت بخطوة متكبرة، واثقة.

غريبٌ هذا. من يكون؟ سيأتي انفيم ايفيموفيتش راكباً على حصانه. ولم تعتد فاريكينو المقفرة على رؤية المارة. "انهم يبحثون عني"، قرر يوري اندرييفيتش. انها دعوة أو انذار بعودتي الى المدينة. أو أنهم آتون لاعتقالي. لكن، كيف سيأخذونني؟ وإذاً لابدّ ان يكونوا شخصين. "لا، انه ميكوليتسين"، ظن مبتهجاً، اذ اعتقد انه عرف ضيفه من مشيته. وتوقف الرجل، الذي لا يزال مجهولاً، لحظة أمام الباب غير المقفول، ثم تابع سيره بخطوة واثقة، كأنه يعرف المكان، يفتح الأبواب التي يُصادفها في طريقه، ويغلقها وراءه بعناية فائقة، كما لو كان صاحب البيت.

وكان يوري اندرييفيتش جالساً الى طاولة مُديراً ظهره الى الباب. وقبل أن ينهض ويمضي لاستقبال ذلك الغريب، كان هذا قد صار على

العتبة، حيث توقف مسمراً في مكانه.

"ماذا تريد؟" سأل الدكتور متعجباً، بشكل آليّ، حتى لكأن كلامه لم يكن سؤالاً وكأنه لن يُفاجأ اذا لم يسمع جواباً عليه.

كان الرجل قوياً، بهيّ الطلعة، جميل الوجه. وكان يلبس سترة قصيرة من الفراء، وبنطالاً من الفراء وحذاءً دافئاً من جلد الماعز. وكان يتقلدُ بندقيةً خفيفة.

كانت اللحظة التي اختارها المجهول للظهور غير منتظرة، ولكن مجيئه نفسه لم يكن كذلك. فان الأشياء التي رآها الدكتور في البيت وبعض الدلائل الأخرى كانت تشير الى مثل هذا اللقاء. فلقد كان واضحاً أن هذا الشخص هو صاحب المؤن المتروكة في البيت. وخيل للدكتور انه شاهد هذا الرجل في مكان ما. وكان الزائر يعرف هو أيضاً ولا شك، ان البيت لم يكن خالياً. فلم يُفاجأ برؤيته مسكوناً. وقد يكون أخبر بذلك، فكان يعرف أنه سيجد في البيت من يُقيم فيه. وربما كان هو أيضاً يعرف الدكتور.

وأخذ يوري اندرييفيتش ينبش ذاكرته: "من هذا؟ من هذا؟ أين رأيته يا ترى؟ هل هذا ممكن؟ ذات صباح دافئ في أيار، لا أدري في أي سنة. محطة رازفيلييه؟ مقطورة القوميسيار الذي لم يكن يُستشف منه أي خير؟ أفكار واضحة، أحكام متصلبة، مبادئ صارمة، المستقيم الصالح، المستقيم الصالح، المستقيم الصالح، المستقيم الصالح. ستريلنيكوف!"

١٦

كانا يتحدثان منذ فترة طويلة، منذ ساعات معينة، كأنهما الروسيان الوحيدان في روسيا اللذان يستطيعان أن يتحدثا كما يتحدث

المخبولون والحزانى على الأخص، والحانقون والمسعورون، كما كان الجميع وقتذاك. وكان المساء يقترب، والظلمة تترامى.

لم يكن ستريلنيكوف معروفاً بهذه الثرثرة المهمومة، فقد كان لديه، على ما يبدو، من الأسباب الشخصية ما دفعه للكلام دون توقف.

ولم يكن يتعب من الكلام، وكان يتشبث بقواه كلها بهذا الحديث مع الدكتور هرباً من الوحدة. هل كان يرهب وخز الضمير أو الذكريات الحزينة التي كانت تلاحقه، هل كان مُرهقاً بعدم الرضا عن نفسه، حيث يصبح الانسان بغيضاً لا يطاق، حيث يكون مستعداً لأن يموت من العار؟ اوهل أخذ، بالأحرى، قراراً رهيباً ما، قراراً مشؤوماً، لم يكن يريد أن ينفذه في وحدته، وكان يؤجل أيضاً تنفيذه، فيشارك الدكتور حياته ويثرثر معه؟

ومهما كان الأمر، فقد بدا على ستريلنيكوف انه يُخبئ سراً مهماً أرهقه وطغى على كل شيء آخر.

كان ذلك مرض العصر، الجنون الثوري في ذلك الوقت. كان الناس في أفكارهم يختلفون كلياً عنهم في كلامهم وسلوكهم. لم يكن أي شخص مطمئنّ الضمير. كان لدى الجميع أسباب تجعلهم يشعرون انهم مذنبون في كل شيء، وانهم شريرون مستترون، ودجالون محجبون. كان خيالهم، لأول شيء، يثور ضدهم ولا يعرف حدوداً في ثورته. كان الناس يفترون، يحملون أنفسهم ما لا تطيق، ليس فقط بتأثير الخوف، بل أيضاً بسبب جنون التهديم، بملء رضاهم، وفي حالة من الرهبة الميتافيزيائية في هذا الوله باتهام الذات الذي يستحيل ايقافه منذ ان يطلق له العنان.

كم من هذه التصريحات الشفوية أو الكتابية عند موت ستريلنيكوف، الجندي العظيم والقاضي العسكري غالباً، لم يقرأها ولم يسمع بها في وقته. وها هو الآن بدوره، يسيطر عليه الرعب نفسه من الاتهام الذاتي، ويدين حياته كلها، ويستخلص منها النتائج، ويراها في

ضوء مخيف، في مرآةٍ مشوهة من الحمى والهذيان.

كان ستريلنيكوف يتكلم في فوضى، قافزاً من اعتراف الى آخر:

"كان ذلك قرب تشيتا. اما صدمتك الطرف الغريبة التي حشوت بها خزائن البيت وجواريره؟ لقد جلبتها كلها في أثناء المصادرات التي قمنا بها حينما احتل الجيش الأحمر سيبيريا الشرقية. أكيدٌ انني لم أحملها بمفردي. لقد أفسدتني الحياة، اذ أحاطتني دائماً بأشخاص أوفياء متفانين. الشموع، علب الكبريت، القهوة، الشاي، الورق، الحبر -هذا كله وغيره كنا نأخذه من مخازن التشيكيين العسكرية، ومن مخازن الانكليز واليابانيين. هذا ثمين، أليس كذلك؟ كان تعبير "أليس كذلك" هو تعبير زوجتي المفضل، وقد لاحظت ذلك، ولا ريب. لا أدري اذا كان عليّ أن أخبرك بمثل هذه السرعة، إلا انني سأعترف لك الآن. كنت آتياً لأرى زوجتي وابنتي. عرفت متأخراً أنهما كانتا هنا. وها أنا لا أراهما. حين عرفت من التقارير والاشاعات صلتك بها، وحين ذُكر لي "الدكتور جيفاكو" للمرة الأولى، تساءلت كيف استطعت أن أتذكر، بين آلاف الوجوه التي مرت أمام عيني في أثناء هذه السنوات الأخيرة كلها، وجه الدكتور الذي قُدم لي ذات يوم لأحقق معه."

"وندمت لأنك لم تقتله؟"

ولم يأبه ستريلنيكوف لما قاله جيفاكو. ربما لم ينتبه لهذه المقاطعة؛ فتابع كلامه، ذاهلاً، متأملاً.

"لا شك اني كنت غيوراً، ومازلت. هل يمكن الا أكون كذلك؟ اني لم أختبئ هنا الا منذ أشهر قليلة، منذ أن لم يعد بإمكاني الظهور في الشرق الأقصى. كنت سأحاكم أمام محكمة عسكرية بسبب وشاية كاذبة. ليس من الصعب التخمين بما كان سيحصل. لم أكن على علم بأي ذنب ارتكبته. كنت آمل أن أبرر موقفي يوماً وأن أدافع عن سمعتي، عندما تصبح الظروف أكثر ملاءمة. وبانتظار ذلك قررت أن اختفي قبل

أن اعتقل، وأعيش في الوقت الحاضر حياة ناسك متجول. ربما كان باستطاعتي أن أتخلص في النهاية، لولا ان محتالاً نجح في كسب ثقتي، وخانني.

"اتجهت نحو الغرب، في الشتاء، عبر سيبيريا كلها، مشياً على الأقدام، اختبأت في التراب، جعت. كنت أتجنب الدروب المطروقة، وأنام في كوم الثلج أو القطارات المدفونة تحت الثلج، المتوقفة على طول خط عبر -سيبيريا.

"وقادني تشردي للالتقاء بصبي أفّاق زعم انه هرب من اعدام جماعي قام به الانصار. كانوا قد وضعوه في صف واحد مع عدد كبير من المحكومين الآخرين غير انه جرح فقط وهرب زاحفاً تحت كومة من أجساد الموتى، واختبأ في الغابة حيث شفي ببطء. وهو الآن ينتقل مثلي من مخبأ الى آخر. هذا ما أخبره. كان صبياً لا يصلح لشيء، شريراً، جاهلاً، مطروداً من المدرسة لكسله."

وكلما كان ستريلنيكوف يسهب في تعداد أوصاف الصبي، كان يوري اندرييفيتش يتعرفه بوضوح.

"هل كان اسمه تيرنتي غاليوزين؟"

"نعم."

"إذاً. كل ما قاله عن الأنصار والاعدام صحيح، ولم يخترع كلمة."

"كانت مزيته الوحيدة انه كان يعبد امه. اعدم ابوه كرهينة. ونمي اليه أن امه كانت في السجن وانها قد تشارك أباه المصير، لذلك كان مستعداً أن يفعل أي شيء لينقذها. وجاء الى تشيتا يعترف بذنوبه ويطلب الصفح ويعرض خدماته؛ فوافقوا على منحه العفو شرط ان يقوم بخيانة ما. لقد عرّفهم بمخبئي. لكني استطعت أن أكشف خيانته وان اختفي في الوقت المناسب.

"وبفضل مجهود عظيم، وبعد ألف مغامرة، عبرت سيبيريا ووصلت

الى هذا البلد حيث أعرف باسم الذئب الأبيض؛ انهم لا يظنون انني أجرؤ على المجيء الى هذا المكان. والواقع انهم بحثوا عني مدة طويلة حول تشيتا بينما كنت اختبئ تارة في هذا البيت وتارة في ملاجئ أخرى في الضواحي. اما الآن فقد انتهى كل ذلك. لقد ادركوني أخيراً. اسمع. اقترب الليل. انها الساعة التي لا أحبها، لاني لم أعد أنام منذ زمن طويل. لابد انك ذقت هذا العذاب. اذا لم تكن قد أحرقت بعد كل شموعي، الشموع الجميلة من الدهن الخالص، فلنستمر في الحديث. لنتحدّثْ بقدر ما نستطيع ان نتحمل، بأقصى متعة ممكنة، طول الليل، في ضوء الشموع."

"الشموع باقية كلها. لم أفتح سوى رزمة واحدة. كنت أستعمل الكاز الذي وجدته هنا."

"هل عندك خبز؟"

"كلا."

"بماذا كنت إذاً تقتات؟ انه سؤال سخيف. أعرف. بالبطاطا."

"هو ذلك. يوجد هنا بقدر ما تريد. كان سكان هذا البيت مدبرين وذوي خبرة. كانوا يعرفون كيف يخزنونها، جميعها سليمة ومحفوظة في القبو. ليست معفنة ولا مجلدة.:

وفجأة انتقل ستريلنيكوف الى الحديث عن الثورة.

١٧

"هذا الكلام لا يعني لك شيئاً فأنت لا تستطيع ان تفهمه. لقد نشأت في وسط آخر. كان هناك عالم من الضواحي، والسكك الحديدية، وثكنات العمال. الفساد، الغوغاء، البؤس، الرجولة المهينة في كل عامل، المرأة الذليلة. كان هناك عالم من حصانة الفجور الوقح، وطلاب

متأنقون وأبناء تجار. وكان يتملكهم الهزء والسخرية اللاذعة، فيستخفون بدموع الذين سلبت حقوقهم وأهينوا، وبأناتهم. أي فخامة مهيبة لدى هؤلاء الطفيليين الذين ليس فيهم شيء مرموق سوى انهم لم يعرفوا التعب أبداً، ولم يعطوا أو يتركوا في العالم أي اثر!

"نظرنا نحن الى الحياة كأنها حملة عسكرية؛ لقد ازلنا جبالاً في سبيل الذين كنا نحب. واذا لم نكن قد جلبنا لهم الا الشقاء، فاننا لم نمسهم بأي اهانة لأنهم اذا كانوا شهداء فنحن شهداء أكثر منهم.

"ولكن قبل ان اتابع حديثي، ارى من واجبي ان اقول لك ما يلي: يجب ان تترك هذا المكان بدون تأخير، اذا كنت على الأقل تتمسك بالحياة. المطاردة تضيق الخناق حولي، وانت معرض كيفما انتهت، لانك اصبحت متآمراً مثلي لمجرد اننا تحادثنا. هذا بالاضافة الى ان هنالك ذئاباً كثيرة هنا. وقد اضطررت ان اطلق النار امس كي احمي نفسي."

"آه، إذاً انت الذي اطلقت النار؟"

"نعم. سمعت ذلك؟ كنت اتوجه نحو مخبأ آخر، ولكن قبل ان ابلغه، فهمت من دلالات مختلفة انه اكتشف وان اهله هلكوا ولا ريب. لن امكث عندك طويلاً. سأمضي الليل عندك ثم اذهب غداً صباحاً. دعني اتابع، اذا سمحت.

"ثم هل تعتقد ان سكان حي تفيرسكاي - يامسكاي[1]، المتأنقين بسراويلهم ذات السيور، والقبعات المنكسة، الذين يرافقون الفتيات الصغيرات في عربات مكشوفة، لم يوجدوا الا في موسكو وروسيا؟ الشارع، شارع الليل، شارع العصر، المتسكعون والأحصنة الغبر، هذا كله موجود في كل مكان. ماذا يجعل من هذا العصر كلا موحداً، ماذا يمنح للقرن التاسع عشر كله وحدته التاريخية؟ انه ظهور الفكر

(١) حي مريب في موسكو ، قبل الثورة .

الاشتراكي. كانت الثورات تندلع، وكان الشباب المتفانون يصعدون فوق المتاريس. وكان رجال الدعاية يقدحون زناد فكرهم بحثاً عن وسيلة يكبحون بها الشهوة الحيوانية الفاحشة الى المال، ويمجدون العظمة الانسانية عند البؤساء ويدافعون عنها. وجاءت الماركسية. عرفت اصل الشر وطريقة علاجه. صارت القوة الكبرى في العصر. هذه هي مشاكل العصر: الفساد واشعاع القداسة، الفجور، احياء العمال، اذاعات الدعاية والمتاريس!

"آه، كم كانت جميلة، وهي طالبة. لا يمكنك انت ان تكوّن فكرة عنها، إذاك. كانت تأتي غالباً الى بيت رفيقتها في المدرسة، الى بيت يسكنه المستخدمون في خط بريست ـ ليتوفسك (هكذا كان يسمى اولاً، وقد تغيّر اسمه عدة مرات.) كان أبي الذي هو الآن في محكمة يورياتين، عاملاً في المحطة. كنت أتردد على هذا البيت، والتقي بها هناك. كانت صغيرة، طفلة، ولكن كان يَقرأ آنذاك في وجهها، في عينيها، ذعر العصر، وقلقه. كانت مشاكل العصر كلها، دموعه كلها وخطاياه كلها، إغراءاته كلها، حقده المتراكم كله، وكبرياؤه كلها، منقوشة في وجهها وسلوكها، في ذلك المزيج من التواضع العُذري والرشاقة الجريئة. كان يمكن اتهام العصر باسمها، بشفتيها. إنك توافقني، فليس فيما أقول شيء باطل. كأن ذلك مكتوبٌ سلفاً، كأنه امارة القدر. لابدّ ان ذلك وُلد معها، كان حقها بالطبيعة."

"تحدثت عنها ببراعة. رأيتها في ذلك الوقت كما وصفتها تماماً. كانت التلميذة فيها تتصل مع البطلة بسر لا طفولة فيه. كان ظلها يرتسم على الجدار، محترساً يائساً ودائماً في استعداد للدفاع. هكذا رأيتها، هكذا اتذكرها. لقد عبّرتَ عن ذلك كله بعبارات أخّاذة."

"رأيتها وتتذكرها؟ لكن ماذا فعلت في سبيل ذلك؟"

"هذه مسألة أخرى."

"ترى، إذاً، ان كل هذا القرن التاسع عشر، كل هذه الثورات في باريس، هذه الاجيال من المهاجرين الروس بدءاً من هيرزن، كل هذه المخططات من القتل الذي فشل أو الذي هو قيد التنفيذ، كل الحركة العمالية في العالم، كل الماركسية في أندية أوروبا وجامعاتها، كل هذا النظام الفكري الجديد، بجدة نتائجه وسرعتها، بسخريته، بكل وسائله العنيفة التي أنضجت باسم الشفقة ـ هذا كله امتزج وعُمم وعُبّر عنه بشخصية لينين، للقضاء على الماضي باعتباره تجسيداً للعقاب.

"وارتفع الى جانبه وجه روسيا الفسيح الذي لا يحد، الذي يشع بغتةً في انظار العالم كشمعة تكفر عن تعاسة الانسان وبؤسه. لكن، لماذا اخبرك بهذا كله؟ اكيدٌ انه بالنسبة لك، ليس الا ضجيجاً فارغاً، وكلاماً باطلاً.

"من أجل هذه الفتاة دخلت الجامعة، ولأجلها صرت استاذاً، واستلمتُ وظيفة في يورياتين التي لا اعرفها. لقد التهمتُ كومة من الكتب وغرفت الكثير من العلم لكي أكون مفيداً وقريباً منها حين تحتاج الى معونتي. وتطوّعت في الجيش لكي استعيدها بعد ثلاث سنوات من زواجنا، ثم، حين انتهت الحرب، وعدت من الأسر، اغتنمت اشاعة موتي لكي اقف نفسي على الثورة باسم مستعار، ولكي انتقم لها حتى النهاية من كل ما آلمها، وامحو الى الأبد هذه الذكريات الحزينة كلها، كي لا تستطيع ان تعود بعد الى الماضي، وكي لا يبقى ثمّة تفرسكاي ـ يامسكاي. وكانتا قريباً مني، هي وابنتي، كانتا هنا! وطالما قهرت نفسي لكي اخنق رغبتي في ان اندفع إليهما، واراهما. لكنني اردت ان انجز كما يجب رسالة حياتي. اوه، أي شيء لا أبذله الآن لقاء ان انظر اليهما ولو نظرة واحدة. كانت اذا دخلت الى غرفة ما، كأن النافذة تنفتح على مصراعيها وكأن الغرفة تمتلىء بالهواء والنور."

"أعرف كم كانت غالية عليك، ولكن هل لديك فكرة، وارجو أن

تعذرني، عن الحب الذي كانت تكنه لك؟"

"عفواً، ماذا قلت؟"

"اقول، هل تعرف كم كنت غالياً عليها، أغلى من كل ما في العالم؟"

"ما الذي يجعلك تقول هذا؟"

"لأنها اخبرتني هي بنفسها."

"هي قالت هذا؟ لك؟"

"نعم."

"سامحني، ادرك انه ليس من الممكن ان اسأل، ولكن اذا لم يكن من التهور اليائس، اذا كان باستطاعتك، هل تخبرني ماذا قالت لك تماماً؟"

"بكل سرور. قالت انك كنت مثالاً لما يجب ان يكونه الانسان؛ رجلا لم تصادف في حياتها مثيلاً له؛ انك كنت فريداً في اخلاصك وانها اذا استطاعت ان تعود الى البيت الذي قاسمتك اياه ستزحف اليه على ركبتيها من طرف الأرض.

"اسمح لي، هل تذكر الظروف التي قالت فيها هذا، اذا كنت لا تعتبر طلبي تدخلاً في امرٍ شخصي حميم؟"

"كانت ترتب هذه الغرفة، وخرجت لتنفض السجادة."

"متأسف، أي سجادة؟ هناك اثنتان."

"تلك، الكبيرة."

"انها ثقيلة جداً، هل ساعدتها؟"

"نعم."

"امسكت بها من طرفيها وانحنت هي الى الوراء رافعة ذراعيها عالياً كأنما تتأرجح وادارت وجهها هرباً من الغبار المتطاير واغمضت عينيها ضاحكة؟ أليس كذلك؟ الا اعرف عاداتها! وبعد ذاك مشيتما كل نحو

الآخر طاويين السجادة الثقيلة طيتين ثم أربعاً، ثم اطلقت نكتة وبدت على وجهها تعابير مضحكة، ألم تفعل ذلك؟ ألم تفعل؟"

ووقفا، ثم سار كل منهما الى نافذة وتطلع باتجاه مختلف. بعد قليل اقترب ستريلنيكوف من يوري اندرييفيتش، وأمسك يديه وشدهما الى صدره وتابع حديثه بالسرعة نفسها:

"سامحني. أعرف أنني أمسّ أشياء عزيزة ومقدسة بالنسبة لك، ولكن أحب ان اسألك مزيداً من الأسئلة، اذا سمحت. لا تذهب، ارجوك. لا تتركني وحيداً. سأذهب أنا حالاً. تأمل - ست سنوات من الهجر، ست سنوات من الكبت اللاانساني، لكنني كنت دائماً أفكر ان الحرية لم تربح كلياً بعد. وعندما أفكر انني قد أربحها وأن يدي ستحرران، فأضمها وعندئذ استطيع ان انتمي اليهما. والآن قد آلت جميع تصوراتي الى لا شيء. سيعتقلونني غداً. أنت قريب وعزيز عليها، ربما رأيتها يوماً ما... ولكن ماذا انا قائل!... انا مجنون. سيعتقلونني ولن يسمحوا لي ان اقول كلمة دفاع عن نفسي. سيقابلونني بالصراخ والسباب ويكمون فمي. ألا اعرف كيف يحصل مثل ذلك؟"

١٨

وأخيراً أخيراً استطاع يوري ان ينام ليلاً بطوله، لأول مرة منذ عدة ليال غفا حالما تمدد على فراشه. وبات ستريلنيكوف تلك الليلة ايضاً. فقد وضعه يوري في الغرفة المجاورة. وكان في المرات القليلة التي استيقظ فيها يوري اندرييفيتش وتقلب او سحب الأغطية، يشعر بمتعة النوم وسرعان ما يستغرق في النوم المنعش من جديد. وقبيل الصباح ابصر عدة احلام قصيرة زاهية عن أيام الطفولة كانت من الدقة في التفاصيل والمنطق بحيث حسبها حقيقة.

حلم مثلاً ان لوحة أمه المائية لمنظر في الريفيرا قد سقطت عن الحائط. وفتح عينيه. وفكر: "لا، لا يمكن أن يكون هذا حقيقة. هذا هو انتيبوف، زوج لارا، ستريلنيكوف، يخيف الذئاب في شوتما، كما يقول باخوس. ولكن لا، ما هذا الهراء! انها الصورة. هناك كانت، قطع مبعثرة على الأرض"، اقنع نفسه، في الحلم.

واستيقظ متأخراً وهو يشعر بألم في رأسه، لأنه نام طويلاً. لم يستطع لأول وهلة، أن يدرك من كان، وأين كان.

عندئذ تذكر: "ستريلنيكوف في الداخل. الوقت متأخر. يجب ان ارتدي ثيابي. لابدّ انه استيقظ الآن. والا فسأوقظه واهيىء القهوة، ثم نشر بها معاً."

وصرخ: "بافل بافلوفيتش!"

ولم يسمع جواباً. "انه مازال نائماً. اعتقد ان نومه ثقيل". وارتدى ثيابه على مهل ومضى الى الغرفة الثانية. كانت قبعة ستريلنيكوف ملقاة على الطاولة ولكنه لم يعثر عليه في البيت. "لعله ذهب في نزهة. وبدون قبعته، كي يعتاد ذلك. يجب أن أكون قد غادرت فاريكينو اليوم. لكن أصبح الوقت متأخراً الآن. لقد استغرقت في النوم ثانية. هذا ما يحصل كل يوم."

واشعل النار في الموقد، وتناول دلواً وذهب الى البئر. وعلى بعد امتار من الباب كان ستريلنيكوف مجدداً في وسط الممر ورأسه غارق في الثلج. لقد أطلق النار على نفسه. وأصبح الثلج كتلة حمراء تحت صدغه الأيسر.

وكانت قطرات الدم الصغيرة التي تدفقت من كل جانب، تمتزج بالثلج وتكون كرات صغيرة أشبه بثمار العناب المثلجة.

الفصل الخامس عشر
النهاية

١

بقي أن نقص ما جرى خلال الاعوام الثمانية او العشرة الاخيرة من حياة جيفاكو. لقد تقدم فيها أكثر فأكثر نحو الشيخوخة، وفقد شيئاً فشيئاً معرفته ومهارته كطبيب وككاتب؛ فما أن كان يخلص من حالة الانهيار التي تردّى فيها ويعاود عمله الا ليسقط مرة ثانية، بعد فورات قصيرة من النشاط، في فترات طويلة من اللامبالاة بنفسه وبكل شيء في العالم. وخلال هذه المدة، تطور مرض القلب الذي شخصه هو نفسه من قبل، دون ان يدرك خطورته، الى مرحلة متقدمة.

ذهب الى موسكو في بدء عهد السياسة الاقتصادية الجديدة، الذي كان اكثر عهود السوفيات رياء وريبةً، وهو أشد هزالاً واهمالاً لنفسه منه عندما رجع الى يورياتين بعد فراره من الانصار. وكان في اثناء رحلته قد تخلص تدريجاً من ثيابه التي كانت لها بعض القيمة وبادلها بخبز وببعض الاغطية القديمة البالية ليستر عريه، وبقي دون معطف الفرو والبذلة ووصل الى شوارع موسكو يعتمر قبعة رمادية من جلد الخروف ويلف حول ساقيه طماقاً ويلبس معطفاً قديماً من معاطف الجيش جرّد من كل أزراره وأصبح كلباس المحكومين. ولم يكن من السهل تمييزه في هذا المظهر عن كثير من رجال الجيش الاحمر الذين كانوا يزدحمون في محطات العاصمة وشوارعها وساحاتها.

ولم يكن قد وصل منفرداً بل كان يتبعه حيثما توجّه فلاح فتى ذو

مظهر حسن يرتدي أيضاً ثياب الجيش العتيقة. كانا يجولان في الصالات القليلة الباقية في موسكو، وقد كانت تشبه تلك التي أمضى يوري اندرييفيتش طفولته فيها. فكانوا يتذكرونه ويستقبلونه مع رفيقه أفضل استقبال (بعد استجواب لطيف عما إذا كان قد استحم ـ فقد كان التيفوس لايزال فاتكاً) كما كانوا يخبرونه كيف غادرت عائلته روسيا.

وكان كلاهما يخجلان من الناس؛ وكانت مزية الخجل هذه تمنعهما من الذهاب منفردين الى أي اجتماع خوفاً من أن يلفتا الانظار ويجبرا على الكلام. وعندما كانت هاتان الشخصيتان النحيفتان تظهران في أي مجتمع للاصدقاء، كانتا تنسحبان عادة الى احدى الزوايا حيث يمكنهما ان يمضيا السهرة بصمت، فلا يحملان على الاشتراك في الحديث العام.

وبدا الدكتور، بطول قامته وأسماله البالية، كفلاح يبحث عن الحقيقة والفتى الذي كان يتبعه حيثما ذهب، كتلميذ صبور أخلص لمعلمه إخلاصاً أعمى. فمن يا ترى كان هذا الفتى؟

٢

قطع يوري اندرييفيتش المرحلة الاخيرة من سفرته في القطار. ولكنه مشى القسم الاول والاكبر منها على قدميه.

ولم تظهر القرى التي مر فيها أفضل من تلك التي رآها في سيبيريا والاورال، بعد ان هرب من أسره في الادغال. على أن الفصل كان يومذاك شتاء، أما الآن، في أواخر الصيف واوائل خريف حار جاف، فقد جعل الطقس الامور اكثر سهولةً.

كانت نصف القرى التي مر بها مهجورة، والحقول مهملة لم تحصد، كأنما بعد اجتياح العدو. هذه كانت نتائج الحرب ـ الحرب الاهلية.

وفي نهاية ايلول سار مسيرة يومين او ثلاثة على ضفة نهر منحدرة.

وكان عن يمينه النهر الجاري صوبه وعن يساره الحقول الواسعة غير المحصودة وقد امتدت من الطريق الى ضفاف الغيوم في الافق. وكانت الغابات، ومعظمها من خشب السنديان والملول، تقطع تلك الحقول على مسافات متباعدة. وكانت الغابات تصل حتى النهر في منخفضات انحدرت عاموديا ً واخترقت الطريق.

وكانت الحبوب الناضجة تنتفض في الحقول غير المحصودة وتقع على الارض، وكان يوري اندرييفيتش يجمعها في قبضة يده، وعندما لايجد وسيلة لسلقها كان يضعها في فمه، ويروح يمضغها بصعوبة. ولم يكن من السهل هضم هذه الحبوب الجافة التي لم تمضغ جيداً.

ولم ير في حياته سنابل بمثل هذا المنظر القاتم الصدىء الاسمر كالذهب العتيق. فعندما كانت تحصد في وقتها، كان لونها يبدو فاتحاً اكثر.

كانت هذه الحقول النارية الملتهبة دون شعلة، هذه الحقول التي تعلن بصمت يأسها، محاطة بالفضاء الفسيح الساكن الذي اصبح وجهه وجه شتاء تظلله غيوم الثلج المتحركة الطويلة المرقطة، ذات الوسط الداكن والاطراف البيضاء.

كل شيء كان يتحرك ببطء وانتظام ـ النهر المتدفق، الطريق التي تمر بجانبه، الدكتور الذي يسير على الطريق في اتجاه واحد مع الغيوم. ولم تكن حقول السنابل ساكنة ايضاً. فقد كان سطحها يضطرب على الدوام بتموجات أوحت بشيء رديء مزعج.

لم ير في حياته هذا العدد من الفئران. لقد توالدت بكميات لا مثيل لها، وراحت تقفز في الليل على وجه الدكتور ويديه وداخل سترته وسراويله عندما أجبره الظلام والنعاس على النوم في الخلاء؛ وكانت في النهار تركض عبر الطريق، وهي تنط وتلعب وتصأى حين تدوسها الاقدام.

وتبعته كلاب القرى، وقد توحشت، على مسافة دلت على احترامها له، وهي تتبادل النظرات كأنما تقرر اللحظة المناسبة التي تنقض فيها عليه وتمزقه إرباً. كانت تتغذى بالجيف المنتنة ولا تحتقر الفئران، وتنظر الى يوري اندرييفيتش من بعيد وتسير خلفه باطمئنان كأنها تنتظر شيئاً. ولسبب ما لم تخاطر بالتوغل في الغابات، وحين كان يقترب من احدها، كان يتأخر تدريجاً ثم يدير ذنبه ويختفي.

واعطت الغابات والحقول في تلك الايام مثالاً عن التضاد التام. فالحقول التي هجرها الانسان بدت يتيمة وكأن غيابه عنها قد لعنها. اما الغابات فقد ازدهرت، بعد ان تخلصت منه، بحرية وفخر كأنها قد نجت من الاسر.

فقلما يترك الجوز عادة حتى ينضج. فالناس، لاسيما اولاد القرى يجمعونه وهو لايزال اخضر ويكسرون اغصاناً عديدة من اشجاره. اما الآن فقد كانت سفوح التلال والمنحدرات المشجرة تزخر بأوراق كثيفة ملأها الغبار وجعدتها الشمس. وكانت عناقيد من الجوز، ثلاث او اربع كأنها ربطت معاً، تتراقص بين الاوراق، وقد نضجت وأصبحت على وشك ان تسقط من الاغصان. وكسر يوري اندرييفيتش بعضها واكله. ثم ملأ جيوبه وجرابه منها. وبقي اسبوعاً يأكل الجوز والبندق.

وبدت له الحقول كرؤيا حمى مرض خطر، اما الغابات فقد بدت له، بخلاف ذلك، كأنما كانت في وضوح النقاهة. وتراءى له ان الله يسكن في الغابات، بينما ترجع الحقول صدى ضحكات الشيطان الشامتة.

ووصل يوري اندرييفيتش في هذا الطور من رحلته الى قرية محروقة مهجورة. كانت البيوت جميعها صفاً واحداً على جانب الطريق مقابل النهر. اما الارض الواقعة بين الطريق وضفة النهر المنحدرة فقد كانت خالية.

وكان هنالك بيوت قليلة، وقد اسودّت من فعل النار، لاتزال قائمة

ولكنها كانت خالية ايضاً من ساكنيها. أما البيوت الاخرى فلم يكن قد بقي منها الا اكوام من الحطام المتفحم ومداخن سوداء تنتصب فوقها.

وكانت السلسلة الصخرية المواجهة للنهر مجوفة بالمقاطع التي كان الفلاحون يأخذون منها حجارة الطواحين، فقد كان ذلك عندهم سبيلاً للرزق. وكانت ثلاثة احجار رحىً لم ينته نحتها بعد، لاتزال مطروحة على الارض امام آخر بيت في الصف. وكان هذا البيت واحداً من البيوت القلائل التي ظلت واقفة، ولكنه كان مهجوراً كسائر البيوت الاخرى.

ودخل يوري اندرييفيتش البيت. كان ذلك في عشية يوم هادىء، ولكنه ما إن دخل حتى شعر كأن نسمة ريح هبت في البيت، فتطايرت ربطات من التبن والعلف فوق الارض، وصفقت بقايا الاوراق على الجدران، واهتز المكان كله واضطرب. وكان البيت، كالحقول المحيطةبه، يعج بالفئران التي قفزت هاربة وهي تصأى من كل صوب.

وخرج. كانت الشمس تغيب وراء الحقول في آخر القرية. وغمر بريق حار ذهبي الضفة المقابلة، وانعكس بعض توهجه الخابي على البرك والاشواك، والبعض الآخر وصل حتى منتصف المجرى. وقطع يوري اندرييفيتش الطريق وجلس على احد احجار البناء المطروحة على الاعشاب.

وبرز فوق حافة الضفة رأس مشعث، كتفان، ثم ذراعان. فقد كان احدهم يتسلق طريق المنحدر ومعه قربة ماء. وعندما رأى الدكتور توقف وقد بان منه خصره وما فوق.

"هل لك في شربة ماء؟ ان لم تسئ الي، لا اسئ اليك."

"شكراً. نعم، اريد شربة ماء. ولكن تعال الى هنا، لا تخف. لماذا أسيء اليك؟"

وكان حامل الماء فتى في العقد الثاني من عمره، حافي القدمين، مهلهل الثياب.

وبالرغم من كلمات الدكتور الودية، فقد حدجه الفتى بنظرة قلقة شاكة وبدا لسبب ما شديد الاضطراب. وأخيراً وضع قربته على الارض، وتقدم نحو الدكتور، ثم توقف في منتصف الطريق وتمتم:

"انه ليس... لا يمكن أن يكون... لا بد انني أحلم. اعـذرني ايهـا الرفيق اذا سألتك، ألم ارك من قبل؟ أجل! بالتأكيد! إنك الدكتور، الست هو؟"

"ومن انت؟"

"الا تعرفني؟"

"كلا؟"

"كنا في القطار نفسه الذي حملنا من موسكو، في العربة نفسها. كنت مساقاً للسخرة. كنت في القافلة."

كان فاسيا بريكين. ورمى بنفسه على الارض امام الدكتور وقبّل يديه وبكى.

كان الخراب المحترق بقايا مسقط رأسه، قرية فيريتنيكي. لقد ماتت امه. فحين احترقت القرية اختبأ فاسيا في أحد الاقبية، ولكن امه ظنت انه اخذ الى المدينة فجنت وألقت بنفسها في النهر - نهر بلغا، النهر نفسه الذي كان يجري عند اقدام السلسلة الصخرية حيث كانا يجلسان ويتحدثان. وقيل ان أختيه آليا وآريا موجودتان في احد الميـاتم في مقاطعة اخرى، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً اكيداً عنهما. وما كان منه الا ان رافق الدكتور الى موسكو، وفي الطريق اخبره باشياء فظيعة قد حدثت.

٤

"ذرة الشتاء الماضي سوف تضيع في الحقول. كنا لا نزال في بدء

زرعها عندما ابتدأت مشاكلنا، بعد ان ذهبت الخالة بوليا. هل تذكر الخالة بوليا؟"

"كلا. اني لم اتعرف اليها ابداً. من تكون؟"

"لم تتعرف ابداً على الخالة بوليا؟ كانت معنا في القطار؛ تياغونوفا. تلك التي كانت سمينة وجميلة، وتنظر اليك مباشرة في عينيك."

"تلك التي كانت دوماً تحل وتضفر شعرها؟"

"بالضبط! ذات الضفيرة الطويلة، هذه هي نفسها!"

"نعم اذكرها. انتظر لحظة، بدأت الان اتذكرها، اجتمعت بها في احدى مدن سيبيريا، صادفتها في الطريق."

"صحيح؟ انت صادفت الخالة بوليا!"

"فاسيا، ماذا دهاك؟ لماذا تهز يديّ كالمجنون؟ حذار، والا خلعتهما من الكتفين. ولماذا يحمر وجهك هكذا، مثل فتاة؟"

"حسناً، قل لي بسرعة كيف حالها؟ اخبرني."

"كانت بصحة جيدة عندما رأيتها. حدثتني عنك وعن اهلك. قالت انها كانت تسكن معكم، ام تراني لم اسمع جيداً؟"

"بلى، سكنت معنا، بلى. احبتها امي كأخت لها. انها هادئة، نشيطة، ويداها ماهرتان جداً. كان عندنا كل شيء في البيت طول بقائها معنا. ولكن الناس في فيريتينيكي جعلوا حياتها جحيماً بأقاويلهم.

"فقد كان في القرية رجل يدعى روتن خارلام. كان يلاحق بوليا، وكان نمّاماً، وليس له انف. لم تكن تحفل به، فحقد علي من اجل ذلك. تكلم بالسوء عني وعن بوليا. واخيراً ذهبت، اذ لم يعد بإمكانها ان تحتمل اكثر من ذلك. وكان هذا بدء مشاكلنا.

"وحدثت جريمة قتل فظيعة في الجوار. كان هنالك ارملة تعيش منفردة في مزرعة على طريق بويسكوي. وكانت عادة تسير وهي تلبس

حذاء رجالياً له نعل من مطاط، وتربي كلباً شرساً مربوطاً بسلك طويل يدور حول البيت كله وتدعوه غورلان. كانت تقوم بنفسها بكل اعمالها في البيت وفي المزرعة، دون مساعدة احد. ثم جاء الشتاء الماضي قبل ان ينتظره احد. وسقط الثلج مبكراً ولم تكن المرأة قد نبشت كل ما زرعته من بطاطا. فما كان منها الا ان قدمت الى فيريتنيكي وقالت: اساعدني وسأدفع اجرتك مالاً او حصة من البطاطا.

"فأجبتها انني سأساعدها، ولكنني حين ذهبت الى المزرعة كان خارلام هناك وقد اخذ العمل قبلي ولم تزعج نفسها بأن تخبرني. ولم اكن اريد ان اقاتله من اجل ذلك، فقمنا بالعمل معاً. وكان الطقس سيئاً - مطر وثلج واوحال. كنا نحفر ونحفر ونحرق الاوراق لنجفف البطاطا على الدخان. وعندما انتهينا سددت حسابها معنا بكل دقة، وسمحت لخارلام ان يذهب ولكنها غمزتني بان ابقى معها او اعود فيما بعد.

"ورجعت مرة ثانية فقالت: لا اريد ان اترك الفائض عني للدولة. انك فتى طيب واعرف انك لن تشي بي، انت ترى انني لا اخفي عنك شيئاً. كان بامكاني ان احفر بنفسي حفرة، ولكنك ترى رداءة الطقس. لقد تأخرت والوقت شتاء ولا يمكنني تدبير الامر بنفسي. اذا حفرتها لي، فلن اجعلك الا راضياً.

"وهكذا حفرت الحفرة على نحو يصلح مخبأً - عريضة في الاسفل وضيقة في الاعلى، ثم اشعلنا ناراً وجففنا الحفرة بالدخان. فعلت كل ذلك والعواصف تزمجر. ثم وضعنا البطاطا في الحفرة وواريناها التراب. كان عملاً شاقاً. وبالطبع، لم افه بكلمة عن الامر لاحد، حتى لأمي واختيّ. لا سمح الله!

"ولم يمر شهر حتى كانت المزرعة قد سرقت، وقال الذين قدموا من بويسكوي ان الباب كان مفتوحاً على مصراعيه، والمكان خالياً من كل شيء. واختفى كل اثر للارملة، وقطع غورلان رباطه وهرب.

"وبعد فترة قصيرة، وقع ذوبانٌ عشية رأس السنة. فقد امطرت السماء ليلة عيد القديس باسيليوس، فذاب الثلج واصبح بامكانك ان ترى الارض العادية. إذاك رجع غورلان الى المزرعة ووجد المكان الذي دفنت فيه البطاطا فراح ينبش عنه التراب. لقد حفر وحفر، رامياً التراب الى الخلف. واذ بقدم المرأة يبرز من الحفرة بحذاء المطاط الذي اعتادت ان تلبسه ـ فظيع!

"وحزن الجميع في فيرتينيكي على المرأة. ولم يشك احد منهم بخارلام. وهل يمكنك ان تلومهم؟ لم يكن هذا معقولاً. فقد اعوزته الجرأة. ولو كان هو الذي فعل الامر، لهرب بعيداً من هنا.

"وسُرَّ القولاق في القرية بحادث القتل. واغتنموه فرصة لاثارة الفوضى. فقالوا: "انظروا ما يفعله بكم اهل المدن! فعلوا ذلك لارهابكم فلا تخبئون غلالكم ولا تدفنون البطاطا. هل تظنون ان قطاع الطرق من اهل الغابات هم الذين قتلوها؟ انتم مجانين. انكم تفعلون ما يأمركم به اهل المدن. فهم يضمرون لكم الأسوأ، وسيأخذون منكم كل شيء ويدعونكم تموتون جوعاً. لو كنتم تعرفون خيركم لأصغيتم الينا، فنحن نهديكم سواء السبيل. عندما يأتون ليأخذوا ما جنيتموه بعرق جبينكم قولوا لهم، ليس عندنا حبة قمح، ناهيكم بالفائض. واذا ما حركوا ساكناً، فاستعملوا فؤوسكم. ومن يقف في وجه القرية عليه ان يتركها."
ثم راح وجهاء القرية يعقدون الاجتماعات ويتحدثون في الامر، وهذا ما كان يريده خارلام. وللحال ذهب الى المدينة يذيع الخبر. قال: "ليتكم ترون ما يجري في القرية، وماذا انتم ستفعلون؟ لجنة من الفلاحين الفقراء، هذا ما نريد. اصدروا الامر وسرعان ما اجعلهم ينقضون بعضهم على بعض". ثم توجه الى مكان ما ولم يظهر في ربوعنا ابداً.

"وما جرى بعد ذلك انما جرى من تلقاء نفسه. لم يشِ احد بشيء. ولا لوم على احد. أرسل الجيش الاحمر من المدينة وأُقيمت محكمة.

وابتدؤوا بي. كان هذا بسبب ما اخبرهم خارلام. فقد اتهموني بانني عصيت الاوامر فهربت من اشغال السخرة، وبانني قتلت المرأة وحرضت اهل القرية. وحبسوني، ولكني فكرت لحسن الحظ ان ارفع احد اخشاب ارض الغرفة واهرب. واختبأت في احد الاقبية. وأُحرقت القرية فوق رأسي ـ لم ارها ابداً، وامي اغرقت نفسها في حفرة من الجليد دون ان اعرف. حدث كل شيء من تلقاء نفسه. وضعوا رجال الجيش الاحمر في احد البيوت منفردين وسقوهم شراباً فسكروا حتى غابوا عن الوعي. وصدف ان التهب البيت في الليل، وانتشرت النار منه الى البيوت الاخرى، من واحد الى آخر. وعندما اندلعت النيران قفز اهل قريتنا منها وهربوا بعيداً. ولكن اهل المدينة ـ تذكر جيداً، لم يلقهم احد في النار ـ ماتوا كلهم، بالطبع، حرقاً. ولم يقل احد لاهل قريتنا ان يهربوا او ان يبتعدوا بعيدين عن بيوتهم المضطرمة، ولكنهم خافوا ان يحدث شيء آخر. ونشر القولاق شائعة تقول ان كل عاشرِ رجل سيعدم. وعندما خرجت من القبو، كانوا كلهم قد ذهبوا، لم اجدْ احداً، انهم يهيمون على وجوههم في مكان ما."

٥

وصل الدكتور وفاسيا الى موسكو في ربيع عام ١٩٢٢ في مطلع عهد السياسة الاقتصادية الجديدة. وكان الطقس جميلاً ودافئاً. وكانت اشعة الشمس تنزلق على قباب كنيسة المخلّص الذهبية وتمرح على الساحة تحتها حيث نبتت الاعشاب في الفسحات بين الاحجار المرصوفة على الارض.

وكان المنع المفروض على الاعمال الخاصة قد رُفع وسُمح بالتجارة على نطاق ضيق محدود. فكانت الصفقات تتم على مستوى ما يبيعه

صاحب حانوت في سوق الخضروات. وقد ادى هذا الى السمسرة وسوء الائتمان. ولم تخلق هذه المضاربات أي ثروة جديدة، كما انها لم تؤثر في ازالة فقر المدن، ولكن الثروات الحقيقية كانت تجمع من اعادة بيع الحاجات التي بيعت من قبل بسعر يفوق باثني عشر ضعفاً سعرها الاساسي.

وانزل عدد من اصحاب المكتبات الخاصة كتبهم من على الرفوف وجمعوها كلها في مكان واحد. واعلموا مجلس سوفيات المدينة بعزمهم على انشاء مكتبة تعاونية. وطلبوا اعانة فحصلوا على اذن باستخدام احد مخازن الاحذية او الازهار التي كانت فارغة واقفلت منذ الايام الاولى للثورة، وهناك اخذوا يبيعون مجموعاتهم الصغيرة التي جمعت كيفما اتفق.

وكانت نساء الاساتذة اللواتي كن في الايام الصعبة الماضية يخبزن في الخفاء خبزاً ابيض ويبعنه رغم قوانين الحظر، يقمن بهذا العمل الآن جهاراً في احد دكاكين اصلاح الدراجات او في دكان آخر كان قد صودر وترك دون استعمال، طيلة هذه الاعوام: لقد غيرن آراءهن وقبلن الثورة وتركن لهجة النبلاء.

وفي موسكو قال يوري اندرييفيتش:

"فاسيا، عليك ان تجد عملاً."

"اريد ان اتعلم."

"هذا امر مفروغ منه."

"هناك شيء آخر اريد ان اقوم به وهو ان ارسم صورة امي من الذاكرة."

"هذه فكرة حسنة ايضاً. ولكن عليك اولاً ان تعرف الرسم. هل جربت من قبل؟"

"عندما كنت اتعلم الصناعة عند خالي، كنت العب بالفحم وهو غير منتبه."

"جيد، لم لا؟ سنرى ما يمكن عمله."

ولم تبد على فاسيا مهارة كبرى في الرسم، ولكن كان له منها ما يكفيه لدخول معهد للرسم الصناعي. وتمكن يوري اندرييفيتش بمعونة اصدقائه ان يدخله معهداً يدعى معهد ستروغانوف فتابع دروساً في الثقافة العامة ثم اختص بعد ذلك بالطباعة والتجليد ورسم الكتب.

وتعاون الدكتور وفاسيا معاً. فكان الدكتور يضع كراريس في مواضيع مختلفة وفاسيا يخرجها ويطبعها بكميات قليلة كجزء من تدريبه في المعهد، ثم توزع بعد ذلك على محلات بيع الكتب العتيقة التي افتتحها اصدقاؤهما مؤخراً.

واحتوت هذه الكراريس فلسفة يوري اندرييفيتش وآراءه في الطب، وتعريفه للصحة والمرض، وتأملاته في نظرية التطور، ونظرته في التفرد كأساس بيولوجي للعضوية، وافكاراً في الدين والتاريخ (كانت قريبة من افكار خاله وافكار سيما)، واشعاراً، وقصصاً قصيرة، وريبورتاجات عن منطقة بوغاتشيف التي زارها.

وكانت هذه الكراريس مكتوبة بلغة سهلة، ولكنها لم تكن مؤلفات شعبية تستسيغها الجماهير، ذلك انها قدمت آراء تحتمل الجدل وينقصها الدليل والبرهان، رغم ما كانت تتصف به من حيوية وجدة. وقد راجت هذه الكراريس بسرعة بين المهتمين بجمع الكتب.

وفي تلك الايام اصبح كل شيء اختصاصاً، حتى النظم وفن الترجمة. وكتبت دراسات نظرية في كل المواضيع الممكنة، واسست المعاهد يمنة ويسرة. ونشأت انواع مختلفة من "قصور الفكر" و"اكاديميات الافكار الفنية". وعمل يوري اندرييفيتش كمشاور طبي لنصف هذه المؤسسات الثقافية المزيفة.

وبقي هو وفاسيا صديقين يعيشان معاً مدة طويلة، وانتقلا خلال هذه الفترة من مكان متداع الى مكان متداع آخر. وكانت كلها غير قابلة

للسكن وغير مريحة.

وزار يوري أندرييفيتش فور وصوله الى موسكو بيته القديم في سيفتسيف فراشوك. وهناك علم أن عائلته لم تسكن فيه عندما رجعت الى موسكو. وبعد ترحيلهم اعطيت الغرف المسجلة باسمهم لسكان جدد، ولم يكن هناك أي اثر لحوائجهم. وقد تجنب الجيران يوري اندرييفيتش واعتبروا معرفتهم به امراً خطراً.

ولم يعد ماركل هناك. لقد عظم شأنه في الدنيا فعين مدير بناية في "حي الطحين". ووضع بيت المدير تحت تصرفه، لكنه آثر كوخ البواب القديم الذي كانت ارضه من التراب وفيه مياه جارية ومدفأة روسية كبيرة. وكانت انابيب البناية تنفجر في الشتاء، ولكن كوخ البواب كان دائماً جافاً ودافئاً، ولم تكن المياه تتجمد فيه ابداً.

ثم جاء وقت فترت فيه الصداقة بين يوري اندرييفيتش وفاسيا. وكان فاسيا قد نما بشكل مدهش. فلم يعد يتكلم مثل الفتى الحافي القدمين، المشعث الشعر، المغطى بالاسمال، النازح من فيرتنيكي. فالحقائق التي تفتقر الى برهان والتي اعلنتها الثورة، قد جذبته واستهوته شيئاً فشيئاً، وأصبح كلام الدكتور، بما فيه من غموض وخيال يقع عليه وكأنه صوت الخطأ، الهالك، الذي يعي ضعفه فيعمد الى مجانبة الصراحة.

وكان الدكتور يطرق ابواب مختلف الدوائر الحكومية محاولاً ان يحصل لعائلته على الرضا السياسي، وعلى اذن بإعادتهم الى روسيا. وفي الوقت ذاته طلب لنفسه جوازاً بالخروج من البلاد للذهاب الى باريس والعودة مع عائلته منها.

وعجب فاسيا كم كانت جهوده في هذا السبيل فاترة ولا حماس فيها. وكان يوري اندرييفيتش يستعجل الجزم بأنه لم يصل الى نتيجة، ويتكلم بكثير من الاقتناع بل حتى من السرور عن عدم جدوى القيام

بأي مسعى آخر.

ووجد فاسيا اخطاء متزايدة كل يوم.. ومع ان يوري اندرييفيتش لم يثر حين كان يوجّه اليه نقد محق، فقد اخذت علاقته مع فاسيا تنهار شيئاً فشيئاً. وأخيراً فصمت عرا الصداقة بينهما وافترقا. وغادر الدكتور الغرفة التي تقاسمها مع فاسيا وانتقل الى "حي الطحين" حيث كان ماركل ذا نفوذ قوي، فأفرد له زاوية خلفية في البيت الذي كان سابقاً بيت سفنتستسكي. وكانت هذه الزاوية تتألف من غرفة حمام مهملة، وغرفة اخرى ملاصقة لها ذات شباك واحد، ومن سطح متداع، ومدخل متساقط. وبعد ان انتقل يوري اندرييفيتش اليها، ترك الطب، وأهمل نفسه، وتوقف عن زيارة اصدقائه، وعاش في فقر مدقع.

٦

كان ذلك يوم احد قاتم من ايام الشتاء. كانت اعمدة الدخان تتصاعد من السطوح وخيوطه السوداء تتسرب من النوافذ التي كانت لاتزال تستعمل، رغم القوانين، كمخرج لأنابيب المدافئ المعدنية. ولم يكن قد عاد الى حياة المدن بهاؤها. ولطالما بقي سكان "حي الطحين"، دون استحمام، يشكون الزكام والبثور.

وكان ماركل شابوف وعائلته في البيت، كعادتهم ايام الآحاد.

كانوا يتناولون الغداء على طاولة مطبخ واسعة. فعلى هذه الطاولة نفسها، في الايام الماضية، زمن تقنين الخبز، كانت كل قسائم سكان البناية تُجمع وتُقطع وتُحصى وتُفرق وتُلف في قطعة ورق أو تُربط معاً حسب انواعها قبل ان تُؤخذ الى الخباز.. وهنا ايضاً في الصباح كانت الأرغفة تُقطع وتُقسم بحسب الوزن المقنن لكل ساكن. ولكن هذا كله قد اصبح الآن من ذكريات الماضي. فقد استبدل تقنين الخبز بوسائل اخرى من

المراقبة واصبح آل شابوف يأكلون في وجبة الظهر كفايتهم ويمضغون بشهية.

كان الموقد الروسي الواسع يملأ نصف الغرفة. وقد انتصب في الوسط وقام على سطحه العلوي سرير، وتدلت بعض الاغطية على جانبيه.

وكان قرب الباب حنفية لم يكن الماء فيها متجمداً. وكانت المقاعد تصطف على جانبي الغرفة، وتحتها اغراض العائلة في صناديق ولفائف. وكانت الطاولة الى اليسار وعليها لوح مسطح.

وكانت الغرفة دافئة جداً، وكان الموقد يعمل بأقصى شدته وقد وقفت اغافيا زوجة ماركل امامه مرفوعة الاكمام الى ما فوق المرفقين، وفي يدها ملقط طويل تحرك به القدور داخل الفرن، فتقربها بعضها من بعض، او تبعدها حسب الحاجة. وكان وجهها المتعرق مضاءً جزئياً بلهب الفرن وغائماً في البخار. ودفعت القدور الى جانب واحد ثم اخرجت من خلفها كعكة على لوحة من حديد، قلبتها رأساً على عقب، وارجعتها لتنضج. ودخل يوري اندرييفيتش حاملاً معه سطلين.

"صحة وعافية."

"اهلاً وسهلاً، اجلس وتناول غداءك معنا."

"شكراً، تناولت غدائي."

"نعرف ما تدعوه غداء. لماذا لا تجلس وتأخذ شيئاً حاراً؟ هذا طعام لا يثير في نفسك القرف -انه طعام جيد، بطاطا مطبوخة، كاشا."

"لا، شكراً... أتأسف لأنني تركت الباب مفتوحاً فأدخلت البرد. سآخذ من الماء قدر ما أستطيع. لقد نظفت جرن الحمام وسأملؤه مع المغسلة. سأنقل الماء مرات عديدة فلن أزعجكم لمدة طويلة. اعذروني لاقلاق راحتكم هكذا، ولكنني لا أجد ماء في أي مكان آخر."

"افعل ما تريد. لو طلبت شراباً محلى لقلنا انه غير موجود، أما

الماء فهو كثير. خذ قدر ما تريد، ولن نحاسبك عليه!"

وضحكوا جميعاً.

وعندما جاء يوري اندرييفيتش للمرة الثالثة لكي يملأ سطليه الخامس والسادس، تغيرت اللهجة.

"سألني اصهاري عنك، فأخبرتهم. ولكنهم لم يصدقوني. استمر في اسالة الماء، لا تتوقف من جراء كلامي. ولكن اياك ان تبلل بها الأرض ايها الغشيم! الا ترى انك بللت العتبة؟ اذا تجمد، فما انت الذي ستزيل الجليد. اغلق الباب جيداً ايها المخبول، البرد يندفع منه. نعم، أخبرتهم من انت ولكنهم لم يصدقوا. المال الذي انفق عليك! كل هذا العلم، والى اين اوصلك، اريد ان اعرف؟"

وعندما رجع يوري اندرييفيتش للمرة الخامسة أو السادسة، همهم ماركل قائلاً:

"مرة واحدة اخرى وكفى. هناك حدود لكل شيء، يا شيخ. لو لم تكن طفلتنا الصغيرة مارينا تحبك لكنت اقفلت الباب في وجهك، مهما كان اصلك كريماً. انت تذكر ابنتنا مارينا، أليس كذلك؟ هذه هي، السمراء الجالسة على آخر الطاولة. لقد احمر وجهها، انظر. لا تجرح شعوري، هذا ما كانت تقوله. كأنما هناك من يريد ان يجرح شعورك. انهاعاملة تلغراف في مكتب البريد المركزي -وهي تعرف لغات أجنبية. قالت: انه سيء الحظ. انها متألمة جداً لأجلك، وهي لا تتورع ان تحرق أو تغرق نفسها في سبيلك!كأنني انا الملام في انك أصبحت هكذا فقيراً معدماً! ما كان يجب ان تهرب الى سيبيريا تاركاً بيتك في وقت سيء. انها خطيئتك. انظر الينا هنا -تدبرنا امرنا رغم المجاعة وحصار البيض لنا، فلم ننهزم- وها نحن هنا، ما زلنا صحيحين سالمين. عليك أن تلوم نفسك. لو انك اعتنيت بتونيا لما كانت الآن تموت في بلاد غريبة. هذه مسألة تخصك، ما همني انا منها؟ ولكن ما اريد فقط ان اعرفه، اذا

سمحت، هو ماذا ستفعل بكل هذا الماء؟ اتريد ان تصنع حلبة للتزلج ام ماذا؟ بئسك وبئس ماؤك! لا استطيع حتى ان اغضب عليك، وانت ما انت، خرقة مبللة!"

وللمرة الثانية ضحكوا جميعاً. اما مارينا فنظرت حولها غاضبة، واخذت توبخهم. ودهش يوري اندرييفيتش من نبرة صوتها، رغم انه لم يعرف السبب.

"ماركل، البيت تنقصه النظافة، عليّ ان امسح الارض واغسل بعض حوائجي ايضاً."

ودهش آل شابوف.

"ألا تخجل من نفسك من القول انك ستفعل ذلك بنفسك؟ لعلك ستنتهي الى فتح محل للغسل والكي!"

وقالت اغافيا: "دعني ارسل ابنتي اليك، فتقوم بغسل اغراضك ومسح الارض واصلاح ثيابك عند الحاجة. لا تخافي منه ياعزيزتي. سترين كم هو مهذب، انه لا يؤذي ذبابة."

"ما هذه الفكرة، يا اغافيا تيخونوفنا! انا لا اطمح بان تقوم مارينا بمسح ارض بيتي. لماذا يجب عليها ان توسخ يديها من اجلي؟ سأتدبر الامر بنفسي."

وتدخلت مارينا قائلة: "انت توسخ يديك، اما انا فلا يجوز لي ذلك؟ أهذا ما تقصد اليه؟ لماذا هذا العناد يا يوري اندرييفيتش؟ هل تطردني حقاً اذا صعدت لزيارتك؟"

كان بامكان مارينا ان تصبح مغنية. فقد كان لها صوت صاف، متزن، قوي، واسع. لم ترفع صوتها حين تتكلم، ولكنه بدا اقوى مما اقتضته المحادثات العادية؛ وكان كأنما له حياة خاصة به، وانه لم يمت اليها بصلة، او انه أتى من ورائها او من الغرفة المجاورة. هذا الصوت هو حمايتها، ملاكها الحارس. ليس هناك من يريد ان يؤذي امرأة لها

مثل هذا الصوت.

وبدأت صداقة بين الدكتور ومارينا منذ ما نقل الماء في ذلك الاحد. فغالباً ما كانت تأتي لمساعدته في اعماله البيتية. وفي يوم من الأيام مكثت عنده ولم تعد الى الكوخ. وهكذا أصبحت زوجة يوري اندرييفيتش الثالثة رغم انه لم يكن قد طلق زوجته الاولى، ولم يسجلا زواجهما. وانجبا اولاداً. وتحدث ماركل واغافيا عن ابنتهما، بشيء من الاعتزاز، على انها زوجة الدكتور. وقال الاب ليس هناك زواج صحيح، لا في الكنيسة ولا عند الكاتب العدل؛ ولكن زوجته قالت: "هل جننت؟ ان تونيا لا تزال حية وهذا يعتبر تعدداً للزوجات." فأجاب ماركل: "انك لغبية. ما دخل تونيا في هذا؟ انها تُعتبر كأنها ميتة. ليس هناك من قانون يحميها."

وقال يوري اندرييفيتش مازحاً احياناً: ان زواجهما قصة غرام في عشرين سطلاً من الماء، مثل رواية من عشرين فصلاً.

وغفرت مارينا للدكتور شذوذه، والفوضى والاوساخ التي كان ينثرها في البيت. فقد كان، في مزاجه وعاداته، أشبه برجل يرخي العنان لنفسه وهو يعرف ذلك. وكانت مارينا تتحمل تذمره وثوراته وضيق صدره.

وذهبت في اخلاصها الى ابعد من ذلك. ففي بعض الفترات اصبحا في عوز شديد بسبب اخطائه، ولكي لا تدعه وحيداً في مثل هذه الظروف كانت تترك وظيفتها في مكتب البريد حيث لاقى عملها تقديراً كبيراً. ولكنها كانت تعاد اليه مرات خلال تغيبها المستمر. ورضخت لنزوات يوري اندرييفيتش فخرجت معه تقوم باعمال صعبة من بيت الى بيت، يقطعان الحطب لعدد من السكان. فقد كان بعضهم، لاسيما اولئك الذين اثروا في بدء عهد السياسة الاقتصادية الجديدة، والفنانين، والعلماء المقربين من الحكومة، قد جهزوا بيوتاً على مستوى مريح جداً.

وذات يوم كان يوري اندرييفيتش ومارينا يسيران بحذر في حذاءين من لباد لكي لا ينثرا الثلج فوق السجادة، وهما يحملان الحطب الى مكتب مستأجر جلس بكبرياء يقرأ في كتاب ولا يشرفهما بنظرة واحدة. وكانت زوجته هي التي أعطت الاوامر وهي التي نقدتهما اجرتهما.

وتساءل الدكتور: "في أي شيء يزج هذا الخنزير انفه؟" وكان الرجل يكتب بحنق على هوامش كتابه. وفيما كان يوري اندرييفيتش يمر بجانبه وهو يحمل ربطة من الحطب، نظر من فوق كتفيه؛ فاذا على الطاولة مجموعة من الطبعات الاولى للكراريس التي كان قد الفها هو ونشرها فاسيا.

٧

كان يوري اندرييفيتش ومارينا يعيشان الآن في شارع سبيريدونوفكا، وكان غوردون يعيش في غرفة في شارع ماليابرونايا قريباً منهما. ورزقت مارينا والدكتور بنتين: كابكا (كابيتولينا) وعمرها خمس سنوات، وكلاشكا (كلوديا) وعمرها ستة اشهر فقط.

وكان مطلع صيف عام ١٩٢٩ حاراً جداً. واخذ الجيران يتزاورون دون قبعات، وقد اكتفوا بارتداء قمصانهم.

وكانت غرفة غوردون جزءاً من بناء غريب استخدم في السابق واجهة لمحل خياط. وكان المحل مؤلفاً من طابقين يتصلان بسلم حلزوني ويطلان على الشارع من خلال نافذة زجاجية واسعة كان الخياط قد كتب عليها اسمه بأحرف من ذهب.

اما الآن، فقد قسمت الواجهة الى ثلاث. واستحدثت بوساطة الالواح الخشبية غرفة اضافية حشرت في المسافة بين المستويين العلوي والسفلي. وكان لها ما يمكن ان يسمى، بالنسبة لغرفة جلوس، نافذة

عجيبة علوها ثلاث اقدام تبدأ من على سوية ارض الغرفة، وببعض احرف ذهبية باقية. وقد كان باستطاعة الناظر من الخارج ان يرى من خلال المسافة بين الاحرف، أي شخص في الغرفة حتى ركبتيه. هذه كانت غرفة غوردون. وكان معه في هذه اللحظة جيفاكو، ودودوروف، ومارينا والطفلتان اللتان كانتا بخلاف الكبار تظهران تماماً من خلال الزجاج. وبعد قليل انصرفت مارينا مع الطفلتين ,وبقي الرجال وحدهم.

كانوا يتبادلون احدى تلك الاحاديث الصيفية الكسولة البطيئة التي تجري عادة بين رجال درسوا معاً وخلفوا وراءهم سنوات عديدة من الصداقة.

لكي يتمكن الشخص من ان يتحدث بشكل طبيعي وبذكاء، كان يجب عليه ان يحوز ذخيرةً كافية من الكلمات. وبين هؤلاء الثلاثة كان يوري اندرييفيتش وحده مستكملاً لهذا الشرط.

اما الاخران فكانا دائماً يحسان بنقص في التعبير. لم تكن لهما موهبة البلاغة. وعند الافتقار الى الكلمات كانا يذرعان الغرفة جيئة وذهاباً، وينفخان سيكارتيهما، ويشيران بايديهما ويرددان ما قالاه. "هذا، يا شيخ، غير شريف! غير شريف، اجل، هذا بالضبط، غير شريف."

ولم يكونا متنبهين الى ان مثل هذه الفورات الفاجعة، لم تكن تدل على حرارة وعمق طباعهما بقدر ما كانت تدل على فقر ذهني.

لقد عاش كل من غوردون ودودوروف بين اكاديميين مثقفين، وأمضيا حياتيهما بين كتب جيدة، ومفكرين ممتازين، ومؤلفين بارعين، وموسيقا جيدة كانت كذلك بالأمس وظلت هكذا اليوم (فهي جيدة دوماً!)، ولم يدركوا ان سوء طالع المرء ذي الذوق القليل هو اسوأ بكثير من سوء طالع من ليس له ذوق على الاطلاق.

ولم يدرك أي من غوردون او دودوروف ان لومهما لجيفاكو لم يصدر

عن الرغبة المحبة في التأثير على سلوكه بقدر ما صدرت عن عجزهما عن التفكير بحرية وتوجيه الحديث حسب ارادتهما. فقد كان الحديث يقودهما كالعربة الجامحة الى حيث لم يريدا ان يذهبا. ولما كانا غير قادرين على قيادتها، فقد تحتم عليهما، عاجلاً أم آجلاً، ان يصطدما بشيء ويصابا بعطب. وهكذا خرجا في وعظهما مراراً وتكراراً عن سواء السبيل.

ورأى جيفاكو بجلاء بواعثهما اللاشعورية، وعاطفتيهما المصطنعة، وتفكيرهما المجهد. ولكنه لم يكن بامكانه ان يقول لهما: "يا صديقي العزيزين، كما انتما عاديان -انتما ومن لف لفكما، الاسماء والمراجع التي تستشهدان بها دوماً، بريقهما وفنهما اللذان تعجبان به كثيراً! البريق الوحيد والشيء الحيوي فيكما هو انكما معاصران لي ومن اصدقائي!" كيف يمكن لشخص ان يعترف بمثل هذه الافكار؟ إذاً، لم يكن امامه الا الاصغاء بصبر وأناة، كي لا يجرح مشاعرهما.

وكان دودوروف قد عاد مؤخراً من منفاه الاول وأعيدت اليه حقوقه المدنية وسمح له باستئناف عمله العادي في الجامعة.

وكان الآن يخبر صديقيه عن اختباراته كمنفي. تكلم بصدق دون رياء. لم يكن يؤثر فيه الخوف، لقد آمن حقاً بكل ما كان يقول.

قال إن حجج النيابة العامة، ومعاملته في السجن وبعد خروجه منه، لاسيما احاديثه الشخصية مع قاضي التحقيق، قد "هوّت" عقله، واعادت تثقيفه سياسياً وفتحت عينيه على كثير من الاشياء التي لم يرها من قبل، وأنضجته كشخص.

وأعجبت هذه الآراء غوردون لانها كانت عادية. فهز رأسه بعطف ووافق دودوروف على كل ما قاله. وكانت عامية المشاعر والتعابير هي التي تهزه فاغتر بتأملات دودوروف عن المشاعر المفروضة واخذها على انها تعبير اصيل عن الانسانية.

وكان هراء دودوروف المؤمن يتمشى مع العصر. ولكن ما اثار يوري اندرييفيتش هو بالضبط مماشاتهما وتقديسهما الشفاف. وفكر ان من ليسوا احراراً، يفلسفون قيودهم دائماً. هذا ما حدث في القرون الوسطى، وهكذا استغل اليسوعيون فيما بعد هذه الظاهرة الانسانية. ولم يكن بامكان جيفاكو ان يحتمل التصوف السياسي عند المثقفين السوفيات رغم انهم كانوا يرون في ذلك اعظم ما حققوه، او قل بلغة ذلك الزمان: "منتهى الارتفاع الروحي للعصر." وهذا ايضاً حفظه لنفسه لكي لا يجرح شعور صديقيه.

وكان اكثر ما اثار اهتمامه في قصة دودوروف ما سرده عن زميل له في الزنزانة يدعى بونيفاتي اورلستوف وهو من اتباع تيخوف بطريرك موسكو. لقد كان لاورلستوف ابنة في السادسة من عمرها تدعى كريستينا. وكان توقيف والدها ومصيره المقبل ضربة شديدة عليها. ورأت في تعابير مثل: "راهب رجعي" و"غير متحرر" سمات الحقارة. وشعر دودوروف انها صممت في حرارة الطفولة ان تزيل هذه الآثار عن اسم عائلتها. وهذا الهدف، الذي تصورته في سن مبكرة وغذته بتصميم لاهب، جعل منها الآن بطلة من ابطال المُثُل الشيوعية.

وقال يوري اندرييفيتش: "يجب ان اذهب، يا ميشا، لا تحقد علي. الجو حار وخانق هنا. يجب ان أتنشق بعض الهواء."

"ولكن النافذة مفتوحة، انظر الى الارض... متأسف. لقد دخنا كثيراً من السكاير. اننا لانزال ننسى انه يجب علينا ألاّ ندخن بوجودك معنا هنا. انا لا ألام اذا كان الجو خانقاً هنا؛ اللوم يقع على الطريقة السخيفة التي صنعت بها النافذة. يجب ان تجد لي غرفة اخرى."

"ميشا، يجب ان اخرج. تكلمنا كثيراً. شكراً لاهتمامكما... انا لا اتصنع، كما تعرفان. انه مرض اصبت به، تصلب في القلب. جدران العضلة القلبية أصبحت أقلّ سماكةً مما كانت، وقد تنفجر يوماً من

الأيام. إنني لم أبلغ الأربعين بعد، كما تعرفان، وليس الامر كما لو كنت مدمناً على الخمر او انني اشعل الشمعة من طرفيها!"

"هراء! اننا لا نعزف موسيقا جنازتك، انك ستعيش اكثر منا."

"لقد اصبحت الاصابات بمختلف انواع النزف المجهري في القلب كثيرة في السنوات الاخيرة. هذا الداء ليس دائماً مميتاً. كثيرون ينجون منه. انه مرض نموذجي حديث. واظن ان اسبابه تتصل بالخُلق. فعلى معظمنا ان يعيشوا على الدوام حياة ثنائية منتظمة. وصحتك تتأثر اذا اضطررت، يوماً بعد يوم، لأن تقول عكس ما تحس، ان تنحني امام ما تكره، ان تفرح بما لا يجلب لك الا الشؤم. جهازنا العصبي ليس خرافة، انه جزء من جسدنا، وروحنا توجد في المكان وفي داخلنا، كالاسنان في فمنا. لا يمكن ان يُعتدى عليها باستمرار دون عقاب. لقد وجدت من المؤلم ان استمع اليك يا اينوكانتي وانت تسرد كيف اعيد تثقيفك وكيف نضجت في السجن. فكأنما كنت استمع الى مهر يصف كيف روّض نفسه."

وقال غوردون: "يجب ان أدافع عن دودوروف؛ انت لم تعد تألف معاني الكلمات الانسانية البسيطة، لقد اصبحت فوق متناول فهمك."

"لعل هذا صحيح يا ميشا. ولكن على كل حال يجب ان تدعني اذهب الآن. انني لا اتنفس الا بصعوبة. اقسم انني لا ابالغ."

"انتظر لحظة. انك تفتش عن اعذار. لن ندعك تذهب قبل ان تعطينا جواباً صريحاً صادقاً. هل توافق او لا توافق على انه قد حان الوقت لتغير طرقك وتصلح نفسك؟ ماذا ستفعل بهذا الشأن؟ اولاً يجب ان توضح موقفك من تونيا ومارينا. هما كائنان انسانيان، امرأتان تحسان وتتألمان، لا وجود لأفكار غير مجسدة الا في ذهنك. وثانياً، انها لفضيحة ان ينتهي رجل مثلك الى الضياع. عليك ان تستيقظ وتطرح عنك خمولك وتجمع نفسك وتنظر الى الاشياء دون هذه العجرفة التي لا

مبرر لها؛ اجل، اجل، دون هذا الاستعلاء الذي لا يُغتفر نحو الجميع. يجب ان تعود الى العمل وتزاول مهنتك من جديد."

"حسناً سأعطيكما جوابي. كنت أفكر بشيء من هذا القبيل مؤخراً، وانني اعدكما جاداً بحدوث تغيير، واظن ان كل شيء سيكون على ما يرام، وبعد وقت قريب، سوف تريان. انني اقصد ذلك كلياً. لقد بدأت أشعر بنهم لا يوصف لأن احيا، وان يحيا المرء يعني دائماً ان يسعى للسير صعداً نحو الكمال، وان يحققه.

"يسرني دفاعك، يا ميشا، عن مارينا، كما دافعت دائماً عن تونيا. ولكني لم اتخاصم مع أي منهما. انني لست في حرب معهما او مع أي انسان آخر. كنت تلومني اول الأمر، لأن مارينا كانت تخاطبني بضمير الجمع وتدعوني يوري اندرييفيتش، بينما كنت اخاطبها بضمير المفرد وادعوها "مارينا"، كأنما هذا الأمر لا يحزنني انا ايضاً! ولكن هل تعلم ان الاسباب العميقة لهذا التصرف غير الطبيعي قد زالت منذ زمن بعيد، ونحن الآن نعامل، واحدنا الآخر، على قدم المساواة؟

"والآن؛ سأطلعكما على خبر سار آخر. انني اتسلم رسائل من باريس. الطفلان يكبران، ولهما عدد من الاصدقاء الفرنسيين في مثل سنهما. ساشا يوشك ان ينهي المدرسة الابتدائية، وماشا ستدخلها عما قريب. انني لم ارها ابداً، كما تعلمان؛ واشعر رغم كل شيء، ورغم اكتسابها الجنسية الفرنسية، بانهم جميعاً سيعودون، وستستقيم الامور على نحو ما.

"ويبدو ان تونيا ووالدها يعرفان عن مارينا واولادنا. فانا لم اخبرهما في رسائلي، ولكن لعلهما سمعا بالخبر من آخرين. ومن الطبيعي أن يشعر الكسندر الكسندروفيتش كوالد انه أُهين وجُرحت كرامته. وقد يفسر هذا انقطاع المراسلة حوالي خمس سنوات. كنت اراسلهما، كما تعرفان، بعد عودتي الى موسكو ثم انقطعا فجأة عن

الكتابة.

"والآن، فقد عـادوا الى الكتـابة كلهم، حتى الولدان. انهم يكتـبون بحرارة وعاطفة. ولسبب ما لانوا. فلعل تونيا وجدت شخصاً آخر، وكم اتمنى من كل قلبي ان يكون الامر كذلك. لا ادري. انا ايضاً اكتب من وقت لآخـر... انما لا يمكنني حـقـاً ان امكث بعـد. يجب ان اذهب والا أصبت بنوبة. وداعاً."

وفي الصبـاح التـالي ركضت مـارينا الى غـوردون، وهي فـي ألم شديد. لم يكن عندها من تتركه مع الطفلين فحملت الصغرى على يدها مدثرة بأغطيتها، ودفعت بيدها الاخرى، كابكا، التي راحت تسير خلفها وهي تجر قدميها.

"ميشا، هل يوري هنا؟، سألت بصوت خائف.

"ألم يعد الى البيت في الليلة الماضية؟"

"كلا."

"يجب ان يكون قد امضى الليل في بيت اينوكانتي."

"انني آتية من هناك. اينوكانتي في الجامعة، ولكن الجيران يعرفون يوري وقالوا انه لم يكن هناك."

"اين يمكن ان يكون إذاً؟"

ووضعت مارينا ابنتها على المقعد وراحت تنتحب بجنون.

٨

بقي غـوردون ودودوروف مـدة يومين لا يجـرآن على ترك مـارينا وحدها بل تناوبا امر مـراقـبتـهـا والتـفـتـيش عن الدكـتـور. وخـابرا كل الاماكن التي يعقل ان يكون قد ذهب اليهـا -حي الطحين، سيـفتـسيف فراجوك، كل قصور الفكر واكاديميات الافكار التي عمل فيها، وسألا

كل صديق له سمعاه يتكلم عنه وتمكنا من اكتشاف عنوانه- ولكن دون جدوى.

ولم يخبرا الشرطة بأنه مفقود. ورغم انه كان مسجلاً وليس له أي سجل عدلي، فقد كان من الافضل عدم اثارة انتباه السلطات لشخص لم يكن يعيش تبعاً لمقاييس ذلك الوقت، حياة مثالية. وقررا ألاّ يرسلوهم في اثره الا كمخرج اخير.

وفي اليوم الثالث وصلت لهم جميعاً رسائل من يوري اندرييفيتش ومن اماكن مختلفة -لغوردون، ودودوروف، وماربنا. لقد أسف للازعاج والحزن اللذين سببهما لهم، ورجاهم ألاّ يقلقوا عليه، وناشدهم بكل مقدس ان يوقفوا تفتيشهم عنه قائلاً انه على كل حال عديم الجدوى.

واخبرهم انه رغب، لكي يعيد بناء حياته كلياً وسريعاً، ان يصرف بعض الوقت لنفسه، منهمكاً في اعماله، وانه عندما يتمركز في عمل ما ويصبح متأكداً من انه لن يعود الى طرقه القديمة، فسوف يترك مخبأه ويعود الى مارينا والطفلتين.

واخبر غوردون بأنه قد ارسل اليه حوالة مالية لمارينا، ويرغب اليه ان يؤمن مربية للطفلتين لتتمكن مارينا من العودة الى العمل. وشرح له انه لم يرسل المال الى عنوانها خوفاً من ان يعرف بذلك احد فتتعرض للسرقة.

وجاء المال بعد وقت قليل، وكان المبلغ يفوق مستوى يوري وصديقيه. واستُخدمت المربية وعادت مارينا الى العمل في مركز البريد. وكانت مارينا لا تزال شديدة الاضطراب، ولكنها، وقد اعتادت على شذوذ يوري اندرييفيتش، فقد اجبرت نفسها على قبول آخر نزواته. واستمر الثلاثة يفتشون عنه، ولكنهم وصلوا رويداً الى النتيجة التي نبههم اليها، وهي ان التفتيش عنه لن ينفع. وهكذا عجزوا عن الوصول الى أي اثر له.

٩

ومع ذلك، فقد كان على مرمى حجر منهم. كان يعيش تحت اعينهم وانوفهم، ولم يكن عليهم ان يبتعدوا عن الشارع ليجدوه.

ففي يوم اختفائه فارق غوردون وذهب الى شارع برونايا قبل الغسق بقليل.. ثم عاد مباشرة نحو البيت، ولكنه قبل ان يصل اليه بحوالي مئة خطوة واجه شقيقه ايفغراف قادماً نحوه. ولم يكن قد رآه او سمع عنه منذ اكثر من ثلاث سنوات. ثم تبين له ان ايفغراف كان قد وصل منذ لحظة الى موسكو؛ وقد جاء، على عادته، بغتة؛ وكان يتجنب الرد على جميع الاسئلة بابتسامة او نكتة. على انه، من ناحيته، تمكن من خلال الاسئلة القليلة التي طرحها على يوري اندرييفيتش ان يدرك صلب مشاكله دفعة واحدة؛ وهناك، وهما يسيران معاً بين زاوية واخرى، في الشارع الضيق المزدحم، وضع على الفور مخططاً عملياً لنجدته. فكانت فكرة اختفاء يوري اندرييفيتش واختبائه زمناً ما، هي فكرته.

واستأجر له غرفة في شارع كامرجر، كما كان لايزال يدعى، قرب مسرح الفنون. وأعطاه مالاً. وعمل على تأمين مركز محترم له في احد المستشفيات، مع المجال الواسع لإتمام أبحاثه، ثم إنه ساعده برعايته. وأخيراً أعطاه وعداً بأن يحلّ مشكلة عائلته في باريس. فإما ان يذهب يوري اندرييفيتش اليهم او يأتون هم اليه. كل هذا تعهد ايفغراف بان يقوم به بنفسه. وقد اعطت هذه المساعدة ليوري اندرييفيتش، كالعادة، املا جديداً. وظل سر نفوذ ايفغراف دفيناً، ولم يحاول يوري اندرييفيتش ان يكتشفه.

١٠

كانت غرفته تتجه نحو الجنوب، وتكاد تحاذي المسرح وتطل على السطوح المقابلة. والى الوراء، كانت شمس الصيف تقف فوق اخوتني رياد فيقع الشارع تحتها في الظلال.

وكانت الغرفة في نظر يوري اندرييفيتش اكثر من مكان عمل، اكثر من مكتب. ففي هذه الفترة من النشاط الأكال، حين كانت كومة الدفاتر فوق طاولته اصغر من ان تستوعب كل مشاريعه وافكاره فيبقى بعضها حائماً في الهواء كالمرئيات -كما تدار وجوه الصور التي لم تكتمل بعد نحو الجدران في مرسم الفنان- كانت غرفته بالنسبة اليه مقصفاً للافكار، وخزانة الاحلام المجنونة، ومستودع الرؤى.

ولحسن الحظ ابطأت نتيجة مفاوضات ايفغراف مع المستشفى، فكان موعد ابتداء يوري اندرييفيتش بالعمل يتأجل باستمرار. لقد اعطاه هذا التأخير فرصة للتأليف.

بدأ بمحاولة اخراج قصائده الاولى التي كان لايزال يذكر بعض مقاطعها او التي تمكن ايفغراف ان يحصل له على نصها (كان بعض هذه المخطوطات عنده، والبعض الآخر نسخها آخرون)، ولكن فوضى المواد جعلت همته تثبط اكثر مما كان هو يميل بطبيعته الى ثبوط الهمة. فلم يلبث ان تركها وانصرف الى عمل آخر.

كان يكتب مسودةً لمقال، كالملاحظات التي كتبها عندما ذهب للمرة الاولى الى فاريكينو، او يكتب منتصف او نهاية او اول قصيدة حسبما اتت الى ذهنه. ومر في اوقات كان من الصعب عليه ان يلحق بافكاره، حتى بطريقة الاختزال التي تألفت من احرف واختصارات.

كان مستعجلاً؛ فاذا ما استرخت مخيلته، حفزها برسم على هوامش دفاتره. وكانت الرسوم دوماً تمثل التحطيب في الاحراج، او مفارق

الطرق، وقد ظهر عليها لافتات: "مورو وفيتشينكين، زرّاعات ميكانيكية. درّاسات."

وكانت جميع المقالات والاشعار ذات موضوع واحد: المدينة.

١١

هذه الملاحظات وجدت فيما بعد بين أوراقه:

"عندما رجعت الى موسكو عام ١٩٢٢ وجدتها مهجورة ونصف خربة. هكذا خرجت من عذاب الاعوام الاولى بعد الثورة، وهكذا لاتزال حتى اليوم. لقد نقص سكانها، ولم يُبنَ أي بيت جديد، والبيوت القديمة قد أهملت.

"ولكنها حتى في هذا الحال، لاتزال مدينة حديثة كبرى، والمدن هي ينبوع الوحي الوحيد لفن حديث حقاً.

"ان الخليط المتنافر الاعتباطي للاشياء والافكار في آثار الرمزيين (بلوك، فيرهارن، هويتمان) ليس نزوة بيانية. انه نظام جديد للانطباعات أُخِذَ مباشرة من الحياة.

"وكما يستعجلون تتابع الصور في ابيات قصائدهم، هكذا يمر بنا الشارع في مدينة صاخبة وهو يزدحم بالناس والعربات كما في نهاية القرن الماضي، او بالسيارات والقاطرات في مطلع هذا القرن.

"البساطة الريفية مفقودة في هذه الظروف. وعندما يحاولها بعضهم، تكون مسحتها الفنية المزيفة خدعة ادبية، كأنما هي انتهاك ادبي غير موحى به من الريف بل مأخوذ من بطون المحفوظات الاكاديمية. ان لغة عصرنا الحية التي ولدت عفوياً وطبيعياً بالتوافق مع روحه، هي لغة المدينة.

"اسكن على مفترق مزدحم. فموسكو التي اعمتها الشمس والحرارة

البيضاء المنبعثة من ساحاتها المرصوفة بالاسفلت، وانتشرت انعكاسات الشمس على نوافذها العليا، وراحت تستنشق زهوة الغيوم والشوارع، تضج من حولي، تدير رأسي وتطلب مني ان ادير رأس الآخرين بكتابة قصائد المديح لها. فلأجل هذا الغرض، تعهدتني موسكو وعملت مني فناناً.

"الضجيج الدائم ليلاً ونهاراً في الشوارع خارج جدراننا يلازم الروح العصرية كما تلازم المقاطع الاولى من افتتاحية الاوبرا ستار المسرح، فهي تبدأ مجهولة ومظلمة، لكنها سرعان ما تصطبغ رويداً رويداً بلون قرمزي تحت اشعة الانوار السفلى. والمدينة التي تتحرك وتهدر دون توقف خارج ابوابنا ونوافذنا، ليست الا مدخلاً واسعاً الى حياة كل واحد منا. بمثل هذه التعابير اريد ان اكتب عن المدينة."

ولم يكن هنالك أي قصائد كهذه بين ما أبقاه الزمن من مؤلفات جيفاكو. أو لعل تلك التي عنوانها "هملت" تمتُّ الى هذه المجموعة؟

١٢

في صباح يوم ما من اواخر آب، استقل يوري اندرييفيتش من امام زاوية شارع غازتني حافلة النقل التي تصعد على طول شارع نيكيتا حتى نهاية الخط في كودرنيسكايا. كان ذاهباً للمرة الاولى الى عمله في مستشفى بوتكين الذي كان يعرف آنذاك باسم مستشفى سولداتنكوف. وكان قد ذهب الى هناك من قبل، مرة او مرتين، لسبب يتعلق بعمله.

ولم يسعده الحظ بتلك الحافلة. كان لها محرك معطوف فظلت تتوقف لمختلف الاسباب.. إما أن تسد طريقها عربة نقل سقطت احدى عجلاتها في خط السكة الحديدي، أو أن يطرأ عطل على العازل فوق سقفها أو تحت أرضها فينقطع التيار مرسلاً قرقعة أو بريق نار.

وكان السائق يقفز من الفسحة الامامية ويدور حول الحافلة حاملاً بيده مفتاحاً، وينحني ليعالج الآلات بين الفسحة الخلفية والعجلات.

وعطلت الحافلة المشؤومة السير على طول الخط. وكان الشارع يعج بحافلات أخرى كانت قد توقفت هي بدورها، وأخرى لاتزال تنضم إليها. ووصل آخر الصف حتى مدرسة الفرسان وما بعدها. وانتقل بعض الركاب من الحافلات الخلفية الى الحافلة الأمامية وهم يأملون ان يكسبوا وقتاً، فدخلوا إلى الحافلة التي كانت أصل السبب. كان صباحاً حاراً والحافلة مزدحمة وخانقة. وفوق الجماهير الراكضة في الشارع من حافلة إلى أخرى كانت غيمة ليلكية داكنة تزحف متصاعدة في الفضاء. كانت العاصفة تتجمع.

وجلس يوري اندرييفيتش على مقعد منفرد لجهة اليسار، وقد التقص بالنافذة. وكان بامكانه ان يرى الجهة اليسرى من شارع نيكيتا حيث الكونسرفاتوار. وبشرود ذهن من يفكر في شيء آخر، راح يراقب الناس وهم يسيرون على الجانب الآخر من الشارع، دون أن يفوته واحد منهم.

وكانت سيدة مسنة، رمادية الشعر، تعتمر قبعة خفيفة من القش عليها ازهار اقحوان من الكتان وتلبس ثوباً ليلكياً ضيقاً قديم الزي، تسير مسرعة على الشارع المرصوف وهي تلهث وتروّح على وجهها برزمة مسطحة تحملها في يدها. وكان العرق، لشدة ضيق ثوبها وارهاق الحر لها، يبللها وهي لا تنفك تمسح شفتيها وأجفانها المبللة بمنديل صغير.

وكان سيرها موازياً لسير الحافلة، وفقدها يوري اندرييفيتش مراراً من أمام ناظريه، حتى كانت الحافلة تعاود سيرها فتجتازها. وظهرت له الآن من جديد عندما تعطلت الحافلة مرة اخرى، فاستطاعت ان تلحق بها.

وفكر يوري اندرييفيتش بمسائل الحساب المدرسي، وفي جملتها هذا

السؤال: متى وكيف يصل قطاران يخرجان من نقطتين مختلفتين ويسيران بسرعتين مختلفتين الى مركز وصولهما؟ وحاول أن يتذكر الطريقة العامة لحل هذه المسائل، ولكنه لم يتمكن فانتقل من هذه الذكريات المدرسية الى أخرى ثم الى تأملات أكثر تعقيداً.

وحاول أن يتمثل عدداً من الناس تسير حياتهم سيراً متوازياً وحميماً، انما، بسرعة متفاوتة، وتساءل في أي ظروف يلحق بعضهم بالاخرين ويعيشون بعدهم. وخطر له شيء كنظرية النسبية يدير حلبة الحياة، غير أن ذهنه تشوش فتخلى عن مشابهاته.

ولمع البرق وتعالى هزيم الرعد. وتعطلت الحافلة المشؤومة للمرة التاسعة؛ لقد توقفت في منتصف سفح التلة بين كودرينسكايا وحديقة الحيوانات. وظهرت السيدة ذات الثوب الليلكي في اطار النافذة، ثم تجاوزتها. ونزلت أولى قطرات المطر الثقيلة على الشارع، والرصيف، والسيدة. وعصفت ريح قوية بين الأشجار، فصفعت الأوراق، واطارت قبعة السيدة، ونفخت ثوبها، ثم خمدت فجأة.

واحس الدكتور بنوبة غثيان. وتغلب على ضعفه فنهض من مقعده وجرّ شريط النافذة الى الأعلى والأسفل محاولاً أن يفتح الشباك. ولكنه لم يقدر على تحريكه.

وصرخ الناس به ان النافذة مسمّرة، ولكن الدكتور، في صراعه ضد النوبة التي أصيب بها وقد أخذه نوع من الذعر، لم ينتبه الى ان الناس كانوا يخاطبونه أو إلى معنى كلماتهم. وظل يحاول أن يفتح الشباك فشد الشريط ثلاث مرات بعنف - الى الأعلى والأسفل ونحو صدره. وفجأة أحس بألم حاد أشد من أي ألم أحس به من قبل، وادرك أن شيئاً ما قد انفجر فيه؛ - وانه اتى امراً لا يعوّض، مميت، وان هذه كانت النهاية. وفي هذه اللحظة تحركت القافلة، ولكنها بعد أن سارت شوطاً قصيراً في شارع برسنيا توقفت مرة أخرى.

وبقوة ارادة تفوق طاقة البشر، اندفع يوري اندرييفيتش خلال الحشد المرصوص الى الممر الوسط وهو يترنح ويتعثر، ثم خرج الى الفسحة الخلفية؛ وسدّ عليه الناس طريقه وحدقوا فيه. وكأنما انعشه الهواء الطلق فظن ان كل شيء لم يضع بعد؛ انه احسن حالاً.

وراح يشق طريقه خلال الحشد في الفسحة الخلفية، فيتلقى الصدمات ويستفز الاهانات. وخرج من الجمهور متجاهلاً صيحات التذمر، ونزل من الحافلة الواقفة الى الشارع، وسار خطوة، وخطوتين، وثلاثاً، ثم سقط على رصيف الشارع، ولم ينهض مرة أخرى.

وثارت ضوضاء من الكلام والنقاش والاقتراحات، وقفز بعض الناس من الحافلة واحاطوا به. وسرعان ما اكتشفوا انه لم يكن يتنفس وان قلبه قد توقف عن الخفقان. وانضم الى الجماعة المحيطة بالجسد آخرون جاؤوا من الأرصفة، بعضهم شعروا بالارتياح والبعض الآخر قد خاب املهم لأن الميت لم يدهس وان موته لم يكن له علاقة بالحافلة. واتسع الحشد، وجاءت السيدة ذات الثوب الليلكي أيضاً، ووقفت لحظة، ونظرت الى الجثة، واصغت الى الحديث ثم اكملت سيرها. كانت اجنبية، ولكنها فهمت ان بعضهم أراد أن يضع الجثة في الحافلة ويأخذها الى المستشفى، بينما ارتأى آخرون استدعاء رجال الشرطة. ولم تنتظر لتعرف النتيجة.

كانت السيدة ذات الثوب الليلكي من التابعية السويسرية؛ وكانت تدعى الانسة فلوري، من ميليوزئيف، وقد أصبحت الآن هرمة، هرمة جداً. وكانت، لمدة اثني عشر عاماً، تكتب الى السلطات في موسكو طالبة منها اذناً بالعودة الى بلادها، وأخيراً اعطيت هذا الاذن. وكانت قد جاءت الى موسكو لتأخذ تأشيرة الخروج، وها هي الآن في طريقها الى سفارة بلادها لتأخذها وهي تروّح اثناء سيرها بوثائقها التي جمعت وربطت بشريط. وهكذا سارت ولحقت بالحافلة للمرة العاشرة دون ان

تدرك انها قد لحقت بجيفاكو وعاشت بعده.

١٣

من خلال باب الممر المفتوح كان بالامكان رؤية جانب من الغرفة والطاولة التي كانت تعترض الزاوية. كان التابوت على الطاولة، وكأنه قارب لم ينحت جيداً. وكان مصوباً نحو الباب من طرفه الضيق المنخفض الذي حمل قدمي الجثة. وكانت الطاولة هي تلك التي انجز عليها يوري اندرييفيتش كتاباته، ولم يكن في الغرفة سواها. فقد وضعت المخطوطات جانباً في أحد الادراج، والتابوت على ظهرها. وكان رأسه يرتفع على تلة من المخدات وجسده يتمدد في التابوت، كأنه كان على سفح تلة.

وكان محاطاً بازهار كثيرة جداً، باقات كاملة من الليلك الأبيض، النادر الوجود في مثل هذا الفصل، ومن أنواع أخرى وضعت في سلال وأوعية. وحجبت الزهور الضوء من النوافذ. فكان النور يتسرب ضعيفاً من خلال الأزهار على الوجه الشمعي واليدين والجسد وخشب التابوت وأكفانه. وامتدت الظلال على الطاولة في شكل أوراق وأغصان كأنما توقفت لتوها عن الاهتزاز.

وكانت عادة حرق الموتى قد انتشرت كثيراً في تلك الأيام. وأملاً في الحصول على اعانة للطفلتين وتأمين تعليمهما بالاضافة الى وظيفة مارينا في مركز البريد، فقد تقرر الاستغناء عن الجناز الكنسي والاكتفاء بحرق مدني. وكانت السلطات المختصة قد أعلمت بالأمر، وكانوا بانتظار ممثليها.

وبدت الغرفة في هذه الأثناء فارغة كشقة خالية بين ذهاب مستأجرين ومجيء آخرين. ولم يكن السكون ينقطع الا بوقع خطوات

المعزين البطيئة، وقد دخلوا على رؤوس اصابعهم ليلقوا نظرة الوداع الأخيرة على الفقيد. لم يكونوا كثيرين، ولكنهم كانوا أكثر على كل حال مما كان منتظراً. وكان بينهم عدد ممن عرفوه في مختلف مراحل حياته مع أنه فقد اتصاله بهم فيما بعد ونسيهم. وجذبت أشعاره ومؤلفاته العلمية عدداً أكبر من الأصدقاء المجهولين الذين لم يجتمعوا بالرجل من قبل، ولكنهم انجذبوا إليه وجاؤوا الآن ليلقوا عليه النظرة الأولى والأخيرة.

وفي هذه الساعات، حين أصبح السكون الذي لم ترافقه أي مراسم، مرهقاً كأنه فراغ يكاد أن يكون ملموساً، عوضت الأزهار وحدها عن غياب الطقوس والأناشيد.

كان أثرها أشد من تفتُّحها وطيب رائحتها. لعلها كانت تستعجل العودة الى التراب فسكبت عبيرها كما في جوقة، واذ ضمخت كل شيء به، بدت كأنها تقوم بمهمة الصلاة عن روح الميت.

من السهل ان نتصور مملكة النبات على أنها أقرب شيء الى مملكة الأموات. ولعل أسرار التطور واحجيات الحياة التي تحيرنا كامنة في نبات الأرض، بين أشجار المقابر وازهارها. فمريم المجدلية لم تعرف يسوع القائم من القبر، "فظنت تلك انه البستاني..."

١٤

عندما نقل جثمان يوري اندرييفيتش الى الشقة في شارع كامرجر (وكان هذا آخر عنوان مسجل له)، دخل اصدقاؤه، وقد أُعلموا بوفاته فصعقوا بها، رأساً من الباب المفتوح على مصراعيه ومعهم مارينا. فما كان من مارينا الا أن ألقت بنفسها على الأرض، وقد افقدتها الصدمة والأسى عقلها، وراحت تضرب يديها على حافة الصندوق الخشبي

الطويل الموضوع في البهو، حيث تمددت الجثة ريثما يحضر التابوت (الذي كان قد اوصي بصنعه) وتُسوّى غرفة الجلوس. كانت تسبح في فيض من الدموع، تارة تهمس وطوراً تصرخ، وقد خنقتها كلماتها وتعالى عويلها ونحيبها. وكانت تعرب عن حزنها بسيل من الكلام، كما يفعل الفلاحون، فلا يلهيها ولا يزعجها وجود الغرباء. والتصقت بالجثة ولم يكن من السهل ابعادها عنها عندما حان الوقت لحملها الى الغرفة وغسلها ووضعها في التابوت. كل هذا حدث في اليوم السابق. أما اليوم فقد همد عنف حزنها وحلّ مكانه خدر حزين؛ لقد جلست بصمت رغم أنها لم تكن تعي تمام الوعي نفسها وما أحاط بها.

هنا كانت قد أمضت بعض اليوم الفائت وطول الليل دون ان تترك الغرفة اطلاقاً. والى هنا جيء لها بالطفلة لترضعها، كما جاءت كابكا مع المربية الشابة وذهبتا.

وكان صديقاها غوردون ودودوروف يلازمانها وهما أيضاً ذاهلان حزينان. وكان والدها ماركل يجلس الى جانبها على المقعد ينتحب ويمسح أنفه بمنديله بصوت مرتفع. وكانت أمها واخواتها النائحات يأتين ويذهبن.

وكان بين الجماعة شخصان.. رجل وامرأة واقفان بعيداً عن الآخرين. ولم يظهر انه كان لهما أي علاقة بالميت أشد وثوقاً من علاقة الآخرين به. ولم يتباريا في الحزن مع مارينا واخواتها والاصدقاء. ولكن مع انهما لم يظهرا ما دلّ على حقوقهما الا انهما كانا ولابد يتمتعان بحقوق خاصة تجاه الميت، ولم يناقش أحد أو ينازع السلطة الخفية التي فرضاها دون حساب. لقد كان هذان الشخصان هما اللذان أخذا على عاتقيهما على ما يبدو، أمر ترتيب الجنازة، وعالجا جميع الأمور منذ البدء بهدوء عجيب، كأنما كان الأمر يعود عليهما بالرضا والارتياح. كان هدوؤهما ملحوظاً وقد احدث انطباعاً غريباً، فكأنما كانا مهتمين لا بالجنازة فقط،

بل بالميتة أيضاً، ليس بمعنى انهما سبباها مباشرة أو غير مباشرة بل كمن وافق عليها الآن وقد حدثت، فتقبلها، ولم ير فيها أهم حدث جرى في سيرة حياة جيفاكو. كان القليل من المشيعين يعرفونهما، وقليل آخرون منهم خمنوا من هما، أما الأغلبية فلم يكن لهم أي فكرة عنهما.

ومع ذلك فحين دخل الغرفة هذا الرجل الذي أعربت عيناه الكُرجيتان الضيقتان عن التساؤل وأثارتاه، والمرأة الجميلة الى جانبه، نهضوا جميعهم، بمن فيهم مارينا، دفعة واحدة، دون اعتراض، كأنما بموجب اتفاق سابق، من أماكن جلوسهم على الكراسي والمقاعد الموضوعة صفاً واحداً تجاه الجدار، وخرجوا متجمهرين في الممر والبهو تاركين الاثنين منفردين، خلف باب نصف مغلق، كخبيرين كانا بحاجة الى الهدوء لاتمام شيء ذي صلة وثيقة بالجنازة، وذي خطورة قصوى.

هكذا كانت الحال الآن: لقد بقيا منفردين، فجلسا على كرسيين قرب الحائط وبدأ فجأة يتكلمان.

"ماوراءك، يا ايفغراف اندرييفيتش؟"

"الحرق سيتم الليلة. خلال نصف ساعة سيأتون من نقابة عمال الطب ليأخذوا الجثة وينقلوها الى ناديهم. المراسم المدنية ستجري في الرابعة. لم تكن أي ورقة من معاملاته منظمة، بطاقة عمله كان انتهى امدها، وكان معه بطاقة قديمة من النقابة لم يستبدلها بواحدة جديدة، والرسوم المتوجبة عليه لم تدفع منذ سنوات. كل هذا كان يجب أن يُسوّى، ولذلك أخذتُ وقتاً طويلاً. وقبل أن يأخذوه - وهذا قريب جداً، يجب ان تتهيأ - سأتركك وحيدة هنا، كما طلبت... أسِفٌ، دق جرس التلفون. سأعود بعد لحظة."

وخرج ايفغراف الى الممر المزدحم بزملاء الدكتور، واصدقاء الدراسة، والموظفين الصغار في المستشفى، وببعض اصحاب دور النشر. ووضعت مارينا ذراعيها حول طفلتيها تغطيهما بطيات معطفها الذي القته على

كتفيها (كان يوماً بارداً)، وقد جلست على حافة المقعد الخشبي تنتظر عودتها الى غرفة الجلوس كما ينتظر زائر ذهب ليرى سجيناً سماح الحرس له بالدخول. وكان الممر والبهو مزدحمين. وكان الباب الخارجي مفتوحاً وعدد كبير من الناس يقفون أو يسيرون وهم يدخنون عند المدخل. ووقف آخرون يتحدثون على درجات السلم الذي كان يقود الى الطابق الأرضي، وكلما هبطوا السلم واقتربوا من الشارع، ارتفعت أصواتهم وازدادت حريتهم.

ووضع ايفغراف يده على السماعة واجهد نفسه ليصغي من خلال الهمس المستمر. كان يتكلم بصوت مخنوق مجيباً على اسئلة نقلها الهاتف تتعلق بمراسم الجنازة وظروف وفاة الدكتور. ثم رجع الى غرفة الجلوس فاستؤنف الحديث.

"ارجوك ألاّ تختفي بعد الحرق يا لاريسا فيودوروفنا. أنا لا أعرف أين تقيمين، لا تغيبي دون ان تدعيني اعرف. سأطلب منك معروفاً كبيراً. فأنا أريد بأسرع وقت ممكن ـ غداً أو بعد غد ـ أن أبدأ باخراج أوراق اخي. وسأحتاج الى مساعدتك. أنت تعرفين الكثير عنه، لعلك تعرفين أكثر من أي شخص آخر. قلت لي انك وصلت من اركوتسك منذ يومين فقط ولن تبقي وقتاً طويلاً، وانك تأتين الى هنا لأسباب أخرى، دون ان تعلمي ان هذه الشقة قد أصبحت شقة أخي في الأشهر الأخيرة او ان أمراً ما حدث له. أنا لا أفهم كل ما قلته، وأطلب منك تفسيراً، ولكن ارجوك ألاّ تبتعدي دون ان تتركي لي عنوانك. ولعله من الأفضل لو قضينا الأيام القليلة التي نحتاج اليها لمراجعة المخطوطات في غرفة واحدة أو على الأقل في مكان قريب، لربما في غرفتين اخريين من هذا البيت. يمكن تدبير هذا الأمر، فانا اعرف المدير."

"تقول انك لم تفهم ما قلت. ماذا هناك لتفهمه؟ وصلت الى موسكو، واودعت حوائجي في المحطة، ومشيت في احد شوارع موسكو

القديمة. نصفها لم اتمكن من معرفته؛ لقد مضى زمن طويل على غيابي فنسيت. حسناً، مشيت ومشيت، هبطت كوزنتسكي موست وصعدت كوزنتسكي بيريولوك وفجأة رأيت شيئاً مألوفاً كثيراً - شارع كامرجر. هناك كان زوجي انتيبوف، الذي قتل، يقطن وهو تلميذ - في هذا البيت وفي هذه الغرفة نفسها التي نجلس فيها، أنت وأنا الآن. وخطر لي أن ادخل، من يدري لعل السكان القدامى لايزالون هناك، سأفتش عنهم، وكما ترى، لم أكن أعلم أن كل شيء قد تغير - فلا يتذكر أحد حتى اسماءهم - ولم اكتشف هذا الامر الا فيما بعد، اليوم التالي وهذا اليوم، عندما سألت الناس. ولكنك كنت هنا، ولست أدري لماذا اخبرك. لقد صعقت - الباب مفتوح على مصراعيه والناس يملؤون المكان، تابوت في الغرفة، رجل ميت. من هو؟ ودخلت وصعدت ونظرت. وظننت أنني فقدت عقلي. ولكنك كنت هنا فرأيتني، ألم ترني؟ لماذا يا ترى أروي لك كل هذا؟"

"مهلاً، يا لاريسا فيودروفنا، يجب ان اقاطعك. لقد اخبرتك بأنه لم يخطر ببالنا، لا أنا ولا أخي، أن هناك شيئاً غريباً يتعلق بهذه الغرفة - مثلاً، ان انتيبوف كان يقطن هنا. ولكن ما قلته الآن يدعو الى الاستغراب. سآتي على ذلك بعد لحظة وفيما يتعلق بانتيبوف، ستريلنيكوف، فقد كنت في بدء الحرب الاهلية اسمع عنه دائماً، تقريباً كل يوم، وقد قابلته مرتين او ثلاث مرات دون ان ادرك بالطبع ان اسمه سيصبح ذا مغزى كبير لي لأسباب عائلية. ولكن اعذريني، قد اكون اسأت فهمك، ظننت انك قلت - وقد يكون ذلك زلة لسان - انه قتل. يجب ان تعلمي انه انتحر؟"

"نعم، سمعت هذه الرواية ولكنني لا اصدقها. بافل بافلوفيتش لم يكن الرجل الذي ينتحر."

"ولكن هذا أكيد. انتحر انتيبوف، في ذلك البيت حيث قال أخي

انك كنت تعيشين قبل ان ترحلي الى فلاديفوستوك. حدث ذلك بعد سفرك بقليل. أخي وجد جثته، ودفنه. كيف لم تعلمي بذلك؟"

"لقد أخبرت بشيء مختلف. أصحيح إذاً انه انتحر؟ الناس يقولون ذلك ولكنني لم اصدق، وفي ذلك البيت نفسه؟ لا يبدو هذا ممكنا. هذه التفاصيل خطيرة جداً في نظري. اظن انك لا تعرف اذا كان قد اجتمع بجيفاكو، او اذا كان تعرف احدهما على الآخر؟"

"دار بينهما حديث طويل، كما اخبرني يوري."

"هل هذا ممكن! حسناً، شكراً للرب، شكراً للرب، هذا أفضل."

ورسمت انتيبوفا شارة الصليب على صدرها ببطء. "أي مصادفة غريبة. كانت هذه ـ كأنها أمر مقدّر! هل تسمح لي بالعودة الى هذا الموضوع فيما بعد لأسألك عنه أكثر؟ كل تفصيل عزيز علي. ولكن المقام الآن لا يسمح، اليس كذلك؟ لا استطيع، انني جد مضطربة. سأرتاح قليلاً فأهدأ واستعيد أفكاري. ماذا تظن؟"

"حقاً! حقاً!"

"ألا تظن هذا بالفعل؟"

"نعم، بالطبع."

"اوه، نعم، كدت انسى، طلبت مني ألاّ ابتعد عنك بعد الحرق. حسناً، أعدك. لن اختفي. سأعود معك الى هنا، وابقى ما تشاء ومادام بقائي ضرورياً. سنراجع مخطوطات يوروشكا، سأعاونك. صحيح، قد أكون مفيدة لك. سيريحني هذا كثيراً. أعرف خطه جيداً وكل مصطلحاته، اعرفه بقلبي وبدم حياتي. ثم ان لدي ما أريد أن أطلبه منك أيضاً. سأحتاج الى معونتك. ألست محامياً؟ أو على كل حال، مطلعاً على العرف الحاضر والقوانين جميعها. انني أريد أن أعرف الى أي دائرة حكومية يجب ان اتوجه للحصول على بعض المعلومات. قليلون هم الذين يمكنهم ان يعرفوا شيئاً كهذا. أليس كذلك؟ سأحتاج الى مشورتك بشأن

أمر فظيع، فظيع حقاً. انه بشأن طفل. سنتحدث عن هذا فيما بعد، بعد رجوعنا من المحرقة. كان علي طوال حياتي ان افتش عن أشخاص. اخبرني، افرض انه في حالة وهمية، توجب عليّ التفتيش عن طفل، طفل اعطي لأغرابٍ كي يهتموا بتربيته، هل هناك مصدر مركزي للمعلومات عن بيوت الاطفال في كل البلاد؟ هل هناك سجل لكل الضائعين والمشردين؟ وهل عملوا شيئاً من هذا القبيل او حاولوه؟ لا، لا تقل لي الآن، ارجوك. سنتحدث عن هذا فيما بعد. انني جد خائفة. الحياة مرعبة ـ أليس كذلك؟ انا أعرف ماذا أفعل حين تأتي ابنتي وتلتحق بي، ولكنني الآن لا أرى لماذا لا أقطن هذه الشقة. لكاتيا موهبة ممتازة في الموسيقا والتمثيل؛ انها مدهشة في تقليد الأشخاص، وهي تمثل مشاهد كاملة تضعها بنفسها، وتغني اناشيد كاملة من الاوبرا، كلها بالسماع. انها طفلة مدهشة، أليس كذلك؟ أريدها أن تذهب الى الصفوف الابتدائية، إما في معهد التمثيل أو في الكونسرفاتوار، أي منهما يقبلها، ويجب علي ان اطلب منحة، لهذا جئت بدونها الآن، لاضع الترتيبات، وعندما انتهي من كل شيء، عندئذ اعود. الأمور معقدة، الا ترى ذلك، ولا يمكنك ان تشرح كل شيء. ولكننا سنتحدث عن هذا فيما بعد. والآن سأنتظر لحظة لاجمع نفسي، سأهدأ واستجمع أفكاري وأجرب أن أنسى همومي. هذا فضلاً عن أننا حجزنا اصدقاء يوري خارج الغرفة طويلاً. وقد خيل الي مرتين ان احدهم يقرع الباب. فهناك شيء يدور في الخارج، لعلهم أتوا لأخذ الجثة. سأبقى هنا هادئة لحظة، ولكن من الأفضل أن تفتح الباب وتدعهم يدخلون. لقد حان الوقت، أليس كذلك؟ انتظر، انتظر. يجب ان توضع درجة قرب التابوت والا فانهم لن يتمكنوا من الوصول الى يوروشكا. حاولت ذلك على رؤوس اصابعي، ولكنه صعب جداً. مارينا ماركلوفنا والطفلتان سوف يحتجن اليها. فضلاً عن ان ذلك مذكور في الطقوس: "وسوف تقبلني القبلة الأخيرة." أوه، انني لا

احتمل. هذا أمر فظيع، أليس كذلك؟"

"سأدعهم يدخلون. انما لي ما أقوله لك قبل أن افعل. لقد أثرت عدداً من المسائل وطرحت كثيراً من الاسئلة التي لابد أن تكون مؤلمة لك حتى اصبحت لاأدري ما أقول. على أن هناك امراً واحداً أريدك أن تعرفيه. أرجوك أن تعتمدي على مساعدتي في كل شيء. اني أقدمها لك عن طيب خاطر، ومن كل قلبي. واذكري أيضاً: يجب ألاّ تيأسي ابداً، وتحت كل الظروف. واجبنا في الملمات ان نأمل ونفعل. أما ألاّ نفعل شيئاً وان نيأس فهذا إهمال لواجبنا، انا الآن ذاهب لأدخل المعزين. معك حق فيما يختص بوضع درجة امام النعش، سأحضرها."

ولكن انتيبوفا لم تكن تصغي الى ما يقول، ولم تسمعه وهو يفتح الباب أو تسمع الناس وقد اندفعوا الى الداخل من الممر، او التعليمات وقد اعطيت لحملة التابوت وكبار المعزين؛ ولم تسمع ايضاً همهمة الجماعة، ولا نحيب مارينا، ولا سعال الرجال، ولا عويل النساء ونحيبهن.

وجعلها الصوت المستمر المتواتر تحس بأنها مريضة زائغة. واستعانت بكل قوتها لكي لا تسقط، فكان قلبها يتفجر ورأسها يؤلمها. وخفضت رأسها واستغرقت في ذكريات وتأملات وافتراضات. لقد هربت اليها، وغرقت فيها، كأنما حملت الى الامام لوقت ما، لعدة ساعات في مستقبل ما قد لا تعيش لتراه، مستقبل زاد في عمرها بضعة عقود من السنين، مستقبل أصبحت فيه امرأة هرمة. وبدا لها انها لامست في افكارها عمق اعماق شقائها.

"لم يبق احد. مات واحد، واحد انتحر. اما ذلك الذي كان يجب ان يقتل فقد بقي وحده حياً، ذلك الذي حاولت ان اقتله رمياً بالرصاص فاخطأته، ذلك الغريب الذي لا يشترك معي بشيء، ذلك الصفر التام الذي احال حياتي الى سلسلة من الجرائم التي كانت فوق متناول علمي،

وها ان ذلك الوحش المنحط يهيم على وجهه في طرقات آسيا الاسطورية التي لا يعرفها الا هواة الطوابع، فلم يبق لي أحد من أولئك المقربين الي والذين احتاج اليهم.

"آه، كان ذلك في عيد الميلاد ، كنت قد قررت ان اقتل ذلك المسخ المبتذل عندما اجريت ذلك الحديث في هذه الغرفة نفسها وقد اضاءتها شمعة، مع باشا الذي كان لايزال فتى؛ ولم يكن يورا الذي يأخذون جسده الآن قد ظهر في حياتي بعد."

واجهدت ذاكرتها لتعيد تركيب حديثها ذاك مع باشا ، ولكنها لم تقدر أن تتذكر شيئاً الا الشمعة التي كانت تحترق عند قاعدة النافذة وتذيب بقعة مستديرة من الطبقة الجليدية على الزجاج.

فهل حزرت ان يوري، الذي يتمدد جثمانه على الطاولة، كان قد رأى الشمعة وهو يسير في العربة ولاحظها ، وان حياته، منذ اللحظة التي رأى فيها نورها من الشارع ("شمعة تحترق على الطاولة، شمعة تحترق...") قد اتخذت طريقها المشؤوم؟

وتبعثرت افكارها. وفكرت: "من المؤلم ألاّ يقام له قداس كنسي. مراسم الدفن عظيمة وذات ابهة! انها اكثر مما يستحق معظم الناس عندما يموتون، ولكنها تليق تماماً بيوروشكا! انه يستحق كل ذلك، وهو يبرر ويعطي معنى "للنواح على القبر الذي هو نشيد هليلويا."

واحست الآن بموجة من الاعتزاز والراحة، كما احست دائماً عندما كانت تفكر بيوري وفي أثناء الفترات القصيرة من حياتها التي أمضتها بجانبه. وقد كانت، الآن أيضاً، مغلفة بهذا الجو من الحرية والانعتاق الذي كان دائماً يشع منه. ونهضت من كرسيها بفارغ صبر. شيء ما لا يفهم كان يحدث فيها. لقد ارادت، ولو للحظات قليلة، ان تتحرر بمعونة يوري وتنطلق في الفضاء، بعيداً عن الاحزان التي تسجنها، ان تحس من جديد بغبطة الخلاص. وبدا لها ان مثل هذه الغبطة هي غبطة الاستئذان

منه لتذهب، غبطة استعمال الحق واغتنام الفرصة لتبكيه حتى ترتوي، دون حائل. وبعجلة محمومة، نظرت في الجمع حولها بعينين موجعتين، لا تريان، تملؤهما الدموع كأنما وضع الطبيب فيها قطرة محرقة، فأخذ الناس يتحركون ويهمسون ويخرجون من الغرفة تاركينها اخيراً منفردة وراء باب نصف مقفل. وصعدت نحو الطاولة التي وضع التابوت عليها، ورسمت شارة الصليب على صدرها، وارتقت الدرجة التي جلبها يفغراف وصلبت فوق الجثة ثلاث مرات وضغطت شفتيها على الجبهة الباردة واليدين. وصرفت عن خاطرها احساسها بان الجبين البارد كان أصغر قليلاً من قبل، كيد منكمشة في شكل قبضة، وتمكنت ألاّ تلاحظ ذلك. ووقفت لحظة وهي صامتة جامدة، لا تفكر ولا تبكي، منحنية على التابوت والازهار والجثة، تغطيها كلها بمجمع وجودها، برأسها، بصدرها، بقلبها، بذراعيها الكبيرتين كقلبها.

١٥

لقد هزتها شهقاتها المكبوتة. لقد قاومت دموعها قدر ما استطاعت، ولكنها كانت في بعض الأحيان أقوى منها فانفجرت وهطلت على خديها وثوبها ويديها والتابوت الذي التصقت به.

لم تتكلم ولم تفكر. وتتابع سيل من الأفكار والرؤى والنظرات والحقائق وأبحر في ذهنها كالغيوم في الفضاء، كما حدث مراراً من قبل في أثناء احاديثهما الليلية. كانت أمثال هذه الأشياء هي التي جلبت لهما السعادة والخلاص في تلك الأيام. تفاهم عفوي، متبادل، حار، غريزي، مباشر.

مثل هذا التفاهم ملأها الآن.. انها المعرفة الداكنة الغامضة بالموت، التهيؤ للموت، وهو تهيؤ يزيل كل شعور بالعجز والقنوط في حضرته.

فكأنما قد عاشت عشرين حياة، وفقدت يوري مرات لا تعدّ، وجمعت من هذه الاختبارات القلبية ما جعل كل ما احسته وفعلته قرب هذا التابوت صحيحاً تماماً وكاملاً.

أوه، أي حب كان هذا.. حرّ، فريد، لا مثيل له على الارض! لقد كانت أفكارهما أشبه ما تكون بأناشيد الآخرين.

لقد أحب واحدهما الآخر، لا بدافع الحاجة، ولا بتأثير "لهب الشهوة" الذي طالما وصف به الحب عن خطأ. لقد احب واحدهما الآخر لأن كل شيء حولهما اراده. الاشجار والغيوم والسماء فوق رأسيهما والأرض تحت أقدامهما. ولعل العالم المحيط بهما، والغرباء الذين صادفوهما في الشارع، والفضاء المتسع الذي شاهداه في نزهاتهما، والغرف التي عاشا او اجتمعا فيها، قد فرحت بحبهما أكثر مما فرحا به هما.

آه، هذا ما جمعهما وجعلهما قريبين، واحدهما من الآخر. ابداً، ابداً، حتى في أغنى وأعنف لحظات سعادتهما، لم يكونا غير مدركين الفرح العظيم في نظام الكون كله، والاحساس بأنهما هما بالذات جزء من هذا الكل، عنصر من عناصر جمال هذا الكون.

هذه الوحدة مع الكل كانت نسمة الحياة لهما. وما كان رفع الانسان فوق سائر الطبيعة، وتغنيج الانسان وعبادته الحاضرة، ليروق لهما او يستهويهما. ان نظاماً اجتماعياً يستند الى هذه المقدمة الخاطئة، فضلاً عن تطبيقه سياسياً، قد كان في نظرهما امراً خليقاً بالهواة، ولم يعنِ لهما شيئاً.

١٦

والآن، فقد ودعته وانصرفت وهي تخاطبه بلغة الحياة اليومية المباشرة. ولم يكن كلامها، رغم حيويته وإلفته، مبتذلاً ركيكاً.

فكأناشيد الجوقة والمحاورات في المآسي القديمة، وكلغة الشعر والموسيقا او أي اسلوب آخر من أساليب التعبير المألوفة، لم يكن منطقها عقلانياً بل شعوري. اما اللهجة الخطابية في حديثها المرتجل العفوي فقد صدرت عن حزنها وأساها. وكانت كلماتها البسيطة المتواضعة مبللة بالدموع.

وكانت هذه العبرات تظهر كأنها هي التي جمعت كلماتها معاً في همس لطيف، سريع، يشبه حفيف الأوراق تحت مطر دافئ.

"يوروشكا، ها نحن معاً مرة ثانية. فيا لها من طريقة قاسية أراد الله لنا فيها ان نجتمع من جديد. اتقدر ان تتصور حظاً أتعس من هذا الحظ؟ أنا لا أقدر، لا أقدر. آه، يا الله! لا استطيع الكفَّ عن البكاء. تأمل! هذا أيضاً على غرار ما ألفناه في حياتنا، ما قد صنع على قياسنا. ذهابك ـ نهايتي. إنه أيضاً لشيء كبير، لا يمكن اصلاحه. احجية الحياة، احجية الموت، سحر العبقرية، سحر الجمال العاري من كل زينة وحلية ـ نعم، نعم، هذه الأشياء كانت لنا. ولكن هموم الحياة العملية الصغيرة ـ أشياء شبيهة باعادة تنظيم العالم ـ هذه الأشياء، لا شكراً، انها ليست لنا.

"وداعاً يا رجلي العظيم، يا قريني، وداعاً يا عزتي ومجدي، وداعاً يا نهري الصغير العميق المتدفق، كم احببت هديرك الدائم، كم احببت ان اغوص في امواجك الباردة.

"أتتذكر كيف افترقنا ذلك اليوم هناك في الثلج؟ كيف خيبت املي! وهل كنتُ ذهبت بدونك؟ اوه، اعرف، انك اجبرت نفسك على ذلك، ظننت انه لخيري. وبعد ذلك تهدم كل شيء. اوه، يا الله، كم تعذبت هناك، كم قاسيت! ولكنك بالطبع لا تعرف شيئاً عن ذلك. اوه، ماذا فعلتُ يا يورا، ماذا فعلتُ؟ انني مجرمة وانت لا تدري. ولكنها ليست خطيئتي. بقيت في المستشفى ثلاثة أشهر، وفقدت الوعي شهراً كاملاً. ومنذ ذلك الحين أصبحت حياتي عذاباً، يا يورا. روحي لا تعرف السلام،

يأكلني الندم والألم. ولكني لم اخبرك بأهم شيء. لا أقوى على قوله، ليس لي القدرة. كل مرة أصل فيها الى هذا الجزء من حياتي، يقف شعري من الرعب. اتعلم؟ انني لست متأكدة من انني املك تمام عقلي. ولكن الا ترى؟ انني لم اعتد الشراب كما يفعل كثيرون، انني أتجنب ذلك، لأن امرأة سكرى، هذاحقاً هي النهاية. مستحيل، أليس كذلك؟"

وراحت تتكلم وتنتحب في لوعتها وأساها. وفجأة رفعت عينيها مندهشة وتطلعت حولها. كان الناس قد دخلوا الغرفة وانهمكوا في عملهم. ونزلت عن الدرجة وابتعدت عن التابوت مترنحة تضغط عينيها بيدها كانما ارادت ان تمسح آخر دمعة من دموعها.

وصعد رجال الى التابوت فوضعوه على ثلاثة اكفان وابتدأ سير الجنازة.

١٧

بقيت لاريسا فيودوروفنا بضعة ايام في شارع كامرجر. وبدىء باخراج أوراق جيفاكو بمساعدتها ولكنه أكمل بدونها. وتحدثت هي أيضاً مع ايفغراف اندرييفيتش وأخبرته بحادث هام.

وذات يوم خرجت لاريسا فيودوروفنا ولم تعد. لعلها اعتقلت آنذاك في الشارع. لقد اختفت دون ان تترك اثراً، فربما ماتت في مكان ما، منسية كرقم دون اسم على لائحة ضائعة في أحد معسكرات الاعتقال العديدة، المختلطة أو الخاصة بالنساء، هناك في الشمال.

الفصل السادس عشر
الخاتمة

١

كـان ذلك في صيف ١٩٤٣ ، بعد اختـراق كـورسك وتحـرير أوريل؛ حين التـحق المقدّم دودوروف، وغـوردون الذي رُقي حديثـاً الى رتبـة مـلازم ثانٍ، بفـرقتـهمـا. كـانا عائدين من موسكو، الاول بعد قضـاء فرصـة ثلاثة أيام، والثاني بعد قيامه بمهمة.

وقـد التـقـيـا في طريق عـودتهـمـا وأمـضـيا الليل في تشـيـرن، المدينة الصـغـيـرة التي نجت، رغم انها تهـدمت، من مـصـيـر أغلب مدن المنطقـة، هذه "البقعة المقفرة" التي أبادها العدو نهائياً في أثناء انسحابه.

ووجدا مسـتودعـاً سالماً بين اكوام القرميد المكسّر والحجارة المسـحوقة التي كانت تشـكّل أنقاض المدينة.. وهناك باتا عندما هبط الليل.

وظل النعـاس بعـيـداً عنهـمـا. فـقـد ثرثرا طول الليل. وكـانت السـاعـة الثالثة صبـاحـاً والشمس لمّا تشرق بعد، حين اسـتـيـقظ دودوروف الذي كان النعاس قد بدأ يتغلب عليه، من جراء الضجـة التي كان يبعثها غوردون. فقد كـان غوردون يتدحرج ويغـوصُ بحركات سبـاحٍ لا يجيد السبّـاحة، في الشــوفـان اللّين لكي يجـمـع ثيـابـه ويحـزمـهـا؛ ثم نزل، وهو يقـوم بمثـل الحركات ذاتها، عن كومة الشوفان واتجه نحو باب المستودع.

"أين تذهب؟ لايزال الوقت مبكراً."

"ذاهب الى النهر. أريد أن أغسـل ثيابي قليلاً."

"لماذا؟ سنلحق هذا المسـاء بفـرقـتنا. وسـتـبـدل لك الغـسـالة تـانيـا

ثيابك. فلِمَ العجلة؟"

"يجبَ ان اغسلها حالاً. فقد بدأت ملابسي الداخلية تتسخ من كثرة العرق. هذا الصباح شديد الحر. سأدعكها بسرعة وأعصرها جيداً، وستجففها الشمس في طرفة عين؛ فأستطيع أن استحم وأبدّل ملابسي."

"هل ترى هذا لائقاً؟ لا تنسَ انك ضابط."

"مازال الناس نائمين. سأختبيء خلف دغل. لن يراني أحد. من الأفضل لك ان تنام بدلاً من ان تثرثر؛ إنك ستطرد النعاس."

"على أي حال لن أتمكن من النوم بعد. سأرافقك."

ومضيا الى النهر، على محاذاة أنقاض الحجارة البيضاء التي أدفأتها الشمس رغم تلك الساعة المبكرة. كان هناك نيام يتمددون تحت الشمس وسط الشوارع القديمة. كانوا يُشخرون، وقد احتقنت وجوههم وغرقت في العرق. كان أكثرهم من سكان المدينة، من الشيوخ، والنساء والأطفال الذين تهدمت بيوتهم. وكان بينهم بعض الجنود، من المؤجلين الذين كانوا الآن يلتحقون بفصائلهم. وكان غوردون ودودوروف يسيران بحذر بين النائمين، وهما يرقبان خطاهما باستمرار كي لا يدوسا أحداً.

"اخفض صوتك. سنوقظ المدينة كلها، وعندئذ أفقد غسيلي."

وتابعا بصوت منخفض حديث الليلة السابقة.

٢

"ما اسم هذا النهر؟"

"لا أعرف. لم اسأل. لاشك انه زوشا."

"لا، ليس زوشا. أكيد لا."

"إذاً، لا اعرف."

"على نهر زوشا وقع حادث كريستينا."

"نعم، ولكن في أسفل النهر. يقال إن الكنيسة أعلنت قداستها."

"كان هناك بناء من الحجر يدعى "الاسطبل". كان مجرد اسطبل سوفخوز. ولكنه اصبح اسماً تاريخياً. كان اسطبلا قديماً ذا جدران سميكة. وقد حصّنه الألمان وجعلوا منه حصناً منيعاً. وكانت المنطقة بكاملها على مرمى نيرانهم، وهذا ما كان يعوق هجومنا. وكان لابد من الاستيلاء على هذا الاسطبل. وقد أظهرت كريستينا مهارة وشجاعة عجيبتين كي تخترق المتاريس وتنسفه. لكن الألمان اعتقلوها وشنقوها."

"لماذا كريستينا اورليستوفا وليس دودوروفا؟"

"لم نكن قد تزوجنا بعد. كنا قد تواعدنا في صيف عام ١٩٤١ على الزواج بعد الحرب. وبعد ذلك تنقلت مع بقايا الجيش. كانوا ينقلون قطعتي باستمرار. فأضعتها. ولم أرها بعد ذلك قط. أما مأثرتها وميتتها البطولية فقد سمعت بهما ككل الناس، من الصحف وأوسمة الجيش. يبدو أنهم سيقيمون لها نصباً في المنطقة. وقد سمعت ان الجنرال جيفاكو، شقيق يوري اندرييفيتش، يطوف هذه الأماكن ويجمع معلومات عنها."

"سامحني، لأنني جررتك الى الحديث عنها. لابد ان هذا يؤلمك."

"المسألة ليست هنا. لكننا نتحدث كثيراً. لا أريد أن ازعجك. اخلع ملابسك، وانزل الى الماء، وقم بما عليك ان تقوم به. وأنا سأتمدد على الشاطىء وفي فمي قليل من العشب، سأحلم، وقد آخذ غفوةً."

وبعد لحظات استؤنف الحديث.

"أين تعلمت أن تغسل جيداً؟"

"الحاجة تعلم أشياء كثيرة. لم نكن محظوظين. لقد وقعنا على أفظع المخيمات الاصلاحية. لم يعش منها الكثير. فمنذ وصولنا: تخرج الغرفة من المقطورة. صحراء من الثلج. غابة عند الافق. الحرس يتأبطون بنادقهم، كلاب بوليسية. وتقريباً في اللحظة نفسها يؤتى بفرقة أخرى،

يصفوننا على امتداد الحقل كله، في دائرة هائلة؛ ظهورنا الى الداخل لكيٰ لا يرى بعضنا بعضاً. ثم يأمروننا ان نجثو على ركبنا مع منع الالتفات منعاً باتاً تحت طائلة العقاب السريع. وعندئذٍ تبدأ اجراءات التفقد المذلة التي تستمر ساعات طويلة، ونحن راكعون. بعد ذلك يوقفوننا، ويذهبون بالفرق الأخرى الى مكان آخر. أما نحن، فيأمروننا: "هوذا مخيمكم. استقروا فيه كما تشاؤون." وسط حقل من الثلج في العراء، مع عمود في منتصفه، علقت عليه هذه اللافتة: قولاق[1] ٩٢، إيا. رقم ٩٠، وهذا كل شيء."

"لا، هذا أكثر مما كنا نقاسيه. نحن، كنا محظوظين. كانت أوضاعنا مختلفة. حين سُرحت، اعيد اعتباري اليّ من جديد، كالمرّة الأولى؛ واستطعت ان اعاود دراستي. وعندما وقعت الحرب، استدعيتُ برتبة مقدّم، ولم التحق مثلك بسرية التأديب."

"نعم. عمود علقت عليه هذه اللافتة "قولاق ٩٢، إيا، رقم ٩٠" وهذا كل شيء. كنا بادىء الأمر، حين كانت تثلج، نكسر الأغصان بأيدينا العارية لكي نبني اكواخاً. قد لا تصدقني، ولكننا شيئاً فشيئاً بنينا كل شيء بأنفسنا، فقطعنا الأشجار لكي نبني بها غرفاً صغيرة، ونصنع الاسيجة، ونبني السجون، وأبراج المراقبة، كل ذلك بأيدينا نحن. ثم بدأنا باستثمار الغابة. قطعنا الاشجار. وكنا نُقرن الخيل بالعربة ثمانية ثمانية، وننقل الأخشاب الكبيرة والثلج يغمرنا الى الصدر. وقد تأخرنا طويلا حتى عرفنا ان الحرب قد اندلعت. لم يعلمونا. وذات يوم قيل لنا: سيسرح المتطوعون في السرايا التأديبية في حال نجاتهم من معارك لا نهاية لها. وبعد ذلك، الهجوم المستمر، كيلومترات من الاسلاك المكهربة، ألغام، مدافع، شهور وشهور في عاصفة من النار. لم

---

(١) اختصار لعبارة "قيادة المخيمات، الرئيسية".

نسمٌ، عبثاً، محكومين بالموت. كان الموت يحصدنا حتى آخر واحد. كيف نجوت؟ كيف استطعت أن أنجو، حقاً؟ تصور، مع ذلك، أن كل هذا الجحيم الدامي كان جنة بالقياس الى الأهوال في معسكرات التجمّع. لم تكن المسألة قسوة الظروف. كلا؛ كانت هنالك أسباب أخرى."

"بلى، يا صديقي، أديت قسطك، تماماً."

"لا تدهش لأنني أعرف أن أغسل. فأي شيء لا يتعلمه الانسان في مثل تلك الحياة!"

"هذا غريب. لقد ظهرت الحرب، ليس فقط بالنسبة لمصيرك كمتهم، بل حتى بالنسبة لحياتنا كلها في سنوات ١٩٣٠ ـ ٤٠، في الحرية، في حيوية النشاط الجامعي، والكتب، والمال، والرفاهية، كعاصفة مطهرة، كنفحة من الهواء النقي، كريح من الخلاص.

"اظن ان اشاعة الملكية كانت خطأً، وفشلاً. لا يمكن استصوابها. كان لابد، لستر الفشل، من الاستعانة بكل وسائل الارهاب الممكنة، لسلب الناس عادة الحكم والتفكير، وإجبارهم على رؤية ما لم يكن موجوداً والتصديق بما يناقض الحقيقة البديهية. من هنا الوحشية التي لا سابق لها في إرهاب ييجوف، واعلان دستور لا يمكن تطبيقه، ومنح حق التصويت الذي لم يكن قائماً على المبدأ الانتخابي.

"وحين اندلعت الحرب، كانت أهوالها، والخطر الذي جابهناه، والموت الذي كان يتهددنا، امراً خيراً بالقياس الى السيطرة اللاانسانية التي كان يمارسها التوهّم؛ لقد خففت الحرب عنا لأنها كانت تحدّ من التسلط السحري للكلمة الميتة.

"ولم يكن المتهمون مثلك هم الوحيدون الذي احسوا فجأة بأنهم اكثر حريةً من ذي قبل؛ فلقد أحسّ الجميع، دون استثناء، في المؤخرة كما في الجبهة، بسعادة حقيقية، وهم يخوضون بنشوة، غمار القتال الرهيب، المميت، المنقذ."

"تشغل الحرب مكاناً خاصاً في سياق ايام الثورة الأولى. فلقد انتهى فعل الأسباب المرتبطة مباشرة بطبيعة الثورة.

"الآن بدأت تتجلى نتائجها غير المباشرة، ثمار ثمارها، نتائج نتائجها. لقد اثرت المصائب على الأخلاق، فمنحت الجيل الجديد قسوتها، بطولتها، الحماس الذي تظهره في سبيل كل ما هو عظيم، مغامر، عجيب، كل هذه الفضائل الرائعة المذهلة، التي هي ثمرتها.

"هذه الاعتبارات تملؤني سعادة على الرغم من استشهاد كريستينا، وجراحي وخسائرنا، وعلى الرغم من ثمن الحرب، الدامي. ما ساعدني على تحمل الألم الذي سببه لي موت كريستينا، هو هالة التضحية التي تنير نهايتها وتنير حياة كل منا.

"وفي اللحظة ذاتها، حيث كنت تتحمل، أيها التعيس، آلامك التي لا تحصى، كنت قد سُرّحت. في ذلك الوقت كانت كريستينا اورليتسوفا مسجلة في كلية التاريخ. كنت أدير القسم الذي اختارته. ولقد لفتت انتباهي هذه الفتاة النابغة، منذ طفولتها. كان ذلك في وقت اعتقالي الأول. تذكر انني حدثتك عنها حين كان يوري اندرييفيتش لايزال على قيد الحياة. كانت إذاً في عداد طلابي.

"وكانت قد شاعت آنذاك عادة نقد الطلاب لأساتذتهم، بعنف وشدة. وكانت اورليتسوفا تمارس هذا النقد بحماس. ولم يكن يعرف غير الله ما يبرر ذلك النقد اللاذع. كانت انتقاداتها من اللجاجة، والنقمة، والظلم، بحيث أن طلابي كانوا يثورون ويتبنون رأيي، غالباً. وكان لأورليتسوفا حس ساخر مدهش؛ فتسميني باسم مستعار شفاف، وتجعلني موضع سخرية في نشرة الحائط. وبغتة، ظهر مصادفةً، ان هذا العداء المتأصل كان يخفي حباً فتياً، لكنه عميق، قديم، لا تجهر به. وكانت مشاعري متجاوبة مع مشاعرها.

"لقد أمضينا صيفاً رائعاً عام ١٩٤١، عشية الحرب، وفي أثناء

شهورها الأولى. فقد جاء فريق من الطلاب والطالبات، وكانت بينهم، ليمضوا العطلة قرب موسكو، حيث كانت وحدتي متمركزة. تثقيف الشباب بالثقافة الحربية، تجنيد الميليشيا من ضواحي موسكو، التمرين المظلي الذي قامت به كريستينا، الدفاع ضد الغارات الليلية من أعلى سطوح المدينة، هذا كله كان إطار صداقتنا الناشئة. قلت لك اننا عقدنا خطبتنا هناك وافترقنا بسرعة حين انتقلت. ومذاك لم أرها.

"وحين تحسن موقفنا وبدأ الألمان يستسلمون بالآلاف. نقلت، بسبب جرحين ويومين في المستشفى، من ال د.سي.آ، الى الشعبة السابعة في الاركان العامة، حيث كانت الحاجة ماسة الى اشخاص يعرفون اللغات الاجنبية وحيث ألحت لكي تعين أنت أيضاً، حين نجحت في معرفة مكانك."

"كانت تانيا الغسّالة تعرف اورليتسوفا معرفة جيدة. فلقد تعارفتا في الجبهة، وكانتا صديقتين. وهي تروي أخباراً كثيرة عن كريستينا. إن لتانيا هذه ضحكة تذكرني بيوري؛ أما لاحظت ذلك؟ ينسى المرء لحظة أنفها الخانس، ووجنتيها المقرّنتين، ويُصبح وجهُها جذاباً، لطيفاً. هذا هو طراز يوري نفسه، وهو طرازٌ واسع الانتشار في بلادنا."

"افهم، ما تعني. ربما. لم انتبه."

"يا له من اسم مخيف بربري، تانيا بيزوتشيريديفا. ليس، في أي حال، اسم عائلة، انه ابتكار، او تحريفٌ لاسمٍ ما، فماذا ترى؟"

"لكنها شرحت ذلك لنا. فقد ولدت من ابوين مجهولين. وكان لابدّ في مكانٍ ما في صميم روسيا، حيث لاتزال اللغة نقيّة وبكراً، من تسميتها "بيزوتشايا[1]". أما الشارع الذي يكرر كيفما كان ما لم يسمعه بوضوح، والذي لم يفهم هذا الاسم، فقد حرّف هذه الكلمة على

---

(١) بدون أب .

هواه، ولفظها باللغة الجارية، اللغة الدارجة على الأرصفة."

٣

بعد ان جرت هذه المحادثة وصل غوردون ودودوروف الى قرية كاراتشيف التي كانت قد أبيدت تماماً. كانا لايزالان يتتبعان فرقتهما، فالتقيا في كاراتشيف بعضَ جنود المؤخرة الذين كانوا يلحقون بالفرقة سيراً على الاقدام.

كان صيفاً قائظاً؛ وكان الطقس لطيفاً واستمر كذلك شهراً. وكانت تربة بريانشتشينا الداكنة، الاقليم الخصب السعيد الواقع بين اوريل وبرياتسك، تتمدد تحت السماء الزرقاء الخالية من الغيوم، فتحوّلت الى لون بنّي شبيه بلون القهوة مع الشوكولاته.

كان الشارع الرئيسي يخترق المدينة باتجاه مستقيم، ويتصل بالطريق العام. كانت البيوت على احد جانبيه قد نسفت وتحولت الى كوم من نفايات البناء بسبب الألغام؛ هذه الانقاض كانت محاطة بشظايا الاشجار المقلوعة والمتفحمة من البساتين التي بادت. على الجانب الآخر كانت هناك أراضٍ مقفرة يبدو كأنها لم تعمر يوماً، وقد وفرها الخراب والنار بما انه ليس هنالك ما يخرب.

على الجانب الذي كان يوماً مساكن، كان السكان الذين اصبحوا بلا مأوى ينكشون ويبحثون في الرماد الذي مازال يدخن، يلتقطون البقايا من أماكن مختلفة من الخرائب، ويجمعونها في مكان واحد. وكان آخرون يحفرون خنادق ليجعلوا منها مساكن مؤقتة تحت الأرض، ثم يقطعون اغصاناً خضراء يسقفونها بها.

كانت الأرض المقفرة على جانب الطريق بيضاء من الخيام وغاصة بالشاحنات والمقطورات ناقلات الخيل التي تخصّ كل أنواع الخدمة

الاحتياطية للميدان، وسيارات الاسعاف المنقطعة عن فرقها، وأجزاء من كل أنواع المستودعات والادارات، مخربة ومختلطة. وكان هناك أيضاً فتيان نحيلون ضعفاء من فرقة فصائل المدد بقبعاتهم الرمادية، يلفون على ظهورهم معاطف ضخمة، وجوههم بلون التراب، ممصوصة ولا دماء فيها، بسبب الديزانطاريا، وقد ألقوا احمالهم وراحوا يسترقون غفوة ويأكلون لقمة قبل ان يرحلوا صوب الغرب.

وفي البعيد كانت الحرائق وإنفجارات الالغام المتأخرة تستمر في تدمير المدينة المنسوفة، التي صار نصفها رماداً. كانت هزة جديدة تزلزل الأرض في كل لحظة تحت أقدام السكان المنهمكين في نبش الأنقاض وتجبرهم على إيقاف عملهم؛ فيرفعون إذاك ظهورهم المقوّسة، ويستندون على أطراف معاولهم، ويرتاحون وهم يتأملون الأفق طويلاً، وقد أداروا رؤوسهم في اتجاه الانفجار.

وكانوا يرون غيوماً من الغبار تصعد الى السماء، في شكل أعمدة بادىء الأمر، ثم في شكل كتلٍ متثاقلة بطيئة، رمادية، سوداء، قرميدية، وبلون اللهب والدخان، تنتشر وتنعرض خطوطاً ملونة، وتتبعثر ثم تسقط على الأرض. وحينذاك يعود العمال الى مهمتهم.

وكان في اتجاه السهول المعتمة مرج تحيط به الادغال وهو مغروسٌ بالأشجار العتيقة التي كانت تغطيه كله بظلها. وكانت هذه النباتات تفصله عن العالم، كساحة مغطاة، وحيدة، غارقة، في ظلٍ رطيب.

هنالك كانت الغسّالة تانيا تنتظر سيارة الشحن التي كان عليها ان تقلّها مع العتاد الموكل إليها. وكان ينتظر معها شخصان أو ثلاثة من فرقتها وبعض الجنود الذين طلبوا السماح لهم باغتنام الفرصة. وكان غوردون ودودوروف هناك أيضاً. وكان العتاد مرتباً في عدة صناديق مكدسة في المرج. وكانت تانيا لا تتركه قيد خطوة. ولم يكن الآخرون يتحركون أيضاً خشية ألاّ يسافروا.

كانوا ينتظرون منذ أكثر من خمس ساعات. ولم يكن لديهم ما يعملونه. كانوا يُصغون الى تانيا التي لم تنقطع عن الثرثرة. كانت مهذارة تتحدث عن كل شيء. كانت تروي مقابلتها مع الجنرال جيفاكو.

"كيف لا. أمس كان ذلك. اخذت الى الجنرال بالذات. الجنرال جيفاكو. كان في مهمة حول قضية كريستينا، وكان يسأل الناس - شهود العيان، أولئك الذين عرفوها شخصياً. ذكر له اسمي. قيل له اننا كنا زميلتين. استدعاني، ذهبت اليه. أتظنون أنه اخافني؟ ليس عنده ما يميزه بشكل خاص؛ فهو رجلٌ كالآخرين. أسودُ، وعيناه صارمتان. حينئذ سردتُ له كل ما أعرف. كان يصغي اليّ ويشكرني. وقال: "وانتِ، من أين أنتِ من أنتِ؟" وحينئذ رفضت الجواب، طبعاً. بماذا افتخر! طفلة دون ابوين! ثم تعرفون، على العموم، ماذا يعني ذلك! الاصلاحيات، التشرد... لكنه لم يرد ان يعرف شيئاً وقال: "لابأس، لا تهتمي، لا داعي للخجل." وحينذاك، قلت له بخجل، بعض الكلمات، فشجعني، ثم ازددت شجاعة. ما أكثر ما عندي من الأمور التي تحكى. لن تصدقوني، اذا سمعتم؛ ستقولون، انها تكذب. هكذا فعل هو. حين انهيت قصتي، نهض، أخذ يتمشى، وقال لي: "قلتِ لي الكثير، ويا لها من مغامرات! حسناً، اصغي، لا وقتَ عندي الآنَ، لكنني سأراك، لا تقلقي، سأراك واذكرك، اذا كنت انتظر سماع ذلك. سنرى. بقيت هناك أيضاً أمور صغيرة يجب أن تُجلى، وبعض التفاصيل. ومن يعرف آنذاك، فقد أرى نفسي مع بنت أخٍ على ذراعي، قد ترتقين الى صف بنت اخ الجنرال. وسأعنى بتربيتك، ودراستك العالية، كما تريدين." اقسم لكم ان هذا صحيح! يا له من مزّاح!"

وصلت في هذه اللحظة الى المرج عربة نقل طويلة فارغة، من العربات ذات الأطراف الطويلة التي تستخدم في بولونيا وفي غرب روسيا لنقل الحصاد. وكان يقود الحصانين المقرونين بمجرّ العربة أحد

رواد الجنود، حسب التعبير القديم. فأوقف عربته في المرج، وقفز من مقعده وشرع يفك الحصانين. وبقيت تانيا وحدها مع بعض الجنود، بينما احاط الباقون بالحوذي، ورجوه ألا يفعل ذلك: كانوا يقولون له عن المكان الذي سيأخذهم اليه، مجاناً، بالطبع. وكان الجندي يرفض: ليس له الحق ان يتصرّف بالحصانين والعربة وعليه ان يطيع الأوامر التي تلقاها. وقاد الحصانين المفكوكين وغاب. فنهض الجالسون كلهم وجلسوا في العربة الفارغة التي بقيت في المرج. واستأنفت تانيا قصتها التي قطعها ظهور العربة والنقاش مع الحوذي.

سألها غوردون: "ماذا قلتِ للجنرال؟ أعيديه لنا، إذا أمكنك."

"حسناً، ولِمَ لا!"

وروت لهم قصتها الرهيبة.

٤

"نعم، عندي كثير مما أرويه. يقال انني لا انحدر من أسرة فقيرة. وسواء اخبرني بذلك غرباء او تذكرته بطريقة ما، لا أدري، فقد سمعت بما تناقلته الألسن، ان أمي، رئيسا كوماروفا، كانت زوجة وزير روسي، الرفيق كوماروف، الذي لجأ الى منغوليا البيضاء. ولكنني اظن ان كوماروف لم يكن والدي الحقيقي. بالطبع، انا لست فتاة متعلمة، فقد نشأت يتيمة بلا أب ولا أم. قد يكون ما أرويه مضحكاً في نظرك، غير أنني لا أقول الا ما اعرفه، وعليك ان تضع نفسك في مكاني.

"نعم. والآن اليك ما اردت ان اخبرك به. هذا كله حدث بعيداً عن كروشيتسكي، في الطرف الآخر من سيبيريا، بعيداً عن بلاد القوزاك، على مقربة من الصين. فعندما زحفنا نحن - اعني الحمر - على مدينة البيض الرئيسية، عمد كوماروف هذا، الوزير، فوضع امي وجميع تلك

العائلات في قطار خاص وأمره ان يسير بهم. وكانت امي خائفة مذعورة، ولذلك لم تجرؤ على أن تخطو خطوة بدونه.

"ولم يكن كوماروف هذا يعرف شيئاً عني. لم يكن يعرف حتى بوجودي فقد ولدتني أمي في أثناء افتراقها الطويل عنه، وكانت ترتعب حتى الموت من ان يخبره احد بأمري. ذلك انه كان يكره الأولاد كثيراً، فيصيح ويضرب قدميه في الأرض. وكان يصرخ قائلاً إنهم لا يجلبون إلا القذارة والقلق الى البيت، وانه لا يطيقهم.

"قلت انه عندما بدأ الحمر يدخلون المدينة، ارسلت أمي خبراً الى محطة القطار في ناغورنايا تستدعي مارفا، مشيرة السير. كان ذلك على بعد ثلاث محطات من المدينة. سأخبرك كيف كان ذلك. اولاً، كانت محطة نيزوفايا، ثم ناغورنايا، ثم مضيق سامسونوف. والآن اعتقد انني افهم كيف توصلت امي الى معرفة تلك المرأة، اظن انها كانت تأتي لتبيع الحليب والخضار في المدينة. هذا هو.

"وهنا شيء لا أعرفه. أظن أنهم خدعوا أمي، فلم يخبروها بالحقيقة. الله وحده يعلم أي قصة رددوها لها، لعلهم قالوا لها ان رحيلها لن يطول أكثر من يوم أو يومين، الى ان تستتب الأمور. لم تكن تنوي ابقائي بين أيدي الغرباء الى الأبد. ان يقوم الغرباء على تربيتي وتنشئتي ـ هذا ما لم يكن لامي ان تفعله بولدها.

"فأنت تعرف ماذا يعني هذا للولد. "إذهبي وقولي لخالتك، هي تعطيك شقفة كعك، خالتك طيبة القلب، لا تخافي من خالتك!" وكم كنت ابكي بعد ذاك، كم كنت كسيرة القلب، كم فقدت لها ـ الأفضل ألاّ اتذكر ذلك. احببت ان اشنق نفسي، كدت افقد عقلي وانا طفلة صغيرة. هذا ما كنته آنذاك. اظن ان الخالة مارفا تقاضت مالاً كثيراً لقاء إعالتي والعناية بي.

"كان عندها مزرعة غنية الى جانب عملها في المحطة، بقرة

وحصان، وبالطبع كل أنواع الطيور، ومكان واسع للخضار. فقد كان يمكنك هناك ان تحصل على ما تشاء من الأرض - وبالطبع دون بدل ايجار، لان البيت كان يخص الحكومة؛ وكان بجوار المحطة. وحين كان القطار يقبل من بلادنا، كان يجد صعوبة في صعود التلة؛ كانت كثيرة الانحدار. أما حين أقبل من انحائكم، من روسيا، جرى بسرعة حملتهم على كبح جماحه. وكنت ترى في المنخفض، زمن الخريف، حين كانت تقل كثافة الغابات، ناغورنايا كأنها وُضعت على صحن.

"أما الرجل الذي كان يعمل أيضاً مشيراً للسير في المحطة، اعني العم فاسيلي، فقد كنت ادعوه "أبي". كان رجلا لطيفاً، مرحاً، انما كثير الثقة بالآخرين، لاسيما في حالة السكر. فكان جميع أهل الجوار على علم بكل شيء عنه، كان يفضي بكل ما في قلبه لاي غريب التقاه.

"اما المرأة، مارفا، فلم اكن ادعوها "امي"؛ لم استطع. وسواء كان ذلك لانني لم اقو على نسيان أمي او لأي سبب آخر، فالواقع ان الخالة مارفا كانت امرأة فظيعة. نعم وهكذا اكتفيت بأن دعوتها "خالتي مارفا".

"وسار الزمن، وراحت الاعوام تمر؛ كم عددها، لا ادري. وبدأت اخرج الى المحطة وألوّح بشارات السير للقطارات، وأصبح في وسعي ان اجلب البقرة أو احلَّ رباط الفرس. وعلمتني الخالة مارفا على الغزْل؛ أما بصدد تدبير شؤون البيت، فأنا بغنى عن القول انني قد تمرّست به. فكل ذي صلة بالكناسة والترتيب أو اعداد الطعام، لم أجد فيه صعوبة، فكنت أقوم به أيضاً. أوه، بلى، نسيت أن اخبرك، كنت اعتني بباتيا. كان لباتيا الحبيب ساقان ضعيفتان، ومع انه كان في الثالثة من عمره فقد عجز عن المشي. وهكذا كنت أحمله واجوب به ارجاء الدار. والآن، فبعد كل هذه الأعوام، لاازال ارتجف رعباً حين افكر كيف كانت الخالة مارفا تنظر شزراً الى ساقي كأنها تقول لماذا لم تكن ساقاي ضعيفتين

عوضاً عن باتيا، كأنما أنا اصبته بالعين. لا تستطيع ان تتصور مقدار الحسد والخرافة في هذا العالم.

"والآن اصغِ الى ما سأقول. كل هذا ليس شيئاً بالقياس الى ما حدث بعد ذلك، سيقشعر له بدنك ويقف شعر رأسك.

"كان ذلك في عهد السياسة الاقتصادية الجديدة، وكان الألف روبل يساوي كوبيكاً. وباع العم فاسيا إحدى بقراته لقاء كيسين مليئين بالمال. كان يسمى كارنكي - لا، انا آسفة، كان المال يسمّى ليموناً في ذلك الحين، هذا ما كان يسمى. وتناول العم فاسيا عادته من الخمر، وسرعان ما ذاع في ناغورنايا كم كان عليه من الغنى.

"اذكر جيداً، كان ذلك في أحد ايام الخريف العاصفة، كانت الريح تمزق سقوف المنازل، وتكاد تحمل الناس وتطرحهم أرضاً، ولم يستطع القطار أن يصعد التلة لأن الريح كانت تدفعه الى الوراء. وفجأة ابصرت امرأةً عجوزاً تهبط قمة التلة، والريح تعصف بتنورتها وتحاول نزع شالها.

"كانت تسير الهوينى وهي تنتحب وتمسك بخاصرتها. ورجت الينا ان نأذن لها بالدخول، فوضعناها على المقعد. أوه، خاصرتين خاصرتي، لا أستطيع ان اتحمل، راحت تصيح وتولول، خاصرتي على نار، هذه نهايتي. من أجل المسيح، أخذت تتضرع، خذوني الى المستشفى، ادفع لكم ما تريدون. وللحال قرن "أبي" الفرس اودالوي الى العربة ووضع العجوز فيها وسار بها الى مستشفى المقاطعة، وقد كان على بعد أحد عشر ميلاً.

"وبعد حين اوينا الى فراشنا، انا والخالة مارفا، ولم نلبث ان سمعنا الفرس اودالوي تصهل خارجاً والعربة تدخل الى ساحة الدار. وبدا لنا ان عودتها كانت اسرع مما تقتضيه المسافة. واشعلت الخالة مارفا مصباحاً، وارتدت سترتها، ورفعت مزلاج الباب دون ان تنتظر حتى يقرع أبي الباب.

"وفتحت الباب، فلم أجد أبي بل وجدت رجلاً غريباً، متجهم الوجه يبعث الرعب. فقال أين المال الذي حصلت عليه لقاء البقرة، قتلت رجلك الشيخ في الغابة، وحيث انك امرأة فسأدعك وشأنك اذا اخبرتني أين المال. واذا لم تخبريني، فأنت تعرفين ماذا يحدث، ولا يقع اللوم الا عليك، وخيرٌ لك ألاّ تحمليني على الانتظار، فليس لي وقت للتأخر هنا.

"اوه، يا الهي، لا لزوم لاخبرك بالحالة التي وقعنا فيها، يمكنك ان تتخيل ذلك لنفسك. كنا نرتجف بكل ما فينا، ونحن نصف اموات من الذعر ومعقودتا اللسان من الرعب! اولاً لقد قتل العم فاسيا، والرجل نفسه اقر بذلك، قتله بفأس، والآن كنا وحدنا معه، قاتل في وسط بيتنا، وكنا نرى فيه أنه كان قاتلاً.

"اظن ان الخالة مارفا فقدت عقلها في تلك اللحظة. فما أن سمعت بموت زوجها حتى انقطع شيء في داخلها. وعرفت انه كان عليها ألاّ تفضح شعورها.

"وكان أول ما فعلته انها رمت بنفسها عند قدميه. ارحمني، صاحت به، لا تقتلني، لا أعرف شيئاً، لم اسمع بوجود المال، ولا أدري أي مال تعني. غير انه لم يكن بالطبع ليقتنع بذلك، لم يكن مغفلاً الى ذلك الحد. لا بأس، إذاً، قالت له. ولكن الأمر لم ينطلِ على اللعين. كلا، قال لها، انزلي، فأنت تعرفين الطريق، وأتني به. ولا يهمني إن نزلت الى الكهف او صعدت الى السطح، كل ما أريده هو المال. ولكن تذكري - لا تحاولي ان تخدعيني، فلن يجديك التلاعب علي نفعاً.

"ثم قالت له: هداك الله، لمَ انت مرتاب بهذا القدر؟ سأنزل بسرور وآتيك به، لكن ساقيّ ضعيفتان، ولا أستطيع أن اهبط السلّم. سأقف على رأس السلّم واحمل لك القنديل. لا تقلق، سأرسل ابنتي معك. وكانت تعنيني أنا.

"آه، يا إلهي، لا حاجة بي الى اخبارك كيف شعرت عند سماعي

ذلك. قلت في نفسي هذه نهايتي، واسودّ كل شيء امام عيني، ولم تقو قدماي على حملي، وكدت أسقط.

"لكن ذلك اللعين لم يكن مغفلا، فألقى نظرة واحدة على كل منا وزمّ عينيه وابتسم في وجهها، مظهراً جميع أسنانه، كأنما ليقول: اعرف حيلك، لن تخدعيني. فقد رأى انني لم أكن أعني لها شيئاً، وأنني لست من لحمها ودمها، وهكذا انقض على باتيا وحمله بيد واحدة وفتح غطاء السلم باليد الأخرى. هات القنديل، قال لها وهبط السلم الى الكهف مع باتيا.

"اظن انها كانت قد فقدت عقلها آنذاك فلم تعد تفهم شيئاً. لقد ذهب عقلها. وما أن هبط قليلاً مع باتيا حتى اغلقت غطاء السلم واقفلته وأخذت تجر صندوقاً ثقيلاً لتضعه عليه، وهي تومئ الي لاساعدها، لأنه ثقيل جداً عليها. واذ وضعته في مكانه جلست عليه، وهي في غاية الرضا، يا لها من مجنونة.وما أن جلست حتى أخذ اللص يصيح ويطرق الأرض. ولم يكن في الوسع ان اتبين ما كان يقول، فقد كان أخشاب الأرض سميكة، ولكننا استطعنا ان نتبين ما كان يعني: إما أن يخرج او يقتل باتيا. وكان يزمجر ويصرخ اكثر مما يفعل الوحش الضاري لكي يرعبنا. وصاح ها هو ولدك باتيا في قبضة يدي. ولكنها لم تكن لتفهم شيئاً. فقد اكتفت بالجلوس هناك تغمزني وتضحك، كأنما كانت تقول: مهما فعلت، فلن اتحرك عن الصندوق وسأحتفظ بالمفاتيح. لقد فعلت كل ما في وسعي لاثنيها عن عزمها فصرخت في اذنها قائلة يجب ان تفتحي الكهف لكي تنقذي باتيا. وحاولت ان ادفعها عن الصندوق فلم استطع. كانت قوية عليّ ولم تكن لتصغي.

"واستمر اللص يقرع، يقرع أرض الغرفة. وكان الوقت يمرّ، وظلت هي جالسة هناك تدير عينيها غير مصغية الى شيء.

"وبعد حين ـ آه، يا الهي، لقد خبرت الكثير في حياتي، لكن ذلك

لن انساه. فما دمت على قيد الحياة، سأظل اسمع صوت باتيا النحيف ـ كان باتيا الصغير يصرخ ويئن تحت. يا له من ملاك صغير؛ لقد خنقه الشيطان اللعين خنقاً.

"ورحت اسائل نفسي، والآن ماذا افعل، ماذا افعل بهذه المرأة المجنونة العجوز وهذا القاتل؟ كان عليّ ان افعل شيئاً ما. وفي تلك اللحظة سمعت الحصان يودالوي يصهل خارجاً. كان واقفاً هناك في باحة الدار ولم يكن قد فك من العرفة. أجل. كان يودالوي يصهل كأنما يقول: لنسرع يا تانيا الى من ينجدنا. ونظرت من الشباك فرأيت أن الفجر يكاد ينبلج. أنت على حق يا يودالوي وانها لفكرة وجيهة، قلت في نفسي. فلنذهب، ولكن سرعان ما سمعت كأن صوتاً قادماً من الغابة يقول: تمهلي، لا تسرعي، يا تانيا، لدينا وسيلة أخرى. وللمرة الثانية أدركت أنني لم أكن وحيدة في الغابة. كأنما كان ديكنا يصيح.وصفر قطار في الوادي. وعرفت صفيره؛ كان يتصاعد من قطار يقف دائماً متأهباً في محطة ناغورنايا ـ قطار دافع، كانوا يسمونه ـ ليعين القطارات على صعود التلة. كان هذا قطاراً مختلطاً يمر كل ليلة في مثل تلك الساعة. بلى، سمعت ذلك القطار الذي أعرفه يدعوني من الوادي. فأصغيت وخفق قلبي. وتساءلت، أتراني جننت كالخالة مارفا حتى يخاطبني كل حيوان حيّ وكل قطار ابكم بلغة روسية واضحة؟

"ولكن، ماذا ينفع التفكير، القطار كان يقترب. ولم يكن الوقت يسمح بالتفكير. فما كان مني الا ان قبضت على القنديل ـ لم يكن قد عمَّ نور الفجر بعد ـ وركضت نحو السكة ووقفت في وسطها تماماً بين القضيبين وأخذت الوّح بالقنديل يميناً وشمالاً.

"والآن ماذا أقول بعد؟ اوقفت القطار. وكان يسير رويداً، من جراء الريح، رويداً رويداً، حتى كأنه يزحف. اوقفته واطل السائق، وكان يعرفني، من نافذة القاطرة وقال لي ما لم أفهمه لشدة الريح. فصرخت

اليه ان البيت هاجمته اللصوص، وان هنالك جريمتي قتل وسرقة، وان المجرم في البيت فانجدنا ايها الرفيق العم، فنحن بحاجة الى المعونة فوراً. وفيما كنت أقول ذلك، اذا بجنود حمر يقفزون من القطار واحداً تلو الآخر. فقد كان القطار خاصاً بالجيش فقفزوا على السكة وهم يسألون، ماذا جرى؟ ذلك انهم لم يفهموا لماذا أوقف القطار في الغابة، فوق منحدر شديد في الليل، وكان واقفاً بلا حراك.

"اخبرتهم بكل شيء. فاخرجوا القاتل من الكهف، وكان يزعق بصوت انحف من صوت باتيا، اشفقوا عليّ ايها الكرام، قال، لا تقتلوني، لن أفعل ذلك مرة أخرى. غير انهم لم يتقيدوا بالقانون، فجروه الى وسط السكة وربطوا يديه وقدميه الى القضبان وساقوا القطار فوقه.

"لم أعد الى البيت حتى لجلب ثيابي، فقد تملكني الرعب، ورجوتهم ان يأخذوني معهم في القطار، فوضعوني في القطار وساروا بي. بعد هذا طفت نصف بلادي، وسواها، مع الأطفال الذين لا آباء لهم. ولا أدري أي مكان لم تطأه قدمي. إنني لا أبالغ. يا لسعادتي ويا لحريتي بعد كل شقائي في الطفولة! رغم وجود الكثير من الاثم والبؤس. على ان ذلك كله قد جرى فيما بعد وسأخبرك به في وقت آخر... في تلك الليلة التي كنت اخبرك عنها، نزل احد موظفي السكة من القطار وجاء البيت ليتسلمه بصفته ملكاً للدولة، وليقرر ماذا يفعل بالخالة مارفا. وقد قيل انها لم تشف، وانها ماتت في مستشفى المجانين، وقيل أيضاً انها شفيت وغادرت المستشفى."

بعد فترة من سماع حكاية تانيا سار غوردون ودودوروف الهوينى تحت الشجر في صمت. ولم تلبث ان جاءت الشاحنة؛ فاستدارت بتثاقل عن الطريق نحو العراء ووضعت عليها حمولتها. وقال غوردون:

"هل عرفت من هي تانيا هذه؟"

"نعم، بالطبع."

"ايفغراف سيعتني بها." واضاف غوردون بعد هنيهة: "كثيراً ما حدث في التاريخ ان انحط مثال أعلى الى المادية الصرف. هكذا تقلص ظل الاغريق أمام الرومان وانقلب عصر التنور الروسي الى الثورة الروسية. وهنالك فارق عظيم بين العهدين. وفي ذلك يقول بلوك في احد كتاباته: "نحن، أولاد أيام روسيا العصيبة." وقد قصد بلوك الى ذلك بتعبير مجازي تشبيهي. الاولاد ليسوا اولاداً بل الابناء، الورثة، الانتليجنسيا، والاهوال لم تكن عصيبة وانما ارسلت من السماء رؤيا نبوية، وهذا امر يختلف تماماً. والآن فقد أصبح المجاز حرفاً. فالأولاد هم أولاد والأهوال هي عصيبة، وهاك هو الفرق.

٥

بعد مرور خمسة أو عشرة أعوام، ذات مساء صيفي رائق، التقى غوردون ودودوروف ثانية وقد جلسا أمام نافذة تطل على موسكو وتنكشف في الغسق على مدّ النظر. كانا يتصفحان مجلداً حوى كتابات يوري التي جمعها ايفغراف، وهو كتاب قرآه مراراً وكادا يحفظانه عن ظهر قلب. كانا يطالعان ويتحدثان ويتأملان. وما ان بلغا منتصف الكتاب حتى خيم الظلام فاضاءا المصباح.

كانت موسكو تمتد تحتهما، المدينة التي كانت مسقط رأس المؤلف، والتي فيها قضى نصف عمره ـ موسكو هذه تراءت لهما كأنها البطل الرئيسي لرواية طويلة بلغا نهايتها في ذلك المساء، والكتاب في ايديهما.

ومع ان النصر لم يأتِ بالفرج والحرية اللتين توقعهما الناس عند نهاية الحرب، فقد كانت بشائر الحرية تملأ الجو خلال تلك الحقبة؛ وكانا هما وحدهما اللذان حددا معناها التاريخي.

فلقد خيل لهذين الصديقين، وهما بجانب النافذة، ان حرية الروح هذه كانت هناك، فكأنما المستقبل، في ذلك المساء عينه، قد جال متجسداً في الشوارع تحتهما، وكأنما هما أنفسهما قد دخلاه وكانا الآن جزءاً منه. واذ تأملا في هذه المدينة المقدسة وفي المعمورة كلها، وتأملا في أبطال هذه الرواية الاحياء وابنائهم، عمر قلباهما بالحنان والطمأنينة، وغرقا في موسيقا السعادة الصامتة التي تصاعدت حولهما وفي البعيد. وخيل اليهما ان الكتاب الذي كان في ايديهما يؤكد مشاعرهما هذه ويعززها.

قصائد

يوري جيفاكو

هاملت

وخيم السكون. ها أنا على خشبة المسرح.
أتكيء على مدخل الباب،
لعلّ الصدى البعيد يُفضي اليّ
بسرّ ما سيحدث في ايامي.

الليل وظلامه يسمّرانني،
يرمقانني بآلاف العيون،
إن شئت، يا ابتاه،
أجزْ هذه الكأس عني.

اقدس هذا ـ مشيئتك الصارمة،
راضياً بتمثيل هذا الدور فيها،
لكنّ مأساةً أخرى تمثل في هذه الحظة،
فاعفني من دوري، الى حين.

ومع ذلك فقد صُمم ترتيب الفصول وخُطط
ولن يحول شيء دون إسدال الستار.

ها أنا وحدي. جميع ما سواي يعمره فريسيّون.
أن تعيش الحياة الى النهاية، ليس بالأمر اليسير.

آذار

المسيلُ يسكر من الشمس
يهدرُ ويتحرّر،
والربيع يتحركَ ولا يألو جهداً
كراعيةٍ بذراعين قويتين.

الثلجُ خفيفٌ وهو يتناقصُ
في تفتّحات العروق الزرقاء.
لكن سماد الحياة يملأ الزّرائب
والمِذراة في أوج العافية.

يا لليالي! يا للأيام والليالي!
الحمام الذي يرعى في الثلج
والإصطبل والسّقيفات الواسعة
وهذا السمادُ الذي يغذّي ويحمي
ورائحته في الهواء.

يا لليالي! يا للأيام والليالي!
قطع الثلج تذوبُ فوق السطوح

وماء الثلج يقطرُ دوماً
والثرثرةُ لا تنقطع.

الاسبوع المقدس

لايزال ظلام الليل مخيماً
ولم يحن بعد للفضاء ان ينشر، حتى في هذا الوقت،
نجومه التي لا تُعدّ.
كل نجمة ساطعة كنور النهار.

ولو ان الامر يتعلق بالأرض، فعلا،
لنامت أيام الفصح كلها
على هدهدة انغام المزامير.

لايزال الظلام مخيماً
وساعة الخليقة لم يحن ميعادها
فتمتدّ الباحة كالأبدية،
من زاوية الى أخرى،
آلافٌ من السنين يجب ان تنقضي
قبل ان يجيء الفجر والدفء.

الأرض لمّا تزل عارية
لا تملك من الليالي رقعةً ترتديها

كي تقرع الأجراس، او تردّد،
من تلقاء نفسها، الغناء مع الجوقة.
من خميس الغسل
الى عشية عيد الفصح،
المياه تقضم ضفاف الأنهار
وتنهمك بنسج تياراتها، ودواماتها.

الغابة عارية أيضاً ومشرّعة
وطول اسبوع الآلام
تقفُ جذوع الصنوبر محتشدة
كالمصلين وقد اصطفوا للصلاة.

وفي المدينة، ليس بعيداً عن الغابة،
تنتصب الأشجار عاريةً كالعري الأول
كأنها تتهيأ لدخول الكنيسة،
متطلعةً من خلال أسوارها.
نظراتها تأخذها الدهشة،
وليس ذعرُها عسير الفهم:
الجنائن تتعدّى حدود جدرانها،
والقوانين التي تحكم الأرض قد وهنت ـ
فهناك إله يُقبر.

تلمح بريقاً على ستارة المذبح،
والغطاء الأسود والشمعدانات مصفوفة،
ووجوهاً كلها في الدموع...

ويخرج موكبٌ فجاءة
حاملا الصليب والمسيح،
قادماً نحوها. والشجرتان اللّتان
تحرسان المدخل تراجعتا

وأفسحتا له الطريق.
الموكب يطوف ساحة الكنيسة

سائراً إزاء الرصيف،
ويجلب من الشارع الى الاروقة
الربيع وتمتمات الربيع كلها،
والنسيم المضمّخ بعبق القربان
ونفحات الربيع المنعشة.

وآذار يكوّم الثلج على العتبة
ويوزعه كالصدقة بين المقعدين -
فكانما رجل حمل سفينة نوح
وفتحها ووزع كل ما فيها.

الغناء يبقى حتى مطلع الفجر.
وهمدت الأصوات، وقد انتحبت جهدها،
ازداد ترتيلها للمزامير خفوتاً
حتى بلغ قفاراً تضيئها مصابيح وحيدة.

وحينما يأتي منتصف الليل

تصمتُ المخلوقات والكائنات
عندما تسمع أن الربيع يشيع
أنه حالما يتحسن الطقس
يمكن انْ يُقهرَ الموتُ نفسه
بقوة القيامة.

الليلة السّاهرة

في رؤاي عهد بعيد:
منزل على ناحية بطرسبورج من نهر نيفا؛
انت، يا بنة ملأكة صغيرة
(ارضها في القفار البعيدة.)
تأخذين دروساً - وقد ولدت في كورسك.

جميلةٌ أنت، وعشاقك كثيرون.
وفي هذه اللَيلة الساهرة،
نتطلع من أعلى الى أسفل
ونحن نتكىء على النافذة،

المصابيح أشبه بفراشات الغاز.
والفجرُ قد ارعشنا ببرودته الأولى،
وما أرويه لك هامساً
شبيهٌ بالأبعاد النائمة.

انت وأنا في قبضة

ذلك الولاء الخجول للسرّ
الذي يقبض على بطرسبورج، وهي تنتشر كالبانوراما
فيما وراء نيفا الذين لا يُحد.
وهناك في معالم الغابات الكثيفة، البعيدة
في هذه الليلة الربيعية الشّفّافة،
تملأ القبرات تخوم الغابة
بزقزقاتِ التهليل والثناء.

غناؤها المحموم يتعالى.
والعصفور الصغير يثير بصوته
الهرج والغبطة والنشوة
في أعماق الغابة، المسحورة.

والليل يطوف عاري القدمين في هذه الأمكنة،
وينزلق على مدى الحواجز،
فتواكبه تحت النوافذ
أصداء أحاديثنا.

وإذ امتلأت بأصداء نجوانا
اشجار الكرز والتفاح
في الجنائن المسيّجة،
نوّر زهرُها.

وأسرعت الأشجار، كالأشباح البيضاء
الى الطريق،

لكي تودع الليلة الساهرة
التي رأت الكثير فيها.

دروب الربيع

كان لهيبُ شمس المغيب يخمد
والفارسُ يمضي الى مزرعة بعيدة في الأورال
على طريقٍ يبللها ندى الربيع
في غابةٍ كثيفةٍ من الصنوبر.

كان الحصان يلهث. وردّاً على
وقع حوافره المُنْعلَة
كانت البرك الدائرة تطلق صداها
فوق الطريق، وتقفو أثره.

وحين كان الفارس يُرخي العنان
ويخفف من سيره حتى الهُوينى،
كانت جداول الربيع تُرسل عالياً قربه
كل دوّيها، كل صخبها.

بعضها ضحك، بعضها بكى؛
وصار الحصى غباراً تحت وطأة الصوّان
وجذوع الشجر، وقد تخلخلت واقتُلعت،

اخذت تتهاوى في المجاري الصاخبة.

وتعالى صوت القبّرة بأغنية مذعورة
كجرس الكنيسة يُنذر بالخطر؛
بين الغصون المتشابكة القاتمة
والمغيب يحترق في البعيد.

وحيث انحنت الرّيحانة فوق الحُفرة
كأرملة تواري زوجها التراب،
كان العصفور يصفر في أعلى السنديانة
كما كانت تفعل "القبرة اللصة"(١) في سالف الزمن.

لأيّ همٍّ، لأي حبّ مضى
كان هذا الحماسُ موجّهاً،
الى من هذه المغنية
صويت هذه الطلقة الصغيرة في الغابات؟

لعلها تصبح عفريت غابةٍ
من الثوار الهاربين
نحو معاقل الأنصار
راكبين او سائرين.

الأرض والسماء، الحقل والغابة

(١) إشارة الى "القبرة اللصة" في الفولكلور الروسي .

أصغت الى كل نبرةٍ فريدة
في هذه الفلذات الموقعة من الجنون الخالص،
من الألم، من السعادة، من العذاب.

اعتراف

عادت الحياة على غير انتظار
كما انقطعت بغتةً، منذ هنيهة.
هوذا ثانيةً الشارع العتيقُ نفسهُ
هوذا نهار الصيف ذاته والساعة ذاتُها.

الجمهورُ نفسُه والمشاغل هي هَي
ولم يُطفىء الغروبُ الشُّعَلَ
التي تركتها، فيما مضى، احدى امسيات الموت
معلقةً على جدار المانيج[1].

ولاتزال النساء كما كُنَّ في أثوابٍ بالية
يمضين في الليل دائماً، يُبدن احذيتهنَّ
لكي يُصلبن، من جديد، بعد ذلك
فوق حديد السقوف.

الآن، عبرت احداهنَّ عتبة بيتها
بخطوةٍ متعبة،

---

(١) Manége ، تمثال في مركز موسكو .

انها تخرج من الكهف وتجتاز
ساحة بيتها ، وهي نصفُ ميتة.
ومن جديد ابحثُ عن الاعذار
ومن جديد لا يهمني شيء
ونظل وجهاً لوجه
وتعبرُ جارتنا المنعطف.

لا تبكي لا تعضي
شفتيك المتورمتين
واحذري ان يلتهبَ
دُمَّلُ الحمَّى الربيعية.

التيارُ يتدفق في يديك
المُلقاتين فوق صدري،
حركة واحدة
ويسقط واحدنا في ذراع الآخر.

حين تتزوجين، يُنسيك الزَّمنُ الكآبة،
فأن تكوني امرأةً وان اصير مجنوناً ـ
هذه هي المأثرة.
لكنَّ المعجزة ـ نصيبيَ
من ذراع امرأة، من كتفها ، من ظهرها ،
تأسرني الى الأبد، روحاً وجسماً.

لكن اذا سمرني الليلُ بعذابه
اريد ان امضي
فالآلامُ
هي التي تدفعني الى القطيعة.

صيف في المدينة

حديثٌ في همس.
وهي ترفع شعرها ـ كل شعرها ـ
بفارغ صبر.
وبدت، وهي تنظر من تحت مشطها الثقيل
كأمرأةٍ بخوذة.
ورأسها ،وجدائلها ، وكل شيء ،
ارتمى الى الوراء.

الليلُ الدافىء خارجاً
يُنذر بوابل المطر.
والمارّة، وهم يجرون اقدامهم،
يسرعون الى البيت.

يُسمع هزيم الرعد
ورجع صداه القوي،
وعصفُ الرّيح
يؤرجح الستائر.

ما من كلمة تكسر الصمت.
الهواء لزجٌ كما كان من قبل
والبرق، كما كان من قبل، أخذ يلمع،
يلمع في ارجاء السماء.

وعندما يطلع الصباح
مشمساً ودافئاً
ويبدأ من جديد، بتجفيف البرك
التي تركها المطر في الليلة الفائتة،

يبدو الزنزلختُ العابق
القديم العهد، لكن في أوج تفتحه،
بهيئةٍ كئيبة
لأنه لم يغرق في نومٍ عميق.

الريح

مُتُّ وأنتَ لا تزال حياً
والريح التي تبكي وتنتحب
تهزّ البيت والغابة ـ
لا تهز كل صنوبرةٍ بمفردها
بل تهزها كلها، كلَّ أشجارها
وكل أبعادها اللاَّنهائية،
كسفنٍ شراعية كبيرة في البحر
فوق ماء المرفأ، الهادىء،
وليس هذا بسبب الحيوية فقط
أو من الرعب الجامح،
بل لكي تمنح كآبتكَ
الكلمات التي تلزمُ للمرأة التي تهدهدك.

الخشخاش

نلوذ بملجأٍ من الطقس الممطر
تحت ريحانة يعرّش عليها اللبّلاب.
وفوق أكتافنا غطاء يقينا من المطر.
وذراعاي تطوقانك بشدة.

عفواً ـ لقد اخطأت.
هنا لا ينبت اللّبلاب بل الخشخاش.
لعلنا نحسن صنعاً لو اخذنا هذا الغطاء
وفرشناه سجادةً تحتنا.

صيف السانت مارتان

لأشجار الكشْمش أوراقٌ أكثر خشونةً.
يُسمع بلاطَ المطَبخ يضحك ويرنّ
حيثُ تُقطّع وتُفلفل
حيثُ تُتبّل وتُنقَع وتُخلّل.

وتلهو الغابة، اذ تبعثُ
هذه الضجّة كلّها في المنحدر
المغطى بأشجار البندق التي لفحتها الشمس
فاشقرّت تحت نار وهجها.

ونرى فيها، على مضَض، ان الأُرومات
يابسة، وان الخريفَ كنَس، كلاقط الخرق،
فضلاتها كلها في المسيلِ حيثُ تمرّ الطريق.

وأن الكونَ واأسفاه، بسيطٌ حقاً
لا يريدُ ان نظنّه خبيثاً الى هذا الحدّ،
وأن الغابة تُحس الموتَ في الروح
وان لكل شيء في الدنيا نهايته.

ونرى أنه من العبث البحث لكي نفهم
حين يحترق حولنا كل شيء
وحين ينسج الخريفُ، وهو يهجم على النوافذ،
بُخاره العنكبوتي الأبيض.

الممرّ يخترق السياج
والطريق تضيعُ في النخيل،
وعلى الضحك، وعلى الصخب في البيت
يُجيب الفضاَء البعيد كالصدى.

العرس

الضيوف توافدوا حتى الفجر
الى بيت العروس لحضور الحفلة،
عابرين وسط الساحة، ومعهم موسيقاهم.

وانقضى الليل حتى السابعة
ولم تُسمع أي همسة
من وراء الباب الموصد
لغرفة نوم السيّد.

وما ان بزغ الفجر (أحلى وقت للنوم،
وللنوم فيه الى الأبد)
حتى صدحت الموسيقا
مرة ثانية، عند الوداع.

وصدحت الهارمونيكا أيضاً
أنغامها العادية
وزاد في الضجة
عناق الأيادي ورنين العقود.

وللمرة الثانية والثالثة والرابعة
كانت القهقهات الصارخة
وهرج الضيوف
تدخل الى غرفة النوم،

بينما أخذت فتاةٌ، بيضاء كالثلج،
ترقص رقصة الطاووس ثانية
على أصوات الهتاف والصفير
فتنزلق بخصر متمايل،

ورأسٍ شامخ الى العلاء
ويدٍ يمنى ملوّحة
وهي ترقص عجلى على البلاطِ
كطاووس، مجرد طاووس.

وفجأة تلاشى الضجيج والعجيج
والرقص المرح الهازج
كأنما تثاءب الجحيم
أو فغرت المياه فاها.

واستفاقت ساحة الدار بضوضائها
وامتزج ضجيج العمل اليومي
مع صخب الكلام
وقهقهات الضحك.

وارتفعت الى الفضاء الأعلى
زوابع ذات بقعٍ رمادية:
أسرابٌ من الحمام تطير
سراعاً من بيوتها.

كما لو ان أمرءاً نائماً استيقظ
لإطلاق
طيورٍ تحمل تمنيات عمر طويل
ليلحق بالعرس.

فما الحياة أيضاً الا هنيهة،
إلا إذابة نفوسنا
في نفوس الآخرين
كأننا نُعطي هبة ـ

إلا صخب العرس
متصاعداً من خلال النوافذ
إلا أغنية، إلا حلماً،
إلا حمامةً رمادية.

الخريف

تفرّق أهلي جميعاً
وهاموا على وجوههم.
الوحدةُ الأليفة
تملأ قلبي وتملأ الطبيعة.

وها نحن في الكوخ،
نحن الاثنين وحدنا في الغابة المقفرة،
والممرّات نصفُ دفينةٍ تحت العشب.

الآن، تُشفق علينا نحن الاثنين
جدرانُ الحطب.
لم نَعد بالمآثر
فسوفَ نموت جهاراً.

سأجلس من الآن الى ثلاث ساعات
وأقرأ، بينما أنت تطرّزين،
وفي الصباح تنقطَع قبلاتُنا
دون ان ندري.

أيها الفيْضُ البعيدُ عن الهمّ
أيتها الأوراقُ ضُجّي وانتشري
وخَلي كأس السهر المريرة
تطفح بالعذاب.

يا حبّ، يا سحر، يا جاذبية
ليغمرنا أيلول وصخبه،
وفي ضوضاء الخريف
ضيعي وتهالكي، أو تيهي.

تتعرّين من ثوبك
كما تتعرّى غابتُنا من أوراقها،
حين أرشقك بين يديّ
وأنتِ في مئزركِ ذي الطُّرَز الحريرية.

أنتِ ملك خطوةٍ مشؤومة
حينَ تستلهمُ الحياة القرَف
ويولد الجمال من الجرأة.
ذلك ما يجذبنا ـ فينا.

خرافة

كان في قديم الزمان
في مملكة الجن
فارس يحثّ جواده
في مرجٍ من الزهور.

كان يتوق كثيراً
للدخول في معركة،
ولكنه ابصر خلال الغبار
غابةً أمامه.

اخذ هاجس ملحاحُ
يتأكل قلبه الجريء
(حذارِ حفرة الماء ـ
شدّ حزام صهوتك!)

لكن الفارس لم يُصغ
بل لكزَ حصانه

وراح يسابق الريح
في طريق الغابة.

ومنَ هذا القفر المغلق
بلغ قاع نهرٍ جافّ،
ثم دار حول احد المروج
وعبر الجبل.

وهبط في وادٍ
واتخذّ طريق الغابة
فصادف حيواناً
قرب حفرة ماء.

وإذ صمّ اذنيه عن التحذير
ولم يصغِ لصوت قلبه
قاد حصانه في المنحدر
ليسقيه من الجدول.

كان قرب الجدول كهف فاغر الشدق،
وأمامه ممرٌ فوق الماء
وكانت حجارة الكلس المحترقة
تضيء باب الكهف.

ومن وراء الدخان القرمزي
الذي حجب كل شيءٍ عن النّظر

تردّد صدى صرخة بعيدة
بين الاشجار العالية.

وإذ أخذته الدهشة
اندفع الى الأمام
راكضاً عبر السهل
ملبيّاً نداء النّجدة.
وأبصر الفارس هناك
رأس تنين رهيب
وحراشيفه وذنبه -
فقبض على حربته.

كان التنين ينشر النار
كالبذور من فمه المشتعل.
وكان يلتفّ ثلاثاً
حول فتاة.

وكان عنق التنين الهائل
يتلوى كطرف السوط
فوق الكتفين الناصعتين
لأسيرته الحسناء.

فمن عادة تلك البلاد
ان تمنح تنين الغابة هذا
صبية جميلة

فريسةً له.

وكان سكان ذلك القفر
يؤدون هذه الضريبة
لينقذوا اكواخهم وبيوتهم البائسة
من غضب ذلك التنين.

كان جسده يلفّ ذراعيها
ويدور حول عنقها:
لقد رضي بهذه الضحية
ليعذبها كما يشاء.
ورفع الفارس عينيه الى السماء
يلتمسُ العون
وإذ تهيأ للمعركة
صوّب الى التنين حربته.

أجفان مطبقة
قمم شاهقة. وغيوم.
مياه. جسور. وانهارٌ.
سنوات. وأجيالٌ لا تحصى

ها هو الفارس على الأرض
بخوذته المحطّمة
وحوافر حصانه الأمين
تُزهق روح التنّين.

وسرعان ما تمددت على التراب
جُثتا التنين والحصان
والفارسُ مجندلٌ فاقد الوعي
والحسناء في غيبوبة.

كان القمر في الفضاء
يبعث شعاعاً أزرق
من تُرى هذه الفتاة، أميرة؟
أهي من العامة؟ أم من سلالةِ الملوك؟
وسالت دموعُ الفرح
جداولَ على خديها،
وسرعان ما سيطر عليها
النسيانُ والنعاس.

وعاد للفارس وعيه
لكنه لم يستطع حراكاً -
ما أكثر ما نزف دمُه
ولكم خارت قواه.

ولكن قلبيهما خفقا
وكلما حاول كلاهما
جهده ليستفيق
عاد الى النوم ثانية.

أجفانٌ مطبقة

قمم شاهقة، وغيوم.
مياهٌ. جسورٌ. وأنهارٌ.
سنوات. وأجيال لا تحصى.

آب

الشمس، وقد برت بوعدها دون خداع،
دخلت باكراً في الصبّاح،
تجرّ ذيلاً من الزعفران
من ستارة النافذة الى المقعد.

والشمس ذاتها صبغت بالأصفر الغامق
اشجار الغاب القريب، منازل القرى
فراشي، مخدتي المبللة
زاوية الحائط عند مكتبي.

تذكّرتُ السبب الأصليّ
الذي تبللت من أجله مخدتي.
حلمتُ انكم جميعاً تجرون بعضكم بعضاً
بين اشجار الغاب، آتين لوداعي.

كنتم كثيرين، لكنْ شاردون. وفجأةً
احدكم تذكر: بحسب التقليد القديم
كان السادس من آب ـ

عيد التجلي.

والعادة في هذا اليوم ان يُشرق بلا لهب
نورٌ من جبل طابور، والخريف،
وقد شعشع كالذهب
جذب الانظار بعديد امجاده.

وإن كنتم تعبرون ارض العليق
تلك البائسة، المعرّاة، الواجفة
وتخلون حديقة المقبرة
بأشجارها الحمراء الفاقعة، بلون رغيف القرنفل.

وكان الفضاء يحنو بغنج
متقرّباً من رؤوس الشجر
بينما كانت الارجاء تضجّ
بصياح الديكة، الكثير.

وكان الموت واقفاً كمن يقيس الأرض
في غابة الله هذه،وهو يحدق
بوجهي الذي لا حياة فيه، كأنما يفكر
كيف يحضر لي قبراً على قياسي.

وسمعتم جميعكم (لا بداخلكم، بل بآذانكم)
همس واحدٍ بجانبكم.
كان هذا صوتي فيما مضى صوتي النبويّ

يتعالى الآن ولم يفسده الموت:

"وداعاً يا لازورد التجلي
ويا ذهَب المجيء الثاني
خفف، بقبلة اخيرة من امرأة،
لوعة هذه الساعة المقدّرة.
وداعاً يا سنوات الخلود.
لنفترق، انت يا من رميت
بقفازك الانثوي في هاوية الهوان:
إنني جلبة عنائك.

وداعاً أيتها الاجنحة المبسوطة،
وداعاً يا ارادة الصعود
ويا صورة العالم التي تجلت بالكلمة
وداعاً ايها الخلق، يا صنع المعجزات."

ليلة شتائية

تساقط الثلج، تساقط فوق العالم كله،
من اقصاه الى اقصاه،
وعلى الطاولة شمعة تحترق؛
شمعة تحترق.

كما تحوم الفراشات في الصيف
وتضرب باجنحتها الشعلة،
هكذا حام الثلج خارج الدار
يضرب بندائفه الشباك.

والجليد قد نحت على الزجاج
رسوم سهامٍ ومغازل،
وعلى الطاولة شمعة تحترق؛
شمعة تحترق.

والظلال المشوّهة وقعت
على السقف المضاء:
ظلال اذرعٍ تتعانق، وسيقان -

ظلال عناق المصير.

وسقط على الأرض حذاءان
بوقعٍ خفيف.
والشمعة قرب السرير ذرفت دموعها
على ثوب هناك.

كل شيء تلاشى في
ظلمة الثلج - ابيضٌ، فضيّ.
وعلى الطاولة شمعة تحترق،
شمعة تحترق.

وهبت نسمة من الزاوية
تحرّك الشعلة. وحرارة التجربة البيضاء
أطارت اجنحتها الملائكية التي
ألقت ظلاً صليبيًا.

وانهمر الثلج طوال الشهر،
بدون انقطاع،
وعلى الطاولة شمعة تحترق؛
شمعة تحترق.

فراق

الرجل يحدق في العتبة
فلا يعرف بيته
كان ذهابها كالهرب
فأثر الفوضى في كل مكان،

كان يخيم على كل الغرف،
فلم يتبين الخراب الذي حلّ
فعيناه أعمتهما الدموع
ورأسُه في دوار.

منذ الصّباح والطنين يملأ اذنيه،
أفي يقظةٍ هو، ام في حلم مزعج؟
ولِمَ الأفكارُ عن البحر
تظَلّ تخطر في باله؟

حين لا يعود المرء يبصر النهار
لتراكم الجليد على النافذة
يتضاعف قنوط الاسى

كرحاب البحر الفسيحة.
قرّب اليه كلّ اثر لها
كالبحر يقرّب اليه
كلّ طرف من اطرافه
على طول مدّه الآتي.

وكما تغرق جذوع النبات
في الموج بعد العاصفة،
هكذا كل ملمح لها
قد غار في عمق اعماق نفسه.

في سنوات الشقاء، في ايام
الوجود المستحيل،
قُذفت من الاعماق
بموجة المصير، العارمة.

ووسط الاخطار التي لا تُعدّ،
حملتها الأمواج رويداً رويداً
وقد تجنبت كل شاطى وضفّة،
وقرّبتها.

والآن، ها هي تهرب.
لعلها كانت مرغمة،
هذا الفراق سيعلّهما كليهما
ويقضم الاسى ضلوعهما.

عيناه تتمليان كل شيء.
ففي لحظة ذهابها
قلبت ادراج خزائنها
رأساً على عقب.
وتمشّى تائهاً والى ان حلّ الظلام
ظلّ يملأ احد الادراج
ببقايا الثياب المبعثرة
والنماذج المدعوكة.

واذ وخزت يده إبرة
في ثوب لم تكتمل خياطته
رآها كلها فجاءة،
فارتمى ينتحب بهدوء.

لقاء

الثلج سيغطّي الدروب
سيغمر السطوح كثيفاً
فلو خرجت لأتمشى
سأراك من الباب.

وحيدة بمعطفك الخريفيّ،
لا قبعة ولا حذاء ثلج؛
تحاولين ان تكوني هادئة
وانتِ ترضعين شفتيك المبللتين بالثلج.

الأشجار والاسوار البعيدة
تتوارى في الظلمة،
وأنت تقفين في الزاوية
وحيدة تحت الثلج المتساقط.

الماء يسيل على شالك،
داخل أكمامك، ياقتك،

والثلج الذائب يلمع
كقطرات الندى على شعرك.

وندفةٌ منه تنير
وجهَك، شالك،
قامتك الهيفاء الجريئة،
وسترتك التعيسة البائسة.

الثلج يذوب فوق جفونك
والحزنُ في عينيك
كأنما كلك قد صُنعتِ
من قطعةٍ واحدة.

كأن هيئتك
قد نُقشت الى الأبد
بآسيدٍ قويّ
على قلبي.

فلا شيء يقوى ابداً
على محو صورتك المستسلمة.
فما همّ إذاً
ان قلب العالم من حجر؟

وهكذا يتضاعف الليل
بكل ظلمته وثلجه

وانا لا أستطيع ان أرسم خطّاً
يفصل بينك وبيني

إذ من نحنُ، ومن أين،
اذا كانت بعد كل هذه السنين،
تستمرّ الشائعات، دوننا،
في عالم البقاء.

نجمة الميلاد

انه الشتاء
الريح تهبّ فوق المنحدر
والطقس بارد يلسع الصبي
في المغارة على سفح الرابية.

ادفأته انفاس الثور،
وحيوانات المزرعة
مزروبة في المغارة،
والضباب الساخن يغمر المزود

وبعيون لا تزال نصف نائمة حدق الرعاة
من سطح الصخرة الى المسافة المرئية في نصف الليل،
منتفضين من جلود الاغنام
وحزم القش التي صُنعت منها فرشهم.

في البعيد حقل مغطى بالثلج، ومقبرة،
وسياجات، وحجارة قبور رخامية،
وعربة غارقة في كوم الثلج

والسماء فوق المقبرة مليئة بالنجوم.
وفي القريب نجمة تشع في طريقها الى بيت لحم
نجمة لم تظهر قبل الآن، انها اكثر خجلاً
من البصيص في نافذة
كوخ حارس ليلي.

التهبت النجمة كالقش اليابس على بيدر،
وكأنما في انفصالها عن السماء
وعن الله؛
شعت مثل مزرعة تحترق.

ارتفعت النجمة مثل حزمة
من القش تلتهب
وادهش العالم
منظرها الجديد

كان لهيبها المجمر
اشارة. ولبى الثلاثة المحدقون
بالنجمة دعوة نورها
الذي لم يسبق له مثيل.

وتبعتهم الجمال محملة بالهدايا
وانحدرت الحمير المسرجة، الواحد اصغر من الآخر.
عن التلة بخيلاء

وفي رؤيا غريبة ظهرت جميع الازمنة التي ستأتي
واضحة أمامهم:
جميع الافكار، والآمال، وعوالم الأجيال،
ومستقبل اروقة الفن والمتاحف،
جميع ألاعيب الجن واعمال السحرة،
جميع اشجار عيد الميلاد وجميع احلام الاطفال:
الشمعات المتألقة، وسلاسل الورق،
والنسيج المزخرف البهي...
... ونفخت الريح اكثر غضباً واكثر شراً
فوق المنحدر...
... جميع التفاحات والفقاقيع الذهبية
وخبأ شجر الحور بعض البركة.
غير ان الرعاة، من حيث وقفوا،
استطاعوا ان يروا جزءاً منها بين اعشاش الغربان
في رؤوس الشجر.
راقبوا الجمال والحمير تحاذي البركة.
وقالوا "دعونا نذهب مع الآخرين"،
ولفوا أجسادهم بجلود الاغنام،
"دعونا نسجد للاعجوبة"

وسرى الدم الحار في عروقهم لكثرة مشيهم المتثاقل في الثلج.
وفي السهل اللامع آثار اقدام،
تحيط بالكوخ وهي تشعّ كالزجاج.
وفي نور النجمة نبحت كلاب الاغنام لهذه الآثار،
كأنها اطراف شموع تحترق:

كانت الليلة المجلدة كحكاية جنية.
واستمرت كائنات غير مرئية تنحدر
من المرتفعات الثلجية ملتحقة بالجموع.
وتبعتهم الكلاب، متطلعة حولها بتفهم؛
ورافقت اصغر الرعيان، كأنما تنتظر
حدوث اضطراب.

ومشت عدة ملائكة بين الجموع
في تلك الضاحية نفسها، والطريق نفسه.
كائنات لا اجساد لها، وغير مرئية؛
خطواتها فقط تركت اثراً.
وتجمهرت الجموع قرب حجر امام المدخل.
الصبح بدأ يلوح، اصبحت جذوع الارز واضحة.
وسألت مريم: "من انتم"
"نحن رعاة ومرسلون من السماء.
جئنا نمجّد كلاً منكما."
"لا يمكن ان تدخلوا دفعة واحدة. انتظروا قليلاً
قرب الباب."

الرعاة يتمشون حول المكان
في الغسق الرمادي قبل الفجر
وحول جرن الماء الخشبي
ترجّل الركب واقسم الفرسان فيما بينهم،
الجمال تزمجر والحمير تلبط.

الصبح بدأ يلوح. وكنس الفجر بقية النجوم
من السماء كما يكنس الرماد.
ومن بين الجموع الكبيرة سمحت مريم
للحكماء فقط بالدخول الى المغارة الصخرية.
كان راقداً في المزود السندياني،
يشع كضوء القمر من خلال شجرة
وادفأته شفتا حمار ومنخر ثور
بدلاً من جلد الغنم.

وقف المجوس في الظل
يتهامسون، نادراً ما يجدون الكلمات.
وفجأة، امتدت يد من الظلمة،
وازاحت احدهم جانباً الى يسار المزود
وتطلّع حوله. نجمة الميلاد في الباب كالضيف
تحدق بالعذراء.

الفجر

لم يكن مصيري شيئاً بدونك.
ثم جاءت الحربُ والانقاض،
لم أعرف عنك شيئاً، لزمن طويل
لم تترك أي اشارة.

مرّ الزمن لكن الآنَ
يعود صوتك ويهتف بي.
لقد أعادني الى رشدي
ليلٌ سهرته مع وصيّتك.

أريد ان أختلط بالناس
بحيويتهم في مطلع الفجر.
انني مستعدّ لامزق الأشياء كل مُمزّق،
لاخضعِ كل فرد.

أهبط السلّم وأخرج
فأحسبها اكتشافاً

تلك الارصفة الميتة التي يغطيها الثلج
وهذه المرتفعات المقفرة أيضاً.

كل شيء ينهض، يُشعل الناس نارهم بصمت،
يشربون شايهم، يُسرعون الى الحافلة،
يتغيّر وجه المدينة.

الريح تجدل في الابواب المغلقة
شباكاً من كتلها الثلجية الكثيفة الخيوط،
والكل يستعجلون دون أن ينهوا طعامهم
لكي لا يفوتهم الوقت.

أشعر بكل ما يشعرون به
كما لو كنتُ مكانهم.
وأذوب كما يذوب الثلج
وأقطّب الحواجبَ كالفجر.

أناسٌ لا اسم لهم قريبون مني
وحولي أشجارٌ واطفال وقاعدون.
هؤلاء جميعاً يتفوّقون عليّ
وهذا هو وحده انتصاري.

المعجزة

كان ذاهباً الى القدس من بيت عانا
ترهقه المشاعر الكئيبة.

كانت شجيرات الورد تحترق على الرابية
والدخان ثابت فوق كوخ صغير،
والهواء ملتهبٌ والقصبُ صامت،
وكان هدوء البحر الميت شاملاً.

هوذا يسيرُ أليماً كهذا البحر الأليم
وتحت خطواته تتصاعد غيمة
فوق الطريق الغبارية. كان يمضي الى المدينة
حيث ينتظره التلامذة.

استسلم لعذابه العميق
ولم تكن الأرض، بالنسبة له، إلا رائحة الإفسنتين،
كل شيء يصمت، والمسيحُ وحيدٌ في البرية
والبرية كلها دون شعور.

كان كل شيء قد امتزج: الحرارة والصحراء
والحراذين والينابيع والجداول.

رأى المسيحُ شجرة تينٍ في طريقه
لم تكن تتدلى أي ثمرة بين أوراقها الذابلة.
وقال المسيح لشجرة التين: "ماذا تستطيعين ان تُفيدي
أي غبطةٍ تبعثينها في هذا العُري؟
لا تستطيعين ان تقدّمي شيئاً لظمأي وجوعي
فأنت عقيمة ككتلةٍ من الصّوان،
فيا لَلخراب والبؤس.
هكذا ستبقين الى نهاية العصور".

هزت اللعنة شجرة التين
كمترسة الصاعقة وقد هزّها البرق الخاطف،
وصارت الشجرة المصعوقة كالحجرة.

بلى، لو كان هناك أقل حرية
في الأوراق والجذوع والأغصان والجذور،
لكانت تحركت قوانين الطبيعة.
لكن هكذا كانت المعجزة، والمعجزة هي الله.
في صميم حسرتنا، في تبلبلنا
يبني علينا، ويُميتنا، على حين غُرّة.

الأرض

الربيع يدخل عاتياً
الى منازل موسكو القديمة
ويبدّد العُثّ كله
في الخزائن، حيث المعاطفُ
تهجرُ قبّعات الصيف.

وعلى امتداد السطوح الخشبية
تصطف أواني الزهور
من بنفسج أصفر وقرنفل،
والهواء أندى في الغرف
وهو أكثر غباراً في الأهراء.

الرصيف يتحدثُ بألفة
الى النافذة التي لا تكاد تُبصر
وتمضي الشمس الغاربة وعشية الصيف
للّقاء عند النبع.

والممرّ البسيطُ بين الممرّات
يُعيد ما يقوله الفضاءُ كله.
الممرّ الذي يعرفنا جيداً
نحن الرجال المساكين، ويعرف آلامنا
يُعيد أحاديث نيسان العرَضية
في غناء المزاريب،
والفجرُ فوق الأسيجة
كأنه يريدُ أن يخلد.

اللهبُ والرعب يختلطان
خارج البيوت وداخلها،
والريح أنّى مضيتَ كالمجنونة،
وأنّى مضيت أغصان من الصفصاف
وبراعمُ شامخة
في السهل كما في النوافذ
في الشارع وفي المشغَل.

إذا كان الأُفق الضبابيّ ينتحب
إذا كانت رائحة السماء لاذعة،
فأنا هنا لكي أجمعَ قلوبَ
البعيدين في وحدتهم،
أنا هنا لكي أزيل ضجَر
الأرض وراء الضواحي.

وإذا اجتمع أصدقائي عندي

في عودة الربيع
لضيافة أو سهرة
تشبهان الوداع،
فلأنّ كل وجودٍ يخلقُ
حرارته بقليلٍ من الألم.

أيام الشر

عندما دخل اوروشليم
في الاسبوع الفائت
ارتفعت اصوات الجموع كالرعد تسبّح اوصنّا
وركضت وراءه حاملة الأغصان.

كل يوم كان اقسى واخطر مما سبقه
فالقلوب لم تحركها المحبة،
والحواجب عبست باحتقار؛
لقد اقتربت الخاتمة، النهاية

جثمت السماوات على السطوح
بكل ما فيها من اثقال.
وتملقه الفريسيون كالثعالب
باحثين عن أدلة.

واسلمته القوى السوداء في الهيكل
الى الغوغاء يحاكمونه.
بذلك الحماس الذي هتفوا له

شتموه الآن.
تجمَّع الجمهور في الخارج،
وتطلع من شقوق الابواب،
وتزاحم منتظراً النتيجة
وتدافع الى الامام والوراء.

سرت وشوشة في الجوار
وتسربت الاشاعات من كل جهة
وتذكر الآن كأنما في حلم
هربه الى مصر وطفولته.

تذكر الجبل الشاهق في البرية،
وذلك السفح المهيب،
حيث جربه الشيطان
عارضاً عليه ممالك العالم:

وتذكر العرس في قانا
والجموع تندهش امام العجيبة،
والبحر الذي مشى على صفحته
في الضباب الى المركب، كأنما يسير في البر:

وتذكّر تجمع الفقراء في زريبة،
والهبوط الى القبو تنير الطريق شمعة،
والشمعة تشهق بخوف وتنطفئ
عندما قام الرجل من الموت.

مريم المجدلية (١)

حين يهبط المساء، يهبط شيطاني
ويذكرني بديوني القديمة،
فيتفتح قلبي، كل ليلة، وينزف
لذكرى شقائي،
لذكرى الذين استعبدوني
لخطاياي، لجنوني
لذكرى الشوارع التي كنتُ أُمضي لياليٌ فيها.
سيصبح الصَّمتُ رهيباً
في قليلٍ من الوقت، في لحظة،
لكنني أُريد في اقصر وقت،
ان اعرض امامك
حياتي كلها وأكسر
عند قدميك هذا الاناء الرخامي.
آه، يا سيدي ومخلصي، ما هو مصيري بدونك
بدون الابدية الخالدة
التي كانت تنتظرني قرب سريري
طول الليالي

كمن وقع في شباكي؟
لكن، قل لي ما هي الخطيئة
ما هو الموت، ما هي الجحيمُ ونيرانُها؟
ألستُ، في عيون الجميع، مرتبطة بك،
كما يرتبط الغصن بالشجرة؟

وربما، حين كنتُ يا سيدي احضنُ قدميك
كنتُ أتدرَّب كيف اعانقُ
الصليب الذي ستُسمَّر عليه.
جسدُك الذي ادنو منه، وانا ارتجف،
غداً اوسّده اللحد.

مريم المجدلية (٢)

الناس يهيئون العيد في المدينة،
وأنا، يا سيّدي، بعيداً عن الزّحام والضجة،
أريد ان اسكب على قدميك
هذه القارورة الملأى بالمُرّ.

لا اعرف اين وضعتُ حذاءك
فالدموع تحجبُ عيني
وخُصل شعري المحلولة
تسقط فوق جبهتي كالغطاء.

سالت دموعي على قدميك.
قدماك اللتان احضنهما فوق ركبتيّ
وتغطيهما لآلئ عقدي
ضاعتا واختفتا في شعري.

ألمحُ المستقبلَ جليّاً
كما لو انك اوقفته،
انّ لي، الآن، صوت العرّافات

واستطيع ان اتنبأ مثلهن.
سيُسدل الستار في الهيكل
ويبتعد اصدقاؤك، واحداً اثر واحد؛
ان الارض ترتجف تحت اقدامنا
لأن ألمي يُوقظ فيها الحنوّ.

اجتمعت صفوف الحرَس
ومضى الفرسانُ في دوريّة،
وفوق رؤوسنا يطيرُ هذا الصليبُ
كاعصارٍ، الى السماء.

وأنطرحُ قربَ الصَّليب
نصفَ ميتة، آكل شفتيْ:
ذراعاك مفتوحتان، في الأعلى،
لعناقٍ كبير فسيح.

لأجل من، على الأرض، هذه العظمة
وهذا الألم وهذه القوّة؟
ما أفقر العالم في الحياة والروح،
في الغابات والانهار والمدن.

لكن الايام الثلاثة التي عليَّ ان احياها
ستُلقيني، يا سيدي، في الفراغ
وسأتعلّم ثقل غيابك
وثمن بعثك.

حديقة جيثّيماني

كانت نظرة النجوم البعيدة، الباردة
تضيىء منعطف الطريق
وكان الزيتون يغطي الجبل
وقدرون يجري في غور الوادي.

كان الانحدارُ منكسراً
والمجرّة تبدأ بالظهور.
وكانت الاشجار الفضيّة، اشجار الزيتون
كأنها تريد ان تهرب، ان تضيع في الأفق.

وفي الأعلى، قريباً من سور بستان
على الطريق، ترك تلاميذه
وقال: "نفسي حزينة جداً حتى الموت.
امكثوا ها هنا واسهروا معي."

وتجرّد بلا مقاومة
من قوته ومن هبة المعجزة،

كما يرفض المرء ملكاً زائلاً،
كان وحيداً، فانياً، مثلنا.
وتراءى الأفق الأسود كأنه صورة
الفراغ والموت
فكأن الفضاء كله استسلم للعدم.
هذه الحديقة وحدها، كانت مكاناً حياً.

وكان، وهو يتأمل هذه المهاوي المقفرة
والهوّة السوداء التي لا يحدّها شيء،
يتقطَّر دماً، يتضرّع الى الأب،
كي تعبر عنه كأسُ الموت.

حين خفَّفت الصلاة عذابه،
خرج من الحديقة. وكان تلاميذه
نائمين كلهم، قرب الطريق
في عشب الخندق.

أيقظهم، وقال لهم: "ناموا
الآن واستريحوا. هوذا
الساعة قد اقتربت،
وابن الانسان يُسلم الى ايدي الخُطاة."

وفيما هو يتكلم إذا يهوذا
قد جاء ومعه جمعٌ كثير
من العبيد، بسيوف وعصي

ومشاعل.

واستلّ بطرس سيفه
وضرب رجلاً وقطع أذنه.
إذّاك قال له يسوع: "سلاحك لا يُجدي
فردّ سيفك الى مكانه.
أتظنّ أني لا أستطيع الآن ان أطلب الى أبي
فيقدّم لي اكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة؟
وحينذاك ترى اعدائي
يتبدّدون ولا يجرؤون على لمسي.

لكنّ هذه الصفحة في كتاب الحياة
هي أقدس الصفحات وأسماها
فليتمّ ما هو مكتوب
ولتكن مشيئته.

ألا ترى ان انقضاء الدّهر هو كأحد الأمثال
وأنه في انقضائه قد ينفجر الى لهب،
إذاً، باسم جلاله العظيم،
اهبط قبري واختار العذاب.

سأهبط قبري. وفي اليوم الثالث اقوم ثانية
وكما تعوم الاطواف في مجرى النهر
هكذا تعوم الاجيال، في تقاطر القافلة،
آتيةً إليّ من الظلمة، لأدينها."

الفهرس

بوريس باسترناك

نوبل 1958

بوريس ليونيدوفيتش باسترناك
(موسكو، 1890 - 1960) كان كاتب و شاعر و روائى يهودى روسى.
كان من انصار الحركه المستقبليه
لكن موهبته الأدبيه بتتجاوز حد التصنيف.
كتب قصتين شعريتين هما "سبكتورسكى" (1926

و "سنة 1905" (1927).

اول رواياته "دكتور زيفاجو"
و هى ملحمه عظيمه حكى فيها عن فترة الثوره الروسيه
اتعرضت لإنتقادات

نال جايزة نوبل فى الأدب سنة 1958
توفي عام 1960